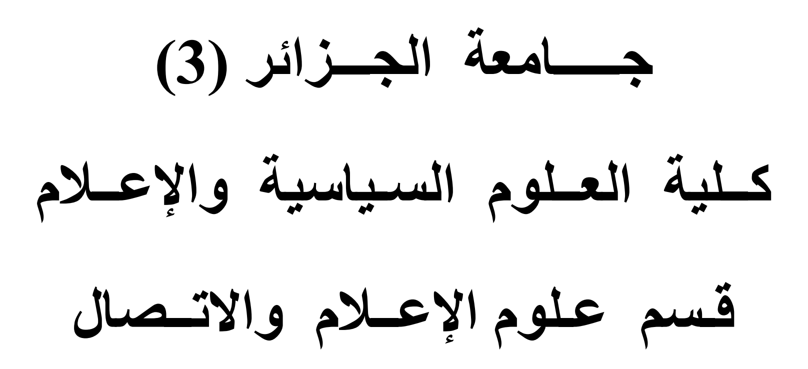



جــــامعة الجــزائر (3)

كــلية العــلوم السياسيــة والإعــلام

قسم علوم الإعــلام والاتــصال


# الفكر الإصلاحي لعمر بن قدور الجزائري دراسة تحليلية لمقالاته الصحفية 1906 - 1927

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال


إعـداد الطـالب:
ساحل عبد الحميد

إشراف الأستاذ:
د/ عـــزة عـــجان


السنة الجامعية : 2011 – 2012 م

جـامعة الجـزائر (3)

كـلية العـلوم السـياسية والإعـلام

قسم علوم الإعـلام والاتــصال

# الفكر الإصلاحي لعمر بن قدور الجزائري دراسة تحليلية لمقالاته الصحفية 1906 - 1927

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال

إعـداد الطـالب:
ساحل عبد الحميد

إشراف الأستاذ:
د/ عـــزة عـــجان

أعـــضاء لجنة المنـاقشة

| | |
|---|---|
| أ.د/ مهدي زعموم | رئيسا |
| أ.د/ عزّة عجّان | مقررا |
| أ.د/ حسن بومالي | عضوا |
| أ.د/ سمير لعرج | عضوا |
| أ.د/ نور الدين تواتي | عضوا |

السنة الجامعية : 2011 – 2012 م

# الإهداء

إلى أمّي وأبي

إلى زوجتي وأبنائي عثمان ونجيب وشكيب

إلى إخوتي وأختيّ

# شكر وعرفان

أقدّم كامل عرفاني وشكري إلى الأستاذ الدكتور عزّة عجان الذي أظهر سعة أفقه المعرفي ورحابة صدره الأكاديمي في متابعة خطواتي البحثية في هذه الأطروحة.

فإليه أوجّه تقديري لإشرافه الأكاديمي، وا  الموفّق لما فيه الخير والسداد

# مــقـدمـة

**مقدمة:**

تحاول هذه الدراسة الكشف عن منتوج فكري إصلاحي لشخصية صحافية رائدة ليس فقط في الجزائر وإنّما أيضا في العالم العربي، برزت إعلاميًا في بدايات القرن العشرين، قبل الحرب العالمية الأولى، إنّها تتمثّل في الصحافي والمفكّر عمر بن قدور الجزائري (1886- 1932)، الذي قدّم، كما سنرى في دراستنا هذه، مساهمة إعلامية وفكرية لمشروع النهضة والتقدّم بالجزائر، والتي تبقى أيضا جزءً من النتاج والتراث الفكري المعاصر في هذا المنظور على مستوى العالم العربي. إنّ جهوده أيضا تشكل لحظة تاريخية هامّة لنتاجات صحافية جزائرية راقية ذات شحنة دلالية قبل الحرب العالمية الأولى، من حيث المقاربة التحليلية لها من هذه الزاوية، بالرغم من ضغوط البيئة الاستعمارية المميّزة للواقع الجزائري. هذه البيئة التي لم تكن تسمح بوجود مساحات أو فضاءات تعبيرية للتفكير في سبيل التغيير. خاصّة وأن الوسط الاستعماري بتركيبه، كان متخوّفًا من أي مسلم جزائري متعلّم أو مثقّف، فما بالك إذا كان هذا المثقّف المتنوّر صحافيًا مراسلاً أو صاحب جريدة.

زيادة على هذا، حتى الوسط الإسلامي الجزائري آنذاك، الذي كان في حالة اجتماعية وأخلاقية تعيسة، حيث استدعت من شخصية دراستنا ضرورة التيقّظ والوعي بها، حتى تشكّل دفعًا وعاملاً للتغيير والنهوض من أجل البقاء، الذي هو رهان آني ومستقبلي للأمّة الجزائرية، فإنّ هذا الوسط كان أيضا واجهة نضال إعلامي وتنويري، لأنّه كان يتضمّن تيارًا مناهضًا للتغيير والإصلاح، أطلقت عليه شخصية دراستنا عبـارة: "حزب التأخّر المعارض ".

إنّ هذه الدراسة تسلّط الضوء وتكشف ملامح وجهود شخصية لم يتّم إنصافها فكريًا ولا تاريخيًا، سواء على المستوى الجزائري، بحيث لا زالت الدراسات تتوالى وتنوّه بما هو شائع حول التراث الفكري الإصلاحي المعاصر، الذي يجري تناوله في سياق حركية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست سنة 1931.

أمّا على مستوى العالم العربي، فالتراكم المعرفي الذي لاحظناه أطلعنا على غياب المساهمة الفكرية والإعلامية لعمر بن قدور الجزائري، بالرّغم من الطّرح التنويري

الفكرية والإعلامية لعمر بن قدور الجزائري، بالرّغم من الطّرح التنويري لإشكاليات النهضة والتقدّم والتخلّف والانحطاط، ولقضايا أخرى ذات أبعاد أخلاقية وحتى سياسية.

مراجعة بعض الدراسات التالية، يمكن الاستدلال بها على نما نراه، على سبيل المثال: " الاتجاهات الفكرية ما عند العرب في عصر النهضة (1798- 1914) [1]، "الفكر العربي في عصر النهضة (1728- 1939)[2]، " حصيلة العقلانية والتنوير في الفكر العربي المعاصر "[3] أو دراسة: " إشكاليات النهوض في الفكر العربي الحديث "[4].

إنّ مثل هذه المراجعة تجعلنا نتحمّس أكثر، لإبراز وتحليل هذه النتاجات الصحفية الهامّة، الذي كما سنرى، يقدّم فيها رؤية ومفاهيم خاصة به، تعكس مرجعية فكرية وعقائدية ثابتة، ونابعة من بيئة جزائرية، إبّان الفترة الاستعمارية. فإذن هو مكوّن فكري تاريخي وراهن، في انبثاق الممارسة الإصلاحية التنويرية، من خلال الصحافة، ومسار أصيل يحتاج إلى الكشف والتوسّع التحليل المعرفي.

فما هي الجوانب الموضوعاتية للأبعاد الفكرية الإصلاحية والتنويرية المتضمّنة في المقالات الصحافية لعمر بن قدور الجزائري، والتي تعكس مسار ممارسته الصحافية ونتاجه عبر سنوات عدّة، وفي سياق بيئة استعمارية ذات خصوصية ؟.

ويمكن أن تتفرّع من هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات وهي:

- ما هي ملامح هذه البيئة الاستعمارية، من حيث الأوضاع السياسية والاجتماعية والقانونية المحيطة بظروف الممارسة الصحافية لعمر بن قدور الجزائري ؟
- ما هي الخطوط العريضة التي تعكس مساره في الممارسة الصحافية وحتى التعليمية ؟
- فيما تتمثّل مرتكزات البعد الفكري الإصلاحي العقائدي ؟
- ما هي مرتكزات البعد الفكري الأخلاقي ؟

---

(1) – للدكتور على المحافظة، بيروت 1987.

(2) – تأليف: ألبير حوراني- ترجمة: كريم عزقول- دار نوفل- بيروت 1997.

(3) – ندوة فكرية- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت 2005.

(4) – للدكتور سامي الشيخ في: مجلّة الفكر السياسي – العدد 25- دمشق 2006.

- ما هي ملامح البعد الفكري الاجتماعي ؟
- فيما تتمثل العناصر الفكرية السياسية المتضمّنة في مقالاته الصحافية ؟.

**أهمية الدراسة :**

لا تتجسّد أهمّية تناول شخصية عمر بن قدور الجزائري في دوره الرّيادي في تأسيس وتطوير صحافة عربية راقية على المستوى الجزائري والعربي فقط، وإنّما أيضًا في الثقل الفكري الإصلاحي والتنويري الذي مارسه على الخصوص قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وامتداد تأثيره في الأوساط الجزائرية وخارجها في الشمال الإفريقي. فلم يكن من أبرز الصحافيين وأرقاهم في المغرب الأوسط، أي الجزائر كما قال: فيليب دي طرازي[1] ، وإنّما أيضا من أبرزهم في العالم العربي.

وتكمن الأهمّية أيضا في الإضافة التي تقدّمها في محاولتنا هذه، إزاء التناسي أو الإهمال الذي يلحق أحيانًا بالنتاجات الفكرية أو الصحافية، في حقول الدراسات التاريخية والإعلامية. إنّ نصوصه الصحافية تحتاج إلى مزيد من الكشف والتحليل للآراء والمعاني الدلالية، المعبّرة عن أفكار وانشغالات ذهنية ومعاناة وهموم إصلاحية. وبالتالي فإنّ الصحافة تصبح هنا وثائق مكتوبة لفكر يحتاج إلى إعادة الإبراز برؤية تطمح لأن تقترب من المهمّة العلمية للمؤرخ الحديث في قراءة وتفحص الأخبار والأحداث الماضية، حيث يعيد تشكيل النظام الفكري لمرحلة تاريخية بأسرها. وفيما يعيده إبرازه إلى دائرة الضوء، بكلّ خطوطه ومحاوره، وحدوده العامّة[2]، على حدّ رأي الدكتور محمد أركون.

هذا ما يدفعنا إلى القول، أنّ دراستنا تسعى إلى تقديم الإضافات والمعلومات لنشاط آخر، كان مكمّلاً لنشاطه الأساسي في مجال الصحافة، ألا وهو النشاط التقليصي، الذي يكاد يكون مهملا. وهذه النقطة التي تناولتها هنا تعدّ تدقيقا تاريخيا في حياته العملية على العموم، وتعكس كما سنرى هذا الهمّ بالاشتغال الإصلاحي التنويري المرتبط بالممارسة

---

(1) - في تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الثالث ، المطبعة الأدبية ، بيروت ، 1914.

(2) – في الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد – ترجمة وتعليق: هاشم صالح لافوميك- المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر 1993 ص: 234.

العملية والفعلية وهذا الجانب نراه مهما لمن رأى أنّ عمر بن قدور الجزائري قد انعزل وتصوّف. وبالتالي فالمصدر الأوّلي لهذا الرأي أو المعلومة، يتوجب علميا مراجعته.

ثم ترجع أهميّة هذه الدراسة إلى عدم وجود – حسب علمنا – لأي دراسة أكاديمية عنيت بشكل مركّز بدراسة عمر بن قدور الجزائري وبفكره. لكن ثمة دراسات سوف نشير إليها، تناولت جزءً من نشاطه الصحافي أو عيّنة من نصوصه في هذا الميدان، في إطار دراسات شاملة في حقول تاريخية وأدبية.

لقد اجتهدنا في تسليط المزيد من الضوء على الجوانب الفكرية التنويرية والعملية، من الناحية التحليلية والتاريخية لشخصية رائدة في الجزائر وفي العالم العربي. ثم إنّ مقاربتنا الأكاديمية السابقة*، سمحت لنا بتشكيل تراكم معرفي أقنعنا فعلاً بأنّها تحمل مشروعا فكريًا إصلاحيا وعمليًا فعليًا، من الناحية التاريخية، ولم يكن إرهاصًا.

## الدراسات السابقة:

تاريخ الصحافة الأهلية في الجزائر، من فترة ظهورها إلى غاية سنة 1930 (1). تعتبر هذه الدراسة المنشورة في كتاب باللغة الفرنسية والتي هي أصلاً دراسة أكاديمية، من البحوث المسحية التحليلية التاريخية التي أرّخت للصحف الجزائرية لهذه الفترة. وتكمن ميزتها في تناول المؤلّف، وهو الدكتور زهير إحدادن، للصحف الصادرة باللغتين، العربية والفرنسية أو المزدوجة اللغة. وسعى إلى إبراز الأهمّية المرجعية للصحافة المكتوبة كوثائق تاريخية للجزائر المعاصرة. واعتبر تجاهلها تجاهلاً لشهادتها. وبالنسبة لشخصية دراستنا، فقد شكلت جزء من مجمل النشاط الصحافي الجزائري المتناول، وفتحت بالتالي تساؤلات أخرى، أفدنا منها في مقاربتنا.

المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطوّرها، أعلامها، من سنة 1903 إلى سنة 1931(2)، للدكتور محمد ناصر. حيث تناول نشأة هذه المقالة وتطوّرها من خلال تحليل

* - أنظر دراستنا: أصول الفكرة الإصلاحية من خلال الصحافة الجزائرية (1903- 1925) – دراسة تحليلية – رسالة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال- جامعة الجزائر 2001.

(1)– Histoire de la presse indigène en Algérie, des origines jusqu'en 1930. ENAL- Alger- 1983.

(2) – في جزئين- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978.

مختلف الصحف والصادرة فقط باللغة العربية. وقد برهن الباحث على وجود أدب جزائري معاصر، عبر هذا النتاج الصحافي وقسّم الدراسة إلى مجالات أو اتجاهات معيّنة مبرزًا مساهمة الجزائريين في الكتابة النثرية، وبالتالي مواقفهم الإصلاحية والفكرية. وشكلت بعض نصوص شخصية دراستنا جزء من العيّنة المبحوثة.

أمّا الدراسة الثالثة فهي: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين (1900-1962)[1] بتونس، للباحث التونسي محمد صالح الجابري، وكان جزء من نشاط شخصية دراستنا، ممّا تطرّق إليه، فيما توصل إليه من مقالات نشرها في صحف تونسية.

ثمة دراسة أدبية، وهي في إطار إصدارات سلسلة الأدب الجزائري لكنها جاءت مختصرة [2]، تناولت عمر بن قدور الجزائري منفردًا للدكتور صالح خرفي.

إنّ إطلاعنا على هذه الدراسات، أكّد لنا فعلاً أهمّية وضرورة التناول الأكاديمي وبالتحليل مع التدقيق التاريخي، لهذه الشخصية والإعلامية الأصيلة الفكر والفذّة. وزادتنا إقتناعًا بجدوى القيام بها، والاستمرار في البحث، إسهامًا منّا في تبيان وتتبّع مسار فكري وممارسة صحافية ميدانية بكلّ ما فيها من معاناة، لمنارة فكرية جزائرية وعربية، رائدة في الحركية الإصلاحية والتنويرية، وفي الميدان الصحافي معًا. وترسّخ لدينا فعلاً قناعتنا بضرورة هذه الدراسة من الناحية التاريخية والثقافية والفكرية المعاصرة.

## هدف الدارسة:

تستهدف هذه الدراسة الكشف التحليلي للمسار الفكري والإعلامي الأصيل لشخصية تدعونا لإعادة النظر في الحركية التنويرية الإصلاحية في الجزائر، وفي إعادة قراءة النتاج الصحافي برؤية معيّنة، للكشف عن الإسهام الفكري والعملي للصحافة الجزائرية، بالنسبة للطرح التنويري لكثير من إشكاليات النهضة الحديثة، والتي بحقّ، يمكن اعتبار عمر بن قدور الجزائري، تمثيلاً للطينة الجزائرية الفاعلة في هذا المضمار، بلغة أحد روّاد النهضة الإصلاحية في العالم العربي وفي الجزائر وهو الإمام عبد الحميد بن باديس[3]. وبالتالي، كما سلف نستهدف أيضا إعادة تشكيل الوعي المعرفي بالمنظومة الفكرية لمرحلة تاريخية بأسرها، والمتصلة بالبيئة الجزائرية.

---

[1] – نشر: الدار العربية للكتاب – طرابلس – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983.

[2] - نشر: المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

[3] – حسب تعبيره في: جريدة المنتقد: في سنة 1925.

## إطار منهجية الدراسة:

تجاوبًا مع الطرح الأكاديمي لدراستنا في مختلف سياقاتها المشار إليها، والتي تهدف أيضا إلى توصيف وتحليل المقالات والنصوص الصحفية لعمر بن قدور الجزائري في الفترة الممتدة ما بين 1906 و 1927، فإننا اعتمدنا على المنهجين الأساسيين التاليين:

-**منهج التحليل الكيفي** [1]**:** الذي رأينا أنه يساعدنا فعليا في مقاربتنا لهذه المقالات، باعتبارها وثائق ومصادر أساسية، للإجابة على تساؤلات الدراسة. وبالتالي حتى نكشف وتتبلور لدينا الأبعاد الفكرية المحدّدة، من خلال استخراج الأفكار الأساسية التي تندرج في سياق قضايا وموضوعات أساسية، يحتاج التدقيق فيها، وبرؤية معيّنة، إتّباع هذا المنهج.

يتماشى هذا الاستخدام المنهجي وقصدية تحليل النّصوص، المشكلة للمادة العلمية المبحوثة، خاصة وأنّ " الخصوصية الرئيسية للمناهج الكيفية تتأتى من كونها متضمّنة للمحور التأويلي (التفسيري) وللمقاربة الفهمية " [2]. ... إن الظواهر الإنسانية والأشياء المقاربة من قبل المناهج الكيفية هي متميّزة على العموم ... فهي مرتبطة أساسًا بنتاجات الإنسان، وعلى سبيل التدليل: نصّ ما، خطاب ما ... وما يميّزها هو تقنيات المعالجة أو التحليل، التي تستأنس على الخصوص بالقدرات الذهنية (الذكاء) لاستيعاب المعاني ".

خاصة وأن ضمن العمل الفكري والذهني، يتمّ استخراج المعنى الذي غالبا ما لا يكون معطًى جاهزًا، فهو دومًا ضمني (Implicite) [3].

إنّ هذه الآلية البحثية، ومن خلال أداة تحليل المحتوى الموضوعاتي، تسعى لتعيين العبارات اللفظية أو النّصية للمواضيع العامّة المتردّدة، والتي نبيّن محتوياتٍ أكثر وضوحًا. ممّا يساعد في عملية التصنيف الموضوعي لمجتمع بحثٍ ما، كالصحف مثلاً [4]. وأيضا في الكشف عن مواقف منتج المقال أو النّص. ولقد استفدنا من هذا المنهج في هذا

---

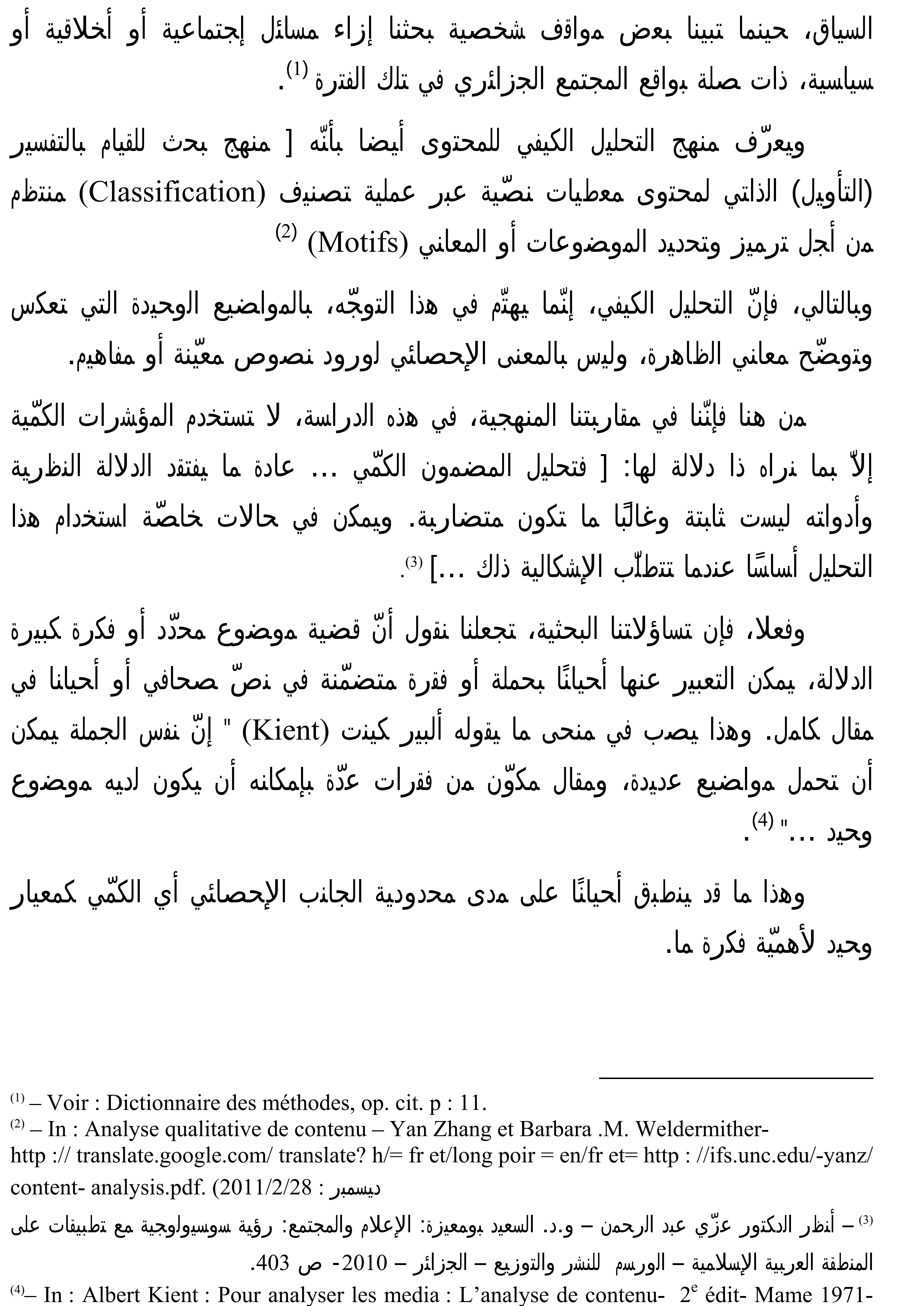
(1) – من الناحية التاريخية، فإنّ التسمية الاصطلاحية « Qualitative Research » ظهرت في العالم الأنجلو – سكسوني وفرضت حضورها في نهاية 60 كاصطلاح دال على هذا الشكل المحدّد للبحث ": أنظر:

- Dictionnaire des méthodes qualitatives en Science Humaines. Sous la direction d'Alex Mucchielli – Armand Colin- 3e édit- 2009.

(2)– p : 205.

(3)– p : 206.

(4)– Op. Cit. P : 283.



السياق، حينما تبينا بعض مواقف شخصية بحثنا إزاء مسائل إجتماعية أو أخلاقية أو سياسية، ذات صلة بواقع المجتمع الجزائري في تلك الفترة [1].

ويعرّف منهج التحليل الكيفي للمحتوى أيضا بأنّه [ منهج بحث للقيام بالتفسير (التأويل) الذاتي لمحتوى معطيات نصّية عبر عملية تصنيف (Classification) منتظم من أجل ترميز وتحديد الموضوعات أو المعاني (Motifs) [2]

وبالتالي، فإنّ التحليل الكيفي، إنّما يهتّم في هذا التوجّه، بالمواضيع الوحيدة التي تعكس وتوضّح معاني الظاهرة، وليس بالمعنى الإحصائي لورود نصوص معيّنة أو مفاهيم.

من هنا فإنّنا في مقاربتنا المنهجية، في هذه الدراسة، لا تستخدم المؤشرات الكمّية إلاّ بما نراه ذا دلالة لها: [ فتحليل المضمون الكمّي ... عادة ما يفتقد الدلالة النظرية وأدواته ليست ثابتة وغالبًا ما تكون متضاربة. ويمكن في حالات خاصّة استخدام هذا التحليل أساسًا عندما تتطلّب الإشكالية ذلك ...] [3].

وفعلا، فإن تساؤلاتنا البحثية، تجعلنا نقول أنّ قضية موضوع محدّد أو فكرة كبيرة الدلالة، يمكن التعبير عنها أحيانًا بجملة أو فقرة متضمّنة في نصّ صحافي أو أحيانا في مقال كامل. وهذا يصب في منحى ما يقوله ألبير كينت (Kient) " إنّ نفس الجملة يمكن أن تحمل مواضيع عديدة، ومقال مكوّن من فقرات عدّة بإمكانه أن يكون لديه موضوع وحيد ..." [4].

وهذا ما قد ينطبق أحيانًا على مدى محدودية الجانب الإحصائي أي الكمّي كمعيار وحيد لأهمّية فكرة ما.

---

(1) – Voir : Dictionnaire des méthodes, op. cit. p : 11.

(2) – In : Analyse qualitative de contenu – Yan Zhang et Barbara .M. Weldermither- http :// translate.google.com/ translate? h/= fr et/long poir = en/fr et= http : //ifs.unc.edu/-yanz/ content- analysis.pdf. (2011/2/28 : ديسمبر

(3) – أنظر الدكتور عزّي عبد الرحمن – و.د. السعيد بومعيزة: الإعلام والمجتمع: رؤية سوسيولوجية مع تطبيقات على المنطقة العربية الإسلامية – الورسم للنشر والتوزيع – الجزائر – 2010- ص 403.

(4)– In : Albert Kient : Pour analyser les media : L'analyse de contenu- 2e édit- Mame 1971- p : 158.

وكأداة أساسية للتحليل، اعتمدنا على وحدتي الفكرة والموضوع. فغالبا ما يتخذ، هذا المنهج المرتبط بالتحليل الكيفي للمحتوى، الموضوعَ وحدةً لهذا الغرض. ويمكن لمجموعة من الأفكار أن تتّسق في إطار موضوع معيّن، طبقا لتساؤلات الدراسة، وهذا ما قمنا به عبر أداة استمارة التحليل، التي احتوت أيضا على خانة مرتبطة بالعبارات أو المفردات اللغوية، التي تساعد في فهم المعاني وتوجّهات نصوص شخصية بحثنا، لما لها أيضا من دلالة في السياق الزماني والمكاني للإشكالية المطروحة. ونحن هنا نستعين بالمفهوم التحليلي للوثائق الفكرية حسب مقاربة ميشال فوكو (Foucault) الذي يرى أن " تحليل الفكر هو دوما وباستمرار، تحليل يسعى إلى البحث عن المعنى الحقيقي وراء المعنى المجازي، يبحث عمّا وراء الخطاب، سؤاله يتجه، بلا شك، نحو استكناه ما كان يقال وراء ما قيل فعلا "[1].

وهذا انطلاقا من اعتباره أنّ الخطابات ممارسات تتكوّن من خلالها الموضوعات والقضايا الفكرية. وحتى نتمكّن من التقرّب أكثر ومن تحديد الخلفية الفكرية التي تتسّم بها شخصية بحثنا قمنا بإدراج خانة متصلة بالأطر المرجعية، المستخدمة غالبًا في أسلوب تحليلي آخر هو أسلوب تحليل الخطاب. حتى نقوم برصد الإحالات المرجعية النّصية التي يستشهد بها ويوظفها عمر بن قدور الجزائري في مقالاته الصحافية، من نصوص قرآنية أو أحاديث شريفة، أو أقوال أو أشعار ... وغيرها من الأشكال التعبيرية النّصية التي يدعّم بها أفكاره وآراءه[2].

**- المنهج التاريخي:** كما استدعت طبيعة دراستنا الاستفادة من منهج البحث التاريخي، خاصة وأننا لا يمكن استكمال فهم الأبعاد الفكرية المختلفة لمنتج هذه النّصوص الصحافية، موضوع تحليلنا، إذا لم نسع إلى توضيح واستحضار البيئة التاريخية. هذه البيئة التي ينبغي توصيف سياقها السياسي الاستعماري الفرنسي، الذي لا يمكن تجاهله، بفعل كونه وراء الظروف المأساتية الخاصّة بالشعب الجزائري، من الناحية الاجتماعية والسياسية

---

[1] – ميشال فوكو: حفريات المعرفة – تر: سالم يفّون – المركز الثقافي العربي – بيروت الدار البيضاء، ط 2، 1987، ص 27.

[2] – أنظر إبراهيم بيومي غانم: مناهج البحث وأصول التحليل في العلوم الاجتماعية. مكتبة الشروق الدولية، القاهرة 2008، ص 19، ص 49.

والثقافية. فتماسك التحليل الكيفي يستند أيضا استيعاب مقاصد المنهج التاريخي، من خلال حصر المادة العلمية، عبر مصادرها الأصلية. وفي حالتنا هذه، فإنّ تقصّي والبحث عن مختلف الصحف الصادرة في تلك الفترة، والتي نعثر بها عمر بن قدور الجزائري، أو يكون قد كتب فيها، يعطي لدراستنا من غير شك أساسًا متينًا لمدار التساؤلات التي طرحناها، والتي يمكن أن تجنّبنا أخطاء ما في ما يخص المعلومات التاريخية المرتبطة بشخصية بحثنا. فأحيانًا كما يقول الباحث الأمريكي فان دالين[1]: "تثبت الأخطاء المتماثلة اعتماد المصادر على بعضها، أو على مصدر مشترك .. ".

ويساعدنا هذا المنهج أحيانًا في تحديد البدايات المتّصلة بمعالجة قضية أو فكرة مرتبطة ببعدٍ معيّن تم الوقوف عليه. وهذا مهمّ لأنّه أولاً يبرز طرح قضايا أو إشكاليات من زاوية سياق تاريخي سياسي يختلف عمّا تمّ توصيفه في دراسات أخرى خاصة بالفضاء العربي المشرقي. ثانيًا تحديد هذا البدايات تنوّه بالإسهام الفكري لشخصية بحثنا في ميدان الطرح الإصلاحي التنويري سواء في الجزائر أو في العالم العربي. وهذا نراه ربّما تقاطعًا مع مجال تاريخ الأفكار، حسب تحديد ميشال فوكو، حينما يعتبره كـ[ فرع معرفي يتناول البدايات والنهايات ويهتّم بوصف ألوان الاتصال المبهمة، وألـوان العـودة " بإعادة إنشاء التطوّرات الخطّية المتعاقبة للتاريخ ..." [2].

## مجتمع البحث:

انطلاقا من مكوّنات المادة العلمية لمجتمع البحث، فإنّ السياق الزمني، إنّما هو مرتبط بمختلف عيّنات الصحف التي كتب فيها عمر بن قدور الجزائري بصفته صاحبها أو التي أشرف على قسمها التحريري العربي، أو التي كان محرّرًا بها والتي صدرت بالجزائر، أو تلك الصحف التي حرّر بها بصفته مراسلاً لها من الجزائر وصدرت خارجها، وكانت عملية المسح التاريخي التحليلي التي قمنا بها، قد مكّنتنا – لحدّ الآن – من تحديد هذا السياق ما بين سنة 1906 و1927. بحيث تكون سنة 1906 ظهور أو بداية

---

(1) – ديوبولدب فان دالين: مناهج البحث: في التربية وعلم النفس، مترجم، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، طبعة 2003، ص 275.

(2) – في: ميشال فوكو، المرجع السابق الذكر، صفحة 127.

نشاطه الصحافي، أمّا سنة 1927، فهي وحسب ما توصّلنا إليه، هي آخر سنة نشر فيها مقالات أو نصوص في الصحافة.

من هنا فمجتمع البحث يتناول بالتحليل الشامل لمختلف المقالات أو النصوص الصحافية المنتجة من قبله، والمتوفّرة لدينا، بعد عملية مراجعة وتقصي لمصادرنا الأساسية المتمثّلة في صحف هذه الفترة الزمنية، التي تمتدّ من بدايات القرن العشرين، وبالضبط قبل الحرب العالمية الأولى إلى فترة ما بعد نهايتها. توزّعت هذه الصحف حسب العناوين التالية:

- صحيفة " **الهلال** " – الجزائر – سنة 1906.
- صحيفة " **الحقيقة** " – تونس – سنة 1907.
- صحيفة " **اللواء** " – مصر – سنة 1906.
- صحيفة " **الأخبار** " – الجزائر – سنوات: 1908 – 1910 – 1911- 1912- 1913- 1914.
- صحيفة " **التقدّم** " – تونس – 1908.
- صحيفة " **المشير** " – تونس – 1911.
- صحيفة " **الفاروق** " – الجزائر – 1913- 1914- 1915.
- صحيفة " **الصدّيق** " – الجزائر – 1920.
- مجلة " **الفاروق** " 1920- 1921.
- صحيفة " **الوزير** "- تونس- 1920.
- صحيفة " **الإقدام** " 1921- 1922- 1923.
- صحيفة " **التقدم** " – الجزائر – 1923- 1924.
- صحيفة " **وادي ميزاب** " – الجزائر – 1927.

وتوخّيا لشمولية مجتمع البحث المتّصلة بالإطار الصحفي، فإننا ينبغي أن أذكر بأن ثمّة مقالات أخرى عديدة نشرها بجريدة " الحضارة " الصادرة في الآستانة (بتركيا) بداية من سنة 1910، والتي لنا عود إليها في سياق بحثنا هذا، ولقد تمكّنا من مراجعة وتحليل العديد منها، لأنّه عادة ما يعيد نشر بعضها في جريدته " الفاروق " التي أصدرها سنة

1913 في مدينة الجزائر. وكذلك يجب أن أوضح بأن جريدة " المشير " التونسية أعادت نشر الكثير منها نقلاً عن صحيفة " الحضارة " هذه، خصوصا سنة 1911.

## مفاهيم إجرائية:

تتردّد عبر ثنايا دراستنا هذه مفاهيم تمّ توظيفها في عملية التحليل وما تبعها من محاولة تفسيرية أو تأويلية لمختلف الأفكار والقضايا المتّصلة بتساؤلات البحث. واستدعى منّا المنهج المتّبع في مرحلة معيّنة من ترتيب وتقسيم البيانات تحديد نسق مفاهيمي معيّن يساعد في إعطاء وصياغة محاور مضمونية، أو في تحديد معنى فكري لمجموعة من المعلومات المحصّل عليها من المصادر الأساسية المتمثّلة في الوثائق الصحافية، وتتجاوب مع الإشكالية العامّة:

**-الإصلاح:** حاول باحثون في شؤون العالم الإسلامي، تحديد مرحلة معيّنة لليقظة أو النهضة في هذا الفضاء الحضاري مع محاولة ربطها بشخصيات غدت رموزًا للإصلاح والتنوير في العالم الإسلامي. فالأمريكي لوثروب ستودارد يرى أن " صوت الإصلاح دوّى في العالم الإسلامي بظهور محمد بن عبد الوهاب الداعي إلى إصلاح النفوس واستعادة المجد القديم، فظهرت تباشير صبح الإسلام، ثم بدأت اليقـظة الكبـرى في العالم الإسلامي "[1].

واعتبر أن الرجوع إلى صفاء الدين الأوّل وأصوله النقية يبقى الدور الأساسي لأي حركية إصلاحية، وبالاعتماد على نصوص مستمدّة من صميم الدين، وتكون متماشية مع كلّ متطلبات عصر ما.

وهناك من الباحثين من يرى أنّ أكبر الحركات الإصلاحية التي نجحت واستطاعت أن يكون لها تأثير مستمر، هي التي جعلت أهدافها منحصرة بدقّة في دعم روابط الأمّة (التضامن) والعودة إلى قيم سلفها، أي النموذج المثالي للحياة الإسلامية، وهي الحركات التي أثرت في الأمّة بمناداتها لحياة أفضل ومصير أمثل [2].

---

[1] – في: حاضر العالم الإسلامي – ترجمة عجاج نويهض – القاهرة (1352 هـ) ج 1، ص 260.

[2] - In : Ali Merad : Origines et voies du Réformisme en Islam. Extrait des annales de IEO – 1960- 1961- LATYPO Alger, p : 389.

أمّا المفكر مالك بن نبي فيعتبر الحركات التاريخية التي عرفها العالم الإسلامي إنّما كان مصدرها ذلك المجهود الفكري والعملي الذي بذله العالم ابن تيمية فمنه انبعثت صورة " الإصلاح " في حركية تطور العالم الإسلامي الحديث، وفتحت بذلك طريق النهضة. ويرى أنّ " الإصلاح يهدف إلى توفير الدافع الداخلي لدى جماهير الشعب، تلك الجماهير المتعطّشة إلى – انتفاضة القلب – كيما تنتصر على ما أصابها من خمود "[1].

فالقول بالرجوع إلى السلف، هو إصلاح للعام فقط والإصلاح يتجاوز هذا إلى تحقيق مبدأ " الوظيفة الاجتماعية " للدين.

وهناك من يرى أن مفهوم " الإصلاح " اصطلاحًا قد لا يفرّق بينه وبين مصطلح الثورة في مستوى التغيير وشموله، وإنّما من حيث الأسلوب في التغيير وزمن التغيير، فكلاهما – إسلاميا – يعني التغيير الشامل والعميق. والتغييرات الإصلاحية تتّم بالتدريج، بينما تسلك الثورة السرعة في التغيير وبعمق غالبًا "[2]. وقد وصفت رسالات الرسل عليهم الصلاة والسلام بأنّها دعوات إصلاح. فيقول رسول ا شعيب (عليه س): " إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت " الآية : 88 (هود).

**- التنوير:** اصطلاحًا التنوير Renaissance ظهر في القرن 16 و 17 م تعبيرًا عن الفكر الليبرالي ذي النزعة العقلية والعلمية والتجريبية، كما يتضمّن هذا الفكر نزعة مادية واضحة بعد إقصاء اللاهوت. وذلك بإحلال الطبيعة والعقل بدلاً من الفكر الغيبي في تفسير ظواهر العالم ووضع قوانينه. وقد انتشر هذا المصطلح "التنوير " في العالم العربي خلال القرن 19 م تحت مفهوم الحداثة ... وكان يعني إعادة الاعتبار للعقل وتجديد الفكر العربي الإسلامي لمواجهة الفكر الغربي[3]. ويبدو أن ثمّة تداخلاً ما بين مفهوم الإصلاح ومفهوم التنوير، إذ غالبية الرموز الإصلاحية من الشخصيات المعاصرة يتمّ ذكرها حينما

---

[1] – مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي –تر: عبد الصبور شاهين ، دار الفكر – دمشق، ص: 56.

[2] – أنظر: موسوعة المفاهيم الإسلامية – مجموعة من المؤلفين – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – مصر ، ج1.

[3] - أنظر: موسوعة المفاهيم الإسلامية – نفس المرجع السابق.

يتّم تناول هذا الجانب من الحركية التاريخية والفكرية الحديثة، منذ نهاية القرن 19 م إلى بدايات القرن العشرين [1].

ومن أهمّ المقاربات الفكرية التي نراها قد ساهم فيها المفكّرون في تقديم أحد أبعاد مفهوم " التنوير "، هي مقاربة إيمانويل كانت (Kant) الذي قدّم جوابا على سؤال حول ماهية التنوير، حينما رأى أنّ عجز الإنسان وقصوره الناجم عن عدم استعمال العقل يمنعانه من ولوج عالم التنوير والاندفاع نحو اكتساب المعرفة إنّه يقول [ تجرّأ على أنْ تعـرفْ ! كُنْ جريئًا في استعمال عقلك أنت ! ذاك شعار الأنـوار ...] [2]. وقد ربـط "كانت" التنوير بعالم الدين حينما اعتبر أن السير نحو التنوير إنّما يكون حينما تتاح القدرة للناس " على استعمال عقولهم بثبات وإحكام في أمور الدين دون إرشاد الغير ... " [3].

**- العقيدة :** تتسّع كلمة " عقيدة " اصطلاحًا في المحيط الإسلامي لتدلّ على " فعل الاعتقاد" نفسه حينا، فحينما يتخلّص الاعتقاد من أدران " الشك " و" الظن " فإنّه يكون مقترنًا بإذعان العقل وهدوء النفس، بحيث يصير الاعتقاد معينا على التكاليف العملية (كالصلاة) وعلى الالتزام الخلقي، مصحوبًا بمراقبة ا عزّ وجلّ.

ويكون هذا الاعتقاد مؤسّسًا على الدليل اليقيني على وجود ا تعالى، وعلى الدليل الإجمالي على صدق النبي (صلى ا عليه وسلم) في تبليغه الرسالة عبر معجزة القرآن الكريم. وقد يدلّ مفهوم العقيدة على محتوى الاعتقاد وموضوعاته حسبما جاء في "موسوعة المفاهيم الإسلامية ". أمّا " علم العقيدة " وهو ما يسمّى بعلم التوحيد أو علم الكلام، أو علم أصول الدين، فهو العلم الذي يتكفّل بتوضيح وبيان الجانبين السابقين، بالاعتماد على العقل والنقل معًا وجميعًا [4].

---

[1] – أنظر بتوسّع: الندوة الفكرية: حصيلة العقلانية والتنوير في الفكر العربي المعاصر – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – 2005.

[2] - أمانويل كانط: ثلاثة نصوص: جواب على السؤال: ما هي الأنوار – تعريب وتعليق محمود بن جماعة – دار محسن علي للنشر – تونس ط 1، 2005، ص 85.

[3] – نفس المرجع، ص 92.

[4] – في: " موسوعة المفاهيم الإسلامية " المرجع السابق نفسه، ص1.

**- القيم الأخلاقية:**

يرى الدكتور الربيع ميمون أنّ كلمة القيمة المنتشر تداولها في عصرنا بمعنى الكلمة الفرنسية (Valeur) لها معاني مجازية في اللغة العربية كأن تقول: الإنسان القيّم، هو المستقيم، وكذلك الديانة القيّمة. وفي القرآن الكريم قوله تعالى " فيها كتب قيّمة ". والتحوّلات التي عرفتها الكلمة في اللغة الفرنسية، وجدت لها معاني تتّفق مع معانيها في اللغة العربية [1].

ومن حيث دلالات القيم، فلا توجد قيمة واحدة، بل عدد من القيم يتمّ تفضيل بعضها عن بعض. والعدل والشجاعة والحِلم قيم متمايزة ولكن بإمكان إظهار ما بينها من قرابة إذا تمّ جمعها تحت عنوان واحد " القيم الأخلاقية ". هذه القيم التي تقوم كما يرى الدكتور ميمون على احترام الإنسان للإنسان في ذاته وفي ذات الآخرين وهي قيم تأتي بعدها القيم الروحانية أو الدينية التي هي أسمى القيم، والتي يدفع إهمالها إلى التمسّك بالنزعة الأخلاقية التي تثبت قيمًا أخلاقية ولكن من غير أن تمنحها أساسًا مقبولاً [2].

إنّ القيمة في نظره، كلّ شيء، وكلّ فعل أو نشاط، وكل وصف مرغوب فيه أو قابل للرغبة فيه يحفظ وجوده ويسعده، ويثريه [3].

وقد يكون مفهوم " القيم " مرادفًا للمُثل الاجتماعية المرتبطة بسلوكيات أو تصرّفات مؤسّسات مجتمعات مختلفة، يفسّر سيرها وصيرورتها طبقا لوجود قيم متصلة بخصوصية ثقافة الشعوب مثل: الجهد والاعتدال وتفضيل التجديد على التقليد، أو بوجود قيم مشتركة تساعد على التضامن [4].

---

[1] – أنظر: الدكتور الربيع ميمون: نظرية القيم في الفكر المعاصر: بين النسبية والمطلقية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص: 27 -28.

[2] – نفس المرجع، صفحة 49.

[3] – المرجع نفسه، ص 327.

[4] – أنظر: المعجم النقدي لعلم الاجتماع: ريمون بودون ، فرانسوا بورّيكو ، ترجمة: د. سليم حداد ، ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر ، ط 1، 1986، ص 451.

**- التنظيم:** (Organisation) إنّ استعمالنا لهذا المفهوم جاء تجاوبًا وحاجة عملية تحديد البيانات المعرفية والمضمونية التي تمّ الكشف عنها خلال إجراء البحثي. ونظرًا لأهمّية هذا الانشغال الفكري لشخصية بحثنا بهذا العنصر الاستراتيجي، والذي يعتبر مؤشرًا ذهنيًا هامًا على الأفق التنويري والإصلاحي الفكري. فإنّنا نستعين في تعرّف شحنته الدلالية من خلال المفهوم الذي جرى في التنظيم، نوعًا من النظام في مخزون من الموارد المختلفة لكي يُجعل منها أداة أو آلة في خدمة إرادة تسعى إلى تحقيق مشروع معيّن. وإنّ تنظيم مجموعة من الرجال لكي يُجعل منها جزء من جيش ما، يعني إقامة بينهم تراتبية تجعلهم قادرين على التعاون في تحقيق غاية تشكّل القاعدة لعمل كلّ واحد منهم، حتى ولو كان معنى عمله ونتيجته تفوق أكثر من متدخّل [1].

---

[1] – في: المعجم النقدي لعلم الاجتماع- المرجع نفسه – ص 199.

## خطّة الدراسة:

تتكوّن هذه الدراسة من مقدمة وخمسة فصول وخاتمة. فالفصل الأول وعنوانه ملامح البيئة التاريخية للفترة الاستعمارية، به مبحثان. المبحث الأول هو محاولة لتوصيف السياق التاريخي للبيئة السياسية والاجتماعية. أما المبحث الثاني الذي جاء تحت عنوان: البيئة القانونية للممارسة الصحفية إبّان الفترة الاستعمارية فهو محاولة تقديم فضاء الحدود القانونية المفروض من قبل الحكومة الاستعمارية على النشاط الصحفي في الجزائر، والذي يساعد أيضا في فهم الضغوط المحيطة بالنتائج الصحافي.

أمّا الفصل الثاني فجاء تحت عنوان: الممارسة الصحفية والتعليمية لعمر بن قدور الجزائري. ويتكوّن من تمهيد ومبحثين أساسيين. ويشكّل التمهيد: محاولة لتقديم جزء من سيرته الذاتية، بحيث نقدّم معلومات جديدة عن بيئته الاجتماعية والفكرية، التي نشأ فيها في مدينة الجزائر. أمّا المبحث الأوّل والذي خصّصناه لممارسته الصحفية الهامّة التي امتدت لسنوات عديدة، تخلّلتها فترة إبعاد والنفيّ السياسي في صحراء الجزائر مع بداية الحرب العالمية الأولى، هذا المبحث يتناول بالتدقيق هذا الجانب، الذي يشكّل مدار حياته النضالي والمهني من الناحية الفكرية الإصلاحية ومن ناحية تقديم نموذج المهنية الصحفية في سياق استعماري تعسّفي. أمّا المبحث الثاني من هذا الفصل فهو خاص بالنشاط التعليمي له. وهو جزء هام من سيرته يكاد يكون غير معروف أو تم إغفاله، ونعتقد أنّه يكمّل مسار حياته التنويري والعملي. وقدّمنا كذلك ما توصّلنا إليه من معلومات وحقائق تاريخية تمّ تجاهلها.

والفصل الثالث بمثابة تحديد أوّلي لأحد الأبعاد الأساسية لهذه الدراسة، فقد جاء تحت عنوان: البعد الفكري الإصلاحي العقائدي لعمر بن قدور الجزائري. واحتوى على ثلاثة مباحث أساسية. المبحث الأوّل مخصّص لتوصيف الحالة العقائدية و" الفوضى الدينية " التي قدّمها مفكّرنا شخصية الدراسة وهذا من خلال نتاجات نصوصه الصحافية. والمبحث الثاني جاء تحت عنوان: التفسير التاريخي والمعاصر لانحراف روح الاعتقاد. أمّا المبحث الثالث يتناول رؤية المفكر عمر بن قدور لتجديد البناء العقائدي الإسلامي.

أمّا الفصل الرابع، فخصصناه للبعد الفكري الإصلاحي الأخلاقي والاجتماعي. ونلاحظ هنا جمعنا ما بين ما هو أخلاقي وما هو إجتماعي، لأهمّية التداخل الذي وقفنا عليه من خلال منظور تحليلنا. واشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث. بحيث تناولنا في المبحث الأول، توصيفه للحالة الاجتماعية و" للفوضى الأخلاقية " انطلاقا من البيئة الجزائرية، مع دعوته إلى إصلاحها ومجابهة تناقضات الواقع ومعيقاته. وحاولنا في المبحث الثاني استخلاص وقراءة المرتكزات الفكرية التي يقدّمها مفكّرنا للإصلاح الأخلاقي. في حين، فإننا خصّصنا المبحث الثالث لطرح تصوّراته الفكرية والعملية للإصلاح الاجتماعي.

والفصل الخامس مقاربة لتصوّراته الفكرية السياسية المتصلة بالوضع السياسي الداخلي للمجتمع الجزائري، أو ذات الصلة بقضايا العالم العربي والإسلامي. وهذا محاولة منا فلإحاطة بهذا الجانب السياسي الذي يطرح فيه في المستوى المحلّي، تصوّره للهوية الجزائرية ولمكوّناتها.

وكانت الخاتمة، متضمّنة لجزئين، حوصلة عامّة لهذه الدراسة، مع إشارة إلى مكانة شخصية بحثنا في الحركية الفكرية الإصلاحية والتنويرية، سواء داخل الجزائر أو خارجها. ثم التنويه بتفجر حقيقي لتيار إصلاحي عملي جزائري في الفترة التي توفي فيها عمر بن قدور الجزائري، بظهور جريدة " الشهاب " التي تحوّلت إلى مجلّة حيوية لهذا التيار. أما بعد، فهذه الدراسة، ما هي إلاّ مساهمة أخرى، تسلّط الضوء على تراث وإسهام فكري جزائري ومشروع فعلي، انطلاقا من الممارسة الصحافية الراقية، وإنصاف معرفي وتاريخي.

# الفصل الأول

# البيئة التاريخية الإستعمارية

## المبحث الأوّل: البيئة التاريخية الاستعمارية السياسية والاجتماعية

كانت البيئة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، تتميّز بأنماط تسيير إداري وعسكري استثنائي تُجاه الشعب الجزائري الذي كان في غالبيته يُحكم بقوانين خصوصية. بحيث نجد آنذاك قوانين تمّ صياغتها من أجل إنشاء محاكم خاصّة بالجزائريين، مثل تلك التي يعود تاريخها إلى عام 1908 م[1]. حتّى أن النقل داخل البلد أو خارجه كان مقيّدًا بتشريعات خاصة، وكذلك أموال وأملاك الحبوس أو الوقف، التي استعان بها الجزائريون لصيانة المعالم والمرافق الدينية مع إسعاف الفقراء، تمّ إلحاقها بأملاك الدولة الاستعمارية.

كان من أبرز سمات هذا النظام الاستعماري في التسيير هو تقيمه البلاد إلى بلديات مختلطة، تُسيّر من طرف إداريين. أما الجزائريون الأهالي القاطنون بها، فيتمّ إخضاعُهم لقوانين استثنائية معروفة بـ: قانون الأنديجينا (قانون الأهالي الذي قامت الحكومة الاستعمارية بترسيمه في 23 أوت و 11 سبتمبر 1874 (ص 156).

ثمّ هناك المناطق العسكرية، حيث يتمّ تسيير الشؤون الأهلية للجزائريين من قبل الضبّاط العسكريين.

وكان نمط هذا التسيير حسب الأمير خالد أكثر تعسّفا وظُلما من الأنديجينا. وكانت منطقة الأغواط التي نُفي إليها مُفكرنا الإصلاحي عمرُ بن قدور الجزائري، خاضعة لهذه الإدارة. بحيث شكّل هذا الإقليم العسكري ثكنة واسعة. وكلّ ما فيها، ومن يسكنها، بكلّ ما يملك تابع لمسؤول ما سُمّي بالمكتب العربي (Bureau arabe) حيث يتصرف ويتحكّم فيه كيفما يشاء[2].

إضافة إلى هذين النمطين الإداريين، هناك البلديات ذات المسؤولية الإدارية الكاملة، حيث تقوم أيضا بتطبيق مواد قانون الأنديجينا على الجزائريين.

ولا يُمكن عدم ذكر عمليات اغتصاب الأراضي وسلبها من الجزائريين، التي ظلّت متواصلة طيلة الفترة الاستعمارية. حيث عمل النظام الاستعماري بعد ثورتي المقراني والحدّاد 1871 على سلب مئات الآلاف من الهكتارات من الجزائريين.

---

(1) In : Mahfoud Kaddache : L'Emir Khaled : Documents et Témoignages pour servir à l'étude du nationalisme Algérien. OPU – Alger 1987. P : 153.

(2)– Kaddache: L'histoire du Nationalisme Algérien 1919- 1951. Tome 1, E.N.L. Alger 1993, p 32.

يقول جان بول سارتر: " في الجزائر فإنّ جميع الأراضي[1] الصالحة كانت تُفلح قبل وصول القوات الفرنسية.

وهذا يعني أنّ ما يزعمونه من " حرث " الأراضي وزرعها إنّما اعتمد على عملية اغتصاب للأراضي من السّكان استمرت على مدى قرن من الزمن. إنّ تاريخ الجزائر هو تجميع للأملاك العقارية الأوروبية تجميعا تدريجيًا على حساب الأملاك الجزائرية " ص 12 (جغلول) لقد أثّر هذا الوضع على الجزائريين الذين انتشرت في أوساطهم مظاهر الفقر والحاجة. بحيث كانت المجاعة التي عرفتها البلاد، مناسبة كذلك لانتقاد أطماع المعمّرين الأوروبيين، وأعوانهم من الأهالي الذين شاركوهم في نهب الأراضي الفلاحية للجزائريين، الشيء الذي زاد في تفاقم المجاعة التي خلّفت الكثير من الضحايا، خاصة في سنة 1920. وانعكس هذا الوضع على صفحات الصحافة الجزائرية. حيث شنّ الأمير خالد عبر صحيفة الإقدام، حملة إعلامية، لإغاثة المصابين والمشرّدين، فقال في مقال تحت عنوان: (المجاعة ودواؤها)[2]: " سنة متجدّدة وأسعار مرتفعة ومعيشة صعبة وتجارة كاسدة وحبوب منقطعة، وأسباب الحياة مُتعطلة، وجيوش الشتاء من أمطار وبرد وثلج ورياح زاحفة، فأين المفرّ وما الحيلة ؟ تا ا لقد ضاق المجال، والنّاس في حيرة، وحال ضنك والمجاعة عمّت اليوم، فكيف الحال غدًا ؟ هل من مغيث للملهوف الذي لم يتدبّر لعواقب الزمان، لجهله المؤدّي إلى الهلاك. ولكن هذا ليس وقت الموعظة والتوبيخ، بل وقت السعي لإنجاد التّعساء من مخالب الفاقة التي حطّت رحالها في ديارهم وأكواخهم وخيامهم، ودفعهم الجوع إلى النهب والسّلب، والفرار أفواجًا أفواجًا نحو المدن والقرى ".

وخلال تلك المجاعة، عملت " الإقدام " على نشر قوائم الضحايا بانتظام، وكان من آثارها أي المجاعة انتشار الأمراض الخبيثة وازدياد عدد الوفيات[3].

وبالموازاة مع هذه الظروف كانت الهجرة إلى فرنسا تأخذ مسارها لتحسين الظروف المعيشية. وحتّى يضمن النظام الاستعماري غزوه الثقافي والأخلاقي، فإنّه سعى إلى تهديم البنايات التعليمية الأصيلة في الجزائر (مدارس، كتاتيب، زوايا) وإنشاء المدارس الأوروبية بدلها. في عام 1922 كان عدد التلاميذ المسلمين يشكلون بنسبة 06 % من مجموع المتمدرسين

---

(1)– In : L’Emir Khaled ; p 156.

(2) - جريدة " الإقدام ": العدد 9 بتاريخ 05 نوفمبر 1920.

(3) – مرجع سابق:

-In : Histoire du Nationalisme Algérien p : 27.

الأوروبيين والفرنسيين[1]. وقال الأمير خالد في سنة 1924: نستطيع أن نقول أنّه وبعد 94 سنة من الاحتلال، أنّ تعليم الأهالي هو لا شيء تقريبًا، أو يكاد يكون مُنعدمًا في مناطق عديدة من الجزائر[2] وقال: إنّ عدد المدارس الأوروبية هو في حدود 12000 مع 110.000 تلميذ من أصل 700.000 نسمة من الأوروبيين. فيما تصل المدارس الأهلية الجزائرية بما فيها مدارس (القوربيات) إلى 520 مع 38000 تلميذ لعدد من السكان يصل إلى 05 ملايين نسمة. وأشار إلى أنّه حيث توجد مدرسة فرنسية، لا ينبغي أن توجد مدرسة قرآنية في محيط ثلاث كيلومترات. من هنا جاء غلق مئات من هذه المدارس (الكاتيب) بذريعة أنّها تُدرّس " التطرّف " ! ولكن، لم يتم تعويضها حتّى بنمط المدارس الأخرى. ويرى المؤرّخ محفوظ قدّاش أنّ حرّيّة التّعليم الموفّرة للمواطنين، خصوصا للجماعات الدينية الكاثوليكية لم تكن موجودة لدى المسلمين الجزائريين، فالإدارة الفرنسية في مسعاها هذا، كانت تريد تحقيق: محاربة مدارس اللغة العربية، فضاء الإسلام والوطنية، ومنعها من منافسة المدرسة الفرنسية[3].

كانت الإدارة الفرنسية تبحث عن هدفا مزدوجا.

لمّا زار الزعيم السياسي المصري محمد فريد الجزائر سنة 1901 تأثّر لما رآه وعايشه في الجزائر، وكتب بتاريخ 12 أكتوبر 1901 في جريدة " اللّواء ": " إنّ الأهالي هناك يُعاملون بقوانين خاصّة، غاية في الشدّة والصرامة، فهم محرومون من حرية الكتابة وحرّيّة الاجتماع، وحرّيّة السّفر، وحرّيّة مطالعة الكتب والجرائد. نعم يصعب على الذي يعرف حبّ الفرنسيين للحرية والمساواة، أن يُصدّق ذلك. ولكن، من يتكلّف مشقّة زيارة بلاد الجزائر سيتحقّق أنّ ما هو جائز في بلاد فرنسا غير مباح للمسلمين في المستعمرات، ولو كان مسموحًا به للفرنسيين. فلا يجوز لهم أن يؤسّسُوا جمعية، أو يفتحوا مدرسة حتّى لنشر التّعليم المجرّد. وهذا الترخيص لا يُمنح مُطلقًا. كما أنّه لا يُسمح لهم بإنشاء مطبعة أو جريدة". وفي مقال آخر في جريدة اللواء بتاريخ 13 أكتوبر 1901[4]، يعود الزعيم محمد فريد متحدّثًا عن وضعية التّعليم بالجزائر: " إنّ حالة التّعليم في الجزائر سيئة جدًا، ولو استمرّ الحال على هذا المنوال، ستحلّ اللغة الفرنسية

---

(1) – المكتب العربي: كان بمثابة جهاز استخباراتي ، أنظر:
-Turin (Yvonne): Affrontements culturels dans l’Algérie coloniale. ENAL Alger 1983, p 200.

(2) – الأمير خالد – .La Situation p 157

(3)– Mahfoud Kaddache: Histoire du nationalisme Algérien (1919- 1951)- tome 1, Entreprise nationale du livre, Alger, 1993, p 41.

(4) عن أنور الجندي: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا. الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة 1385 هـ - 1965 م. ص 112.

محلّ العربية في جميع المعاملات، بل ربّما تندرس العربية بالمرّة مع مضي الزمن. فلا الحكومة تسعى في حفظها، ولا هي تترك الأهالي يُنشئون الجمعيات لفتح المدارس ..."[1].

حتّى أنّ التّعليم الجزائري الحرّ، كان مغيّبًا ومُضايقا " من قبل قوانين الإدارة الفرنسية، التي أقرّت قانون 18 أكتوبر 1892، يمنع فتح أي مدرسة حرّة، إلاّ بموافقة السّلطات الاستعمارية بالجزائر[2].

فلقد انتبه الجزائريون مبكرًا أيضا إلى ضرورة إصلاح تعليم الزوايا، ففي مؤتمر المُستشرقين المُنعقد بالجزائر العاصمة عام 1905، قام أحد الأساتذة الجزائريين، وهو مختار بن الحاج سعيد، بمُداخلة حول وضعية التعليم في الزوايا، وضرورة تنظيمها من جديد من قبل الحكومة، التي لم تعمل شيئًا لتحسينها. وعقّب عليه الزعيم المصري محمد فريد منوّها بتدخل السّيد (مختار)، وذكّر بصعوبة عملية تجديد الكتاتيب بمصر. كما دعا إلى تطوير التعليم العربي في الجزائر. لكن أحد الأساتذة الفرنسيين رفض طروحات محمد فريد قائلا:

" إنّ الأهالي في غير حاجة لتعلّم اللّغة العربية، لأنّهم يتكلّمونها منذ صغرهم، بينما المفيد لهم، وما هو من مصلحتهم، هو تعلم اللّغة الفرنسية التي يجهلونها "[3].

بالتّوازي مع هذا التضييق الرّسمي على التعليم العربي الحرّ، والتشدّد الإداري الاستعماري، لجأت الحكومة الاستعمارية إلى غلق المدارس القرآنية، وفتح مدارس تنصيرية في مناطق معيّنة من البلاد. فالغزو أصبح أيضًا أخلاقيًا، عن طريق المدرسة، كما يقول المؤرخ الفرنسي شارل روبير أجرون[4]. فقد كان هناك إغلاق للمدارس والمعاهد العربية، وإضعاف للزوايا التّعليمية. تبع هذا موقف الجزائريين الذين رفضوا إرسال أبنائهم إلى مثل هذه المدارس، لعلمهم أن التّنصير، أو التبشير المسيحي يتّم في مدارس التعليم العام، وفي مدارس التعليم المهني والحرفي[5].

---

[1] – نفس المرجع السابق ص 133.

[2] – د. عمّار بوحوش: التاريخ السّياسي للجزائر، من البداية لغاية 1962 (دار الغرب الإسلامي ط 1، 1997، ص 253.

[3] In : La revue Africaine : 1905 – Alger. Le XIV Congrès International.

[4] – أجرون (شارل روبير) تاريخ الجزائر المعاصرة ، ترجمة عيسى عصفور، OPU ، الجزائر ، 1982 ص: 113.

[5] – محمد الطاهر وعلي: التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1904، منشورات دحلب 1997، الجزائر، ص: 21.

وبالموازاة مع هذا التضييق السياسي على التعليم الخاص بالجزائريين سعى بعض المثقّفين المسلمين إلى الحفاظ على مؤسسات جزائرية عريقة، كانت لمدة قرون تؤدي دورًا معيّنا في هذا السياق وهي مؤسسة الزوايا الدينية.

إنّ هذه الوضعية سوف تجعل الجزائريين فيما بعد، وكما سنرى مع عمر بن قدور، يطالبون ويدعون إلى إنشاء الجمعيات الخيرية والتعليمية الحرّة، بعيدًا عن نفوذ الإدارة الاستعمارية، ولم يزيدهم هذا الوضع إلا تشبّثًا بقيمهم وشخصيتهم. ولقد عبّر عن هذا الانشغال في بداية القرن العشرين من خلال المقال الحواري الذي تعرّض فيه إلى حالة الجزائر، السّالفة الذّكر، وفيه يُشير الجزائري قائلا: " مخافتنا على شعائر ديننا، واحتفاظًا لعاداتنا العربية الشريفة"[1]. ثمّ يُضيف بعدها: " أمّة متعلّمة راقية يستحيل بقاؤها تحت النفوذ الأجنبي والحقيقة التاريخية تؤكّد أنّ كلّ من نظر إلى واقع – التعليم – نظرة متمعنة إلاّ واستخاص صورة وضع يخدم بالدرجة الأولى الأهداف الاستعمارية. وحتى نؤكّد هذا، فإننا عثرنا كذلك على مقال في جريدة "اللواء " تحت عنوان " المسلمون في الجزائر " لسائح عثماني زار الجزائر سنة 1906، ونرجّح أنّ مترجمه ومرسله من الجزائر هو عمر بن قدور الجزائري، الذي كان آنذاك مراسلاً لهذه الجريدة، حيث تعرّض لواقع المدارس بالجزائر آنذاك قائلا: " ... وخذ شلا المدارس فإنّ المتأمّل يحكم من غير تردّد لأنّه لا يمكن أن ينبغ واحد حتى من الألف من أولاد المسلمين الجزائريين الذين يدرسون في المدارس العمومية أو المدارس الخاصة بأولاد العرب، فينفع دينه ووطنه والجزائريين، وكيف يتأتى ذلك وبروجرامات (كذا) المدرسة كلّها في الحقيقة سمّ فاقع لا توصل إلاّ إلى نشر الديانة المسيحية بين المسلمين بسرعة وتجنّسهم بالجنسية الفرنسية. بينما يدرس في هذه المدارس تاريخ الفرنسيين مع المبالغة العظيمة وإطراء كلّ أعمال الفرنساويين ترى التلميذ الذي يدرس التاريخ العثماني في نفس المدرسة لا يسمع عن الدولة سوى المظالم والمغارم ..."[2]

وبالفعل، فسوف تغدو المُطالبة بالتعليم العربي الحرّ، قضية سياسية[3].

---

[1] – جريدة " اللواء / 11 يونيو 1908 (مصدر سبق ذكره).

[2] – المصدر: جريدة " اللواء " المصرية بتاريخ 18 أبريل 1906.

[3]- باعزيز بن عمر: من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسيين: عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي – منشورات الحبر – الجزائر الـ20، 2007، ص 59.

عملت الإدارة الاستعمارية على مراقبة المدارس والكتاتيب والمساجد، بالرغم من صدور قانون فصل الدّين عن الدولة عام 1905، والذي لم يُطبّق في الجزائر، بحيث كانت الإدارة تتولّى بنفسها تسيير المساجد وتعيين الأئمة بصفة مباشرة [1]. قال جان بول سارتر مُعلّقا على هذه الحالة: " صادرت دين العرب، لكي تُبقيهم في التجزئة والتشتّت، فهي تختار رجال الدّين الإسلامي ..، وقد حافظت على أحطّ أنواع التفرقة، التي تُفرّق بين النّاس ... (... ولا شك أنّ الفصل بين الكنيسة والدّولة امتياز جمهوري، وترف يصلح للميتروبول. أمّا في الجزائر، فإنّ الجمهورية الفرنسية لا تستطيع أن تسمح لنفسها بأن تكون جمهورية. إنّها تحرص على عدم انتشار الثقافة، وتحافظ على معتقد أنّ الإقطاع ..."[2].

وتبعا لتطبيق ذلك القانون التّعسفّي المتمثّل في قانون " الأهالي "، فرضت الإدارة الاستعمارية قانونًا للتجنيس استكمالاً لدور المؤسّسات التعليمية في إدماج الجزائريين، تُكوّن منهم نخبة مُوالية، تُثبت الوجود الاستعماري وتعمل على إعدام وطمس معالم الشخصية الجزائرية بكلّ مكوّناتها. لكن أبدت نخبة من الجزائريين المُتنوّرين، منذ بداية القرن العشرين، معارضة لهذا التوجّه، حيث عبّر سي محمّد بن رحّال، عام 1903 بقوله أنّ الجزائريين لا ينوون المطالبة بالجنسية الفرنسية. وقبل ذلك بسنة، كان قد قال أنّ الاندماج أو ذوبان الأهالي، هي طوباوية. من قبل الخيال. غير قابلة للتّحقيق وقد حاولت الإدارة الاستعمارية إقناع الجزائريين بأنّ الحصول على الحقوق السياسية مرتبط بالتنازل عن قانون " الأحوال الشخصية الإسلامية "[3].

نتج عن هذا التوجّه الاستعماري، نوع من الصراع السّياسي بين النخب الجزائرية آنذاك. وهكذا ظهر التّيار الاندماجي الدّاعي إلى الفرنسة للحصول على بعض الحقوق، أو شعورًا منه بالنقص اتّجاه الأوروبيين المتواجدين بالجزائر.

حاولت العديد من الشخصيات السياسية الفرنسية، الاستفادة من استخدام هذه النخبة، نظرًا لولائها وإخلاصها. حتّى أنّ حاكم الجزائر العام جونار (Jonnart) كان يرى أنّ: " تقدّم الجزائر الأهلية، وفرنستُها، ينبغي أن يمرّ عبر المسلمين المُتعلّمين "[4]. وأصبح من الممكن

---

(1)- M. Kaddache : Histoire du Nationalisme Algérien, op cit, p : 37.

(2) – جان بول سارتر: عارنا في الجزائر ، ترجمة عايدة + سهيل إدريس، دار الآداب ، بيروت، بدون تاريخ، ص 23.

(3)– Ageron (CH.R) Les Algériens Musulmans et la France (1871-1919), T 2, PUF, Paris 1968, p 1117.

(4) – نفس المرجع ص ص: 1050/ 1053.

التّمييز سياسيًا لهذه النخبة المُفرنسة، الدّاعية إلى التجنيس والاندماج، والتي أصبحت تُعرف بالشباب الجزائري، أو فتيان الجزائر. حيث يغلب البُعد الفرنسي على تكوينها، وجدّ ميّالة إلى الأسلوب الغربي، والفرنسي خصوصًا، في الحياة. بحيث أصبحت هناك هُوّة عميقة بين أفكارها وتوجّهاتها، وواقع الجماهير الجزائرية [1]. وأصبحت تهاجم المجتمع الجزائري بتقاليده، أكثر من تهجّهها على الفرنسيين. ولقد انتظم تيّار الشبان الجزائريين في جمعيات ثقافية، كالرّاشيدية في مدينة الجزائر (1902)، نادي صالح باي (1907) في قسنطينة، الصدّيقية في عنابة، وغيرها لمجابهة هذا المدّ.

وكان المؤرّخ الفرنسي أجرون قد أبرز، بأنّ العديد من الصّحف التي يُحررها أصحاب هذا التيّار، في بداية القرن العشرين، وبعضهم متجنّسون بالجنسية الفرنسية، وأكثر تأثرًا بالصحف التونسية على الخصوص، كان يُسيّرها مواطنون فرنسيون، مستفيدون من حريات القانون الفرنسي المتعلّق بالصّحافة.

ورغم هذا، فإنّ موقف المعمّرين الأوروبيين في الجزائر، كان مُعارضًا لتجنيس الجزائريين، خوفًا على مصالحهم، وعلى وجودهم بالجزائر، حتّى انّ التقدّم السّياسي والاجتماعي للجماهير الجزائرية المسلمة، كان يُخيفها.

وسوف نرى أن في مجال دراستنا هذه كيف عكس عمر بن قدور عبر مقالاته السياسية المختلفة، خاصة المتصلة بمسألة تجنيد الجزائريين في الجيش الفرنسي، كيف اعترض المعمّرون الأجانب في الجزائر على هذا الشأن واعتبروه خطرًا عظيمًا على وضعيتهم كمعمرين وعلى مستقبل الاستعمار بالجزائر[2].

وسوف نبرز في الواقع الاستعماري آنذاك، قضية أخرى سيكون لها تأثير كبير على الواقع الاجتماعي والسياسي للجزائر. ألا وهي التجنيد الإجباري الذي أقرّته الحكومة الاستعمارية.

---

[1] – انظر:

- Ali Merad : Le réformisme Musulman Algérien : de 1929 à 1940 – A. p : 52. Paris Lahay 6,1927.

[2] – انظر المصدر: جريدة " التقدم " التونسية، مقال: منتهى الشطط: بين جدران مؤتمر المعمّرين لعمر بن قدور الجزائري. بتاريخ: 30 أفريل 1908.

وبالفعل، فمنذ إعلان الحكومة الفرنسية عن قرارها بتجنيد الشباب الجزائري، سنة 1908، بدأت حركة احتجاجية، اتّخذت أشكالا متعدّدة، في معارضة هذا القرار.

احتجاج غير مؤثّر من قبل ما سُمّي آنذاك بتيار الشباب الجزائري الذي دعا إلى إلغائه، ما عدا في حالة هول الجزائر على الحقوق الأساسية، والتي تتمثّل في تعديل قانون الأنديجينا، وكذا رفع نسبة التمثيل في الانتخابات المحلية(1).

تذمّر الرأي العام الجزائري المسلم من هذه التوجّهات الاستعمارية، في التجنيد الإجباري، بحيث شهدت العديد من مناطق البلاد، موجات الهجرة، ومغادرة البلاد نحو بلدان عربية، كتونس، المغرب، وسوريا بصفة خاصّة.

وفي وقت، أعلنت فيه، فئة من تيار الشباب الجزائري، الانضمام والموافقة على التجنيد الإجباري، برزت فئة أخرى من العلماء المتنوّرين المسلمين، الذين عارضوا وحاربوا هذا المشروع.

وصاحب نقاش هذا الموضوع، وشكاوي الرفض له، هجرات متتابعة ومتلاحقة للسّكان الجزائريين، وأصبحت مُكثّفة ابتداءً من 1911م (2). ولقد أولت الصّحافة الاستعمارية، والجزائرية، لتلك الحقبة، اهتمامًا بهذه القضية. ففي اجتماع للمجلس البلدي لمدينة الجزائر يوم 09 سبتمبر 1911، وقف الإمام المُصلح عبد الحليم بن سماية (    -1932) رافضًا إيّاه.

وقد كان المفكّر الصّحافي عمر بن قدّور المساند لمشروع الرّفض هذا، قد كتب مقالاً في جريدة الحضارة أعد نشره في جريدة (المشير التونسية)، عاكسًا هذا المنحى الرافض حيث يقول: " فلا عزو إذا أستقبحنا خطة الحكومة في مشروعها وخطّة الفيئة (كذا) المتفرنجة التي تريد للمسلمين إنقلابا عظيما في الأخلاق والطبائع والاعتقادات وترد لتنفيذ مشروع المسيو ميسيمي في تجنبه أبناء المسلمين لتكون القاضية من وراء ذلك على الدين والقومية ..."(3).

---

(1)– Philippe Millet (Les jeunes algériens) Revue de Paris 1913.

(في عمّار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر- ) من البداية لغاية 1962 / دار الغرب الإسلامي ط 1، 1997 – ص 203.

(2) مرجع سابق:

- AGERON : Les algériens musulmans et le France p : 1073.

(3) – المصدر: جريدة " المبشر " التونسية –بتاريخ 17 سبتمبر 1911 " الرفض الأخير لمشروع التجنيد الجزائري".

صدور مرسوم التجنيد الإجباري للجزائريين في 03 فيفري 1912 م. وكانت صحافة الشبان الجزائريين مع إلغاء التجنيد، وضرورة المطالبة بإصلاحات سياسية معيّنة. ومع اتّخاذ حركة الرفض بسمة الشكاوي والاحتجاج، والمقاطعة ضمن الخدمة العسكرية الإجبارية الاستعمارية وتنامي موجات الهجرة كشكل من أشكال مقاومة المشروع على حدّ تعبير بن قدور. من مختلف مناطق البلاد نحو الخارج.

أولت الصّحافة، في فرنسا، وفي الجزائر، مكانة مُعتبرة، في مقالاتها، وتعليقاتها. لقد اعتُبرت في فرنسا، حسب المؤرّخ شارل روبير أجرون، كمظهر مناهض للنظام الاستعماري. وإذا كانت الهجرة الإرادية من قبل الجزائريين، قد عمّت واشتدّت إنّما هي في الحقيقة، كانت دائما متواصلة، سواء عقب حركات المقاومة والحروب التي خاضها الجزائريون ضدّ الوجود الاستعماري الفرنسي، أو بسبب البؤس والحرمان، وسياسة اغتصاب الأراضي، وإجبار مالكيها عن التنازل عنها، فموجات الهجرة لعامي 1910 و1911، سبقتها هجرات متتالية للجزائريين من المدن والأرياف.

وتناولت الكثير من الصحف الجزائرية (كالإسلام) أسبابها الأخرى، المتمثلة في محاولة التخلّص، والهروب من نظام الأنديجينا. ومن المواقف المُعارضة، ما ذكره، كما أسلفنا، مُفكّنا عمر بن قدّور، في تقرير صحفي، نشرهُ في جريدة (الحضارة)، في شهر أوت عام 1911، مُغطّيًا وقائع جلسة المجلس البلدي بالعاصمة ليوم 25 يوليو من نفس السنة، حيث افتتح النقاش المسيّر (دوغلان)، مخاطبًا حوالي أربعين رجلا من أعيان مسلمي العاصمة، وقد ذكّر بمشروع السيول (ميسيمي)، الذي كان آنذاك وزيرًا للحربية، واعتبر النظر في هذا المشروع، يقتضي جسا للنبض في وسط الرأي العام الإسلامي.

وقد ارتأى كلّ الحاضرين أن يتكلّم باسمهم، الأستاذ العالم العلاّمة (عبد الحليم بن سماية) الذي قال: " تريدون منّي أن أتكلّم بالنيابة، أم لا تريدون ذلك. فأصمت ؟. فردّ الجميع بلسان واحد: تكلّم أيّها الأستاذ.

فتقدّم جنابهُ وشرع في الكلام شروعًا جميلا، وأتى على خط مستقيم. واستدلّ بآيات قرآنية، على أنّ المسلمين، إذا ما أدّوا الخدمة العسكرية في إطار الدولة الفرنسية، فإنّهم بذلك ليسوا مسلمين بجميع معاني الكلمة، حتّى ولو نالوا من الحرية، ما يُخوّل لنبغائهم التربّع على سدّة رئاسة الجمهورية.

ودعوى جنابه أنّ الحرية، والحقوق السياسية، إذا ما مُنحت للمسلمين، مقابل تجنيدهم، فإنّها الضربة القاضية على القومية الدينية والجنسية. بحيث يقع اندماجهم في الأمّة الفرنسية، كلّيًا ونهائيًا ".

ولقد أسهب العالم بن سماية في خطابه، محتّجًا ومعارضًا. ولكن عمر بن قدور، أشار إلى صوت المعارضين للإمام فيما ذهب إليه، وهم من الجزائريين الذين يدعوهم بالمتفرنجين، أي من دعاة الاندماج والتفرنس. وهمّ بن سماية بالانصراف، لو لا أن ترجّاه رئيس المجلس، إلى غاية إنهاء خطابه. " صاح الأعيان بأنّهم موافقون تمام الموافقة على احتجاجه ورفضه للتّجنيد، سواء بنيل الحقوق السياسية، أم لا. ولم يُفلح المتفرنجون في معارضتهم، وادّعائهم بأنّ الخدمة العسكرية، نافعة للمسلمين. وخرجوا، وهم من المغضوب عليهم. وتفرّق بعدها الجمع بعد أن أعلمهم رئيس البلدية، بأنّه سيُوجّه محضر الرفض المصادف عليه، إلى الوالي العام، الذي يوجّهه بدوره إلى الحكومة ..." [1].

وقد استغرب في مقاله لعدم إشارة الجرائد في الجزائر لأي شيء عن هذا الاجتماع الذي انعقد في العاصمة.

إذا كان مشروع قانون التّجنيد الإجباري، قد شكّل سببًا مُهما في هجرة الجزائريين، بداية القرن العشرين، أي قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى. إلاّ أنّ ذلك لم يكن السّبب الوحيد. لأنّ قمع السّكان بمختلف الطرق، ظلّ متواصلاً، مع استمرار مقاومة ومحاربة الجزائريين، طيلة عشرات السّنين. ومن الأساليب المُستعملة، التّهجير والنّفي المُمارس من قبل الإدارة الاستعمارية، إلى خارج الجزائر. ككاليدونيا مثلاً.

كما أنّ عملية اغتصاب، ونزع ملكية الأراضي من أصحابها الجزائريين، بقيت هي أيضًا مستمرّة، بالإضافة إلى سياسة المضاربة (الاقتصادية).

في هذا السياق، انتقد الصحافي فيكتور سبيلمان، في مقال مطوّل سنة 1922، تقرير السّيد (فالي) سياسة فرنسا في اغتصاب أراضي الجزائريين (الأهالي)، وترحيلهم نحو مناطق أخرى، حتّى تفرغ للمعمّرين الفرنسيين (الألزاس) والأوروبيين. ومن أمثلة ذلك، ما حدث للجزائريين في ثورة 1871 (الشيخ الحدّاد والشيخ المقراني) من اغتصاب ومصادرة 500.000

[1] – صحيفة "المشير" التونسية بتاريخ: 10 سبتمبر 1911.

هكتارًا، في تلك السنة فقط. وقد علّق سبيلمان قائلا[1]: "أنّ هذا الفعل قد زاد من تفقير الأهالي، بحيث نجم عنه المجاعة واللّاأمن الدّائمان في الجزائر. ونقول إنّها سياسات جمهورية، تلك التي تعمل على نزع ملكية الأهالي، لآلاف الهكتارات، وإبعادهم، من أجل استقدام وتثبيت المعمّرين الأجانب من فرنسا، وخارج فرنسا. ومن إحداث البؤس، والمجاعة، وحالة من اللاّأمن المتفجّر اليوم. وإحلال محلّ كلّ هذا، فئة إقطاعية جديدة، داخل قلب الجمهورية، في القرن العشرين.

وذكّر سبيلمان (Spielman) بالقمع الوحشي الذي أعقب ثورة باتنة في 1917، والتّي اعتبرها منطقية بفعل استمرار التّجنيد الإجباري، والمجاعة والبؤس اللّذان لحقا بالأهالي المسلمين، والممارسات الظّالمة، الغير منتهية في هضم حقوقهم وقال متعجبًا: " نتساءل هل قُمنا بواجبنا نحوهم فيما يتّصل بالتربية المدرسية والمهنية ؟[2]

ويبدو لنا، أنّ هذا جدّ متطابق، مع ما جاء في إحدى المقالات التي وجدتها في جريدة " اللواء" المصرية، التي قامت بترجمة مقال مأخوذ من صحيفة إنجليزية، بقلم السيد (مستر استراج) تحت عنوان: " حكم الفرنسيين في الجزائر ". وقد تجلّت أهمية ما جاء على لسان هذا الانجليزي، الذي زار من قبل بعض مدن الجزائر، ومن جملة ما أثار انتباهه، الجانب الديمغرافي. بحيث لاحظ تراجعًا مذهلا لعدد السكان. لقد قال في هذا الشأن: " ... هذا والمدن الإسلامية، آخذة الآن (أي 1906) في التّلاشي، وسكّانها لا يزالون يُهاجرون نحو تونس. وبذلك فإنّ عدد سكّان الجزائر يقلّ من يوم لآخر، عوض أن يتزايد وينمو ... ولقد زُرت أوران (أي وهران) من 20 عامًا أيضا، فوجدت أهلها المسلمين، قد طُردوا منها جميعًا ... وليس من السّهل على الإنسان أن يعرف ما حلّ بأولئك الوطنيين:

هل هاجروا إلى مراكش، أو مُحيت آثارهم على وجه البسيطة ... ويقول الجزائريون أنّ نزع الملكية، حرمهم من أجود أراضيهم، وأنّهم مُنعوا كذلك من امتلاك بعض أراضي الغابات، وأنّ ضروريات الحياة أصبحت باهضة الثمن، وأصبحوا لا يستطيعون توفير أدنى شيء، يستعينون به على مواجهة القحط والمجاعات ... ".

---

[1] أنظر:

In Victor Spielman : Colonisation et question indigène en Algérie – Critique du rapport Vallet sur la colonisation de 1830 à 1921. Alger (1922) (Brochure).

[2] نفس المرجع (Spielman) ص 11.

- In Spillman : p 11.

إضافة إلى هذه الممارسات الظّالمة تجاه الجزائريين، فإنّ الاستعمار الفرنسي، كان يحرمهم من حرية الانتقال داخل البلاد. ولم يكن يتم ذلك، إلاّ بترخيص من الإدارة الاستعمارية، ليُلغى هذا الإجراء التّعسفي، ابتداء من سنة 1914. حتّى أنّ شعيرة الحج، كانت تُمنع على الجزائريين المسلمين بين سنة وأخرى. وقد سبق للزّعيم المصري محمد فريد أن سجّل هذا التّقييد والتّضييق على الحريّات الشخصية، حينما زار الجزائر أوّل مرّة سنة 1901، حيث كتب في (اللواء): " إنّ الأهالي هناك، يُعاملون بقوانين خاصّة، في غاية من الشدّة والصرامة، فهم محرومون من حرية الكتابة، وحرية الاجتماع، وحرية السفر، ومطالعة الكتب والجرائد. نعم، إنّه يصعب على الذي يعرف مدى حب الفرنسيين للحرية والمساواة، أن يصدّق ذلك. ولكن الذي من يتكلّف مشقّة زيارة بلاد الجزائر، سيتحقّق أنّ ما هو جائز في بلاد فرنسا، غير مباح للمسلمين في المستعمرات ..". وفي السّياق ذاته، وبنفس الجريدة، يكتب: ومن الغريب في بلاد الجزائر، أنّه لا يجوز أن يُسافر خارج المركز الذي يُقيم فيه، في دائرته، إلاّ بإذن من البوليس ... "[1].

إنّ هذا التّضييق التّعسفي الاستعماري على الجزائريين، يُؤكد حقيقة تاريخية، وهي الخوف المستمر للنظام الاستعماري، من الجزائريين، ومحاولته لإحكام هيمنته على الجزائريين وعلى كل شيء يتحرّك فيها. خاصّة وأنّ المقاومة الجزائرية ظلّت مستمرّة في شكل حروب وانتفاضات، تتزعّمها أحيانا شخصيات، تأخذ أنماطًا أُخرى من المقاومة كما حدث مع أرزقي أولبشير، وغيره[2]. وكان المؤرخّون الفرنسيون يطلقون عليهم اسم: « Les bandits d'honneurs » وأخذ هذا التّضييق، كما ظهر في الشهادات التي كُتبت عن الفترة الاستعمارية خلال الربع الأوّل من القرن العشرين، أبعادًا ثقافية، بحيث أصبح هناك نوع من الحصار الثقافي مضروبًا على الجزائريين. فإذا كان يُمنع عليهم أداء فريضة الحج، من حين لآخر؛ وإذا كان يصعب على الأجانب، خاصة منهم العرب والمسلمين، زيارة الجزائر، نظرًا للتشديد الإداري المفروض من قبل الإدارة الفرنسية (كما حدث للشيخ علي يوسف، أو لزوار آخرين مثل ذلك السّادح العثماني)؛ فإنّ هذا الحصار كان يطال الصحافة، والكتب، كما أثبت ذلك الزعيم السياسي المصري محمد فريد، حيث يقول: " إنّ الجزائريين محرومون من حرية الكتابة، وحرية مطالعة

---

[1]- في كتاب دكتور أنور الجندي: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، ص: 112 – 113.

[2] – أنظر بتوسع:

-Emile Violard : Areski, Abdeoun et Cie, Hors-la –loi et bandits d'honneur Kabyles à la fin du XIX siècle. Editions Echo- plus, Alger, 1998.

الكتب والجرائد. لم يكن الجزائريون مُنغلقين على أنفسهم، بل كانوا يتطلّعون دومًا إلى معرفة ما يجري من أحداث في العالم الإسلامي على الخصوص، حتّى أنّه وّجد من كان يشترك في عدد من الصحف العربية المصرية، والتونسية خاصّة. ولقد عبّر عمر بن قدور هو نفسه عن ولع الجزائريين بالصحافة عموما، وبالصحافة العربية على الخصوص. فبعدما تعرض للعراقيل الإدارية والسياسية أي تمنعهم من تأسيس الجرائد قال: " ... كانوا أشّد الناس حبّا للجرائد وأكثرهم ميلاً للصحافة وعلى الخصوص العربية منها. يبقى الجزائري هدفا لسهام الانتقاد في هذا الباب وطالما تلقى من رصفائنا أصحاب الجرائد الإسلامية، الشرقية الاعتراضات والانتقادات الفظيعة على عدم قيامه بهذه المهّمة مهّمة الصحافة العربية، ولو كان لأولئك السادة المنتقدين أقل إطّلاع على السياسة التي تجري في الجزائر وهبوا العذر الجميل للمسلم الجزائري... "[1].

كانت هذه الصّحف العربية، إضافة إلى مضمونها السياسي والإخباري، المُهتّم بقضايا العالم الإسلامي، تنشر من حين لآخر، مقالات، تنتقد فيها الأوضاع في الزائر. كجريدة " المؤيد " أو " اللواء "، أو بعض الصحف التونسية. ويقول محمد فريد في مقال له بجريدة اللواء عام 1901 معلّقا على هذا الحصار الإعلامي: " لا يوجد في جميع إقليم الجزائر غير جريدة المبشّر، وهي جريدة رسمية، تُمجّد فضل فرنسا على العرب، وتحثّهم على الولاء لها. أمّا الجرائد العربية، فقد مُنعت عنهم، فلم أجد في جميع مدينة الجزائر نسخًا من " اللواء " ولا من " المؤيد"، رغم أنّ المشتركين فيهما كثيرون. فلا تصل هذه الجرائد إلاّ لإدارة المبشر مبادلة، وهناك، تُحفظ في حرز متين حتّى لا تخرج بعض أعدادها من الإدارة، فتصل بذلك أخبار الإسلام والمسلمين إلى إخوانهم الجزائريين ..."[2]. وكان لمجلّة " المنار " لصاحبها الشيخ رشيد رضا، قرّاء وصدى كبيران بين نخبة من المثقّفين، والرّواد المصلحين الجزائريين. وقد لمس هذا الإمام المُصلح محمد عبده، لمّا زار الجزائر سنة 1903 م[3].

وفي هذا الخضّم، سعت نخبة من المثقفين الجزائريين إلى التّخفيف من هذا الحصار في مجال الكتب، حيث أسّس قدّور بن مراد التركي مكتبة الثعالبية بعاصمة الجزائر سنة 1896،

---

[1] – المصدر: جريدة الأخبار الجزائرية: بتاريخ 11 جويلية 1908 مقال لعمر بن قدور بعنوان: الجزائر والصحافة العربية.

[2] – في : الفكر والثقافة المعاصرة (أنور الجندي، مرجع سابق ص 113).

[3] – أنظر: دعوة الإصلاح الإسلامي د: محمد فتحي عثمان لمجلة كلية العلوم الإجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد: الرابع 1400 هـ/ 1980م.

وأكثر من هذا، أقام علاقات تجارية لاستيراد الكتب من مصر وبيروت، كما طبع ونشر بعض الكتب على حسابه الخاص[1] في مصر.

من أهم الأحداث التي عرفتها طرق التواصل الفكري بين الجزائريين والمشارقة، زيارة محمد عبده للجزائر سنة 1903، حيث التقى عددًا من الوجوه الدينية والثقافية الجزائرية آنذاك، منهم المُفتي محمد بوقندورة، والشيخ يوسف بن سماية، وكلّ من الإمامين المُصلحين، الأستاذ عبد الحليم بن سماية، والشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة [2]. إلى جانب بعض رواد الإصلاح والصحافة، أمثال عمر راسم [3]، (ومُفكّرنا عمر بن قدّور الجزائري) الذي ذكر في مذكراته (أنّه كان من الذين اجتمعوا معه).

وحسب الشيخ باعزيز بن عمر، أحد أعضاء المحرّرين في مجلّة (الشهاب) والنشيطين في جمعية العلماء المسلمين، فإنّ تلك الزيارة، غلب عليها الطابع الرّسمي البحت، مُدعّمًا رأيه بجواب ابن باديس حين سُئل عن زيارة هذا الإمام المُصلح: " إنّ زيارة الشيخ عبده للجزائر وتونس، كانت شبه رسمية ... وكان مُراقبًا). وكان درسه الذي ألقاه بالجامع الكبير في العاصمة، حول تفسير سورة " العصر "، درسًا ضيّقًا، لم يتّسع إلاّ لهؤلاء الرّسميين، من أئمة، ومُفتين، ومدرّسين، ولم يكن من بينهم عالم آخر حرّ، يُمكن مُحاورته خارج هذا الموضوع، في أحوال المسلمين عمومًا، والجزائريين خصوصًا [4].

لكن ما يجدر ذكره هنا، أنّ هناك تواصلاً فكريًا ما بين الجزائريين والحركة الإصلاحية في المشرق، لدرجة أنّ صحيفة فرنسية (Le Temps) أشارت إلى اكتشاف م. عبده في الجزائر، نظرًا لوجود لحزب إصلاحي كبير ينتمي إليه (ص 83). ويبدو أنّ الإمام المُصلح عبد الحليم بن سماية، كان من أكبر المتحمّسين للفكر الإسلامي لدى محمد عبده، بدليل تلك الرسالة المطوّلة التي كتبها بن سماية ردا على تساؤلات مفتي مدينة وهران علي بن عبد الرحمان الجزائري، التي تتمحور حول رأي بن سماية في الشيخ محمد عبده. وهذا في حدّ ذاته دليل على مدى تتبع العلماء الروّاد واهتمامهم بتطوّر الفكر الإسلامي. ولقد تحدّث بن سماية عن

---

[1] – النهضة العربية في الجزائر (في النصف الأوّل من القرن 16 هـ) بمجلة كلية الآداب – جامعة الجزائر – العدد -1- 1964.

[2] – المرجع السابق، ص 44.

[3] – المهدي بوعبدلي في مجلة الأصالة (1974) جوانب مجهولة من آثار زيارة محمد عبد للجزائر عام 1903 م 1322 هـ ، ص 18.

[4] – باعزيز بن عمر: من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسيين: بن باديس والإبراهيمي ص 61.

رسالة " التوحيد " وعن ردّ عبده على (هانوتو)، ثمّ ذكر الأفغاني ورسالته " الردّ على الدّهريين " (الطبائعيين) وركّز على اهتمام م . عبده، نشر اللغة العربية، وعن مكانة ورحمة الاختلاف، وكيف يكون، وتظهر من هذه الرسالة الهامّة كيف يتلاقى (يلتقي) المُصلح الجزائري بن سماية، وطرق تدريسه العصرية حيث ( ينتقل إلى الخوض في مسألة علم التوحيد، وكيف كان ينفر منه تلاميذه، إلى أن استعمل معهم طرقا مناسبة للعصر، ولعقولهم، فأثّر فيهم كثيرا، وهذه الطريقة، هي التي كان يستعملها عبده في تدريسه ومحاضراته )[1] وهذا دليل على التواصل العلمي والفكري بين الجزائريين والمشارقة، بفضل الصحف والمجلاّت وكذا بعض المتخرّجين، من جامع الأزهر، وجامع الزيتونة، الذين عادوا إلى القُطر، ومنهم من استقرّ نهائيًا في المشرق. كما ذكر ذلك المُصلح التونسي محمد بيرم [2] أنّ السياسي والمثقف علاّل الفاسي، تحدّث في محاضرة عن أهمية المغرب بالنسبة للعالم العربي، وأشار إلى مكانة مجلّة المنار في الجزائر.

وبالتّالي، كان الحصار الثقافي الاستعماري، الذي استعمل أساليب عدّة، قد اتّخذ مظهرًا أساسيا، اتّسم بمنع دخول الصحف الصادرة بالعربية، سواء كانت تونسية، مصرية، أو تركية. بطبيعة الحال، وكما أسلفنا ذكره، فإنّه لم يكن الغرض من هذا كلّه، صدّ الجزائريين عن معرفة ما يجري من أحداث خطيرة في العالم الإسلامي فقط، وإنّما أيضا منع الصحف التي تتناول الأوضاع في الجزائر. تلك الصّحف التي تتعرّض لمأساة الاستبداد والاستعباد في البلاد إبّان الحقبة الاستعمارية، خاصّة في فترة هذه الدراسة التي تُغطّي نشاطًا فكريًا لأحد أهمّ رموز المقاومة الفكرية في الجزائر.

وعثرنا على سبيل المثال، في مقدّمة لمقال مُترجم عن صحيفة تركية، ومنشور في جريدة " اللواء " نرجّح كتابته لعمر بن قدور كما سبق ذكره.

مثل هذا التوجّه في نقد السياسة الاستعمارية في الجزائر ... " عهدنا المسيو " جونار " حاكم الجزائر العام، ميّالاً للإصلاح، مُحبًا لنفع المسلمين وارتقائهم. فليقرأ جنابه هذه المقالة، ولينظر في حال المسلمين التعساء. لأنّه، لا يُمكن له، ولا لغيره من الرّاغبين في إصلاح أحوال الجزائريين أن يعرف الحقيقة، إلاّ من الصحف الإسلامية المصرية، التي من خلالها، يستطيع

---

(1) – المهدي بوعبدلي في مجلة الأصالة، ص 82.

(2) -صفوة الاعتبار: محمد بيرم التونسي الخامس، المطبعة الإسلامية بمصر 1303 هـ/ 1885م.

الجزائريون، أو المحبّون لهم، رفع أصواتهم فيها ... لأنّه لا سبيل لاتّفاق المسلمين مع فرنسا، إذا بقي الجزائريون على هذه الوضعية، تعساء وأشقياء، غير مُتمتّعين بالحريّة والعدالة ..." [1].

وليس غريبًا أن يحتجّ مسؤول الصحافة العربية في الجزائر المُستعمرة، السّيد ميرانت Mirante، على أداء جزء من هذه الصحف، التي كانت تتعرّض لوضعية الجزائريين، وإلى السياسة الاستعمارية بمختلف ملامحها. حيث يقول ميرانت سنة 1905: " إنّ روح توجّه الصحف العربية إزاء أوربا، لا يُقارب دائمًا الاتّزان، ويستحق الانتقادات"[3] ثمّ ينتقد خطّها الإسلامي في إطار تيار الجامعة الإسلامية، ونداءاتها للوحدة الإسلامية. ثمّ يُشير إلى إحدى الصحف القاهرية، التي انتقدت أوضاع المسلمين الخاضعين، والمُحتلين من قبل الأمم الأوروبية، من نزع للملكيات، وتنصير للأطفال، واغتصاب للنساء، واستعبادهن. وانتقد على الخصوص، صحيفة عربية تعرّضت للأوضاع في الجزائر، والتي قالت أنّه " يوجد في الجزائر أربعة ملايين من الأهالي تحت وطأة النير البغيض لـ 250.000 فرنسي. يُعاملونهم بالاحتقار الذي نشعر به اتجاه سلعة مشينة (Vile marchandise).

ثمّ يردّ على هذا المقال، ويعتبر جهود فرنسا في الجزائر، إنسانية للغاية، ويقول: " وبما أنّنا في الجزائر، فهل يمكن أن نتكلّم بمثل تلك الكلمات، حول العمل الإنساني الرّاقي، الذي تواصله فرنسا في هذا البلد ؟.

وأنّ الجزائريين، في ظلّ الراية الفرنسية، يجنون ثمار ومحاسن الحضارة، ويتمتّعون فيما يخصّ دينهم بالتّسامح الكامل، ويتم معاملتهم بعدالة، ورعاية ...و ...و ..".

وقال ميرانت إنّ مواقف الصحف العربية تجاه البلدان الأوروبية الاستعمارية، كلّفها المنع من التوزيع، الدخول إلى هذه البلدان العربية والمسلمة، وخاصّة من دعوتها الدينية المتطرّفة، إلى الجهاد، وانعكاساتها على الأهالي [2].

ويؤكد مؤرخون فرنسيون، أمثال آجرون AGERON وكلود كولو COLLOT هذه السياسة الاستعمارية اتجاه الصحافة العربية الأجنبية، التي كان يُمنع دخولها من حين لآخر،

---

(1) في جريدة " اللواء " بتاريخ 24 صفر عام 1324 (18 أفريل سنة 1906).

(3)– In : La Presse périodique Arabe- In : Actes XIV Congrés international des Orientalistes- Alger 1905. Troisième partie parue – ERNEST Leroux, Editeur.

(2) – المرجع السابق، نفس المقال ص من 196 إلى 205.

نظرًا للمواضيع التي تثيرها، والتي تمسّ الحالة السياسية في الجزائر، أو تلك التي تتطرّق إلى الأحداث السياسية الجارية في العالم العربي والإسلامي.

فبالنسبة لحالة الجزائر، فبعض الصحف التونسية، أو المصرية كانت تتناولها عن طريق أقلام محرّريها، أو نقلا عن صحف أجنبية أخرى (إنجليزية، تركية، فرنسية)، أو عن طريق مراسلين لها بالجزائر، لم يكونوا يُصرّحون بأسمائهم. [1] فلم تكن ثمّة صحف في نهاية القرن 19 م، وبداية القرن العشرين (ما بين 1824 و1907) أي صحيفة جزائرية، تُمكّن من التعبير عن هذه الحالة، خاصّة ما سُمي بتيّار (التقليديين) أو (المحافظين)[2]. ما عدا صحيفة (الهلال) على حسب رأينا هنا، والصادرة بمدينة الجزائر سنة 1906، والتي حاول من خلالها عمر بن قدور الجزائري أن يتحدّث باسم الوطنية عن بعض حقوق الجزائري في ظل ظلم الإدارة الاستعمارية، لكن تم إيقافه واعتقاله، كما سنرى في القسم الخاص من دراستنا والمخصص لتطوره مساره ممارسته الإعلامية.

لقد كان تداول الصحف المشرقية ممنوعًا، ومراقبة دقيقة، مسلّطة على دخول الصحف العربية المطبوعة بتونس. وكان وقتئذ تيّار ما سُمي بالجامعة الإسلامية آخذًا في الانتشار، وزادت الأقلام الغربية من درجة التخويف منه. وكشفت جريدة " التقدّم " التونسية التي ظهرت عام 197 باللغة العربية، عن وجود رأي أهلي، جزائري، بتونس[3]. وبالفعل، فإنّ عمر راسم سوف ينشر بتونس ... ثمّ يرّد عليه عمر بن قدّور ويرى آخرون أنّ تيّارًا في حركة (الشبّان الجزائريين) سوف يتأثّر بنموذج الصحيفة التونسية (التونسي) لعلي باش حانبة، المؤسّسة كذلك عام 1907 م وأثناء أحداث انتفاضات الهجرة العارمة للجزائريين نحو البلدان العربية؛ تونس، المشرق، الشام، جرّاء تنفيذ مشروع ميسيمي Messimy في تجنيد الجزائريين.

مع تطوّر هذه القضية، تمّ تمديد إجراءات منع تداول الصحف العربيـة والتركية بالجزائر [4]. ومع ذلك، كانت صحف عربية مصرية تدخل إلى الجزائر بصفة سرية، والتي كانت تتناول موضوع الخلافة العثمانية.

---

[1] – أنظر: د. عبد القادر حمزة: أدب المقالة الصحافية في مصر ص 101 (المؤيد علي يوسف).

[2]–In/ Les Algériens Musulmans et la France : p 1029.

[3] – نفس المرجع ص 1033.

[4] – مرجع سابق.

إزاء التخوّف والقلق من تأثير صحافة البلدان العربية والتركية، تمّ إصدار مرسوم وزاري في 20 جويلية 1900، انطلاقًا من المادة 14 من قانون جويلية 1881، الخاص بحرية الصحافة بفرنسا.

هذا المرسوم يمنع تداول وتوزيع صحيفة " المؤيّد " للشيخ علي يوسف، الذي مُنع آنذاك، كما ذكرنا سابقًا، من المجيء إلى الجزائر. ولم يُرفع قانون المنع إلاّ في أوت 1902، في اللحظة تمّ فيها أيضا، منع دورية الحزب الوطني المصري وهي " اللّواء ". ولقد كثّفت، وشدّدت السلطة الاستعمارية، رقابتها على الصحف العربية والتركية، ابتداء من 1908، وخاصّة مع بروز مؤشّرات بداية الحرب العالمية الأولى [1]. ففي 1911 مثلا، تمّ إصدار مرسوم وزاري من الداخلية يمنع تداول صحيفة: « The Cairo Punch » المطبوعة بإيطاليا. وفي جوان سنة 1913 تُمنع " المقتبس " الصادرة بدمشق، وجريدة الشعب بالقاهرة، و" الرأي العام " ببيروت، "الحق يعلو " القسنطينية (المشكاة) دمشق [2].

وحتّى بعد الحرب العالمية الأولى، عادت من جديد سياسة مراقبة صحافة البلدان العربية في سبتمبر 1920، في الوقت الذي تنامت فيه الحركة السياسية " للشبان الجزائريين"، لكن هذه المرّة بقيادة الأمير خالد بن الهاشمي.

لقد بدا للإدارة الاستعمارية آنذاك، أنّ الصحافة التونسية أخطر من الصحافة المصرية. وحسب قول كلود Collot، فإنّ الإدارة الاستعمارية منعت دخول أربع صحف تونسية في 1920، وصحيفة واحدة عام 1922، وواحدة عام 1925م. وبالموازاة مع هذا كلّه، كانت بعض الصحف الجزائرية قد برزت بشكل لافت للانتباه، مثل صحيفة " الإقدام " للأمير خالد، وصحيفة " المنتقد " اللّتان أقتحمتا الساحة الإعلامية بالجزائر. وحينما تطوّر الحركة الإصلاحية بالجزائر، يتّم مع بعض صحفها من دخول المغرب الأقصى: مثل مجلة " الشهاب " وصحيفة " البرق " وهذا سنة 1927[3]. ومع أنّ الوضع السياسي المتّسم بالتّضييق على الممارسة الصحفية والممارسة السياسية أيضًا. لم يتطوّر بشكل كبير، ملائم للجزائريين، خاصّة وأنّ قانون " الأنديجينا"، قد تمّ الإبقاء عليه، بعد الحرب العالمية الأولى.

---

(1)– In Le Régime juridique de la presse musulmane Algérienne (1881- 1962) (Revue Algérienne des Sciences juridiques et politiques 1969 p : 352.

(2) -أنظر COLLOT ص 352.

(3) – أنظر: مجلة: الشهاب: العدد: 108 – 4 أوت 1927.

إلاّ أنّ السّياق العام الذي نتطرّق إليه الآن، والذي يُغطّي فترة النشاط الفكري والصحافي لعمر بن قدّور الجزائري، على الخصوص، يدفعنا إلى الإشارة، ولو باختصار، إلى أهمّ المظاهر السياسية بالنسبة للجزائريين، وإن كنّا أشرنا سابقًا إلى بروز تيار سياسي، عُرف بـ "الشبّان الجزائريين " قبل الحرب العالمية الأولى. غير أنّ نهاية ملامح هذا التّيار، ستكشف عن تطوّر وتحوّل سياسي، ببروز وجه جديد، ألا وهو الأمير خالد (1875/ 1936). ممّا سيدفع بمُضاعفة المطالب السياسية، أكثر ممّا ذهب إليه ( الشّبان ج) من قبل، خاصّة أولئك الدّاعين إلى الاندماج، وإلى فرنسة الشخصية الجزائرية [1].

ولم يأت قانون الإصلاحات السياسية الذي أصدرته الإدارة الاستعمارية بتاريخ 04 فيفري 1919 بما يخدم المطالب السياسية الجزائرية آنذاك. وعليه، فسوف تشهد هذه السنة تحرّكًا سياسيًا بمناسبة انعقاد مؤتمر السّلم في " عصبة الأمم " قاده الأمير خالد صوب الرئيس الأمريكي ويلسون. وقد كتب الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس في مجلّة " الشهاب " عن هذا الموقف: " حرّر الأمير خالد ورجاله عريضة للرئيس ويلسون، بيّنوا فيها حالة الجزائر في ذلك الوقت، وطلبوا فيها إدخال القطر الجزائري تحت جمعية الأمم، وتحت إشراف وعناية دولة، تختارها تلك الجمعية، ولم تكن جمعية الأمم وقتئذ قد خرجت لعالم الوجود ..."[2].

ففي شهر ماي 1919، يقف كممثل سياسي شرعي للجزائر المستعمرة، مخاطبا رئيس الولايات المتحدّة قائلا، بعد تنديده بالقمع الاستعماري: " في ظلّ الوصاية القائمة للإدارة الجزائرية [3]، أهالي المسلمون أقصى درجات الإذلال والمهانة، حيث أصبحوا غير قادرين على الاحتجاج خوفًا من قمع قاس يُكمّم الأفواه ... باسم مواطنينا (الجزائريين)، جئنا نخاطب مشاعركم، سيادة رئيس أمريكا الحرّة، نُطالب بإرسال مندوبين يتمّ اختيارهم من طرفنا بكلّ حرية، لتقرير مصيرنا المستقبلي، تحت إشراف عصبة الأمم ..." [4]. لكن النشاط السياسي للأمير تعرّض للكثير من الضغوطات، حتّى أنّه أُجبر على مغادرة الجزائر سنة 1923.

---

(1) – أنظر: - M. Kaddache : Histoire du Natinalisme Algérien. : p 75.

(2) – مجلة " الشهاب ": فيفري 1936.

(3) – يقصد بالطبع الإدارة الاستعمارية في الجزائر.

(4) – عن د. عبد القادر جغلول: نجم شمال إفريقيا ومسألة الاستقلال، صحيفة البلاد (الجزائر) ترجمة عبد الحميد ساحل بتاريخ 10، 11، 12 ماي 2005.

وكانت جريدته " الإقدام " أحد منابره السّياسية الأساسية، وممّا كتبه فيها يوم 02 مارس سنة نفيه (أي 1923)، مقاله الذي يقول فيه: " ... نرى شعبنا متشوّقًا إلى الحريّة، وتوّاقًا إلى حقوقه المدروسة، ولكن الإدارة المحلية، استعبدت بعض الأفراد من الأهالي، ممّن لا غيرة لهم، ولا عواطف بشرية، فمنحتهم الرّتب والمناصب، ووشّحتهم بالوسامات، واستعملتهم للضغط على الأهالي؛ كي لا يطمعوا في تحسين حالتهم الأدبية والعلمية، والسياسية .... فهيهات أن يدوم الوضع الحالي على ما هو عليه، لأنّ روح النهضة قد تجذرت ي عقول الأهالي، وا مُتمّ نوره. وإن كانت الأمّة جاهلة، فإنّها عارفة بقدر الحرية، لعوامل عديدة، منها: التجنيد الإجباري، واستخدام الفعّالين في فرنسا. فمخالطتهم للفرنسيين عرّفتهم بقدر الإنسان وحقوقه، وكذا صدى النهضة المشرقية، الذي كان يأتي به الرّكبان من كلّ فجّ عميـق، ويتـداوله الناس في حديثـهم ..." [(1)]. لقد كان هذا المقال آخر ما كتب الأمير خالد في جريدته " الإقدام ". إنّنا نلمس فيه دلالة سياسية كبيرة للمستقبل السياسي والنهضوي للجزائر.

أمل الجزائريين في الحرية كبير، رغم كل ممارسات الإدارة الاستعمارية. وعليه، فهو يشير إلى وجود تنامي للوعي السياسي للجزائريين بعد ح ع I، وخاصّة في الأوساط العمّالية بفرنسا. وبالتّالي، سوف يتأسّس أوّل حزب سياسي في الحركة الوطنية وهو: نجم شمال إفريقيا. وهذا في شهر جوان من سنة 1926 [(2)]، بباريس في فرنسا. والذي سيكون له الأثر البعيد في النشاط السياسي الوطني والثوري في الجزائر. ويرى المؤرّخ الجزائري أحمد توفيق المدني: "أن نجم شمال إفريقيا، كان مُهيمنا على الحياة السياسية بصفة مطلقة "[(3)].

تُعدّ فترة العشرينيات من القرن العشرين، فعلا فترة تنامي النهضة والحركة الإصلاحية بالجزائر، خاصّة بعد عودة الكثير من الشخصيات الجزائرية التي درست بجامع الزيتونة في تونس، أو في الأزهر، وبلاد الحجاز. والتي ستُقوّي، وتوسّع من مدى الأفكار الإصلاحية التي دعا إليها عمر بن قدّور الجزائري. وكان الشيخ عبد الحميد ابن باديس، قد دخل معترك الإصلاح في 1913، حين كان يُدرّس بالجامع الأخضر بقسنطينة، مستهّلاً بالتكوين الإصلاحي، المسجدي والمدرسي. وعندما يُنشئ ابن باديس جريدة " المنتقد " سنة 1925، تبرز نواة استمرارية الفكر الإصلاحي العملي، والتي بـدورها ستؤسّس جمعية العـلماء المسـلمين

---

[(1)] - جريدة الإقدام – العدد: 120 بتاريخ 02 مارس 1923.

[(2)] – أنظر (حول هذا الحزب): التاريخ السياسي للجزائر، د- عمّار بوحوش.

[(3)] – في كتاب الجزائر: ص 126.

عام 1931، أي سنة واحدة قبل وفاة مفكرّنا عمر ابن قدّور الجزائري، الذي يكون بهذا، قد شهد ميلاد مؤسّسة عظيمة، هي من غير شك، لبنة أخرى للحركة الوطنية بالجزائر. فكرة، طالما دعا إليها، لتعمل في نفس السّياق النهضوي والإصلاحي، ولكن ذات مدى جغرافي أوسع. وسوف تتضّح أبعاد فكرته تلك، في دراستنا هذه.

## المبحث الثاني: البيئة القانونية للممارسة الصحفية الجزائرية إبان الفترة الاستعمارية

بعد تناولنا لملامح من البيئة السياسية والاجتماعية التي سادت الجزائر إبّان الفترة الاستعمارية وحتّى تكتمل صورة الإطار العام للنشاط الصحافي والفكري لشخصية دراستنا فإنّنا ارتأينا إتباع هذا الجانب بإطار تاريخيّ آخر يتناول المحيط القانوني للنشاط الإعلامي.

فلا يتأتى فهم طبيعة الممارسة الإعلامية فهمًا واضحًا بدون الكشف عن السياق العام الذي تنشط فيه، وبالتالي فإنّ المقاربة التحليلية للمنتوج الإعلامي بذاته لا تكتمل بدون معرفة البيئة القانونية المؤثرة في الإطار التنظيمي والهيكلي للمؤسسة الإعلامية، وحتى المقارنة هذه التي تمزج التوصيف التاريخي في حيز آخر، قصد الكشف عن التوجهات وعن الأفكار المنعكسة في الصحافة، يستدعي من غير شك معرفة ملامح هذه البيئة القانونية الإعلامية.

إنّ خصوصية التجربة التاريخية للممارسة الصحفية الجزائرية إبّان الفترة الاستعمارية تقتضي منّا التساؤل حول تأثر مسارها بهذه البيئة، أي بيئة السياق القانوني الذي فرضته السلطة الاستعمارية، من خلال بعض الملامح التاريخية، مع الكشف عن بعض التصورات العملية التي تمّ اقتراحها من قبل الصحافيين الجزائريين لمواجهة تحديات المرحلة الاستعمارية، وهذا باستخراج معطيات كيفية (صنفية) من المادة الصحفية. لقد كان الرأي العام للوسط الجزائري كثيرًا ما يصطدم بذلك التطبيق التمييزي واللاعدل بالنسبة للتشريعات القانونية للصحافة، الذي كان يدعّم ويكمّل بصفة كبيرة التشريع المقيّد لتعليم اللغة العربية بالجزائر [1].

وبالرغم من إخضاع الصحافة الجزائرية لقانون حرية الصحافة الفرنسي الصادر في سنة 1881، إلاّ أن تطبيق هذا القانون كان يتسم بالتعسف، زيادة على تطبيق " قانون الأنديجينا " على الجزائريين والاعتبار الظالم للجزائر كجزء لا يتجزأ من فرنسا. وكان هذا التعسف خاصة إزاء الصحف الصادرة باللغة العربية التي كانت خاضعة لرقابة شديدة. ففي 1908 تم إنشاء "مصلحة ترجمة الصحافة العربية"، التي سيتم إلحاقها بـ "مديرية الشؤون الأهلية " في سنة 1920[2]. وكان قد صدر مرسوم في 11 جانفي 1901 ينص على مراقبة السكان المسلمين ومراقبة الصحافة الصادرة باللغة العربية من قبل الحاكم الاستعماري المكلف بالشؤون الأهلية

---

(1)- Claude Collot : le régime juridique de la presse musulmane algérienne (1881-1962) in : revue algérienne des sciences juridique économiques et politiques n1. Mars 1969, p 373.

(2)- Ihaddaden Zahir : histoire de la presse indigène en Algérie, des origines jusqu'au 1930 – Enal – Alger 1983, p69.

والأمن العام [1]. ويرى الباحث الفرنسي "كلود كولو" "Collot" بأنّ الإدارة الاستعمارية مارست إزاء الصحافة الإسلامية، أي الجزائرية، تمييزًا تأسس على خيار اللغة، المعتمدة من قبل الدوريات، وهذا إلى غاية سنة 1947. وبالتالي فلقد استفادت الصحافة الصادرة باللغة الفرنسية من معاملة قانون 1881 باسم سياسة الاندماج. في حين كان الموقف من الصحافة بالعربية، موقف "المشتبه فيه" كون خطّها يحمل في ثناياه دعاية مناهضة لفرنسا، واستعمالها للغة العربية معناه تأكيد على الهوية الجزائرية ومحاربة تيار التغريب أو الفرنسة، من هنا تم إخضاعها لنظام قمعي استثنائي غير رسمي، وهكذا أصبح مجال التعبير جدّ ضيق بالنسبة للصحافيين أو الكتاب[2]، وحتى أن مجرد التصريح أو الإمضاء بالاسم الحقيقي غدا جريمة سياسية على حد تعبير أحد الصحفيين آنذاك [3].

ولا شك تعتبر مسألة عدم التصريح بالأسماء الحقيقية إشكالاً علميًا للباحثين ذوي التوجهات المنهجية المختلفة للمنتوج الصحافي، وذلك في محاولة نسبة المقالات لأصحابها الحقيقيين، ومدى مصداقيتها. ولقد لمست لدى صاحب جريدة "الفاروق" الجزائرية التي صدرت سنة 1913 حرصه على ضرورة إشراك المثقفين والكتّاب من قرائه في المساهمة التحريرية، مع إعلانه عدم قبول المقالات غير الممضاة بأسماء أصحابها الحقيقية مع إمكانية جعل الرموز للأسماء في النشر [4].

ومع ذلك، فيبدو أنّه كان مرغمًا بحكم ظروف الوسط الجزائري وعلاقته بصحافة البلاد، على نشر مقالات بأسماء مستعارة مثل: "ابن الإسلام القسنطيني". ولا تقتصر هذه الظاهرة على الصحافة الجزائرية فقط، وإنّما كانت كذلك من سمات الممارسة الصحفية في العالم العربي. وتأكيدًا على ما نراه، يقول الدكتور "عبد اللطيف حمزة": "...لقد كان بجريدة المؤيّد مكاتبون في شتى أنحاء العالم... إلى مكاتبين آخرين في كلّ من مراكش وتونس والجزائر. وكان هؤلاء يخافون على أنفسهم بطش الحكومة الفرنسية، فلم يعلنوا عن أسمائهم" [5].

---

[1]– Kharchi Djamel: Colonisation et politique d'assimilation en Algérie 1830- 1962. Casbah edt, Alger 2004. P : 306.

[2] - Claude Collot, p 347.

[3] - في كتاب: شعراء الجزائر في العصر الحاضر- تأليف محمد الهادي الزاهري – مطبعة النهضة – تونس – 1346 هـ 1927 الجزء2، ص60.

[4] - جريدة (الفاروق) بتاريخ 07 مارس 1913.

[5] - جريدة (الفاروق) بتاريخ 07 مارس 1913.

فمن المهم إذن معرفة ملامح السياق السياسي الذي كان يشكل بيئة ضاغطة بأشكال وممارسات مختلفة من طرف الإدارة الاستعمارية، إزاء الصحافة الجزائرية ورجالاتها. وبالتالي فالبحث في ظهورها ووجودها يعتبر غامضا ومخلا بالمقاربة التحليلية والتاريخية إذا ما تم إهماله أو إغفاله. فها هي صحيفة تونسية تشير سنة 1906 إلى الأسباب المانعة للجزائريين من تأسيس جرائد عربية، رغم محاولاتهم العديدة في الحصول على الرخص القانونية. إلا أن الإدارة الاستعمارية كانت تنظر إلى الصحف المدافعة عن الدين الإسلامي والوطن بعين الاتهام السياسي. تقول هذه الصحيفة ( يسأل السائل هل عدم وجود الجرائد العربية بالقطر الجزائري ناشئ على قلّة المعارف والكتاب الجزائريين، أم لعلة تراها الدولة بمنعهم رخصة ذلك أو كيف الحال. والجواب سهل على ما ابدته لنا أهالي تلك الأقطار حيث أنهم طالما حاولوا إحداث جرائد عربية ويحصلون على رخصها لكن إذا عثرت الدولة على فصل يحتوي على الدفاع على الدين والوطن وينبّه الحكومة في ذلك إلاّ وأجابت نداءها بمنع رواجها وبطلانها بالمرة)[1]. وتتعجب الصحيفة من هذه الممارسة السياسية والتطبيقات إتجاه المسلمين الجزائريين لدولة تدعي أنها نصيرة الحرية وتعمل من أجل نشر المعارف الحضارية وحقوق الشعوب. وهكذا تقول (تعجبنا لذلك وقلنا في أنفسنا ما لي أرى دولة فرنسا الفخمة المتصفة بالحرية ترضى هاته الأعمال وأين رجالها الأحرار مردي التقدّم وبث المعارف والتمدّن والساهرين على حقوق رعاياهم والذب عن مصالحهم، ألم يسمعوا بتلك الحالة والتشديدات على المسلمين الجزائريين حتى يقوموا مدافعين بما توجبه الإنسانية والحرية عنهم ...)[2].

تشير هذه الجريدة إلى أن الصحيفة الوحيدة تلك الفترة، الصادرة باللغة العربية هي "المبشر" ولكنها صحيفة رسمية لا تجد فيها غير القرارات الرسمية والإعلانات القضائية. ثمة صحف قليلة تجد فيها صفحة أو نصف الصفحة باللغة العربية. ثم تدعو الدولة الفرنسية لمنع أهالي (مدن الجزائر إحداث جرائد عربية حرة تدافع على حقوق الأهالي وتشتكي الأضرار الواقعة لهم وترف صوتها لمن له النظر الأعلى من أرباب الحلّ والعقد من مجالس الوزراء والأمة والسينات ويقع التأمل من ذلك بما يناسب العدل والإنصاف والمساواة والحرية...). وتعتبر الصحيفة التونسية أن وجود جريدة إسلامية حرة تعبر على الرأي العام الإسلامي الجزائري كفيل بإيصال مطالب الجزائريين وإطلاع مختلف الهيئات المسؤولة عن الحالة

---

[1]– صحيفة إظهار الحق: (تونس) ديسمبر 1906.

[2]– في نفس المصدر.

التعسفية والمعاناة التي يتخبطون فيها وتطالب الحاكم الاستعماري آنذاك وهو "جونار" بإعطاء حرية المطبوعات لأهالي القطر الجزائري.

وحول هذه المسألة بالذات، فإننا عثرنا على نص مقال، للصحفي "عمر بن قدور الجزائري" موضوع دراستنا، يشرح فيه وضعية الصحافة العربية التي كانت تتساءل أيضا عن عدم إلتفات واهتمام الجزائريين بضرورة تأسيس جرائد باللغة العربية، فقال بأن الجزائريين من أشد الناس حبا للجرائد وأكثرهم ميلا لعالم الصحافة، وعلى الخصوص العربية منها . وهذا دليل على حفاظهم على تواصلهم مع الفضاء الحضاري العربي الإسلامي، برغم الحصار المفروض عليهم إعلاميا وسياسيا.

رأى هذا الصحافي القدير، أن انتقادات المشارقة من العرب في صحافتهم للجزائريين، ينجم عن جهلهم وعدم إطلاعهم على واقع سياسة الإدارة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، في تعاملها مع من يريد تأسيس جريدة باللغة العربية، أو أي مطبوعة بهذه اللغة. فكتب إذن سنة 1908 في جريدة "الأخبار" الصادرة بمدينة الجزائر قائلا [1]: ( ... يبقى الجزائري هدفا لسهام الانتقاد في هذا الباب وطالما تلقى من رفقائنا أصحاب الجرائد الإسلامية الشرقية الاعتراضات والانتقادات الفظيعة على عدم قيامه بهذه المهمة مهمة الصحافة العربية ولو كان لأولئك السادة المنتقدين أقل إطلاع على السياسة التي تجري في الجزائر لاطلعوا أول ووهبوا العذر الجميل للمسلم الجزائري .

نعم كلّما صدرت جريدة أو مجّلة عربية إلا وسقطت في الحين بالعلل التي أنكت منساة الجزائري، وهكذا السياسة تتقلب على صفحات الوجود فلا ترى لمن أفنته من باقية ...). وهذا ما يؤدي إلى تفسير توقيف مشروع إصدار جريدتين من طرف مجموعة من التجار المثقفين من بني ميزاب، سنة 1907. كانت الأولى باللغة العربية وتسمى " الإصلاح" أما الثانية باللغة الفرنسية فتسمى "الاتحاد " بحيث كان سيتم طباعتهما بمدينة الجزائر. ويبدو أن توجه المشروع الصحافي هذا آنذاك، الذي كان بدافع الغيرة الوطنية والإسلامية، اصطدم بإجراءات الإدارة الاستعمارية، التي أوقفت ما كان سيهدف إلى إحداث يقظة الجزائريين واستنهاضهم في سياق مصالح وطنية والدفاع عن حقوق الدين الإسلامي.

إذن فمجرّد وجود صحافة باللغة العربية في الجزائر، يشكل صورة من صور التحدّي وحتى النضال، ولا يتعلّق الأمر بالمضامين الفكرية أو السياسية فقط. كانت المادة القانونية رقم

---

[1]– صحيفة الأخبار: بتاريخ 26 جويلية 1908.

14 من قانون حرية الصحافة الفرنسي لعام 1881، تعتبر الدوريات أو المطبوعات الصادرة بلغة غير اللغة الفرنسية أجنبية على التراب الفرنسي. من هنا جاء اعتبار اللغة العربية إذن في الجزائر آنذاك، أيام الاحتلال، لغة أجنبية. وكانت كلّ الصحف الصادرة باللغة العربية ملزمة بترجمة مادتها الصحفية إلى اللغة الفرنسية [1].

وأحيانًا كان هذا الإلزام بالترجمة يشكّل خطورة على استمرارية النشاط الصحافي، بسبب أخطاء مرتكبة أو أخطاء متعمدة. وبالتالي فهو يمثل رقابة سابقة عن النشر، وعلى سبيل المثال أشار أحد كبار الصحافيين الجزائريين في تلك الفترة، وهو "أبو اليقظان" (1888 / 1973) إلى استدعائه من قبل قاضي التحقيق الفرنسي في شهر ماي من سنة 1929، بعد تعطيل جريدته "وادي ميزاب" بقرار من الوزارة الداخلية، مؤرّخ في 18 جانفي 1929، أشار إلى مسألة تشويه الحقائق، "سيما وأن الترجمة التي ترجمت بها فصول الجريدة كانت محرّفة وهي التي أحدثت التشويش وأثارت الحكومة على الجريدة..." [2].

وأبو اليقظان بذاته يشكل ظاهرة صحفية متفرّدة، تنطبق عليها ما قاله المؤرخ والسياسي "أحمد توفيق المدني" حينما كتب معلّقًا على مصير ومسار الصحافة الجزائرية الصادرة باللغة العربية، وهذا في مؤلفه "كتاب الجزائر" غداة صدوره سنة 1931: "لا تتمتع صاحبة الجلالة المسكينة بأي حق ولا بأي حرية في الجزائر إذا كانت لغتها عربية، أما إن كانت لغتها فرنسية فهي تتمتّع بأقصى الحقوق وتاريخ الصحافة العربية الجزائرية ليس إلاّ تاريخ نضال متواصل وسقوط متتابع في ميادين الشرف" [3]. فهذا الصحافي المناضل والمصلح أصدر لوحده ثمانية صحف، كلّما أوقف له الاستعمار واحدة أصدر الأخرى وهي كالتالي: صحيفة وادي ميزاب، أصدرها سنة 1926 بالجزائر وأوقفت سنة 1929 صحيفة "ميزاب" صدرت وتم إيقافها في سنة صدورها سنة 1930، صحيفة "المغرب" أصدرها سنة 1930 وتم توقيف صدورها سنة 1931 م، صحيفة "النور" صدرت سنة 1931 وتم تعطيلها سنة 1933، ثم صحيفة "البستان" تم تعطيلها في سنة صدورها 1933، وأصدر "النبراس" في نفس السنة كذلك، ثم أصدر صحيفته "الأمة" في هذه السنة التي استمرت إلى غاية 1938م، التي أصدر فيها صحيفة "الفرقان" بعد شهر ونصف

---

(1) - في: أدب المقالة الصحفية في مصر- المجلد الثاني الهيئة المصرية العامة للكتاب- 1995 ص101.

(2) -In : Ihaddaden (z) : Histoire de la presse indigène en Algérie de 1830 jusqu'au 1930. p 70.

(3) - يراجع: تاريخ صحف أبي اليقظان – بقلم أبي اليقظان إبراهيم عيسى – تقديم و تعليق: د.محمد ناصر. مطبعة دار هومة – الجزائر – 2003، ص 40 إلى 48.

من صدور قرار مصادرة جريدة "الأمة"، وكان ذلك في 05 يوليو 1938م [1]. وثمّة صحافي آخر وهو "محمد السعيد الزاهري" (1899 /1956) الذي أرجع مصادرة صحيفته "الجزائر" سنة 1925، إلى الأخطاء التي وقع فيها المترجم، في بعض الكلمات[2] ، وكتب آنذاك مقالاً في مجلة "الشهاب" الجزائرية، معبّرًا عن التعسف والضغوط التي تتعرّض لها الصحافة باللغة العربية، قائلاً: "... صحافتنا العربية، وهي فرنسية، حيث الوجهة القانونية لا تزال تنزح تحت الأغلال والقيود، قد سدّت السلطة وثاقها، وأسكتت بخناقها، تُكتم كما تشاء وتختار وتقتلها دون محاكمة ولا سؤال، إنّنا معشر الجزائريين عرب ومسلمون، والقانون الفرنسي يعتبرنا من الفرنسيين لنا ما لهم وعلينا ما عليهم، ولكن القرارات والمناشير المختلفة التي صدرت في أوقات مختلفة تشل هذا القانون. قد فرضت علينا ما فرضت على الفرنسيين من الواجبات والتكاليف، وحرمتنا من كلّ ما لهم من الحقوق والحريات... كذلك صحافتنا العربية هي فرنسية من حيث القانون ولكنّها حُرمت من الحرية... فللسلطة الإدارية أن تعطّل أـية جـريدة عربيـة فـي الجـزائر بسـبب أو بلا سبب" [3].

ورغم إشارة "الزاهري" في ثنايا هذا المقال إلى تمتع الصحافة الصادرة باللغة الفرنسية بالحرية، إلاّ أنّ بعض القرارات التي صدرت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مسّت بعض الصحف الجزائرية المزدوجة اللغة، فالباحث "كلود كولو" "Collot" أشار إلى الضغوط والتعطيل الذي مسّ هذا الصنف من الصحف. فالصحافة التي كانت تتمتع بحرية شبه مطلقة، هي تلك الصحافة الموالية للاندماج الثقافي والسياسي [4]. وتبقى صحيفة "التقدم" (1923 – 1931) للدكتور "بن التهامي" مثالاً على هذا التوجه والمعاملة الإدارية الاستعمارية [5]. فالتصنيف مسّ إذن حتى الصحافة الجزائرية الصادرة بالفرنسية، التي كانت تعمل على نشر الأفكار الوطنية، سواء اعتمدت شكلاً سياسيًا أو شكلاً دينيًا.

---

[1] - أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر – طبعة ثانية – طبق الأصل – نشر دار الكتاب البليدة – الجزائر دار المعارف 1382ه-1963 ص 344.

[2] - انظر: أبو اليقظان و جهاد الكلمة . الدكتور محمد ناصر المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر-1983. سلسلة الأدب العربي.

[3] - يراجع كتاب : محمد سعيد الزاهري – د. صالح خرفي المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري طبع 1986 بالإضافة إلى : الصحف العربية الجزائرية (من 1847- 1939) د. محمد ناصر - الجزائر 1980.

[4] - مجلة (الشهاب) الجزائرية – المجلد التاسع (1933) المجموعة الكاملة : دار الغرب الإسلامي.

[5] - نفس المرجع السابق لـ: Claude Collot p360 .

كما اشترطت الإدارة الاستعمارية على الصحافيين الجزائريين الجنسية الفرنسية لمن يريد إصدار الصحف. لهذا لجأ العديد منهم لأشخاص أجانب متجنسين بالجنسية هذه، أو إلى مسلمين أجانب متجنسين بها، مثال على ذلك، نذكر السيد "محمد شريف جوغلاري" "Juglary" [1] ولإيضاح أكثر لطبيعة السلطة في تعاملها التعسّفي، إزاء الصحافة الصادرة بالعربية، حسب السياق السياسي، يمكن أن نذكر أنّه مع قيام الحرب العالمية الأولى، حيث توقفت جميع الصحف الجزائرية، بادرت الإدارة الاستعمارية إلى توقيف جريدة "ذو الفقار" بعد صدور العدد الرابع يوم 28 جوان 1914. وكان عمر راسم (1884 / 1957) صاحب هذه الجريدة صحفيًا ومثقفًا معروفًا بمواقفه المناهضة للتجنيس بالجنسية الفرنسية وللتجنيد الإجباري.

ويظهر خبر المصادرة في جريدة "الفاروق" في شهر جويلية وبقلم عمر راسم ذاته، تحت عنوان "تعطيل ذي الفقار" [2]. كتب: "بكل الأسف نعلمكم بأن جريدتنا "ذا الفقار" قد تعطلت عن البروز نهائيا لأمر محتوم وقضاء لا يردّ، فالمرجو من فضلكم نشر هذا ليطّلع مشتركونا على ذلك والسلام".

ويرى الصحافي "عمر بن قدور" الجزائري، تعليقًا على هذا التعطيل بأنّ الضغوط السياسية وغير الرسمية هي التي كانت وراءه، وكتب في نفس خانة هذا الخبر: (... ونحن لا يسعنا لقاء هذا النبأ إلاّ أن نتأسّف لعد اطّلاعنا على ما يوجب تعطيل وصيفتنا "ذي الفقار" وإن كنّا نعلم أنّ هناك موانع سياسية قد حيّرت هذه الجريدة في موقف صعب وأمام محاط الأنظار).

ولا يتوقف الأمر عند حدّ مصادرة هذه الجريدة، وإنّما تتم محاكمة "عمر راسم" ويتهم بالتعاون مع العدو (ألمانيا) والتخابر معه، فيحكم عليه بالمؤبد، ولكن يخفف الحكم ويسجن بمدينة الجزائر مدة سبع سنوات كاملة [3].

وسوف تتعرض صحيفة "الفاروق" لنفس المصير بإيقافها في يناير 1915، وتم نفي صاحبها "عمر بن قدور" بعيدًا عن العاصمة الجزائر إلى منطقة (الأغواط) بالجنوب الجزائري، وبقي في منفاه مدّة خمس سنوات مدّة الحرب العالمية الأولى، حيث تم الإفراج عنه بعدها [4].

---

[1] –أنظر: معجم مشاهير المغاربة تحت إشراف د/أبو عمران الشيخ، جامعة الجزائر 1995 ص: 573.

[2] – جريدة (الفاروق) الجزائرية بتاريخ: 12 جويلية 1914. العدد 69.

[3] – في كتاب الجزائر، مرجع سابق. ص: 344.

[4] – في كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 344.

بعد نهاية هذه الحرب، وبالرغم من صدور قانون 04 فيفري 1919 الذي نص على بعض الحقوق السياسية، تظهر من جديد بعض الصحف الجزائرية، لكن سوف تصطدم بسرعة كما يقول "كلود كولو" "Collot" بعراقيل الإدارة الاستعمارية، مع مراقبة مشدّدة لأية مطبوعات صحفية باللغة العربية على الخصوص، خاصة وأن حقبة العشرينات من القرن العشرين كانت تتميز بحركية سياسية وإصلاحية فاعلة. وذلك بتصاعد النضال السياسي للأمير خالد، حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، وظهور حزب نجم شمال إفريقيا، وبالتالي بروز النخبة الإصلاحية مع إصدار صحيفة "المنتقد" سنة 1925 لصاحبها الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس، هذه النخبة التي سيكون بعض أعضائها مؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931.

من النماذج الصحفية الجزائرية لتلك الحقبة، والتي تعرضت لضغوط ومضايقات عدّة، نذكر صحيفة "الصديق" التي أصدرها كل من "عمر بن قدور" والسيد "محمد بن بكير" سنة 1921، حيث تعرّضت لعمليات تفتيش ومضايقة شديدة، انعكست في ردّ فعل صحيفة "الإقدام" لصاحبها الأمير خالد، حيث قدّم هذا الأخير تنديده وعبّر عن استنكاره لهذا الإجراء التعسّفي، حيث عمدت الشرطة إلى حجز جميع الأوراق والجرائد الموجودة بالإدارة، حتّى المقالات المعدّة للطبع. ولقد استغرب الأمير خالد للإهانة التي لحقت آنذاك برئيس التحرير "المولود بن محمد الزريبي"، وصرّح بأنّ الخط الافتتاحي للصحيفة لا يحمل توجّهًا سياسيًا، وإنّما هي إخبارية اقتصادية، فكتب موجّها مقاله المعنون بـ "إلى الوالي العام": "... إنّ "الصديق" جريدة اقتصادية ليست سياسية، إذ لم تشغل منذ نشأتها به سائر السياسة الداخلية، فهي ليست صحيفة دفاع، بل صحيفة إخبارية اقتصادية، فهل من العدالة والإنصاف بل من الإنسانية إهانة أربابها وهتك حرمتهم...؟ وهل من العدل والقانون التفتيشي من غير أمر السيد قاضي الاستنطاق؟ وهل من القانون الاستيلاء على الأوراق المعثور عليها والسير بها من غير أن يختم عليها؟" [1].

ولقد أشار "محمد الهادي الزاهري" إلى مدى التضييق والتعقيد الذي تعرّض له ممارسو الصحافة في تلك البيئة السياسة الاستعمارية، حيث كتب: "... ولو علمت ما للبوليس من هجمات على مولود الزريبي في مكتبه يحرّر بعض المقالات، لعلمت مقدار ما يقاسيه الصحفي في ذلك الوقت الرهيب وحتى في هذا الوقت مع فرق يسير" [2].

---

(1) – جريدة (الإقدام) العدد 22- بتاريخ: 25 مارس 1922. عن عبد الحميد ساحل (أصول الفكرة الإصلاحية من خلال الصحافة الجزائرية (1903- 1925) رسالة ماجستير. جامعة الجزائر 2001 (غير مطبوعة).

(2) – شعراء الجزائر في العصر الحاضر – ج2- تونس، 1927، ص: 102- 103.

والملاحظ تاريخيًا، أنّ المطالبة بالإصلاحات السياسية والاجتماعية التي ميّزت المسار النضالي للأمير خالد، مع تنامي مكانته في أوساط الشعب الجزائري، جعلت الإدارة الاستعمارية تلجأ إلى توقيف المنابر أو القنوات التواصلية التي كان يستخدمها، وأحيانًا بوسائل ضغط غير مباشرة، ومنها صحيفة "الإقدام" التي توقفت في 06 أبريل 1923، بسبب تعرضه للنفي السياسي خارج الجزائر في نفس السنة.

من جهة أخرى، سوف يتم مصادرة جريدة "المنتقد" لصاحبها الإمام "عبد الحميد بن باديس" بعد ظهور 18 عددًا فقط، وذلك في ذات سنة صدورها، أي 1925. هذه الجريدة التي كانت بمثابة انطلاق مرحبة جديدة في حركية التيار الإصلاحي بالجزائر، وكان صدور المرسوم الوزاري إبان حكومة "فيوليت" "Viollette" بمنع "المنتقد" يوم 13 أكتوبر 1925 أوّل تعطيل رسمي، وممّا جاء فيه، كون الصحفية "قد كشفت عن اتجاهات من شأنها إثارة النظام العام في الأوساط الأهلية" أي الجزائرية [1].

وكانت النخبة الإصلاحية التي كانت تتخذ صحيفة "المنتقد" فضاءًا صحافيًا لطرح أفكارها، ضمن المجموعة المؤسسة لهيئة العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931، ويبدو أنّ الوسيلة الإعلامية المتمثلة في الصحافة المكتوبة، كانت تشكّل وسطًا حقيقيًا وفعالاً في نظر الجمعية، وإحدى الأدوات والأجهزة المعتمدة في النشاط الإصلاحي بمختلف جوانبه. من هنا سوف تعمل على إصدار عدد من الجرائد التي وقفت لها الإدارة الاستعمـارية بمرصـاد القمـع والتعطيل.

وهكذا فإنّ جريدة "السنّة" الصادرة بقسنطينة 1933 [2]، سوف تتوقّف جراء مرسوم منعها في 22 جوان من نفس السنة، وكرد فعل، قام السيد "بوشمال بن إسماعيل" المتصرف الإداري لها، بالطعن أمام المحكمة ضدّ منع هذه الجريدة قائلاً بأنها لم تكن تتناول على صفحاتها إلاّ القضايا الدينية والعقائدية، ولا يمكن إدراجها في خانة الصحف والمطبوعات الناطقة باللغة الأجنبية، بالمعنى المنصوص عليه في قانون جويلية 1895. ولقد قام مجلس الدولة الفرنسي برفض هذا الطعن يوم 08 فيفري 1935، بالاستناد إلى الإجراءات المترتبة عن المادة 14

---

(1) – أسس الأمير خالد جمعية (المؤاخاة الجزائرية) 1922 وعند عرض برنامجها في شهر مارس من نفس السنة سجل حضور أربعة آلاف جزائري وكان يأمل أن تتحول إلى (حزب حر) مستقل عن الإدارة- في: أصول الفكرة الإصلاحية – مرجع سابق، ص: 191.

(2) – أنظر حول هذه الصحيفة: الصحف العربية الجزائرية للدكتور محمد ناصر (مرجع سابق).

لقانون 29 جويلية 1881 والمعدّل بقانون 22 جويلية 1895، التي تنص على أنّ الصحف الصادرة باللغة العربية، طبقا للعلل المضمّنة فيها، صحفًا صادرة باللغة الأجنبية "ولهذا يتم الترخيص للحكومة بمنعها حسب هذه الإجراءات المتعلقة بهذا الأمر" (1)، وهكذا فما بين 1925 و1930 كانت هناك 12 صحيفة باللغة العربية، وتم توقيف ثمانية (08) صحف منها حسبما ذكره الدكتور "زهير إحددان" (2).

وتبقى تجربة الصحافي المصلح "أبي اليقظان" (1973/1988) مثالاً آخر بارزًا عن سياق البيئة القانونية المحيط بالصحافة الناطقة باللغة العربية. ففي 1929 يصدر قرارًا من وزارة الداخلية ينص على تعطيل جريدة "وادي ميزاب"، التي أصدرها عام 1927، وذلك بمنع بيعها وطبعها وتوزيعها (3). ويقول "أبو اليقظان" بأنّ قاضي التحقيق وجّه له تهمة الانتماء للنزعة البلشفية، مع كتابته لمقالات تدعو إلى تأسيس بنك جزائري محض (أي الأهالي) واعتباره التجنيس بالجنسية الفرنسية خروجا عن دين الإسلام، وكذلك انتقاده لسياسة التنصير والتبشير المسيحي في منطقة غرداية.

وهذه الأحداث المتعلّقة بالبيئة القانونية الاستعمارية تدلّ على مدى توسّع الرقابة الإدارية السياسية التي تدقّق وتحلّل التوجّهات الإصلاحية والسياسية للصحافة الناطقة بالعربية في الجزائر. وتشير التقارير التحليلية والسرية الموجّهة للحكومة العامة إلى تصنيف اتجاهات الصحافة الجزائرية في خانات معينة، فعلى سبيل المثال وفي سنة 1938، اعتبرت النشرة الشهرية الخاصة بالصحافة الأهلية جريدة "البصائر"(4) التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الناحية السياسية ذات توجهات وطنية، وتعكس تيار الجامعة الإسلامية (Panislamisme) وتيار القومية العربية (Panarabisme) في نفس الوقت، أما من الناحية الدينية توجهاتها إصلاحية (Orthodoxe) ومناهضة للمرابطين (للطرقية)، وتضع مجلّة "الشهاب" لعبد الحميد بن باديس سنة 1939 من الناحية السياسية والدينية في تيار جريدة "البصائر" ذاته، في حين فإنّها تعتبر جريدة "النجاح" الصادرة باللغة العربية انتفاعية (انتهازية Opportuniste) من حيث التوجه السياسي، وأمّا من الناحية الدينية فهي مؤيّدة للزوايا، وأمّا

---

(1)– In Collot : Le Régime juridique, p : 374.

(2)– In : Histoire de la presse indigène en Algérie : p 80.

(3) – تاريخ صحف أبي اليقظان: مرجع سابق ص 42.

(4) – أنظر نفس المرجع: ص 48 إلى 62.

جريدة "الأمّة" لحزب الشعب الجزائري فاعتبر التقرير السّري توجّهها السياسي، استقلاليًا عنيفًا (Autonomiste Violent) [(1)].

والغريب أن الضغوط الإدارية على الممارسة الصحفية، مسّت حتى النسخ والطبعات العربية للصحف الفرنسية الانتقادية، المراقبة هي أيضًا، حيث تعرضت جريدة "الصحافة الحرة" (لابريس ليبرو) الناطقة باللغة الفرنسية إلى مضايقات شديدة من طرف الإدارة الاستعمارية، وانطلاقًا من الوضعية التعسفية من الوجهة القانونية والسياسية، التي تعيشها الصحافة بالعربية في الجزائر، رأت إدارة هذه الجريدة، أي "الصحافة الحرة"، توقيف الطبعة العربية توقيفًا مؤقتًا، وهذا سنة 1928، بالرغم من النجاح والانتشار الذي بدأت تعرفه في أوساط القرّاء الجزائريين على حسب ما جاء في الإعلان المنشور في مجلة "الشهاب". أشارت إدارة تحرير هذه الصحيفة، التي كان لها موقف مشرف وانتقاد للإدارة الاستعمارية حينما صادرت جريدة "وادي ميزاب"[(2)]، إلى الأحكام القانونية المسلّطة على المنشورات في الجزائر، ممّا يجعلها عُرضة لمختلف الضغوط والمخاطر. مع ذلك اعتبرت هذه الصحيفة أنّ انتقادها السياسي للحاكم السيد "بورد" "Bordes" وراء تعريض الطبعة العربية "للصحافة الحرة" لنيّة التعطيل من قبل إدارته، وممّا جاء في الإعلان: "... إنّ المنشورات العربية تخضع لأحكام خصوصية تجعلها تحت مراقبة الوالي العام نفسه، فالوالي بنيابته عن وزير الداخلية له الأمر ما يظهر له أن يعطل أي جريدة عربية مع تحديد مدّة تعطيلها إن ظهر له ولا يسأل عن موجبات حكمه ولا يطالب بيان أسبابه. فلو نشرت (صحيفتنا الحرة) نشرتها العربية لكانت تقع حينًا تحت مراقبة الوالي، بمعنى أنّها تعرض نفسها لثارات مخطرة" [(3)].

إذن نستطيع أن نؤكّد ما ذهب إليه الباحث "كلود كولو" من أنّ التفسير السياسي هو الذي سوف يكون أحد أسباب تعطيل ومصادرة الصحف الجزائرية [(4)].

---

(1)– In Bulletin mensuel de la presse indigène d'Algérie- (gouvernement général) de 1938 et 1939.

(2) – أنظر كتاب: تاريخ صحف أبي اليقظان ص 40، مرجع سبق ذكره.

(3) – في مجلة (الشهاب) العدد 174- 29 نوفمبر 1928 قسنطينة 17 جمادى الثاني 1347.- المجلد الرابع – طبعة دار الغرب الإسلامي ط 1، 2001.

(4) – أنظر:

- In : revue algérienne des sciences juridiques économique et politique, p 373.

- **تصورات تنظيمية نضالية:**

والآن التساؤل المطروح، ما هي التصوّرات العملية والتنظيمية التي تمّ اقتراحها من طرف الصحافيين الجزائريين، لمواجهة تلك الممارسات التقييدية في تلك المرحلة التاريخية المتّسمة بذلك السياق القانوني الذي أشرنا إليه؟

حينما تم تفتيش مقر جريدة "الصديق" ومصادرة الوثائق وأوراق المقالات المعدّة للنشر، قامت جريدة "الإقدام" للأمير خالد باستنكار الإجراءات التعسفية في حق صحيفة إصلاحية اقتصادية، ليس لها الصفة المطلبية السياسية، ولكن أحيانًا كانت مواقف الصحف الاندماجية سلبية [1]، وهذا ما اعتبره "أبو اليقظان غير مشرف"، كما حدث بالنسبة لموقف جريدة "التقدّم" لصاحبها "ابن التهامي" من مصادرة ومنع صحيفة "وادي ميزاب" [2].

في حين وجدنا مجلّة "الشهاب" لعبد الحميد بن باديس، قد ندّدت بهذا التعطيل، واعتبرت الإجراء لا يعكس الجوّ الحقيقي لحريّة الصحافة، وأنّه لا يزال يكرّس الأسلوب التمييزي في التعامل مع الصحافة بالجزائر. كتبت "الشهاب": " عطّلت رصيفتنا (وادي ميزاب) الغرّاء ونحن يسوؤنا أن يتوالى تعطيل الصحف العربية تعطيلاً إداريًا بمقتضى المعاملة الخاصة التي تعامل بها رصيفاتها الفرنسية والتي لا يكون معها شيء من حرية الصحافة الحقيقية ولائقة بالبقاء. لا نشك أنّ الذين يريدون أن يظهروا الجزائر في السنة القادمة في المظهر اللائق بسمعة فرنسا التمدينية يأسفون لفقر الجزائر يوم ذاك من الصحافة الحرة التي هي عنوان حياة الأمم ورقّيها في هذا العصر، أمّا الرصيفة العزيزة فلها الشرف بتعطيلها، كما لها الشرف في رواجها، ولقد فقدت الصحافة الجزائرية بتعطيلها عضوًا عاملاً نافعًا، ومظهرًا من مظاهر رقّيها ونزاهتها فأسفنا عليها مؤلم وشديد" [3].

لمّا تعرّضت جريدة "الشعب" الصادرة باللغة العربية للتعطيل، يوم 27 أوت 1937، والتي كانت الجريدة الرسمية لحزب الشعب الجزائري (PPA) وكان رئيس تحريرها الشاعر المناضل "مفدي زكريا"، تقف مجلة "الشهاب" موقف المحتج والمستنكر لقرار مصادرة العدد الثاني من "الشعب" وهو تحت الطبع، مندّدة مرّة أخرى بالإجحاف الذي يمسّ الصحافة باللغة العربية، كتبت "الشهاب": "في الوقت الذي تتمتّع فيه الصحافة الفرنسية بالجزائر على اختلاف

---

[1] – سبقت الإشارة إلى هذا الموقف.

[2] – تاريخ صحف أبي اليقظان – مرجع سابق، ص 40.

[3] – أنظر مجلة الشهاب – عدد فيفري 1929.

أغراضها ومناحيها بكبّ حرية رغم ما يكون فيها من دعايات وتهييجات عن صواب أو عن خطأ يضيّق على الصحافة العربية الخناق، وتُضرب بالتعطيل دون مقابلة ولا محاكمة، وقد نُفذ هذا أخيرًا على جريدة "الشعب"، فعطل عددها الثاني وهو تحت الطبع، فنحن بألم مع الرصيفة في مُصابها ونحتج باستنكار تام هذه المعاملة الاستثنائية الجائرة" [1].

بطبيعة الحال، وإزاء هذه الوضعية فإنّ إدارة الصحف الجزائرية سعت إلى تقديم طعون عديدة لدى القضاء الفرنسي، مثلما كان يقوم به السيد "بوشمال" إزاء تعطيل صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما سلف ذكره، بالإضافة إلى استنكار مختلف القرارات التعسفيّة عبر أعمدة الصحافة الجزائرية. وفي بداية الثلاثينات من القرن العشرين، دعت جريدة "البلاغ الجزائري" إلى إدراج نص مطلبي يقدّمه النوّاب الجزائريون لبعثة مجلس الشيوخ الفرنسي يتضمن مسألة الصحافة العربية في جملة المطالب الأهلية، أي الخاصة بالجزائريين، فالجريدة اعتبرت أنّ تعامل الإدارة الاستعمارية باللغة العربية فيما يتصل بإصدار جريدتها الرسمية بها، يجعلها عمليًا "لغة" رسمية ولكن "مع ذلك تعتبر الصحافة العربية صحافة أجنبية وتعاملها معاملة الصحف الأجنبية، فالإدارة بذلك تحرم نفسها من الاطلاع على آراء وأفكار رعاياها، كما تحرم الأهالي من بيان ونشر أفكارهم بصفة عامة، فلهذا نطلب للصحافة العربية بالقطر الجزائري الاستفادة من قوانين سنة 1881" [2].

وكانت جريدة "البلاغ الجزائري" في 17 من شهر أفريل من هذه السنة، أي 1931 قد نشرت خبر تعطيل جريدة "المغرب" لأبي اليقظان وطرحت مسألة حريـة الصحـافـة العربيـة في الجزائر.

أمّا جانب تأسيس هيئات صحافية نقابية، فالمناداة به، برز في وقت مبكّر. وهنا يبدو لنا أنّ سعي الصحافي "عمر بن قدور" الجزائري المبكّر في هذا السياق، كان يعكس رؤيته العملية لواقع النشاط الصحفي بالجزائر آنذاك، وبالتالي مناداته بضرورة تأسيس هيئة دولية، أو نقابة صحفية ذات بعد إقليمي عربي إسلامي سنة 1911، بمعنى في الفترة التي كان يمارس نشاطه الصحافي، قبل تأسيسه لجريدته "الفاروق" تعكس طبيعة تخوّفه من السّياق السياسي الاستعماري، ورؤيته الإصلاحية والتنويرية لمهام الصحافة في العالم الإسلامي. ففي دعوته هذه امتداد لصرخات أخرى قامت في هذه المنطقة الحضارية، مثلاً فلقد عثرنا على نفس التوجّه التنظيمي

---

[1] - أنظر مجلة الشهاب- الجزء 8 من المجلد، 13 أكتوبر 1937.

[2] – مقال: أمام بعثة مجلس الشيوخ: الصحافة العربية في الجزائر في (جريدة البلاغ الجزائري) 8 ماي 1931.

والنقابي لدى الصحافة التونسية بداية من سنة 1907 من خلال الدعوة إلى تأليف جمعية الجرائد العربية بتونس على غرار الجمعيات الأوروبية [1].

لقد دعا "عمر بن قدور" عبر جريدة "الحضارة" الصادرة بأنقرة لتأسيس ما سمّاه "جامعة الصحافة الإسلامية"، مع إعداد تصوّر هيكلي لها، بحيث تعقد مؤتمرًا كلّ سنة في عاصمة من العواصم الإسلامية، وهذه الهيئة تجسيد فعلي للاتحاد والأخوة الإسلامية، التي ينبغي أن تكون فوق الاختلافات السياسية. كتب قائلاً في هذا الشأن: "... لنخرج ذلك إلى حيّز الفعل والعمل فنتواطأ على تشكيل (جامعة الصحافة الإسلامية) تكون لها نقابة ومجلس ورئيس وصندوق مال فيلتئم الشمل المتشتّت في الأوراق، وتنتظم أقوالنا، وترتفع على أساس العمل".

وكانت دعوته هذه تنم كذلك عن سعة أفق فكري وسياسي مدرك لراهن العالم الإسلامي آنذاك، فقال بما أن المشروع هذا يتسع لكلّ أنواع الصحف، فيما يخصّ توجهاتها، فإنّه موجّه لمختلف لغات صدورها، حتى وإن كانت لغة الصدور أجنبية بشرط أن تكون ملكًا لرجال مسلمين، وأكّد على تضافر الجهود المالية. وضرب مثلاً بالإعانة المالية التي قدّمها الاشتراكيون الألمان للسيد "جوريس" في إصدار جريدته الإنسانية)، ثمّ دعا إلى إعداد القـانون الأسـاسي لهذه الهيئة [2].

إنّ فكرة تأسيس نقابة قد تبلورت في الجزائر، سنوات بعد ذلك، وكانت معاناة الصحافيين الجزائريين مسؤولين وغير مسؤولين، مراسلين ومتعاونين، قد ساهمت في تفعيل دعوة التأسيس من حين لآخر. ففي شهر ماي من سنة 1928، وتحت عنوان "صحافتنا هل يمكن أن نؤسّس لها نقابة"، طرحت مجلة "الشهاب" فكرة التأسيس من جديد، ولكن في نطاق محلّي جزائري، وفي إطار نقابة الصحافة الفرنسية. وهذا بغرض تشكيل نقابة الصحافة الجزائرية حتى تكون قوة متضافرة، تتحدّى صعوبات وضغوطات القوانين التعسفية. وعكست الدعوة هذه التخوف الذي رجّحناه في تفسير دواعي نداء "عمر بن قدور". وذلك في التأكيد على عنصر التكاثف فيما بين مختلف الصحف في ساحة السياسة الجزائرية. كتبت "الشهاب" "ما أكثر ما تعرض في السياسة الجزائرية، مسألة عامّة تتفق عليها الأفكار في جلبها ودفعها، وتحتاج هنالك الأمّة لصحافتها، وتحتاج كلّ صحيفة إلى مناصرة أخواتها.

---

[1] – أنظر (الحقيقة) التونسية.

[2] – يقصد: السيد جون جوريس مؤسس جريدة (L'humanité).

ولكن ذلك الانفراد والتفرّق يحولان دون المناصرة... إذن حقّ على هذه الصحف في مثل هذا المقام، إلى ما في تأسيس النقابة من منافع جمّة ترجع على الصحافة كلّها... نعرض هذه الفكرة على الرصيفات كلّها وننتظر رأيها ورأي الكتاب..." [1].

وسوف يعيد طرح الفكرة مرّة أخرى الصحافي "محمد السعيد الزاهري"[2]، من منظور المعاناة التي يقاسيها الصحافيون الجزائريون، ومشيرًا في ذات الوقت إلى ضرورة عدم إساءة استعمال مجال حرية الصحافة طبقًا لقانون المطبوعات الفرنسي، ثم يردف قائلاً: "... إنّه يجب علينا أن نبادر بتأسيس نقابة للصحافة العربية الجزائرية، نرفع ظلامتنا وشكوانا إلى أولى الأمر في الجزائر وفي باريس، وتفهّمهم أن هؤلاء (كذا) الرجال الذين يمثلون فرنسا في هذه البلاد ينبغي أن يمثلوا لنا منها جانب العدالة والأخوة والمساواة قبل أن يمثـلوا لـنا منها جـانب القوة والجبروت..." [3].

إذن ففكرة تأسيس نقابة صحافية كانت قديمة لدى نخبة الصحافيين الجزائريين إبّان الحقبة الاستعمارية، ليس فقط لتحدّي القوانين التعسفية المؤثرة في الممارسة الإعلامية في تلك البيئة الخصوصية، ولكن أيضا، لمواجهة إجراءات الرقابة المسبقة على النشر كما سلف ذكره، وبالتالي الإجراءات التي كانت توقف لها الصحف بعد صدورها، لكن ثمة ظاهرة كان يعاني منها الصحافيون الجزائريون، والتي كانت تتمثّل في حرمان القرّاء المشتركين من الحصول على الجرائد. لقد كانت الإدارة الاستعمارية تمنع وصول الجرائد العربية الصادرة بتونس أو بمصر أو في غيرها من البلدان العربية إلى مشتركيها بالجزائر، خاصة لما يتزامن صدورها مع سياق أحداث سياسية ما في العالم العربي والإسلامي.

بالإضافة إلى هذا فلقد شرعت بعض المقالات السياسية المنشورة في المجلات الفرنسية والغربية عمومًا تشير إلى ما أسمته في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بخطر تنامي تيار الجامعة الإسلامية في الوسط العربي والإسلامي. ففي 1899 أشارت مقالات منشورة في "مجلة المسائل الدبلوماسية والاستعمارية" "Revue des questions diplomatiques et coloniales" إلى مدى خطورة موقف الصحف العربية الصادرة بتركيا

---

[1] – (صحافتنا، هل يمكن أن نؤسس لها نقابة) في مجلة: الشهاب العدد 146، بتاريخ 10 ماي 1928.

[2] – أصدر الزاهري صحفا مثل: الجزائر (1925)، المغرب (1930)، المغرب العربي (1947).

[3] – في مجلة (الشهاب) 1933 التاسع- جدار الغرب الإسلامي ط 1، 1421هـ/ 2001م، ص: 404- 407.

وسوريا ومصر على وجود فرنسا الاستعماري في إفريقيا [1]. وعلى سبيل المثال فلقد مُنعت جريدة "الحاضرة" التونسية من دخول الجزائر من 17 نوفمبر 1897 إلى غاية 10 سبتمبر 1898، هذه الصحيفة التي تعتبر أوّل صحيفة إصلاحية مستقلة بتونس [2]، وحينما نشر الزعيم المصري "محمد فريد" مقالات ينتقد فيها الوضعية الاجتماعية والسياسية للجزائريين، تم منع جريدتي "المؤيّد" و"اللواء" من دخول الجزائر، مع العلم أنه زارها مرتين سنة 1901 و سنة 1905.

وبالرغم من وجود عدد كبير من المشتركين في هاتين الصحيفتين، إلاّ أنهما كان يُمنع وصولهما لهم من قبل الإدارة الاستعمارية [3].

ويبدو أن الرقابة امتدت حتى إلى قراءة بعض الصحف الجزائرية، حيث تمّ منع تلاميذ وطلبة مدرسة بوزريعة ومدرسة الجزائر لتكوين القضاة والأعوان الإداريين من قراءة جريدة "الحق الوهراني" في جانفي سنة 1912 [4]. وتحت عنوان "فضائع البوليس" وجدنا جريدة "المنتقد" الجزائرية" قد نشرت مقالاً تحتج فيه وتندّد بالممارسات التي تطال قرّاء الصحافة العربية في مدينة "بسكرة"، بحيث تمّ إيقاف أحد القرّاء المواطنين لاستنطاقه بمقر الشرطة، حول صحف جزائرية كالمنتقد وتونسية (جرائد: النهضة، الصواب، النجاح) التي تمّ حجزها عنده، فتساءلت الصحيفة "هل في البلاد عدالة أو قانون أم نحن تحت نظام البوليس؟" [5]، وكرد فعل على هذه الحادثة يكتب المصلح "الطيب العقبي" (1888 / 1960) مقالاً بعنوان "مضايقة الصحافة العربية في الجزائر" حول الملابسات التي صاحبت حجز عدد من "المنتقد" بمدينة بسكرة مع عدد من الصحف الصادرة بالعربية [6]. وهذا ما يفضي بنا إلى تفسير موقف بعض

---

(1)– In : La revue Africaine, 1899, p 387.

(2) – أصدر علي بوشوشة (1859/ 1917) جريدة (الحضارة) سنة 1888 بتونس – أنظر الموسوعة الصحفية العربية: الجزء الرابع 1995 – الجزء السادس 1997، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- تونس.

(3) – أنظر: أنور الجندي: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا – الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة 1385 هـ/ 1965 م.

(4)– In : Zahir Ihaddadan : Histoire de la presse indigène, p 227.

(5) – في (المنتقد) بتاريخ 17 سبتمبر 1925 نقلا عن ساحل عبد الحميد: أصول الفكرة الإصلاحية الجزائرية 1903-1925 رسالة ماجستير ص 257. مرجع سابق.

(6) – أنظر: جريدة (المنتقد) العدد 13- بتاريخ 24 سبتمبر 1925.

القراء من الصحافة العربية بالجزائر، والذين كانوا يتعرضون لمضايقات الشرطة الاستعمارية وإلى ضغوط الإدارة التي كانت تمنع وصول الصحف للمشتركين.

نعم لقد كانت معاناة الصحافيين الجزائريين من الاشتراك ملاحظة منذ بداية ظهورها، وكان أوّل المندّدين بتماطل المشتركين في جريدته "ذو الفقار" الصحفي المصلح "عمر راسم"، ولكنه يخصّ ويوجّه هجومه على المقصّرين من الأغنياء، حيث كتب في جريدته "الفاروق" قائلاً: "فكان مقصدنا هو سبب خيبتنا، إنّا نعلم غفلة أهالي بلادنا وبلادتهم فإن أتاهم ساحر أو دجّال أو منافق أطاعوه ونصروه وإن أتاهم من يتمنى لهم الخير أضاعوه..." إنّ "ذا الفقار" لم يمت ولكنه يتأهب للحرب التي سيعلنها على جميع الذين أضروا بالبلاد والذين يطعنون في الدين الإسلامي وعلى الأغنياء المقصرّين في حقّ الأمّة والبخلاء..." [1].

وسوف يقوم الصحافي "عمر بن قدور" الجزائري بجولات عدّة في التراب الجزائري حتّى يمكن وجود وكلاء لتوزيع صحيفته "الفاروق". لكن مع ذلك فإنّ المعاناة تلك يبقى جزء منها مردّه إلى تعامل الرقابة الاستعمارية كما رأينا مع مسألة توزيع الصحافة.

وهذا في سياق منظومة سياسية استعمارية شاملة تعكس توجّهات الإجراءات القانونية والترتيبات السياسية التي كانت تعمل على الإبقاء على سيادة الاستعمار الفرنسي في الجزائر بالدرجة الأولى، وطمس هوية الشعب الجزائري العربية الإسلامية.

لقد سعينا من خلال دراستنا هذه إلى محاولة الكشف عن ملامح ذات دلالة تاريخية وراهنة، من حيث تناول جانب من الممارسة الصحفية الجزائرية من خلال بيئة قانونية متميزة خارجيا بالتعسف والقمع، سعت إلى التضييق على تدفق الأفكار بالدرجة الأولى، في سياق المنظومة الاستعمارية كما سلف ذكره، خاصة أن طابع الممارسة هذه اكتسى أبعادًا نضالية للصحافة الجزائرية، سواء الصادرة باللغة العربية أو باللغة الفرنسية، وإن كان مصير الصحافة الصادرة بالعربية أكثر مأساوية، ولهذا أبدت تصوّرات تنظيمية ونضالية، من خلال محاولة المناداة بتأسيس نقابات صحافية.

لكن البيئة الإعلامية، كانت تعكس منظومة استعمارية في شكلها السياسي والقانوني التعاملي مع الصحافة الجزائر، من خلال العمل على الحدّ من الممارسة الصحافية عبر إلزامية الترجمة مثلاً للمطبوعات العربية، وهذا يعني فرض مراجعة ما قبل النشرة أي رقابة رسمية

---

[1] – في جريدة (الفاروق) الجزائرية – بتاريخ 21 نوفمبر 1913.

بحتة. وإنشاء هيئات حكومية معيّنة، كما ذكرنا، كان يصبّ في هذا المنحى. ونفس القول ينطبق على فرض التجنيس، فهو من الأكيد يخدم حظر الممارسة على الجزائريين. إننا نرى أيضا أن المنظومة الاستعمارية، كانت تدرك الدور التنويري للصحافة التي لا توفّر للشعب الجزائري إمكانية تكوين الرأي من خلال الأفكار المتداولة، وإنّما أيضا الوعي بوجود نخبة جزائرية تعمل من أجل الوطن وحقوق الشعب ومستقبله آنذاك. الأمثلة والوقائع التي أتينا على تضمينها، من اعتقال وسجن ونفي للصحافيين، ومصادرة وإيقاف للصحف، تؤكد هذا النّسق الاستعماري للحدّ من الفعالية الصحفية.

إذن فراهنية الدراسات الإعلامية، ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار البيئة الاستعمارية من خلال تمظهرها القانوني والسياسي في الكشف عن الأبعاد الفكرية المختلفة، وحتّى في تحليل الخطابات.

إنّ حضور متغير السياق في الكشف عن التوجهات المضمونية للرسالة في إطار العملية الإعلامية في هذه الحالة جدّ مهمّ.

## خلاصة الفصل

ما يمكن قول في خلاصة هذا الفصل، أنّ البيئة الاستعمارية للجزائر تميّزت بإخضاع الجزائريين لقوانين معاملة استثنائية، ولنمط تسيير عسكري وإداري إتّسم بالقمع والتعسّف، خاصة " قانون الأنديجينا " أو قانون الأهالي المفروض سنة 1874.

ألحقت السياسة الاستعمارية أضرار بأملاك وأوقاف الجزائريين وانعكس هذا على حالتهم الاجتماعية البائسة. فظهرت المجاعات، حيث أثّرت عليهم وأدّى إلى تنامي تيار الهجرة ومغادرة البلاد.

كما شهدت الجزائر غزوًا أخلاقيا وثقافيا، بحيث تمّ تهديم البنى التعليمية الأصيلة. كما تمّ التضييق على التعليم الجزائري الحرّ وفي مقابل غلق المدارس القرآنية، تم تشجيع فتح مدارس التنصير الديني من قبل الحكومة الاستعمارية. لهذا سعى الجزائريون إلى تأسيس جمعيات مستقلّة عن الإدارة، حفاظًا على مقوّمات الأمّة الجزائرية وعلى بقائها. وكان قرار فصل الدين عن الدولة سنة 1905 قد أضرّ بهذه المسألة التعليمية وحتى بمسألة الأوقاف الإسلامية الجزائرية. بهذا سوف تشكّل جزء من حركية التنوير الإصلاحي لعمر بن قدور الجزائري كما سنرى في خضّم هذه الدراسة.

كما أنّ فرض قانون التجنيس، يعدّ استكمالاً لدور المؤسسات التعليمية في إدماج الجزائريين وتكوين نخبة موالية لإدارة الحكومة الاستعمارية تمثّل بعضها في التيار الاندماجي والتغريبي عبر فئة " الشبّان الجزائريين ".

كما اتسمت هذه البيئة في فترة هذه الدراسة، بفرض قانون " التجنيد الإجباري " للجزائريين في الجيش الفرنسي، وظهور تيار جزائري معارض لهذا القانون، الذي يمسّ بالشخصية الجزائرية المسلمة، وكانت شخصية دراستنا تمثّل رافدًا منه.

كما أثّر هذا القانون في تنامي ظاهرة هجرة الجزائريين خارج البلاد، هذه الظاهرة التي كان من أسبابها أيضا القمع والتعسّف الإداري والاستيلاء على أراضي الجزائريين وظلم منظومة الضرائب، وبيّنا موقف الصحافي فيكتور سبيلمان، وسوف نتناول أيضا مقاربة شخصية دراستنا لهذه القضية. ثم إنّنا وضحنا الحصار الثقافي الذي كان مضروبًا على الجزائريين، جرّاء منع توزيع الصحف العربية وحتى الكتب، منعًا للتواصل مع الفضاء العربي الإسلامي مع تخوّف الإدارة الاستعمارية من تسرّب أفكار تيار "الجامعة الإسلامية " إلى الجزائر، خاصة مع

بروز مؤشرات الحرب العالمية الأولى. كما تميّزت هذه الفترة بظهور تيار المطالب السياسية الذي تبلور مع مجيء الأمير خالد الجزائري، وتنامي الحركية الإصلاحية فيما بعد، مجسّدة الكثير من المساعي والأهداف التي دعا إليها عمر بن قدور الجزائري.

كما أنّنا بيّنا أنّنا لا يمكن التناول بالتحليل المقاربات الفكرية التنويرية الإصلاحية المختلفة للنصوص الصحافية المنتجة من قبل المفكر والصحافي عمر بن قدور الجزائري دون معرفة الخلفية القانونية لبيئة الممارسة الصحفية في الجزائر إبّان فترة الدراسة. خاصّة وأن مجال التعبير وحرية الفكر على المستوى الصحافي كان جدّ ضيّق. إنها البيئة التي كان واعيا بها، والتي كانت وراء تعثّر عدم وجود صحافة بالعربية بالرغم من اهتمام الجزائريين بها، كما وضحناه لمّا بيّنا موقف الصحافي عمر بن قدور إزاء هذه الوضعية، التي تعكس حسبه حالة سياسية وإدارية استعمارية خاصة بالجزائر. لقد قدّم تصوّرات عملية لمواجهتها منها مشروع إنشاء هيئة ذات بعد إقليمي عربي إسلامي: " جامعة الصحافة الإسلامية " سنة 1911 فكرته النقابية التي سوف يعاد طرحها فيما بعد بالجزائر، عبر مجلّة " الشهاب " سنة 1928، بصيغة معيّنة.

# الفصل الثاني
# مسار الممارسة الإعلامية التعليمية
# لعمر بن قدور الجزائري

**تمهيد**

## البيئة الاجتماعية والفكرية لعمر بن قدور الجزائري

لا يُمكن فهم طبيعة الفكر الإصلاحي لشخصية دراستنا، وأبعاد القضايا المختلفة المرتبطة بها، التي انعكست على مقالاته الصحفية، إذا لم نؤكّد على الظروف الاجتماعية والثقافية التي نشأ فيها. لقد امتدّت حياته من 1886، سنة ميلاده بمدينة الجزائر إلى غاية 1932 تاريخ وفاته رحمه ا . ويمكن القول أنّ المرحلة هذه، وفي خضم البيئة الاستعمارية للجزائر، والتي أشرنا إليها بمختلف أبعادها في المبحثين السّابقين، هي مرحلة تاريخية مهمّة في التاريخ المعاصر للجزائر، تميّزت باستمرارية المقاومة الجزائرية، لكن في جانبها الفكري أو القلمي بتعبير مفدي زكرياء وبجانبها الوطني، المتمثلة في ظهور مختلـف تيـارات الحركـة الوطنيـة الجزائرية.

وبالتّالي فمن المهّم الإشارة إلى هذا السّياق على المستوى الداخلي. أمّا على المستوى الخارجي فالعالم الإسلامي نفسه عرف تحوّلات سياسية وفكرية، كان أبرزها انهيار الدولة العثمانية، وتنامي النزعة القومية العربية في المشرق العربي، مع تصاعد واضح لتيار الإصلاح الديني والتربوي بزعامة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمان الكواكبي والشيخ طاَهر الجزائري.

وإذا ما تناولنا المحطّات الحّية في المسار الحياتي لعمر بن قدور، خاصّة بمساهمته الفكرية الصحفية، فسوف نجد مختلف القضايا التي شغلت الساحة الإصلاحية الإسلامية، قد شغّلت ذهنه وحرّكت قلمه كما سنرى (*). وكانت ظروف نشأته بمدينة الجزائر العاصمة، حيث ولد عام 1886، قد سمحت له بتلقي تربية دينية وعصرية في آن واحد، وكان رحمهُ ا يشير إلى تأثره بداية بالتربية الأسرية على أيدي والدته (التي توفّيت سنة 1914) إثر مرض عضال. وكانت تقّية متورّعة متهذّبة تهذيبا روحيا. ويبدو من خلال ما كتبه عمر بن قدور أنّها شملته برعاية وتربية وتأديب كبير. يقول:

" لو كنتُ أعلم أنّ هذه الدموع التي تتصبّب على مقلتي تقنعني بالجواب لسألت كلّ قطرة منها علام نزلت من جحرها، وبرزت من مكمنها على تلك الوالدة التي طالما ضمّتني إلى

---

(*)– معجم مشاهير المغاربة، مرجع سبق ذكره: ص 434.

وقرّبتني لفؤادها، وأعدّت لي في حضنها متّكئًا رحبًا وضجعا واسعًا " وقد سجّل رحمه ا أهمّية رعاية أمّه له التي اعتبرها مهمّة شاقة قامت بها بكل نشاط في تكوين ذاته بين الذّوات منذ كان رضيعًا. لقد اعتبرها والدة تقدّر واجب الأمّهات حقّ قدره ووصفها بقوّة الإيمان والتقوى. وقد تأثّر عمر بن قدور كذلك بوالده في أيّام طفولته، حيث كان ملازمًا لوالده رحمه ا ، فكان يصاحبه إلى صلاة الجمعة وصلاة الجماعة حيث كان يدرّبه على الصّلاة، ويروّض ذهنه على التديّن والتخلّق بأخلاق الدّين. وكان يغمره، حسب ما يروي، سرورًا كبيرًا حينما يذهب به والده إلى جامع "سيدي رمضان "[1] لأداء صلاة الجمعة، لأنّ منبره كان يضمّ أحد الأئمة المصلّين الأوائل في الجزائر، وكان خطيبًا بهذا الجامع، ألا وهو الشيخ محمد السعيد بن زكري (1850- 1914)[2]. وكان يحضر دروسه كثيرًا خاصة في شهر رمضان " ولا سيّما في ليلة العشرين منه، إذ كان يحث والده على القيام إلى حضور درس ذلك المحدّث والكلامي الموقّر قبل امتلاء المسجد بالناس.

يمكن القول إذن أنّ التربية المسجدية أثّرت كثيرًا في التكوين الفكري والعقائدي لعمر بن قدور الجزائري. ولقد التقى بالشيخ بن زكري سنوات بعد ذلك قبل وفاته (بمقره صحيفته) حينما أصبح أحد ألمع الصحافيين، الذائعي الصيت في الجزائر وفي شمال إفريقيا، حينما أصدر (الفاروق)، وكان من قرّائها المداومين، مشجّعًا له وداعيًا بالدعاء الصالح. يقول عمر بن قدور أنّ تلك المقابلة أثّرت فيه كثيرًا وكتب: " لأنّها كانت آخر عهدي بمفتي الإسلام الذي كان يفتح قلبي بعد أن أسّست " الفاروق ".

كلّما قابلته بلطفه وحنوّه ويبارك لي عملي " ولقد اعتبره أحد المُصلحين والمُرشدين الذين افتقدتهم الجزائر في زمن كانت في أمس الحاجة إلى علم وإرشاد أمثاله. وسوف نرى فيما بعد بأنّه يعتبره أحد منارات ورموز الإصلاح في الجزائر، وبذلك أرى بأنّه يشكّل أحد المنابع الفكرية التي أثرت فيه[3].

لم تكن البيئة الفكرية إذن في الجزائر، خالية من مثل هؤلاء الروّاد المصلحين، الذين أثروا في الجيل الذي نشأ بعدهم، أمثال عبد الحميد بن باديس، وعمر بن قدور الجزائري

---

(1)– " جامع سيدي رمضان": الواقع في القصبة بمدينة الجزائر.

(2)– لما كتب عمر بن قدور عن أستاذه بن زكري ترجمة قيمة لدى وفاته وهذا في العدد (57) من (الفاروق) شهر أفريل 1914.

(3)– صحيفة " الفاروق " بتاريخ: أفريل 1914.

وغيرهما. لهذا يمكن القول أنّ ثمّة تواصلا بين جيلين من أجيال الإصلاح في الجزائر. وهذا حينما يعتبر عمر بن قدور الجزائري، العالم والمصلح عبد القادر المجاوي أستاذًا له، (وهو الأستاذ بالمدرسة العليا الجزائرية والإمام الخطيب بجامع سيدي رمضان بالعاصمة)، وكان له تأثيره المتميّز في جانبه الفكري، حيث وكان يُتابع دروسه إذن في الثعالبية، ويواظب على حضور مجالسه العلمية التي أثّرت في تهذيب بلاغته ونبوغه في الكتابة. وعندما توفي المجاوى (1848/ 1914)[1] رثاه عمر بن قدور في جريدته (الفاروق) وأظهر تأثّره العميق به تحسّرًا على فقدان الجزائر لأحد أبرز الرّجالات، الفكرية في نهاية وبداية القرن العشرين:

" أبكي السرّ الذي كان يتدفق في حلق دروسك حتّى انّه ليخيّل للحاضر بها أنّك تشقّ القلوب شقًا وتفتحها فتحًا فتودع بها معاني العلم وروح الفضيلة والكرامة "[2].

ويعتبر نفسه تلميذًا من تلاميذ " أستاذ الجماعة " كما سمّاه، أي المجاوي. وأنّ ما وصل إليه في عالم الكتابة الصحافية، كان من آثاره وثمار تعليمه إيّاه يقول: " فنم هنيئًا مطمئنًا في روضة الفردوس يبكي عليك ضميري وجوارحي، وجزئي وكلّي كما يبكي عليك نفر من تلامذتك وطلبتك النجباء الكرام الذين نالوا بفضل تعليمك، الرّتب السامية وأصبحوا هداة للأذهان وقادة للأفكار. وإنّني لا أسلوك ما دام هذا القلم يتحرّك في بناني لأنّه على كل حال حسنة من حسنات تعليمك وإرشادك وخدمتك للغة والبلاغة " [3].

قلنا إنّ نشأة بن قدور في مدينة الجزائر، جعلته يتواصل إذن مع رموز أو نخبة فكرية جزائرية كانت تعمل ما في وسعها، في سياق الإصلاح والإرشاد في بيئة إستعمارية شديدة التعسّف. وظهر من كتاباته الصحافية كما سيأتي، تشبّعه وتأثّره العميق بالقرآن الكريم. حيث يمتزج أسلوبه التحريري بتعابير استقاها من هذا المنبع الذي لا ينضب معينُه. ويكون قد حفظه في أحد الكتاتيب أو المدارس القرآنية المنتشرة في نهاية القرن التاسع عشر بمدينة الجزائر. ثمّ إنّ الترجمات التي كان يقوم بها من اللّغة الفرنسية إلى اللغة العربية للأخبار ولمقالات معيّنة تدل على تمكّنه منها، ومن ثمّ يُمكن القول أنّ التحاقه بمدرسة الثعالبية بالعاصمة قد مكّنه من

---

[1]– أنظر حول هذه الشخصية: معجم مشاهير المغاربة، مرجع سبق ذكره، ص 473.

[2] – الفاروق: العدد: 80. بتاريخ: 02- أكتوبر 1914.

[3]– نفس المصدر السابق.

الإلمام بها، وحيث كان يّدرس أستاذه المباشر الإمام المصلح، أستاذ الجماعة كما يُسمّيه، عبد القادر المجاوي[1]

إنّ الجوّ الأسري الذي نشأ فيه عمر بن قدور بين والدين أظهرا كامل الاهتمام التربوي والديني به، إضافة إلى تأثّره الفكري بعالمين جليلين هما: محمد السعيد بن زكري والمجّاوي.

أكسبته هذه البيئة إحساسًا مرهفًا وذهنًا متوّقدًا سوف يظهر وينمو متفاعلا مع الوضعية التّعيسة للشعب الجزائري في مختلف المناحي آنذاك. وكان كثيرًا ما يتألّم لمشاهد ومناظر اجتماعية وأخلاقية، سوف يعمل على انتقادها والتفكير في إيجاد أدوات إصلاحها.

ولإعطاء صورة عن نفسية وذهنيته المتوّقدة والمرتبطة بواقع الشعب، يكتب، وهذا على سبيل المثال: " ما كنت لأتألم من المشاهد والمناظر الفظيعة، المتعدّدة التي كانت تمرّ أمامي صفّا صفّا، كتألمّي اليوم، وقد أصدقت بحافظتي جيوش الفوضى الأخلاقية في مظاهر تلك المناظر الفظيعة التي كنت أشاهدها، وقد تبدّى أمامي خطر كلّ هذه المناظر في مشاهدة خطيرة، رسمت لي كيف مسح هذا الخطر سعادة الشعب الجزائري وأوقفه موقف الإهانة والذل والمسكنة "[2].

إنّه إحساس بمرارة الواقع الجزائري، وينمّ عن تواصل مباشر به ولم يكتف بمجرد التأثّر بما سيرى، إنّما يتحسّر على حالة شعبه، وأطفاله على الخصوص أمام المستقبل.

يكتب في مقال آخر " أبناء الشعب أمام المستقبل " منطلقا من ذاته المفكرة[3]: [إنّني لأحسب الشعب الإسلامي غبيا وجمادًا ساكنًا إذا نظرت إلى موقفه تجاه المستقبل. وما أحسب نفسي سعيدة في هذه السّاعة وقد اتّجهت مخيلتي لقبول صور هايله (كذا) يصعب على فكري أن يُدمن النظر إليها ويشقّ على قلبي أن يصف هول ما فيها. وحسب القارئ أن يضع نصب عينيه حالة أطفال الشعب وكيفية سعيهم نحو المستقبل لينظر هو ما نظرت ويبصر بشاعة ما أبصرت". وخاصّة كتاباته الصحافية قبل الحرب العالمية الأولى، تدل على مختلف الموضوعات التي تتزاحم أمام ناظريه. يقول بصدد تحليله السياسي لفكرة المقاومة تحت نير الاستعمار: " عند كلّ فرصة أحاول انتهازها للكتابة في موضوع الأسلوب السياسي الحاضر لديها، ينبع أسلوب آخر بجانبه يُنسيني أهمّية زميله الأوّل، ولمّا أستبعد لفحصه ودرسه، تذهب عنّي قيمته بقيام

---

[1]– توفي الأستاذ المصلح عبد القادر المجاوي في شهر سبتمبر سنة 1914 وليس في سنة 1913، كما ورد خطأ في معجم مشاهير المغاربة.

[2]– الفاروق- العدد: 64 – 08 يونيو 1914.

[3]– جريدة: الأخبار – العدد: 13746 – 21 ديسمبر 1913.

أسلوب آخر وهكذا. مسائل وأساليب سياسية تتسلسل وتتابع في النبوغ لتصيب ضعاف أقوامنا بما يُذهل كل مرضعة عمّا أرضعت " وحتّى أصبحت الأفكار لا تعي أهمية لتلك الحوادث وما وضعت "[1].

إذا كان في حياته جدّ منشغل بالوضعية الاجتماعية والسياسية لشعبه، فهو قد سعى أيضًا إلى التفكّر في هذه البيئة التي أوجدها الاستعمار، وتوسيع تفكيره فيما يخصّ إشكالية سقوط المسلمين عمومًا. وقد عبّر عن هذا في وقت مبكر حوالي سنة 1907 بجريدة " الحقيقة " التونسية، ثمّ أعاد نشر بعض تلك الكتابات في صحيفة "الأخبار" الصادرة بالجزائر، وذلك سنة 1910. لقد كان لا ينشغل بعلائق الحياة الدنيا. لم تكن الحياة المادية هدفه في الحياة. لقد شرع في زمن مبكّر جدا ( في سنّ العشرين، 20 سنة)، إن لم يكن قبلها، بقليل في الكتابة الصحافية المتعمقة، التي تبحث في أمراض المجتمع، من الناحية الدينية والاجتماعية، ثمّ السياسية، كما سنرى في دراستنا هذه. والمهمّ أنّه كان يُدرك أنّ التواصل والاختلاط بكافة طبقات البشر، على حسب تعبيره، ومجاراة كل الخلق، ضروري لعملية التفكير في الإصلاح، بعدما جمع ما أفاد ا عليه من مبادئ العلوم التي تشاركه فيها من أبناء الوطن إلاّ من لا يعتني بذلك منهم. ومع ذلك فهو يصرّح بأنّ عدم مخالطته للناس ونفوره منهم سجية فيه، وكان يُحسن الظنّ بجميعهم. كان يتأسّف لما يرى شحاذًا أو فقيرًا ويظهر له الجاهل العامي في صورة الغبن، لكنّه يلقي باللاّئمة على الأبوين اللذين لم يعتنيا بتعليمه. ثمّ يقول عن تطوّر رؤيته وتفكيره فيما يخص واقع الجزائريين على الخصوص والمسلمين على العموم: " ومنذ وقت قضته قبل ما برز قلمي بين الأقلام، كنت أشعر بسقوط المسلمين، ولكنّي أجهل علّة ذلك السقوط شدّة حملة الأجانب عليهم بداعي العداوة الدينية، وأتيقّن أن ليس في المسلمين من هو ليس بطّيّب "[2].

لكن، فيما بعد، رأى أنّ خوض معترك الحياة، كمدرسة، جعله يتلقى فيها كلّ يوم دروسًا من مدرسة التجربة العظيمة كما سمّاها، جعلته يعرف أمورًا ويصاب بالدهشة في قضايا عديدة، وتبيّن له أنّ بعضًا من علماء ومشاهير رجال كان يجلّهم ويمدحهم هم الآفة العُظمى والمصيبة الكبرى على الأمّة وأركان الدّين.

---

[1]– جريدة الأخبار – العدد: 13710- بتاريخ 21 يوليو 1912.

[2]– جريدة " الأخبار " بتاريخ 30 أكتوبر 1910/ 26 شوال 1328 هـ.

هكذا يتّضح لنا مدى محاولته في التفكير وإعادة الأمل في الإصلاح كما سنرى انطلاقًا من التجربة الحياتية، أي من مدى التواصل مع مختلف مناحي البيئة الفكرية والاجتماعية والسياسية.

لم تكن سنة 1914، بالنسبة لعمر بن قدور، سنة ككلّ السّنين السّابقة أو اللاّحقة. لقد مُني بفقدان أمّه رحمها ا وبعض أساتذته كما سلف الذكر، محمد السعيد بن زكري، وأستاذه المباشر، والمؤثّر فيه، عبد القادر المجّاوي.

وفي السنة نفسها، وفي شهر جانفي منها، فَقَدَ ابنته بعد ولادتها. لقد تحسّر، وكتب مقالا مؤبّنًا لها، يعكس الحنوّ الأبويّ الصافي لديه، عنونه: " فقيدتي الصغيرة " قائلا: " لست أنعي يوم الأحد الفارط حيث ٱُوتيت أمانة إبتغاها ربّها قبل أن أجيل طرفي في طرفها ولم يذرها سوى برهة كانت لدى حقيقة أتميّزها عن رغبة طاهرة، فلم يخامر يقيني ريب في أن صلاحيتي كانت موقوفة عليها ومحفوظة بأتماسها ..." وكان رحمه ا في تلك اللحظة ينتابه شعوران متضادان، شعور بالفرحة لنجاة الأم، زوجته، وشعور بالكربة والحزن لفقدان ابنته، يكتب في نفس المقال: " ٱُوتيت إلى المنزل مساءًا فألقيت ربّته مضطجعة على فراش الراحة، وبجانبها فقيدتي الصغيرة، وقد اتّكأت على فراش الراحة، مضجعان متباينان ومرقدان مختلفان، وفي خاطري فرحة وكربة. فأعجبوا كيف امتزج الضدّان، فما كان سروري لنجاة الأولى من مخالب المدنية إلاّ كسرور يعقوب لمّا تنسّم ريح الثوب[1] وما كان جزعي لضياع الثانية إلاّ كجزعي لو تراءت لي أيّامها المستقبلية لو لم تفارق الدنيا ..." وسوف ينطلق من هذه الفاجعة ليقدّم رؤيته الإصلاحية في تربية البنات، لدى المجتمع الجزائري. كانت وفاة ابنته إعلانًا آخر لاستمرارية قلمه الصحفي الطاهر بدموعه السخيّة عليها، ليُعوّل عليه، ويتفرّغ إليه، مصداقا لشعره البليغ:

**قلمي لسان ثلاثة بفؤادي          ديني ووجداني وحبّ بلادي**

---

[1]– قصّة النبي يعقوب لفقده ابنه، يشير هنا إلى النبي يوسف (سورة يوسف) القرآن الكريم.

## المبحث الأول: الممارسة الإعلامية لعمر بن قدور

إنّ اندهاشي لكبير وأنا أقوم بتصفّح جرائد ذات شأن في تاريخ الصحافة العربية أثناء بداية القرن العشرين، أمثال: " اللّواء " أو " المؤيّد "، باحثًا عمّا يمكن إفادة دراستي عن عمر بن قدور من خلال كتاباته الصحفية. نعم، لقد أيقنت المستوى الإعلامي الرفيع الذي بلغه بصحيفته "الفاروق " إخراجًا ومضمونًا. وقبل ذلك قدرة الكتابة الصحفية في صحيفة " الأخبار " التي بدأ يُشرف على القسم العربي فيها سنة 1908. ومستوى التحليل السياسي في جريدة الحضارة، وسوف أُحاول هنا أن أُلخصّ المسيرة المهنية الشاقة في عالم الصحافة الجزائرية والعربية، في ظل بيئة استعمارية كانت تضيّق على العمل الصحفي بالجزائر، بالشكل الذي ذكرناه في المبحث السّابق الخاص بالبيئة القانونية. مع ذلك، استطاع هذا الصحافي المتميّز، أن يجعل من الصحافة رسالة فكرية لخدمة الشعب الجزائري حاضرًا ومستقبلا.

أرى أنّ بداية نشاطه الصحفي بالجزائر كان في سنة 1906 م، عبر جريدة الهلال (Le Croissant) التي قام بإصدارها الفرنسي: Gaston De Vulpilliueres (بتاريخ 22 أكتوبر 1906) وكانت تحمل شعارًا تحت العنوان بالعربية " جريدة كفالة حقوق المسلمين" [(1)] بمدينة الجزائر. وفي العدد 6، لنفس السنة، كانت قد أعلنت عن تعاون عمر بن قدور الجزائري مع الصحيفة هذه. وأرى أنّ أوّل مقال نشره كان بالعدد الرابع، بدون عنوان وبدون إمضاء. كأنّما استهلّ به دخوله عالم الصحافة، منوّهًا في مقدّمته، برجال الصحافة، وبأهمّية الكتابة بالنسبة للأمّة حين كتب: " الحمد الذي أطلع رجال الصحافة إلى أشرف المراتب ورقّى معلوماتهم إلى قمّة هذا العصر المتمدّن، وجعل صناعة القلم أشرف الصنايع، فرجاله لسان الأمّة، وبهم يُنال المرام ...".

يظهر اسمهُ لأوّل مرّة، مُمضيا لمقاله تحت عنوان: " إلى حظرات الأغنياء والسراة " في العدد الخامس بتاريخ 1 ديسمبر 1906. أين يدعو فيه الأغنياء إلى مد يد العون إلى هذا المشروع الصحفي، المتمثّل في جريدة: " الهلال "، خدمة " للعدالة وتثبيتًا لدعائم الإنسانية، ودعم العنصرين، الفرنساوي والعربي. وتُعدّ هذه الإعانة دعمًا هامًا للنهوض بالوطن. وحولها يكتب: " إلى متى يا حظرات الأغنياء تخفون وجوهكم تحت برانيسكم مهما طلبنا منكم إعانة في

---

(1)– بالفرنسية: Organe des revendications indigènes

سبيل حبّ الوطن أعينوا ... أعينوا .. إخوانكم المساكين. " المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص شدّ بعضه بعضا ". ويواصل نشاطه التحريري في هذه الصحيفة تقريبًا في معظم أعدادها، إلى غاية أوّل اعتقال سياسي يتعرّض له عمر بن قدور الجزائري بسبب نشاطه الصحفي وذلك في شهر مارس من سنة 1907.[(1)] ولقد استنكرت الجريدة اعتقاله ونوّهت بخصاله الحميدة، وجودة مقالاته الصحفية. لقد عبّرت مقالاته في (الهلال) عن الكثير من القضايا التي سوف يُعالجها ويُسهب فيها مستقبلا سواء على مستوى نشاطه الصحفي داخل الجزائر، أو بتعاونه وبمُراسلاته للصحافة العربية، بدءًا من التعبير عن الشعور الوطني الجزائري، وضرورة النهوض والمطالبة بالحقوق الإنسانية تجنّبا للفناء والذوبان، إلى انتقاد الغرب في جانبه الاستعماري الاستعبادي للشعوب، أو النظر إلى الجوانب الإيجابية في الغرب الحضاري، مع الدعوة إلى الإصلاح، بالاستناد إلى مرتكزات معيّنة[(2)] .

هنا يجدر التنبيه إلى أنّ اصطدامه الأوّل هذا بالإدارة الاستعمارية وفي هذا الوقت المبكر عن مساره الصحافي، أدّى به إلى التفكير في مغادرة الجزائر، بشكل مؤقّت، حيث سيزور في هذه السنة بالذات، أي في 1907، تونس، ويُقيم فيها بعض الشهور، حيث يتعرّف على أحد الطلبة الزيتونيين، وهو الصحافي المعروف، الطيّب بن عيسى، ذي الأصول الجزائرية.

وبتونس، يواصل نشاطه الصحافي كمحرّر في جريدة " الحقيقة " التونسية، التي كان يصدرها مديرها عثمان بن عمر سنة 1907.

وهذه إضافة تاريخية، أقدّمها هنا، حيث يكتب مرّة باسم مستعار: " لكاتب نابغة في الجزائر " مجموعة مقالات " منبر العبر ..."، ومرّة أخرى، بتوقيعه المعروف: أبو حفص الجزائري، مقالا مسلسلا هاما حول واقع نظام الوقف والحبوس بالجزائر، تحت عنوان: " اللّذة في الإحسان والألم في الإساءة: النظام الديني. الإسلام الجزايري على مرسح النظر ماذا ينتج من تلاشيه ؟ تواجدُه بتونس، سوف يسمح له بإقامة علاقات صحافية، وحتّى إنسانية كما أسلفنا، بحيث سيشرع، عند عودته إلى الجزائر، بداية من شهر مارس 1908 بمراسلة عدد من الصحف التونسية منها، التقدّم، المشير لغاية سنة 1911.

---

(1)– في العدد: 12 بتاريخ 11 مارس 1907: يعلن Gaston De Valpillieres عن توقّف " الهلال" ونية إصدار جريدة أخرى نصف شهرية بعنوان (Le Défi).

(2)– مزيد من المعلومات حول جريدة (Le Croissant) أنظر إحدادن:

p : 135. Algérie. Histoire de la presse, indigène en-

ولأنّه، وبصفة فعلية، تولّى الإشراف، ابتداء من 05 أفريل 1908 على تحرير القسم العربي في جريدة " الأخبار ". فإنّ فيكتور باروكانت (Barrucant)، مدير الأخبار، حسب الدكتور زهير إحدادن، هو الذي استدعاه، وألّح عليه تولّي هذه المسؤولية الصحافية[1]. وكان يعرف جيّدًا قدراته الإعلامية، وتمكنه من اللغة الفرنسية أيضًا. لأنّني وجدت أنّه كان يترجم مقالات له في " الأخبار". ويترجم مختلف البرقيات الإخبارية. حيث قام بترجمة مقالات هامّة بعنوان " جزائر الغد " نشرها بجريدة (الفاروق) سنة 1914 م، وهذا بطلب من فيكتور باروكان، والذي كان قد نشرها في أعداد من جريدة " الأخبار " صدرت بباريس حينما كان متواجدًا هنالك، حيث كانت بدون القسم العربي الذي كان يحرّره عمر بن قدّور. فعهد إليه ترجمة هذه السلسة من المقالات ونشرها ريثما يعود إلى الجزائر[2]. وكم كانت فرحته كبيرة بعودته لوطنه الجزائر. ليستمرّ في نشاطه الصحفي والنضالي. وبالفعل، فإنّ الشاعر الجزائري الكبير مفدي زكرياء، كان قد اعتبر صحافة عمر بن قدّور جزءًا من صحافة المقاومة القلمية في الجزائر[3] ويقوم بعدها بتحرير القسم العربي بـ"الأخبار " لغاية شهر أكتوبر من السنة نفسها، أي 1908، ما يعني مدّة سبعة أشهر ممّا يُشير ربّما إلى درجة الخلاف مع مدير الجريدة فيما يتعلّق الخطّ التحريري لعمر بن قدّور. خاصّة وأنّ بعض مقالاته في تونس (جريدة الحقيقة) كانت تُشير إلى الظلم والإجحاف الذي يتعرّض له الجزائريون، وكذا النقد الصّريح للإدارة الاستعمارية الفرنسية. ثمّ إنّ مقالته الأولى لدى عودته إلى الجزائر، والتي نشرها بالأخبار " في 05 أفريل 1908، تحت عنوان:

" مبدؤنا: بقوّة الوطنية نتقدّم "، كان قد نشرها كذلك من قبل في جريدة " التقدّم " التونسية. في 27 فيفري 1908 [4] تحت عنوان: تقدّم قوّة الوطنية العالية، لا التهوّر في التقدّم.

" ها قد جئنا إلى عاصمتنا ومسقط رأسنا تلك الأرض التي غذتنا برزقها وألقت على كهولنا حقوقًا لا يجوز لنا أن نلقيها ونجعلها كالعدم في تحقق رجاء وطنيتنا، ونجلّ قدرها ومجدها العظيم. ها قد جئنا لندخل بجريدة (الأخبار) في دور جديد من التقدّم والنظام ..." [5].(05 أفريل 1908) العدد 13520.

---

[1]– في الصحافة المكتوبة في الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (بدون تاريخ): ص 73.

[2]– الفاروق – العدد 79: 25 سبتمبر 1914.

[3]– في حصص إذاعية – مرقم للنشر – الجزائر 2007 ص: 95.

[4]– أنظر الملحق رقم: 5 (صورة المقال).

[5]– جريدة " الأخبار " بتاريخ: 05 أفريل 1908. العدد: 13520.

ويرى الباحث الدكتور زهير إحدادن " أنّ جريدة الأخبار، وهي تصدر باللغة الفرنسية أصلا، الجريدة الوحيدة في الجزائر التي بدأت تخصص منذ سنة 1904 ورقتين من صفحاتها للتحرير باللغة العربية "[1]. وكانت جلّ المقالات تُترجم من القسم العربي، وكانت بلا تأثير. وكان رجاء مدير الجريدة، الفرنسي باروكاند (Barrucant) أن يقوم عمر بن قدور بالقسم العربي[2] حقّ قيام، خاصّة وأنّ الصحافة بالعربية بدأت تبرز مع ظهور " كوكب إفريقيا "[3] ومحاولة عمر راسم مع مجلة " الجزائر.

سوف نشير جريدة الأخبار خاصّة في أعداد سنة 1909* إلى غياب، وبُعد رئيس القسم العربي (أي عمر بن قدور) عن الجريدة والبلد. وأنا أرجّح أنّها هي السنة نفسها التي غادر فيها الجزائر مرّة أخرى. ولكن، ليس إلى تونس، وإنّما إلى مصر. حيث جاء في " الأخبار " بتاريخ 21 مارس 1909[4]:

" تنبيه: نفيد قرّاء الجريدة بأنّ مُنشئ أعمدة العربية بها السيّد عمر بن قدور الجزايري تخلّى عن عمله وتباعد عن خدمته لأسباب منعته من ذلك، وأنّ الجريدة لا زالت ماشية في عملها تظهر في أوقاتها على جري العادة المألوفة وتسير سيرتها المعروفة ".

وظلّت الجريدة تنشر هذا التّنبيه لغاية 20 جوان 1909، خاصّة وأنّ مراسلاته لصحف تونس كانت قد توقّفت في سنة 1909 كلّها. ومن جهة كانت علاقته بالصحف المصرية واضحة، لأنّه هو نفسه الذي أشار إلى كتاباته في جريدة " اللّواء " المصرية، ولكن في سياق تأكيد استقلالية فكره الإصلاحي، وإشادته للضغوط التي كان يتعرّض لها، حتّى من قبل بعض الجزائريين، خاصّة بعدما فتح جريدته (الفاروق) للكثير من الأقلام. فبعضها أساء إليه من حيث عدم نزاهتهم وبروز تطفّلهم على مقالات الآخرين. كتب قائلا: ( لم نتعوّد بحمد ا التطفّل على مائدة الصحافة منذ نبوغ قلمنا الإصلاحي في صحف الشرق بالتحكّك على ما أنضجته أفكار الكتاب، وجاءت به قرائح كبار حملة الأقلام، ولم نلتقط أبدًا بسرقة من مجلّة أو كتاب أو جريدة لإعلاء شأن ما نكتب، وبذلك كنّا مُحررين دائما على ثقة قرّاء الصحف التي كنّا نكتب فيها

---

[1]– في الصحافة المكتوبة في الجزائر- مرجع سابق: ص 74.

[2]- أصدر كحّول محمود: كوكب إفريقيا (1907) ، لكنها مقرّبة من السلطات الاستعمارية.

[3]- عمر راسم ": " الجزائر" سنة 1908 ولم يصدر منها سوى عددين.

[4] - الإشارة إلى توقفه بداية من 01 نوفمبر 1908 (الأخبار).

كـ"اللواء " و" الحضارة " وغيرهما من الصحف التونسية والسّورية ...[1] أمّا جريدة " اللواء " فقد راسلها من الجزائر، وبضغط من الحاكم العام (جونار) توف عن مراسلتها[2]. وللأسف، فلقد أطّلعنا على أعداد " اللواء " المتوفّرة لدى ( دار الكتب والوثائق القومية بمصر)، فهناك الكثير من الأعداد المفقودة. وعثرنا على مقال نخالُه له، ولكن بتوقيع: " قارئ ناقد ". ولقد نشرته "اللواء " تحت عنوان: مصر والجزائر – محادثة ذات شأن خطير (بين مصري فاضل وجزائري غيور. ولكن هذا المقال في شكل حوار سياسي يرسم بشكل دقيق مأساة الدول العربية الرّازخة تحت نير الاستعمار والاستعباد.

وحينما يتحدث الجزائري عن شكواه، فإنّه يعكس على لسان الجزائريين معاناتهم التي تتمثل في إبعادهم عن إدارة شؤونهم، واستبداد الأجنبي بأموالهم، ويشكو الحرية المسلوبة وظروف الجهل الذي يتخبّط فيه الجزائريون، وأكبر أماني الجزائريين، التي تتمثل في الحرية والاستقلال[3].

ويبدو أنّه قد نشر في جرائد مصرية أخرى ودليلنا على ذلك، هو قوله في مقال يدافع فيه عن مبدئه الفكري الإصلاحي الثابت وغير المتباين عبر مختـلف المنـابر الصحـفية الجزائرية والعربية:

" بل إنّ فكرتنا يعرفها كلّ من اطّلع على كتابتنا سواء في جريدة (الأخبار) أو في الجرايد التونسية أو في الجرايد المصرية أو في جريدة (الحضارة) بالأستانة وهي تحتوي على معنى واحد وهو خدمة الدّين الإسلامي والعمل على إصلاحه وتهيئة أهله لفهم حقيقته، لأنّ المسلمين لا تفيدهم السياسة المجرّدة عن الدّين إلاّ إذا فهموا حقيقته الأخلاقية والاجتماعية ... "[4].

وقد تتبّعنا كتاباته، فإذا به يُعيد نشر العديد من المقالات السياسية والإصلاحية، أحيانًا بنفس العنوان بجريدته (الفاروق ، مثلا: تلك التي نشرها بجريدة " الحضارة " لصاحبها عبد الحميد الزهراوي [5] ويُعيد نشرها)، أو مقالات من (الفاروق) ينشرها في جريدة " الإقدام "

---

[1]– العدد: 55 – 06 أبريل 1914 (الفاروق).

[2]- عن د/ صالح خرفي: عمر بن قدور الجزائري – سلسلة الأدب الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 98.

[3]– أنظر اللواء: بتاريخ 11 يونيو 1908 (12 جمادى الأولى 1326 هـ).

[4]– الفاروق ع: 04 بتاريخ 21 مارس 1913.

[5]– أصدر ع. الزهراوي هذه الجريدة 1910 بالأستانة وتوقفت 1912.

للأمير خالد. إذن، فإنّني أُرجّح أنّه قد دخل مصر عبر تونس، خاصة وأنّه يؤكّد في كتاباته على صداقته لكلّ محمّد رشيد رضا ولعبد الحميد الزهراوي الذي كان قد " فرّ إلى مصر سنة 1324 هـ (1906) وبقي فيها، يشتغل بالتحرير في " المؤيّد ".

بعد "المؤيّد" انتقل إلى " الجريدة " إلى أن أعلن الدستور سنة 1327 هـ (1908 م)، وهذا ما ذكره رشيد رضا في مجلة (المنار) الذائعة الصيت [1]، وغادر مصر سنة 1909. وبالتالي يُمكن أن نذكر بعض العبارات الدالة على هذا الجانب في علاقاته الإنسانية والفكرية مع أهل الشام على الخصوص. فهو يقوم بنشر مقال مسلسل بجريدة " الأخبار " حيث تولّى رئاسة القسم العربي منها. يقول: ( نقتطف من جريدة "الحضارة" الغرّاء، التي تصدر عن دار الخلافة العظمى مقالة مهمّة جدا دبّجها يراع الأستاذ المجتهد صديقنا محمد رشيد رضا صاحب " المنار " الأغّز قال حفظه ا ، تحت عنوان " قوّة الاجتماع والتعاون ". ثمّ هناك مؤشّر آخر، فأثناء انعقاد المؤتمر العربي بباريس سنة 1913[2] ، ومن خلال المقال السياسي الذي كتبه تعليقًا على هذا الحدث الهام، نجد عبارته التّالية المؤّكدة لطبيعة العلاقة العميقة التي كانت تربطه بأحد رموز الحركة النهضوية العربية في بُعديها الإصلاحي والسياسي، ألا وهو الشيخ الزهراوي، يقول في مقال بعنوان: بريد الإسلام، " الاتفاق بين العرب وتركيا "[3]: (كان العرب بالبلاد العثمانية عقدوا مؤتمرًا في باريس تحت رياسة صديقنا المفضال السيد عبد الحميد الزهراوي صاحب جريدة " الحضارة " وقد قرّ قرارُ هذا المؤتمر بعد مفاوضات طويلة على إدخال جملة إصلاحات في الهيأة العربية ... ".

ولقد كانت لعمر بن قدور مساهمات كثيرة، ومقالات سياسية عميقة في جريدة "الحضارة " هذه. وسوف يُعيد نشر بعضها في جريدته " الفاروق "، وتقوم بعض الصحف التونسية بإعادة نشر بعضها، خاصّة تلك التي تحمل صبغة سياسية متعلّقة بقضايا العالم العربي والإسلامي معًا. سنتطرق لبعضها في جانب بُعده الفكري السياسي. بالإضافة إلى هذا فلقد أهدى إليه الكاتب مصطفى لطفي المنفلوطي كتاب "النظرات " فقام بالكتابة عنه في (الفاروق)، حيث يقول:

" أهدانا حضرة الكاتب الشهير السيّد مصطفى لطفي المنفلوطي كتاب (النظرات) من الطبعة الثانية. ومن المعلوم أنّ كتاب النظرات هو مجموع ما دبّجه يراع هذا الكاتب البليغ في جريدة

---

[1]- مجلة المنار – المجلد 19- عدد شوال 1334 هـ (1916).

[2] – الأخبار – 03 جويلية 1910 – 14 جمادى الثانية 1328 هـ.

[3]- الفاروق: 01 أغسطس 1913 – العدد 23.

"المؤيّد " أو في غيرها من الجرايد. وقد قرضنا هذا الكتاب في صدر " الفاروق " ونشكر هديته[1] .. وإن كان يدلّ إهداء المنفلوطي لكتابه هذا على مدى المكانة التي تتمتّع بها صحيفة (الفاروق) في ساحة الصحافة العربية قبل بداية الحرب العالمية الثانية. فهو من جهة أخرى يُشير إلى علاقة ربطتهما أثناء تواجد عمر بن قدور الجزايري بمصر كما أسلفنا. لكنّه من جهة أخرى وفي سياق تنويهه بشخصيات النهضة العربية الحديثة زيادة على أهل الشام، والذين يبدو أنّه إحتّك بهم كثيرًا[2]، فإنّه لم يُشر إلى التقائه بالشيخ علي يوسف ( /1913) مؤسّس جريدة "المؤيّد " بمصر، حينما كتب عنه مقالاً تأبينيا حين وفاته. ولا حتّى إلى إقامته بهذه البلاد !

فلقد اعتبره أستاذ الصحافة الإسلامية، ورجل مصر العظيم ... "[3] في سنة 1910، يعود عمر بن قدور، مرّة أخرى إلى الجزائر، بحيث يشرع في مراسلة جريدة "الحضارة " لصديقه المفكر المصلح عبد الحميد الزهراوي، والكتابة فيها. وكانت آنذاك تصدر بالأستانة. وهذا التواصل الإعلامي على المستوى العربي والإسلامي ناتج عن مساهماته المعروفة على الساحة الإعلامية سابقًا في هذا الفضاء الحضاري. وكذلك التقاؤه هو نفسه بمجموعة من الشخصيات العربية الإسلامية، سواء في تونس أو في مصر. وسوف نرى فيما بعد صدى تلك المكانة الفكرية في زمن النهضة العربية عبر شهادات عربية وجزائرية، أدلى بها أصحابها لدى وفاة عمر بن قدور سنة 1932 بمدينة الجزائر.

إذن، فبعد سنة 1910، ستبدأ مرحلة هامّة جدا، وهي الأساسية في مسيرة هذا المفكّر المتفرّد آنذاك. خاصّة من الناحية الإعلامية. سيُشرف على تحرير القسم العربي مدّة خمس سنوات أي لغاية بداية الحرب العالمية الأولى، بحيث في العدد 13640 لـ(07 رجب 1328 هـ) الموافق لـ(23 جويلية 1910 م) نقرأ أنّ محرّر القسم العربي هو عمر بن قدّور الجزايري، وأنّ جريدة (الأخبار) أسبوعية، أدبية، سياسية لكنّني أرى أنّه بدأ التحرير الصحفي بالقسم العربي هذه الصحيفة قبل هذا التاريخ بشهور عدّة، وبالضبط بداية من شهر فيفري من سنة 1910، الدليل على هذا، هو مقطع من قصيدة شعرية له أتبع بها مقالاً إنتقاديًا لبعض

[1]– الفاروق ع- 39- بتاريخ 05 ديسمبر 1913.

[2]– خاصّة وأنّ العديد من رواد ومنشييء الصحافة العربية من أصول شامية.

أنظر: تطوّر الصحافة المصرية تأليف إبراهيم عبده * مؤسسة سجّل العرب 1974.

[3]– الفاروق – ع: 36 بتاريخ 14 نوفمبر 1913.

السلوكات المبتدعة في الدين تحت عنوان " ليسقط الدجّالون، ليسقط الدجّالون "[1]. وهذه القصيدة الشعرية في الأصل نشرها من قبل في جريدة (الزهرة) التونسية، ثم أعاد نشرها مرّة أخرى في جريدة " الأخبار " في العدد 13666 بتاريخ 22 جانفي سنة 1911. ونقرأ مرّة أخرى على صفحاتها نداءًا للقرّاء يُعلن عن التوجّه الوطني الذي يلّح عليه عمر بن قدّور: [أيّها القرّاء الكرام، لقد أفاد ا على هذه الجريدة أن تعود إلى خطّتها الأولى الوطنية التي نزحها عنها أحد خدمتها، فهي ترجو لهذا من عواطفكم الإقبال التّام حتّى تنجح مقاصدها].

وعليه، فإنّ هذا يؤكّد الشروط التي يكون قد اقترحها على مديرها فيكتور بأروكانت.

وفي نفس الوقت، نجده يُراسل صحفًا تونسية مثل صحيفة " المشير "[2] سنة 1911 على الخصوص. ويغلب الطابع السياسي على مضمون مراسلاته لهذه الجريدة. وهذا ما يبرز أنّ البيئة الإعلامية الاستعمارية لم تكن لتسمح لعمر بن قدّور التعبير عن انشغالاته السياسية، خاصّة ما تعلّق بالواقع السياسي للجزائر وشمال إفريقيا، آنذاك.

ويبدو أنّ مكانته كقلم متميّز، وشخصية إعلامية فذّة ونابغة، جعلت بعض مسؤولي الصحف الأخرى الجزائرية، خاصّة الصادرة بالفرنسية، يطلبون مشاركته وخدمته من أجل تولّي مسؤولية تحرير القسم العربي لها، مثلما حدث مع جريدة " الإسلام " سنة 1912، ولكنّه امتنع عن هذه المسؤولية [3].

إنّ هذه الفترة مهمّة كثيرًا بالنسبة لتناول فكره الإصلاحي. بحيث سوف يقوم هو بنفسه، بإصدار جريدة ذائعة الصيت في الجزائر وفي شمال إفريقيا آنذاك، ألا وهي (الفاروق). ويصدر العدد الأوّل في 18 فيفري 1913.

ويرى الشاعر والمناضل الوطني مفدي زكرياء أنّ عمر بن قدور الذي كان يشغل مُصففا بمطبعة (كريزاشو) الإيطالي، طلب مساعدة الصحفي الرائد مثله، عمر راسم في

---

[1]– صحيفة " الأخبار " بتاريخ 27 مارس 1910 وأنظر نفس هذه الصحيفة بتاريخ 13 فبراير 1910 حيث نشر مقطعًا من هذه القصيدة كذلك.

[2]– صدرت صحيفة " المشير " التونسية سنة 1911 بتونس مديرها: الطيب بن عيسى (1885/ 1965) جوائري الأصل.

الموسوعة الصحفية- الجزء الرابع، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1995- ص.

[3]– In Histoire de la presse indigène en Algérie. Des origines jusqu'en 1930. Z. Ihaddaden. P : 255.

إنشائها. لكن هذا الأخير انسحب بعد ذلك، بحيث بقي عمـر بن قدـور وحده علـى رأس الجريـدة[1].

من جهتنا لاحظنا بأنّ فكرة التعاون بين الشخصيتين الإصلاحيتين كانت دائمة الحضور في الساحة الصحافية الجزائرية. بالفعل ففي سنة 1908، حينما أراد عمر راسم إصدار مجلّة إسلامية وطنية بحتة، مستقلّة عن ضغوط إدارة الحكومة الاستعمارية، طلب من عمر بن قدور إعانته في تحريرها. وكانت المجلة باسم " الجزائر" وصدر منها عددان بالفعل[2]. أمّا المشروع الصحافي الوطني الآخر فهو الذي يتعلّق بصحيفة (الفاروق) والذي جمع ما بين هاتين الشخصيتين منذ 1912، ويبدو من خلال صحيفة " الحق " الوهراني أنّ عمر راسم كان سيتوّلى إدارة "الفاروق" كجريدة إسلامية سياسية علمية " تصدر بعاصمة الجزائر. حيث جاء في الإعلان المنشور بجريدة " الحق " (ستظهر بحق ا في عاصمة الجزائر جريدة عربية باسم " الفاروق " تحت نظر الكاتب البارع ابن منصور الصنهاجي [3]. وكانت الصحيفة تستهدف منفعة جميع طبقات الأمّة الجزائرية في ميادين التربية والإرشاد. أمّا من الناحية الإنسانية والاجتماعية فيبدو أن علاقة الصداقة بينها كانت متينة وقديمة حيث كان عمر بن قدور قد نوّه بجهود صديقه عمر راسم الإصلاحية بداية من سنة 1908.

وإذا كنا في الفصل السّابق، قد أكّدنا على توضيح البيئة القانونية، التي لا يُمكن تلاقيها من الناحية العلمية والفكرية والتاريخية، بحيث أنّها تساعد على تفسير التوجّهات الإعلامية، الإصلاحية، بمختلف جوانبها، لشخصية دراستنا، فهي تعتبر من المؤثرات الهامّة على القائم بالاتّصال، في بيئة سياسية استعمارية.

ومن دون شك، أنّ النبوغ الصحافي المبكّر لعمر بن قدّور كما رأينا، وتواصله الإعلامي المهني مع مختلف الصحف العربية (السورية، التونسية، المصرية)، وكذا غيرته الوطنية، جعلته يفكّر في تأسيس صحيفته الخاصّة وباللغة العربية، في نظام استعماري كان يعتبر فيه هذه اللغة أجنبية في الجزائر.

---

[1]– مفدي زكرياء (ظهور الصحافة العربية في الجزائر) في حصص إذاعية موفر للنشر الجزائر 1007 ص 99.

[2]– أنظر: جريدة " الأخبار " مقال: " الجزائر " والصحافة العربية لعمر بن قدور الجزائري – بتاريخ: 26 جويلية 1908.

[3]– أنظر: صحيفة " الحق " الوهراني: العدد 44- 17 أوت 1912.

ويبدو أنّ هذا الهاجس الإعلامي ذا المهام الإصلاحية التنويرية كان يشغل نخبة مثقفة جزائرية قبل بداية الحرب العالمية الأولى، وأبرز مثال على ذلك جهود عمر راسم رحمه ا المعاصر له[1]، ولكن اكتشفت ولأوّل مرّة على ما أرى، أنّ ثمّة جزائريين آخرين كانوا يفكّرون في إنشاء صحافة ذات توجّه إصلاحي ووطني بحث. وهذا ابتداء من سنة 1907 بالجزائر[2]، وبالفعل، فلقد عزم مجموعة من التجّار المثقفين إصدار جريدتين باللغتين العربية والفرنسية بتوجّه إصلاحي.

أمّا التوجّه الإصلاحي والوطني، فيهدف إلى إحداث يقظة الجزائريين واستنهاضهم في سياق مصالح وطنية والدفاع عن حقوق الدين الإسلامي في الجزائر، أمام الحكومة الاستعمارية ولكن مع الأسف، يبدو أنّ هذا العزم والتصميم لإنشاء هاتين[3] الصحيفتين يُمثل هذه الأبعاد الإعلامية، وبالتّالي لم يبرز في ساحة الصحافة الجزائرية. قد يكون مرّد ذلك موقف الإدارة الاستعمارية من مثل وجود هذا النمط من الصحف المستقلّة فعلا عن إدارتها، سياسيًا وماديًا. فلننظر إلى دلالة عنواني هذين المشروعين " الإصلاح " و" الاتحاد " في تلك الفترة بالنسبة للجزائر أو للعالم العربي والإسلامي.

وعليه، فمن خلال تحليلنا لكتاباته، فقد كان يُرى أنّ الساحة الصحافية بالجزائر، كانت فعلا خالية من صحافة وطنية جزائرية حقيقية، رغم وجود صحيفة باللغة العربية في تلك الفترة، وهي (كوكب إفريقيا)، لصاحبها محمود كحول[4]. وبالرغم من تولّيه مسؤولية الإشراف على القسم العربي من جريدة (الأخبار) لصاحبها فيكتور باروكاند (Barrucand) سنة 1908، ثمّ سنة 1910 إلى غاية توقّفها مع بداية الحرب العالمية الأولى سنة 1914، فإنّه يبدو أنّه لم ير فيها فضاءًا إعلاميا قادرًا على القيام بمختلف المهام، أو قادرًا على تحقيق أحلامه وأهدافه

---

[1]- يذكر: (Claude Collot) في دراسته كيف الإدارة الاستعمارية منعت أحد الفرنسيين إصدار نسخة عربية لصحيفة الفرنسية في:

La revue Algérienne des sciences juridiques : Juin 1969, p : 350.-

[2]- أنظر عبد الحميد ساحل: "أصول الفكر الإصلاحية من خلال الصحافة الجزائرية من 1903- 1925.رسالة ماجستير 2001- جامعة الجزائر

[3]- جريدة " الحقيقة " بتاريخ 29 مارس 1907 لمديرها عثمان بن عمر.

[4]- صدرت سنة 1907 وتوقفت سنة 1914. أنظر حول هذه الصحيفة – الصحافة الإسلامية الجزائرية من 1830 إلى 1930. الدكتور زهير إحدادن. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986 .

- والصحف العربية الجزائرية (1847/ 1939)، د/ محمد ناصر. الجزائر، سنة 1980. .

التنويرية والإصلاحية. وكانت البيئة الإعلامية الجزائرية آنذاك، تضم كذلك صحيفة " الإسلام " التي بدأ يصدر قسمها العربي سنة 1912، غير أنّه توقّف هو أيضا عند العدد 26 من نفس السنة. أمّا صدورها، (أي الإسلام) باللّغة الفرنسية، فلقد استمرّ إلى غاية 1914[1]، وكانت هذه الصحيفة لا تعبّر حقيقة عن الانشغالات الآنية والمستقبلية لعمر بن قدور الذي رفض التعاون معها، وسوف يتضّح موقفها من القضايا السياسية المصيرية للشعب الجزائري، كالتجنيد الإجباري أو سياسة الاندماج[2]، التي سيرى فيها خطرًا على هوية الشعب الجزائري. وسوف نرى كذلك موقفه من هذه الصحيفة حينما تُهاجمه وتتهّمه بالانتماء إلى التيار السياسي: الجامعة الإسلامية (Panislamisme)، حيث كان ردّ عمر بن قدور على كتاب هذه الصحيفة، يتّسم باعتزازه بأصالته الجزائرية، ومُبرزًا تفانيه في خدمة الدّين الإسلامي، مع معارضته للمقلّدين من العلماء الدّاعين إلى التنكّر للقيّم الإسلامية، حتّى ينصهر الجزائريون في تيّار (التفرنج) أو (التفرنس). ثمّ يرفض أن يُنصّب أمثال هؤلاء الإندماجيين، ومن أتباع جريدة " الإسلام " أنفسهم، زعماء على الأمّة الجزائرية، وممثلين لها في الحقل السياسي. لأنّ إتّجاههم يصبّ في التيّار السياسي لحزب الاستعمار، كما يُسمّيه. والحقود على مصالح الجزائريين.

ويعتبر عمر بن قدور نزعته الدينية مستقلّة الارتكاز، لا تنتمي إلى أيّ تيّار أو حزب. فخطّته عملية إصلاحية، تعمل على تعزيز الروح الإسلامية للجزائريين، كمُرتكز أساسي لهويّتهم، وكتب يقول[3]: " ...إنّنا جزائريو الأصل والمولد والمنشأ، وكلّ من عرفنا منذ نشأتنا يتحقق أنّنا لسنا من الذين يتوغلون في المضايق السياسية والأحزاب، بل إنّ فكرتنا يعرفها كلّ من إطّلع على كتابتنا، سواء في جريدة " الأخبار " أو في الجرايد التونسية، أو في الجرايد المصرية، أو جريدة " الحضارة " بالأستانة. وهي تحتوي على معنى واحد، وهو خدمة الدّين الإسلامي، والعمل على إصلاحه، وتهيئة أهله لفهم حقيقته. لأنّ المسلمين لا تفيدهم السياسة المجرّدة عن الدّين في شيء أبدًا، ولا يحصل لهم فهم سياسة الدّين، إلاّ إذا فهموا حقيقته الأخلاقية والاجتماعية، وعلى هذا المحور كنّا ولازلنا نكره ونحارب الجامدين أي متّبعي القديم من قومنا، والمغالين في التفرنج وأتباع الجديد منهم إلى درجة الإلحاد، ومُبغضي المسلمين من

---

(1) La presse Musulmane algérienne de 1830 à 1930. Par Zahir Ihadaden. ENAL Alger - 1986, p : 36.
- Les Algériens Musulmans et la France. P : 1036.

(2)– أنظر مرجع سابق.

(3)– الفاروق عدد: 04 – 21 مارس 1913.

حزب الاستعمار، ونبرأ من كلّ شيء يمسّ بشرف الاسم ربّما الصحيفة الجزائرية الوحيدة التي كانت ذات توجّهات سياسية وإصلاحية، معبّرة عن انشغالات الجزائريين، وتلتقي في سياستها التحريرية، سواء باللغة الفرنسية أو باللغة العربية، مع الأبعاد التنويرية، والفكرية لعمر بن قدور، هي صحيفة الحق (AlHak) الوهراني، الصادرة سنة 1911[1] خاصّة وأنّ قسمها العربي، تولّى مسؤوليته الصحافي المصلح عمر راسم. غير أنّه تمّ توقيفها في النصف الثاني من عام 1912 [2].

وللتدليل على ما ذهبنا إليه، لا يسعنا إلاّ أن نعود إلى ما قاله في العدد الأوّل من الصحيفة هذه، أي (الفاروق)، حيث يكشف قِدم أمله ورجائه، في تأسيس صحيفة جزائرية، إسلامية بعد دعاء طويل، يتحدث فيه عن العمل والأمل، وعن الهدى والهوى، وعن اعتداء البشر، بعضهم على بعض، في اختلاس الحقوق، وعن رجائه في الابتعاد عن السياسة ومآزقها، وتقلّباتها، بسبب عدم التناصر والتضامن بين المشتغلين فيها. حيث يقول: " ... وبعد، وبعونه تعالى، قد تحقّق لنا ما كنّا نرجوه ونأمله منذ زمان، فأصدرنا "الفاروق " على نحو ما كنّا نبغي: جريدة أسبوعية، تسير بنظام تام إن شاء ا ، لا تتأخر عن مواعدها ... جريدة إسلامية بكلّ معاني الكلمة، تبحث في شؤون المسلمين مع مراعاة الاعتـدال الذي اعتنـقته لـها، مشـربًا لها ..."[3].

وبعدما يُحدّد أهدافها بدّقة، والتي سنوضّحها في هذا السّياق نراه يُؤكّد مرّة أخرى على عدم وجود صحيفة جزائرية إسلامية في تلك البيئة الاستعمارية، يقول: " أصدرنا هذه الجريدة سدا لثلمة عدم وجود جريدة إسلامية بكلّ معـاني الكلمـة في هـذه العاصـمة. بل في هـذا القطـر ..."[4].

لاشك أنّ التفكير في إنشاء صحيفة جزائرية محضة، مستقلّة عن ضغوط الإدارة الاستعمارية، جعله يضع تصوّره للخط الإعلامي الذي ستنتهجه في بيئة استعمارية تختلف عن باقي البيئات في العالم العربي.

---

(1)– أصول الفكرة الإصلاحية من خلال الصحافة الجزائرية عبد الحميد ساحل ص 155. مرجع سابق.

(2)– Par A.E.K. Djechloul – ENAL. Algérie 1984. p : 85. Eléments d'histoire culturelle.

(3)– الفاروق – عدد: 1- 18 فيفري 1913.

(4)– نفس المصدر السابق.

لقد أشرنا سالفًا إلى إنشاء الحكومة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر سنة 1908، لمصلحة تجعل مراقبة الصحافة باللغة العربية خاضعة مباشرة للحاكم العام بالجزائر. وبالتّالي يُمكن تصوّر طبيعة الضغوط التي يتعرّض لها هذا المنتوج الإعلامي أثناء الممارسة ولهذا سعى منذ البداية، إلى تحديد الخطّة أو المبادئ التحريرية التي اعتبرها السياق الذي يتمحور حوله محتوى جهده التنويري الإصلاحي. مع مراعاة مبدأ الاعتدال من الناحية السياسية (والإصلاحية). غير أنّ التوجّه الإعتدالي سوف يسعى ليكون فارقًا بين الحق والباطل، وآمرًا بالمعروف، وناهيًا عن المنكر [1]. ويُحدّد في العدد الأوّل التوجّهات الثقافية العلمية والأدبية لهذه الصحيفة. لاهتمامها بشؤون المجتمع. أمّا الغاية التي يسعى إليها من خلال تأسيسه لها، فهي غاية تنمّ عن بعد الرؤية السياسية عنده، من حيث الانتماء الحضاري للشعب الجزائري، إذ يقول: "وليست لنا هناك غاية إلاّ تنوير الأذهان بمعرفة حقائق القومية الإسلامية ومعرفة ما يحـدث في العـالم مـمّا يهمـّها معـرفته ... "[2].

ومن الأهداف الأساسية، يحدّد خدمة اللّغة العربية، وخدمة تاريخ القومية الإسلامية، كأولويات الأهداف. وبالتّالي، فإنّ هذا الصحافي النابغة يحمل فعلا مشروعًا إصلاحيا، ورؤية تنويرية واضحة تعكس مرتكزات معيّنة، تشكّل حدود هذا المشروع آنذاك في الجزائر وفي شمال إفريقيا.

تكشف افتتاحية العدد الأوّل عن جانب آخر من الشخصية الذهنية لعمر بن قدور الجزائري، وهو إيمانه العقائدي العميق، حيث يحدّد دافعًا إيمانيًا، مرتبطًا برؤيته الإسلامية العقائدية للإنسان، حيث يكتب أنّ دافعه هو: " الشعور الحيّ والوجدان الرّاقي و الحمد من حيث لا نريد من مخلوق أجر إنّ ا لا يضيع أجر المحسنين "[3].

لكن بعد انقضاء سنة من الممارسة الصحفية في جريدته (الفاروق) يكتب في العدد 51، موضّحا المبادئ الرئيسية لها، والتي تعكس فعلا الأبعاد الإصلاحية لمشروعه التنويري. والشيء الملفت للانتباه، أنّ مفهوم الإصلاح المنوط بالصحافة لديه، لا يحصره فقط، في بُعده الديني. وإنّما يُشير إلى الدور العقلاني التنويري والتغييري، للصحافة القادرة على إحداث قطيعة وتحوّلات خطيرة، من الناحيتين الاجتماعية والسياسية. إنّ الصحافة الإصلاحية ليست صحافة

---

[1]– أنظر الفاروق – 18 فيفري 1913.

[2]– نفس المصدر.

[3]– نفس المصدر السابق.

دينية فقط، إنّما هي صحافة تطويرية، تدعو إلى التقدّم على مبدأ من المبادئ الحضارية ..، سواء أكان ذلك المبدأ دينيا، أو سياسيًا، أو أخلاقيًا، أو اقتصاديًا[1] وهكذا، فإنّ صوت بن قدور بالجزائر يُشكّل صوتا آخر في صيحة الإصلاح المُنتشرة في الصحافة العربية الإسلامية، التي كانت ترى وجوب الإصلاح وتتألم شرقًا وغربًا من الوضع السّائد في العالم الإسلامي ككلّ [2].

وهذا ما دفع بنا، كما سنرى في خضم هذه الدراسة، إلى إيضاح الدور الذي يُمكن أن تقوم به الصحافة كأداة ومرتكز محوري في تحقيق المشروع الإصلاحي المتعدّد الأبعاد.

بإمكاننا تحديد المبادئ الرّئيسية التي عيّنها هذا المصلح المفكّر في النقاط التالية؛ وهذا انطلاقا من افتتاحية كان قد خطّها بمناسبة مرور سنة كاملة على صدور (الفاروق):

***مبدأ الإصلاح الدّيني والاجتماعي:**

يقوم هذا المبدأ على عناصر متكاملة من الجهود التربوية، الدينية والاجتماعية، المُنبعثة من الروح الإسلامية، وذلك بالدّعوة إلى التعاون لإنشاء مؤسسات تُهيكل هذه الجهود. وبالتالي، فإنّ الأمر هو تأكيد على مسألة وجود المسلمين، أو أنّه يتّهم تلك المتميّزة عن غيرهم. رؤيته الثاقبة جعلته يعتبر المشاريع الإصلاحية، قابلة للنّمو والتّغيّر، حسب مقتضيات العصر. فهو يرى أنّ الذي يعتقد بجمودها وثباتها، فقد (جهل جوهر الإسلام الحقيقي، وروحه العامّة). فهذا الموقف الأخير يعكس سيطرة التقاليد الخشنة والبدع والجمود الفكري الذي أصاب المسلمين.

***مبدأ دحض التناكر والدعوة إلى التعاون والتّعارف:**

لقد كان عمر بن قدور واقعيًا في مقاربته الإصلاحية العملية؛ لاعترافه بوجود صعوبات وعراقيل لمن يُباشر وينخرط في هذا الميدان. وتكمن الصعوبة في درجة المقاومة والتّحمّل. ولهذا، فهو يصرّ، بكيفية شديدة، على ضرورة تدعيم أواصر التعارف والتعاون، كمرتكز أساسي آخر في العمل الإصلاحي، قصد تجسيد التفاهم بين الناشطين في حقل الإصلاح، وسوف نرى كيف يشنّ حملات صحافية لتأسيس الجمعيات المختلفة، على المستوى القطري أو خارجه.

---

[1]– بتاريخ 09 مارس 194.

[2]– أنظر: رفيق بك العظم: الدروس الحكيم للناشئة الإسلامية، المطبعة الوطنية بدمشق 1308 هـ ص 2 + 3 ط II.

*** مبدأ محاربة البدع والآفات الدينية والاجتماعية:**

وهو يُعلن صراحة، أنّه سيكون أوّل العاملين على محاربة الضلالات والتقاليد المخالفة لروح الإسلام، وكذلك، وهذا مهم، للحقائق العلمية الصحيحة.

*** المبدأ السياسي:**

إذا كان عمر بن قدور في افتتاحية العدد الأوّل، قد أشار صراحة إلى عدم اشتغال الجريدة بالبُعد السياسي، داعيًا ا تعالى إعفاءه من السياسة ومآزقها، وأضرارها، نظرًا لمناخ التقلّبات، والسّلوكات المتلوّنة، السّائدة في غمارها، ولغياب التضامن الفعلي ما بين العاملين في ساحتها[1]. غير أنّه في افتتاحية العدد (51) من الفاروق، نكتشف موقف عمر بن قدور السياسي من الاستعمار الفرنسي، الذي يعتبره مُسيْطرًا على بلاده الجزائر. وأنّ سياسته اتجاه هذا البلاد هي سياسة الهيمنة الاستعمارية. ولهذا، فإنّه يؤكّد مرّة أخرى، رغم توضيحه لموقفه هذا، بأنّ خطّته مبنية على الاعتدال. فإذا كان لا ينتقدها، فهو أيضًا، وفي نفس الوقت، يرفض الخضوع لضغوطها في سياسته الإعلامية الإصلاحية، التي تؤكّد على الهوية الإسلامية للأمّة الجزائرية، المتميّزة عن الأمّة الفرنسية[2].

إذن، فإنّنا نلحظ كيف أنّ البُعد الإصلاحي لديه، أكّد على مسألة الهوية في وقت مبكّر. ولنا عود إلى هذه النقطة خلال هذه الدراسة.

وبالتّالي، فهو يُعلن رفضه الاندماج بفرنسا، وكذا رفضه لنزعة التفرنج (أي التفرنس)، أو البُعد التغريبي الذي كان يدعو إليه بعض الجزائريين[3]. وهو يرفض كذلك سياسة التجنيس بالجنسية الفرنسية التي يراها تتنافى مع العادات والقيم الإسلامية: [ لسنا نعني بحاجتنا أن نلتصق بفرنسا، أو نندمج بها كما يرغب بعضهم، أو نترجّى حصول نتيجة التّمدين التي يعزّونها لفضيلة الاستعمار ... إنّ المصلحة المشتركة بيننا وبين مبدأ الاستعمار غير ناجحة ما لم تتوفّر لدينا وسايل الرقي بالأسلوب الذي تقبله عوائدنا الحقّة الإسلامية، ولا نقول الجنسية المُخترعة،

---

(1)– أشار شكيب أرسلان ( / ) في تعليقه عن انخراط الإمام محمد عبده. أنظر حاضر العالم الإسلامي.

(2)– " الفاروق " نفس المصدر السّابق.

(3)– أنظر: شارل روبير آجرون: Les Algériens musulmans et la France

لأنّ ديننا الصحيح أولى بالاعتناء من نوازعنا المختلفة المعزوة إلى فوضـى اختـلاط العنـاصر ..."[1]

إنّ هذا النّص الافتتاحي ذات النغمة السياسية الواضحة، يُذكّرني بمقال سياسي نشرته صحيفة (اللواء) المصرية سنة 1908، بعنوان: مصر والجزائر – محادثة ذات شأن خطير (بين مصري فاضل وجزائري غيور)، بحيث يُعبّر الجزائري عن أماني الجزائريين في الحرية والاستقلال ... مع ظنّه أنّ هاتين الأمنيتين بعيدتا المنال أو التحقيق. ثمّ يُعبّر عن مخافته على شعائر الدّين الإسلامي، والاحتفاظ بالعادات العربية الشريفة. وأنّ فرنسا ستضطرّ على ممرّ الزمان إلى منح الجزائريين ما يّريدون، وذلك بما تراه فيهم من آثار التّرقي، "إنهم الآن يطلبون العلم بكلّ الوسائل. وأعتقد أنّ صاحب المقال ليس سوى عمر بن قدور الجزائري. والذي يُضيف في هذا المقال من جريدة "اللواء ": [ إنّ أمّة متعلّمة راقية يستـحيل بقـاؤها تحت النفوذ الأجنبي ][2]

إنّ هذه السياسة التحريرية الشاملة، التي حدّدها لم تكن لتتجسّد على صفحات (الفاروق) بالدرجة الأولى، لولا احترافيته الصحافية، أي إلمامه وتمكّنه من مختلف مراحل تصنيع الصحيفة. لقد كان هو نفسه يشتغل بمهن الطباعة حتّى قبل تأسيسه لصحيفته، وذلك لدى مطبعة الإيطالية. وهذا ما يدلّ على إدراكه للفوائد الاقتصادية لمثل هذه التخصّصات المُرتبطة بنشاط المؤسّسة الصحفية.

ولقد تمكّن منذ انطلاق الصحيفة من توفير مطبعة (الفاروق) الخصوصية[3]، والتي سوف يسعى إلى تنويع خدماتها عبر طبع جميع ما يتّم طلبه. وهذا هو إعلانه: " مطبعة الفاروق، الخصوصية، متعدّدة لطبع جميع ما يُطلب منها من دفاتر وصحف وإعلانات وبطاقات الزيارة، وغير ذلك من المطبوعات ... فمن أراد أمـرًا عـدنا فليُخـاطب إدارة جريـدة الفـاروق ..."[4].

نظرًا لكثافة نشاطه آنذاك، فقد كان أيضا لا يزال مُشرفًا على القسم العربي من جريدة "الأخبار "، وقد أحسّ بحاجة إلى وجود عناصر شبّانية جزائرية بصحيفته.

---

[1]– الفاروق: نفس المصدر السابق – العدد السابق.

[2]– أنظر اللواء: 11 يونيو 1908 / 12 جمادى الأوّل 1326 الأرشيف في (دار الكتب والوثائق القومية، مصر).

[3]- الفاروق – العدد 01 مصدر سبق ذكره.

[4]– كانت إدارة الجريدة بشارع لوللي بيرليوز – مدينة الجزائر .Rue, Lulli Berlioz- Alger

لهذا، سعى بداية من سبتمبر 1913 إلى نشر إعلان، فحواه أنّ مطبعة الجريدة بحاجة إلى شاب متعلّم بالعربية، حتّى يعمل على تعليمه وتكوينه في الطباعة، وحدّدها بـ: تعليم صناعة الحروف بالجريدة. فدعا الأولياء الذين لديهم رغبة في تعليم أبنائهم هذه " الصناعة الشريفة " الاتّصال بمدير (الفاروق)[(1)].

إنّ التفكير الطويل الذي لازم عمر بن قدور قبل إقدامه على إنشاء هذه الصحيفة، جعله يُفكّر أيضا في كيفية تأمين موارد مالية لتسييرها. فهو يعرف آثار السياسة الاستعمارية على المستوى الاجتماعي للوسط الجزائري المسلم، من حيث مستوى التعليم وانتشاره، ومن حيث المستوى المعيشي أيضا، وتأثيرهما على مدى توزيع الصحيفة. فلقد أسّسها وأرادها جريدة أسبوعية، تسير بانتظام، وتصدر في مواعدها. وقد جعل ثمن اشتراكها كما قال " تافها جدا رفقًا بالقرّاء والمشتركين ... "[(2)].

ولكي يجعل منها مؤسّسة صحفية حديثة، سعى إلى البحث، وإلى إيجاد وكلاء داخل الجزائر وحتّى خارجها، يُكلّفون بإيجاد المشتركين وتوزيع الصحيفة. ففي العدد الثالث، نجده ينشر إعلانًا يتّصل بهذه النقطة الحيوية بالنسبة لأيّ صحيفة: " إنّ إدارة الفاروق محتاجة إلى وكلاء لبيع الجريدة في العمالات الثلاث، فمن رام ذلك فليُخاطب مدير جريدة (الفاروق) " ع: 03 (14 مارس 1913).

ولقد عيّن مثلا وكلاء خصوصيين، منهم "الحاج الزّاوي "التّاجر المتحوّل بكامل ولايات الجزائر، والسيّد مولود بوالحروف، وكيلا بمدينة قسنطينة، مكلّف بالاشتراكات، والإعلانات.

وتماشيًا مع مشروعه الإصلاحي التنويري، نراه يُوسّع مجال توزيع الصحيفة إلى كلّ من تونس ومراكش (أي المغرب الأقصى) فيقوم بتعيين أحد أصدقائه الصحفيين وهو السيّد الطيّب بن عيسى[(3)]، الذي كان يُراسل في نفس الوقت (الفاروق)، في منصب وكيله الخاص بتونس، مكلّف بعقد الاشتراكات والإعلانات.

وكانت الساحة المقروئية التونسية آنذاك في حاجة ماسة إلى الصحف، بعدما أوقفت الإدارة الاستعمارية الفرنسية الصحف التونسية بقرار سنة 1912. يقول المؤرخ الجزائري أحمد

---

(1)– الفاروق 12 سبتمبر 1913.

(2)– الفاروق – العدد 01 – مصدر سابق.

(3)– الفاروق العدد 22. 25 يوليو 1913.

توفيق المدني: " ... كانت الصحف التونسية كلّها معطّلة. وكانت الأفواه مكمومة، وحالة الحصار المفروضة على البلاد منذ سنة 1912 تقضّ المضاجع، وتُحطّم النفوس، وقليلا ما كنّا نتّصل بصحيفة شرقية من الصحف المعتمدة، المعروفة بحرية الرأي والمقاومة الصادقة. فكنّا نترقّب أسبوعيا بفارغ الصبر جريدة " الفاروق " التي كان يصدرها بالعاصمة الجزائرية، الكاتب الخيّر، الحرّ، عمر بن قدور الجزائري[1] .

ولقد عرفت (الفاروق) كما سنرى، في سيّاق الحديث عن تأثير عمر بن قدور، ومكانة هذه الصحيفة، إنتشارًا في شمال إفريقيا. بدليل المقالات والقصائد التي تصل من مراكش (أو المغرب الأقصى) آنذاك. وكانت الصحيفة تمرّ في عامها الثاني، بأزمة مالية حادة، مع مؤشرات حرب عالمية، بحيث كان المشتركون لا يدفعون ثمن اشتراكهم، ممّا كان يضطرّه من حين لآخر، إلى تنبيههم، وإلى ضرورة الوفاء بالالتزام المادي اتجاه الصحيفة، حيث كتب في العدد 88 إلى هذا " الواجب عليهم، فلعلّهم ينتبهون "[2].

وإذا كان قد فكّر في المطبعة والتوزيع، والوكلاء، فإنّه لم يغفل في المقابل جانبًا مهما وموردًا إعلاميًا هامًا للمؤسسة الصحفية، ألا وهو المراسلون. ويـبدو أنـّه احتـاط للأمر فعلاً.

فعلى المستوى الوطني، لاحظت وجود مراسلات صحافية عديدة لنخبة قلمية آنذاك. لاشك كانت تشكّل ملمحًا للحركة الثقافية بالجزائر في تلك الفترة. فالحقيقة التاريخية لنشاطه الصحافي التنويري تؤكّد قيامه بتصنيع صحيفته في جانبيها الأساسيين: المضموني والمادي. وإنّها كانت لمعاناة حقيقية فريدة. ليس في الجزائر فقط، وإنّما في العالم العربي. وذلك إدراكًا منّا لواقع البيئة الاستعمارية، المختلف عن واقع الكثير من البلدان العربية، وهذه شهادة أحد روّاد الصحافة التونسية تؤيّد ما سنذكره تباعًا[3]. قال الطيّب بن عيسى (1888- 1965) عن

---

[1]– أحمد توفيق المدني: حياة كفاح – مذكرات – 1905- 1925 الجزء 01. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر 1976 ص 766.

[2]– الفاروق، بتاريخ: 27 نوفمبر 1914.

[3]– أنظر: عمر بن قفصية: كتاب أضواء على الصحافة التونسية (1860- 1970) دار بوسلامة للطبع والنشر، تونس، ص 100.

عمر بن قدور [ ... صحفي بأتّم معنى الكلمة لأنّه يعرف مهنة الصحافة من أوّلها إلى آخرها، وكان كاتبًا كبيرًا، طالما راسل صحف الشرق الكبرى بمصر، وسوريا وتركيا وتونس ...][1].

ولم تكن ضغوط البيئة الاستعمارية السياسية والإعلامية، الوحيدة في التأثير على الصحيفة، وعلى صاحبها. ولكن، حتّى الوسط الجزائري بذاته، سوف يكون أحيانًا جدّ للممارسة الصحفية، التي كانت حقّا نضالا ومقاومة، على حدّ تعبير مفدي زكرياء، كما رأينا سالفًا، في توصيفه التاريخي للصحافة الجزائرية[2].

وإذا كان يقوم تقريبًا بكلّ أعباء تصنيع صحيفته (الفاروق)، وإعدادها إعدادًا مهنيًا خالصًا، ويجعلها تظهر بانتظام إلى غاية بداية الحرب العالمية الثانية، مع نفيه إلى مدينة الأغواط كما سنرى، فإنّ عبء المسؤولية ونشاطه الإعلامي المكثف، جعله يوقف هذه الجريدة لمدّة أسبوعين، طلبًا للراحة، وسعيًا منه، حسب اعتقادي، إلى تفعيل عمل الوكلاء والمراسلين داخل الوطن، من حيث ضغوط الوسط الجزائري. ففي مقال إتّخذ قالبًا حواريًا مزج بين النثر والشعر، وبعنوان: " محاضرات الفاروق: آية للسّائلين (كذا) "[3] تحسّر على صعوبة الممارسة الصحفية في الجزائر، وذلك بعد إحساسه بتنكّر وحسد بعض الجزائريين، سواء كانوا متنوّرين أو غيرهم، لجهوده الصحفية والفكرية.

ولقد آلمته كثيرًا مثل هذه المواقف. ويبدو أنّ بعض الأصداء بدأت تصله كإتّهامات حول الأبعاد السياسية الخفيّة التي يعمل من أجلها، من خلال صفحات هذه الجريدة. فحينما يُجيب عن السؤال المتعلّق بأسباب عزوف الناس عن الصحافة، يقول: " هو البحث عن عيوب (الفاروق) فلطالما فتّشتُ عنها في إحساسات القرّاء فلم أجد شيئًا، عدا ما يُسمّيه المُغرضون باللصوصية " أو " سولوماسك "[4]، وهي لفظة فرنسية يُعبّر بها عمّن يتظاهر بعمل ما، لم يعمله هو، بل غيرُه، وكلّفه به، بأن يتظاهر به. والمقصود هنا بهذا الفعل صاحب الفاروق ...".

---

[1]- في محمد صالح الجابري: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (1900/ 1962) دار العربية للكتاب، SNED/ الجزائر، طرابلس سنة 1984. ص 164.

[2]- حصص إذاعية (ظهور الصحافة العربية في الجزائر)، موفم للنشر، الجزائر 2007، ص: 95.

[3]- بتاريخ 30 ماي 1913. العدد: 14.

[4]- أي بالحروف اللاتينية: " Sous- le masque ".

ولقد انتقد حسّاده على نبوغه الفكري والصحافي، الذين يربطون هذا التفوّق الذهني بالمكانة الاجتماعية، من حيث منزلة، شهرة الأسرة أو ترفها، أو ربطه بحاملي الشهادات التعليمية، أو بالتّشدق الخطابي[1].

والأبيات التّالية تُعبّر بقوّة عن هذا الألم الذهني والتّحسّر النفسي، حيث يقول:

**... لقد ضبط الأقوام فضل رقيبهم — تعالى وظنّوا أن يكـون به الفـرى**

**لذا أنكـروا أنّي أحـوز مـزيـة — فنّي دونها المحـروم منها تحسّـرا**

**وكم كان يزري المفترون بهمّتـي — جهارًا وزيّـي بالصواب قد افتـرى**

**أيحسب أهل الفن أنّـي غريمهـم — بظلم وبعض الظـنّ إثـم بلا مـرا**

**ولو كنت ذا جـاه ومـال وقـوّة — لقالوا فرأت الصـدق منّـي تفجّرا**

**وما علموا أنّ الفضـيـلة للـذي — يصيب بهـا من يجتبيه من الورى**

**وأنّي بفضل ا وخضت معامعـا — نظمت بهـا الأفكـار دُرّا وجوهـرا**

**وليّ قلم ينبـو الحُسـام لقـاءه — ومن نثره كـم مـن لبيـب تحيـرا**

**إذا أفزع الجهّـال يومـا بيانـه — يقولون من أدرى الجهول بما جرى[2]**

وفي الأبيات الباقية يُخاطب ذاته، داعيًا إيّاها التفطّن للغفلة التي تكوّنت بانتشار الجهل، ويدعو إلى تهذيب الفكر، والصمود في وجه الصعوبات، رغم إقراره بثقلها على المفكر المصلح.

فيقول:

**ولا تبتئس إن نات مثلى بلاغـة — وأنكرها الحُسّـاد عـنـك تكبّـرا**

**فإنّ الليالي سوف تجري قرارها — فتهوى رؤوس المفكّرين إلى الثرى**

**صعيب على قاب الأديب إذا أتى — بحق مبيـن أن يُهـان ويحـقـرا**

---

[1]– في نفس المصدر، العدد: 14.

[2]– نفس المصدر السابق.

إذن، فلقد كان مُبكرًا بأنّ المسلك الإصلاحي، الإعلامي، الذي كان يتوخّاه، سوف يُصادف ضغوطات جمّة. ليس فقط من قبل أعوان الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، وإنّما حتّى من بعض أبناء جلدته. ولقد لمسنا نحن كذلك هذا الأمر فعلا، لدى تطرّقنا لوفاته.

لقد سعى بعض الجزائريين الذين كانوا يتابعون (الفاروق) إلى إتخاذ بعض الحالات القليلة جدا ذريعة للانتقاص من عمر بن قدور ، حيث سعت بعض الأقلام إلى التطفّل على الآخرين من الكتّاب، وذلك بسرقه المقالات ونسبتها إليهم. فلمّا تنبّه عمر بن قدور لهذا الأمر، كتب عن استقلالية قلمه الصحافي والإصلاحي. مذكّرًا بمساهماته الإعلامية والفكرية في الصحافة العربية خارج الجزائر [1]. وكان عنوان هذا المـقال: "شـؤون وشجـون بئسما يفـعل المتطـفلون "[2] .

أرى أنّ قراره في الإيقاف المؤقّت لصحيفة (الفاروق) لمّدة أسبوعين لم تكن فقط طلبًا للراحة والسفر الداخلي للإطلاع على الظروف المعيشية للأمّة الجزائرية، كما كتب، وإنّما كما أشرت لتفعيل نشاط الوكلاء والمراسلين، وكذلك لأمر هام جدا، بالنسبة لتاريخ الصحافة الجزائرية، وهو محاولة السعي للتحضير، ولتحويل الصحيفة إلى جريدة يومية. فيمكن القول أنه أوّل مَنْ فكّر إذن في العمل على إنشاء صحيفة يومية جزائرية هو عمر بن قدور الجزائري. بذلك فكّر قبل الأمير خالد بن الهاشمي، صاحب جريدة " الإقدام " من حيث طبيعة المشروع.

ويمكن أن نتابع هذه المسألة إنطلاقًا من مقالاته بالفاروق. وهكذا يكتب في العدد 31: "منذ أن أسّسنا هذه الجريدة ونحن بعون اللّه نتغلّب على الأتعاب ونُجاهد المشاق تمكينًا لركن الجريدة وخدمة للأمّة والوطن. فكنّا ولا زلنا منفردين. نتكلّف بتأدية جميع الشؤون الضرورية للجريدة. ولا مُعين سوى العناية الربّانية التي لنا فيها الثقة الكاملة، ومنها تمكنّا من تنمية الثقة التّامّة بمداركنا. وبما أنّ الجريدة قد تجاوزت نصف عامها، ولم تتهيّأ لنا راحة يوم من الأيّام، فإنّأ نستملح من مُشتريكينا وقرّائنا الكـرام بكلّ أدب وخضـوع راحة أسبـوعين للفـاروق فـي كل عام ... ".

---

[1]- سبق وأن أشرنا لهذه النقطة من هذه الأطروحة.

[2]- الفاروق – العدد: 55 بتاريخ: 06 أفريل 1914.

نعم، لاشك أنّه وضّح فيما بعد، حينما عادت الصحيفة للصدور في 17 أكتوبر 1913، بعد احتجاب دام أسبوعين، كيف أنّ النشاط الصحفي ومسؤولياته، لم تسمح له بتحقيق بعض أمانيه في السفر والتنقّل الميداني في ربوع الوطن الجزائري. غير أنّ الغاية البعيدة من هذا الترحال الداخلي سوف تنكشف لنا. بحيث يكتب قائلا: [ ما كنت أحسب أنّ الأيّام تمنحني فرصة يُمكن لي بها اختراق المنطقة التي كان يرتدّ عنها بصري خاسئًا تلك الغاية التي كدتُ أشتاقها وأحنّ إليها حنوا شديدًا وما ملكت يميني مناسبات تنيلني ذلك، وما اقتنيت خلالاً تبثّ في النفس الإقدام على السّير والسفر، فكأنّني أحسب اليوم لدولة الأيّام عليّ مزية كـبرى إذ أتتنـي بالفرصة الصالحة ..."[1].

هكذا بعد شهور قليلة، وفي 27 أبريل 1914، يقوم بإصدار صحيفة (الفاروق) في حجم أكبر، وهذا يعكس وجود رؤية إصلاحية تستند إلى مبادئ دينية، وقومية ثابتة، تنظر دوما إلى المستقبل، بالتّمسّك، كما قال، بالعناية الربّانية التي ترعاه.

إنّ مشروع تحديث صحيفة (الفاروق)، مع انتشاره على مستوى التراب الجزائري، ومستوى شمال إفريقيا (تونس والمغرب الأقصى)، هو مرتبط أيضًا بمدى الثبات على المبدأ الفكري لصاحبه، أي عمر بن قدور الجزائري. وسوف تبرز هذه العناصر في الافتتاحية التي جاءت بعنوان، ذات مغزى كبير : " نتيجة الثبات "[2] فهو يرى أنّ أساس نبوغ الإنسان وتقدّمه، يحصل نتيجة ثباته على المبدأ الصحيح. وحتّى حصول التطوّر والنّمو البشري، هو انتصار للمبادئ. والثبات عليها، هو من يجذب أيضًا القوّة المادية.

وجدير بربّ القلم، أي الكاتب أو الصحافي، أن يجعل عمله قابلا للنمو، ومستعّدًا للتّوسع، لاسيما بالنسبة لصاحب الصحيفة الإصلاحية، وجدير بهذا الصحافي أيضا، أن يُبرز ثباته، لأنّه يُؤدي عملا نافعًا للأمّة، وحتّى تعظم كذلك مكانته في نظر الشعب.

ويُصرّح بأنّ تقديمه " الفاروق " إلى قرّائه في حجم كبير، إنّما هو دليل واضح وقاطع على ضرورة تجسيد التطوّر والنّمو في جميع مصالح الجزائريين الحيوية. وتحقيق هذا المرمى مُرتبط بالثبات. وهو يسعى إلى تجاوز الاختلافات والظروف الآنية الصعبة، لتُصبح الجريدة

---

[1]– المصدر السابق: العدد 33. [17 أكتوبر 1913].

[2]– نفس المصدر السابق.

تصدر في نظام آخر، ويُحقق نموا آخر، وتغدو " جريدة يومية تُضارع الجـرائد اليومية الكبرى "[(1)].

فلننظر الآن إلى هذه الفقرة من هذا المقال، والتي تعكس همومه الإصلاحية بمختلف أبعادها، وتعكس جزءًا من مسيرته المهنية والإعلامية، الذي بدأت ملامح نتائجها أو ثمارها تبرز على صفحات هذه الجريدة: [ ... إنّني لم أقدم على عمل دون أن أثبت فيه في صميم قلبي قوّة من الثبات، كلّ وقت تتوسّع دائرتها،ى وترتفع مراميها. وثباتي على مبدئي الدّيني والقومي، هو الذي حتّم عليّ أن أكون في واد، وحبّ صلاحيتي الشخصية في واد آخر. وهو الذي خوّل لي بنعمة ا أن أرفع (الفاروق) كلّ حين إلى درجة من التّحسين أعلى من التي قبلها، لقد كُنتُ في المدّة الأولى من حياة (الفاروق) أكتب بمفردي، بحيث لم يصدر عدد واحد خال من فصل أو فصول بقلمي، وما منعني التعب والقلق أن أثق بالمستقبل. وقد أفادني ذلك الثبات في مواقف صعبة، وما برحت أن وازرني كتّاب متعدّدون من قرّاء جريدتي لم يألوا جهدًا في مدّ (الفاروق) بنفقات أقلامهم وعلى هذا تيقنت أنّ (الفاروق) لا يفي بالمأمورية الإصلاحية المنوطة به ما دام في حجمه الصغير ...][(2)] .

ولمّا أشرنا من قبل إلى تعزيز صحيفته (الفاروق) بمراسلين، من داخل الوطن، الجزائر، وخارجه، فإنّما ذلك هو مؤشّر على مدى إلمامه ومهنيته الإعلامية، وبالتّالي احترامه للمشتركين والقرّاء، قصد تزويدهم بالأخبار الآنية.

ولهذا كان بعض وكلائه داخل البلاد وخارجها، بمثابة مراسلين مكاتبين للصحيفة في آن واحد. إضافة إلى وجود كتّاب مراسلين آخرين. مثل ذلك الصحافي المصلح الطيب بن عيسى بتونس، صاحب جريدة (المشير)[(3)] سابقا الذي كان وكيلا للاشتراكات والإعلانات، ومُراسلا (للفاروق) بتونس.

بلى، فإنّ مكانة هذه الصحيفة غدت قويّة وهامّة في ساحة المقروئية الصحفية بتونس. بحيث تشكّل مكتب إعلامي ضمّ نخبة من الأقلام النهضوية، إلتفّت حول الفاروق، تزوّدها بالمقالات والمراسلات المختلفة. وسنتطرق إلى هذه النقطة في سيّاق الحديث عن المكانة

---

(1)– نفس المصدر السابق.

(2)– الفاروق- العدد: 58.

(3) -المشير: صحيفة تونسية صدرت سنة 1911 لصاحبها الطيب بن عيسى. أنظر أضواء على الصحافة التونسية (1860-1970)، عمر بن قفصية، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس.

الإعلامية والفكرية لعمر بن قدور الجزائري، الذي شعر بهذا الانتشار والتّأثير الواسعين، اللذان سيدفعان به إلى تخصيص ركن صحفي يُسمّيه: " البريد التونسي "[1]

وينبغي الإشارة هنا إلى أنّه كان لديه مراسل بمصر أيضا، للأسف، لم يُصرّح باسمه على مدار مختلف الأعداد. ولقد برزت هذه المراسلات الصحفية بالخصوص أثناء المقاومة الليبية للاحتلال الإيطالي. فكانت ثمة تغطية لأخبار الحرب الدائرة بليبيا. ففي باب " حوادث خارجية " أو تحت عنوان إعلامي سياسي هو: " طرابلس للطرابلسيين " يكتب: [ جاءنا من مراسلنا بمصر ما يأتي: [2]..] أو بعبارة: [ من كاتبنا الفاضل بالقاهرة ].

لمسنا منذ انطلاق جريدة (الفاروق) حرصه على إشراك المثقفين من قرّائه في المساهمة التحريرية. ففي العدد الثاني وتحت عنوان " منبر الفاروق " يدعوهم إلى الكتابة في الشؤون الاجتماعية، التي كان يرى[3] أنها تُشكّل جزءًا ومُرتكزًا في العمل الإصلاحي والتربوي.

كان المُكلّف بتغطية الأحداث في منطقة الغرب الجزائري (وهران) السيّد أحمد التركي، الذي كان مراسلا للفاروق.

وبالرغم من أنّه يُعلن عدم قبول المقالات غير الممضاة بأسماء أصحابها الحقيقية، مع إمكانية جعل الرموز للأسماء في النشر، فإنّنا لاحظنا على مدار كلّ الأعداد التي إطّلعنا عليها، وجود إمضاءات برموز أحرف الأسماء، وبأسماء معيّنة مثل: " ابن الإسلام القسنطيني". وظاهرة عدم التصريح بالأسماء الحقيقية، تُعدّ، دون شك، مسألة دقيقة من الناحية التاريخية، في نسبة المقالات لأصحابها الحقيقيين، وهي مسألة مؤرّقة حقًا للباحث، وهذه الظاهرة لا تقتصر على الصحافة الجزائرية فقط [4] ، بفعل البيئة الاستعمارية آنذاك، وإنّما هي منتشرة في صحافة العالم العربي. فالكثير من الأقلام التونسية، الجزائرية والمغربية في صحيفة (المؤيّد) المصرية لم تكن تُصرّح بأسمائها الحقيقية. يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة: " لقد كان بجريدة المؤيّد

---

[1]- مثلا في العدد: 70 بتاريخ 20 يوليو 1914.

[2]- أنظر الأعداد/ 28 فبراير 1913 و28 مارس 1913.

[3]- الفاروق: بتاريخ: 07 مارس 1913.

[4] – ألحق الدكتور محمد ناصر بآخر كتابه الجزء الثاني: المقالة الصحفية الجزائرية. مرجع سابق: قائمة بالأسماء المستعارة لكثير من كتاب الصحافة الجزائرية. أنظره.

مكاتبون في شتّى أنحاء العالم ... إلى مكاتبين آخرين في كلّ من مراكش وتونس والجزائر، وكان هؤلاء يخافون على أنفسهم من بطش الحكومة الفرنسية، فلم يُعلنوا عن أسمائهم "[1].

وحتّى عمر بن قدور نفسه، كانت إمضاءاته متعدّدة. فإضافة إلى إمضائه باسمه الصريح هذا، فإنّنا ألفيناه يمضي بالأسماء التّالية، رحمه ا : ابن الخطّاب، الفاروق، أبو حفص عمر، الأصلع، كاتب نابغة، مذكّر ...[2] ونلاحظ هنا، من غير شك، تعلّقه الكبير، وتأثّره العميق بشخصية عمر بن الخطّاب، ثاني الخلفاء الراشدين، رضي ا عنه، والتي تشكّل إحدى الأطر المرجعية الأساسية في تحليل الشخصية الفكرية الإصلاحية لعمر بن قدور الجزائري.

مع الانتشار الذي عرفته صحيفة (الفاروق) في شمال إفريقيا، إذ نجد فيها كتابات من المغرب الأقصى لمحمد السعيد الفاسي، وتجاوبًا مع الدعوة الإصلاحية التنويرية الرائدة لعمر بن قدور، والتي كانت تسعى إلى تأسيس مشروع عظيم هو: " جماعة التعارف الإسلامي لشمال إفريقيا "؛ وفي خضّم الحراك والنقاش الذي أثاره، وجدنا مثلا أنّ أحد الأقلام الإصلاحية المُساهمة [3] دعا كتاب " الفاروق" إلى التّصريح بأسمائهم الحقيقية تحقيقًا لمبدأ التعارف العام الذي نادى به عمر بن قدور.

وهكذا، فإنّ حسين الجزايري[4]، الذي كان يمضي مقالاته باسمه الحقيقي، وكذا أحد الكتّاب المراسلين المواظبين الذي كان ينشر صورته الفوتوغرافية، يتجاوبان مع صدى المشروع ويُعلنان نفسيهما عضوين فاعلين ضمن هذا المسعى[5].

وبالفعل، فإنّ طبيعة الأخبار المتّصلة بالعالم الإسلامي، لتُعبّر عن الخط الافتتاحي الذي حدّده لصحيفته حينما أعتبرها " جريدة إسلامية ". وبالتّالي فقد كان وفيّا لهذا الأمر، عندما قال: " هيّأت لموافاتها بذلك في الشرق رجالا من حملة الأقلام وأشهر الكتّاب ... "[6]. أمّا على مستوى كتّاب الجزائر، والذين ستبرز نخبتهم مع انتشار (الفاروق) واستمراريته، فالمسألة التي

---

[1]– أنظر: د. عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة الصحفية في مصر المجلد الثاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1995 – ص 101.

[2]– وربّما – له إمضاءات أخرى – فمجال البحث قد يؤكّد هذا.

[3]– وهو: سعد الدين بلقاسم بن الخمّار (العدد 68 (06 جويلية 1914).

[4] – اعتبره المؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني من أصل جزائري. أنظر: مذكرات حياة كفاح – مرجع سابق–.

[5] – أنظر العدد 70 (من الفاروق).

[6] – افتتاحية العدد (01).

تحتاج إلى التوضيح، هي مسألة تعاون وكتابة ذلك المصلح الآخر، ألا وهو عمر راسم. ( 18 / 1956).

أشرنا آنفا إلى عامل التعاون والتفكير المُشترك الذي كان بين هاتين الشخصيتين، والذي كان محوره إصدار صحيفة (الفاروق)، غير أنّ عمر راسم انسحب من المشروع [1]. وقد عثرتُ بجريدة " الحق " الصادرة بوهران في قسمها العربي، الذي كان يُشرف عليه عمر راسم، على فكرة مشروع الصحيفة، أي (الفاروق) في الإعلان التالي: [ ستظهر بحقّ ا في عاصمة الجزائر، جريدة عربية باسم " الفاروق " تحت نظر الكاتب البارع، ابن منصور الصنهاجي ... ونحثّ إخواننا، قرّاء العربية، ومن يهمّهم حال المسلمين أن يُساعدوها في نشرها حتّى تعمّ فائدتها بين جميع طبقات الأمّة الجزائرية المحتاجة إلى التربية، والإرشاد ...".

ومع ذلك، ففي العدد الخامس، أعلن عمر بن قدور أنّ السيّد عمر راسم (الصنهاجي)، هذا الكاتب الشهير كما نعته، سيمدّ الجريدة بمقالات تخصّ مصالح الجزائر. ولسنا ندري ما إذا كانت مسألة الكتابة بها، نابعة من رغبة عمر راسم نفسه، في المساهمة أم هي باقتراح، وبدعوة من عمر بن قدور الجزائري ؟[2].

وعلى مدار كلّ الأعداد التي اطّلعنا عليها، عثرنا على مقال واحد في باب "مباحث اجتماعية " بقلم السيّد الصنهاجي وأحد نبهاء (الشرق). هكذا، لكن الإمضاء باسم محمد. وهنا مرّة أخرى نصادف نسبتين لصاحب المقال. وهو من دون شك، لعمر راسـم، رحمـة ا علـيه [3]. ونرى أنّ توقفه عن الكتابة في الفاروق، ربّما يعكس طبيعة الخط الافتتاحي والسياسي لها. وهذا واضح من تصريح بن قدور لمبدأ الاعتدال، الذي اختاره مشربًا لها في معالجة شؤون المسلمين بالجزائر وخارجها. وحينما أصدر عمر راسم جريدته الثانية، أي " ذو الفقار " في 05 أكتوبر 1913، مُبرزًا لهجة إصلاحية إنتقادية حادّة، عبّر عمر بن قدور بمناسبة صدور العدد الثاني، عن حاجة أقطار شمال إفريقيا للصحف العربية، خاصّة الإنتقادية منها، غير أنّه يُخالف "ذو الفقار " في أسلوبها ومشربها [4].

---

[1] – " الحق " العدد: 39 بتاريخ 06 جويلية 1912.

[2] – بتاريخ 28 مارس 1913.

[3]– الفاروق بعنوان " العاطلون " العدد 06- 04- أبريل سنة 1913.

[4] – نقد المصدر: العدد: 61 بتاريخ 18 ماي 1914.

وعلى سبيل المثال، حينما نُدقّق النظر في نصّ البلاغ الذي نشره عمر راسم في (الفاروق) بسبب المشاكل المادية التي أعاقته في إخراج صحيفته، فإنّنا نلمس لهجة حادة ونفسا ثائرة على المُقصّرين من الجزائريين في حقّ خدمة الصحافة، فيكتب قائلا: " ... كان مقصدنا هو سبب خيبتنا. إنّا نعلم غفلة أهالي بلادنا، وبلادتهم. فإن أتاهم ساحر أو دجّال أو منافق، أطاعوه ونصروه. وإن أتاهم من يتمنّى لهم الخير أضاعوه ... إنّ " ذو الفقار " لم يمت، ولكنّه يتأهّب للحرب التي سيُعلنها على جميع الذين أضرّوا بالبلاد، والذين يطعنون في الدين الإسلامي، وعلى الأغنياء المقصّرين في حقوق الأمّة، والبخلاء، والمُفسدين وعلى المتفرنجين الذين يُريدون أن يقبضوا على أزمة المسلمين بأيديهم ..."[1].

وبعد صدور عدد من " ذو الفقار " بعد فترة متباعدة، ينشر عمر بن قدور هذا الخبر، متمنيا لصديقه المفضال التّحلّي بذلك المبدأ الذي طالما تبنّاه ودعا إليه، وهو الثبات. وحتّى "تكون لجريدته من التأثير الروحاني ما يكفل لها بإقبال مشتركيها وإسعاد حالها، وضمانة مستقبل حياتها "[2].

وحينما يقوم عمر راسم بنشر خبر تعطيل " ذو الفقار " من طرف الإدارة الإستعمارية، وذلك في العدد 69 من الفاروق يُعبّر عن تأسّفه العميق للقرّاء والمشتركين، وتعطيلها من الظهور نهائيًا (لأمر محتوم وقضاء لا يُردّ ...) يُعبّر عمر بن قدّور من جهته قائلا: " ونحن لا يسعنا لقاء هذا النبأ إلاّ أن نتأسّف لعدم إطّلاعنا على ما يوجب تعطيل رصيفتنا " ذو الفقار ". وإن كنّا نعلم أنّ هناك موانع سياسية قد صيّرت هذه الجريدة في موقف صعب، محفوف بالأخطار "[3].

حاول عمر بن قدّور أن يجعل من (الفاروق) مؤسّسة صحفية بأتّم معنى الكلمة. لتكون أحد المرتكزات والوسائل في إحداث التغيير وإعادة الأمل في المستقبل، ضمن رؤية إصلاحية، تنويرية وعقلانية. ومع ذلك اعترضت الصعوبات والضغوط المهنية والسياسية استمرارية المشروع الإعلامي، والتي ستؤثّر، من دون شك، على الجهود الإصلاحية.

---

[1]– الفاروق – العدد 37 بتاريخ 21 نوفمبر 1913.

[2]– نفس المصدر العدد 66 بتاريخ 23 يوليو 1914.

[3]– نفس المصدر بتاريخ 13 جويلية 1914.

وإذا كان قد شعر منذ البداية بصعوبة أداء الرسالة الإعلامية، القائمة على المبادئ التي أعلنها في افتتاحية العدد الأوّل من الفاروق، ثمّ في السنة الموالية [1]. رغم محاولاته المهنية في توفير الشروط الضرورية، من خلال تأمين مهنيين للمطبعة، ومن خلال إيجاد وكلاء التوزيع والإعلانات لضمان موارد إضافية خارج العاصمة الجزائرية. أي شرقا وغربًا. ثمّ تعيين مراسلين للصحيفة داخل الوطن وخارجهُ كما سبق ذكره. غير أنّ بعض المعوّقات بدأت تبرز في سنة 1914، ممّا يُشير إلى تأثّر قطاع الصحافة بالأزمة السياسية العالمية، التي كان قد استشرفها، هو نفسه، من خلال تحليلاته السياسية لواقع العلاقات الدولية آنذاك. كما أنّه استطاع، وبرؤية سياسية ثاقبة، التنبّؤ باندلاع حرب واسعة، أي الحرب العالمية الأولى.

وبدأت بوادر أزمة الصحافة، من خلال عدم دفع المشتركين لمستحقّات الإشتراك في صحيفة الفاروق بحيث ظلّ يُقدّم رجاءه المتكرّر لدفع قيمة الاشتراك [2].

ثمّ إنّ اندلاع الحرب العالمية الأولى سوف يؤثر على الممارسة الصحفية ككلّ.

ففي مقال بعنوان " حرب الشعوب الأوربية "[3]. يُخاطب القرّاء عمومًا، معتذرًا عن إقراره تقليص حجم الفاروق، نظرا لاقتصاد الورق، وارتفاع سعره. وأشار إلى نقص عمّال المطبعة، بسبب نداء التعبئة العام " داعي التسليح العام [4]. ومن انعكاسات الحرب العالمية في الجزائر كذلك، إحتجاب أو توقّف بعض الصحف في بداية الحرب، يقول عمر بن قدور بعد تعليقه عن الأزمة الاقتصادية والاجتماعية، الناتجة عن هذه الظروف: " أمّا الصّحف، فإنّها قد أحسّت بفقد الورق وفقد العمّال والصنّاع، فأخذت تقتصد حجمها ومنشوراتها وأعمالها. وقد احتجب بعضها عن الظهور[5] هكذا، فبعد تقليصه لحجم صحيفته، نراه يخفّض فيما بعد من عدد صفحاتها، لتصبح مكوّنة من صفحتين فقط، بعدما كانت أربع صفحات. وتغلب عليها أخبار الحرب على الأخبار الأخرى. حتّى جهاز التلغراف شهد نقصًا في التزوّد بالأخبار. ولقد صرّح بذلك في العدد 91 لـ 18 ديسمبر 1914. ولكن في خضّم هذه الظروف، وبالرغم من كون بعض الصحف، ككُوكب إفريقيا، التي توقّفت في جويلية 1914، والإسلام؛ وذو الفقار: قد

---

[1]– أنظر العدد: 51 بتاريخ: مارس 1914.

[2]– أنظر الفاروق بداية من العدد 88 إلى العدد 95.

[3]– الفاروق: العدد 73 – بتاريخ 12 أغسطس 1914.

[4] – في الحرب العالمية الأولى جنّدت الحكومة الفرنسية 170.000 من الجزائريين بجيشها. أنظر: دراسة د/ عبد القادر جغلول: نجم شمال إفريقيا ومسألة الاستقلال. ترجمة عبد الحميد ساحل. جريدة البلاد: 10-11-12 ماي 2005.

[5] – عدد 73 بتاريخ: 12 أوت 1914.

احتجبت عن الظهور بسبب انعكاسات هذه الأزمة عليها، فإنّ الإدارة الاستعمارية ذاتها، عمدت إلى توقيف كلّ الصحف. يقول المؤرّخ الفرنسي شارل روبير آجرون:

والتساؤل المطروح توا هو كالتّالي: ما هي الأسباب التي كانت وراء اختفاء أو توقّف صحيفة (الفاروق) ؟.

من دون شك، يُمكن بدايةً اعتبار الإدارة الاستعمارية الفرنسية هي السبب الأساسي لتوقّف ومصادرة هذه الصحيفة، وذلك بصدور آخر عدد يوم 22 جانفي عام 1915 وهو العدد 96. لكن آراء الباحثين الذين تطرّقوا لهذه المسألة تبدو متباينة. فإذا كان الأستاذ سعد الدين بن أبي شنب قد ذكر بأنّ الإدارة الفرنسية قد منعته من نشر فصل من مقالة، ولم يُبال ونشرها، فعطّلت الجريدة وأُبعد صاحبها عمر بن قدور إلى منطقة الأغواط مُعتقلا [1]، نجد أنّ الدكتور صالح خرفي يستند لهذا الرأي في دراسته الأدبية [2]، أي التأكيد على دور الرقابة الاستعمارية على الصحافة. لكن الدكتور محمد ناصر يُضيف معلومة تخصّ مضمون المقال السياسي المؤيّد للدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، فيقول: " إنّ السلطات الحاكمة منعت (الفاروق) من الصدور، إثر مقال كتبه عمر بن قدور، ينتصر فيه للعثمانيين ضدّ الحلفاء. وقد حذّره الاستعمار من نشره، فأبى أن يكون قلمه أجير السلطة الاستعمارية، فكان جزاء هذه الجرأة السجن المضيّق العاصمة ثمّ النفي مُبعدًا إلى الأغواط مدّة خمس سنوات "[3].

أمّا المؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني الذي كان يشعر، وهو بتونس، باعتزاز كبير حينما نشر أوّل مقالاته الصحافية بجريدة (الفاروق)[4]، فقد أرجع سبب تعطيل هذه الجريدة إلى مقال له، نشره بها، حيث يقول في مذكّراته:

" لقد كان مقالي: بين لجج الهواجس سنة 1914، سببًا في إغلاق (الفاروق) ونكبة صاحبه "[5].

---

(1) – أنظر: النهضة العربية بالجزائر في النصف الأوّل من القرن الرابع عشر للهجرة، بمجلة كلية الآداب – جامعة الجزائر – العدد – 01- 1964- ص 63.

(2) – في: سلسلة في الأدب الجزائري الحديث: عمر بن قدور الجزائري – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر – 1984. ص- 18.

(3) – في الصحف العربية الجزائرية – SNED- الجزائر 1980 – ص 37. 1847 – 1939.

(4) – أحمد توفيق المدني – حياة كفاح – مذكرات- ج 1. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر - 1976 ص 69.

(5) – نفس المرجع السابق، ص 164.

في حين، نجد أنّ الدكتور زهير إحدادن قد حاول إعطاء تفسيرات سياسية لما حدث للصحيفة ولصاحبها. بحيث يُرجع نفي عمر بن قدّور وإخضاعه للإقامة الجبرية بالأغواط سنة 1915، إلى موقفه المتعاطف اتجاه تركيا، خاصّة وأنّ العديد من خصومه إتّهموه بالنزعة المؤيّدة لتركيا [1] (Turcophilie). غير أنّه في موضع آخر، وفي نفس الدراسة التّاريخية، يرى بأنّ معارضة للتّجنيد الإجباري، كانت وراء توقّف (الفـاروق)، ونفـيه إلـى الجـنوب الجزائري [2].

إنّ هذه التعليلات المُفسّرة لهذه المسألة، تلتقي كلّها تقريبًا في عامل واحد، ألا وهو العامل السياسي. ولمّا نتحدّث عن هذا، فالمقصود به وجود موقف أو مواقف سياسية لعمر بن قدور، من قضايا سياسية داخلية، وأخرى خارجية. وحتّى تفسير أحمد توفيق المدني، يُمكن أن يندرج في سياق التأثير السياسي لصحيفة (الفاروق) في شمال إفريقيا.

بيد أنّه ينبغي توضيح المقصود بموقفه السياسي تجاه مسائل سياسية. وهي مرتبطة بالدرجة الأولى بفضاء العالم الإسلامي.

وفي الحقيقة، فإنّ التساؤل المطروح في إشكالية الدراسة، معرفة مواقفه إزاء الإنقلاب العثماني، وإعلان الدستور لسنة 1909، ثمّ موقفه إتّجاه الاحتلال الإيطالي لليبيا، حين قام بمتابعة هذه القضية الإستعمارية، وتغطية أخبار المقاومة الليبية في باب صحافي بعنوان:"طرابلس للطرابلسيين " حيث كتب في (الأخبار): " لم تسمح السياسة الأوروبية أن تنسحب سحب الأهوال عن جوّ الشرق بل في كلّ حيّ تزيده اكفهرارًا واضطرابًا، وتملأه هوْلاً وظلامًا "[3]

وقد انعكس موقفه السياسي من خلال المقالات التحليلية التي كان ينشرها في جريدة "الحضارة " أو " الأخبار " أو " الفاروق ". وكذلك موقفه من احتلال المغرب الأقصى (أو مراكش كما كانت تسمى)، وإعلان الحماية الفرنسية عليها، ثمّ تضامنه مع مقرّرات المؤتمر العربي الأوّل بباريس سنة 1913، الذي انعقد تحت رئاسة صديقه السّوري المفكّر السياسي والمُصلح عبد الحميد الزهراوي.

---

(1) – في:

- Histoire de la presse algérienne en Algérie- Des origines jusqu'en 1930. Deuxième édition – Les éditions Ihaddadene- Alger – p : 71. 2003.

(2)– نفس المرجع: p : 209

(3)- الفاروق العدد: 28 فبراير 1913 + ع 06 28 مارس 1913. ( العقيدة).

إذن، ومن دون شك، فإن لعمر بن قدور موقفًا سياسيًا واضحًا، من الاستعمار الأوروبي، ومن مطامعه في العالم العربي والإسلامي. أمّا مسألة مضمون المقال الذي بسببه تمّ مصادرة جريدته (الفاروق) ونفيه من العاصمة، فبعد إطّلاعي، ومحاولة إيجاد ما يُبرّر كلّ هذا، باعتبار أنّ الدولة العثمانية كانت في صف ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى، فلم أعثر على رأي أو تحليل سياسي في إطار تغطية " الأحوال السياسية " و " الحوادث الخارجية " آنذاك، ما يُدعّم النظرة التي ترى أنّه نشر مقالاً يُؤيّد فيه العثمانيين. بل العكس تمامًا. ولكن قبل أن نوضّح هذا الموقف، ينبغي الإشارة، كما سيأتي في هذه الدراسة، بأنّه كان يعتبر قاعدة الرابطة الإسلامية، أو الوحدة الإسلامية أساس بعث مفهوم الأخوّة الفعلي، داخل الوطن الواحد أو حتّى ما بين الأوطان في العالم الإسلامي. وإن كانت الكثير من كتاباته السياسية وتحليلاته على هذا المستوى قد تناولت الثقل السياسي للدولة العثمانية، غير أنّها اتسمت بنقد سياسي استشرافي لحكّام هذه الدولة قبل بداية الحرب العالمية الأولى. ففي سلسلة من المقالات، تحت عنوان " ما أُكل الثور الأحمر إلاّ لمّا أُكل الثور الأبيض " والتي نشر منها في جريدة " الحضارة " الصادرة بتركيا، ثمّ أعاد نشر بعضها في صحيفة (الفاروق)، مُوجّها العديد من الانتقادات المُنبّهة للحكام العثمانيين، حتّى يُواجهوا ما تخطط لهم المطامع الاستعمارية الأوروبية [1] .

نعم، لقد كان جدّ متحسّر على ما آلت إليه تركيا، خاصّة بعد إلغاء الخلافة، وقد تجلّى هذا في مقال بعنوان: " مصيبة تركيا في عدم الاعتبار ". حيث كتب:

" كل مسلم أصبح في هذا الوقت، رهين الغيظ الشديد، وأسير الآلام من مصيبة تركيا، بل مصيبة الإسلام ... يتأسّف كثيرون لهذا المصاب الجال، وهذه الضربة القاسية التي وقعت على عرش الخلافة الإسلامية، وحيّرته بذلك بيدك إلى الأسفل ... هذا قلن لتركيا المرّات العديدة ووقفت معها عند باب كلّ مأزق تحاول أن تِلجه موقف الناصح الأمين، مثلي ولا فخر في الشرق فئة قليلة ..." [2].

لقد اعتبر أفكار السياسيين العثمانيين وقراراتهم غير وجيهة بعد إعلان الدستور سنة 1909 م. وبالتّالي ما من شك في وضوح موقفه ورؤيته اتجاه مبدأ وحدة الإحساسات والمشاعر الإسلامية التي كانت تُشكّل في رأيه السّمة الأساسية لمفهوم الجامعة الإسلامية آنذاك وقد كان موقفه واضحًا في انتقاد تعامل الدولة العثمانية المتخاذل مع الاحتلال الإيطالي لليبيا (أي

---

[1] – أنظر مثلا: الفاروق العدد: 11- بتاريخ 09 ماي 1913.

[2] – مقال: مصيبة تركيا في عدم الاعتبار – الفاروق – نفس العدد.

طرابلس الغرب آنذاك). وكان تحليله السياسي لما يقع في هذا الجزء من شمال إفريقيا استشرافًا حقيقيًا لمؤشرات انهيار هذه الدولة. ولقد عبّرت مقالاته المنشورة كذلك في (الحضارة) سنة 1911 عن هذا الانشغال العميق بأوضاع المسلمين أينما وُجدوا، حيث نبّه إلى خطورة سقوط (طرابلس الغرب) واقتسام ما بقي من أراضي الدولة العثمانية [1]. وكان مقاله " ليتّقوا ا في طرابلس الغرب " أبرز مثال على هذا الموقف، كما دعا مرارًا إلى إجراء إصلاحات سياسية في المجال الخارجي. ومع بداية الحرب العالمية الثانية، وفي مقال " حديث الحوادث: عاقبة البغي والعتوّ " [2] يُبرز دور أمّة ( الجيرمان) الألمانية في تفكيك الدولة العثمانية، وكيف أنّ العالم ساخط على ألمانيا المتسلّطة، المتحيّزة. ويتنبأ بهزيمتها وتلاشيها في إطار مبدأ السنن الكونية، بحيث أنّ عاقبة العتّو والظلم هو الزوال والاضمحلال.

ولإيضاح موقفه السياسي، نقتطف هذا النّص الاستشرافي: " لقد أذن ا أن تكون عاقبة العتوّ، عاقبة سقوط وبوار وإهانة ومذلّة ومسكنة. وعليه فلا غرو إذا أذن سبحانه أن تكون عاقبة أمّة الجرمان العاتية عاقبة تلاشي واضمحلال يندك بها عرشها، وينتشر عقدها، ويتمزّق ملكها، ويسقط تاجها. فلْتَلْقى أمّة الجرمان إذن ما لقيه غيرّها من الأمم الغابرة في التّاريخ ..."

ثمّ يدعو تركيا إلى الوقوف موقف الحياد، وإلى تذكّر مكر الألمان وتعاطيهم الخاذل للعثمانيين أثناء الحرب البلقانية من قبل، يقول عمر بن قدّور: " لا شك أنّ أحباب العثمانيين هم الذين يقدّمون لها النّصائح الخالصة بالثبات على الحياد في هذا الموقف العسير لأنّ سعادة تركيا مقرونة بسكونها ..."[3].

وفي افتتاحية أخرى بعنوان " حديث الحوادث: التّصادم الهائل " يستنكر موقف تركيا مرّة أخرى من الحرب العالمية الدائرة ويُعيد تذكيرها بمكر ألمانيا وعتوّها إزاء الدولة العثمانية، وكيف أنّه كتب منذ سنتين مقالا سياسيا مطوّلا يشرح فيه سياسة ألمانيا في إضعاف تركيا والعالم الإسلامي، مُشيرا فيه إلى تشجيعها دولة النمسا بضمّ البوسنة والهرسك.

هذه المواقف السياسية لعمر بن قدّور تفضي بنا إلى نقطة أساسية، ألا وهي موقفه الافتتاحي والإعلامي من أوضاع الحرب العالمية الأولى، إذ يُعبّر عن احتياط رجل مثقّف، يُخاطب الجزائريين، وجزءًا من شمال إفريقيا عبر وسيط إعلامي، أحدث آنذاك، حركية فكرية

---

[1] – الفاروق – العدد 12- بتاريخ 16 ماي 1913.

[2] – نفس المصدر: العدد 78 – بتاريخ 18 سبتمبر 1914.

[3] – نفس المصدر السابق.

وثقافية من خلال المساهمات الكتابية، ومختلف المراسلات الداخلية والخارجية (أي من خارج الجزائر). وفي فترة حرجة على المستوى السياسي بالنسبة لكلّ بلدان العالم.

وهكذا، وفي مقال بعنوان " الشهامة الإفريقية "[1]، يُنوّه بموقف مسلمي الجزائر الشهم إلى جانب فرنسا في هذه الحرب، التي اعتبرها حرب قوميات، تسعى من خلالها قومية الجرمان للقضاء علة القوميات الأخرى. بدافع كذلك مختلف المصالح الحيوية. وينقل صدى هذه الشهامة من الصحافة التي كانت تروي حيثيات هذه المعارك التي شارك فيها الجزائريون في مناطق من بلجيكا، والألزاس واللورين، وغيرها من المناطق.

وفي مقال آخر بعنوان " نذير البوار " يظهر موقفه جليًا ومؤيّدًا لفرنسا وحلفاؤها في هذه الحرب، بحيث ينعت الألمان بالمُفسدين، فيقول: " فالمفسدون وهم الآن الألمانيون يسقطون مهما يقعدوا، والمصلحون وهم الآن الفرنسيون، المُحاربـون للهمـجية، يرثـون الأرض ومـن عـليها ..."[2].

وبالرغم من الاحتياط الآخر الذي تبنّاه منذ البداية من خلال افتتاحية " الفاروق "[3] والمتعلّق بالتوجّه الإعتدالي لصحيفته من ناحية المبدأ السياسي في تعامله مع فرنسا كسلطة استعمارية مهيمنة على الجزائر. فإنّني لاحظت أنّه يعتبر جريدته هذه " إسلامية علمية، اجتماعية أدبية ". ثمّ في العدد (51) يُضيف إلى هذه الجمـلة التعـريفية، كلـمتي: "إصـلاحيـة إخبارية "[4].

لكن بمجرّد اندلاع الحرب العالمية الأولى، نراه يضع الجملة التالية، تحت العنوان. وهي: " جريدة إسلامية أسبوعية إصلاحية إخبارية، مبادئها: التعارف والإصلاح والاعتدال[5].

إذن، فالبرغم من تكيّفه سياسيا، من حيث الموقف من الأحداث الراهنة تلك. إلاّ أنّه كان يشعر ربّما باستهدافه، أو استهداف جريدته. ولهذا، نراه يُعلن، أو يذكر " مبدأ الاعتدال " السياسي الذي انتهجه في تعامله مع السلطة الاستعمارية بالجزائر. ويبدو لي أنّ الإدارة الاستعمارية بمصالح رقابتها، لم تنس مواقفه السياسية الواضحة في الجزائر إزاء معارضته

---

[1] – الفاروق – العدد: 79 بتاريخ 25 سبتمبر 1914.

[2] – نفس المصدر: العدد: 80 بتاريخ: 02 أكتوبر 1914.

[3] – نفس المصدر: العدد: 01 (سبق ذكره).

[4] – بتاريخ: 09 مارس 1914.

[5] – الفاروق: 21 أوت 1914 (العدد: 74).

الصريحة للاندماج ولسياسة التجنيس، التي سنتطرّق إليها، والتي عبّر عنها صحافيًا داخل الجزائر وخارجها. أمّا مسألة التجنيد الإجباري للمسلمين الجزائريين في الجيش الفرنسي، فقد عكست كتاباته الإعلامية موقفًا سياسيًا مُعارضًا، بدأت ملامحه تبرز انطلاقًا من سنة 1908 م. أي سنة اقتراح المشروع من قبل مستشار وزارة الحربية، السيّد ميسيمي (Messimy) ولقد أشرنا إلى هذه القضية التي شغلت الرأي العام الجزائري قبل بداية الحرب العالمية الأولى. ففي مراسلة صحافية لعمر بن قدور لجريدة "التقدّم " التونسية بتاريخ 09 جانفي 1908، عبّر عن المواقف المتباينة للجزائريين وللمعمّرين الأوروبيين الذين استوطنوا الجزائر.

وكان رأيه متماشيًا مع الرأي العام الجزائري، الذي أبى الرضوخ لهذا المشروع المتنافي مع الهوية الإسلامية للشعب الجزائري، حيث كتب [1]: " ... والفكر الغالب عند المسلمين عندنا هو عدم الرضوخ لأداء الخدمة العسكرية، وغاية المقاومة أنّهم يُهاجرون الأوطان ويقصدون الشرق بدلا من أن يُجهزّوا في البعوث والتّجنيد.

ولا غرو، فإنّهم يرون في ذلك سقوطًا عظيمًا في الدين الإسلامي حينذاك. وهذا ممّا يجدر بالحكومة الفرنساوية أن تُفكّر فيه وتسرّح نظرها في ما يعود بالنفع على الدّين، ويحميه من السقوط ..."[2].

ثمّ يُشير في تقريره إلى اجتماع الأعضاء الجزائريين في المجلس البلدي للعاصمة، الذين قرّروا بالإجماع رفض مشروع التجنيد. وكان بن قدّور قد أشار إلى حلّ الهجرة من الجزائر إلى البلدان العربية، الذي انتشر في الوسط الجزائري في حال قبول المشروع. وهكذا قدّم هؤلاء الأعضاء " مذكرّة إلى الحكومة، رفضوا فيها الخدمة العسكرية رفضًا باتًا. وقد عضّدهم في ذلك حزب المعمّرين. وإنّ في ذلك لعبرة لقوم يعقلون "[3].

ولقد ظلّت هذه المسألة تشغل الرأي العام الجزائري، وبالفعل، فإنّ المقاومة عن طريق الهجرة، كانت قد بدأت ملامحها تبرز في جميع القطر الجزائري[4].

---

[1] – في جريدة: " التقدّم " التونسية – بتاريخ 09 جانفي 1908.

[2] – ذكر عمر بن قدّور هؤلاء الأعضاء الجزائريين وهم: يوسف بن رضوان، ابن مرابط، إبراهيم بن علي، السيد بن صيام (في ثنايا التقرير هذا).

[3] – أنظر في هذا المرجع السابق:

-Les Algériens Musulmans et la France Ch. R. Ageron de CP.

[4] – جريدة " المشير " التونسية عن (الحضارة): العدد 30 بتاريخ 03 سبتمبر 1911.

ولقد أشرنا في الفصل الأوّل من هذه الدراسة إلى ذلك. وبالتّالي تصبح هذه المسألة من الانشغالات الإعلامية الوطنية له، فيكتب مرّة أخرى شارحًا موقف الجزائريين الرّافض للتّجنيد، وموقف القابل له بشروط معيّنة، تتمثل في المساواة التّامة في الحقوق السياسية والمدنية. فقد كتب في مقال نشره بجريدة " الحضارة " تحت عنوان: " هفوات الأوروبيين، مسألة تجنيد مسلمي الجزائر "، والذي أعادت نشره جريدة " المشير " التونسية سنة 1911 م:

" ... إنّ مسلمي الجزائر لا يخضعون أبدًا لأمر فرنسا في تجنيد أبنائهم وتجهيزهم في البعوث، وشنّ الغارات دون أن تنزع تلك الأغلاط والهفوات من دستورها، وتمنحهم الحرّية التّامة، فينتخبون ويُنتخبون، ويصرخون ويتكلّمون، ولحقوقهم التي اختُلست منهم في دور أمس يسترجعون ... إمّا إذا أبت إلاّ تنفيذ مشروعها دون اكتراث بمطالب رعيّتها فإنّ خراب الجزائر يحين وقته، لأنّ المسلمين لا يبرحون لقاء ذلك التنفيذ أن يغادروا أوطانهم، ويقصدوا الأقطار الأخرى الإسلامية ..." ثمّ يُوضّح شرطًا آخر كذلك يتعلّق بشرط عدم محاربة أو مقاتلة إخوانهم في الدّين كالمُراكشيين (أي المغاربة)، لأنّهم مسلمون قبل كلّ شيء [1].

وفي مقال مطوّل نشره بجريدة " الحضارة " الصادرة بتركيا، وتحت عنوان: "الرفض الأخير لمشروع التجنيد الجزائري " يُعبّر صراحة عن موقفه المؤيّد لرفض المشروع السّائد في الجزائر، ما عدا فئة "المتفرنجين " كما يُسمّيهم، الدّاعين إلى الاندماج، والمتنكّرين لهوّيتهم الجزائرية، حيث كتب: " ... ولا ريب عندي في أنّ الرفض سيكون عامًا، وإن كانت هناك فئة تميل إلى القبول لنوازع، تنزعها إلى مقارعة الدّين، والقومية كان ا لها بالمرصاد ..."[2].

وقد أشار بن قدّور في تقريره الصحافي هذا إلى الاجتماع الذي انعقد بمدينة الجزائر أمام مُمثلي الحكومة الفرنسية لمشروع ميسيمي (وزير الحربية آنذاك)، حيث تمخّض بقرار رفض التجنيد سواء بنيل الحقوق السياسية أم لا. وكان للإمام العالم وأحد روّاد الإصلاح في الجزائر، عبد الحليم بن سماية موقف وطني واضح من هذه المسألة، ودور أساسي في تبنّي الرفض النهائي[3] .

وحتّى يظهر موقفه المؤيّد لرفض التجنيد الإجباري، وجدنا أنّ عمر بن قدّور قد ربط المسألة بقضية الهوية الجزائرية والدّين الإسلامي. ولقد نوّه بروح النضال والمقاومة لدى الجزائريين ضدّ الاستعمار الفرنسي، واعتبر تجنيد الأطفال بمثابة الإعداد لخروجهم عن عقائد

---

(1) – في نفس المصدر السابق.

(2) – جريدة " المشير " عن (الحضارة) العدد 31- بتاريخ 10 سبتمبر 1911.

(3) – أنظر حول هذه الشخصية كتاب: معجم مشاهير المغاربة.

آبائهم، وغرس عناصر سلبية تُهدّم قومية الأمّة الجزائرية وديانتها. فيكتب في الجزء الثاني من مقاله المطوّل "الرفض الأخير لمشروع التجنيد الجزائري في جريدة "الحضارة " والذي نقلته " المشير " التونسية في العدد 32 [1]: " ... فقد تقرّر أنّ المسئلة مسئلة (كذ) دين وقومية من جميع وجوهها. ومن ذا الذي يُؤمن با ورسوله واليوم الآخر، ويُقاتل في سبيل الطاغوت، وا تعالى يقول: "**وقاتلوا في سبيل ا الذين يُقاتلونكم ولا تعتدوا، إنّ ا لا يحبُ المعتدين** ". أفلا تتفكّر فرنسة في المسئلة جيّدًا ؟" تا لإن تفكّرت بتفكير المُنصفين لتجدّن نفسها مُخطئة تمامًا.. إنّنا معشر المسلمين، لسنا بأغبياء مغفلين حتّى تنطلي على عقولنا زينة الكلمات الذهبية، والدهر أبو العجائب يغذينا بعبره ومواعظه، وحوادثه العظيمة أفلا تفتكر فرنسة أنّا لسنا بأغبياء...".

ثمّ إنّ الجملة التالية يصل بها عمر بن قدور إلى عرض رأيه بوضوح. وفي نفس هذا المقال، مع تنديده بموقف الاندماجيين المتغرّبين، حيث كتب: " فلا غرو إذن إذا استقبحنا خطّة الحكومة في مشروعها وخطّة الفئة (كذا) المتفرنجة التي تريد للمسلمين إنقلابًا عظيمًا في الأخلاق والطبائع والاعتقادات وتوّد تنفيذ مشروع ميسيمي في تجنيد أبناء المسلمين لتكون القاضية من وراء ذلك على الدّين والقومية ...".

إنّ مثل هذه الكتابات الصحافية، وبمثل هذه الحدّة في تقرير الموقف الرّافض والمستقبح لمشروع التّجنيد الإجباري وربطه بمسألة هوية الأمّة الجزائرية، وبالحقوق السياسية والمدنية، لم تكن لتمرّ على مصالح الرقابة الاستعمارية بمختلف هيئاتها، وخاصّة هيئة مصلحة الصحافة العربية، التّابعة للولاية العامّة، أي سلطة الإدارة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر [2] .

ثمّ إنّ تهجّمه ونقده اللاّذع ومحاربته لموقف المتفرنجين، أي الإندماجيين إزاء مشروع ميسيمي هذا، جعل له خصوصًا في السّاحة الصحافية والسياسية بالجزائر. وقد سبق أن أشرنا إلى إتّهامه من قبل صحيفة " الإسلام " بالانتماء إلى تيار الجامعة الإسلامية، الذي جعل منه الأوروبيون، خاصّة منهم ممّثلو تيّار الاستعمار، توجّهًا سياسيًا خطيرًا، وتيّارًا تعصبيا يُهدّد مصالح أوروبا في العالم الإسلامي..

---

(1) – جريدة " المشير " التونسية عن (الحضارة) بتاريخ 17 سبتمبر 1911.

(2) – نجد أنّ فيليب ميي (Millet) في دراسته حول " الشبيبة الجزائرية " « Les Jeunes Algériens » المنشورة سنة 1913 في مجلة (La Revue de Paris) قد اهتم بتقرير عمر بن قدّور " هفوات الأوروبيين " وقد أشار إلى ذلك أيضا الدكتور أبو القاسم سعد ا في :

Aboul-Kassem Saad Dalah : La Montée du nationalisme en Algérie. Traduit de l'arabe par - Joachim De Gonzalez. ENL Alger, 1983, P. 114- 115.

ولقد تمّ إتّهام عمر بن قدّور بتهمة تُعدّ خطيرة جدا آنذاك، وهي انتماؤه لتيّار يُحضّر في الخفاء للتّمرد والعصيان على دولة فرنسا الاستعمارية، بمعنى أنّه يُمثّل تهديدًا للسيادة الفرنسية على الأرض الجزائرية، وهذا رغم إعلانه منذ إصدار "الفاروق" استقلاله الفكري والسياسي، ومسلكه الإعتدالي في التعامل الإعلامي الافتتاحي مع الوجود الاستعماري. وأيضا رغم إعلانه عن نفوره من العمل السياسي المحض.

ويبدو أنّ خطته الإصلاحية المبنية على بعض الأسس السياسية الداخلية، كمحاربته لفئة الشّبان الجزائريين المتأثرين بـ " تركيا الفتاة "، ولتقليدهم المشين لشّبان تركيا.
هذه المجابهة، رفعت من عدد أطراف خصومه السياسيين من الجزائريين إلى جانب المعمّرين[1].

لم يعد عمر بن قدّور مجرّد صحافي يحمل هموم مجتمعه الجزائري الرازخ تحت نير سلطة المُستعمر، مسيّر بقانون استبدادي هو قانون " الأنديجينا " فحسب، بل نراه يحمل أيضا رؤية إصلاحية ذات أبعاد، تحاول هذه الدراسة توضيحها وتحديدها. ففي خضّم مساره الإعلامي والفكري، وابتداء من شهر جويلية 1914، أي في معترك سياق الحرب العالمية الأولى، يُعلن عن مشروع كبير، ذي أبعاد مستقبلية، موجّه لعلماء شمال إفريقيا، وذلك من خلال السؤال الهام على صفحات جريدته (الفاروق): " هل في الإمكان تأليف جماعة من مفكّري مسلمي الجزائر وتونس والمغرب الأقصى تدعى: جماعة التعارف الإسلامي لأهالي شمال إفريقيا ؟"[2].

إنّ إعلانه الهام هذا تأتّى في الحقيقة من الحركية الفكرية ومن الانتعاش الثقافي الإصلاحي الذي لاحظناه فعلا، مع استمرارية صدور (الفاروق). ولم تكن هذه الحركية الفكرية الإصلاحية تقتصر على الجزائر وحدها، بل انتشر بريقها من خلال المساهمات والمراسلات الصحافية والثقافية التي برزت في هذه الجريدة. وهو نفسه أحسّ بهذا التحوّل الفكري العملي، فدعا إلى ضرورة تطوير فكرة المشروع الإصلاحي هذا. لأنّ عنصر التنظيم الهيكلي بدا له جدّ هام في عملية التنوير والبناء الإصلاحي كما سيأتي [3]. ولكن، في اللحظة التي بدأت تتلاقح فيها الأفكار، وتتجاوز الأقلام من داخل الجزائر وخارجها، يتوف المشروع في هذا المرحلة،

---

[1] – الفاروق – العدد 20 – بتاريخ 11 جويلية 1913.

[2] – المصدر: الفاروق: العدد 66.

[3] – أنظر نفس المصدر: بتاريخ 06 جويلية 1914 – العدد: 68.

بتوقيف الجريدة وتعطيلها. وهكذا أصبحت (الفاروق) وصاحبها يُشكّلان، وبمختلف المواقف التي ذكرناها هنا، مصدر قلق فعلي لُادارة الاستعمارية.

كانت صحيفة (الفاروق)، حتّى قبل إعلان عمر بن قدّور لمشروع " جماعة التعارف الإسلامي لأهالي شمال إفريقيا " قد امتدّ تأثيرها فعليًا في السّاحة التونسية، ليس فقط كنافذة إعلامية على ما يحدث في العالم العربي والإسلامي وفي العالم كلّه، ولكن كفضاء للتّعبير والكتابة الإعلامية، حيث تشكّل مكتب إعلامي، حسب ما جاء في مذكّرات أحمد توفيق المدني، ينتمي لأسرة تحرير هذه الصحيفة ([1]. والغريب أنّ السلطات الاستعمارية قامت في بداية الحرب العالمية الأولى، بتوقيف (الفاروق) ونفي عمر بن قدّور إلى الأغواط، المنطقة العسكرية، بالجنوب الجزائري. وبتونس، قامت بسجن كلّ من الصحافيين المثقفين والمناضلين: حسين الجزيري، الصادق الرزقي، وأحمد توفيق المدني. وكلّـهم كـانوا يُراسـلون ويكـتبون بالفـاروق.

واعتبر توفيق المدني أنّ سبب سجن حسين الجزيري[2] راجع إلى كتابته في "الفاروق"[3]. يقول علاّل الفاسي أنّ السلطة الاستعمارية بتونس حينما اعتقلت الأستاذ توفيق المدني، وقامت بتفتيش بيته، عُثر فيه على مراسلات، كانت تدور بينه وبين السيد الحسين الجزيري، فاعتقل هذا الأخير هو أيضًا. وحينما فُتش منزله، عُثر عنده على أوراق تدّل على اتّصال دار بينه وبين المدني من جهة، وبين الإثنين والشيخ عمر بن قدّور الجزائري، الذي اعتبره علال الفاسي أحد المصلحين السلفيين في الجزائر[4] .

---

[1] – في: أحمد توفيق المدني – حياة كفاح (1905- 1925) مذكرات: ج 1 ص 67 – 69.

[2] – حسين الجزيري (1888- 1974: ساهم في تحرير صحيفة " جحا " (1910) وأصدر جريدة النديم (1921– 1942) المهزلية. في: أنظر: الموسوعة الصحفية العربية – ج 4 – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – تونس – 1995 ص 50.

[3] – في المذكرات – ج 1 ص 129.

[4] – علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي – مطبعة الرسالة – القاهرة – الطبعة الأولى – سنة 1368 هـ 1945 م ص 56.

## الممارسة الصحفية لعمر بن قدور بعد الحرب العالمية الأولى:

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، التي انعكست آثارها على الجزائر، بفعل الأزمة الاقتصادية التي عرفتها، بعد تأثّرها كذلك بالنمط الرأسمالي الصناعي الفرنسي، حيث بدأت مظاهر المجاعة تنتشر في أوساط الجزائريين. بقيت البلاد مسيّرة بقانون "الأنديجينا "(2) (الأهالي) الذي كان يُشكّل منظومة قمعية إستثنائية اتجاههم. وبالرغم من صدور قانون الإصلاحات في 04 فيفري 1919 من قبل الحكومة الاستعمارية الجزائر، غير أنّها كانت جدّ محدودة، ولم تُغيّر أو تُحسّن من حقوق الجزائريين على مختلف المستويات [1].

بالتزامن مع النشاط السياسي المتنامي للأمير خالد، شهدت هذه الفترة صدور صحف جزائرية، كجريدة " الإقدام " (Likdam) في شهر مارس 1919 بالفرنسية، ثمّ صدر القسم العربي منها مستقلاً في سبتمبر 1920. كما صدرت بقسنطينة صحيفة " النجاح " باللغة العربية سنة 1919. كما ظهرت بمدينة الجزائر باللغتين، العربية والفرنسية، جريدة " المستقبل الجزائري": (L’Avenir algérien) في شهر أفريل سنة 1920.

في سياق هذه الظروف السياسية والاجتماعية لما بعد هذه الحرب، وبعد عودة عمر بن قدّور الجزائري من منفاه وإقامته الجبرية بالأغواط، مدّة الحرب العالمية هذه، يبدو أنّ إرادته الفكرية لم تخبْ بعد، فبالتعاون مع أحد التّجار المثقّفين، وهو محمد بن باكير التّاجر، قام الاثنان بإصدار جريدة " الصّديق " [2]. ظهر العدد الأوّل منها يوم 12 أوت 1920 الموافق لـ 17 من ذي القعدة سنة 1338 هـ. وذلك تحت شعار ينمّ عن نغمة سياسية وإصلاحية، ألا وهو: "صوت الإسلام بإفريقيا الشمالية " وتصدر مرّتين في الأسبوع. وبقي عمر بن قدّور يُنشّط الصحيفة، ويكتب بها إلى غاية صدور العدد السادس يوم 02 سبتمبر 1920.

وابتداء من العدد السابع، ترأس تحريرها الصحفي المولود بن محمد الزريبي، وقد اختفت الكثير من الشعارات والأشعار التي كانت متضمّنة بها وأصبحت تصدر كلّ أسبوع. وفي العدد الثالث منها، أصبحت لهذه الصحيفة مطبعة خاصّة بها [3] متعدّدة الأهداف في ميدان

---

(1) – voir : Mahfoud Kaddache : Histoire du Nationalisme Algérien – Tome 1 – p : 29 – 45.

(2) – أنظر (مرجع سابق): ظهور الصحافة العربية في الجزائر (حصص إذاعية)، موفم للنشر – الجزائر – 2007 ص 107- 108.

(3) – هناك خطأ وارد في كتاب: الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر 1920- 1936 " تأليف عبد الرحمن بن المعوى وذلك في إسناد رئاسة التحرير منذ العدد الأوّل للزريبي ص 78.

الطباعة العربية[1] . ويبدو جليا أنّ عودة عمر بن قدّور إلى الساحة الإعلامية الإصلاحية، أضفى عليها أثرًا إيجابيًا وأملا متجدّدًا بعد أهوال الحرب العالمية وآثارها المختلفة داخليًا بالنسبة للجزائر أو خارجها.

هكذا، ومن داخل الجزائر، ينشر عبد ا القسنطيني، وهو اسم مُستعار لكاتب مُصلح، كثيرًا ما ساهم بكتاباته في صحيفة (الفاروق) قبل بداية الحرب العالمية الأولى، قصيدة بعنوان: " إسفار بعد اغتراب، وعود بعد احتجاب " منوّهًا بظهور " الصدّيق "، واعتبارها بُشرى في ساحة الصحافة الإصلاحية، وانطلاقة تنويرية للشعب الجزائري، وتحريرًا للفكر، وعملاً بالمبدأ الذي عاش من أجله ابن قدور ضمن مبادئ أخرى، وهو مبدأ التعارف – مذكّرًا بالمحنة التي تعرّض لها، وداعيًا في نفس الوقت القرّاء إلى تأييد الصحافة الجزائرية في مسعاها والتّضامن معها، فإلى جانب " الصدّيق " ثمّة صحيفة " النجاح " كذلك.

يقول عبد ا القسنطيني [2]:

**بُشرى الجزائر " الصدّيق " تنويرًا — للشعب بع،د اختفار الفاروق تدكيرًا**
**بشرى لها أنّهـا تعطّـلت وذوت — وهذا كمـن ثكـلت بهما وتحريـرًا**
**يا أمُ ضاء لـك " الصدّيق فاحتفي — بـه ليلبـسـك الإرشـاد تـأزيرًا**
**وبشرى معشـر الكتاب أن عليتـ — هـم للصحـافة خـدمة وتوقيـرًا**
**يا أمّ عادت ليالـي الأنس للسفرة — و(حرر) الفكر للأحـرار تحـريرًا**

ثمّ يقول:

**درّ ابن قدّور الذي فخـرت — به الصحافة فثار اليوم تحريرًا**
**من بعد عاصفة كانت معبّتهـا — خيرًا فثاب بفضـل ا محبورًا**
**اهبّوا ببني وطني للعام واعتنقوا — دين التعارف جانبـوا المناكيرَا**

وفي العدد الخامس من هذه الجريدة، تُنشر قصيدة أخرى لأحد أكبر رجالات الصحافة والإعلام بالجزائر، والذي سيسطع نجمه فيما بعد. إنّه إبراهيم بن الحاج عيسى، المعروف بأبي

---

[1] – الصديق: العدد بتاريخ 19 أوت 1920.

[2]– جريدة الصديق: العدد 4 بتاريخ 03 أوت 1920 / 08 ذي الحجة 1338 هـ.

اليقظان وكان قد أرسل هذه القصيدة من تونس، محيّيًا هذه النهضة [1] التي تنمو في الجزائر بظهور صحيفة " الصدّيق " إلى جانب صحف أخرى. وسوف نتعرّض لمقاطع منها عند تطرّقنا لنقطة مهمّة وهي مكانة عمر بن قدّور الجزائري في الساحة الإعلامية والإصلاحية داخل الجزائر وخارجها.

إنّ تصدير الصحيفة، وفي العدد الأوّل منها، ببيت شعري ذات مغزى وطني، لدليل على استمرارية الروح النضالية، والثبات المبدئي في الميدان الإصلاحي الذي يعتمد، ضمن ما يعتمد، الصحافة، كوسيلة أساسية في تفعيل الحركية الفكرية والتنويرية.

يقول عمر بن قدّور:

**قلمي لسان ثلاثة بفؤادي [2]     ديني ووجداني وحبّ بلادي**

تعكس الافتتاحية تواصلاً فكريًا من حيث الرؤية الافتتاحية العامّة للخطّ الإصلاحي. ففي المقدّمة، نكتشف الروح العقائدية الدينية التي تُحرّكه، وتحرّك أعماله. بحيث ثمّة إتّكال روحي ثابت على رعاية ا سبحانه، الدائمة والمتّصلة في مختلف الظروف. وبعدما يرجو الرحمة للإنسانية كلّها، يقول [3]: " ... ونسأل من محض فضلك القدسي أن ننبّه العزائم لإدراك حقائق الصدور والورود. وإيقاظ الهمم لطرح أغلال التكاسل والجمود ...".

وانطلاقًا من تطوّر الأحداث وتغيّر الظروف، رأى عمر بن قدّور أنّه من واجبات كلّ فرد أن يعمل على إيقاظ الهمم والدعوة إلى الإصلاح، بالنظر إلى التحدّيات الداخلية للبلاد الجزائرية. ويتعدّد ثقل مهمّة التنوير والإصلاح بالدرجة الأولى لدى المفكرين. وهذه نقطة مهمّة جدا تُشكّل أحد المرتكزات الفكرية لرؤيته الإصلاحية كما سنرى. ويقول: " ... فما تسنّى لمفكّر صحيح المبدأ، أن يقلع عن تفكيرهن وما وسعه الخنوع لجبروت الأغراض والأهواء وتهديداتها العاتية "[4] ثم يضيف بأنّ حالة المفكّر المصلح لا يمكن أن تستقّر، ولا تهدأ مع وجود " تيّار جاهلي " كما يُسميه، يسود البلاد، ويُشتّت الشعب الجزائري المسلم، ويعمل على تلاشي هويته أو قوميته. ويرى أنّ هذا التيّار يعكس حالة عقائدية واجتماعية، واقتصادية متردّية. هنا نلمس بأنّ الحالة الاقتصادية وربّما بتأثير من مُعينه محمد بن باكير، تأخذ اهتمامًا ومكانة في المشروع

---

[1] – جريدة: الصدّيق – العدد: 05- بتاريخ: 30 أوت 1920.

[2] – كتب هذا البيت أو نشره أوّل مرّة في مقال له . أنظر (الفاروق) العدد: ... بتاريخ ....

[3] – الصدّيق – العدد 01- بتاريخ 12 أوت 1920.

[4] – الصديق نفس المصدر السابق – الافتتاحية.

الإصلاحي، خاصة في هذه الصحيفة. وهذا، يعكس تطوّرًا فكريًا، كما سنُلاحظ في رؤيته الذهنية للواقع الجزائري بمختلف تحدّياته. كتب في نفس الافتتاحية [1] عن الأهداف، والتي حدّدها: " ثمّ لنا في هذه النشرة من الغايات المنشودة غاية الاقتصاد، وهي أنشودة هامّة، عليها مدار نجاح أعمال الشعب.

لأنّ الاقتصاد يوفّر المال، والمال نظام الأعمال. فإذا توخّينا طريقة حثّ الشعب على تنمية محصولاته، وتوفير الأرباح من معاملات لأقطار ما وراء البحار، فإنّنا نطالب له مستقبلا باهرًا وسعادة تامّة آتية بحول ا ...".

وهكذا يتبلور العامل الاقتصادي، كمرتكز آخر، تسعى الصحيفة إلى تجسيده من خلال السياسة التحريرية التي يعتبرها عمر بن قدّور، امتدادًا لمذهبه وخطّه المعروف في تعامله مع شعبه من خلال مبدأ " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " ثمّ التأكيد على مبدأ التعارف، تجسيدا للنصوص الدينية الإسلامية، وبناء علاقات اجتماعية دينية، مع النهوض بالشعب الجزائري بمختلف الوسائل التنويرية والتربوية، خاصّة منها إجبارية التعلم ويُقرّر في ثنايا هذه الافتتاحية مسؤولية وواجب المفكّر، الذي ينبغي أن يتحمّلهما إلى النهاية. وهذا يعكس إرادته في تفعيل الاستمرارية النهضوية في إطار المصلحة العامّة للشعب الجزائري. كتب [2]: " ... فقد تحتّم على كلّ مفكّر – شرعا وطبعًا – أن يقوم بواجبه حتّى النهاية، نحو الملّة والقومية والحاكمية أيضًا لا سيّما وأنّ الزمان قد دار دورته وأحسّ كلّ عبد من نفسه ميلا طبيعيًا إلى تحسين مركزه وتنمية مصالحه " ثمّ يرى أنّ الشعوب تريد النهوض وإعادة أمجادها، فينبغي تحمّل المشاق والأتعاب من أجلها، وأداء الواجب بالخصوص نحو الملّة الجزائرية والقومية الإسلامية.

لكن المُلاحظ من تحليل هذه الافتتاحية الخاصّة بجريدة " الصدّيق " التي تدعو إلى التعارف وإقامة النصوص الدينية وتهذيب الأخلاق ونشر المعارف والعلوم العربية، وتأسيس المشاريع العملية والاقتصادية، كما قال عمر بن قدّور، مع تقليل الإصدار بخدمة، ليس فقط، المصلحة العامّة، وإنّما الإنسانية جمعاء [3]، هو غياب المبدأ السياسي الذي سبق وأن تمّ إدراجه ضمن مبادئ الخطّة الفكرية والعملية، في التحرير الصحفي لجريدة " الفاروق ". ذلك المبدأ الذي يعتبر فيه فرنسا، قوّة هيمنة استعمارية، مًسيطرة على الجزائر. لذا نجده يرفض الخضوع

---

[1] – الصديق - نفس المصدر السابق.

[2] – صحيفة الصدّيق – العدد: 01 نفس المصدر السابق.

[3] – في افتتاحية العدد الأوّل لصحيفة " الصديق " مصدر سبق ذكره.

لضغوطات إدارتها الاستعمارية. غير أنّ تعامله وخطّه الافتتاحي يتّسم بالاعتدال، ثمّ في خضّم ذلك المبدأ السياسي الإعتدالي، يرفض التّوجهات السياسية الاندماجية والتغريبية والتجنيسية [1] .

ومع ذلك، وبالرغم من عدم تضمين افتتاحية " الصدّيق " لهذا المبدأ، إلاّ أنّ إطلاعنا على مضمون الأعداد التي أشرف على إعدادها عمر بن قدّور، وعلى المقالات التي كتبها جعلنا نعثر على انشغالات سياسية دقيقة، خاصّة ما تعلّق بسياسة الاندماج. وهذا يعكس مدى متابعته للقضايا والتحدّيات الداخلية للشعب الجزائري، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ومشاركته الفكرية في تنوير النخب السياسية. وبالتّالي، ثباته كمفكّر مصلح، في الدفاع عن الهوية الجزائرية الإسلامية. لكن، لا شكّ أن انسحابه من جريدة " الصدّيق " في شهر سبتمبر 1920[2]، يعكس خلافًا ما، مع محمد بن باكير التاجر. فهل كان للجانب السياسي لخطّ الجريدة، جزء من تفسير علّة الانسحاب ؟ [3] .

ثمّ إنّ هناك تساؤلاً ذا طابع تاريخي أود طرحه في هذا السياق: هل يمكن اعتبار زيارته الأخرى لتونس، التي قام بها في شهر جويلية من سنة 1920 والتقى أثناءها بأصدقائه من المثقّفين التونسيين والناشطين في الساحة الإعلامية التونسية أمثال: الطيب بن عيسى وحسين الجزيري[4]. هل كانت في سياق التحضير لإصدار سلسلته الثانية من (الفاروق) ؟ وذلك بإعادة إيجاد وكيل للتوزيع ولتأمين مراسلات صحفية من تونس، خاصة وأن صديقه الصحفي الطيب بن عيسى أصدر صحيفة " الوزير " في هذه السنة [5] .

كانت زيارته لتونس صدى في الأوساط الصحفية المناضلة هنالك حيث كتبت صحيفة "المضحك " منوّهة به باعتباره كاتبًا شهيرًا ومفكرًا إصلاحيًا كبيرًا، وذلك في مقال خبري تحت عنوان: ( على الرحب يا صديق)[6].

---

[1] – نفس المصدر السابق.

[2] – صدور العدد 06 كان يوم 02 سبتمبر 1920. أمّا العدد: 07 فقد صدر يوم 25 سبتمبر 1920 برئاسة تحريره المولود بن محمد الزريبي.

[3] – توقفت "الصدّيق" حسب الدكتور زهير إحدادن بسبب صعوبات مالية في 27 مارس 1922، بعد صدور 54 عددًا في:

- Histoire de la presse Indigène, p : 71 2° (Edition 2003).

[4] - كان الصحفي والمثقّف حسين الجزيري محرّرًا بجريدة " المضحك " التونسية سنة 1920.

[5] – قدّم عمر بن قدّور تهنئته له بمناسبة صدور هذه الصحيفة في (الفاروق) – الصادر يوم 05 نوفمبر 1920.

[6] – جريدة (المضحك) التونسية: 08 ذو القعدة 1338 – 24 جويلية 1920.

غير أنّ عمر بن قدّور لم ينسحب من الحياة الصحافية الجزائرية، فبعد شهر من ذلك، وفي الثامن (08) من أكتوبر سنة 1920، يُعيد إصدار صحيفة (الفاروق)، ولكن في شكل مجلّة، وفي سلسلة جديدة. على أساس أنّها " نشرة مسلّية، إسلامية، علمية، واقتصادية "، وقد عبّر في افتتاحية العدد 01 عن المعاناة والأهوال، والأخطار، التي تعرّض لها، مُشيرًا إلى سنوات المحنة والنفي، مع الإقامة الجبرية في منطقة الأغواط، التي كانت منطقة عسكرية حسب التقسيم الإداري للحكومة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر [1] وأشار أيضا إلى المتاعب الأخرى التي تحمّلها. ولكن، كلّ ذلك، إنّما كان من أجل الدفاع عن مبدئه نحو الملّة الإسلامية، وتأييده لهذا المسعى. ثمّ هنا، يُعيد التذكير بالمبدأ السياسي له، وهو مذهب الاعتدال. قصد توعية الشعب الجزائري من الوجهة الدينية والعلمية والأخلاقية والاقتصادية، في سيّاق مبدأ " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ".

ويؤكّد كذلك من جهة أخرى، على دعوته الإصلاحية التي يكمن أحد مرتكزاتها في "التعارف". وهذا يعني ثباته على مبادئ، سبق وأن اعتمد عليها، حـتّى قبـل الحـرب العـالمية الأولى.

وبالرغم إذن من تأكيده على الاعتدال السياسي، والدليل، هو تلميحه إلى العمل في ظلّ الحاكمية الفرنسية. غير أنّه رأى أنّ وجود صحيفته، يُسهم في الدفاع عن الوجود القومي للشعب الجزائري، ومن خلال التشبّث بالحياة التي تمدّه بالروح الشعورية. ومن خلال هذا، أكدّ على أنّ (الفاروق) كتبت على نفسها أن تتشبّت بالحياة [2].

وحاول عمر بن قدّور عبر مجلّة " الفاروق " أن يُوسّع فعلاً من مضمونها، بحيث أفرد أبوابًا ثابتة أسبوعية، ذات أبعاد اقتصادية وعلمية وثقافية. فعلى سبيل المثال، نجد هذه الأركان: في العالم الاقتصادي، مباحث صناعية، محليات النهضة العلمية (في الجزائر). النهضة الاقتصادية (في الجزائر) مباحث وعبر تاريخية. باب الرسائل: مجال الأقلام الإصلاحية باب رياض القريض العصري (مخصص للشعر). باب: العالم الإسلامي (مصر والاستقلال، أحوال سوريا، تركيا، ...)، هكذا، نجده من الناحية الإعلامية، يُريد أن يُقدّم مادة صحافية متنوّعة، لا تنحصر توجّهاتها على الجانب الديني والأخلاقي فقط، وإنّما تمتدّ إلى المضامين المذكورة آنفًا.

---

(1) – المنطقة العسكرية: حسب الأمير خالد عبارة عن ثكنة عسكرية واسعة يخضع سكانها لمسؤول عسكري للمكتب الأمني (Bureau Arabe). في :

- L’Emir Khaled : de Mahfoud Kaddache OPU, Alger, 1987, p : 157.

(2) – مقال: " تشبتنا بالحياة " – الفاروق – العدد 01- 08 أكتوبر 1920.

أمّا جانب التّصوّف، فلم يبرز إلاّ من خلال باب عظماء الإسلام "، الذي نشر فيه بصفة متسلسلة حياة حجّة الإسلام، أبي حامد الغزالي. من خلال كتابه " المنقذ من الضلال ". أمّا باقي المقالات والأخبار، فهي تصبّ دائما في سيّاق رؤيته الإصلاحية، مع الاهتمام بالحركية الثقافية والتربوية والاقتصادية في الجزائر. وسنتطرق إلى هذه النقطة في الآتي من دراستنا.

توقّفت مجلّة " الفاروق " بعد صدور 15 عددًا، عام 1921. وفي خضّم تلك الظروف، يحقّ لنا أن نتساءل: هل توقّف عمر بن قدّور فعلا عن الممارسة الصحـافية النـضالية، بالمعنى الإصلاحي ؟

وهل اعتزل العالم الصحفي الذي كان أحد روّاده ليس فقط في الجزائر، وإنّما أيضا في شمال إفريقيا والعالم العربي، بالنظر إلى ثقله المهني والفكري، وليتوجّه إلى عـالم التصوّف ؟.

إنّ البحث الذي قمنا به، بتحليل وتقصّي المصادر الصحفية الجزائرية والتونسية، جعلنا نتوصّل إلى إثبات حقائق تاريخية هامّة. سواء ما تعلّق بالنشاط الصحفي أو ارتبط بمجال إصلاحي آخر، كما سلف وهو النشاط التعليمي. وهكذا فإنّني توصّلت إلى عمر بن قدّور الجزائري واصل كتاباته الصحفية من خلال تحريره في جرائد جزائرية: كصحيفة " الإقدام " للأمير خالد وصحيفة " التقدّم " لبن التهامي. ويبدو أنّ توجّهه للتحرير في صحيفة " الإقدام " كان لاستقدامه لها من قبل الأمير خالد الذي تولّى إدارة الجريدة سنة 1922. وكان رئيسا لتحرير القسم العربي منذ سنة 1920. حتّى أن عمر بن قدّور كان قد نوّه من قبل عبر مجلّة "الفاروق "، أي في السلسلة الثانية، بجهود الأمير خالد العلمية والتربوية في الجزائر [1].

ظهرت أولى مقالاته في جريدة " الإقدام " سنة 1921، أي بعد توقيفه (الفاروق)، حاملاً لنبرة سياسية، تحت عنوان " أكبر برهان على الشعور الجزائري "، وهو يتضمن معنى سياسيًا مؤيّدًا لمطالب الأمير خالد الإصلاحية [2].

وما يؤكّد لنا استقدامه للتحرير فيها، هو إعادة نشره لمقالات له، سبق وأن نشرها من قبل في الجريدتين " الأخبار " و" الفاروق " ويمكن أن أذكر ما عثرت عليه منها " نحو المستقبل" بإمضائه المعروف " الأصلع "، ومقال " غفلتنا "، بإمضاء " ع "، مُصدّرًا بقول علي بن أبي

---

[1] – أنظر مقاله في ركن محليات النهضة العلمية – "الفاروق " العدد 2- بتاريخ 15 أكتوبر 1920.

[2]– أنظر صحيفة " الإقدام " بتاريخ 23 جويلية 1921. وكان بإمضاء مستعار: (المنصف). لكن في مقال آخر بعنوان: المنبر العام: شعور أبناء الجزائر يكون إمضاؤه باسم: " بن قدور الجزائري ".

طالب (رضي ا عنه): ما أكثر العِبر وأقلّ الاعتبار " الذي كان كثيرًا ما يستشهد به كما سنرى في سياق الأطر المرجعية الفكرية والعقائدية. وثمّة مقال آخر وهو: متى نفقه "[1].

توقفت جريدة " الإقدام " يوم 06 أفريل من سنة 1923، وهي السنة التي نُفي فيها الزعيم السياسي، والصحفي، الأمير خالد، وقد نشر عمر بن قدّور آخر مقال له بهذه الجريدة في شهر فيفري من نفس السنة [2].

لقد ذكرت آنفا كيف أنّه كتب في جريدة " التقدّم " التي صدر العدد الأوّل منها يوم 23 ماي 1923، لصاحبها ابن التهامي. وهذا ما لم يُشر إليه الباحثون أيضا.

أثناء قراءاتي وتصفّحي لهذه الصحيفة، التي كان صاحبُها من دُعاة الإندماج، ومن المُناهضين لسياسة الأمير خالد، عثرتُ على مقالات وكتابات، دلّت على أنّ صاحبها هو عمر بن قدّور الجزائري، بالرغم من أنّها لم تكن مُمضاة، أو هي مُمضاة بأسماء رمزية (غيور، مثلا رقيب). ثمّ إنّني عثرتُ كذلك على خبر تهنئة عمر بن قدّور الجزائري، المحرّر "بالإقدام " الذي رُزق بابن، وهذا سنة 1922، بالعدد: 73. وهذا ما يؤكّد هذه المعلومة التاريخية.

لكن سلسلة المقالات القصيرة بعنوان " حالة المساجد "، وما وصلت إليه من الإهمال، كانت واضحة في أُسلوبها ومضمونها أنّها له، وكان هذا إحساسي واقتناعي [3].

وبالفعل، والغريب حقّا أن تنشر جريدة " التقدّم " مقالا قصيرًا، تحت عنوان: "تنبيه "، موقّعًا باسم: عمر بن قدّور الجزائري (صاحب الفاروق سابقًا) وذلك في العدد 26، حيث ينفي فيه نسب مقالات نُشرت بـ"التقدّم " إلى شخصه. وذلك أنّه أعلن انسحابه من عالم السياسة، وفضاء الممارسة الصحفية، مُلازمًا العُزلة. وكأنّما نسبة تلك الحملة الإصلاحية المتّصلة بالمساجد أو بالتعليم، قد أضرّت بشخصيته، ومحيط علاقاته. فقد كتب في هذا الشأن قائلا: "بناءًا على ما تخرّ صبه المُتخرّصون، وما افتراه المُفترون، من إلصاق، ونسب مقالات نُشرت بجريدة " التقدّم " إليّ، فإنّني أُعلن صراحة بأنّي قد عطّلتُ جريدة (الفاروق) وفارقتُ السياسة. اجتنبتُ كلّ خوض فيما يخصّ الجرائد أو غيره، ولازمتُ العُزلة التّامة. وبالتّالي، فكلّ ما يُنشر بجريدة التقدّم، فمسؤوليته راجعة على مُديرها، أو صاحب امتيازها. ولا كلام معي في شيء لما صرّحتُ به من أنّني اجتنبتُ كلّ خوض لا يعني. لا سيّما خوض الجرائد. ومن رام إلصاق

---

[1] – المقالات الثلاث هذه نُشرت بالتتابع في شهر سبتمبر، أكتوبر ونوفمبر سنة 1922 (بجريدة الإقدام ).

[2] – مقال بعنوان: الأمم بالهمم. صحيفة الإقدام بتاريخ 23 فيفري 1923: العدد 119.

[3] – أنظر صحيفة " التقدّم " بتاريخ جوان 1924.

شيء من هذا القبيل بشخصيتي، فما هو إلاّ مُفتر كذّاب، يُطالب بالدليل والبرهان، أو يُلعن بلعنة ا والملائكة والناس أجمعين. وحسُبنا ا ونعم الوكيل "[1].

يُمكن أن نُرجّح أنّ بداية ظهور مقالاته في صحيفة " التقدّم " برزت بعد توقّف جريدة "الإقدام ". وبالرغم من موقف عمر بن قدّور المُناهض للاندماج، غير أنّه كتب في هذه الصحيفة، واشتغل بها، بالتّوازي مع بداية نشاطه الإصلاحي الآخر الذي تمّ إهماله، والمتّصل بميدان التّعليم مباشرة. وكان مقال " نفثه مصدور " بالعدد 9 من أوّل هذه الكتابات [2]. إلى جانب مقالات معمّقة حول التّعليم نشرها مسلسلة بالتقدّم، وهي في الأصل محاضرة قيّمة، لنا عود إليها في الجانب التّطبيقي المتعلّق بفكرة الإصلاحي، والتي لا تعكس أبدّا ما نُسب إليه من نزعة تصوّفية محضة، جعلته يبتعد عن النشاط الإصلاحي كلّية وكانت تلك المحاضرة التي ألقاها بمقرّ جمعية الشبيبة الإسلامية الجزائرية، نُظمت بمناسبة افتتاح مدرستها التعليمية الحرّة. وكان هو أوّل مدير لها، في شهر ديسمبر من سنة 1923. تاريخيًا، كانت ثمّة علاقة شخصية، ولكن، ليست سياسية، ما بين السّيد بن التّهامي، والمفكّر عمر بن قدّور. ولاحظنا أنّ هذا الأخير، وفي ظروف معيّنة، كان مّدافعًا بشكل أخلاقي[3] على ابن التهامي، دون أن يكون مناصرًا له، من حيث البعد السياسي، خاصّة وأنّ ابن التهامي كان متجنّسًا بالجنسية الفرنسية، وعضوًا في الجمعية الماسونية، حسب المـؤرخ الفرنـسي شارل روبير آجرون (AGERON)[4].

وهكذا، وفي نفس العدد الذي نشر فيه عمر بن قدّور، " تنبيهه"، عثرنا على مقال آخر ممضي باسم جريدة " التقدّم " مُدافعًا على مضمون المقالات الصحافية عمومًا، والمتعلّقة بحالة المساجد بالعاصمة وضواحيها، خصوصًا. مُعتبرًا إيّاها خادمة للمصالح العامّة للنّاس، وفي نفس الوقت، دعوة قويّة للأداء العملي لمختلف الحكومات [5].

ويتجلّى لنا أنّ عمر بن قدّور بقي يشتغل في الجريدة إلى غاية شهر جانفي 1925، حينما نشر مقالا بعنوان: حّي على العلم: العلم حياة والجهل ممات. وذلك بالتّوازي مع اشتغاله بالتعليم وإدارة مدرسة الشبيبة الإسلامية الجزائرية، كما سيأتي. خاصّة وأنّ صحيفة (التقدّم)،

---

(1) – أنظر صحيفة " التقدّم " العدد: 26 بتاريخ 01 جويلية 1924.

(2) التقدّم: بتاريخ: 15 أكتوبر 1923.

(3) – أنظر جريدة " الأخبار " بتاريخ: 18 فيفري 1912.

(4) – In : Les Algériens Musulmans et la France (1871 – 1917) T : II, p :

(5) – حالة المساجد – صحيفة التقدّم 01 جويلية 1924 (مصدر سابق).

بدأت تُهاجم صراحة الأمير خالد بن الهاشمي الجزائري. إلى جانب بعض الصحف المقرّبة من تيّار الإصلاح المتفجّر آنذاك تحت توجيه الإمام المُصلح عبد الحميد بن باديس، الذي لم يسلم هو الآخر من هذه الهجمات[1].

وللتّدليل على ما ذهبنا إليه في ممارسته الصحفية بعد جريدة " الإقدام " في جريدة "التقدّم " هو عثورنا على تصريح له حول هذه المحطّة من مساره الصحافي والفكري من خلال ما كتبه بعد ذلك في سنة 1927 بجريدة " وادي ميزاب " لصاحبها أبي اليقظان. كتب يقول:

" ... حيث أنّني ألتفتُ يمينًا وشمالا، أبحث عن مادة البيان فصادف أنّي قصدتُ المطبعة الإسرائيلية لتحرير القسم العربي من جريدة " التقدّم " فوجدتها مُوصدة الأبواب لأنّ اليوم، يوم عيد عروج المسيح ...". فهذه العبارة من مقال مطوّل، مُتسلسل نُشر على حلقات[2] ، دليلٌ تاريخي أكيد على إشرافه على القسم العربي من جريدة (التقدّم) للفترة التي أشرنا إليها. لكن، يبقى نفُيه بسبب مقالات نُسبت إليه، غير مفهوم. إلاّ إذا كان الأمر مُرتبطًا بتوجّهات الصحيفة من الناحية السياسية، كما قلنا.

يبدو أنّ الإعلان عن انسحابه من الممارسة الصحفية، واعتزاله الحياة السياسية، أثار تساؤلات، وحجتّي انتقادات في أواسط العشرينات من القرن العشرين في الجزائر. والتي عرفت بحق، كما سبق ذكره، انبثاق الحركة الإصلاحية بقوّة، خاصّة مع تجسّدها، بداية، بتعدّد العناوين الصحفية العربية، وكذلك بتطوّر ملحوظ في الحركة السياسية الجزائرية ذات التوجّه الوطني. ومن ثمّ، فإنّنا نجد صحيفة (المُنتقد)، التي صدرت عام 1925، تتساءل عبر أحد كُتّابها عن العُزلة التي فرضها عمر بن قدّور على نفسه، إن كانت في سياق معنى التصوّف السّلبي، الدّاعي إلى " الخمول " والتّسليم، والرّضا .. والاكتفاء باليسير في هذه الدنيا "[3] .

ويرى صاحب المقال أنّ الصحافة الحقيقية تدعو إلى خلاف ذلك، ويقول: " لكن سيّدي عمر بن قدّور الصحافي القديم يظهر أنّه يُريد الجمع ما بينهما (وتنزّهه عن أن يكون رفض

---

(1) – أنظر مثلا مقال: دعوى الإصلاح وكيف يُخيّب (01 أوت 1927)، ومقال: (المتلوّن ابن باديس 24 مارس 1928) – سلسلة مقالات تتهجم على الأمير خالد: " الصواعق المحرقة في الرّد على أهل الزندقة " بداية من العدد 19: أكتوبر 1923) – 13: 15 ديسمبر 1923).

(2) – جريدة وادي ميزاب، العدد 37 – بتاريخ 25 جوان 1927.

(3)– أنظر جريدة " المنتقد " العدد 10 بتاريخ 03 سبتمبر 1925. المقال بعنوان: أصحافي أم صوفي ؟ لـ: محمد العزوزي حوحو.

الصحافة بالكلّية، وانتقل إلى التصوّف تماما) فاحتجنا بمحاولته هذه إلى هذا التفريق ما بينهما)[1].

لكن الحقيقة التاريخية تؤكّد أنّ عمر بن قدّور لم يعتزل الحياة كلية، وتفرّغ للتصوّف لهذا الأسلوب. وإنّما واصل نشاطه المهني، قريبا من الصحافة، وذلك حينما اشتغل في مؤسسة "المطبعة العربية " التي أنشأها أبو اليقظان، مصفّفًا حوالي 1930 [2]. وهو الذي كان أكبر وأقدم الصحافيين الجزائريين والعرب إتقانًا لكلّ المهن المُرتبطة بالصحافة في تلك الفترة.

وأهم مسار، أو نشاط تمّ تحجيمه، أو إهماله، أو عدم معرفته هو نشاطه التعليمي الذي تفرّغ له بقيّة حياته، كما سنؤكّد عليه. إلاّ أنّه تبيّن لنا أنّ عالم الكتابة عمومًا، والكتابة الصحافية، من حيث اعتبارها نضالا إصلاحيًا، ومعاناة حقيقية في الجزائر، قد أتعبته. ومع ذلك، سنكتشف هذه المعاناة، حينما يزف أبو اليقظان بُشرى بروز عمر بن قدّور إلى الميدان مُجدّدًا سنة 1927، لأنّه وعده بموافاة صحيفة " وادي ميزاب " كلّ أسبوع بمقالاته المُمتعة، وقد يكون أبو اليقظان، هو من رجاه العودة للكتابة في الصحافة. وبالفعل، فقد ظهرت أولى مقالاته في شهر ماي سنة 1927، وآخرها في 15 من شهر جويلية سنة 1927. ويُمكن أن أعتبر، على حسب معرفتي، أنّه آخر ما نشر في الصحافة، رحمه ا . وكان عنوان المقال: " العبرة والعبرة: الاسترشاد "[3] وكان الآية القرآنية التي استشهد بها في آخر مقاله هذا، مُؤكّدًا من خلالها، على التعليم الابتدائي ، قوله تعالى: " إقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم ".

من المقالات المُعبّرة فعلا عن حالته النفسية والفكرية، في هذه الفترة، نجد مقالا بعنوان: " ماذا أكتب ". وفيه نكتشف حقّا رجاء أبي اليقظان، ودعوته عمر بن قدّور للكتابة. يقول مُتسائلاً: " أسأل القلم، بل أستلهم الفكر، ماذا أكتب ؟ العِبر اكتظت يدي في محشرها العام، والأحوال غير التي أعهد منذ أعوام، وأنت يا " وادي ميزاب " بتأثير جاذبية مسلكك المُبين، تحاول منّي بسط اليمين، للنشر والتّبيين ..."[4] تعبيره التالي يكشف عن انقطاعه عن الكتابة لمدّة طويلة، ونحن قد نُقدّرها بثلاث (03) سنوات تقريبًا، حيث بيّنا ذلك سابقًا. كما يكشف أيضًا عن معاناته الفكرية، حينما اعتبر عدم جدوى الكتابة: " ... لاسيّما وقد طال بيني وبين الكتابة

---

[1]– نفس المصدر.

[2] – في: الدكتور محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة – ص 219. (مرجع سبق ذكره).

[3] – أنظر صحيفة " وادي ميزاب " العدد 40 – بتاريخ: 15 جويلية 1927.

[4] - صحيفة " وادي ميزاب " العدد 33 – بتاريخ: 27 ماي 1927.

الأمد، وتوالت الأعوام، وأنا لا أرى فيها منفعة لأحد. وحتّى هذه السّاعة ما زلت أكرّر التّخمين فيما أكتب ؟.

سئمتُ الكتابة كما يسأم الشريف الشرف. ليس لأنّه عنوان رفيع يُلازمه عمل صالح، بل لأنّ لكل صالح منه إشارة إتّخذها شعارًا. فلزم الشريف الصالح أن يستر أمارته "[1] .

نفهم من عبارته وممّا جاء في هذا المقال، أنّ أخلاق النّاس، وأوضاع المُجتمعات، قد ساءت بفعل انعكاسات الحرب العالمية الأولى. وأنّ منطلقه في الكتابة دومًا، نابع من صميم القلب ومُتّسم بروح الإخلاص. ومع ذلك فهو لا يزال مؤمنا بالأداء الإصلاحي والتغييري للصحافة. إذ يعتبر صحيفة " وادي ميزاب " من الصحف الراقية مضمونا وأسلوبًا، فهي [لسان الإصلاح الخالص ومنصف العبر، ومنبر للأمر بالمعروف وللنهي عن المنكر للمسلمين جميعًا، واعظ ومذكّر، فليذكّر من يتذكّر وما يذكّر إلاّ أولوا الألباب ...][2] .

---

[1] – نفس المصدر.

[2] – المصدر السابق نفسه.

## المبحث الثاني: الممارسة التعليمية لعمر بن قدور

كنا قد أشرنا سابقا إلى ما تمّ تداوله حول المسار الإصلاحي لعمر بن قدور الجزائري، والمتّصل بتحوّله من الإصلاح إلى التصوّف أو من النشاط الصحافي الإصلاحي إلى سلوك طريق العزلة والزهد، أو حتى انقطاعه عن الممارسة الصحافية بمجرّد ما أوقف " الفاروق " في سلسلته الثانية، في شهر مارس من سنة 1921.

فيما يخصّ هذا الجانب من مساره وجهوده الإصلاحية، فقد أوضحناه، وأثبتنا مواصلة نشاطه في كلّ من جريدتي: " التقدّم " و" الإقدام "، وحتى عودته القصيرة للكتابة الصحفية، فيما بعد بجريدة " وادي ميزاب ". لكن في رأينا أيضا، يكمن أهم ردّ للتدليل التاريخي والفكري على عدم انعزاله التّام عن الحياة، وسلوك طريق التصوّف بعد الإصلاح، هو استمرارية نضاله الإصلاحي التعليمي، انطلاقا من دعوته الدائمة والثابتة، لتنظيم وإنشاء هيئات ثقافية تربوية وتعليمية خاصة دعوته إلى تأسيس المدارس التعليمية الحرّة في وقت مبكّر، وفي فترة تاريخية أحكمت فيها الإدارة الاستعمارية الفرنسية قبضاتها على نظام التعليم في الجزائر، مع تسييره لخدمة الأهداف العليا للاستعمار.

إنّ الغموض الذي ساد حياة عمر بن قدور في العشرينات من القرن العشرين، هو ناتج، حسب وجهة نظري، وبالدرجة الأولى إلى ذلك " التنبيه " الذي نشره، كما قلنا، في جريدة "التقدم" معلنا تبّرأه من مقالات صحافية، تناولت بالدرجة الأولى، بأسلوب إنتقادي حالة المساجد العامة المزرية بالجزائر ومعلنا فيه، مفارقته للسياسة والصحافة معًا، مع ملازمته للعزلة[1] . ثم عدم تفهم بعض معاصريه من الكتّاب الإصلاحيين لهذا الخيار[2]، بالرغم من مواصلة نشاطه الفعّال في مجال التعليم الحرّ بمدينة الجزائر.

إنّ هذا التحوّل العملي ليس بالغريب عن الساحة الإصلاحية المعاصرة في العالم العربي. فقد كشفت دراسات تاريخية فكرية عن منارات إصلاحية كان لها نشاط صحفي بارز، ثم انتقلت إلى ميدان التعليم. حيث أشار الباحث ألبرت حوراني، على سبيل المثال، إلى تحوّل وانصراف

---

(1) – جريدة " التقدّم " العدد: 26 – بتاريخ: 01 جويلية 1924 (مصدر سابق).

(2) – أنظر: جريدة (المنتقد) بتاريخ: 03 سبتمبر 1925.

كلّ من محمّد كرد علي المثقف والصحافي السوري وعبد القادر المغربي الصحافي الشامي المهاجر إلى مصر، وهذا في مرحلة نضجهما الفكري إلى التعليم [1].

إنّ القناعة الفكرية لدى عمر بن قدور، بضرورة وجود مدارس تعليمية حرّة، مستقلة عن الإدارة التعليمية الاستعمارية، ترسّخت قبل الحرب العالمية الأولى بسنوات عدة، وكان مدركا لواقع التعليم عموما في تلك الفترة. في سنة 1907، كتب مقالاً بجريدة " الهلال" التي اعتبرناها، على حسب علمنا، المحطة الأولى لبداية ممارسته الصحفية بالجزائر، وأشار بصفة إلى المسؤولية الملقاة على عاتق الأغنياء الجزائريين في العمل الإصلاحي. واعتبر تأليف أو تأسيس الجمعيات بمختلف توجّهاتها، خاصة الثقافية والتربوية أولى الأولويات، مع الدعوة إلى تشييد المدارس التعليمية لتحقيق التقدم لدى الشبيبة الجزائرية. واعتبر هذه المبادرات من أرقى معالم الوطنية الحقّة. فلنلاحظ إذن إلى هذه الدعوة المبكّرة في سياق النزعة الوطنية الجزائرية. كتب : " ... أغلب سراة قطرنا الجزائري لا يرون للمال سبيلاً سوى في الولايم والأفراح ومجالس اللّهو على حين أنّ ا تعالى خصصّه لإغاثة الملهوف وإقامة معالم الوطنية من تأليف الجمعيات والشركات ونشر الجرائد التي هي لسان الأمّة وبناء المدارس لبـث روح التقـدّم بـين الناشـئة ..." [2].

كان يؤمن حقًا بأهمّية نشر العلم بين أوساط الأفراد. لأن أكبر تحد للإنسان عموما هو الجهل. ولهذا كان يقول: " أنّ نتيجة العلم هي الشعور بالجهل المطبق، أي الوعي الناضج بالقصور وتفشي سلوكيات أخلاقية واجتماعية، كلّها تفضي بنا إلى توصيف الحالة بانتشار الجهل [3] . ولهذا فهو كان يتحسّر أيضا على حالة أطفال الشعب الجزائري المسلم، التي تتّسم بعقول سخيفة وأخلاق فاسدة وعدم التمكن من الصناعات، فتساءل عن المستقبل الذي ينتظرهم وهم في هذه الحالة [4]. وكانت رؤيته وقناعته تشمل تعليم البنات والبنين من الجزائريين، كتب سنة 1913: " بجهل المرأة المسلمة وأخلاقها الفاسدة نال الشعب من كوارث البدع ما ناله "[5] .

---

[1] – في الفكر: العربي في عصر النهضة (1798 – 1939) ترجمة: كريم عزقول – نوفل – بيروت 1997 ص: 230.

[2] – المصدر: جريدة " الهلال". العدد 11. بتاريخ 22 فيفري 1907.

[3] – المصدر: جريدة " الأخبار ": " نتيجة العلم (هي) الشعور بالجهل المطبق " بتاريخ 26 ماي 1912.

[4] – الأخبار: " أبناء الشعب أمام المستقبل " بتاريخ: 21 ديسمبر 1913.

[5] – جريدة " الفاروق " – 28 نوفمبر 1913.

إنّ هذه الرؤية الإصلاحية الواعية بدور التعليم هي التي دفعت به سنة 1908 إلى إنتقاد صديقه، الصحافي المصلح عمر راسم، وتأسّف تأسّفًا شديدًا لأنّه سعى مع مجموعة من النبهاء في مدينة الجزائر إلى تأسيس جمعية مسرحية تمثيلية، المسمّاة بـ: " المنارة الجزائرية "[1]. والتي قد تكون تاريخيًا، أول محاولة جزائرية، لتأسيس فرقة مسرحية. وكان البديل الأوّلي بالنسبة لعمر بن قدور آنذاك، هو حاجة الشعب الجزائري إلى جمعيات ذات بعد ثقافي تنويري بالدرجة الأولى. فكتب تبعًا لهذه القضية قائلاً:

" .. أفيقوا من غفلتكم يا إخواني وانزعوا عنكم هذا الغرور والخمول واسعوا في تسيير الشبيبة الجزائرية على طريق الناموس الطبيعي القاضي بأنّ الضروريات قبل الكماليات. فهل اعتقدتم بأنّ الشعب الجزائري بلغ مبلغ الكمال فأردتم ختم عقل كماله بجوهر التمثيل ..."[2].

إنّ الناموس الطبيعي في ترقية الأمم وتطوريها، يكمن في وسيلة قوية النفوذ على حسبه، وهي وسيلة التعليم، المتأتية بعد " تأسيس جمعية إسلامية تعليمية تنشر بصيص العلم في البلاد وتجلب لها أساتذة أدباء عارفون بالتعليم العصري عالمين بالآداب الإسلامية فيقومون بتربية أبناء وطننا ..."[3].

وكان عمر بن قدور قد قدّم مطالب إلى الوالي العام، أي الحاكم جونار، في الجزائر، آنذاك، منها، ضرورة إدراج ما سمّاه بـ: التعليم الإسلامي " تارة و" بالتعليم الديني " تارة أخرى في سياق سياسة فرنسا التعليمية المفرّقة ما بين الحكومة والدين، وهذا ضمن البرامج التعليمية.

وفي نفس هذه الفترة، وفي هذا المقال المعنون بـ: "صوت العام " يصرّح بدعوته إلى الأغنياء من المسلمين الجزائريين بضرورة الاجتماع والاتحاد لتأسيس "جمعية إسلامية مستقلّة ... ويؤسّسون مدرسة أو مدرستين على التأسيس الموجود في مصر وتونس من التعليم الديني والعصري ..."[4].

---

(1) – أنظر جريدة " الأخبار " بتاريخ: 31 ماي 1908.

(2) – المصدر: جريدة " الأخبار " بتاريخ 07 جوان 1908.

(3) – نفس المصدر.

(4) – المصدر: جريدة " الأخبار " بتاريخ: 31 ماي 1908م.

وبهذا يكون من الناحية التاريخية، أسبق من السيد مصطفى حافظ الذي اعتبره المؤرخ أحمد توفيق المهني أوّل من فكّر في تكوين هذا النوع من التعليم القرآني المنظّم أو من المدارس القرآنية الحرّة بالجزائر[1] .

بقي عمر بن قدور وفيًا لمرتكزه الإصلاحي المتمثّل في ضرورة تشكيل هيأة تنظيمية ثقافية تربوية لسنوات عديدة بعد ذلك. فبعد إصداره لجريدة (الفاروق) واصل دعوته وكأنّها تحوّلت إلى حملة إعلامية من أجل إحداث التغيير الاجتماعي والثقافي بالجزائر. وهكذا في مقال " نحو المستقبل " ذي الدلالة البالغة في السياق الفكر الإصلاحي، والذي لنا دعوة إليه في دراستنا هذه، يكتب قائلا: " .... ابعثوا في الشعب نذيرًا بحث القوم على إعانتكم وتأليف جماعة عرفانية تهيئ وسائل تربية أبناء الشعب وبناته فلعلّى المستقبل ينقاب إلى رحمة وعافية وسلام وما ذلك عليكم لو تفقهون بعزيز "[2] . إنّه يتحسّر مرّة أخرى على حالة أطفال الشعب الجزائري الذي استسلم لمصير البؤس وداء الجهل، وبذلك بات المستقبل مظلما للبنين والبنات معًا. إنّ النهضة العلمية الإسلامية الإصلاحية، كما يسمّيها، تساعد على تجميع وتعزيز القومية والروح الجديدة في الحياة. لكن يبقى أحد شروطها " التقدّم نحو المستقبل بأطفال مهذّبين وشبيبة متعلّمة " ولهذا يتساءل حاقًا الجزائريين: " هل من نهضة إلى التقدّم نحو مستقبل بمدارس هي ثكنات الصبيان يتدرّبون فيها على محاربة أهوال الغد ..."[3] .

كان يعتبر إذن تربية الأطفال وتعليمهم مطلبًا أساسيًا وحتى سياسيًا، حفاظًا على الهوية الإسلامية الجزائرية، ولهذا دعا في مقال سياسي نشره سنة 1914 بجريدته (الفاروق) وتحت عنوان " طور جديد للجزائر وللجزائريين " بسياسة إصلاحات تشمل النظام القضائي والمنظومة التعليمية، ودعا في سياق موضوعنا هنا إلى ضرورة فتح مدارس حرّة ذات أبعاد دينية وأخلاقية، كتب: " ... حاجتنا إليها (أي فرنسا) أن تحترم قوميتنا وملّتنا وأخلاقنا ... وتسمح لنا بفتح المدارس لتهذيب أبنائنا على وفق مقتضيات مصلحتنا ثم مصلحتها ... وذلك بالتعليم الديني والأخلاقي على حسبنا والتعليم العمراني والعملي على حسبها ..."[4] .

---

[1] – أنظر في هذا: " كتاب الجزائر "- نشر دار الكتاب – البليدة- الجزائر- طبعة ثانية 1382 هـ - 1963 – ص 284.

[2]– جريدة الفاروق – بتاريخ 12 ديسمبر 1943.

[3] – جريدة (الفاروق): نحو المستقبل: هل من نهضة إلى التقدم بالتعليم " بتاريخ: 19 ديسمبر 1913.

[4] – أنظر: (الفاروق) العدد: 49 بتاريخ 20 فبراير 1914.

بعد إنتهاء الحرب العالمية الأولى، وبمجرّد إصداره مع التاجر محمد بن بكير لجريدة "الصدّيق " كما سلف ذكره، في شهر أوت سنة 1920، دعا مرّة أخرى إلى ضرورة تجسيد مشروعه الإصلاحي من خلال التأكيد على مرتكز التعليم، لكن هذه المرة بفرض إجبارية التعليم، وباللغتين العربية والفرنسية. كتب في إفتتاحية العدد الأوّل: " ... إنهاض الشعب إلى العمل والاجتهاد والكدّ لاسيما في سبيل بث المعارف بين كافة الطبقات خصوصًا طبقة الشبيبة الصغيرة النابتة وأن يكون التعليم إجباريًا محرزًا على الحظ الوافر من اللغتين لغة الدين وهي العربية العزيزة ولغة الجنس الحاكم أي الفرنسوية التي تجعـل المصالح المشتـركة سهلة المآخذ ..."[1] . لقد واصل خطّته الفكرية عبر (الصديق) على نفس المنوال وهذا في مقال آخر قصير بعنوان: "التعليم والاقتصاد" [2]. وحتى في سلسلة (الفاروق) الثانية التي أصدرها في شكل مجلّة نراه ينوّه بكلّ الجهود الإصلاحية المتنامية في الساحة الجزائرية، خاصة تلك التي لها علاقة بالنهضة التربوية العلمية والاقتصادية. فحينما دعا الأمير خالد الزعيم السياسي الجزائري إلى اجتماع بالمجلس البلدي لمدينة الجزائر في شهر أكتوبر من سنة 1920، والذي تمحور اجتماعه حول ضرورة تأسيس جمعية للنهوض بالتعليم الحر للأطفال الجزائريين، عبّر عمر بن قدور عن مساندته لهذه القضية الهامّة وخصّص لها مقالاً تنويهيًا[3] . اعتبر الشعور الذي عبّر عنه الأمير خالد لتنفيذ التعليم الابتدائي الإجباري، لفتح المدارس بالعاصمة وغيرها يحقّق النهوض المعوّل عليه من أجل تحقيق الحياة والبقاء برغم الاستعمار الجاثم على تراب الجزائر منذ ما يقرب من قرن، أي لغاية زمن كتابته لهذا المقال. وذكّر بدوره في هذه المسألة قبل بداية الحرب العالمية الأولى قائلاً: " هذا شعور شريف طالما حولنا الأنظار نحوه وبسطنا المقالات الضافية في "الفاروق " القديم لإقامته بين أنصار المترفين منّا مقام الاعتبار والاهتمام ... "[4] .

وكان من ثمرات دعوته الإصلاحية، أن تأسّست جمعية علمية بجامع المرحوم مصطفى الأكحل بمدينة الجزائر في شهر أكتوبر سنة 1920. فأعتبرها من سمات النهضة العلمية والثقافية بالجزائر ولم تمض إلاّ سنة حتّى تأسّست " جمعية الشبيبة الإسلامية " في شهر ديسمبر من سنة 1921 وكان من المنادين بها وأحد أعضائها. وفي شهر أكتوبر من سنة 1923 حصلت

(1) – المصدر: جريدة " الصدّيق " بتاريخ 12 أوت 1920.

(2) – الصديق، بتاريخ: 16 أوت 1920.

(3) – أنظر: مجلة "الفاروق " العدد: 02 بتاريخ: 15 أكتوبر 1920.

(4) – بمقال: " نحو النهوض " – الفاروق – بتاريخ: 22 أكتوبر 1920.

" جمعية الشبيبة الإسلامية لتهذيب الهيأة الإجتماعية " على التأسيس الرسمي لمدرستها بصدور الرخصة القانونية. لقد تمّ تشكيلها حسب عمر بن قدور من قبل طائفة من مفكري العاصمة[1] . وقد ورد هذا في مقال نرجح أنه له بعنوان " لأجل التعليم ". كان أول رئيس لهذه الجمعية في سنة 1922 السيد رشيد بطحوش[2]. وتم تجديد مجلس إدارة " جمعية الشبيبة الإسلامية الجزائرية " في شهر أفريل من سنة 1924 تحت رئاسة السيد يوسف قرطوبي[3] . لكن ما يهمّنا هنا، هو أن هذه الجمعية عملت على تأسيس مدرستها بمدينة الجزائر، وافتتاحها رسميا في 11 ديسمبر سنة 1923 مع تعيين عمر بن قدور الجزائري كأوّل مدير لها. ولقد أشارت جريدة "التقدّم " إليه حينما ألقى محاضرة حول " التعليم "، بصفة " الصحافي القديم الشهير الأستاذ الشيخ عمر بن قدور الجزائري ..."[4] .

لم يتولّ عمر بن قدور إدارة مدرسة جمعية الشبيبة الإسلامية فقط بل كان أستاذها الأوّل أيضا، وواضع برنامجها التعليمي آنذاك. الغريب حقًّا من الناحية التاريخية أن يتمّ تناسي أو إهمال مسؤوليته ودوره ونشاطه التعليمي في هذه المدرسة العصرية، وبهذه الجمعية فلسنا ندري كباحثين لماذا. فثمةّ أيضا كتب تتحدّث عن تاريخ التعليم الحرّ في الجزائر، أي مخصصّة لهذا المجال الحيوي، ومع ذلك لا يتمّ ذكر اسمه أو مساهمته[5] .

أكدّ عمر بن قدور بأنّ جمعية الشبيبة الإسلامية الجزائرية ليست هي باكورة الجمعيات الإسلامية في البلاد، بل سبقتها جمعيات كثيرة لكنها ذهبت وتلاشت، بسبب فساد المقاصد والأهداف. ثم عبّر في محاضرته لدى افتتاح المدرسة، عن التصميم والعزم الراسخ لأعضائها في سبيل الغرض السامي الذي تأسّست لأجله، أي تهذيب الهيأة الاجتماعية وتعليم أطفال الفقراء وتربيتهم بعدما عجز النظام التعليمي الاستعماري في استيعاب أبناء الشعب الجزائري والتكفّل بهم[6] . وهي الحقيقة التي سوف يقرّرها في نفس السنة، ومن باريس الزعيم السياسي الأمير

---

(1) – أنظر جريدة: التقدّم: بتاريخ 01 ديسمبر 1923.

(2) – أنظر صحيفة " الصدّيق ": بتاريخ 27 فيفري 1922.

(3) - أعضاء مجلس الإدارة: السادة: آيت جاود، دامرجي محمد علي، بليلي محمد السيد بو الأصنام، دامرجي يوسف، مرعوبي يحي، بطحوش الرشيد المستشارون: زيتوني علي، الجزائري علي، مصطفى بن إسماعيل.

(4) – أنظر: جريدة التقدّم: بتاريخ 15 ديسمبر 1923.

(5) – أنظر مثلا: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحرّ بالجزائر – (القطاع الجزائري) – جزء 2- تأليف: محمد الحسن فضلاء – طبع دار الأمّة – ط1 – 1999.

(6) – جريدة : التقدّم بتاريخ 15 جانفي 1924.

خالد، من خلال الأرقام، حول الحالة التعليمية للجزائريين أنّ عدد المدارس الأوروبية بالجزائر يضم 110.000 تلميذ لتعداد سكّاني (أوروبي) يبلغ 700.000 وأنّ عدد المدارس الأهلية يضمّ 38000 تلميذًا لتعدادي سكّاني (للجزائريين) يبلغ 5 ملايين، واعتبر العدد مع ذلك مبالغ فيه[1] .

من هنا جاء تكرار دعوته، أي عمر بن قدور، وحثّه لجميع أفراد الشعب لمؤازرة ومساعده الجمعية القائمة بهذه المدرسة. فقال: " ... عمل جمعية الشبيبة الإسلامية عمل صغير في ذاته كبير في معناه. لأنّه بالمثابرة والمواظبة يحدث لها مستقبلا زاهرًا بالعمل، بتأييد ثقة العامّة فيها وفي مشروعها. وروح عملها – هذا الصغير – الصدق والإخلاص ..."[2] .

ثم قام بتحديد البرنامج التعليمي والتربوي للمدرسة الإبتدائية للشبيبة، والمتمثّل في تدريس مبادئ اللغة العربية وكتابتها وحفظ أجزاء أو ما تيسّر من القرآن الكريم، تلقين التجويد ومبادئ التلاوة، تدريس مبادئ النحو، دروس في التربية الدينية في سياق الشعائر والأخلاق الإسلامية. وبعد ستّة (06) أشهر من افتتاح هذه المدرسة، كان هناك أربعون صبيا وصبيّة قد التحقوا بها وأصبحوا يقرؤون العربية ويكتبونها. فلم تستهدف هذه المدرسة الأولاد فقط وإنّما حتى البنات، فهي إذن رائدة في التأكيد على ضرورة أن يشمل التعليم الإناث أيضا بالنسبة لتلك الفترة. وفي خضّم تلك الظروف، عبّر مصلحنا مرّة أخرى، عن حاجة الجمعية لمساعدة كلّ الجزائريين، وذلك من خلال نداء نشره بإمضاء لـ(رقيب) بصحيفة " التقدّم " وتحت عنوان: [الإنسانية تدعو فهل من مجيب: جمعية الشبيبة الإسلامية بالجزائر ][3] .

نستخلص من هذا النداء، جسامة المشاكل المادية التي كانت تعيشها هذه المدرسة الموّجهة بالدرجة الأولى لأبناء الفقراء وبالمجّان. وكذلك سعيه، إلى غاية أخرى، وهي تتمثل في تحويلها إلى مدرسة كبرى، تكون قادرة على استيعاب العدد الكبير من الأولاد والبنات الذين كانت الأزقّة لا زالت مملوءة بهم، حتى تبثّ فيهم العلوم وتخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم[4] .

---

(1) – In : L'Emir Khaled : Documents et témoignages pour servir à l'étude du Nationalisme Algérien. Par : Mahfoud Kaddache. – OPU- Alger – 1987 – p : 161.

(2) – جريدة " التقدّم " بتاريخ: 15 جانفي 1924 – مصدر سابق-.

(3) – أنظر " التقدّم ": مقال: الإنسانية تدعو فهل من مجيب. بتاريخ: 1 جوان 1924.

(4) – دعا عمر بن قدور في ذلك إلى مكاتبة رئيس الجمعية آنذاك: السيد يوسف قرطوبي بعنوانها بشارع: (راندون) 32- الجزائر- (عمار علي حاليا).

بعد تأسيس مدرسة جمعية الشبيبة الإسلامية، بدأت جهوده تأتي بثمارها، بحيث ظهرت بمناسبة إقامة الاحتفالات السنوية بمناسبة المولد النبوي الشريف، وذلك حينما كان يقوم التلاميذ بنين وبناتًا، بترتيل القرآن وإلقاء القصائد والأناشيد ذات المعاني الأخلاقية والاجتماعية، بأسلوب تمثيلي (مسرحي) تجاوب معه الحاضرون من الأعضاء والضيوف. ولقد نوّهت الصحافة الجزائرية لدى أول احتفال بمناسبة المولد النبوي، على مستوى مدرسة الشبيبة الإسلامية، بجهود مديرها وأستاذها على لسان نائب رئيس الجمعية، حيث كتبت أنّ النتيجة ظهرت للعيان

" ... بسعي أستاذ المدرسة الخيّر الأجلّ العلاّمة الأشهر الشيخ عمر بن قدور الجزائري الذي شمّر على ساعد الجدّ والاجتهاد فأفاد وأجاد وبلغ في تعليمه المراد، وهؤلاء التلاميذ من بنين وبنات آيات شاهدات على أعماله الصالحات ..." [1].

لقد واصل المفكّر المصلح عمر بن قدور نشاطه التعليمي مع إدارته للمدرسة وعضويته لمجلس إدارة الجمعية الجديد، حينما تم إعادة انتخابه في شهر جوان من سنة 1926[2] .

وبالموازاة مع هذا النشاط، كان يكتب مقالاته في جريدة " التقدّم "، خاصة تلك التي كان يلحّ فيها على مسألة التعليم، وضرورة مواصلة تأسيس المدارس[3] .

ويمكن أن نؤكّد أنّه بقي مديرًا لمدرسة الشبيبة الإسلامية لغاية شهر أفريل من سنة 1927. والباحث أبو القاسم سعد ا أشار إلى هذه النقطة إلا أنه لم يكن متحققا منها[4]. من هنا يأتي تساؤلنا واندهاشنا لهذا التغييب والتعتيم، الذي أفقد فكرنا الإصلاحي وممارسته العملية في الجزائر، منارة عظيمة على شاكلة شخصية دراستنا هذه. إذن فلقد أمضى رحمه ا ، ما بين شهر ديسمبر 1923 وشهر أفريل سنة 1927، أي سنوات أربع في إدارة هذه المدرسة والتدريس بها[5] .

إنّ هذه المعلومات التي نقدّمها هنا، تدعّم رؤيتنا في عدم تحوّله الكلّي للتصوّف واعتزاله للحياة العملية.

---

[1]– أنظر: صحيفة " التقدّم " 1 نوفمبر 1924.

[2] – تم تعيين محمد علي دامرجي رئيسًا للجمعية.

[3] – أنظر: مقال " حيّ على التعليم " بهذه الصحيفة بتاريخ 25 جانفي 1925.

[4] - أنظر: دراسته، تاريخ الجزائر الثقافي، (1830-1954) ، الجزء الخامس ، دار الغرب الإسلامي بيروت، ص 281

[5] – في الاحتفال الخيري السنوي الذي أحيته الجمعية في 07 أفريل 1928 لم يكن عمر بن قدور الجزائري حاضرًا فيه. (أنظر: " التقدّم " العدد: 97 – 7 أفريل 1928.

أمّا توقّفه عن التدريس في هذه المدرسة وانسحابه من مسؤولية إدارتها فيبدو أنّه قرار ذاتي، كان يعبّر عن خلافات معيّنة مع مجلس إدارة جمعية الشبيبة الإسلامية، خاصّة وأنّنا لاحظنا أنّ مضمون مقالاته في صحيفة (التقدّم) كانت تشير إلى نقص الدعم المادي أو المالي لهذه المؤسسة التربوية. وثمة شهادة تاريخية لأحمد " الأكحل " التي كتبها بمجلّة الشهاب سنة تقريبًا بعد انسحابه، تكشف أنّه:[1] " ... قدّم استعفاءه لجمعية المدرسة لأسباب يعلمها هو !". ثم يضيف منوّها بإرادته العملية الإصلاحية: " .. ولكن عزيمته لم تثبط بل زادته نشاطًا وأسّس مدرسة قرآنية ذات نظام عصري بديع ". ولقد ذكّر هذا الكاتب بإشرافه على مدرسة الشبيبة وبإخلاصه، وحسن أخلاقه، وبهمّته واجتهاده في تلقين التلاميذ، المعارف المحكمة وبإرشاداته وتوجيهاته، المؤثرة في تطوير هذه المدرسة وتثبيت نظامها. وكان المثقّف والشاعر أحمد الأكحل هذا قد ألقى من قبل وبحضور عمر بن قدور ومعلّم آخر هو مصطفى حافظ خطبة حول " التعليم " سنوات من قبل، بمقرّ جمعية الشبيبة سنة 1924، إذن فهو يعرفه حق المعرفة[2] .

أمّا المدرسة العصرية التي أسّسها، فالمقصود بها مدرسة (السلام) التي كانت تتبع الجمعية الخيرية التي هي بهذا الاسم. والتي يكون قد أسّسها سنة 1928[3]. وقد تكون نفس جمعية (السلام) التي كان على رأسها سنة 1931 السيد عمر إسماعيل. وبقي مزاولاً للتعليم بهذه المدرسة إلى ما قبل وفاته بأشهر سنة 1932، هذا ما أكّده السيد العاصمي (توفي سنة 1951) الذي كان هو أيضا أستاذًا بمدرسة " السلام "[4] . ويكون العاصمي حسب علمنا قد تعرّف على المفكر عمر بن قدور بمنطقة الأغواط حيث كان إمامًا هنالك، أي إبّان الإقامة الجبرية أثناء الحرب العالمية الأولى. ويكون إبراهيم عيسى أبو اليقظان قد دعاه للكتابة في صحيفة (وادي ميزاب) بعد استقالته من إدارة مدرسة الشبيبة الإسلامية. ولأن أوّل مقال ظهر له ثمّة كان في شهر ماي من سنة 1927 كما ذكرنا.

---

[1] – أنظر: مجلة " الشهاب " مقال: المعلّمون والتعليم. أ (أحمد) الأكحل العدد: 174 – قسنطينة: 29 نوفمبر 1928.

[2] – أحمد الأكحل: من تلاميذ الإمام عبد الحليم بن سماية والشيخ أبي القاسم الحفناوي. أنظر: شعراء الجزائر في العصر الحاضر. هـ الزاهري- الجزء 2.

[3]- صحيفة (النجاح) – قسنطينة : 05 فيفري 1932.

[4] – حول (العاصمي) أنظر: معجم مشاهير المغاربة (مرجع سابق) صفحة 333.

كان خبر وفاة المفكر والصحافي عمر بن قدور الجزائري، عبر جزء من الصحافة الجزائرية قد عكس في تلك اللحظة من بداية سنة 1932المكانة الفكرية التي ترمز إليها حياته النضالية في الساحة الإصلاحية والتنويرية بالجزائر، من خلال المسار الصحافي والتعليمي معا.

فها هو أحد أقطاب الإصلاح والصحافة في الجزائر الشيخ إبراهيم بن الحاج عيسى أبو اليقظان يعتبر عبر صحيفته (النور) عمر بن قدور شيخ الصحافة العربية في الجزائر، واعتبر نضاله جهادا و كفاحا سوف لا يذهب سدى. فكتب قائلا: [ في الأسبوع الماضي حكمت أنفاس شيخ الصحافة العربية في الجزائر الكاتب القدير السيد عمر بن قدور صاحب جريدة (الفاروق) لمرض عضال أعياه الأطباء علاجه بعد أن كابد المسكين من مضض العيش و نغص الحياة ما يكابد كل حر الضمير عليّ المهمة من مثل هذه الأوساط وتحت ضغط مثل هذه الأجواء.

ففي سبيل اللّه جهادك - يا عمر- و في ذمّة اللّه والتاريخ كفاحك ونضالك. فنم قرير العين مطمئن النفس في مرقدك الأخير، وثق أن الغرس الذي غذيته روحك وسقيته ماء حياتك لا يذهب سدى، بل سوف يزدهر ويترعرع ويثمر بإذن اللّه ثمراته المفيدة.

وعزاء لك في فقيدك الجليل - يا جزائر – و صبرا جميلا لكم معشر الجزائريين ولأهل الفقيد الكرام. فانا للّه و إنا إليه راجعون ] [1].

وتحت عنوان "رزئت العاصمة بفقد مصلح كبير، عمر بن قدور الجزائري " كتبت صحيفة (النجاح) الصادرة بقسنطينة مقالا تأبينيا اعتبرت فيه، الفقيد أحد رجالات النهضة بالجزائر وأول صحافي جزائري يدعو إلى الصلاح الديني، وذكّرت بممارسته التعليمية والصحافية معا، مع اتصافه بصفات كبار رجالات الدعوة الإصلاحية. وممّا جاء في المقال:

[ أنشبت المنية أظفارها في نابغة من نوابغ الجزائر وواحد من أحد رجال النهضة العلمية في القطر وأوّل صحافي عربي جزائري قام يدعو إلى الإصلاح الديني فيه، وهو المرحوم المنعم (عمر بن قدور الجزائري) صاحب جريدة (الفاروق) والأستاذ بمدرسة (الشبيبة) ثم بمدرسة (السلام) ذلك الرجل العصامي الشهير الذي عاهدناه عالما فاضلا مفكرّا وليس فينا من ينكر مكانته في النبل والذكاء ولا ماله من المساعي المبرورة والمآثر المشكورة قضى هذا الفقيد معظم حياته في التعليم والإرشاد، وبذل قصارى مجهوداته في بث الدعوة الإصلاحية أيّام

[1] - المصدر: صحيفة (النور) بتاريخ: 2 فيفري 1932.

كانت الجزائر في سبات عميق إلاّ أن المؤسف عليه قد عرقلته عراقيل قاسى بسببها أتعابا كبيرة وكابد مشاقّا عظيمة وصرفته قسرا عما كان متشبّعا من الأفكار والمبادئ.

أمّا مقدرته في الصحافة العربية فلا يكاد ينكرها عليه أحد ممّن وقف على فصوله السامية التي كان يحرّرها في جرائد القطر وخارجه وجرى له فسبيلها ما جرى حتى قضى اللّه عليه أن يبعد بضعة سنين عن وطنه المفدى ... لم يكن (عمر بن قدور الجزائري) رجلا كالرجال، بل إنه كان يجمع في شخصه الوحيد صفات كثيرة من صفات كبار الرجال الدعاة وتاريخ حياته مشهور ...] [1].

وممّا جاء في تأبينية السيد محمد العاصمي الأستاذ بمدرسة (السّلام) معتبرا الفقيد من عظماء الرجال قوله : [ اليوم فإذا حاولنا ذكر بعض ما وفقّ إليه من الأعمال الجلية فقيدنا الأستاذ أبو حفص عمر بن قدور الجزائري الشهير فلأنّنا نريد الاعتراف بذلك المجهود الذي قام به من جهة ونسج الأحياء على المنوال الذي نسج عليه فيما وفقّ إليه من جهة أخرى. وحسبه رحمه اللّه انّه كان أول من أنشأ الصحافة العربية الملّية بكل ما في الكلمة من معان.

وأوّل من رفع صوته بالدعوة الإصلاحية الدينية في وقت كان فيه ذكر مثل ذاك ذنبا لا يغتفر وجناية ليس هناك من هو أفظع منها ... ] [2].

ثم ذكّر بنشاطه في تحرير القسم العربي لصحيفة (الأخبار) وإصداره لجريدة (الفاروق) مرّتين، ثم تحوّله للنشاط التعليمي .

وتحت عنوان (وفاة عالم) نشرت بجريدة (المرصاد) الصادرة بمدينة الجزائر، خبر وفاته معتبرة إياه أحد العلماء العاملين في البلاد ومما جاء فيه [ فجعت الجزائر بوفاة العالم المشارك الشيخ عمر بن قدور صاحب جريدة الفاروق السابقة و أحد العالمين في هذه البلاد فكان لوفاته وقع عظيم في نفوس عارفي مداركه ...] [3].

أمّا صحيفة (البلاغ الجزائري) فرأت فيه أحد أعظم كتّاب الجزائر والنهضة الأدبية فيها وممّا جاء في المقال التأبيني هذا: [اقتطفت يد المنون كاتبا من أعاظم كتّاب الجزائر وبطلا من

---

(1) - المصدر: صحيفة [النجاح] بتاريخ: 5 فيفري 1932.

(2) - المصدر: في المصدر نفسه.

(3) - المصدر: بجريدة [المرصاد] بتاريخ 5 فيفري 1932.

أبطال النهضة الأدبية فيها. ألا وهو السيد عمر بن قدور الجزائري صاحب جريدة (الفاروق) بعد مرض عضال أعيا الأطباء .

ولما شاع خبر وفاته حزن عليه كلّ من عرفه وصاحبه إلاّ من أنكر جميله ومزيته وخدمته للأمة بلسانه وقلمه وسيرته ... والبلاغ يرفع عزاءه إلى الأمة الجزائرية .....] [1].

وكان صدى وفاته في الصحافة التونسية يعبّر حقّا عن المكانة الفكرية التي يحظى بها هنالك لدى النخبة الصحافية والإصلاحية بتونس. ونأسّف لما أحسسنا به نحن كباحثين لنوع من التنكّر لجهوده الصحافية والفكرية الرائدة في الجزائر من قبل بعض معاصريه.

فها هو الصحافي والمثقف الطيب بن عيسى يكتب في صحيفة (الوزير) قائلا:

[ نعت أخبار الجزائر وفاة "وصيف كبير" هو المرحوم عمر بن قدور، فتلقفت الصحافة التونسية هذا النبأ بحزن غامر، وهبّت تعزّي فسه الوطن والأصدقاء، وتعددّ خصاله وخدماته الجلّية وعلمه الغزير ونصحه الوفير، وتقدّم للأجيال بطلا من الأبطال المجهولين مفاخرة بنضاله الوطني ونضاله الصحفي معا، جامعا لأوصاف الرجال العظام بما قدّمه من الخدمات لجامعة المسلمين؛ وبعلمه الغزير.... مع الإخلاص التام والانقطاع لخدمة الصالح العام... صحفي بأتّم معنى الكلمة لأنه يعرف مهنة الصحافة من أوّلها إلى آخرها، وكان كاتبا كبيرا طالما راسل صحف الشرق الكبرى بمصر، وسورية وتركية وتونس... وإن قلمه لسيّال وفكره لثاقب... مع الغيرة على الوطن والدين فالفقيد قطب من أقطاب الشمال الإفريقي..] [2].

وكتب أيضا الشيخ الشادلي المورالي في جريدة (المنير) التونسية منوّها بشخصية عمر بن قدور ومّكرا بمعاناته السياسية وتنكّر بعض أبنائه بلاده من الجزائريين لجهوده وقيمته حيث قال:[ نعت أخبار الجزائر صحفيا من أصحاب الغيرة والإخلاص وأستاذا عالما نصوحا ألا وهو السيد عمر بن قدور صاحب جريدة مجلة (الفاروق) سابقا، والكاتب الشهير للصحافة الشرقية عموما والتونسية خصوصا. ولقد قاسى في حياته السياسية مشاق كانت خالصة في سبيل الحق والوطن وقليل في أبناء بلدته من اعتراف له بالجميل وقدّر مواهبه حق قدرها، ولقد فقدت الجزائر لوفاته فذّا كريما فرحمه اللّه ورزق الجزائر من أمثاله ] [3].

---

[1] - المصدر:صحيفة [البلاغ الجزائري] بتاريخ 5 فيفري 1932.

[2] - في صحيفة (الوزير) 18فيفري 1932 عن [ النشاط العلمي] ص164 مرجع سابق.

[3] - في صحيفة (المنير) بتا: 3مارس 1932 عن: ظهور الصحافة العربية في الجزائر (حصص إذاعية ) لمفدي زكرياء -مرجع سابق- ص109

والدليل على هذا التنويه الفكري بشخصية بحثنا، حتى أثناء حياته، هو ما كتبته صحيفة (المضحك)التونسية حينما زار عمر بن قدور الجزائري تونس مرّة أخرى سنة 1920حيث كتبت [ نكاد نعجز عن وصف السرور الذي خالج الفؤاد منا بحلول الكاتب الشهير والمفكر الكبير صديقنا السيد عمر بن قدور صاحب جريدة (الفاروق) الجزائرية بين أظهرنا، ولا ينكر أحد ما كان يدبجه يراع هذا الكاتب البليغ من التحارير الإصلاحية الراقية، فمثله من يفيد البلاد باستطلاعاته ويشرفها بزيارته...] [1].

والغريب على المستوى الجزائري، أن المؤرّخ أحمد توفيق المدني الذي يعتزّ بكونه نشر أولى مقالاته في صحيفة (الفاروق) سنة 1914، واصفا صاحبها بالكاتب الخيّر والحرّ في الجزء الأول من مذكراته [2]. فإننا لم نعثر له في الجزء الثاني عن أي خبر أو معلومة أو ذكرى متعلقة بعمر بن قدور الجزائري، بحكم أنه يبدؤه بسنة 1925سنة دخوله ومكوثه فيما بعد بمدينة الجزائر [3].

ويفخر أحد رجالات النهضة والإصلاح في الجزائر ألا وهو الشيخ بيّوض (1899-1981) بتأثير صحيفة (الفارق) في جيله بما كانت تنشر من مقالات وطنية ومقالات سياسية وفي الإصلاح الديني وممّا قاله فيها:[ أوّل هذه الجرائد التي كنّا نقرؤها في هذا العهد جريدة (الفاروق) فائدة كبرى وفتحت لي نافذة واسعة على العالم الإسلامي والدولة العثمانية، وعلى العالم الأوروبي وعرّفتني بالسياسة الأوروبية، وسير الحرب العالمية الأولى، وكنت شديد الاهتمام بها، أقرؤها كلّها حرفا حرفا ] [4].

---

[1] - المصدر: جريدة (المضحك) تونس بتاريخ: 24 جويلية 1920.

[2] - أحمد توفيق المدني: حياة كفاح (مذكرات)1905 -1925- الجزء 1 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع –الجزائر-1967، ص66+69.

[3] - أنظر: أحمد توفيق المدني : حياة كفاح: 1925-1945- الجزء 2.

[4] - في: محمد علي دبّوز: أعلام الإصلاح في الجزائر- مطبعة البعث- قسنطينة – الجزائر 1396هـ -1976- ج2- ص161.

## خلاصة الفصل

إن ما يمكن قوله عن البيئة الاجتماعية والفكرية لعمر بن قدور الجزائري أنه كان لها جانبان أساسيان، تمثّل الأول في البيئة الأسرية التي نشأ فيها في مدينة الجزائر التي ولد بها سنة 1886 وتوفي بها أيضا سنة 1932. إنّها تشكّل رافدًا قويّا في تكوينه الديني والتربوي. فبيّنا في معلومات جديدة عبر دراستنا هذه تأثّره الكبير بأمّه وبوالده الذي أعدّه وروّضه على روح التديّن والإلتزام بالقيم الأخلاقية. وهذا ما جعله يتأثّر بالبيئة المسجدية، حيث سيجد العالم الإمام محمد السعيد بن زكري (1914/1850)، والذي يغدو له أحد أكبر محفّزيه في ميدان الممارسة الصحافية.

كما كشفت دراستنا عن أحد أهمّ أساتذته المباشرين، وهو الإمام المصلح عبد القادر المجّاوي (1848/ 1914) الذي اعتبره " أستاذ الجماعة " في الجزائر، وأحد الذين تتلمذ على أيدهم وتكوّن لديهم بمؤسسة مسجد سيدي رمضان والمدرسة الثعالبية بالجزائر العاصمة فاعتبر قلمه الصحافي حسنة من حسنات تعليم المجاوي وإرشاده وخدمته للّغة والبلاغة.

إنّ هذه التربية والبيئة التي نشأ فيها، في سياق الواقع الجزائري تحت نير النظام الاستعماري، جعلته يعي ويتفاعل بتواصل فكري ووجداني كبير مع معاناة ومأساة الشعب الجزائري كما لاحظنا.

وبالرغم من مصابه وفقدانه في سنة واحدة، لأفراد من أسرته، ولأساتذته ابن زكري والمجاوي، فإنّه بقي صامدًا مناضلاً متمثّلاً دومًا قوله وبيته الشعري:

**قلمي لسان ثلاثة بفؤادي　　　ديني ووجداني وحبّ بلادي**

كما أنّنا حاولنا توسيع المعرفة بحياته، عبر إبراز نشاطه الصحافي الذي حمل منه رسالة فكرية ومهمّة تنويرية لخدمة الشعب الجزائري والأمّة الإسلامية.

بحيث تمكّنا من تحديد بداية ممارسته الصحافية في الجزائر والتي كانت سنة 1906 من خلال صحيفة (الهلال) التي صدرت في السنة ذاتها. وكشفنا، ربّما لأول مرّة، مسألة اعتقاله وإيقافه عن الكتابة في هذه الصحيفة سنة 1907، وقد يكون بذلك، كما

نرجح أنّه أوّل اعتقال لصحافي جزائري من الناحية التاريخية. وهي كان في سنة 1906 يراسل إحدى أهم صحف الشرق العربي، وهي صحيفة " اللواء " للزعيم السياسي المصري مصطفى كامل.

واصطدامه الأوّل ذاك بالإدارة الاستعمارية الفرنسية، جعله يغادر الجزائر إلى تونس والإقامة فيها فترة من سنة 1907، حيث توصّلنا إلى أنّه كان يحرّر في صحيفة "الحقيقة " بتونس. هذا ما سمح له بإقامة علاقات موسّعة مع نخبة تونسية صاعدة، وفعلاً سوف يكون مراسلاً لكل من صحيفتي (التقدّم) و( المشير) من الجزائر. وحينما يعود إلى الجزائر، يتولّى سنة (1908) وفي شهر أفريل منها، مسؤولية الإشراف على القسم العربي من صحيفة " الأخبار " الصادرة في مدينة الجزائر. وفي نهاية هذه السنة يغادر الصحيفة هذه ولا يعود إليها إلاّ في 1910. ونحن رجحنا أنّها الفترة التي يكون قد سافر سرّيًا إلى مصر، حيث ينشئ علاقات صداقة مع نخبة فكرية إصلاحية أمثال الشيخ السوري محمّد رشيد رضا (أحد تلامذة الإمام محمد عبده) والمصلح السوري عبد الحميد الزهراوي مؤسّس صحيفة (الحضارة) بتركيا التي سيكاتبها باستمرار ( من سنة 1910 إلى سنة 1912).

ووجدنا أن سنة 1910 تعدّ بداية مرحلة مهمّة وثرية لنشاطه الصحافي، حيث يحرّر القسم العربي من جريدة " الأخبار" من شهر فيفري سنة 1910 إلى غاية نهاية عام 1914. ويراسل صحيفة (الحضارة) الصادرة بتركيا (1910-1912)، وصحيفة (المشير) 1911.

وكان أهمّ حدث هو إصداره لصحيفته "الفاروق " في فيفري سنة 1913 معتبرًا أن الساحة الصحافية الجزائرية كانت خالية فعلاً من صحافة وطنية إسلامية جزائرية محضة. وكانت فعلاً إعلانًا بميلاد صحافية تنويرية إصلاحية حقيقية، بالرغم من وجود صحف أخرى قليلة كما أوضحناه. كما أنّنا بيّنا خطّته الصحافية التي تحمل مشروعا نهضويًا تنويريًا مؤكّدة على الانتماء الهوياتي للشعب الجزائري وعلى توجّهها القومي من جهة أخرى كشفت تجربته الصحافية عن رجل مهني متمرّس بالمهن الصحافية كلّها، فسعى إلى توفير مطبعة خاصّة بصحيفته، مع تكوين عاملين في فنون الطباعة وتنظيم مهمّة

التوزيع عبر تكليف وكلاء لها داخل الجزائر وفي شمال إفريقيا، مع توفير مراسلين لها داخل الجزائر وخارجها، من مصر وتونس على الخصوص.

بالرغم من تعرّضه لمضايقات عدّة، من جهة أذناب الاستعمار أو من جهة المنتقصين لجهوده ولفكره، إلاّ أنه إتخذ من مبدأ الثبات، مسلكًا لتطوير وتحسين الصحيفة. من هنا رأينا أنّه من الناحية التاريخية من أوائل الصحافيين الجزائريين الذين فكّروا في إنشاء صحيفة يومية بالجزائر. ويكون بهذا قد سبق الأمير خالد في هذه الغاية الإعلامية النهضوية. فلقد أراد تحويل صحيفته (الفاروق) إلى جريدة يومية تضاهي الجرائد اليومية الكبرى سنة 1913.

لكن في بداية سنة 1915، توقف الحكومة الاستعمارية الفرنسية جريدة (الفاروق) وتقوم بنفي عمر بن قدور الجزائري إلى إحدى المناطق العسكرية بالجنوب الجزائري. ولقد ناقشت الأسباب التي قد تكون وراء هذا التوقيف والنّفي معًا، مع العلم أن شخصيته الصحافية والفكرية وثقل صحيفة (الفاروق) أصبحا مصدر قلق للإدارة الاستعمارية إبّان فترة الحرب العالمية الأولى.

ثم تحدثنا عن المرحلة الأخرى من ممارسته الصحافية، التي تبدأ بعد نهاية الحرب العالمية الأولى مباشرة، بإصداره رفقة السّيد محمّد بن باكير التاجر لصحيفة " الصدّيق " في 12 أوت 1920.

لكن يغادرها وينسحب من إدارتها بعد صدور ستّة (06) أعدا حيث يصدر في 08 أكتوبر 1920 السلسة الثانية من (الفاروق) في شكل مجلّة متنوّعة. تحتوي على أبواب في عالم الصناعة، الاقتصاد والعلوم والعمران وعلى أركان تاريخية تهتّم بعظماء الإسلام، مع فتح المجال للأقلام الإصلاحية. لكن (الفاروق) هذه تتوقّف بعد صدور 15 عددًا في 1921.

وأظهرنا في دراستنا أن المفكر الصحافي عمر بن قدور الجزائري لم يتوقّف عن النشاط الصحافي وينعزل، إنّما وجدناه محرّرًا في صحيفة " الإقدام " للأمير خالد ما بين سنة 1921 وسنة 1923. ثم محرّرًا في صحيفة " التقدّم " الجزائرية ما بين 1923 وبداية

سنة 1925. وقد أعاد نشر نصوص صحافية قديمة له في هاتين الصحيفتين وفي (الفاروق) المجلة.

ويكون قد توقف عن النشاط الصحافي في نهاية سنة 1924 ليتفرّغ لنشاط إصلاحي وتنويري موازٍ له هو التعليم. الذي دخل مضماره كأوّل مدير وأستاذ لمدرسة الشبيبة الإسلامية الجزائرية سنة 1923. ولم يعد للكتابة، حسبما توصّلنا إليه في بحثنا هذا، إلاّ في سنة 1927، بفضل دعوة الصحافي والإصلاحي القدير أبي اليقظان، على صفحات جريدته " وادي ميزاب ".

كما كشفت دراستنا عن جانب مهم تم إغفاله أو تجاهله، حسبما لاحظناه وأطّلعنا عليه. فكان مهملاً، ونقصد به جانب نشاطه التعليم الذي امتّد من سنة 1923 إلى غاية سقوطه مريضا قبل وفاته بأشهر سنة 1932.

فلم يسلك طريق العزلة والتصوّف، ولم ينعزل عن الحياة العامة إنّما انتهى إلى ميدان عزيز عليه في دعوته الإصلاحية والنهضوية، وكان من مؤسّسي جمعية الشبيبة الإسلامية الجزائرية سنة 1921 في مدينة الجزائر، وتولّى إدارة مدرستها التي تأسّست سنة 1923 إلى غاية استقالته منها سنة 1927، ليؤسّس مدرسة عصرية هي " السلام " ليزاول بها التعليم حتى نهاية سنة 1931.

# الفصل الثالث
# البعد الفكري الإصلاحي العقائدي

نتناول في هذا المبحث البعد العقائدي الذي يشكل جزءا أساسيا في رؤية عمر بن قدور الإصلاحية وهو الذي يعكس بوضوح وبعمق الأطر المرجعية الروحية النابعة من العقيدة الإسلامية، والتي استخلصناها من قراءتنا لمقالاته الصحافية وتحليلنا لها وكانت الدلائل الكمية المرتبطة بتكرار الأفكار والمواضيع المتصلة بهذا البعد عنصرا مؤكدا لوجوب للتركيز عليه. فقد وردت في أكثر من 60 مقالا. لكن لمسنا أن عناوين بعض المقالات التي وضعها صاحبها، سواء المنشورة قبل الحرب العالمية الأولى أو أثناءها قبل توقيف جريدته ( الفاروق)، أو حتى التى كتبها بعد الحرب العالمية الأولى في صحف أخرى كانت تعكس البعد العقائدي، وذات دلالة. وسوف أسوق هنا على سبيل التدليل بعضها: " خطر الأحداث والبدع على القومية والدين" روح الإعتقاد وحرية الضمير " تنازع روح الاعتقاد هو التنطع في الدين" "مقاومة التنازع في الإعتقاد "" نحن والأكوان: آية من آيات قصور الإنسان" " شوارد في الدين والقومية والمباجث الكونية والأخلاقية: خطر الأحداث والبدع على القومية والدين: بعد فشل المقاومة، " كوارث الفوضى الدينية والأخلاقية بجهل المرأة المسلمة وأحلامها الفاسدة، نال الشعب من كوارث البدع ما ناله" "حول مسألة الشفاعة" " دحض البدع الإختلالية: معذرتنا إلى ا ..." " إلى العلماء والأئمة وأصحاب الزاويا ورؤساء الطرق في كافة أنحاء القطر الجزائري" " الأجناس والأديان والنوازع في معامع القتال " حديث الحوادث عاقبة البغي والعتو" " النبذة الدينية: القصد في الدين والإخلاص" فهذه العناوين كانت مواضعها إذن تصب مباشرة في المجال الفكري العقائدي الذي كان فضاءا للنضال الإصلاحي من خلال الممارسة الصحفية الذي ينبغي التأكيد عليه أيضا أن عمر بن قدور ينطلق، كما سنرى في دراستنا هذه، من الواقع الجزائري آنذاك، أي سوف يتساءل عن الحالة الدينية العقائدية والأخلاقية وينتقدها بإرتكازه على توصيفه لها إلى هذا الواقع. ولكن وحتى يقدم مفاهيمه العقائدية، فإننا وجدناه يستند إلى التفسير والقراءة التاريخية لإنحراف العقائد في المجتمعات العربية الإسلامية وليس هذا فقط، إنما يوسع أفكاره لتمتد إلى الشعوب والثقافات الأخرى المتأثرة بالوثنية مثلا. وبالموازاة مع مقاربته هذه، يقدم أيضا المفاهيم التي يراها أساسية في البناء العقائدي أي تصحيح العقائد بما يخدم الجانب الروحي والعملي للجزائريين في بيئة إستعمارية. لأنه هو مقتنع، كما سنبين بأن السقوط الحضاري للعالم الإسلامي كان مرتبطا

بالإندحار العقائدي. والعقيدة الإسلامية الصحيحة والسليمة لا تساعد على التماسك الروحي والمادي للإنسان المسلم فقط وإنما هي أساس الإيمان بالتغيير والصمود والإيمان بحتمية زوال الإستعباد، أي الإستعمار، في سياق المبدأ الذي سوف يؤكد عليه مرارا وتكرارا ألا وهو مبدأ السنن الكونية .

## المبحث الأول: توصيف الحالة العقائدية: الفوضى الدينية

لاحظنا من خلال تحليلينا للمقالات الصحافية تكرار مواضيع متصلة بالجانب العقائدي، وتؤكد على ظاهرة انتشار البدع.

إذا كان هذا الموضوع قد تكرر 14 مرة، بمعنى أنه ورد في نفس عدد المقالات، فهذا بالتالي يؤكد مبدأ الإصلاح الديني والاجتماعي الذي حدده عمر بن قدور في خطه الإقتتاحي الإعلامي. وضمن هذا السياق أشرنا إلى مبدأ محاربة البدع والموبقات ولقد كتب : " إن كانت الملة السمحة في ما يتشبث به المسلمون اليوم من البدع والتقاليد المخالفة لحقائق العلم الصحيح فإن (الفاروق) أول الكافرين العاملين على محاربة الضـلالات بأنـواعها ودحـض المـوبقـات والبدع"[1].

بالتالي فحتى تصميمه وثباته الفكري والعملي هو نابع أصلا من اعتقاده الراسخ وإيمانه العميق بالعناية الربانية التي هو متشبث بها في مسار رؤيته التنويرية والتجديدية في وسط جزائري يعرفه ويعيشه، دون أن يهمل العامل الاستعمار.

يعتبر ظاهرة انتشار أشكال البدع السبب في ظهور ما سماه هو أصلا " بالفوضى الدينية على الخصوص. فإذا كان الجانب الروحي من الإنسان ضعيفا أو مريضا أو مهملا فهذا يعني أنه سيؤثر على الجانب العقلي والشعوري والإحساس ثم الإدراكي (فالتأثيرات الروحية هي المركز الذي تدور عليه أحكام سر وجود الإنسان ولماذا كان موجودا هي السر الداعي) إلى التحقيق قوله تعالى: ليس للإنسان إلا ما سعى" إذ لولاها لكان جمـادا أو حيـوانا متوحشا"[2]. يضيف في نفس هذا السياق مع إلحاحه على الربط مابين الجانب الروحي والجانب المادي في حياة الإنسان: " ... فلما كانت القوة الروحانية الموجودة في الإنسان هي قوام كيان ترفعه إلى أعلى الدرجات التي أهله لترقيها كانت هي الاستعداد الوحيد الذي يصح به – إن تم – بسواه في الآخرة أو في الحياة الدنيا..."[3]. ثم يضيف بأن هذا الاستعداد موجود في كل إنسان، كامن فيه، وقد يشتعل ويضيء إذا تمت العناية به لكن إن كان صاحبه مهملا له في تنميته فهـو سيبقي ناقصا غير متأهل لنيل وتحقيق المقاصد الدنيوية والأخروية، ويبقى أهم عامل لتنميته هو العلم.

---

[1] - أنظر الفاروق : العدد : 51 بتاريخ 09 مارس 1914.

[2] - صحيفة " التقدم" بتاريخ 15 ديسمبر 1923

[3] -المصدر السابق نفسه.

إذن فالفوضى الدينية بالنسبة إليه تتأتى معالجتها انطلاقا أولا من توصيف الحالة الإعتقادية للأمة الجزائرية، في جانبها الروحي أولا. ففي مقال تحت عنوان " بين المسالك والمهالك: مراحل الأمم ومراحلنا" يتحدث عن تدهور الأحوال الدينية والاجتماعية التي تتسم ببروز تقاليد مخترعة أي مبتدعة، وسلوكات بدعية فرضها دجالون وكهنة، وينتقد أماكن الأضرحة التي أصبحت "موطنا لصور خيالية يتصور الناس جبروتها ويوقنون بقوة سلطتها وشدة بطشها فحولوا خصومهم إليها والتمسوا منها ما ينفعهم ويكشف ضرهم وقربوا إليها القربان وما أُهّل لغير ا به"[1] ثم ينبه إلى تعدد الطرق البدعية الضالة فيقول بأن سبل الضلال على هذا النحو قد تنوعت " فصارت السعادة والذرية والجنة وهلم جرا تباع في أضرحة الصالحين ومحافل المتبدعة من المسلمين وإن هذا لهو الضلال المبين" [2]. ثم يدعو المفكرين لمقاومة هذا الضلال بكل الوسائل الإصلاحية للقضاء على المفاسد الدينية والاجتماعية لتتحسن الأخلاق على المبادئ الإسلامية الصحيحة.

إن محاربة مظاهر الفوضى الدينية، الناتجة عن غياب روح الاعتقاد الصحيح والصافي، تقتضي العودة إلى المنبع الأصيل للعقيدة وهو ألا وسائط بين العبد وربه يقول في مقال حول "روح الاعتقاد وحرية الضمير" في سياق حملة صحافية عقائدية حول " خطر الأحداث والبدع على القومية والدين") ألا فلتسقط الوسائط يعمل (أي المرء) فلا يستعين على حاجاته بكاهن أو صالح ولا يذبح القرابين لأجل نيل مآربه عند المقابر وفي مذابح الرهبان بل يستعين بعناية خالقة في كافة الأحوال... فيعمل في دنياه بها أعمالا لآخرته، وما كل الأعمال الحيوية في الدنيا إلا صلاحية المرء في الآخرة..."[3]. وفي نفس هذا النص يؤكد على مبدأ التوحيد الذي ستناوله حين الحديث عن العقائد الإسلامية التي تدخل ضمن رؤيته التنويرية الإصلاحية ولكن من باب عدم وجود وسيط بين المرء وربه حيث يكتب: "... يعبد ا فلا يجعل في عبادته وسيطا يرجوه أن يبلغه مآربه لأنه يعلم أن ا أقرب إليه من حبل الوريد فلا يقدس حجارة، ولا يقبّل

---

(1) - صحيفة (الفاروق) بتاريخ 17 أكتوبر 1913.

(2) - نفس المصدر.

(3) - صحيفة (الفاروق) بتاريخ : 08 يونيو 1914.

خشبة، ولا يتضرع أمام قبر، ولا يركع بين يدي شيخ من رهبان البشر، ولا حرج عليه إذن وقد دعاه ربه إلى عبادته وحده في قراءته وأقنعه بأنه قريب منه يجيب دعاءه إذا دعاه..."[1].

ومن الناحية التاريخية كان عمر بن قدور قد بدأ ينبه إلى الجانب العقائدي من رؤيته الإصلاحية سنة 1910 عبر " جريدة الأخبار" حيث أشار منتقدا الجمود الديني للجزائريين ومغالاتهم في بعض السلوكات الإعتقادية والتعصب لها مع اعتبارها من الدين. كالإعجاب بأنواع من التدجيل.

مثل أداء الطاعات للشياطين، والخضوع لصدى أعمال الجن، " والسجود بين يدي أرباب هذا الفن والاعتراف بأفضلية الألفاظ الممزوجة بدوي الطبول على ذكر ا المجيب" كتب يقول في مقال بعنوان" أحوالنا وأعمالنا" " لقد حشرنا أنفسنا معشر الجزائريين في زمرة هؤلاء الأخيرين ولم نعبأ بالحق اليقين.وفضلا فإن العالمين منا جاهلون والمستقيمين ضالون، بالنظر إلى غيرنا من العالمين العاملين... أفهذا المقام وللجمود فيه أوجدنا ولفظت الأرحام أجسادنا..."[2].

ثم يستنكر إتباع بعض الجزائريين للبدع أن يحسبونها سننا دينية ويزعمون أنها تقربهم إلى ا خالق البرية ولا يقف عند هذه النقطة وإنما يلوم الذين يتبعون أدعياء الولاية المتطرفين في الاعتقادات الفاسدة والذين يتفننون في الاحتيال ويؤكد مرة أخرى بأن دين الجزائريين وعقيدتهم التوحيد، فيكتب" هل بعد الإسلام ذلك الدين الحنيف لنا دين آخر بحثنا على الشذوذ والتطرف في الإعتقادات الفاسدة إلى هذا الحد. أما إن كنا غير مسلمين فلا حرج علينا إذا انزلقنا للشياطين إذ كنا للتوحيد جاهلين. أما ودييننا وعقيدتنا التوحيد فما لنا تركنا الأوامر الإلهية التي جاءت إلينا بواسطة الصادق الأمين صافية نقية خالصة من الأدناس والأرجاس ونتبع كل ناعق ودجال. ومن يدعي الولاية لنشر آيات الاحتيال" [3] .

إن صور الفوضى الدينية المتصلة بالبدع والابتداع إنما يستخلصها كما سبق وان ذكرنا من الواقع الجزائري، ومن حوادث حقيقية تعبر عن بعض مظاهر السلوك الشركية . والدليل على ذلك مثلا استعماله بعض التسميات الدارجة المرتبطة بالكهانة وهي تسمية:" يعطي

---

[1] - المصدر نفسه.

[2] - صحيفة (الأخبار) بتاريخ : 21 أغسطس 1910.

[3] - المصدر نفسه.

الكلام"[1].وتنديده بما كان يشاهد شخصيا وينقله إلى قرائه في شكل تقارير صحيفة. ففي مقال بعنوان:" البدع والعوائد الإختلالية، فظائع " شاطئ" باب الواد، أكاذيب الزنوج". يلفت إنتباه القراء إلى تفاقم أمر البدع الشيطانية، ورأى أن دراستها تستلزم مشاهدتها بالعيان ولهذا فهو ينزل إلى الشوارع أماكن تواجد مثل هذه النشاطات البدعية، ولا يكتفي بدوره الصحافي هو، إنما يكلف زوجته من جهة أخرى لرصد الصور البدعية المنتشرة في الوسط النسائي العاصمي. فيكتب" كنت أود أن أمتع مدارك القراء بل أن أهيج مرجل إغتياظهم من تفاقم خطر البدع والنوازع الشيطانية على سكان العاصمة من المسلمين في كل فرصة ولكني رأيت ذلك لا يليق إلا بعد درس تلك البدع ومشاهدة مضحكاتها ومبكياتها فاخترت أن أتتبع بنفسي مشاهدها الحرة للذكور وانتداب زوجتي الغيورة لمشاهدة أمثالها المختصة بالنساء"[2]. ثم يقوم بانتقاد مذبح الزنوج على هذا الشاطئ في العاصمة وذلك لسلب الناس أموالهم وعقائدهم وأخلاقهم، ويذكر تعاويذهم وطريقتهم في احتيال على الناس باسم الشيطان. وفي سلسلة " منبر العوام تربية الرجال قبل الأطفال" يعود مرة أخرى للتحذير من طاعة الرهبانية، فإنها لا رهبانية في الإسلام، كما سيوضح ذلك في مقالات أخرى، لأن منهم من يتخذ شرفه وسيلة لابتزاز الدرهم والدينار. إذن فالاحتيال للأهداف المادية البحتة جد ظاهر من مثل هذه الصور البدعية. ويحذر مرة أخرى من زيارة الأولياء والصالحين بصفة الطلب والاستغاثة والتوسل، ويراها من سمات الفوضى الدينية الشائعة في الوسط الجزائري المسلم[3]. يرى أنها اعتقادات مضرة بالتوحيد، ويقدم إطارا مرجعيا دينيا وتاريخيا حينما يستشهد بحادثة وقعت لعمر بن الخطاب(رضى ا عنه) حينما رأى الناس تزور شجرة تتبرك بها لأن الرسول ا (صلى ا عليه وسلم) كان يستظل بها، فقال عمر قولتها المشهورة: لا وثنية في الإسلام "[4].

لقد وجدنا أيضا أن انشغاله بنقد الفوضى الدينية، جعله يهتم إعلاميا بكل ما يمت بصلة إلى مشروعه الإصلاحي فلما أهدى إليه الإمام الشيخ المولود بن الموهوب(1863/ 1935) نسخة كتاب "اللمع على نظم البدع" لأستاذ الشيخ عبد القادر المجاوي كشرح على منظومة (ابن الموهوب) نراه ينوه بهذه الجهود الإصلاحية الحيوية، ويعتبر صدور الكتاب فجر إصلاح جديد لنصرة السنة ومحاربة البدعة. كتب يقول بهذه المناسبة (... لقد كان عدم التمييز بين الخبيث

---

[1] - أنظر منبر: الرجال قبل الأطفال " الفاروق، بتاريخ 18 يوليو 1913.

[2] - صحيفة (الفاروق) العدد: 70 بتاريخ 27 يوليو 1914.

[3] - صحيفة (الفاروق بتاريخ 25 جويلية 1913.

[4] - أنظر ( الفاروق) العدد : 23 بتاريخ 01 أغسطس 1913.

والطيب قبل اليوم مشاعا أما وقد تشنفت الأسماع بصدى هداية (اللمع على نظم البدع) فلا بدع إذا لاح فجر الإصلاح وانبعث خلفه أشعة صبح الرشد تتبعها شمس السنة المحمدية بضياء تهذيبها... أجل إن " اللمع " شرح إمام الجماعة أستاذنا الشيخ عبد القادر المجاوي – لمن المواهب القوية التي تنصر السنة وتميت البدعة وتقيم منطوق " القدس الأعلى" وتحمل العامة الجاهلة على الانتباه من غفلة غرورها وضلال بدعها وفساد أحلامها وأوهامها...[1] .

ثم إنه يعتبر كتاب " نظم البدع " نفثات حكيم بين عميان، أي أناس ضالين، وهو لسان مثقف مدرك مبصر لما لا يبصره أولئك المبتدعون، قلق على مصيرهم الأخلاقي وانحطاط مداركهم بسبب ملوثات الشرك. وهذا كله له تأثير على صمود الأمة- من جانب آخر وانطلاقا من المرجعية العقائدية، التي تستند إلى القرآن والسنة النبوية، فهو يقدم نقـ ـده للكتب الدينية العتيقة كما يسميها، والتي وضعها غلاة المتصوفة.

إذن فنحن هنا أمام عنصر ديني آخر ساهم في تعميق الهوة العقائدية ليس للجزائريين فقط، وإنما للمسلمين جميعا، وهذا العنصر هو وجود تيار مغالي ومتطرف في النزعة التصوفية في رأيي أن هذا الجانب من فكره العقائدي يحتاج لتوضيح أكثر خاصة وأن تاريخ الفكر الإسلامي في جانبه الإصلاحي اعتبر قضية التصوف والمتصوفة قضية حيوية في مسار التجديد والتنوير. ويكفي أن نشير هنا إلى محاولة قتل السيد المصلح عبد الحميد الزهراوي في دمشق التي ذكرها صاحي مجلة (المنار) الشيخ محمد رشيد رضا بسبب تأليفه كتابه المشهور الفقه والتصوف، وهذا قبل تطور تيار الإصلاح[2]. مبدئيا يؤكد عمر بن قدور أن نقد المؤلفين أو المؤلفات في عالم الإسلام – يدخل في سياق الواجب نحو الإسلام بالدرجة الأولى.

ثم يدعو إلى تخليص التأليف من أدران التقليد، مع الإستناد إلى الكتاب والسنة وإلغاء ما سواهما، بحيث يكون التأليف الحديث ملخصا عصريا تقريبا واستمالة للعقول مع محاولة تطبيق المسائل الدينية على الموضوعات العصرية تطبيقا مع استبعاد الشبهات الدينية- ويشير إلى تحول الكتب دينية عتيقة إلى مرجعية لغلاة المتصوّفة، بسبب داء التقليد المسيطر على

---

[1] - أنظر ( الفاروق) العدد : 52 بتاريخ : 16 مارس 1914.

* المفتي المالكي آنذاك بقسنطينة.

[2]- أشار المصلح رشيد رضا إلى قضية الاعتداء التي تعرض لها الصحافي المصلح عبد الحميد الزهراوي (صديق عمر بن قدور) بسبب مقالاته أنظر: مجلة (المنار) والتي أشار إليها الإمام محمد عبده في كتابه المجلد 12 (المجلة 12- جمادي 1327 هـ).

الطرفين فيكتب قائلا : (... إن من الكتب الدينية العتيقة من فشي فيها داء التقليد الذي لا يتصوره العقل والهوس الممقوت ومن سوء الحظ أن الأمر آل بعقول الناس إلى أن صارت تلك الكتب ملجئا لكثير من مؤلفي صدر الإسلام فنهلوا ورووا عنها بلا احتياط وخصوصا غلاة المتصوفة والوعاظ...)[1]. فيدعو إذن إلى تمحيص ما جاء في كتب المتقدمين من أقوال خارقة، والابتعاد عن طريقة سلف الإسلام في التأليف من متون وشروح حواشي وتفاريع وإن كان يعترف لأولئك السابقين بالفضل والمزية لما لهم من أسبقية وتضلع في إستنباط وتقرير المعارف العصرية. لكنه يدعو إلى طرح الكتب المغالية في التصوف والوعظ لأنها لا تزيد الأفكار والعقول إلا تقييدا ثم يقول: (ولا يصح لمن أراد أن يؤلف في الوعظ والتصوف أن ينسج على منوالها بل يستعمل معلوماته في ذلك إنصياعا لقوله تعالي: " وقل لهم قولا بليغا"..)[2].

وهو وإن كان في هذا المقال لا يذكر مؤلفين ولا مؤلفات، إلا أنه يعبر عن مضمونها من خلال ذكره للخرافات والقصص الكاذبة المبثوثة بين ثنايا مثل هذه الكتب في التصوف. فأكبر نموذج للموعظة بالنسبة إليه هو سيرة النبي محمد (صلى ا عليه وسلم). ومع ذلك ينبه إلى أنه لا يدعو إلى نبذ كل الطرق الصوفية المنتشرة في العالم الإسلامي، ولكن ينتقد صراحة المغالين منها في مسلك التصوف الحقيقي. ولأهمية هذه الفكرة فإننا نثبتها تدليلا وإيضاحا لموقفه من هذه القضية فهو يكتب في جريدة " الأخبار": ما يلي: (... القول البليغ لا يكون بالخرافات والقصص الكاذبة بل بالمحسوس والمشاهدة "أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم" فالنظر إلى مكنونات المكونات أبدع موعظة الهداية إلى سيرة النبي(ص) والسعي على أثره في العبادات والمعاملات أصفى تصوف لمن أراد أن يؤلف في فن التصوف ولست أقول بطرح الأذكار أو عن التمسك بالطرق المنتشرة في البلاد الإسلامية المنسوبة إلى الشيوخ الكثيرين بل أقول بكل صراحة أن الناس تغالوا في التصوف الذي هو ليس بتصوف في الحقيقة حتى أفضى الأمر بهم إلى ارتكاب متون تقاليد...)[3].

وسوف نرى كيف أن عمر بن قدور سيوجه الكثير من النقد الفعال لعلماء الدين ورجاله في الجزائر لاعتباره لهم، جزء من الفئات الأساسية القادرة على إحداث التغيير بالإصلاح الديني والاجتماعي لكن بالنسبة للقضية هنا، فلقد عبر صراحة نقـ ـده لجماعات الطرق

---

(1) - صحيفة (الأخبار) بتاريخ: 05 مارس 1911.

(2) - المصدر نفسه .

(3) - في جريدة " الأخبار " بتاريخ 12 مارس 1911.

الصوفية المنحرفة في الجزائر، وهذا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. ففي سنة 1920، وفي وقت كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية تسوء بالنسبة للجزائريين، بعد مصائب الحرب الكبرى، أصابت الجزائر أيام جفاف وقحط وانعكست هذه الحالة على صفحات الجرائد الجزائرية كصحيفة " الإقدام " لصاحبها الأمير خالد لاحظ عمر بن قدور أن الفوضى الدينية لازالت سائدة بإنحراف الناس عن الفرائض والسنن الإسلامية. ولهذا ينهض ويكتب مقالا هاما بعنوان : "دحض البدع الإختلالية معذرتنا إلى ا : أصوات المغتاظ من ضياع السنة" وهذا بجريدة " الوزير" التونسية. ولأول مرة وبصراحة تامة يوجه إذن نقـ ـده للطرق الصوفية في تعاملها المبتدع، المارق من السنة النبوية تجاه أزمة الجفاف وصلاة الإستسقاء أولا فإننا نرى أن هذا المقال دليل واضح على نقده للطرق الصوفية، بالجزائر والتي ربما لم يتسن لبعض الباحثين الجزائريين الإطلاع عليه وثانيا يؤكد موقفه التنويري الإصلاحي من التصوف والطرقية والتي يرى في بعضها مغالاة وتطرفا. وفي مقدمة المقال يتساءل (هل نرى الآن فريضة دينية أقيمت كما أمر ا أو سنة حافظ عليها القوم كما وصى رسول ا (صلى ا عليه وسلم) حتى يتسنى لنا أن ننشرح بحالنا ومآلنا كانشراح الجهال المومئ لهم الذين ملئوا السهول والنجود...[1]. ثم يتساءل بماذا تمت مقابلة واقعة العذاب والمزعجات الأخرى وأهوال الحروب وفقدان أسباب المعاش وغلائها بالقحط وإقلاع السحب عن جودها. ويقول منتقدا علماء الدين ورجاله إزاء هذه الظروف: (... فلم نر أحدا من أرباب الدين) (وما هم من الدين في شئ) وزعماء الملة المزورين، يقوم واعظا بتنبيه المسلمين إلى إقامة سنة الإستسقاء المؤكدة بالنصوص الفقهية والسنن النبوية، ودعوتهم إلى الإستغفار والإقلاع عن الذنوب والخروج إلى المصلى مع الخشوع والخضوع وطهارة الأبدان والقلوب وأداء صلاة سنة الاستسقاء وخطبتها كما أمر الشارع وفعل الرسول ( صلى ا عليه وسلم) [2].

يعد هذا ينتقد صراحة السلوكات البدعية للطرق الصوفية التي تقطع الطرقات في الجزائر مقيمة احتفالات وطقوسا تدل على ضياع السنة الصافية، وتحريف مسالك شيوخ الطرق الأصلية فيقول في نفس هذا المقال: (لقد رأينا وسمعنا في كثير من بلدان هذا الشعب الجزائري وقوع حفلات الاستسقاء في صورة ما أنزل ا بها من سلطان رأينا جماعات الطرق الصوفية المنسوبة إلى أولياء ا الكرام عرفا المنقطعة عنهم شرعا وحقيقة، يقومون بأذكارهم وأعلامهم

---

[1] - جريدة، الوزير (التونسية) بتاريخ : 19 أفريل 1920.

[2] - المصدر السابق نفسه.

وطبولهم في الشوارع يطوفون بالمزارات والأضرحة الصالحين يلتمسون من ا بجاههم إنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها والنسوة في أثناء ذلك مختلطات بالرجال يزغردن بأصوات الأفراح والانشراح ...)[1].

ثم عبر عن إغتباطه لهذا العمل وعن ضياع السنة المقدمة، وكتب في هذا المقال قائلا هذه " معذرتنا إلى ا " مخاطبا في رأيه، الرجال هؤلاء الذين تمشيخوا بالجهل والغرور" وتحملوا زعامة طرق أهل ا وصرفوها وأبعدوها عن مسالكها التي خصها ا بها صيروها آلة لهدم فرائض الدين وسننه و آدابه طالبين منهم أن يبينوا لنا الداعي إلى قيامهم بهذه البدعة والضلالة...) [2]. ويبدو لنا أن نقده في الحقيقة يتجاوز طقوس الإستسقاء هذه لتمتد إلى مختلف البدع المستحدثة من طرف جماعات الطرق الصوفية بالجزائر.

فهو يعتبرها خارجة عن السنة النبوية وعن النصوص الفقهية، وحتى عن منصوصات شيوخ الطرق التي ينتسبون إليها. ثم يضيف بأن دلائل هذه البدع غائبة في كتب التصوف وطرقه التي أطلع عليها وحتى أنه استشهد بما تونر عن المشائخ الكبار بالكتب وبالألسنة، فلم يجد لديهم هذه الكيفية في الاحتفال والطقوس فكتب قائلا:" وما بلغنا لا بسند ولا بغيره ولا بالكتب ولا بالألسنة أن الشيخ مولانا عبد القادر الجيلالي والشيخ أبا الحسن الشادلي والشيخ مولاي الطيب دفين وزان والشيخ الأزهري محمد بن عبد الرحمن وزملاءهم رضي ا عنهم أجمعين استسقوا ربهم بهذه الكيفية الشنيعة المخالفة للسنة أو أمروا بها هم أساطين أنصار السنة ولو خالفوها مقدار أنمله لمحى ا أسماءهم من عداد الأولياء الأتقياء الصالحين[3].

وسنتان بعد هذا المقال، أي عام 1922 تعرف الجزائر مرة أخرى جفافا ونقصا في تساقط الأمطار وتوخيا للأضرار الناجمة عن هذه الظروف المناخية، خاصة المجاعة يوجه عمر بن قدور الجزائري نداء بعنوان( بلاغ هام: إلى العلماء والأئمة وأصحاب الزوايا ورؤساء الطرق في كافة أنحاء القطر الجزائري) وهذا عبر صحيفة " الإقدام " التي اشتغل فيها محررا كما أشرنا إليه آنفا، وممضيا هذا البلاغ الهام بإمضائه المعروف الأصلع[4]. أنه في مقدمة مقاله هذا إلى العلاقة الموجودة مابين الحالة الدينية والأخلاقية وبين الظروف الطبيعة هذه لقد عبر

---

(1) - المصدر السابق نفسه.

(2) - المصدر السابق نفسه.

(3) - جريدة " الوزير" التونسية نفس العدد السابق.

(4) - جريدة " الإقدام" الجزائرية بتاريخ : 14 أبريل 1922.

عن حيرة القلوب ودهشة الأفكار إزاء هذه الوضعية التي عرفتها الجزائر في عام سابق لها من جوع ونقص في الأرزاق والثمرات.واعتبر الأمر وبالا من ا لانتشار الفوضى الدينية الجاهلية من خطايا وعصيان لأوامر ا سبحانه، واتباع للشهوات مع عدم التمسك بعروة الهداية.

فنلاحظ كذلك كيف أن نداءه موجه لكل الذين يمثلون سلطة معنوية دينية في المجتمع الجزائري، غير مستثن أحدا منهم. ويؤكد مرة أخرى على ضرورة تلافي السلوكات البدعية على شاكلة زيارة الأولياء والصالحين، وإقامة ولائم (الزردة) المستقبحة فيقول لما كان الخطب عظيما والجدب عاما والسماء أمسكت ماءها والأرض كادت أن تمنع خيرها فمالنا من ملجأ إلا إلى ا فلنرجع إليه بالإنابة والتوبة والاستكانة والخضوع والخشوع فإنا قد ملأنا الأرض ذنوبا والجو فسادا وخطايا وليستعمل أئمتنا وعلماؤنا والمرابطون أرباب الزوايا منا ما في وسعهم لتنبيه العامة إلى الإنابة والرجوع إلى خالق البرايا ورازقهم وأن يكفوا عن الأفعال الشائعة في مثل هذه الشدائد من زيارة الأولياء والصالحين بتلك العادات المستهجنة الممنوعة شرعا وجعل الأطعمة (الزردة) بتلك المواكب المستقبحة دينا وعقلا ...[1].

ثم في الأخير يدعو هؤلاء جميعا، القائمين على أمور الدين ونصوصه في الجزائر بالقيام بالعمل الواجب في مثل هذه الأحوال من دعاء وأداء صلاة الاستسقاء حسبما وردت بها السنة المحمدية .

---

[1] - بجريدة " الإقدام " الجزائرية، نفس العدد السابق.

## المبحث الثاني: التفسير التاريخي والمعاصر لانحراف روح الاعتقاد

لا يكتفي المفكر عمر بن قدور بعرض سمات الفوضى الدينية المتصلة بانتشار البدع المختلفة الأشكال، والتي تعكس بالنسبة إليه انحراف روح الاعتقاد الصحيح لدى المسلمين عموما ولدى الجزائريين على الخصوص. إنما لمسنا لديه مقاربة تحليلية تاريخية ومعاصرة لفهم هذا الانحراف العقائدي عبر مقالات صحافية مختلفة. وبالتالي فإن منهجنا التحليلي الكيفي جعلنا نقف على مقاربته الفكرية هذه التي تندرج في سياق مشروع إصلاحي وعقلاني. خاصة وأنه كان يحمل قناعة فكرية وواقعية بأن انتشار الظلمات الإعتقادية في مجال الفوضى الدينية والأخلاقية إنما عم الأمم كلها بما فيها الأمة العربية وإنما بلوغ العرب المكانة الحضارية كان مرده إلى روح الاعتقاد التي جاء بها القرآن والتي جلبت معها حرية الضمير التي تجذب إليها"... خلال الفضيلة من كل ناحية وتستأصل جراثيم الرذيلة فلا تذريها أثرا لا في الأقوال ولا في الأعمال "[1]. ذلك لأن المرء في موقف خشية مالك الدنيا والآخرة، فلا مكان للتقاليد الوهمية ولا سلطان للطبيعة عليه، فهو يتقي إلها واحدا. إن روح الإعتقاد النقية التي تستدعي حرية الضمير تمنعه من التفريط في كل صلاحياته الروحية الحيوية فتتقدم لتجسيد مآربه وحاجاته في هذا المجتمع وفي ما بعده. ولكي يوضح أكثر أهمية البعد العقائدي في بناء حرية ضمير الإنسان الذي تدفعه لتحقيق مصلحته الكونية والأخروية يقول: "... ولا تحسين حرية الضمير من نوع المروق من دائرة التدين بل أعني حرية النفس في ارتياد ما يعن لها من الضروريات والكماليات والفضائل والمصالح والمناسبات دون أن تثير عليها الإعتقادات ما يمنعها عن الركض في هذا الميدان وما وجدنا مصلحة للبشر يمنعها في الاعتقاد الإسلامي على صورة تنكمش عندها عزائم النفوس وتخور هممها، بل قد عهدناه اعتقادا يوضح المصلحة ويجيد الحث على إقتنائها، ويبين السبل التي توصل المرء إليها..."[2] .

يعتقد أن من أسباب ظهور التنازع الإعتقادي، مع مظاهر التنطع في الدين والابتداع فيه، هو تضييعهم لفهم القرآن فهما صحيحا مع تدهور اللسان العربي. هذا الأمر كان من دواعي انحطاط نهضتهم الحضارية، وكان اختلاطهم مع كثير من الشعوب، وعدم وجود التعليم العمومي الإجباري سببا في إهمال لغتهم، ويرى بأن الحـــد الفاصل ما بين تمسك العرب

---

[1] - روح الاعتقاد وحرية الضمير: الفاروق: العدد : 64 بتاريخ : 08 يونيو 1914.

[2] - المصدر نفسه بنفس المقال.

بروح الاعتقاد وابتعادهم عنه مرتبط بالمرحلة الأولى من مراحل سلطة الدولة الأموية فهذه المرحلة كانت ميدان التنازع بين العقيدة العربية الروحية البسيطة في الإسلام وبين العقيدة المركبة المعقدة التي أدخلها الأجانب من العجـم بعد أن اعتنقوا الإسلام طوعا وكرها...) [1].

وأدت هذه الوضعية إلى ظهور إنشقاق الأرحام وبعث استعلاء الجاهلية والركون إلى الأهواء وإلى بروز ملامح التنازع العقائدي ويذكرها مفكرنا المصلح (... فمن المظاهر السيئة التي ظهرت عن ذلك التنازع: التنطع في الدين والإبتداع فيه، حيث ظهرت في المسلمين حب الرهبانية وفشت في أخلاقهم صور الخشوع والتشدد في شعائر الدين مما لم يكن موجودا في أيام رسول ا ( صلى ا عليه وسلم) [2].

يرى المفكر عمر بن قدور، أنه من الناحية التاريخية كان خليفة رسول ا الثاني عمر بن الخطاب (رضي ا عنه) قد أخذ على عاتقه مسؤولية الإتمام بمظاهر هذا التنازع والصراع العقائدي، في أولى مراحل نهضة العرب المسلمين، وذلك بأمر جمع القرآن في أيام الخليفة أبي بكر الصديق (رضي ا عنه) ومقاومة السلوكات المتشددة في التدين مع محاربة المزارات المراد تقديسها والتبرك بها، ويذكر قولته " هكذا أهلك أهل الكتاب قبلكم اتخذوا أثار أنبيائهم بيعا ولا يغفل مفكرنا المصلح شخصية كعب الأحبار اليهودي ودورها في بث العديد من الخرافات الدينية التي التقطها الناس عن، مما جعل الكثير من الكتب الدينية تمتلئ بها وأصبحت رائجة بين المسلمين في عصرنا هذا. لهذا فإذا أراد العرب تحقيق نهضتهم المعاصرة فعليهم تلافي الخلل العقائدي وذلك بالرجوع إلى روح الاعتقاد التي أنهضتهم أول مرة والتي لازال أصلها بين أيديهم في كتاب ا وسنة رسوله [3].

وفي موضع آخر، يواصل مفكرنا المصلح التذكير بمقاومة الخليفة عمر (رضى ا عنه) مدة خلافته مقاومة الصراع الإعتقادي لكن يرى بأنها لم تكن مؤثرة كثيرا لأتساع الإمبراطورية العربية الإسلامية وكذلك لازدياد انقسام الأمة الإسلامية إلى طبقات متعددة، بعد أن كانت طبقة واحدة متصلبة في الدين هي طبقة الصحابة والمقاومة بالوعظ لم تجد كثيرا لأن الغالبية من المسلمين كانت أجنبية عن روح الإعتقاد إضافة إلى إهمال الحديث النبوي خوفا من الانشغال

---

[1] - خطر الأحداث والبدع على القومية والدين : تنازع روح الإعتقاد هو التنطع في الدين، أنظر جريدة : الفاروق – بتاريخ : 15 يونيو 1914.

[2] - أنظر المصدر نفسه .

[3] - أنظر المصدر نفسه .

به عن القرآن ثم وقوع الإختلاف في الأحاديث [1]. ويستند عمر بن قدور في هذا المقال إلى كتاب جامع بيان العلم وفضله للحافظ ابن عبد البر القرطبي، من خلال: باب ذكر من ذم الإكثار من الحديث دون التفهم له والتفقه في ما نصه.

مع ذلك فهو يرى أن تاريخ المسلمين في تلك الفترة أظهر قومية إسلامية متمسكة بالدين- لا اختلاف بين شعوبها إلا بالتقوى وكانت المساواة هي السائدة آنذاك وكان هذا نابعا من الإخلاص في الدين لكن خطر البدع والعادات المستقبحة حلت في أقل من ربع قرن مع انحلال عقيدتها واضمحلال قوميتها ومرة أخرى يكيف التحليل التاريخي العقائدي أو يقوم بإسقاط تلك المرحلة مع ما كان يعيشه العالم الإسلامي بما فيها الجزائر في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فهو يكتب في سلسلة مقالاته العقائدية هذه قائلا (تبيانا لروح الاعتقاد وأنها الأصل الوحيد لثبات القومية الإسلامية وحفظ كيانها فإذا ذهب الدين في إثرها وانطوى بساط عز القومية وانتسخ حكم القرآن واغتالت الناس أحكام الآراء والأهواء..."[2].

أما التفسير التاريخي ذو الطابع السياسي فيندرج ضمن إحدى القضايا الحساسة في الفكر الإسلامي، المرتبطة بمسألة الخلافة.

فإذا كان انقطاع الأمة العربية المسلمة عن سبيل فهم الدين، بسبب تكاثر العناصر الدخيلة من الأجناس، زيادة على ارتباط المصالح بالنظام السياسي مع تحول السلف الصالح إلى السكون لقلة عددهم، فهذه العوامل ساهمت في ضعف تيار مقاومة ضد تيار البدع والاعتقادات الدخيلة في الإسلام. فبذلك، كما يرى المفكر عمر بن قدور الجزائري، قد انقضى دور من أدوار النهضة الإسلامية الأولى. وفي هذا المقال التحليلي الفكري، الذي عنونه بـ: " بعد فشل المقاومة " في سياق حملته الواسعة تحت إسم خطر الأحداث والبدع على القومية والدين، يشير إلى محاولات تم إلتماسها لحسم الخلافات التي بدأت تنخر الأمة الإسلامية ومنها محاولات تم استعمال فيها السلاح، كما فعل علي ابن أبي طالب (كرم ا وجهه) أما حرية المسلمين والسكينة التي أودعها في قلوبهم رسول ا (صلى ا عليه وسلم) فقد استحوذ عليها الثلاشي، بعدما زاد بعدها عن روح عقيدتهم بسبب مسألة الخلافة. كتب مفكرنا قائلا: وقد زاد الشعوب الإسلامية طيشا لبعدها عن روح عقيدتها إتقاد سعير الغوغاء في أطراف البلاد لأجل مسألة الخلافة التي كانت شورى بين المسلمين، وما تعصب فيها إلا من لم يفهم مغزى تشريع القرآن

[1] - أنظر : مقاومة التنازع في الاعتقاد – صحيفة ( الفاروق) بتاريخ : 23 يونيو 1914.

[2] - أنظر: في أقل من ربع قرن : بالفاروق بتاريخ : 06 يوليو 1914.

وجهل قيمة هذا التشريع وسماحته الداعيتين إلى حرية الضمير وحرية القول مع عدم الحياد عن دائرة الإئتلاف والتضامن...[1].

اعتبر رفع مصاحف القرآن على أسنة الرماح يوم موقعة " صفين" المرة الأولى التي تم التعبير فيها عن التنطع وما ذلك بالاستشفاع [2]. حسب رأيه بالجماد بصورة رسمية[3].

اندهش حيال هذا الموقف التاريخي خاصة وأن هؤلاء القوم كانوا قريبي عهد بالوحي وأن ما في صدورهم من آيات ذلك الكتاب المحكمات ومعانيها العالية قد حوت ما يجمع بينهم وبين مصافيهم ويؤلف بين قلوبهم ويلم شعث أمة اختلفت على أئمتها (كذا) وانتفضت على مرشديها لما ابتعدت عن روح الاعتقاد الصحيح...[4].

ورأى عمر بن قدور أنه لولا الانحراف العقائدي الذي أدى إلى هذه الفوضى لعلموا أن ما رفعوا جماد لا يتأتى له (سر إلا إذا ارتبطت وترسخت معاينة على صفحات الضمائر وانعكست على الأقوال والأفعال معا. ولكنه ذهب إلى رأي في هذه القضية التي مست روح الاعتقاد لدى المسلمين حينما أشار إلى ضلوع اليهود بدسائسهم فيها حيث كتب في نفس المقال: ... وما أظن نزوع المسلمين في هذه الفوضى إلى الجماد والتأثير بصورته الصامتة دون التمسك بأسراره الناطقة من دسائس اليهود وتدابير الناقمين على ظهور الإسلام، فراق لهم انقسام الأمة العربية ونزوعها إلى التخاصم والتقاتل على مقام أصبح عرشا وتاجا وسيفا بعدما كان محرابا وسجادة ودرة وأصبح قوة وعصبية وبطشا بعد أن كان شورى وتسامحا عاما وانتقاما وعفوا ...[5].

وهكذا يعتبر مبدأ النزاع حول مسألة الخلافة، مرحلة تمكن فيها سوء الإعتقاد وإختلاف المسلمين في كتابهم فلم يستطع* محاربو البدع المقاومة من واقع التحليل لكتاباته، إتضح لنا أيضا أنه استند في تفشي الانحراف العقائدي إلى قضية الخوف والرجاء عند البشر. مبدئيا يعتبر معالجة هذه القضية عموما صعبة وتشكل مأزقا حقيقيا بالنسبة لمن يتوخى تحليليها خاصة وأن

---

[1] - " بعد فشل المقاومة " مقال: بالفاروق – بتاريخ 20 يوليو 1914 ( العدد70).

[2]- موقعة " صفين": هي معركة حدثت سنة 37 للهجرة (657 م) ما بين جيش الخليفة علي بن أبي طالب -رضي ا عنه - وجيش معاوية ابن أبي صفيان. موقع موسوعة المعرفة: http ://www.marefa.org/index.php/

[3] - المصدر نفسه : ( الفاروق ) : العدد 70.

[4] - المصدر نفسه.

[5] - أنظر المصدر ا نفسه.

الرأي العام الإسلامي لم تتوفر عنده أدوات النقد الصحيحة إلا أن جوهر الدين يحفزه إلى عدم مجاراة تيار الآراء الدينية التي تمثل نكبة عليه ولهذا فهو يلح في توخي مسلكا ونهجا وسطيا معتدلا في سياق واجب أداء الأمانة ومصـداقا لقوله تعالى في التـذكير فإن الذكـرى تـنفع المؤمنين.

وفي رأيه تبقى المسألة هذه عنده "قضية عمرانية هامة وعويصة أصلية لكافة الأحداث والبدع المرموقة بعين الاستحسان من كافة البشر كل بما لديه منها في دينه وملته... مسألة أساسية لجميع ما أنتج وما ينتج الجهل في ربوع عامة المسلمين[1]".

لقد ربط نظرته التحليلية لمسألة الخوف والرجاء عند البشر، بمرجعية تاريخية للبشر، اعتمادا على ما ورد في القرآن، وما سجل عليهم من تكذيبهم وجحودهم لما كاد يأتي به الأنبياء والرسل. وفي رأيه أن البشر جبلوا على التمسك بالوهم والاكتفاء به كلما جردتهم سذاجتهم من ملامح المعرفة. ثم هم يخضعون للخيال كلما ارتقوا بالعلم إلى مكانة التمدين والتحضر. ثم دفعتهم آفة الغرور والتوهم والتخيل إلى تجسيد وتصوير "ما يتعلق بالإعتقادات الروحية ولا سيما الغيبية منها، أي ما له مساس بتوحيد ا تنزيهه عن جميع النقائص وعن الشبيه والمثيل وما له مساس أيضا بيوم الرجوع إلى ا وحضور المناقشة والحساب في الحشر الأكبر ..."[2].

برؤيته العقلانية يصل عمر بن قدور إلى أنه انطلاقا من حيثية تصوير هذه المعتقدات في أذهان البشر، كان الخوف والرجاء يعملان سويا على الميل أكثر فأكثر إلى المدارك والعقول، وأكثر من الميل إلى الاعتقاد الروحي في الدين – ويقول ( ولأجل أن يمهد الإنسان لنفسه سبل الراحة إلى اللذائذ، اختار تخفيف هول ما " يتوهم" أو "يتخيل" فأتخذ وسائط صورية لتوضيح قضايا خوفه ورجائه. فكانت سنن ا تأتي عند قيام الإنسان بهذا التوضيح ناصبا للأوثان والأصنام" [3].

هكذا يصل إلى القول أنه عندما تتمكن المعتقدات الدينية في قلوب البشر بصورة مختلفة عن تلك التي تقدمها روح التدين الصحيحة تستولي عليهم جاذبية الخوف والرجاء التي تدفعهم إلى التمسك بوسائط اعتقادية صورية ومن ناحية أخرى يقرر مفكرنا المصلح بأن نصب الإنسان

---

[1] - أنظر : حول مسئلة " الشفاعة " خطر الأحداث والبدع على القومية والدين بجريدة (الفاروق) بتاريخ 04 ماي 1914.

[2] - المصدر نفسه .

[3] - المصدر السابق نفسه.

للأوثان وابتداعه لها إنما يعكس اعتقاده " الوهمي" أو " التخيلي" في أنها تشفع له عند الرب الأكبر وتقربه من رحمته بما يقربه لها من القربان وما يضحي لها من الضحايا[1].

تكشف المعلومات التاريخية والدينية التي يستند لها في كتاباته هذه عن سعة ثقافته وأهمية توظيفه لها في مقاربته الفكرية بالفعل فهو يذكر بما جاء به النبي موسى عليه السلام لشعب إسرائيل جاءهم بالتوحيد لتخليصهم من عبودية المصريين فيذكر القصة كاملة بما فيها الخوارق التي شاهدوها لكنهم مع ذلك أخلدوا إلى " الوهم "لما عبدوا العجل واتخذوه وسيطا يشفع لهم ويخفف عنهم ويلات ما يتوهمون ويتطرق كذلك إلى اعتقادات المسيحيين الشنيعة والمزعومة في عيسى عليه السلام وكيف انحرفوا لما قرروا أنه فادي البشر والواسطة في غفران خطيئة آدم التي تحمل بنوه وزرها من بعده إلى الأبد[2]. ولقد امتاز المسيحيون بتشخيص " فاديهم" كتب قائلا: قد حسب المسيحيون – علاوة عن تغاليهم ذلك الاعتقاد في عيسى عليه السلام – أن حواري المسيح ورهبان الديانة النصرانية مقربون عند ا فنزعوا إلى أن يجعلوهم أربابا ووسائط لغفران ما يقترفون من السيئات وغلب عليهم تخيل الرجاء إلى حـ ـد أنهم نصبوا صورهم وتماثيلهم يخضعون لها باسم الدين ويطلبونها كطلبهم لربهم ...)[3].

أورد عمر بن قدور إشارة تحليلية مهمة لتدعيم مقاربته التفسيرية لظاهرة نشوء البدع وانتشارها لدى مختلف الأمم وهذه الإشارة لمسناها في تأكيده على مصدر الوثنية، التي اعتبرها منشأ تقاليد وعادات بدعية ، والتي تخلف نواميس التوجيه على إثر تضعضعها وانسلاخ مبادئ المعتقدات الروحية الصحيحة متأت من أن (الإنسان يخلد إلى التخيل أو التوهم بعد أن يحس بقوة معنوية مسيطرة عليه يخشى بطشها فيتخذ الوسائط لتبقى ذلك البطش...) وهذا هو حسب رأيه مصدر الوثنية[4]. ويدعم مرة أخرى تحليله من تاريخ التدين لدى مختلف الأمم. فهو يرى بأن اليونانيين والرومانيين تفرغوا إلى تشكيل " الميثولوجية [5]" وحشروا فيها ءالهة متعددة حسب توهمهم وتخيلهم، وكانوا يسيغون لأنفسهم من وراء ذلك إيجاد مناسبات التمتع بارتكاب المنكرات وإتباع الشهوات في سلوكات بعضها يغلب عليها صور الفجور والتاريخ يشهد بذلك وداموا على سيرتهم تلك طول الزمن الذي كانوا يشاهدون فيه التماثيل للآلهة قائمة يترنمون

---

[1] - أنظر: الفاروق – العدد : 60 بتاريخ 11 مايو 1914.

[2] - المصدر نفسه.

[3] - بصحيفة (الفاروق) – بتاريخ 18 مايو 1914.

[4] - المصدر نفسه.

[5] - الميثولوجية: (Mythologie .)

أمامهم بأشعارهم التعبدية ويقيمون الأفراح لدى هياكلها [1]. ويرى أن الأمم الأخرى من العرب والفرس والمصريين والهنود والصينيين لم يخرجوا عن سياق محيطي الوثنية المحظة.

---

[1] - المصدر : الفاروق بتاريخ 18 مايو 1914.

## المبحث الثالث: تجديد البناء العقائدي الإسلامي

وردت هذه الفكرة الرئيسية المتصلة بما أسميناه، بتجديد البناء العقائدي، بصفة متكررة ملفتة في فكرة الإصلاحي حاولنا استخراج واستنباط القيم الأساسية التي تمثل المرتكزات التجديدية ليس فقط للغاية العقائدية المحضة، في علاقة الإنسان بربه، وإنما لتشمل علاقته بأخيه الإنسان، علاقته بالكون، وكذلك لتمتد إلى علاقة إستعباد أمة أو دولة لدولة أخرى، بهذا يكون عمر بن قدور الجزائري أحدا أهم المفكرين في العالم العربي الإسلامي، الذين أرادوا إحداث التغيير وإرساء معالم نهضة حقيقية، للخروج من بيئة التأثر والانحطاط الذي (أصاب الجزائر وبقية العالم العربي والإسلامي. وهو الذي رأى أن قومية المسلمين كانت تضمحل وتتلاشى بقدر ما كانوا يوالون الخطوات في الابتعاد عن روح القرآن[1]). إذا كانت الدراسة قد كشفت أن أفكاره المتعددة في معالجة الانحراف العقائدي بالتركيز على آفة البدع والسلوكات الإبتداعية التي اجتهد في رصدها ونقدها، فإن التحليل قد عمل على إظهار جهده التفسيري الذي قام به باستحضار وقائع تاريخية ونصوص قرآنية، لإحداث الوعي لدى المخاطبيين وتدعيما لقراءته فإننا توصلنا من ناحية أخرى إلى عكس أفكاره الإصلاحية في ميدان العقيدة الدينية النابعة من روحانية الإسلام والتي تتمثل في القيم العقائدية التالية:

### - التوحيد كقيمة جوهرية عقائدية :

أوضح بداية أن الإسلام كدين لم تتعدد مسائله أو تلتبس عقائده، بل بفضل ا كما قال جاء إلى البشرية بمسائل بسيطة بنفسها أقل الناس إدراكا وبعقائد واضحة لا تستعصي على ذهن أحـ ـد وفضلا عن ذلك أشار إلى قانونه الأسمى المنشور والواضح ألا وهو الذكاء الإنساني المتصل بالعقل [2]. ومع ذلك يبقى لنعمة العقل حدود لا يتعداها في وجوده فهمه للأسرار الكونية المعززة لصفاء العقيدة الدينية. وهنا تبرز قيمة فضيلة أخرى وهي قيمة الإيمان لأنها بالنسبة إليه كامنة في (أعماق قلبه... كركن عظيم يتحقق عظمة الملكوت، ويعتقد ضعفه أمام القوة المسيطرة على مجموع هذا الكون وعوالمه والمحركة له منذ الأزل إلى الأبد، فيتعود

---

(1) - أنظر " مأمورية الإسلام في تخليص البشر" صحيفة ( الفاروق) بتاريخ 25 مايو 1914.

(2) - أنظر جريدة " الفاروق ': مقالة " نحن والأكوان : آية من آيات قصور الإنسان " بتاريخ : 01 أغسطس 1913.

بعد ذلك الخضوع لوجهه واحدة لا تلهيه عنها الملهيات ولا تشغله المشغلات[1]). وبطبيعة الحال فإن المفكر عمر بن قدور يشير هنا إلى وجهة ا الأحد خالق الأكوان والإنسان ويقرر بأن الإسلام إنما كان مبدؤه هو الدعوة إلى التوحيد الخالص الذي يدعو الإنسان إلى الابتهال لإله واحد الذي يذهب عنه السوء ويؤتيه الخيرات بلا واسطة ولا تشفيع والإخلاص في التوحيد في الروح العقائدية هو المنقذ للبشر من ذل الاستعباد بأشكاله، والباعث في قلوبهم حب الاستقلال والإرادة والرأي وحرية الضمير والفكر. كتب في مقال بعنوان: مأمورية الإسلام في تخليص البشر " كان المبدأ الإسلامي الوحيد صرف العقول البشرية، عن كل تلك المخترعات الوهمية وحشرها في معبد الإبتهال لإله واحد يصرف السوء عمن يشاء ويؤتي الخير لمن يشاء بلا واسطة ولا شفيع وقد امتلأ كتاب الإسلام المقدس الذي هو كلام ا المنزل على الرسول (صلى ا عليه وسلم) بروح هذا المبدأ الشريف في كل آية من آياته البينات المحكمات حيث حث معتنقيه على الطاعة وحده وعدم الاستسلام لغيره وعلى الإخلاص في التوحيد لمبدع الكون ومخترع العوالم وبث هذه الروح بين البشر لينقذهم من ذل العبودية لتصوراتهم الوهمية وتخيلاتهم الواهية وبعث في قلوبهم حب الإستقلال الضمير ونقاوة المدارك من كل ما يشي حريتها، ويضر بمقوماتها [2]".

ومن خلال تحليل كتاباته، اتضح لنا أن مسألة " الشفاعة" كانت من العناصر القيمية التي حاول تبيان مكانتها في قضية التوحيد حيث يستند إلى العديد من النصوص القرآنية الواضحة الدلالة في التمييز بين ما يبذله البشر من حيث الوسائط والشفعاء لدى رجائهم ودعائهم لربهم وبين ما يرتضيه الإسلام في مهمته حتى تخليص أذهانهم من تلك المعتقدات التي لا تتناغم والمقصد الديني وفي تحقيق سعادتهم ورحمتهم من الآيات التي يذكرها " وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون" [3]. فروح التوحيد هو روح الاعتقاد الصحيح الذي يبتغيه الإسلام لمعتنقيه حتى تتحقق لهم العظمة والنزوع إلى حرية الضمير التي تبعث فيه القوة الذهنية والعملية في الحياة ورأى أن الكثير من الناس والكتاب الصحفيين في زمنه قد غفل عن هذا المبدأ فكتب في مقال "روح الاعتقاد وحرية الضمير" ... إذا كانت العظمة التي كللت أدمغة بعض الأفراد الذين نبغوا في التاريخ منوطة

---

[1] - المصدر: صحيفة ( الفاروق) بتاريخ : 22 أغسطس 1913.

[2] - الفاروق : العدد : 62 بتاريخ : 25 مايو 1914.

[3] - الآية: 168 من سورة البقرة.

بالفضيلة التي سكتت أفئدتهم فإن الإسلام قضى أن يكون كل مسلم عظيما قضى ذلك بروح الاعتقاد الذي يسجله في وجدان معتنقيه، وحرية الضمير التي يؤتيها للمستمسك بمتين حبله... لا شك أن الناس قد ذهلوا عن هذا المبدأ الشريف وما حسبوه إلا صورة ما شرعه أرباب المناقشات الجدلية وما وعته الأوراق والصحف إلى الآراء ومذاهبها، وأنهم لو أعطوا عقولا كاملة لأعاروا الحقائق إلتفاتا حرا وأسلموا أن المبدأ الشريف هو ما نص عليه القرآن المقدس من توحيد ا ومراعاة أحكامه واتقاء غضبه وجبروته..."[1].

انطلاقا من هنا فإن القيم الأخلاقية، الذهنية والعملية، تتجسد لدى المسلم من خلال الانجذاب نحو الفضيلة ومعانيها، التي تعمل على استئصال نوازع الرذيلة فهو (يعبد ا فلا يجعل في عبادته وسيطا يرجوه أن يبلغه مآربه لأنه يعلم أن ا أقرب إليه من حبل الوريد فلا يقدس حجارة و لا يقبل خشبة، ولا يتضرع أمام قبر ولا يركع بين يدي شيخ من رهبان البشر، ولا حرج عليه إذن وقد دعاه ربه إلى عبادته وحده في قرآنه وأقنعه بأنه قريـب منه يجب دعـاءه إذا دعـاه...)[2].

في عموده الصحفي، بجريدته (الفاروق)، حاول في سلسلة مقالات قصيرة ومركزة تحت عنوان: " تربية الرجال قبل تربية الأطفال) شرع في نشرها ابتداء من شهر جويلية 1913، أن يوجه وأن يخاطب فئة العوام كما سماها، أي لم يستهدف القراء المثقفين أو نخبة علماء الدين فهو في أسلوبه الإصلاحي الإعلامي، لمسنا هذا التمييز والقصدية في الخطاب فمثلا قد تعثر على مثل هذه العناوين الصحافية معشر المفكرين المتنوّرين والعلماء العاملين والأغنياء الموسرين)[3]. إذن في ذلك العمود المستهدف لعامة الناس يحاول أن يبسط المسائل الإعتقادية التوحيدية فيكتب بأسلوب الخطا(فإذا اهتز قلبك فلا تتركه يهتز عن عقيدة فاسدة بل اجعله يهتز عن توحيد خالص تتيقن به أن ا واحد خلق العوالم وما فيها وقدر أرزاق وأعمار المخلوقات فيها من جماد وحيوان (فإذا توحدت فلا تشرك بتوحيدك اعتقادا في مخلوق جامد أو متحرك بأن له قدرة على نفعك أو إيصال الضر إليك فا هو الضار النافع)[4]، ويواصل في نفس السياق، منبها لخطورة الإشراك والتوسل بالاستناد إلى صفات ا سبحانه. وبالتمسك بشهادة التوحيد

---

[1] - أنظر صحيفة ( الفاروق ) بتاريخ : 01 يونيو 1914.

[2] - المصدر: صحيفة ( الفاروق ) بتاريخ 08 يونيو 1914.

[3] - الفاروق: العدد: 17- 20 يونيو 1913.

[4] - المصدر نفسه: العدد: 1 بتاريخ 04 يونيو 1913.

الحقة تحقيقا للمنافع الدنيوية والأخروية وهذا هو التصور الإسلامي العقائدي، الشامل للجوانب المادية والروحية معا فيكتب، خاصا خطابه هنا كما سلف العوام وليس الخواص (... إن الإشراك بهتان عظيم وباله جسيم فوحد ا وأعلم أنه مغاير لجميع الموجودات الحادثة كما وحدته قريش يوم جاءها محمد (صلى ا عليه وسلم) برسالته إليها ثم إلى جميع الناس فكان عليه الصلاة والسلام يقول للرجل منها: " قل لا إله إلا ا " فيقول فيصبح مسلما موحدا، فأرتبط بهذه الكلمة الشريفة حسا ومعنى ثم أصمت...)[1].

لم يكن يريد بهذا الصمت، الركون إلى التوكل والوقوف في موقف الجمود العملي بجميع أشكاله، سواء كان جمودا فكريا وذهنيا أو جمودا عمليا في معترك الحياة. إن الفكرة العقائدية لديه إنما تسعى لتحقيق الفعالية الاجتماعية والحضارية فقناعته الفكرية العقائدية متأتية من بيئة المأساة، المتصفة دوما حسبه بالفوضى الدينية والأخلاقية، السائدة في الجزائر وفي غيرها من البلدان الإسلامية. لم يكن التلاشي الراهن والتقهقر والسقوط، ناتج عن الانقسام والافتراق والتنافر إنما هو متحصل أيضا بالإعراض عن الدين وتفشي الفساد، بإتباع التقاليد الوهمية، والعقائد الوهمية وتمزيق الشريعة، وإهمال العمل بها[2]، لقد وردت العديد من العبارات التي تعكس تفكيره وتحسره، على تخلف الجزائر والأمة الإسلامية، واعتبر العامل الديني عنصرا أساسيا في هذه المأساة ، لقد كتب في هذا مثلا : (نظرت نظرة الباحث عن علتها (أي علة تخلف الأمة) فلم أجد غير فساد الدين أصل ذلك ولا غير تلاهي رجله العامل على ذلك. وأن كل داء تسرب إليها سواء من الوجهة السياسية أو المدينة أو الدينـية لم يـأت إلا مـن جـهة فساد الدين ...)[3].

وإننا نجده في كتاباته، ينطلق من منطلق مفكر مصلح جد متواصل مع مجتمعه الجزائري، تعكس إخلاصا واضحا وإيمانا عقائديا، يستند إلى ما سماه دوما بالعناية الإلهية وخدمة الحق. لهذا حينما يتابع الصحافة الجزائرية والعربية (التونسية على الخصوص) التي تتحدث على وجود نهضة بالجزائر، فهو يرفض هذا التوجه لأن الواقع يقول غير ذلك فالتفكير في مشكلاته يجعله يستخلص وجود صور التأخر والجمود والمذلة كتب في هذا موضحا وثائرا على هذه التوجهات : (نعم حبذا تلك الكلمات المزركشة عن النهضة الجزائرية) المزعومة في

---

(1) - صحيفة: ( الفاروق) بتاريخ : 11 يوليو 1913 ( العدد: 20).

(2) - صحيفة: " الأخبار" – بتاريخ 23 أكتوبر 1910.

(3) - جريدة : " الأخبار " بتاريخ : 05 فيفري 1911.

الصحف، وحبذا تلك الأقوال المرقومة بخيوط ذهبية عن الإرتقاء (الخيالي) الحاصل في وطننا العزيز (الذليل في الحقيقة) لو كانت تترجم عن حقيقة ناصعة وأمور واقعة. لقد تغالي القوم وأعني إخواني الصحافيين في وصف تقدمنا ونهضتنا منذ زمان طويل وما أدراهم لو رمقونا بعيون مرسلة وأبصار مجردة من التحيز والميل فأبصروا الأحوال التي أفاضوا في وصفها... فهناك يتحققوا أنهم ما سجلوا تقدما بل سجلوا تأخرا وما عظموا نهضة بل عظموا خمولا...)[1].

لهذا أظهر التحليل أن هناك تركيزا في الجانب العقائدي على ضرورة استبعاد اليأس والتمسك بقيمة الأمل من أجل إحداث التغيير والوصول إلى منافذ النهضة الحقيقية وهو يربط هذا من الناحية الدينية بمبدأ التوكل، الذي ينبغي على الإنسان الاتصاف به، سواء على المستوى الإعتقادي الفردي، أو على مستوى الأداء الإصلاحي والفعالية الاجتماعية والحضارية. إن هذه القيمة العقيدية نابعة حسب رأيه من المراقبة الإلهية الشديدة التي ينبغي على المؤمن العامل التيقن من حضورها الدائم والمسلطة عليه، بحيث لا يبدي رأيا أو حكما إلا وفق تلك المراقبة، ولا يشرع في العمل إلا وفي اعتقاده أن عنصر القوة الذي يحسن له العمل ويعينه عليه هو فرع من فروع المراقبة، التي تدفعه إلى الحركة العملية والفعالية، الاجتماعية حتى لا يركن إلى الخمول والسكون[2]. ويعتبر عمر بن قدور القوة المعينة هي العناية الإلهية وهي كما قال: الهمة للمرء إذا ارتفعت ... وأصلها الثقة بالنفس، الخاضعة للمراقبة الإلهية في تتبع صلاحياتها وهنا عين التوكل التي ذهب الناس في تأويلها كل مذهب وأغمضوها لما استندوا إلى الاعتراف للآراء بالأرجحية في السنن التي هي فوق تنازع الآراء...)[3].

وجوهر روح الاعتقاد في قيمة التوكل، أشار إليها القرآن الكريم في صورة حكمة واضحة، جاء بها لقوم جلهم لا يقرأ ولا يكتب، مع ذلك كانوا يفهمونه كما يفهمون بعضهم بعض في تواصلهم. فلقد( ورد في فاتحة ذلك الكتاب قصة اعتقادية وجليلة، جمعت في أربع كلمات خلاصة روح الاعتقاد التي وضعتها نصب عين القارئ في هذه العجالة وهي قوله تعالي: " إياك نعبد وإياك نستعين" ءاية ضمت ناموس صلاحية البشر الذي يمنعهم أن ينخدعوا لتصوراتهم الخارجية عن نطاق صلاحيتهم...)[4].

---

[1] - في مقاله بعنوان : " حبذا الأحلام لو صحت" الأخبار 19 فبراير 1911.

[2] - " خطر الأحداث والبدع على القومية والدين" صحيفة الفاروق 01 يونيو 1914.

[3] - المصدر نفسه.

[4] - المصدر نفسه.

أوضح مفكرنا أن هذه الآية من سورة الفاتحة بينت، من دون المسارعة في التأويل والتفسير صورة الكمال الذي يرتضيه الرب لخلقه من نفس الكون قصد عبادته والخضوع لمراقبته المحيطة بكل ذرة في هذا الكون، مع استمداد عنايته والاستعانة بها في العمل والفعالية المتولدة بواسطة الثقة بنجاح العمل والسعي، طـبقا لما جـاء في الـقرآن: " ليـس للإنسـان إلا ما سـعى"[1]....

لم يكن المفهوم الذي حلله منحصرا في هذه المكونات الإعتقادية حيث كشف التحليل مكونا آخر، وهو الذكر، الذي أساءت بعض فرق المتصوفة وطرقهما في فهمه وتشويه وظيفته الحقة، المرتبطة فعليا بجميع أحوال الإنسان، الداعية إلى الوقوف على الأوامر والنواهي الإلهية، وفي جميع المشاريع الحيوية، يقول في هذا السياق أيضا (...خليق بنا أنا إذا تلونا قوله جلا جلاله" فاذكروني أذكركم"[2] . أن لا نتباعد في الفهم إلى اعتبار الذكر ذكر اللسان على القواعد التي ابتدعها فرق المتصوفة، بل يجب علينا أن نذكر آيات ا في كل شيء له مساس وعلاقة بكافة أحوالنا في غدوّنا ورواحنا فتذكر أمره ونهيه إذا أقدمنا على الأمور ونتبين حكمه في مشاريعنا الحيوية، ونستمد عنايته في أشغالنا القائمة بإسعاد مجموعنا مع التبصر في أنـنا تحـت مراقبـته الشـديدة...)[3].

إذا فخلاصة روح العقيدة الإسلامية تنحصر في معنى العبادة عبادة ا وحده "إياك نعبد" أما الثانية فهي الإستعانة با وحده طبقا " وإياك نستعين" التي من معانيها قوة العزيمة والإرادة وسمو الهمة لدى الإنسان من هنا فإن ا جل جلاله، يجري السنن الكونية في الحياة، كما يرى عمر بن قدور، وفق مقاصد الإنسان ويستشهد بقوله صلى ا عليه وسلم: " لو توكلتم على ا حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خماسا وتروح بطانا "[4].

وفي سياق استنهاض همة المصلحين والعاملين في حقل النهضة المبتغاة للأمة الجزائرية على الخصوص وللأمة الإسلامية على العموم، استخدم قيمة " التوكل" المرتبطة بالعناية الإلهية ليدعو المرشدين المستمسكين بالأمل والعمل لإحداث التغيير، أن يتأملوا ليس فقط ما هو مبثوث في العقائد الإسلامية، وإنما أيضا سيرة بعض عظماء التاريخ المعاصر في أوروبا. لقناعته كما

---

[1] – من الآية: 39 من سورة النجم.

[2] - من الآية: 152 من سورة البقرة.

[3] - أنظر " الفاروق " العدد : 63 بتاريخ 01 يونيو 1914.

[4] - حديث شريف: رواه الترمذي.

سبق وأن ذكرنا (أن سقوط الأمة الإسلامية تابع لذهاب صورة دينها الحقيقية) [1]. ويسوق كلمة مأثورة عن (نابليون) الأول يوم أسلمته الأمة الفرنسية قائلا: (اليوم رغب عني الإله) فكأنه يشير إلى أعماله السيئة التي كانت سببا في إعراض وتولي الأمة عنه. ويرى عمر بن قدور أن الأوروبيين أشدّ خلق ا تمسكا بالرجاء والثقة با في آن واحد... يستند لتدعيم تصوره ومنهجه الإصلاحي الإسلامي لمقولة الزعيم الألماني (غليوم الثاني) الذي كثيرا ما يستحضر ما ستنهض به همم شعبه وقادته ومنها قوله إذا كان القادر المتعال معنا فهل برهنا على أننا مستحقون لهذه العناية ولبذلنا جميعا كل ما نستطيع من المجهودات اللازمة حتى نكون جديرين بمساعدة الخالق؟ إذ كل واحد منكم يرى الجواب صعبا إذا سل ضميره [2]).

يدعو المصلحين المرشدين في موضع آخر إلى الإخلاص في حركيتهم العملية والإستنهاضية، لأنها هي عين التوكل الحقيقي ...(فالذين يجتهدون في العمل ويستمدون القوة من ا بطاعته ولا يميلون يوما إلى الكسل هم المتوكلون الحقيقيون ..) [3].

**- القدوة النبوية كقيمة عقائدية :**

عكست كتابات عمر بن قدور الجزائري أفكارا أخرى متصلة بعنصر ما أسميناه تجديد البناء العقائدي. الأفكار تمتد لاعتبار ظهور رسول ا محمد بن عبد ا مرفوقا بمعجزة القرآن بداية انفراج أزمة الإنسانية بأسرها، وفي سياق تتمة الرسالات السماوية وختامها إحساسه بحالة الفوضى الدينية والأخلاقية للأمة الجزائر والإسلامية، من فتور للإيمان وضعفه وتباعد عن مقاصد الشريعة مع مذلة حقيقية فرضتها سياسة الاستبداد الاستعمار جعله يفكر ويقرر أن سمات من الحقبة الجاهلية لازالت منتشرة في الفضاء العربي الإسلامي. كتب في جريدة " وادي ميزاب" مقالا بعنوان " الإرشاد" معتبرا الأمة الآن أمة جاهلية كما كانت قبل تاريخ الفيل، أي قبل ميلاد النبي(ص) وا أرشدها في ذلك التاريخ وأدركها بمرشد ذي خلق عظيم فأخرجها من الظلمات إلى النور، بشريعة سمحة، وبنظام يتضمن السعادتين في الحياتين – لكن بطبع البشرية وسنن الأمم السابقة غيرت ما أمرت به بمجرد مغادرة الصالحين من أتباع بنيها[4]. وهذا ما يؤدي إلى سقوط أمم، منها الأمم الإسلامية في وهدة التخلف والانحلال والهمجية، ويجعل

---

[1] - أنظر: صحيفة : الأخبار بتاريخ 15 جانفي 1911.

[2] - في صحيفة : الأخبار بتاريخ :22 جانفي 1911.

[3] - المصدر نفسه .

[4] - أنظر جريدة " وادي ميزاب " بتاريخ : 18 جوان 1927.

للجاهلية دورة أخرى في الحياة لقد كتب قائلا في مقال آخر قبل هذا سنوات عدة: [1] (أشرقت شمس الحياة وتراءت سفينة النجاة بظهور رسول ا محمد بن عبد ا فانفجرت بظهوره الأزمة وصارت العرب خير أمة ففتح باب الدستور بعد أن كان مقفلا. واعـتنى بالعدـل بعد أن كان مهملا.

فهذب النفوس الأمارة وحث الناس على العلم واقتنائه وحثهم على المجد) إن اعتبار ميلاد النبي (ص) لحظه فارقة مفصلية في تاريخ العرب والبشرية إنما يعكس فكرة القدوة العقائدية في حركية الإصلاح ومكافحة أشكال الاستعباد والاستبداد فيقول في مقال بعنوان" ذكرى ربيع الأنوار" [2]...." بينما العرب والروم والفرس ودول كانت قائمة على أرائك الاستبداد تدوس خلال الإنصاف وتسوم الخلق بالخسف والإعتساف وبينما الفوضى الأخلاقية والاجتماعية ترهق الشعوب وتنتزع رفاهية الأمم انفلق صبح الإصلاح لهذا المجتمع البشري من وجهة كان الناس يزدرونها وقد أشرقت شمس منيرة..."[3].

اعتبر شخصية النبي (ص) أعظم مصلح للخليقة، أي البشرية مقوما الاعوجاج الذي أحدثه أقوامه الوثنيون وأقوام آخرون كانت بعثته دعوة البشر لشريعة الإسلام السمحة والفضيلة والأخلاق الحسنة بمعنى إحداث تغيير اجتماعي وتتمة لما يكتسبه البشر من قيم أخلاقية وقد بين عزيمة وإرادة في هذا المسلك قصد نشر قيم العدالة والمساواة والتمدن للإنسانية كافة كانت بعثته كما كتب في نفس السياق صورة ظهور ما سماه بـ: القومية الإسلامية الحقة. أي بروز هوية عقائدية حضارية جديدة[4]. ...إن القومية الإسلامية التي نحوم حولها كانت تتلألأ جمالا إبان ظهورها وقد أتمها ا على أهلها كما قال تعالى: " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا"[5]. وذلك في وقت كان فيه رسول ا يهدي إلى التي هي أقوم فأستمر الشعب الجاهلي يتخلص من قيود الجاهلية).

يعتبر مفكرنا عمر بن قدور النبي (ص) المصلح الأعظم للإنسانية جمعاء لأنه يمثل صورة القدوة التغييرية لكل مرشد معاصر أو مجدد حديث يريد إعادة الأمل ومحو اليأس من

---

(1) - بجريدة: الأخبار " بتاريخ: 21 أغسطس 1910.

(2) - أنظر: " الفاروق " بتاريخ: 06 فبراير 1914 (10ربيع الأول 1332ه).

(3) - المصدر نفسه.

(4) -" معضلات اليوم والغد" بصحيفة: الفاروق – بتاريخ 25 أفريل 1913.

(5) - من الآية: 3 من سورة: المائدة.

النفوس الضعيفة أو الميتة فالسقوط مرتبط بتراجع النزعة الدينية أساسا لكن يبقى أصل الارتقاء والتقدم بالنسبة للأمة الإسلامية هو القول الفصل الذي قاله القرآن" إن ا لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" [1]. أليس هذا القول كمادة قانون عمراني تنفذ على كل من شد عن الحياة القومية...)[2]. لهذا فهو يرى أن القدوة من الناحية السياسية والحضارية تظهر جليا في شخصية رسول ا الداعية إلى تحرير الشعوب من نيـ ـ ـر الظلم والعبودية إلى رحابة البناء الحضاري والتسامح الإنساني كتب في هذا أيضا) ما أنجب هذا اليوم يوم ميلاده صلى ا عليه وسلم للخليفة من سنن عمرانية وصلاحية أخلاقية وعدالة تامة وفضيلة عامة في شخص محمد رسول ا الذي فصم عروة الجاهلية الأولى وحرر الشعوب وحطم نير الظلم الملوك وأذل الكياسرة والقياصرة بعد أن عتوا عتوا كبيرا وخلص الضعفاء من رق العبودية بعد أن باروا بورا بعيدا ومـ ـ د على البسيطة تم دين الإسلام الزاهر ورفع منار مجده الباهر...)[3].

لكن لماذا يؤكد على ضرورة الإمعان في هذه القدوة النبوية خاصة في عملية البناء العقائدي لأن هذه الشخصية العظيمة تجسد روح القرآن الذي أنزل عليه، وتجسد القيم الروحية والأخلاقية السامية لمن أراد الاعتبار في غمرة النشاط النهضوي والإصلاحي أراد الإسلام، كما يرى عمر بن قدور أن يكون البشر أقوام صدق وثبات وهدف إلى أن يبقيهم يشعرون بالروح الاستقلالية في تصوراتهم ومعارفهم عن كل إعتقاد صوري متخيل في طريق التدين. ذلك التخيل الذي طالما أدى بالبشر إلى مزالق الأوهام والأخطاء. و(قد رام الإسلام أن يستقيم معتنقوه بأفكارهم الحرة الخالصة من وصمات الأوهام في كل شيء... أي فيما يعتقدون وما يعملون وما كان ليجيز لهم أن يحرفوا الكلام عن مواضعه أو يؤولون ما أتاهم به من المحكمات وفق ما يلائم الأهواء والآراء بل كان ولازال ذلك الكتاب المبين ينتقد على الأمم البشرية التي خلت من قبل سوء ما صنعت من التغيير والتحريف في صحف أنبيائها وما بذلته في تتبع الأهواء والأعراض والتصورات المخطئة [4].

لهذا فالاستمساك بشريعة القرآن والتخلق بالقدوة النبوية، من شأنهما إحداث التغيير المراد والإصلاح الديني والاجتماعي وحتى السياسي لأن كما سبق وأن استخلصنا أن الفوضى

---

(1) – الآية: 11 من سورة الرعد.

(2) - بصحيفة " الأخبار" بتاريخ 15 جانفي 1911.

(3) - " ذكرى "12" ربيع الأنوار – بالفاروق – بتاريخ 6 فبراير 1913.

(4) - صحيفة (الفاروق) بتاريخ : 25 مايو 1914.

الإعتقادية هي وراء السقوط الأخلاقي والسياسي للأمة الإسلامية، وحينما يناقش الجوانب الأخلاقية للنبي(ص) فهو يعتبر جواب ( " كان خلقه القرآن" أي كان قائما بمحاسن الأخلاق المبثوثة في القرآن. فكان عليه الصلاة والسلام روح الكتاب بما أنبث فيه من سـ ـر السير على مقتضى ناموسه في الأمر والنهي بكافة الحركات والسكنات ولذلك قام في وسط جاهلي يقاوم الأولين والآخرين فقام بمكارم الأخلاق الدينية التي بلطافتها تناقض دائما خشـونة زخارف الحيـاة ...[1].

إن تشبث العرب المسلمين بروح القرآن وبالاعتقاد السليم، جعلهم يشعرون بتلك الحرية العقائدية الداعية إلى القيم الأخلاقية السامية المدعمة للروح الاستقلالية والثبات على المبدأ وعلو الهمة حتى أصبحوا بالفعل مصدر إصلاح للإنسانية وتمدينها وهذا ما أدى بالسنن الكونية، كمبدأ اعتقادي هام جدا، يؤكد عليه المفكر عمر بن قدور الجزائري، إلى أن يقوموا بهذه المهام الحضارية، بعدها استمسكوا بالعروة الوثقى وأتم ا لهم الدين بقوله تعالي: " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا "[2] . وابتعاد المسلمين عن ذلك " الكمال الإلهي " والخضوع لذل العبودية والرضوخ للأوهام وللتخيلات والمستحدثات من البدع الضارة بروح الاستقلال ونخوة الضمير، أدى إلى اضمحلال قوميتهم وحضورهم الحضاري، بقدر كذلك ابتعادهم عن روح القرآن ولقد أوضح أيضا قائلا: لقد ارتقت الأمة الإسلامية بـرا المعارف القرآنية[3]، فصارت تعلم غيرها الماهية الإنسانية إلى أن جني بعض الأشخاص على الدين، وعبثوا بركنه المتين، فحق ما كسبت أيديهم عليهم وأن ا لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. فابتعدت الأمة عن ملتها، ودخلت في دور سقوط دولتها وصار القرآن حديثا ملغيا. وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا نسيا ...)[4].

ينفي عمر بن قدور التناقض في نصوص القرآن، فهو معجزة الرسول(عليه الصلاة والسلام) الداعية إلى الاعتقاد الصحيح والتوحيد الخالص فيقول: (فتش القرآن كلمة كلمة وسطرا سطرا وآية آية وسورة سورة فإنك لا تعثر أبدا على معنى يقتضي تأويله مخالفة هذا المبدأ

---

[1] - من مقال له بعنوان: الإرشاد مطلوب والرشد لا يثوب - " سلسلة (الفاروق الثانية – العدد (12) بتاريخ 28 يناير 1921.

[2] - الآية: 3 من سورة المائدة.

[3] - أنظر: خطر الأحداث والبدع على القومية والدين – (الفاروق) بتاريخ 25 مايو 1914.

[4] - في صحيفة الأخبار – بتاريخ: 21 أغسطس 1910.

الشريف وروحة النورانية الساطعة وإنك لا تجد التناقض في ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ألبتة، وإنك لتتلبس بفهمه كلما تسلم الطوية خالصة [1].

## - الإنسان والمجال الكوني:

أظهر التحليل الذي قمنا به، فكرة عقائدية تمثل في رأينا مكونا رئيسا في رؤيته عمر بن قدور الجزائري الفكرية التجديدية ليس هذا فقط، إنما تعكس بحق التوجه العقلاني الذي يطبع مناقشته لقضية وجود الإنسان بذاته، ووجوده مع علاقته بالكون الذي خلقه سبحانه وتعالي. فإذا كان قد خص قضية التوحيد باهتمام بالغ ومركز، جاعلا منها فكرة المنطلق العقائدي الروحي، حتى يصبح وجود ا وعنايته، منبع حرية الاعتقاد وحرية الضمير للإنسان- ومصدرا لاستقلالية إرادته وفكره في هذه الحياة– حتى ينال الحياتين والسعادتين، في الدنيا والآخرة بالتالي يغدو التوحيد الخالص بالنسبة للمسلم المعاصر، ركيزة فاعلة ومؤثرة في حياته الاجتماعية والسياسية معا. بالرغم من وجود وتكرار فكرة وجود الإنسان وعلاقته بالمجال الكوني في العديد من كتابات عمر بن قدور محل دراستنا إلا أننا لاحظنا وورود11 مقالا صحافيا فكريا، احتلت هذه الفكرة مجمل نصوصها. إنه مؤشر تحليلي يبرز مدى الانشغال العقائدي والهم الفكري الذي يسيطر على مفكرنا الإصلاحي. إنه يؤمن بدعوة الدين الإسلامي إلى النظر في وجود الإنسان، وفي الكون المحيط به الطبيعة في الكواكب السماوية وفي غيرها من المخلوقات الحيوانية ليس هذا فقط وإنما البحث والتفكر في الماضي الكوني السحيق وعلاقته بهذا الكائن الضعيف، كما يسميه أي الإنسان هذا كله لتعزيز إيمانه وقناعته بضخامة القدرة الإلهية. كتب في مقال تحليلي فكري تحت عنوان: " نحن والأكوان: آية من آيات قصور الإنسان" سنة 1913 قائلا: [2]( ... لقد منح الإسلام لأتباعه حرية البحث عن حقائق الأشياء وأصول الكائنات حتى يصلوا إلى الفضاء المطلق المدهش، فلا عجب إذا قلنا إذن أن للإسلام فكرا حرا صحيحا يتسنى به لمعتنقيه مجاراة الطبيعة ومـداراتها حتى لا يستـهويه بشبـهاتها ولاوعظمت ".

إن الدعوة إلى التأمل الكوني في وجود الإنسان، نابعة كذلك من غريزة البحث لديه فهو لا يقنع أبدا بالقول بعدم وجوده قبل الوجود ولا كونه كان معدوما بالكلية، بل يتساءل عمن كان

---

[1] - في (الفاروق) بتاريخ : 25 مايو 1914 العدد 62.

[2] - صحيفة ( الفاروق) بتاريخ : 21 شعبان 1331ه الموافق لـ : 01 أغسطس سنة1913.

يعيش في تلك الأحقاب في العالم [1]. بالتالي يرى أن ا خلق الإنسان حرا، واعتبر هذه الحرية قابلة للزيادة وللتلاشي، فلنلاحظ بأن عمر بن قدور يقول هذا وهو يحس بوطأة الاستعمار الفرنسي على المجتمع الجزائري ووهب ا للإنسان العقل لتوظيفه في منفعته- لأنه طريق المعرفة فلا يجوز لأي دين أو قوانين وضعية أن تحد من ذكاء الإنسان وحريته العقلية، كتب في هذا: (... أجل خلق ا الإنسان حرا وجعل حريته قابلة للزيادة والاضمحلال ووهب له عقلا لا حـ ـد له إذا انتشر في الوجود وعمر به زاوية من زوايا الكون كانت فارغة، وما أراد به إلا أمرا واحدا وهو باختصار أن يكون منتفعا بذاك العقل من معرفته، فمن العبث أن يطمح دين من الأديان أو سنة من السنن الاجتماعية إلى التحضير على ذلك الذـكاء الإنـساني والتحـجير عليه..."[2].

إنه يربط المظاهر الكونية، التي لها قوانينها المؤثرة في بعضها البعض، والتي هي في الحقيقة- كما يرى- تعود لأصل واحد تعمل بتأثيره، يربطها لإذن بضرورة توجيه الذكاء البشري للبحث في هذا الأصل، مع إيمانه بنظرية التطور فكل شيء خلقه ا ينمو في كل لحظة ولا ينقص" ويتساءل أين عقل الإنسان من هذه المظاهر الكونية، اعتبارا من كونه خليفة ا في الأرض؟ إنه يعتقد إعتقادا جازما بأن الإنسان غير مستغني عن الذكاء ولا عن الحرية، وإن أضطر إلى ذلك كتب في هذا [3]: (إنه من محض الخيال أن يظن أحد من الخلق أنه من الهين تقييد تلك الحرية التي خلق ا بها الإنسان وصيره لأجلها أفضل العالمين.... الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي فاق بهذه الحرية في البحث جميع الأديان ولا يستطيع أحد أن ينازعه فيها إلا من أراد تبديل آيات ا وتغيير كلماته " أو لم ينظروا في ملكوت السموات ( كذا) والأرض وما خلق ا من شيء وأن عسى أن يكـ ون قد اقـ ترب أجلـ هم فبـ أي حـ ديث بـ عده يؤمنون"...

من القضايا الوجودية التي ناقشها في سياق دعوة الإنسان للتفكر والبحث حتى وإن عجز عن الفهم اليقين وغابت عنه حقائق عدة، لأن الغاية العقائدية لديه تكمن كذلك أن قصور الإنسان هو بذاته يعبر عن ضرورة الاعتبار والاتعاظ، لما يتوصل إليه، ولما عجز عن تأويله علميا أو فلسفيا حتى. فالإنسان الضعيف في شخصيته، هو قوي من جهة أخرى بعقله وقضية

---

[1] - صحيفة (الأخبار) بتاريخ : 26 مارس 1911.

[2] - المصدر: صحيفة (الفاروق) بتاريخ 1 أغسطس 1913.

[3] - المصدر نفسه.

نشأته وتكونه من الموجودات ، الأخرى حرية بالتفكر والبحث- ولهذا كان منطلق معالجتها اختياره للآية القرآنية : " هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا "[1] ويتساءل كاتبا: في مقال بعنوان "الإنسان والأكوان : قبل وجود الإنسان ".

( كيف كان الإنسان قبل الوجود ؟ لا شك أنه لا شيء فيذكر فهل له أن يتذكر؟ أم هل جاءه نبأ يؤيد له قول من قال أنه كان شيئا مذكورا ؟ كلا إنه لمن أرباب (الهوس) إن كان يعتقد وجوده قبل وجود الوجود) [2]. استغرب عمر بن قدور غفلة الإنسان النظر في أصل وجوده والاعتبار به فلو أدرك حقيقة عدمه في المجال الكوني، لعرف أن ثمة إرادة أوجدته، وأن الزمان الذي كان قبل وجوده بعيد في التاريخ – ولا يصح له نعت ذلك العصر الشاذ منه بالعصر المظلم كما ينعت عـ ـدة قرون بعد وجوده قضايا في غيابات الجهل وغريزته تدفعه بالرغم من ذلك إلى التساؤل عمن كان يعيش في تلك العصور في العالم ونتيجة علمه وبحثه تؤكد له تطور الكائنات المختلفة في الكون وما أطلع عليه من علوم البحوث الأثرية وعلوم الطبقات الأرضية وغيرها تؤيد تخمينه في الوجود ويؤكد أن المعارف العلمية في هذا الشأن تؤيد ما جاء في كلام ا المقدس، أي القرآن الكريم، الذي لا ريب فيه. ويستشهد على سبيل المثال بنصوص قرآنية توضح أنه كان ثمة خلق في الأرض، قبل وجود الإنسان وأن الملائكة كانت تبصر سلوكهم وحركاتهم. ومع ذلك يكتب في هذا السياق قائلا: (لا يستطيع الإنسان أن يفهم حقيقة العصر القديم عين اليقين وليس له إلا أن يعترف، فإن ذلك الوقت الطويل العريض الذي أنهاه وجوده والعالم الذي كان موجودا فيه لا يبعد أن يخلق ا فيهما خلقا كيف شاء وأراد لا معقب لحكمه.... وما نصدق بوجودهم غطرسة ولكن كتاب ا جاء بالحق...[4].

أما البحث في الأكوان الأخرى كالشمس والكواكب، فيقرر مفكرنا بأنها كانت موجودة، ولكن لا أحد أتى مبينا نظامها وأسرارها فمهما أو غل الإنسان في التفكر والتأمل العلمي- فإنه لا يأتي بنتيجة واضحة يقينية حول الملايين المتعددة من القرون والأجيال، حول خلق السموات والأرض، ثم يقرر مستفهما: فهل لا يكفي الإنسان أنه كان لا شيء يذكر في ذلك الأوان؟ هنا يقف فكر الإنسان الباحث والظن يقول أنه وقف عجزا وقصورا عن التعرض لأمر لم يشاهده وشيء لم يدركه قط وهل يدرك هذا الضعيف الضئيل كيف خلق ا السموات والأرض؟ كلا "

---

(1) - الآية: 1 من سورة الإنسان.

(2) – صحيفة " الأخبار" بتاريخ: 26 مارس 1911.

(4) - صحيفة: الأخبار – بتاريخ : 02 أفريل 1911.

ما شاهدوا خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم " إلا أن الأمر عكس ذلك بل وقوف المعتبر لا وقوف العجز هو يتذكر كيف قامت السماوات وهي يغير عمن يراها وكيف خلقت الشمس والقمر والنجوم والكواكب السيارة وكيف وضعت الأرض في فضاء الهواء؟ إن هذا الهيكل العظيم لجدير بأن يقف الإنسان أمامه موقف الباحث وأن يسأل عنه كيف صنع وارتفع..."[1].

يرى أن الأقدمين والمعاصرين من الباحثين تقصوا هذه المظاهر الكونية- والكثير منهم بقي يحوم في الوهم والخيال والتخمين من جهة أخرى إنه يشير إلى تفسير هذه الحكمة أو النتيجة إلى ربطها بغرور الإنسان المشهود له والملازم له- وذلك حينما يقول بأن من "... فضل القضاء وجميل القدر أنك لم تكن (أي الإنسان) شيئا مذكورا يوم ارتفعت ووضعت الأرض. أما لو كنت موجودا لادعيت أنك شاطرت ا في الكون وأعنته على خلق العالمين. فمن حسن الحظ جعلك ا من الخلق الآخرين ..."[2].

ويعتقد بأن معرفة الإنسان بالأرض تقدمت لكنها معرفة قاصرة ليست تنم عن بصيرة فيما يتصل بأسرار الكون، ولا سلطة معرفية كاملة بأولية التاريخ السحيق لوجوده ووجود ما قبله مع ذلك بالرغم من هذه المعرفة إلا أنه يتخذها مسلكا للتطاول والتجبر على أخيه الإنسان وعلى الطبيعة معا. وسيطرة قيم الرذيلة عليه، تجعله لا يقف على الجانب الروحي من هذه الأسرار، تماما كاختلاف موقف الجاهل والعالم من الآثار والمخلفات التي تعكس وجود الإنسان فيكتب في موضع آخر من مقالاته، وكأنه شهد هذا الموقف التأملي في مصر: " إن الجاهل لا يتصور خيالا رفيعا في صحيفة الضمير إذا مر على مساكن الأولين، ولكن ما هو تخمين العالم إذا وقف أمام الأهرام أو غيرها من المخلفات العتيقة ؟"[3].

ثم لاحظنا أن تناوله لهذه الفكرة العقائدية، امتد إلى مناقشة مسألة علاقة البحث العلمي أو التوجه التخميني كما يسميه، فيما يتصل بتقدير الزمن في تكوين الأكوان

---

[1] - صحيفة (الأخبار) – العدد: (13677)- بتاريخ: 09 أبريل 1911.

[2]- المصدر نفسه.

[3] - أنظر: (الفاروق) بتاريخ: 15 أغسطس 1913.

وعلاقته بما جاء في مسألة الخلق ووجود الإنسان في القرآن الكريم يوضح أن القرآن أخبر بأيام خلق السموات والأرض كقوله تعالى: " هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام" [1] ثم يفسر مقدار اليوم، حسب المواضيع الأخرى من سياقات النصوص القرآنية ويقوم بدحض الأقوال الإسرائيلية الواردة في التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الأول والثاني، مع انتقاده لبعض المسلمين في صدر الإسلام الذين تأثروا في تفسيرهم لآيات قرآنية عدة، بما ورد لدى الإسرائيليين[2]. أوفي الإنجيل ويستعرض تلك المقاربات والتأويلات مؤكدا أن ما جاء في القرآن لا يناقض ألبته الاكتشافات العلمية الحديثة، التي هي نفسها خاضعة لمنطق البحث العلمي، في إثبات النظريات المرتبطة بنشوء الكون وارتقائه ويدحضها أو تناقضها أحيانا وحتى يشير إلى وجود العديد من الأحاديث المحشورة كذلك في هذه المسألة والموضوعة، لكن ما صـح منها يجب قراءته أو فهمه وفق القرآن الكريم إن " المسلمين الأقدمين لم يتحروا في النقل ولم يهذبوا معلوماتهم بالفكر والعقل وفي سرد آيات التوراة يظهر للمطلع أن جميع ما ذكره العلماء الأقدمون مقتـبس من كتب الإسرائيليين "[3].

يعتقد المفكر عمر بن قدور بأن ا لم يخلق الأكوان بحجمها الحالي، وإنما حدث هناك نمو وتطور بالتدريج وأن القرآن لم يتقيد بإثبات أيام الخلق، يكتب في نفس المعنى(أن إطلاع الإنسان العصري هو الذي ( يهذي) وما هو يزلزل محكمات القرآن ألبته بل جاء مصدقا لها وشاهدا بإعجازها الباهر في أوضح قالب... لينظر القارئ اللبيب بإنصاف تام في أي سفر من أسفار الذين أوتوا الكتاب تنشب الاكتشافات العصرية أظفارها ؟ أتناقض كتابنا العربي وهو الذي لم يتقيد بإثبات أيام خلق العالم وأنها أيام حقيقية ذات أربع وعشرين ساعة كما يصرح بذلك كتاب إسرائيل؟ ماذا يجب علينا إذا قرأنا قوله تعالى وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام (تلقاء) الاكتشافات المركوزة على قواعدها الفلسفية المتينة؟ الظاهر أنه لا واجب علينا مادام ذووا الاكتشافات أنفسهم يسوون كتابهم المطعون بحراب اكتشافاتهم واجب التسليم ...."[4]. بعد ذلك يستعرض ما توصل إليه العلم من اكتشافات حول نشأة الكون بمختلف موجوداته والتطورات التي حصلت مع إشارته إلى نظرية العالم ( نيوتن) في الجاذبية واعتبر المسألة مع ذلك تخمينية أما في مسألة وجود مخلوقات أخرى عدا الإنسان، في الكواكب الأخرى كالاعتقاد

[1] - الآية: 4 من سورة السجدة.

[2] - أنظر: " تكوين الأكوان: ووجود الإنسان" بصحيفة ( الأخبار) بتاريخ : 09 أبريل 1911.

[3] - أنظر أيضا: (الأخبار) بتاريخ 16 أفريل 1911.

[4] - في صحيفة: (الأخبار) العدد: بتاريخ : 23 أبريل 1911.

بها غير متمكن من غالبية العلماء ومع ذلك لا يفند أو يؤكد بل يتخذ موقفا عقائديا لقبول هذه الفكرة فيدعو الإنسان المسلم إلى قبولها وهكذا يكتب سنة 1911 قائلا : (أولوا العلم يخضعون لما تتلوه عليهم أبحاثهم من وجود مخلوقات في تلك الأجرام التي منها ما هو أعظم من هذه الأرض أضعافا مضاعفة، وأحرى بالمسلم قبول هذه الفكرة التي تظهر له ضخامة القدرة الإلهية التي لم تدع ذرة في الأرض إلا وبثت فيها دببًا حيا فبثها لمثل ذلك في العـوالم الأخرى من باب أولى وأحرى...."[1].

وبالرغم من اعتباره هذا الرأي ظنيا كما رآه آخرون من فطاحل المثقفين لهذا العصر إلا أنه لا ينقص من قيمة التنزيل القرآني حتى وإن لم يشاهد البشر كيفية وبدأ الخلق والتكوين، فإن القرآن لا يدعو إلى تقييد الأفكار في هذا المضمار ثم يستند إلى الدليل العلمي في استمرارية بحث الإنسان عن أسرار النشأة الماضية، وتأمله وبحثه فيما حوله من أكوان وهذا الدليل مرتبط بعدد الكواكب التي كان العلم القديم يتلو على الإنسان وجود سبعة فقط، ثم أظهر له العلم بعد ذلك كواكب أخرى، فبلغ المجموع عشرة كواكب[2]. وهذا يصب أيضا فيما سبق الإشارة إليه، من تميز الإنسان بنعمة العقل وحرية الفكر، التي تدعوه دوما إلى تحصيل المعرفة الكونية. التي تقوده إلى معرفة أعمق بأسرار الطبيعة والكون والتي قد يهتدي بها إلى سـر الوجود، إذا ما كانت قيم الفضيلة مسيطرة عليه ويستشهد بقوله تعالي: " أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق ا من شيء وأن عسى أن يكون قد اقـترب أجلـهم فـبأي حديث بعده يؤمنون " [3].

فنظر الإنسان لما حوله من الأكوان، المتحركة والساكنة، وسب أعماق أسرارها تجعله يستخلص الدروس المهذبة لروحه ولنفسه ولكنه، في الحقيقة الواقعية لا يعي تلك الدروس ولا يتمكن من ذلك إذا لم يكن له " ضمير يأنف من تعنيف الحق ولا يخضع إلا للرذيلة مهما حاجته الفضيلة ومهما أثرت عليه إن الإنسان في جميع الأطوار جاور الأكوان فعدها معينة له على العيش والقرار في الأرض على النحو الذي يريده فأخذ يتشبث بمعرفة أسرار الطبيعة وتقدير مناسباتها معه وصلاحياتها به وترك سـر وجودها الحقيقي جانبا ...."[4].

---

[1] - صحيفة (الأخبار) بتاريخ: 30 أبريل 1911.

[2] - المصدر السابق نفسه .

[3] - الآية: 185 من سورة الأعراف.

[4] - أنظر: الفاروق – بتاريخ 1 أغسطس سنة 1913.

إن سـر الوجود الذي يؤكد عليه، إنما هو متصل بمعنى ضخامة القدرة الإلهية ووجودها الفعلي، التي عجز الإنسان المتطاول على أخيه الإنسان، والمتعالي على الطبيعة التي يعتقد دوما أنه قد يسيطر عليها وهي التي تمده بخيراتها وثمراتها هكذا لفت انتباهنا من خلال تتبع الأفكار العقائدية لمفكرنا انتقاده لهذا الموقف الفكري والفلسفي المادي ولهذا التصور الأخلاقي لعلاقة الإنسان بمجال الطبيعة، في تلك الفترة التاريخية، التي أراد خلالها تجديد ليس فقط نظرة الإنسان المسلم إلى الأكوان والطبيعة، لأنها المجال أو الفضاء الذي أوجده فيه الخالق سبحانه، وإنما أيضا نظرة الإنسان عموما، وهذا يعكس بالفعل، الرؤية الإنسانية التي تتبع من قناعته العقائدية الإسلامية السمحة، التي تستهدف أن يبلغ الإنسان مرتبة الكمال، وأن يحصل على الحقيقة، وأن يصل المقام المحمود بتعبيره، وبالتالي قصد بناء حضارة أسمى وأكمل من الحضارة الحالية.

يرى أن الإنسان المتمسك بقيم الغرور والتعالي، لا يمكن أن يتجاوز ويخترق أسرار الطبيعة لهذا " فما انفك هو الإنسان الذي يعتقد بالقصور ويقر بالعجز عن فهم مكنونات الأمور ويقف مندهشا لا يتراءى له شيء منها قد رتبه تخمينه في عالم الاختراع والإبداع...ثم أنه لا يحصل ... إلا على قوانين واصطلاحات طبيعية لا طائل تحتها في عين الحقيقة رغما عن جميع ما يبذ له في هذا السبيل من وسائط الأفكار لأن الرذيلة تتعلق بالأفكار وتزين لها أهمية ما عثرت من الأسرار الطبيعية..."[1].

يشير مفكّرنا إلى مدى استفادة الإنسان من الطبيعة في معاشه فعظمها لأنه يميل إلى المحسوس بالدرجة الأولى، خاصة إذا ما اعترف بإحسانها إليه حتى المعارف الكونية التي توصل إليها .

بقيت في جزء منها سطحية بالنسبة لفهم وجوده ووجود الطبيعة يكتب مفكرنا قائلا:

" فلو كان موقتا (لأجزل) لتلك السطحيات مرماها واقتنص اللب من وجوده ووجودها ومن ذلك المعنى تتبع له الفضيلة أخذه بيده إلى المقام المحمود غير أنه لازم لسوء حظه مواقفه الأولى ترتبت عليه جنايات عظيمة فانفلت ( كحله) وصار جزءا من الطبيعة التي يألفها بعد أن كان شريف الجوهر مفضلا على كثير من الخلق تفضيلا...." [2].

---

[1] - أنظر صحيفة: (الفاروق) بتاريخ : 08 أغسطس 1913.

[2] - صحيفة ( الفاروق) بتاريخ 15 أغسطس 1913.

ويضرب مثالا بالبحوث العلمية في ميدان علم النبات التي بقيت المظاهر الروحية خفية على الإنسان لأنها (القوة التي تقبض على النباتات أسرار الوجود والنمو عدا ما يسميه الإنسان بالغذاء الطبيعي وما كل شيء خلق وفق ما يرتب الإنسان وإن هناك من النبات ما هو شاذ عن حكم القوانين التي رتبها الإنسان والراسخون في العلم إذا أفاضوا في هذا المجال يقرون بفتور عزيمة الإنسان وإذا لامسوا الإنصاف يقولون : إن للطبيعة لأسـرار عجـيبة وإن فـي الأكوان شـؤون"[1].

وفي مقال آخر بعنوان " كلمة فلسفية: الإنسان والأكوان نشره بجريدة (الأخبار)[2]. ينتقد التصورات الفلسفية والعلمية والتخمينية التي تعتمد على العقل كمصدر وحيد للمعرفة الكونية. مما أدى به إلى احتقار الإنسان للأكوان الأخرى، وبناء اعتقاد خاطئ فيما يخص سيطرته على الطبيعة ومقاومته للرسل والكتب السماوية المنزلة مترتبة عن هذا الموقـف العـقلي الغالب على توجهاته.

كتب قائلا: ....لا يطمئن الإنسان في الغالب إلا لترتيب عقله ... ذلك لأنه يظن أنه هو المسيطر بترتيبه على كل ما هو بين يديه من الوجود فاحتقر بذلك الأكوان واستصغر العوالم الواسعة الأركان نعمة الطبيعة ببرها وبحرها ونارها وهوائها بوسائلها وجامدها أكرمت الإنسان على عتوه وتمخضت له بالنتائج المهمة فانكب عليها انكباب النعم على الكلأ وأبى أن يهتدي بها للسلوك إلى ذروة الكمال...[3].

ويرى أن الإنسان بمعرفته القاصرة، وباحتقاره للطبيعة، قد ضل بتصوراته الوهمية تجاهها. وأن قيم الغرور وبحثه عن مصالحه ومحاولة الحفاظ عليها أدت به إلى الخرق حدود قيم الفضيلة والعدالة والإنصاف وغابت عنه من حين لآخر حقيقة التسامح والإحسان وهذا عائد كما بين إلى وقوف الإنسان أمام الحقيقة المادية للكون وللطبيعة فلم يتعداها إلى الحقيقة الروحية. استعان الإنسان لحفظ مصالحه بقانون حفظ الذات واستغنى عن القانون الروحي المدعم لبناء حضارة أسمى مما هي عليه في عصره الحاضر إذن فسيطرة سلطة الحق وقيم الفضيلة إلى جانب نعمة العقل، قد تمكن هذه العناصر في أن تجعل الإنسان، كما قال: " يتحقق عظمة

---

(1) - في المصدر نفسه.

(2) - صحيفة ( الأخبار) بتاريخ: 12 أكتوبر 1913.

(3) - المصدر السابق نفسه.

الملكوت ويعتقد ضعفه أمام القوة المسيطرة على مجموع هذا الكون وعوالمه والمحركة له منذ الأزل إلى الأبد فيتعود بعد ذلك الخضوع لوجهة واحدة ..."[1].

**- القيمة العقائدية لمبدأ السنن الكونية :**

كشفت النصوص الصحفية موضع التحليل عن ورود فكرة رئيسية، ذات قيمة عقائدية وتعبر في نفس الوقت عن الرؤية الإصلاحية التجديدية المتسمة بالملمح العقلاني للمفكر عمر بن قدور الجزائري، حيث وردت متضمنة في 41 مقالا وبالتالي لاحظنا بأنه بالرغم من أنه لم يكتب نصا فكريا عقائديا خاصا بهذه الفكرة، والمتمثلة في مبدأ السنن الكونية، إلا أن توظيفه له بشكل متكرر، في مقاصد وأهداف عقائدية إصلاحية، جعلني أتبع هذا المبدأ الذي يعكس فعلا، رؤيته العقلانية الروحية في تجديد البناء العقائدي الإسلامي للأمة الجزائرية، على الخصوص، وللأمة الإسلامية على العموم التجديد الذي يسعى لإعادة الأمل في النهوض، وتحقيق التقدم الحضاري، وبالتالي إيجاد الفعالية العملية، والاعتماد على العقل والمعرفة، في سبيل البقاء والوجود. من هذه الوجهة التحليلية يكون مفكرنا قد قدم مساهمة رائدة، ليس فقط على مستوى الجزائر، وإنما حتى على المستوى العربي والإسلامي ولاحظنا أيضا أنه فضل استعمال مفهوم السنن الكونية بصفة مكثفة، ومن حين لآخر نعثر على عبارات أخرى تحمل نفس المعنى لديه مثالا ذلك: القوانين الكونية، سنة ا الكونية، سنة ا في خلقه، العهود الإلهية، سنن الغلبة...

وإذا اعتمدنا أحد آراء الباحثين المختصين في مجال الدراسات القرآنية الذي اعتبر الإمام محمد عبده والمصلح محمد رشيد رضا الوحيدين اللذين [2]. أشارا وتناولا في بداية عهد الإصلاح مفهوم " السنن " الإلهية" وعلاقتها بتطور الأمم، فإننا يمكن إذن اعتبار المفكر عمر بن قدور أحد المفكرين الإصلاحيين والعقلانيين الأوائل الذين قدموا رؤية، تجديدية عقائدية في هذا السياق. بالفعل فإن ما عثرنا عليه من مقالاته الصحفية الخاضعة للتحليل، يشير إلى بداية توظيفه لمبدأ السنن الإلهية وعلاقته بالتقدم والرقي في حياة الشعوب وصلته بقضية تصفية الاستعمار وتحرير الأمم المحتلة، من خلال صحيفة " الأخبار (1010-1913)، ثم في صحيفته (الفاروق) سنوات(1913-1914-1915). وامتد استخدامه لهذا المبدأ العقائدي لما بعد الحرب

[1] - المصدر السابق نفسه .

[2] - إدريس العلمي: فقه سنن النفس والمجتمع في السنة النبوية (دكتوراه في الدراسات القرآنية )2003.
Masho.nat/ar/contenes-aspx aid :960.

العالمية الأولى، وهذا عبر الصحف التي أصدرها(لصديق) 1920 وسلسلة (الفاروق) الثانية1920، ثم في صحف ساهم في تحريرها كصحيفتي " الإقدام "(1922-1923) و" التقدم" سنتي (1923-1924).

انطلق في مقاربته لمبدأ السنن الكونية من إيمانه العميق بما ورد في الكتاب المقدس للمسلمين، إنه القرآن الكريم. إن تشبعه كمسلم مثقف بهذا الكتاب ونقطه وتأمله لما ورد فيه من آيات قرآنية تربط رقي الشعوب وتخلفها، قوتها وضعفها وفشلها، بما توظفه من أسباب، وعوامل مختلفة، تعتبر بمثابة مظاهر لقوانين أو سنن كونية، مصدرها إلهي. هذه الرؤية العقائدية العقلانية، جعلته يعتقد بأن لكل أمة من الأمم قابلية للرقي والنمو، قابلية للتقدم أو التأخر فيكتب في هذا السياق سنة 1910 بجريدة " الأخبار"[1] أن (الأحوال الحاضرة عبارة عن آيات خطت على سطح خريطة العالم فمن المواطن من كتب ا عليها آية " لأرفعن هؤلاء بأعمالهم" ومنها من كتب ا عليها آية " لأضعن هؤلاء بإهمالهم" وإنا لنجد قوما فطنوا لما كتب ا عليهم ففرحوا وزادوا في العمل الحسن والاجتهاد ليرفعوا بذلك أنفسهم كما وعدهم خالقهم وإنا لنجد أيضا قوما لم ينتبهوا لما كتب ا عليهم وظلوا كذلك لا ينتبهون...) ثم يدعو الجزائريين إلى الالتفات إلى هذه الظروف والأحوال المؤثرة وجود الأمم وحياتها القومية، داعيا لهم إلى القيام بالأعمال والاجتهاد في تغيير الوضع، حتى يجسدوا صورة الرفعة والتقدم، التي توصلت إليها أوطان أخرى بتمدنها، والخروج من صورة الضعة والتخاف كتب يخاطب أبناء وطنه:

(... معشر الجزائريين وما أعني إلا إخواني وأبناء وطني الأعزاء الذين أفتخر بأعمالهم إن عملوا وأفرح لتقدمهم إن تقدموا وأتذمر إن لم يعملوا صالحا وأحزن إن تأخروا عن الأمم في مضمار الحياة هل تدرون ماذا كتب ا عليكم، آية الرفعة أم اية الضعة خط على سطح إفريقيتكم؟)[2]. إن السؤال الانتقادي هذا يعبر عن عدم رضا عن الحالة التي عليها المجتمع الجزائري، لكنه غير مطمئن أيضا لامتزاج معاني اليأس والأمل في ذاته، ومع ذلك فهو يريد أن يكون في ") زمرة الذين لم ييأسوا من رحمة ا وأولئك هم المفلحون..."[3].

إنه يرى أن جميع الأحوال والظروف قابلة للتقلب والتغير وعدم الدوام والفعالية العملية، الصالحة تقوم بحفظ الكيان أو الوجود من السقوط، مادامت تتكيف مع الأحوال بالتطور والنموّ

[1] - أنظر مقال: " ذكرى" بصحيفة ( الأخبار) بتاريخ 18 ديسمبر 1910.

[2] - في المصدر السابق نفسه.

[3] - في المصدر السابق نفسه.

ويكتب (إذ يقولون دوام الحال من المحال يقولون أيضا: عدم مجاراة الأحوال بالتقلب في الأعمال من قبيل المحال. كذلك سنة ا في أكوانه تبعث في كل آوانه ظروفا عسيرة وأخرى يسيرة فما يغني عن البشر شيئا في اليسيرة ما لم يعملوا في العسيرة عمل القابض على ناصية الأمل والواثق بقوة نتيجة العمل...[1]).

فهو يرى إذن أن سنة ا الكونية وحكمته تقتضي من البشر جميعا الاجتهاد في العمل مع التمسك بالأمل في التغيير والإصلاح والنمو، مهما كانت صعوبة الظروف المحيطة بهم لهذا نراه في هذا المقال المعنون بـ (أحوالنا أعمالنا) يتحسر على راهن الجزائر ويعتبر الحركة النهضوية أو أشعة اليقظة التي بدأت تلوح بين الأمة الجزائرية، لازالت تتصارع مع أهوال الماضي المظلم وجموده. فالعمل الإصلاحي إذن يتوجب أن يعين الأمل والاستعداد لمقابلة أحوال القرن العشرين، وسد الفراغ بمزاولة العمل بكل ما هنالك من قوة للتخفيف لجانب من "الزلة" التاريخية العظمى" التي أوقعت الجزائر في ظروف التأخر ونير الاستعمار[2].

وفي حملة صحافية تحسيسية، يخاطب فيها المفكرين المتنورين والعلماء العاملين وحتى أصحاب الطرق (الصوفية) والمقامات السامية في نظر العامة من الجزائريين، داعيا لهم لتعزيز رابطة الأمة الجزائرية، بالتفاهم والتعاون، نراه يستنكر بشدة وينتقد دعاة خطاب اليأس، الذين حكموا على الأمة بالموت الأبدي بالرغم من أن الأمم الأخرى التي سبقت في ميدان التقدم والرقي، تمتلك ما تمتلك الأمة الإسلامية من قدرات واستعدادات، وحتى السنن الكونية، عبر مرجعية التاريخ، تؤكد عدم زوال وانقراض الأمم بالرغم ما عرفته من مراحل وأطوار صعود وترقي وسقوط وانحطاط.

وهكذا كتب في مقال بعنوان" دان النهوض ولم يدن"[3]. (لكننا أيضا قوم لدينا ما لدى الذين سبقونا في سبيل الترقي وعندنا ما عندهم ولا يصح حكم من قضى علينا بالموت الأبدي إننا أمة وللأمم أطوار تجريها عليها أعمالها وقلما أنبأنا التاريخ عن موت أمة بل في الغالب كان يخبرنا بموت أسمها وألقابها وأن للسنن الكونية لعمليات عجيبة في الأمم تمر بها كل أمة على مراحل مختلفة، فيعد التاريخ لكل مرحلة إسما فتنقسم بذلك الأمة الواحدة إلى أمم متعددة في نظر المؤرخين" وفي نظره أن الانقسام ليس مقياسا ثابتا، ويضرب مثال ذلك بأمة الصين التي لم

[1] - مقال ": أحوالنا. وأعمالنا " في صحيفة " الأخبار " بتاريخ 23 جويلية1910.

[2] - المصدر السابق نفسه.

[3] - في صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 04 يوليو 1913.

تنقسم ولم تتغير في ألقابها، وهي أمة واحدة في حين أن أوروبا كأمة تعددت ألقابها عبر التاريخ، إذن فإذا كانت هناك عزيمة حقيقية نحو النهوض " فما ذلك على السنن الكونية بعزيز"[1]. كما يقول فهي تستجيب وتتقيم كما يوضح ذلك في نص آخر، متى استقام البشر على المبادئ المستقيمة، وقاوموا بهمة عالية وثابروا على الحق، ويستند مرارا إلى قوله تعالي:" وأن ليس للإنسان إلا ما سعى"[2].إنه يدعوا إلى التفاهم بين فئات المفكرين والعلماء والأغنياء، وأصحاب الطرق الصوفية، حتى تتقلص هوة التفرق، ويتجسد التعاون على البر والتقوى بحيث تصل إلى تأسيس الجمعيات، التربوية العاملة على نشر العلم والتهذيب وهذا الإعداد أجيال الغد المعول عليها في إيجاد الأمل وتوحيده كتب في هذا قائلا: "فتعالوا بنا إلى التفاهم معشر الذين صعدت حرارة غيرتهم إلى حد الانفجار فنتفاهم ونتعاون فنشيد دور التهذيب فإن رجال الغد هم الذين عليهم المعول في توحيد الأمل وإيجاده"[3]. لهذا يؤكد على استبعاد التهاون في أداء الواجب نحو الظروف والحالة الراهنة، كما بين في مقال له في جريدة" الإقدام" تحت عنوان ذي دلالة تساؤلية "متــى نفقه ؟ " وهذا بغية الاستعداد ومقابلة التحولات والظروف المستقبلية[4]. وذلك بما تستحق من العناية والاستقامة العملية والأخلاقية حتى لا يتم الوقوع في نفس الأخطاء التي ميزت أجيالا سابقة، ويتم الاستفادة واستخلاص الدروس منها، في هذا السياق يتساءل" ... متى نفقه تلك العبر التي غفل عنها آباؤنا فدفعونا إلى الوجود دون أن يريدون فهمها وإدراكها... لنسارع يا قوم فننشر خريطة الرفعة وننظر رسمنا بين تلك الرسوم التي رسمت علينا ذلك لو كنا نفقه..."[5].إذن فإن تهيئة الأسباب أو إيجاد العوامل المساعدة في التغيير هو بذاته من الأعمال الصالحة التي رفع ا  بها أمم عديدة وعدا عليه.

إن الاستعداد لما هو آت والتفكير في تصور الوسائل العملية لإحداث التغيير المطلوب هو مرتبط بما أودع ا  تعالى في الإنسان من عقل وفضيلة والسنن الكونية تجري وفق ما يكون من تفعيل للعقل وللتبصر المستقبلي يكتب عمر بن قدور في المقال الفكري" فضيلة الفضائل في

---

(1) - في المصدر السابق نفسه.

(2) - الآية: 39 من سورة النجم.

(3) - من مقال له بعنوان: " دان النهوض ولم يدن" بحصيفة ( الفاروق) 4 يوليو 1913.

(4) - من عادة عمر بن قدور الجزائري كما لاحظنا في دراستنا هذه إعادة نشر مقالات يكون قد كتبها ونشرها من قبل، أو أن يضمن فقرات قديمة لمقالات ونصوص جديدة فمثلا نشر مقالا بنفس هذا العنوان، وبجزء كبير من أفكاره في جريدة " الأخبار" بتاريخ 15 جانفي 1911.

(5) - صحيفة "الإقدام " العدد 107 بتاريخ 1 ديسمبر1922.

همة المفكر إذا اهتم بصالح الأمة : نبهوا هممكم".) لو لم تكن القوانين الكونية مسنونة على حسب ما يبذله العقل وتأتيه البصيرة لذهبت المصلحة المنشودة من هذين الفضيلتين ولأنحط الإنسان إلى مراتب النعم في الأسفلين[1].

فالإنسان الموجود بين وسطه ومجتمعه، كما يرى، تتكون لديه مصالح وحاجيات تحتم عليه العمل وتوسيع آفاق فكرة وآماله بطبيعة السنن الكونية، يستحق نيل واكتساب مختلف المصالح أو تحقيق الغايات الكبرى جهودا متفاوتة حسب مقتضايات الظروف والفرد الذي يسعى إلى أعلى مراتب المجد في الشروط الصعبة ويصل إليها، بعد مكايدة مشقة العمل والاجتهاد فهو الفرد ذو الهمة والعزيمة القوية فيكتب في هذا التوجه قائلا: (... لما كانت مراتب العاملين متفاوتة في العصور الاجتماعية التي تكونت منذ أحقاب طويلة تسني للسنن الكونية أن توجد أعمالا كبيرة في مراتب عالية...)[2].

لكن الإنسان المنفرد لا يمكن ولا يتمكن من تحقيق مصالحه وأهداف وطنه، فقلة هم الأفراد الذين اشتهروا بمثل هذه الأعمال أو الإنجازات،لأن المصلحة البشرية تقتضي تكون الجماعات للتعاون على الأعمال كما يرى مفكرنا المصلح والذي كتب في مقال بعنوان:" الأمم بالهمم" أن: السنن الكونية لما صيرت الإنسان (ضعيفا) بإنفراده لم تسمح له بالنبوغ في مراتب القوة والتفوق...)[3].لأن لكل جماعة همة وعزيمة مؤلفة من همم أفرادية وقد تزيد بذلك المصلحة وتتضاعف القوة وتتطور الرؤى المستقبلية ويتوسع فضاء العمل. ويستند مفكرنا إلى مرجعية الحاضر والراهن مما يشاهد من تكافل الجماعات المنضوية تحت بناء المؤسسات، التي تجسد تنمية المصالح العملية والصناعية والتجارية والسياسية[4].

ولهذا لاحظنا من خلال كتاباته تأكيده على مبدأ التعاون ما بين الأفراد والجماعات لتحقيق الإصلاح وتثمين روح الأمل في المستقبل، وهذا وفقا لهذا المبدأ العقائدي المقرر في القرآن الكريم بمختاف الصيغ فـ( لولا التظافر على المصالح والقيام بدين ا الحنيف لما أمكنهم الوصول إلى ما وصلوا إليه وهذه سنة ا تعالى الكونية في الاستيلاء وتنفيذ الأحكام دينية كانت أو غير دينية والمرء لا يمكنه القيام بمصالح نفسه من دون معين فضلا عن القيام

(1) - أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ 24 أكتوبر 1913

(2) - أنظر صحيفة :" الإقدام" بتاريخ 19 جانفي 1923.

(3) - صحيفة (الإقدام) بتاريخ 23 فيفري1923.

(4) - أنظر المصدر نفسه.

بمصالح أمته... فالتعاون شيء ضروري لا بد منه في أكثر حالات الإنسان...[1] كتب عمر بن قدور هذا المقال، وهو قائم على مسؤوليتين في الساحة الإصلاحية بالجزائر حيث كان المدرس الأساس في مدرسة جمعية الشبيبة الإسلامية ومديرها في نفس الوقت، كما سبق وأن أكدنا عليه.

وإن الاتجاه الغالب من الناحية الفكرية العقائدية، لديه بقي ثابتا خاصة ما اتصل بمنتوج المعاني والدلالات ضمن مبدأ السنن الكونية وحتى بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، لاحظنا إعادة توظيفه لأفكاره الإصلاحية ودعوته التنويرية، في سياق التحولات والتطورات السياسية والاجتماعية، الناتجة عن هذه الحرب. أظهر التحليل، في هذه النقطة العقائدية، رؤيته المستندة للمقاربة ما بين ما تعيشه الأمة الجزائرية والأمة الإسلامية وما وصلت إليه الأمم المتقدمة حيث يكتب في المقال المعنون بـ " ألا فاجتمعوا .."[2]:( لقد رحل القوم في مراحل النجاح فما تخلف منهم واحد حتى شحاذهم وتعاونوا على العمل بدافع العلم فتمكنوا من قوة الجانب وأبرزوا المناصب السامية في الأرض وملكوا أطرافها. وما كان ا مهلكهم حتى يتخاذلوا وإذ ذاك يهنون ويفشلون وتذهب ريحهم وما وجدنا هم عن شر ذلك البوار غافلين إننا في ضلال بعيد ما دمنا لا نتذكر ومن أظلم ممن يسمع ويبصر ويغفل ولا يتذكر إذا ذكرته ولا يتذكروا إذا ذكره أمر ا ...) ثم يقرر أن الأمة إنما هي مفسدة وما أصابها من انحطاط وذل، ناتج عن ظلمها، وبالرغم مما يحدث من حوادث وتحولات للأمم السائرة في طريق الجد والنمو، والناشرة " للإنجازات العلمية، إلا أن هذه الأمة الجزائرية عكفت على السكون والجمود، خاصة فئاتها المثقفة والمتنورة والميسورة الحال التي بقيت متقاعسة عن التعارف والتعاون، والإتحاد[3]. هذه المكونات التي يعتبرها معاكسة للانحلال والتخاذل والتناكر. لأنها حسب رأيه تشكل أحد مظاهر تحقق السنن الكونية كما سنرى.

لكن شخصيته لا تقف عند التحسر والتأسف إزاء الحالة الراهنة للأمة الجزائرية أو الأمة الإسلامية، لأنه آنذاك هو بذاته يستنكر الأفكار أو الآراء المتضمنة روح اليأس من الحاضر ومن المستقبل معا. نعم لقد كانت رؤيته نقدية محضة، لكن تسعى إلى البناء والتجديد في مختلف الأبعاد الإصلاحية والتنويرية، لهذا نراه يقول بأن الأمة الإسلامية إنما بلغت تلك المكانة والمجد بالعلم ونشر الدين وتحطيم الخرافات والجهل. لكن ذهاب تلك الأسبقية العلمية والمدنية

[1] - مقال: " التعاون " بصحيفة (التقدم) الجزائرية بتاريخ 01 أوت 1924.

[2] - في صحيفة (الإقدام) بتاريخ 16 فيفري1923.

[3] - أنظر المصدر السابق نفسه.

الحقة بحصول بعض الفتور وتسرب الجهل وظهور البدع والفساد كما كتب في مقال " نفثة مصدور"[1]، في الأرض بما كست أيدي الناس وفشت المنكرات فشوا ذهب بالأمة والدولة والكتاب والسنة وصير المسلمين في الأذلّين محتقرين مستعبدين أين ما حلوا وأين ما وجدوا سنة أمة في الذين خلاق ولن تجد لسنة ا تبديلا" [2].

فهو يستند إلى هذه الآية القرآنية الدالة، على ثبات السنن الإلهية في الكون، وبالتالي المتضمنة الأخذ بأبعادها العملية المعززة لوجود الأمة. بهذا فبعد الحرب العالمية الأولى، وحينما لمس حراكا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا من جانب الجزائريين، خاصة في فترة العشرينات من القرن العشرين، قام ينوه به، بما شاهد وعايشه من همه وإرادة في التغيير في ذلك السياق الاستعماري اعتبر الأمر روحا جديدة تسري مابين الجزائريين، وستجني وتجسد أهدافها يوما ما، مثلما دعا إليه قبل تلك الحرب الكبرى، من استنهاض الهمم العملية والإصلاحية لإيجاد الأمل مع أجيال الغد. هكذا كتب في مقالا ذي عنوان، له حمولة دلالية إصلاحية وتنويرية وهو:" نحو النهوض" نشره في سلسلة (الفاروق) الثانية (... وإنا لنستبشر من هذا الشعور نحو النهوض الذي نفخت روحه في قلوبنا السنن الكونية من حيثية سريان روح جديدة بين العناصر المتكون منها شعبنا هذا ولا سيما العنصر النشيط الميزابي الذي على نشاطه الاقتصادي العجيب المعول في تحقيق النهضة الاقتصادية)[3].

إذا كان قد نوه هنا بالنشاط الاقتصادي للميزابيين الجزائريين، فإنه أحس نفس الشيء في الجانب الاجتماعي، حينما وجد هِمما جزائرية أخرى تعتزم تحدي الإدارة الاستعمارية، وتتجاوب مع حركة الإحياء وحب النهضة، بسبب هذه الانقلابات الاجتماعية المفصلية، الحاصلة في العالم من أجل البقاء والحياة. وحب النهوض الساري لديها، هو الذي يستند على بناء الحياة بالعلم والعمل. فهو يقدم تساؤلا في ذلك السياق: إننا الآن هل نستطيع النهوض؟ تماما كما طرح من قبل ويطرح في هذا المضمار مسألة تقدم الغرب وتأخر الأم المسلمة. ورأى أن الجواب في تلك اللحظة التاريخية من الواقع الجزائري ليس بالصعب – فيكتب بلسان المتكلم ) لأجد الجواب

[1] - في جريدة " التقدم" الجزائرية بتاريخ 15 أكتوبر 1923.

[2] - يشير إلى الآية: 62 من سورة الأحزاب.

[3] - أنظر (الفاروق) السلسلة الثانية - العدد (4) بتاريخ 29 أكتوبر 1920.

سهلا... إن البذور لابد أن تنبت نباتها بدافع السنة الكونية وقد رأينا آثار ذلك- قولا لا فعلا - في أدمغة الناس" [1].

وكان هنا يشير إلى الزعيم السياسي الجزائري الأمير خالد الذي قام بإلقاء، أياما قبل ذلك في مدينة الجزائر، خطابه في الحث على العلم والتعليم، واعتبرها نصا إستنهاضيا يعمل على تحريك القلوب نحو النهوض، من خلال تشكيل جمعية لفتح المدارس الحرة التعليمية[2].

والمفكر[3] المصلح عمر بن قدور الجزائري هو بذاته لما شارك في تأسيس المدرسة التعليمية الحرة، التابعة لجمعية الشبيبة الإسلامية الجزائرية، خاطب في محاضرة بعنوان: "التعليم " سنة1923، الحاضرين بمقرها، معتبرا قوله تعالى" ليس للإنسان إلا ما سعى" نصا يتصل بوجود الإنسان وهو الذي حفز الأمة المحمدية لأن تحقق التقدم وتحقق وجودها ما بين الأمم. وما حصل التقهقر لها بالتدريج يمكن فهمه في إطار سنن الغلبة والارتقاء. كتب قائلا[4]: ومفسرا نتيجة السعي من أجل التطور: (..هذا سعي ترقي عن واستعداد روحاني أضاء بعامل التحريك والاستخدام في سبيل نيل سعادة حيوية هي في الحقيقة فانية ذاهبة عن أربابها كما أنهم سيذهبون عنها ولكنها بلا ريب حجج أقامها الرب جل وعلا على من يزاولها كما قال تعالى[5]: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد".

هذا الإيمان المتجذر فيه، بسريان روح وشعور وطني حقيقي من أجل إحداث التغيير واستعادة الأمل في المستقبل، إنما هو نابع، كما سلف ذكره في تحليلنا هذا، من رؤيته الإصلاحية التنويرية المستندة لمبدأ السنن الكونية، والذي يعكس أيضا عقيدته الدينية الإسلامية وثقافته المتفتحة على إنجازات الإنسانية كافة، في ماضيها وفي حاضرها. لهذا نراه يستحضر التاريخ كمكون منهجي في منظوره التجديدي، وضمن هذا السياق لاحظنا استشهاده بما وصلت إليه الأمة العربية في إنجازاتها الحضارية بفضل الدين الإسلامي. إن التشبع بالروح العقائدية السارية في القرآن الذي هو كلام ا المنزل على الرسول (عليه الصلاة والسلام) مكن معتنقي

---

(1) - في (الفاروق) السلسلة الثانية- العدد (3) بتاريخ 22 أكتوبر 1920.

(2) - أنظر (الفاروق) بتاريخ 15 أكتوبر 1920.

(3) - وفعلا سيؤسس الأمير خالد " جمعية المؤاخاة الجزائرية " سنة 1922.

(4) - صحيفة ( التقدم) بتاريخ 15 ديسمبر 1923.

(5) - الآية: 53 من سورة فصلت.

الإسلام من يبعث فيهم حب استقلال الإرادة والاعتقاد وحرية الضمير والثبات في مسار الحياة العملية والتي هي مما تتماشى ومبدأ السنن الكونية في هذا السياق كتب مفكرنا قائلا: (كان القرآن ببيانه العربي أمام العرب ومبدأ تعاليم ضمائرهم، فلما تشبعوا بروحه وثبتوا عليها تمكن منهم حب الثبات ولما رسخت حكمة في قلوبهم رسخت عزائمهم في صدورهم ولما استكانوا إلى مبدئه الاستقلالي استكان الاستقلال وعلو الهمة في أدمغتهم وانجرت إليهم جميع الخلال الحسنة والأخلاق الجميلة والخصال العالية بجذب بعضها بعض، ومن هذه الكيفية سمحت لهم السنن الكونية أن يكونوا مصدر إصلاح البشر وتمدينهم، وتسنى للدين أن يتم ا لهم....لما نضجت خلاصة التوحيد في قلوبهم) [1].

إذن فاستحضاره لتلك الصورة الحضارية التاريخية، ليس من قبيل الحنين إلى الماضي والتخفيف من شدة الظروف الراهنة، المتسمة بالتخلف الحضاري والعيش تحت نير الاستعمار. إنما القضية يراها مصيرية " بالنسبة لمن أراد التغيير والإصلاح في الجزائر وفي العالم العربي الإسلامي اعتبار العقيدة الخالصة أحد المنطلقات المعول عليها في هذا السياق، ليس للمسلمين فقط وإنما للعالم والبشر بأسرهم. لأنه كما قال في نفس هذا النص الصحفي(متى عرف) (الإنسان) ا وقدره حق قدره، فإنه يؤتيه أجره مرتين ويجعل السنن الكونية تجري وفق مقاصده ...)[2]. وحتى لا يكون تصوره الفكري قاصرا عن التطرق إلى أسباب التراجع أو الانحطاط، وبالتالي تغدو ثمة إمكانية فعلية في العمل الواقعي، فهو يسعى إلى تقديم تفسير لهذا الانحدار، حيث كتب: (لولا أن القرآن كان أصل نهضة العرب، والإسلام قوام رقيهم- لكان انحطاطهم بسبب تضيعيهم لمبدأ اتخاذهم وتظافرهم، سريعا وفظيعا في وقت واحد. ولكن برحمة ا كان انحطاط العرب بطيئا بالرغم من أن نهضتهم التي سبقتهم كانت من أبدع ما كان سرعة وانتشارا. وكأنني بالسنن الكونية وقد أخذت تنتظر من العرب في أثناء انحطاطهم البطيء أن ينتبهوا إلى خللهم فيلاقونه بالرجوع إلى روح الاعتقاد التي أنهضتهم أول مرة والتي لازال أصلها بين أيديهم في كتاب ا وسنة رسوله فترجع إليهم دولتهم..."[3].

فنلاحظ إذن مقاربته لمبدأ السنن الكونية، كيف تستند إلى التاريخ، لكي تستحضر المبادئ المعززة لمنهجه الإصلاحي، باعتبار المنظور العقائدي أساسيا لتحريك عزائم

---

(1) - أنظر : صحيفة (الفاروق) بتاريخ 25 مايو 1914.

(2) - المصدر نفسه.

(3) - في صحيفة ( الفاروق) بتاريخ 15 يونيو 1914.

الإصلاحيين المتنورين، وبث روح الأمل في أفراد الأمة للعمل النهضوي، في مختلف الميادين العلمية والصناعية والسياسية. وقال في مقال آخر: (ما وجدنا السنن الكونية تمنع الهمم أن تثور ولكن الحالة الأخلاقية تفت في ساعدها متى كان الناس عن العمل معرضين ..."[1]. وأوضح في نصوص أخرى شواهد تاريخية مستقاة من قصص الأنبياء الواردة في القرآن الكريم كرموز سامية لهمم الإنسانية في المثابرة إلى الدعوة إلى الحق وتهذيب الشعوب الجاهلة من أقوامهم. حيث جاء في مقال له بعنوان: " نبهوا هممكم "رابطا سيرة أولى العزم من الرسل المتسمة بالثبات والمقاومة بالسنن الكونية التي مصدرها خالق الكون سبحانه وتعالى: (...يسر ا أن تهرع إلى التمسك بسننهم جبابرة وقياصرة وفراعنة وطغاة كانوا يفسدون في الأرض خنعوا لتلك السنن (القدسية) موقنين بصلاحيتها وفضلها ولم يتسنى (كذا) الأولى العزم إثبات الحقيقة للجاحدين والفجار من أقوامهم إلا بعد الثبات على المبادئ المستقيمة التي سنها ا لهم ولقد تشحذت هممهم فقاومت وثابرت ثبت العزم منها على الحق فظفرت..."[2].

ثم إن إشارته إلى الشخصيات التاريخية الأخرى، التي لازال العالم يتذكر أمجادها وفتوحاتها بالرغم من اعتباره لها تدخل ضمن النوابغ الطغاة، الذين عاشوا زمن الحضارة البابلية، أو من الفاتحين في العصور الغابرة أمثال " لإسكندر"المقدوني، فرأى أن غرضهم إنما انحصر في البحث عن المجد، واكتساب السيطرة والاستعلاء في الأرض. والتاريخ حينما قام بتدوين أخبارهم، فهذا أمر إيجابي، لتكون ثمة حجة قائمة على البشر فيما يعملون مدى بقائهم وهو قد تساءل كيف تسنى للتاريخ أن يسجل سيرة هؤلاء، رغم تغاب القيم الأخلاقية السلبية، واعتبارهم نموذجا للهمم العالية والعزائم السياسية يرى أن انجذاب طبيعة البشر للقوة، هي التي اتخذت كمعيار في ذلك. خاصة وأن سنن النهوض والارتقاء في الشعوب والأمم تحكم بذلك المقياس[3].

---

(1) - أنظر مقال " الأمم بالهمم " نشرة بصحيفة ( الإقدام ) 5 جانفي1923.

(2) - في صحيفة ( الفاروق) بتاريخ 24 أكتوبر 1913.

(3) - أنظر المصدر نفسه.

## السنن الكونية والظاهرة السياسية المعاصرة:

توصلنا من خلال تحليل النصوص الصحفية محل الدراسة، إلى أن المفكر عمر بن قدور الجزائري كان بالفعل نموذج المثقف المصلح، الذي عاش عصره بفكرة وجدانه الإنساني بحيث لم يكن في قطيعة مع واقع أمته الجزائرية ولا مع واقع العالم العربي والإسلامي ولا حتى في قطيعة مع التطورات والأحداث العالمية، خاصة السياسية منها. إن تناوله للهموم السياسية، أو بالأصح للظاهرة السياسية المعاصرة، تجلى لنا في رؤيته النقدية السياسية لمرحلة انهيار الدولة العثمانية، وفي رؤيته التحليلية للصراع الدولي العالمي، من خلال الظروف التي مهدت لقيام الحرب العالمية الأولى ثم لإستشرافه العميق لتلك التحولات الخطيرة على الساحة السياسية. أما القضية الأخرى لهذه الظاهرة، فتتمثل في ورود أفكار وآراء حول الاستعمار أو الاستعباد ومصيره. لكن ما يهمنا الآن، حسب منهجية تحليلنا، هو علاقة هذه العناصر السياسية بمبدأ السنن الكونية العقائدية، التي شكلت ارتكازا أساسيا في منظوره الإصلاحي التنويري والعقلاني.

كانت قضية انهيار الدولة العثمانية رمز الخلافة الإسلامية، أمام القوى الاستعمارية الأوروبية بمناوراتها أيام الحرب البلقانية وجراء السياسة الداخلية التي تولاها حكامها، تشكل محورا أساسيا في تحليلاته السياسية النقدية المعاصرة له آنذاك. واعتبر ذلك المصير نتيجة الإهمال المرتبطة بقراءة الأوضاع السابقة والحالية قراءة نقدية للاستفادة والاعتبار ومغبة هذه الحقيقة السياسية تصيب أي مغفل من البشر، ولكنها مشيئة ا التي وضعت سننا وقوانين للنهوض وللسقوط. يكتب عمر بن قدور مقالا بعنوان ذي دلالة في هذا المقام، تحت عنوان "مصيبة تركيا في عدم الاعتبار" ويقول فيه (... وما سنن ربك بعبث ولكنها مواد من قانون حكم غيبه وغيب حكمه تجري على مقتضى أن لا معقب لأمره...)[1]. وبالرغم من هذه الضربة السياسية لدولة عريقة وعظيمة، إلا أنه يلفت انتباه القراء إلى عدم تناسي الأعمال الكبرى التي قام بها، رجالات لها أمثال "محمد الفاتح" و"سليم يازر". مع ذلك يرى في هذا الحدث ذكرى ضربة تاريخية قاسية على الشعوب الإسلامية وهي نكبة الأندلس، التي كانت بمثابة سقوط ذلك العـز العظيم، والتقدم الكبير، والمجد الشامخ الرفيع [2]. ويتوقع حدوث ضربات أخرى قاضبة، إذ لم يعتبر المسلمون بما يحدث في راهنهم وحولهم. حيث جاء في هذا المقال (... أودع ا في الكون من الحكم ما تنوء به كواهل العقول، ومن أبدع تلك الحكم كون

---

[1] - أنظر جريدة ( الفاروق) بتاريخ 02 ماي 1913.

[2] - أنظر المصدر السابق نفسه.

البشر صم بكم عمي تجاهها، وإن أودعوها من أدمغتهم يوما ما محلا واسعا فكالذي يودع الرماد في ظروف الرياح لا يلبث أن يذهب في الفضاء مبعثرا مشتتا، هذه قضية تبدو دايما في أدوار التاريخ القديم والحديث..."[1].

ثم يرى أن أحد أسباب هذا التراجع والانحطاط الذي يدع فرصة للمفكرين في بذل النصائح والتصورات الإصلاحية هو بروز الانشقاق والتناكر بمعنى غياب الإتحاد والتعاون بمختلف أشكالهما، حيث يوضح متابعا (هذه تركيا ومثلها الدول الإسلامية الأخرى، اختلفت وتناكرت، فما كانت تتذكر ما كان يصيبها من جراء اختلافها وتناكرها لأن داعي الانحطاط ذو سلطان عظيم وجانب مكين تشتت جلبته ويعلو صوته..."[2].

وفي مقالا سياسي آخر، النقد سياسية تركيا الداخلية والخارجية عقب إعلان الدستور (الذي كان سنة 1909) وأشار فيه إلى مدى متابعته للتطورات السياسية بتركيا وإلى مختلف الإصلاحات التي لم تكن تعبر عن أفكار رصينة وكتب في ذلك فصولا كثيرة في جريدة (الحضارة)[3] التي كان يتصدرها بالآستانة.

لكن يظهر له أن تلك المقالات النقدية لم تكن مؤثرة، بحيث تنامى الخطر، ونما الجهل الذي سيطر على الأفكار والعقول، وحدث مما حدث من اقتسام آسيا العثمانية وحتى قطع أخرى من أوروبا العثمانية فـ (أذن ا بخراب القرى وذهاب سلطة آل عثمان من قطعة أوروبا فأيقظ ظغائن البلقانيين وءاتى بساعة الاقتسام فجاءت بغتة وأوربا صفا صفا وعندي إنها لم تأت بغتة بل سبقتها النذر وما كان ا ليهلك قرية حتى يبعث نذيرا ... [4]".

وفي مقال بعنوان: مستقبل تركيا: " مشروع تقسيم آسيا العثمانية قد وضع على مائدة السياسة "اعتبر أن مشاريع التقسيم التي تعكس تكالب القوى التسلطية الاستعمارية على الدولة العثمانية نوعا من انتقام الإرادة الإلهية، التي تومئ إلى السنن الكونية في حياة الأمم وموتها ومما جاء فيه (... لقد لاح للعيان كيف تنفذ المشاريع الاستعمارية الأوروبية وكيف تجري تلك السياسة الغربية ولا يحسبن أحد أن ذلك شأن شاذ يوجب الدهشة والفزع بل هو أمر مضى في

---

(1) – المصدر السابق نفسه.

(2) - المصدر السابق نفسه .

(3) - جريدة (الحضارة) التي أصدرها كما قلنا صديقه عبد الحميد الزهراوي سنة 1910. أنظر معجم الجرائد السورية 1865- 1965، مهيار عدنان الملوحي، ط 1، دمشق 2002.

(4) - " مصيبة تركيا في عدم الاعتبار: عبرة عامة" في صحيفة (الفاروق) بتاريخ 09 ماي 1913.

أدوار التاريخ بفعل أفعاله فينتقم ا بواسطة ممن حاد عن جادة الصواب من الأمم ويستخلف قوما آخرين ..."[1].

لهذا فقد اعتقد أن عدم تضافر الشعوب الإسلامية وعدم تضامنها شكل أحد العوامل الداعية للانحطاط والتعرض للاحتلال فلا تضامن الدولة العثمانية مع طرابلس الغرب (ليبيا) حينما تعرضت للهجوم الاستعماري الإيطالي، وعدم اعتبارها بما حدث لمراكش (المملكة المغربية) كان مما مهد لسقوطها. حيث كتب في هذا السياق، تحت عنوان يحمل دلالة العبرة وقراءة الدروس الكونية من واقع الحياة السياسية وهو " ما أكل الثور الأحمر إلا لما أكل الثور الأبيض") إن الإسلام يدعو معتنقيه إلى الائتلاف ويحضهم على التضامن... لكنهم لما جعلوا بأسهم بينهم (المسلمين) وانتقموا من بعضهم البعض بالأجانب عنهم ... انقرض على الأثر شأنهم بين الأمم، وتلك الأيام ينزع ا دولتها ممن تنافروا وتنازعوا ويهـبها لمـن تضـامـنوا واتحدوا..."[2].

ثم يؤكد إلى أن داء اللاتضامن يضرب بالأمم والأفراد معا فالذي يسلم ضعيفا لقوى حتى يفتك به ويقضي عليه، فإن الفتك والضربة القاضية ستأتيه لا محالة، ويشير بطبيعة الحال في تلك الفترة إلى إستهانة الدولة العثمانية في حماية والتضامن مع طرابلس الغرب ( ليبيا) [3]. واعتبر وقوع قادة تركيا في فخ الغرور من أفدح الأسباب التي أدت إلى سقوطها[4]. وهو داء أخلاقي قبل أن يتحول إلى سلوك سياسي مشين.

هكذا فبالنسبة إليه الأمر سيان مابين الأفراد والشعوب في قضية التضامن والإئتلاف لدى وجود الأزمات ويدعو القارئ إلى التأمل بإمعان فيها ليجدها المحور الذي تدور عليه رحى السنن الكونية والنواميس العمرانية أي الحضارية إن ما حدث للأمة الإسلامية من هلاك وانحطاط كان أحد أسبابه تنازع المصالح والأغراض الذي أضعف من مكانتها فيما بعد، ولكنها

---

[1] - أنظر صحيفة (الفاروق) – العدد: 12 بتاريخ 16 ماي 1913.

[2] - " ما أكل الثور الأحمر إلا لما أكل الثور الأبيض" من المقالات السياسية العديدة التي نشرها في جريدة " الحضارة" وأعاد نشرها في صحيفة ( الفاروق) : أعداد : 52+53 من شهر ماي 1914.

[3] - (الفاروق) العدد: 53 بتاريخ 23 مارس 1914.

[4] - أنظر صحيفة ( الفاروق) بتاريخ 16 ماي 1913.

كما كتب[1] " سنن الكون تثب على أمة خالفت منطوق الأوامر التي سنها مناهضوها ومقيموا سلطانها بعد أن كان معدوما وا يقول (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)"[2].

لم يكن لينشغل بمفهوم الأمة العربية والإسلامية، منطلقا في هذا أيضا من الواقع الجزائري، وإنما شكلت الأوضاع العالمية في ملمحها السياسي، جانبا " تنويريا" وعقلانيا في مقاربته لها من خلال المنظور العقائدي لمبدأ السنن الكونية، وكانت الحرب البلقانية في أوروبا مجالا لتحليل وتقديم رؤية سياسية، من قبل مفكر مسلم يعيش في تواصل مع عصره ومكانه يحاول إفادة وتنوير الفضاء الحيوي الذي يعتز بالانتماء إليه ، قصد تحقيق النهوض المعول عليه اعتبر الصراع الذي كان دائرا ما بين البلدان الأوروبية صراعا من أجل صيانة مجالها وتمكين القوة للسيطرة على البلقان وكانت تلك الحرب البلقانية الثانية، بعدما ما مضت الأولى بتوريط الدولة العثمانية فيها حتى يتم تجريديها من حق السيطرة على الشعوب الأوروبية مسيحية. لكن ما يهمنا في مقاربته هو نظرية للمشكلة من زاوية المبدأ العقادي، حينما اعتبر البغي والعدوان خذلان، وإن كان مرتكبه يمتاز بالقوة الهيمنة وذلك حتى يعلم كل متجبر ظالم أن عاقبة أفعاله تنقلب عليه، وحتى تتضح أيضا عبرة المطامع السياسيـة، فإن لـكل آكل أكول كمـا قال [3].

في نفس السياق يقترب المفكر عمر بن قدور في تفسيره للصراع الدولي، من نظرية النشوء والارتقاء الداروينية خاصة في قضية التنازع من أجل البقاء حيث كتب قائلا: (لقد اختصم السياسيون ولازالوا يختصمون والغاية من ذلك حفظ الحيز وتمكين القوة وما كان لهم أن يوقفوا تيار هذه الحرب البلقانية ما لم يتحقق لهم زوال الضغط الحاصل على حدود أطراف ممالكهم، فهنا السنن الكونية تجري على مقتضى إيتاء البشر وفق ما يصنعون وحسب ما يعملون، وهنالك للتنازع في الوسط الإنساني يجذب قوما ويلفظ آخرين ليبقي الثابت القوي ويبين الساقط الضعيف ..."[4].

في مقال آخر بعنوان ذي دلالة في هذه المسالة وهو " أوربة – وحرصها على الحياة والبقاء والنمو في القوة " أوضح أن المكانة التي تتمتع بها أوروبا ناجمة عن القوة التي

---

[1] - أنظر : صحيفة الفاروق بتاريخ :13 يونيو 1913.

[2] - الآية: 46 من سورة الأنفال.

[3] - من مقال له بعنوان: التصادم السياسي أو تيار المطامع في الشرق: الفاروق – 18 جويلية 1913.

[4] - أنظر المصدر السابق نفسه.

حصلت عليها وبلغتها في ميادين عدة، منها السياسة العلمية المعتمدة على الابتكارات واستغلال الثروات المعدنية( الحديد) وصناعة التسلح والسفن، بالإضافة إلى سياستها الاستعمارية ويتساءل في هذا السياق، حول الهدف الذي يرمي إليه كل هذا الحرص من الإنسان على استيفاء عوامل القوة ووسائلها ومنها وسائل التدمير والتخريب من قوة حديدية ومدمرات جهنمية حربية. إن كان ثمة هدف نحو التطور فذاك طبيعي أما كان فضيلة القوة والهيمنة والتدمير والإفساد في الأرض لتعزيز نزعة البقاء هي المتغلبة – فإنما هذا قلق لا ينال منه الإنسان ولا الأمم خيرا..." سيما وأن أوربة لم تتذكر كيف وهن الذين حلوا وأرهقهم قلقهم، وكأنها لم تتذكر إلا لينتال عليها ما نتال على من تقدمها، سنة ا في الذين خلوا من قبل وفي اللاحقين ولن تجد لسنة ا تبديلا..."[1].

فلنلاحظ إذن هذه المرجعية العقائدية التي يعمقها أكثر فأكثر استنادا إلى الخطاب القرآني، من خلال هذه الآية [2]. التي لا يعطي لها بعدا مستقبليا في إطار حرص القوى الأوروبية على بناء قوتها العلمية والحربية فقط ولكن أيضا ببعد يحمل استشرافا لواقع مرير ستعيشه الإنسانية، وتكون أوربا هي مسرحه، نتيجة هذا التسابق والصراع، والمتمثل في اندلاع الحرب العالمية الأولى، سنة" بعد كتبته لهذا المقال يرى أن ميل الشعوب والدول قديما وحديثا إلى تنمية قوتها، وحتى الميل إلى العدوان والعتو والظلم، موجود في الدول الصغرى، كما هو موجود لدى الدول الكبرى ولكن الدول الصغرى في الغالب تستند في تنمية قوتها ووجودها إلى دولة أو عدة دول كبرى، وهذا ما حصل بالنسبة إلى وجود الدول البلقانية بإعانة الدول الأوروبية الكبرى، مع العمل على تجزئة الدولة العثمانية، أي تفكيك قوتها ومجالها الحيوي ويرى في هذا النص الصحافي السياسي، الذي وردت فيه رؤيته في التنافس الدولي وتوازن القوى بأن (الأصل في إيجاد قوة التسليح، الطموح إلى النمو والمحافظة عليه أخطار المزاحمين، وهذه سنة كونية تقيدت بها أطوار الأمم والشعوب في حالتي النهوض والسقوط...)[3].

---

[1] - في صحيفة (الفاروق) بتاريخ 26 أغسطس (أوت) سنة 1913.

[2] - الآية 62 من سورة الأحزاب.

[3] - أنظر مقال:" بعد جناية سراجيوة، تطاحن الشعوب" بجريدة (الفاروق) العدد: 72 بتاريخ :3 أغسطس(أوت) 1914.

أذهل اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1914 المفكر عمر بن قدور الجزائري، ليس ذهول الحيرة والمفاجأة من تلاحق الأحداث السياسية والحربية لكن ذهوله هذا هو ذهول المفكر العقلاني، يشهد مرة أخرى مجرى القوانين أو السنن الكونية، وهي تتمثل أمامه وهو الذي تساءل في مقال كتبه قبل الاندلاع هذه الأحداث قائلا: هل تحل الساعة الهائلة ؟ [1].

هذه الأزمة السياسية العالمية أو " حرب الشعوب الأوروبية " كما سماها في البداية [2] جعلت رؤيته تمزج الحقيقة بالمجال. فعبر عن حيرة العقول الواعية والمفكرة أمام القضايا والحوادث التي تطرحها هذه الأزمة، والتي تعكس سننا ونواميس واقعية تعيشها البشرية، تجعل الإنسان المفكر يتواضع ويخشع لما يراه ويسمح به كانت افتتاحيته في جريدة (الفاروق) التي بعنوان" حديث الحوادث" تعكس هذه الهواجس الفكرية وحتى الفلسفية، إنطلاقا من الحتمية المعرفية للإنسان في فهمه للقيم الأخلاقية المتصلة بالخير والشر معا حيث انتقد الفلاسفة الذين توقفوا في النظر إليهما من زاوية التناقض والتضاد الكامن في غريزة البشر، دون البحث في تفسيرهما بالقضايا والحوادث الحقيقية التي هي موجودة في الواقع[3]. إن الحرب العالمية هذه إنما هو من قبل مبدأ التنازع من أجل البقاء، بين نزعتين ظاهرتين في الشعوب المتحاربة النزعة " الإنسانية" والنزعة" الهمجية" هنا يقدم تحليله واستشرافه المستند إلى السنن الكونية الذي يتنبأ فيه الانتصار لقوى التحالف أنصار" الإنسانية" وهي فرنسا وحلفائها [4]. وكتب في مقال" عاقبة البغي والعتو" يجسد فيه فعليا مصير الدول المتسلطة والمتجبرة الذي هو التلاشي والاضمحلال، مشيرا إلى هزيمة ألمانيا مستقبليا(لقد أذن ا أن تكون عاقبة العتو عاقبة سقوط وبوار وإهانة ومذلة ومسكنة، وعليه فلا غزو إذا أذن سبحانه أن تكون عاقبة أمة الجرمان العاتية عاقبة تلاشي واضمحلال يثدك بها عرشها، وينثر عقدها، ويتمزق ملكها ويسقط تاجها، فلتلاقي أمة الجرمان إذن ما لقبه غيرها من الأمم الغابرة في التاريخ، التي كان عاقبة أمرها خسرا لما عتت وتجبرت في الأرض، وما سيلاقيه غيرها من الأمم في المستقبل متى سلكت وعتت عتوها، وكما تدين تدان سنة ربنا فالكأس قهر والسقاه وكماه...)[5].

---

[1] - المصدر نفسه.

[2] - أنظر مقال: " حرب الشعوب الأوروبية" : الفاروق بتاريخ 10 أغسطس 1914.

[3] - أنظر (الفاروق) بتاريخ : 11 سبتمبر 1914.

[4] - أنظر صحيفة (الفاروق)العدد 81 بتاريخ 9 أكتوبر 1914.

[5] - أنظر مقاله " حديث الحوادث : عاقبة البغي والعتو " بصحيفة (الفاروق) بتاريخ 18 سبتمبر 1914.

إن استقراءه للأحداث الراهنة آنذاك ووفقا لنظرته العقائدية، العقلانية المعززة لتحليلاته السياسية، ذات الأبعاد الإصلاحية التنويرية، جعله يؤكد مرارا وفي مقالات عدة ثبات استنتاجاته حيال الصراع الدولي، في صعود دول جديدة أو قوميات سقوط دول وقوميات أخرى، لهذا يوضح بأن) إمعان المرء النظر في مجريات الحوادث، وفي غرائبها يجد السنن الكونية القائمة بتميز القوميات البشرية ومقوماتها كالسواعد القوية، تنقل بعدل قومية" من رتبة وتضع أخرى محلها، وترفع تلك وتخفض أختها... دون أن تمس الصلاحيات بحيف حسب عمل أربابها علم أو جهل، تقدم أو تأخر، إتحاد أو انحلال واتصال أو انفصال، تعارف أو تناكر، تعاون أو تخاذل[1].

وحتى يتمكن المحلل المصلح الداعي إلى النهوض واليقظة السياسية، فإنه يتوجب عليه، حسب المفكر عمر بن قدور، أن يستوعب أسباب الصراعات والنزاعات السياسية التي تستهدف امتلاك الثروات الأرضية والسيطرة على المجالات الحيوية، لإدراك سر السنن الكونية في دالة الدول وتغيير أوضاع الشعوب والأمم[2].

إنه يؤمن حقا بأن خريطة العالم مقبلة على التغير، وبالتالي ينبغي النظر إلى هذا الارتباك السياسي والاقتصادي والاجتماعي العالمي يتميز كبارقة أو شعاع خير يصور ما هو آت في المستقبل في شكل إيجابي، يقتنص العدل عبره من البغي وينتقم الرشد من الغي والضلال وليضع، كما كتب (السنن الكونية حدا لهذه الشراهة البشرية التي أطلعت كل هذه المصائب على العالم، فليس من العجيب أن تنتفض كافة القضايا الفولاذية التي كان المعجبون بشراهتهم يرتبونها على واجهة الشرق والغرب وتصبح هذه الساعة الهائلة (أي الحرب العالمية)... مؤذنة بانصرام عصر ربقة العالم وانبثاق فجر أوان تحريره من ربقة الاضطراب وقيود الارتباك، وإنقاذه من مئازق التنافس ... ليعيش البشر بعد ذلك في أرغد عيش... وما ذلك عليه سبحانه بعزيز)[3] .

وكانت قضية الاستعمار واستعباد الشعوب إحدى القضايا السياسية التي عالجها في مقالاته الصحافية التحليلية المتابعة لتطورات الأحداث عالميا إن كونه مثقف ومفكر جزائري عاش في سياق استعماري، وعانى مرارته، جعله يوسع من رؤيته لدلالة الأوضاع الخطيرة

---

[1] - في مقال بعنوان " مطامح الأمم في الحياة" ( الفاروق 30 أكتوبر 1914 .

[2] - أنظر (الفاروق) العدد : 88 – بتاريخ 27 نوفمبر 1914.

[3] . - أنظر جريدة (الفاروق) العدد: 92 بتاريخ: 15ديسمبر 1914.

والمفصلية التي يعيشها العالم نعم أحس، انطلاقا من تتبعه الإعلامي وتفاعله مع ما يحدث، بأن خريطة العالم ستعرف تغييرا وأن طبيعة التغيير من سنن ا في الكون، لهذا دعا المصلحين أو المفكرين في مقال بعنوان: اليوم عسير والغد يسير" إلى استقراء مستقبل التحولات والأحداث، خاصة التركيز على انعكاساتها بالنسبة للأمة الإسلامية الواقعة تحت ربقة الاستعمار والاضطهاد.

ثم إنه يتوعد المتسلطين، الذين يريدون بقاء الشعوب تحت الاسترقاق والعبودية، ويعتبر ساعة سيرورة الأحداث وانقلاباتها قد حانت ولهذا كتب في هذا التوجه، من وجهة نظر عقائدية (... ما إن الأوان لأن يفتكر شخص منهم في أن الأيام دول وأنها تنفذ أحكاما يسطرها الإنسان بأعماله على صفحاتها، وتجري قضايا يخطها عن رضى منه في دفاترها إن ذلك لم رين) قط لأحد قدر له أن يكون فردا من أمة ارتكبت الشطط في مطامحها، وتهورت في استضعاف الأرض ومناكبها وابتلاع المدائن ومنافعها"[1].

إن أيام الحرب العالمية بما حوته من صور الصراع والتنافس، والدمار والتخريب المضر بالإنسانية، لا شك ستكون من الأسباب الداعية إلى إعادة الاعتبار لقيم العدالة والتسامح والحق والسلام من هنا سوف يكون ثمة حرص كبير على التفكير في مصير الشعوب المستضعـفة في العالم، ومنها الشعوب المسلمة، يقول محذرا ومخاطبا أنصار الاستعمار، في نفس هذا النـص الصحفي (على رسلكم أيها المتسلطون لئن رغبتم الاستعمار أو حزمتموه في مواطن الشرقيين واستضعفتم ديارا لم تطؤها إلا لغباوة أهلها وكثرة فجارها، فلقد أتتكم الأيـام بأن تنكبوا على الأعقاب خاسرين، لقد جاءتكم الساعة بغتة وأنتم في جفوة عن أن تتصاغوا للنذر أو تكونوا قوما عادلين ... سبحـانك ربـي قد أبدعت سننـا مستقيمة في أكوانك المعمورة وحكمتـها في ضمائر خلقك ... " وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها في غفلة عن ثبوتها "[2]، بل كانت التذكر تتراكم في الأذهان ... واستعدت خريطة العالم لأن تتبدل وتتغير، وتهيأت الشعوب القوية لأن تتنازل للشعوب المستضعفة عن عروشها...)[3] .

---

[1] - أنظر مقال " اليوم عسير والغد يسير" بالفاروق بتاريخ: 04 ديسمبر 1914.

[2] - نشير إلى الآية : 117 من سورة هود.

[3] - المصدر نفسه.

ثم يلمح إلى مصير وإحدى الأمم المستعمرة، إبان تلك الحرب، والتي هرمت الآن، واستضعفت شعوبا مسلمة (فأرهقتها وسخرتها وامتصت منها دم الحياة واستنزفت خيراتها وكذلك يأخذها ربك أخذ القوى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد...)[1].

أما السنن الكونية فهي تماشي الأمم المنتصرة للقوة الحقة، العاملة لإعلاء كلمة الحق بين البشر، بحيث تبقي عليها (وتعمل بإنصاف لتنفذ قوما ذاقوا عذاب الاستعباد والاسترقاق من الشعوب التي استضعفها المتسلطون، وتخلصها من قبضة المغيرين المسيطرين...) [2].

إذن فهذه رؤية عقائدية تنويرية، تبث في العقول المفكرة العاملة على استنهاض همم الشعوب العربية والإسلامية، يقينا مستقبليا ليضاف إلى المكونات الرئيسية لهذا المبدأ الإلهي الذي أودعه ا سبحانه في النظام الكوني إنه الأمل المعول عليه مع أجيال الغد في استرجاع الهوية الإسلامية الجزائرية، وفي تحرير الشعوب المستضعفة ومنها الشعب الجزائري وهذه المرجعية الروحية،التي تغمر المفكر المصلح بالرجاء والأمل، حتى ينشرح (... صدره كلما أجال النظر في نظام السنن الكونية وغرائب تأثيراتها، فكأنه يلمس إراداتها بيمين ذهنه الثاقب من وراء معامع هذه الحروب الشعواء فيلفيها إرادات لطيفة تدير دقة الحوادث عن عدل وإنصاف، لتبعث أقواما كانوا مستضعفين كالشرقيين المسلمين إلى عالم العز والمجد المكين، وستقضي على الشراهة البشرية وتمحق صولته، وعندئذ يرتاح ضميره ويهدأ باله، وينشد لسان حاله، يعني الأقوام المتسلطة قول الآخر: تحكموا واستطالوا في حكومتهم وعن قريب كأن الحكم لم يكن[3].

---

[1] - في مقال: (الأجناس والأديان والنوازع في معامع القتال) بجريدة ( الفاروق) بتاريخ 20 نوفمبر 1914.

[2] - المصدر نفسه .

[3] - في مقال له بعنوان " القلق والرجاء " الفاروق" بتاريخ 13 نوفمبر 1914.

## خلاصة الفصل

حاولنا في هذا الفصل استخراج المكوّنات الفكرية العقائدية التي تشكّل جزء من مرتكزات رؤيته التنويرية والإصلاحية، من خلال المرجعية الروحية المنبثقة من العقيدة الإسلامية. فقدّمنا توصيفه النقدي والفكري للحالة العقائدية السائدة في الواقع الجزائري، عبر توظيفه لمفهوم " الفوضى الدينية ".

فتحدّث عن ظاهرة انتشار السلوكات البدعية، وانتقد المؤلّفات الدينية التي وضعها غلاة المتصوّفة. كما أنّه لم ينبذ كلّ الطرق الصوفية المنتشرة في الجزائر وفي العالم الإسلامي، إنّما أكّد على المنحرفة منها على الخصوص. ولم يكتف بالتوصيف، إنّما لمسنا لديه مقاربة تحليلية تاريخية ومعاصرة لفهم هذا الانحراف العقائدي.

وكشفنا عن الطروحات التجديدية للبناء العقائدي الإسلامي من خلال تقديم قيم عقائدية أساسية كمرتكزات لهذا البناء ليكون فعّالاً اجتماعيًا وحضاريًا أمام المأساة والفوضى الدينية والأخلاقية في الجزائر، مع تأكيده بأن الفوضى الاعتقادية هي وراء السقوط الأخلاقي والسياسي للأمّة الإسلامية. وهكذا اعتبر روح توحيد ا قيمة اعتقادية، رابطا إيّها بالتوكّل الحقيق، وبمفهوم " الذكر " الصحيح كمكوّن عقائدي.

واستنتجنا أيضا تأكيده على القدوة النبوية كقيمة عقائدية التي تجسّد روحانية القرآن الكريم. كما ناقش المفكّر عمر بن قدور الجزائري علاقة الإنسان بالمجال الكوني الذي أوجده سبحانه وتعالى. مدعّمًا التوجّه الذي يرى أنّ الإسلام منح للإنسان حرية البحث، لأنّ ا خلقه حرا، وهذا تعزيزًا للإيمان بالقدرة الإلهية، مع عدم الاعتماد على العقل في هذا المجال كمصدر وحيد للمعرفة الكونية.

ثم كشفت دراستنا عن فكرة جوهرية ذات قيمة عقائدية تعبّر عن رؤيته الإصلاحية، وهذا من خلال تتبّعنا لمختلف النّصوص الصحافية، وهي ترتبط بمبدأ السنن الكونية، قصد إعادة الأمل في النهوض، وفي سبيل تحقيق بقاء ووجود الأمّة الإسلامية على العموم.

منطلق هذا المبدأ يراه في القرآن الكريم، ومن خلال استقراء التاريخي والحضاري للأمم. فلكلّ أمّة قابلية للرقي والنموّ، وقابلية للتقدّم أو للتأخّر والسقوط. فسنّة ا الكونية تقتضي من جميع البشر الاجتهاد في العمل والتمسّك بالأمل في التغيير والإصلاح والنهوض. ومن أهمّ من خلصنا إليه هو امتداد تفكيره وتحليله للظاهرة السياسية المعاصرة من خلال هذا المبدأ، أي

السنن الكونية. فهذا يسقطه على مآل وانهيار الدولة العثمانية، ولمظاهر الصراع الدولي، خاصة قضية الاستعمار. وأكّدنا حسب مقاربتنا أنّه من الأوائل في الفكر النهضوي المعاصر، الذين قدّموا مساهمة رائدة ليس فقط على المستوى الفكري الجزائري، وإنّما أيضا على المستوى العربي الإسلامي في هذا الطرح لمفهوم ومبدأ السنن الكونية قبل بداية الحرب العالمية الأولى.

# الفصل الرابع
# البعد الفكري الإصلاحي
# الأخلاقي والاجتماعي

نتناول في هذا المبحث الأبعاد الفكرية الإصلاحية ذات التوجّه الأخلاقي والاجتماعي، والتي توصلنا إلى استخلاصها من خلال الكتابات أو النصوص الصحافية الفكرية التي كانت موضع التحليل في هذه الدراسة. رأينا أن الجمع ما بين ما هو أخلاقي وما هو اجتماعي في هذا المبحث، لأهمية التداخل ما بين هذين العنصرين، في سياق المنظور الفكري الإصلاحي لعمر بن قدور الجزائري. خاصة وأنه ينطلق في توصيفه للحالة الاجتماعية والأخلاقية من البيئة الجزائرية، ضمن واقعها الاستعماري، لتمتدّ رؤيته إلى الفضاء العربي والإسلامي، في عناصر موضوعاتية معينة. والتي ستتوضح أكثر مع سيرورة التحليل.

## المبحث الأول: توصيف الحالة الاجتماعية و"الفوضى الأخلاقية" والدعوة إلى الإصلاح:

كشف لنا تحليلنا لمقالات المفكر عمر بن قدور، عن صحافي ومثقف مهموم بواقع شعبه الجزائري، منشغل بالحاضر العاكس لمأساة أمّة ترزح تحت نير منظومة استعمارية ظالمة تهدد بقاءه ومستقبله. لهذا يمكن أن نقول بداية بأن توصيفه للتحديات الأخلاقية والاجتماعية التي كان يواجهها الشعب الجزائري، كانت ترد بصفة مكثفة جدا، عبر غالبية مقالاته الصحافية من هنا، فإذا توصلنا إلى إحصاء ما لا يقل عن 219 عنصر موضوعاتي هو ضمن الأفكار الأخلاقية والاجتماعية، فهذا يعني حقا أن البعد الأخلاقي والاجتماعي يمثل مكونا فكريا إصلاحيا أساسيا لمفكرينا.

نعم، لقد أكّدنا على رؤية العقائدية الهامة، التي تشكل بذاتها مكونا تنويريا في نضاله الصحفي والإصلاحي. خاصة حينما أوضحنا تأثير ما أسماه بالفوضى الدينية، أو الفوضى الاعتقادية على الجوانب الأخلاقية والسياسية معا. كيف أن افتقاد روح الاعتقاد الصحيح، يؤدي إلى انتشار السلوكات المبتدعة التي تنبثق عنها مفاسد اجتماعية وأخلاقية، من احتيال على الناس، وانصراف عن المبادئ الإسلامية الصحيحة، بفعل سلوك بعض الطرق الصوفية. فإعادة تجديد البناء العقائدي، هو إعادة الاعتبار لشخصية الجزائري المسلم، حتى تدرك وتعي حقيقة الواقع التعيس وتعمل على إيجاد العمل في التغيير.

كشفت مقالاته عن هذا التواصل مع هذا الواقع الجزائري، من خلال تطرقها لمعالجته الإصلاحية بانتقاد المظاهر أو السلوكات الأخلاقية المنتشرة ليس فقط في مدينة الجزائر وإنما عبر مختلف مناطق البلاد آنذاك.

لكن ما لفت انتباهي في هذا السياق، هو أن شخصية عمر بن قدور في حد ذاتها تعكس بعدا أخلاقيا في بناء التصورات الفكرية والعملية للإصلاح التنويري. لأنه كان يرى قبل الحرب العالمية الأولى، أن كتاباته ما هي إلا آراء وأفكار تقبل الطعن والانتقاد فكتب : "ما كنت أعتقد وأنا أكتب إلا أن فوق كل ذي علم عليم. وأن الإنسان وإن بذل كل ما لديه من النفس والنفيس على أن يأتي بما يرضى الناس جميعا لما استطاع"[1]. وما كان يريد إلا إظهار قيمة الحق

---

[1] في جريدة (الأخبار) بتاريخ : 19 مارس 1911.

والعمل على نصرته وخدمته حتى يكون أهم مبدأ أخلاقي في كل ميدان، فمن تقبل دعوته إليه فلا يلاقي إلا الشكر الجزيل، وأما من رأى رأيا آخر فأنتقده انتقادا بناء فله الأجر الوفي[1].

ثم إننا أشرنا في تناولنا لجانب نشاطه الصحافي النضالي، إلى مبدأ الثبات الذي عده ارتكازا رئيسيا لمن أراد دخول مجال التنوير الإصلاحي. فهو يشكل حافزا قويا للتطور الفكري على مبادئ الحق عنه أرباب الأقلام وقادة المدارك تبعثهم في كل حين بعثة جديدة تفوق سباقاتها من حيثية التأييد والفوز والظفر، خاصة لدى الأمم الراقية والشعوب الحية[2].

لكنه من الناحية الروحية، رأى أن أحد متطلبات فعالية هذا المبدأ الأخلاقي واستمراريته، إنما تستند إلى الوازع العقائدي، حيث كتب بضمير المتكلم : "علي أني أعتقد تمام الاعتقاد أن من مقتضيات وجود الثبات أن يتغافل المرء العامل عن كل هذه الأراجيف والاختلافات ويستمد من العناية الربانية الرعاية الحمدانية التوفيق الدائم والمستمر ليكون من الناصحين"[3].

إن هذا البعد الأخلاقي المتجسد في هذه الشخصية الفكرية والإعلامية، هو الذي يساعدنا في تفسير رؤيته الإصلاحية في هذا السياق. فبالرغم من أنه لم يوظف عبارة "الفوضى الأخلاقية" كعنوان إلا في أربع مقالات صحافية وهي : "كوارث الفوضى الدينية والأخلاقية : يجهل المرأة المسلمة وأخلاقها الفاسدة، نال الشعب من كوارث البدع ما ناله"، و"البائسون والبائسات : تنكيل الفوضى الأخلاقية بالشعب الجزائري" و"كوارث الفوضى الدينية والأخلاقية" والمقال الرابع بنفس هذا العنوان مع عنوان فرعي : "الإرشاد المطلوب والرشد لا يثوب"، إلا أن ورود هذه العبارة تكرر في 24 مقالا. ومن العبارات التي وظفها في أسلوبه الصحفي، خاصة في السنوات الأولى نصه على سبيل المثال : "فساد الأخلاق" أو "أخلاق فاسدة" وكذلك فيما بعد "الحالة الأخلاقية"، "النكبات الأخلاقية"، و"فوضى الأخلاق" إلا أن كما أسلفنا، تبقى عبارة "الفوضى الأخلاقية" الأكثر استعمالا من قبله.

وهي تعكس حالة أخلاقية مرتبطة بوضعية اجتماعية، تظهر في صور وسلوك عملية منحرفة. وتعبر في رأيه عن ملمح من ملامح الانحطاط التي يوجه فيها الشعب.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) من مقال "نتيجة الثبات" بصحيفة "الفاروق" بتاريخ 27 أفريل 1914.

(3) المصدر نفسه.

في إحدى المقالات الاستفهامية، وضمن سلسلة بعنوان "نحو المستقبل" نشرها بصحيفة "الفاروق"، وفي سياق انتقاده للحالة التي عليها أبناء الجزائريين، اعتبر جهالة الأولياء أحد الأسباب التي هي وراء شقاء هؤلاء الأطفال (أولادا وبنات) بسبب التربية الفاسدة؛ حيث قال[1] : "إن المسلم يله ولكنه شقي يلد شقيا وجاهل يلد جاهلا، وما جعل ا المسلم شقيا جاهلا إلا لما كان غير مسلم قولا وعملا، بل اتخذ غير الإسلام دينا، وأخرج مولودا فظا غليظا. فأساء إلى شعبه بابنه، وظلم ابنه بشعبه، يشب الطفل بيننا على أخلاق فاسدة قد اخترعناها، ويقوم من غباوة مزعجة قد اصطفيناها حتى إذا مازج الناس إليهم ... يقوم الطفل بالتربية الفاسدة المبثوثة في بيوتنا مصيبة على الشعب وحملا ثقيلا على كاهل المجتمع البشري، يشب في حض والد جاهل ووالدة جاهلة فيتعلم من جهلها إتيان كل عمل خبيث".

ثم في مقال تابع لهذا، يتحسر لوضعية أطفال الشعب الجزائري الذي يبدو وكأنه استسلم لمصير البؤس والفقر، من خلال بعض ما يحترفه من مهن حقيرة، ولسيطرة داء الجهل. إن هؤلاء الأطفال أمام مستقبل مظلم : "البنات والبنون كلهم عرضة لهذا الويل الشديد المقبل عليهم والمقبلون عليه يُخشى عليهم منه، لأنهم جاهلون أبناء جاهلين، وأشقياء خرجوا من أشقياء وأغبياء أنجبهم الأغبياء"[2].

إن الوضعية الأخلاقية لهؤلاء الأطفال، تعكس افتقارا لفهم دينهم فهما صحيحا، وإلى علم ينتفعون به ليصونهم ويحفظهم من ويلات الحياة، وإلى أخلاق حسنة وفضائل تدافع عنهم وعن وجودهم ووضعية اجتماعية تعكس افتقادهم لصناعة أو حرفة يزاولونها دفعا للفقر، أو حتى مهنة فلاحية تدفع عنهم بؤس الحياة. ثم يعتبرهم ضحية من ضحايا أخلاق التقطوها من مزبلة مدينة القرن العشرين[3].

ويبدو أن عمر بن قدور الجزائري كان قد كون رؤيته الإصلاحية وهو يحمل قناعة ذهنية وواقعية تعكس توجهه، انطلاقا من الميدان. فهو من جهة يمتلك الحس الصحفي المتواصل مع ما يحدث في الواقع، ومن جهة أخرى يحمل روح المفكر المصلح في النظر إلى الحاضر، نظرة انتقادية تأملية، من أجل إيجاد تصور عملي للتغيير.

---

(1) انظر جريدة "الفاروق" بتاريخ 12 ديسمبر 1913.

(2) في "الفاروق" العدد 41، 19 ديسمبر 1913.

(3) المصدر نفسه.

نحن نقول هذا، تبعا لما يتوضح لنا من تحليل مقالاته الصحفية، التي تعكس هذا الانشغال الأخلاقي والاجتماعي في مقال كتبه تحت عنوان "البائسون والبائسات تنكيل الفوضى الأخلاقية بالشعب الجزائري خواطر مفؤود" نشره بالعدد 64 من صحيفة (الفاروق) نستشف ما ألمحنا إليه في هذا التوجه. كانت حادثة صغيرة وقعت لبنت مسلمة صغيرة في أحد أسواق العاصمة، كافية لتثير في مفكرنا الذي شاهدها، صورة مجتمع انهار أخلاقيا واجتماعيا، وكان للوجود الاستعماري دور شنيع لهذا الانهيار ومما جاء في هذا المقال : "ما كنت لأتألم من المشاهد والمناظر الفظيعة المتعددة التي كانت تمر أمامي صفّا صفّا كتألمي اليوم وقد أصدقت بحافظتي جيوش الفوضى الأخلاقية في مظاهر تلك المناظر الفظيعة التي كنت أشاهدها، وقد تبدي أمامي خطر كل هذه المناظر في مشاهدة حقيرة، رسمت لي كيف مسح هذا الخطر سعادة الشعب الجزائري وأوقفه موقف الإهانة والذل والمسكنة، وجرعه كأس الاختلال والبعاد المرة، ونكل به تنكيلا عنيفا"[1].

لقد كان ذلك المنظر كافيا لأنه يؤلمه ويؤرقه ويقلقه، بحيث تداعت مناظر ووقائع أخرى أمام ناظريه. مشاهد فتيات وشبان وشيوخ وعجائز وأطفال يجوبون الأسواق بسمات الأشقياء البائسين، وعلامات المنحرفين. البعض منهم ينطق بما يسيء للأمة ويغضب ا . ورأى أنهم يؤلفون جماعات الفوضى الأخلاقية الذي يحترفون المهن البهيمية، وبعضهم تدفعهم البطالة لسلوك الإجرام والسجون. يشير في مقاله هذا أيضا إلى بعض صور السلوكات المنحرفة للفتيات وللشبان، في أماكن لا أخلاقية. ومع ذلك أكد أنها صورة غير صحيحة عن حقيقة الشعب الجزائري المسلم التي قد يكونها الرجل الأوروبي في الجزائر آنذاك. إنما أراد أن ينبه الجزائريين إلى ما يحدث من حين لآخر، حتى لا يستهينوا ويحتقروا ما يرون، وأن يثير القلوب القاسية التي لا تفكر في المصلحة الاجتماعية للجميع. فلننظر لوصفه لهذه الحادثة : "فتاة مسلمة صغيرة السن رثة الهيئة بيمينها وعاء فدخلت بين صفوف باعة الخضر والفواكه لتلتقط بعض ما يتساقط من أطباقهم، وبينما هي تسير وتترقب إذا أبصرت حبة من البطاطس سقطت من طبق أحد الباعة، فانحنت عليها لتتناولها ولكنها ما لمستها حتى هجم عليها صاحبها، وهم أن يبطش بها، وما كان الناس أن يحولوا بينه وبينها حتى حضر عون البوليس فأوسع تلك الفتاة الشقية ضربا على أناملها إلى أن سقطت معدومة الإدراك وأغمي عليها فما أشقى هذا البلد من هذا

[1] انظر مقاله : "البائسون والبائسات، تنكيل الفوضى الأخلاقية بالشعب الجزائري" بالفاروق، 08 جوان 1914.

السواد الأعظم المنبثة فيه شرور الفوضى الأخلاقية نمت تعاسة البلاد، وحصل التنكيل بالشعب في أفظع صوره"[1].

كانت حالة أطفال الشعب الجزائري تشكل ارتكازا وتحديا لمن أراد سلوك النضال الإصلاحي في رأيه. لأن المسألة مرتبطة بمستقبل هذا الشعب وبهويته وبقائها. من هنا يمكن تفهم لهجته الانتقادية والحادة حينها يكتب في مقال له بجريدة "الأخبار" تحت عنوان دال : "أبناء الشعب أمام المستقبل" : "إني لأحسب الشعب الإسلامي غبيا وجمادا ساكنا إذا نظرت إلى موقفه تجاه المستقبل، ولاحظت سعي نشأته نحو المستقبل. وما أحسب نفسي سعيدة في هذه الساعة، وقد اتجهت مخيلتي لقبول صور هايله (كذا) يصعب على فكري أن يدمن النظر إليها. ويشق على قلبي أن يصف هول ما فيها. وحسب القارئ أن يضع نصب عينه حالة أطفال الشعب وكيفية سعيهم نحو المستقبل لينظر هول ما نظرت ... إنا الأشقياء وإن أطفالنا لأشقى منا، يخرجون بأجساد ضعيفة وعقول سخيفة، وجيوب خاوية، وأخلاق فاسدة وأيد من كل صناعة خالية، حتى إذا لاحظوا مستقبلهم انكبوا على سعي في خطوة منه ألف كبوة، وفي كل كبوة ألف نكبة، والشعب في أثناء ذلك يتعرض لكل ضربة قاسية ويتحمل كل مصيبة فادحة حتى تضمحل قوميته"[2].

يواصل في هذا المقال تحميل الآباء المسؤولية في التربية وإعداد الأبناء، خاصة إذا كانوا هم أنفسهم يعانون المأساة الأخلاقية، كما أشرنا إلى ذلك آنفا.

فإذا كان مفكرنا المصلح يحمل الوالدين هذا الجانب السلبي، من الواقع الأخلاقي، إلا أنه ما لفت انتباهنا في التحليل، هو توضيحه أن المسؤولية مناطة بالمرأة الجزائرية، في ظهور صور للفوضى الأخلاقية. ففي مقال هام جدا، اعتبر أن الجهل وعدم تعليمها ساهم في تفاقم هذه الوضعية، ليس فقط في دورها الحساس لإعداد أجيال الغد، إنما أيضا في بروز وانتشار البدع الدينية والأخلاقية.

وهكذا في مقال تحت عنوان "كوارث الفوضى الدينية والأخلاقية : بجهل المرأة المسلمة وأحلامها الفاسدة، نال الشعب من كوارث البدع ما ناله" يوضح بأن المجتمع الجزائري خسر الكثير بعدم تعليم المرأة. فلقه "أصبح الشعب بغنيّه وفقيره وعالمه وجاهله أسير جهل النساء يدير دفة أموره ويبعث فيه نذير بؤسه وشقاءه.. فلو كانت المرأة مهذّبة منوّرة بنور مبادئ السلف

(1) المصدر السابق.

(2) انظر مقاله: "أبناء الشعب أمام المستقبل" بجريدة (الأخبار)، 21 ديسمبر 1913.

لمنعت ابنها أن ينخدع لحيل الفرق المبتدعة من متصوفة هذا الوقت ولبثت تعاليم الإسلام الحقة في ذهنه من حيث لا تهزه رياح الأوهام ولا تصيده حبايل الطغام... ويكن لما كانت المرأة لسوء الحظ جاهلة أخرجت شعبا كسولا وأنبتت نباتا خبيثا"[1].

إن آفة جهل المرأة مست آثارها جميع طبقات أبناء الشعب الجزائري لقد قدم المفكر عمر بن قدور في هذا المقال أمثلة عن صفقات التواكل والخمول، والتكاسل والجمود، وعن المشاريع الفاسدة التي تنهب فيها أموال الناي والتي (.. لا تسمن ولا تغني من جوع، بل تزيد الشعب همجية وانحطاطا، هذه هي الفوضى الأخلاقية التي سادت على المسلمين فنبذوا الدين وقد أبوا أن يفقهوا أنهم نبذوه...)[2].

ومن جهة أخرى يغزو بعض السلوكات اللاأخلاقية إلى الجوانب السلبية الناتجة عن التطور الحضاري، الذي أثر أيضا على الجزائريين بحكم الاحتكاك بالأجانب، في تلك الفترة الاستعمارية. لهذا انتقد مساوئ هذا التطور من خلال قضائه على الأخلاق الفاضلة المغرية بالرذائل والمفسدة لشخصيات الأبناء من الشباب. فانحطاط العقول والسلوك الأخلاقي، وضآلة أو ضعف الأجسام، متصل بهذا الزمن الحضاري الذي لا يولد فيه الأبناء إلا بعد انصهارهم في بطون أمهات وأصلاب آباء بفعل نار الموبقات والخبائث. ثم لننظر كيف يستنكر قشور الحضارة التي يتباهى بها شباب ذاك العصر، فها هو يتساءل في مقال : (الحضارة والصفاقة) قائلا : ".. هل الحضارة في عرف كثير من أهلها إلا جلية وزينة حتى ما تكاد تتبين الفتى من الفتاة، وإلا كلمات من الرطانة يمضغونها مضغ الماء بلا طعم ولا معنى. وطائفة من العلوم إن أحسنوها فقد خلطوا عليها من سيئات الحضارة ومحتويات الأخلاق ما يذهب بحسنها ونفعها ويرخص قيمتها..."[3].

لم يكن كذلك، ليكون صورة واضحة المعالم علن الحالة الأخلاقية والاجتماعية في الجزائر لو اقتصر على توصيفها في العاصمة وضواحيها. فها هو يمني نفسه بالتنقل والسفر في أرجاء البلاد ليس لتمكين حضور قوي لصحيفته (الفاروق) عبير تعيينه لوكلاء التوزيع وللمراسلين فقط، خدمة للأمة والوطن كما كان يقول، وإنما أيضا لقناعته الذاتية الفكرية، بضرورة التواصل مع الميدان أو الواقع الذي يريد تغييره وبث أفكار الإصلاح والأمل في

---

(1) انظر مقال : "كوارث الفوضى الدينية والأخلاقية بجهل المرأة المسلمة"، بجريدة (الفاروق)، 28 نوفمبر 1913.

(2) المصدر نفسه.

(3) انظر مقال: "الحضارة والصفاقة"، جريدة الأخبار، 10 ماي 1914.

المستقبل. كان قد قرر في شهر سبتمبر من عام 1913 اتخاذ راحة أسبوعين في كل سنة يجري خلالها رحلة بدواخل القطر الجزائري لتلقي الدروس الثمينة مما يشاهده ويعايشه، مع الإطلاع على أحوال الأمة الجزائرية، نبذا للقطيعة الفكرية والوجدانية[1].

كتب معبرا عن قناعته هذه قائلا : "إذا سار الإنسان في الأرض فحسبه أن يبعث وجدانه لاجتناب العبر من حقول المناظر الأخـلاقية والاجتمـاعية، وفي السـفـر عِبـر منـها المقيم محـروم"[2].

وفعلا فقد تمكن من إنجاز رغبته في السفر والإطلاع على بعض أحوال منطقة الشرق الجزائري، وبالتالي تمكن من استخلاص انطباعات واستنتاجات فكرية، بعد تأمله للعادات الأخلاقية والاجتماعية. بدا أن أولى الملاحظات كان قد سجلها من تأمله لسلوك الركاب المسلمين والأجانب داخل القطار. وإذا كان قد لاحظ عدم تأدب الجزائريين وافتقادهم لخصال أخلاقية معينة، فإنه يعزوه لغياب العلم والتعارف فيما بينهم (كل فرد منهم استأنس بالإنفراد ونزع إلى الهدوء في الطبع والسخافة في العقل فهم لذلك إذا اجتمعوا لا ينال التعارف من قلوبهم قطميرا ولا يفتح من عواطفهم معقلا..)[3].

كانت المناظر الطبيعية الجميلة والبديعة آيات تهدئ ضمير هذا المفكر المصلح أمام مناظر أخلاقية مزعجة جعلته يحكم على أخلاق أبناء شعبه بالتسفل والانحطاط. بالتالي يتساءل عن النسبة الدينية لهؤلاء إلى الإسلام، فلقد لاحظ أن أخلاق بعض سكان المناطق في الشرق تشابه أخلاق الكثيرين من مسلمي العاصمة. ها هو يستنكر سلوكات معينة (.. ما أفظع مصائب الجهل وما أجهل المسلمين بالعار الذي أحاط بهم من فضيحة شتم الدين... فأين النسبة الدينية للإسلام لو يعد الباحث الشاتمين للدين والذين هم من فحش ذلك يتحاشون، ففتـشوا عن المسلمين إذن! ...)[4].

ثم ينتقد مرة أخرى السلوكات المخزية للآباء أمام أبنائهم، الرجل يشتم الملة أمام ابنه الرضيع والمدرب على ذلك اللفظ الشنيع، وكذلك الوالدة تله ولكنها لا تستطيب من ابنها أو ابنتها إلا التلفظ بالمنكر. ثم يدعو إلى التمعن في الهلاك والانحطاط الذي أحاط بالجزائريين

(1) انظر صحيفة (الفاروق)، العدد 31، 26 سبتمبر 1913.

(2) في (الفاروق)، 17 أكتوبر 1913.

(3) انظر : (الفاروق)، 24 أكتوبر 1913.

(4) في صحيفة (الأخبار)، 09 نوفمبر 1913.

جراء تدهور أخلاق القراء والفقهاء، الذين من المفروض يشكلون نخبة الأتقياء. ثم هو لا يلوم العامة من الناس، وهذا حسبه لتقصير السادة علماء الدين في مسؤوليتهم التربوية الدينية تجاههم، فيكتب هذا التوجه : "... مساكين رعاعنا الهمج وهم السواد الأعظم، لقد أضلهم سادتنا والذين في قلوبهم مرض الغرض وقوم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ولم يمنعوا العامة أن تلج باب البوار... مساكين عامتنا الذين لم يعرفوا للدين معنى لأن سادتنا أحجموا عن أن يوضحوا لهم الدين وسر الملة ولفظها الشريف... فتشوا عن المبادئ الأخلاقية الجليلة والآداب الدينية العالية التي جاء بها رسول ا !! هل تجدونها ؟!"[1].

وتتمة لتوصيفه للمفاسد الأخلاقية والمناكر الاجتماعية والعادات القبيحة، يكتب مقالا آخر بعنوان : (حول ثاب الأمة أيضا) كنتيجة لما كان يراه ويسمعه أثناء تنقله إلى الشرق الجزائري، مع تعميمه لملاحظته من خلال انتقاده للجزائريين الذين كانوا يسيئون لدينهم، لجهلهم بالتشريع المحمدي، لقيمته ولفضيلته. ولكن يلقي باللائمة أيضا على عاتق علماء الدين، الذين لم يوضحوا حقيقة الملة أو الأمة الحنيفة المسلمة. لأنها، كما أوضح هي "... التي أتت بمكارم الأخلاق وقد شرع ا فيها لخلقه سلوكهم بالتعاون والتعارف والاتحاد والتضامن والكرم والعتق والمروءة وعلو الهمة والتسامح والتواضع والحنوّ والرأفة والشفقة والقوة والشهامة والتقوى والعمل وفعل الخير والبر والمعروف والصدق والصبر والحلم وكظم الغيظ والاستقامة إلى غير ذلك من الخلال الجميلة التي جاء بها الإسلام ليكون بواسطتها الفضيلة في قلوب المسلمين؟ كلا ثم كلا إن الفوضى الأخلاقية قد قبضت الناس جميعا من رقابهم فخرّوا إلى الأذقان يأتون الإفك والبهتان ثم يقولون إنا لمغبونون، يقول ذلك عالمهم وجاهلهم، وبرهم وفاجرهم، كلا إنهم ضلوا السبيل مع وجود الدليل..)[2].

أعجب عمر بن قدور الجزائري بمدينة قسنطينة، التي بقي فيها أسبوعا كاملا، وهذا في شهر أكتوبر من سنة 1913. فلم يلحظ إلا وجوها مبتسمة، وأناسا لم تتأثر ألسنتهم باللغة الأجنبية الفرنسية، وحتى زي أهلها كان غير مختلف أصيل،وأخلاقا حسنة لم يتعوّدها على خلاف الحالة الراهنة آنذاك بالنسبة للعاصمة، مسقط رأسه. ولاحظ اهتماما كبيرا بشعائر الإسلام، واختلاطه بأهلها كان بسبب تلك البقية النيرة من جمال المجتمع الإسلامي العريق وجد أن المدينة الغربية لم تتمكن بعد من طمس الملامح الإسلامية، وبعض الصناعات الجزائرية

---

(1) صحيفة (الفاروق)، العدد 35، 7 نوفمبر 1913.

(2) جريدة الفاروق، 14 نوفمبر 1913.

العتيقة. وكتب واصفا هذه الحالة (سيرة أهالي المدينة أنفسهم لم تخضع بعد لقوة التفرنج فبقي لديهم رونق من العوايد العربية والآداب الإسلامية وليس ثمة من أكثرية للعنصر الإفرنجي وبذلك خفت وطأة التنافس على المسلمين وبقيت لهم امتيازات أدبية واقتصادية لم يبق منها لمسلمي العاصمة الجزائرية شيئا البتة)[1].

إن المقارنة التي أجراها بين مدينة قسنطينة والعاصمة الجزائر، بعلته يؤسس لقناعة فكرية، وهي أن توفر أسباب التواصل الاجتماعي والثقافي، التي تتجسد في الجمعيات المختلفة، تكون ناجمة عن نقض أو خلو العناصر الأجنبية المؤثرة بعاداتها وقيمتها المخالفة لما تم الاعتياد عليه من العادات والسنن القومية واعتبر هذا الأمر من الحقائق التاريخية الثابتة في فلسفة التاريخ. فإذا كانت الفوضى الأخلاقية قد ضربت العاصمة، فإنها لم تتمكن من مدينة قسنطينة، إلا أنه لم يعن بذلك تبرئة هذه الأخيرة من كل موبقة لا أخلاقية. أو أنه سيمتنع من انتقاد صفات الجمود التي حلت بين أهلها[2].

أما مسألة التقليد والتخلق بأخلاق الغالب أو المتسلط فسوف نعالجها لما نحلل رؤيته النقدية والتفسيرية لها، من خلال وجود تيار "التفرنج" أو التغريب في الجزائر على الخصوص. أما من حيث الاحتكاك بالأجانب، فبدا لنا أنه ينطلق دوما من الواقع الملاحظ والراهن، حيث كان قد كتب في هذا السياق في جريدة "الأخبار" مؤكدا تمكن الأخلاق الأجنبية من المستعمرين : (... وقد أثبتت الشهادة أن الشعب إذا نكب بتحككات الأجنبي تحيط الفوائد ببيوتاته العريقة في المجد... تنبغ بيوتات من الطبقة السفلى فتحل محلها وقد يجعلها الأجنبي بطانة له...)[3].

وسطوة الاستعمار المتغلب في رأيه لا تعمل فقط على جعل المستعمر (المغلوب) يتبعه في عاداته وأخلاقه، وهذا ما يؤكد التاريخ الإنساني، وإنما أيضا تعمل على تفكيك البنية الاجتماعية والثقافية للشعوب.

لكنه كما كشفت لنا الدراسة، لا يحمل الاستعمار فقط كامل المسؤولية فيما وصل إليه الشعب من انحطاط أخلاقي فحينما ظهر الاختلاف في يوم الإفطار ما بين مدينة قسنطينة ومدينة الجزائر، والذي اعتبره من مظاهر الفوضى الأخلاقية، علق على ذلك مخاطبا بالدرجة الأولى علماء الدين، منتقدا تهاونهم في هذه المسائل وجمودهم وعدم القيام بالتوعية "للشعب الجاهل" كما

---

(1) المصدر السابق، 12 ديسمبر 1913.

(2) المصدر السابق، 19 ديسمبر 1913.

(3) انظر : مقالة "الصورة الحالية للقومية الإسلامية"، "الأخبار"، 30 أوت 1912.

قال. حتى أن عنوان المقال كان معبرا عن التراجع الديني وعن التفكك الاجتماعي وهو : "نكبة من نكبات التخاذل : فتنة عيد الفطر بقسنطينة"[1].

لم يكن يخفي شجون إحساساته الأخلاقية تجاه فئات معينة من المجتمع الجزائري، فبالرغم من اعتباره أن صفة الكرامة والتكريم لا زالت منطبقة على هذا المجتمع بفضل الدين المحمدي والكتاب المقدس (القرآن) وبفضل حديث الرسول (صلى ا  عليه وسلم)، إلا أن التماسه وبحثه عن الفضيلة، هذه القيمة الأخلاقية العظيمة، لدى علماء الدين وبعض الشخصيات السياسية (أصحاب النياشين)، عاد إليه بالخيبة. حيث كتب بضمير المتكلم : (التمستها تحت العمائم فوجدت المكر والخديعة التمستها خلف النياشين البراقة فلم أجد إلا مكمن الحقد والضغينة، فتشت عنها داخل الثغور المبتسمة فلم أعثر إلا على أداة القذف والثلب والغيبة والنميمة، فأين هي الفضيلة إذن؟ أنشودتي الوحيدة كأنها معدومة !)[2].

وفي إحدى المقالات ذات البعد الأخلاقي بعنوان "غفلتنا" بجريدة "الإقدام"، والتي ناقش فيها آفة النسيان والغفلة التي تتمكن من الإنسان، حتى[3] تجعله يعتقد أنه لعلى خلق عظيم، وأن مساره أخلاقيا مستقيم، في حين يقول الواقع غير ذلك لإتباعه الأهواء والأخلاق الفاسدة والدنيئة. لكن مفكرنا المصلح ينبه ويشير إلى أن المستقبل الإصلاحي، ومستقبل الشعب، قد يكون معرضا لأكثر ما هو عليه من احتلال واستعمار، وهو الفناء. لهذا يكتب مؤكدا على ضرورة نشر اليقظة الإصلاحية من خلال تحديد الداء والآفة الأخلاقية : (... لننظر ما نحن مقبلون عليه، إنا نجد كل شيء لبقائنا يذكرنا بأننا في غفلة مع العتو الكبير. كل شيء ينبهنا بأننا لسنا من المصلحين الصالحين الذين كتب ا  لهم في الزابور أنهم يرثون الأرض ولا من المؤمنين الذين يستحقون أن يستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم[4]، وإنا في كل وقت لنجني على قوميتنا وأخلاقنا الحسنة وقواعد ديننا الشريفة وبالنبذ والهدم والنقض. وعلى كل مهيع تصيح بنا العبر وتصرخ علينا المواعظ أفنحن إذن واعون؟...)[5].

---

(1) صحيفة الفاروق، 12 ديسمبر 1912.

(2) انظر مقال : (شؤون وشجون)، الفاروق، 16 مارس 1914.

(3) سبق وأن نشر عمر بن قدور الجزائري هذا المقال بجريدة الفاروق، 7 مارس 1913.

(4) يشير إلى الآيتين: الآية 55 من سورة النور: " وعد ا  اللذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات  ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم "، والآية 105 من سورة الأنبياء: " ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ".

(5) مقال: (غفلتنا)، جريدة "الإقدام"، 13 أكتوبر 1922.

إن الوعي بالحالة الأخلاقية والاجتماعية الراهنة التي يومئ إليها، إنما هو ضرورة وعي واستيعاب السنن الكونية، التي تشكل دفعا عقائديا للتغيير والإصلاح من أجل البقاء، كما سلف ذكره. وإذا كان قد أعاد نشر هذا المقال في سنة 1922، فالآن الثبات الفكري والعقائدي لديه لا زال مرتبطا ومنشغلا بهم ظروف الشعب الجزائري آنذاك، من هنا وضعه لحكمة الخليفة على بن أبي طالب تحت عنوان مباشرة وهي : (ما أكثر العبر وأقل الاعتبار).

بقي توظيف عبارة "الفوضى الأخلاقية" وتكرر استعمالها لغاية آخر المقالات الصحفية التي تمكننا من العثور عليها. أي لغاية نشرة مقالات في صحيفة "وادي ميزاب" لصاحبها أبي اليقظان، وهذا في سنة 1927 [1]. ولم يقتصر استخدامها في توصيفه ومقاربته للحالة الأخلاقية والاجتماعية، إنما لاحظنا امتداد ذلك وانطباقها على الأوضاع في العالم العربي الإسلامي. فلقد أهدى إليه أحد الأجانب من الفرنسيين الذين أسلموا كتابا بعنوان "اعتناقي للإسلام"، وكان الرجل كاثوليكيا، فدعا المفكرين والمثقفين إلى التأمل والتمعن فيما جاء في هذا الكتاب في وقت تتكالب المشاكل على الإسلام، وساد التفكك الاجتماعي والتخاذل ومظاهر الوثنية وسادت الفوضى الأخلاقية على "الجامعة الإسلامية". في وقت أبت مواهب العلماء القيام بفريضة الإرشاد، وسعى آخرون لاقتناص المصالح الشخصية السافلة[2]. في مقال له بعنوان : "الإرشاد مطلوب والرشد لا يثوب" نشره في السلسلة الثانية من (الفاروق) سنة 1920، أكد فيه على انحلال وتلاشي الهوية القومية، بسبب تدهور الرابطة الأخلاقية والفوضى الدينية. اعتبر المسألة مؤثرة في قوة الأمة التي قد تضعف وتتلاشى مما يعرضها للاحتلال التسلطي الاستعماري، أو لا تستطيع المقاومة وتغيير المصير المستقبلي[3].

لأنه يرى أيضا، بأن الأساليب الاستعمارية، تعمل بمختلف الوسائل على إضعاف الشعوب المحتلة والقضاء على الهوية الوطنية لها. وإذا كان الاستعماري الفرنسي قد تسلط على الجزائريين فإنه استعمل قوانين تبقي وصمة عار عليه في الجزائر، خاصة "قانون الأنديجينا" أو الأهالي وهذا ما عبر عنه في مراسلة صحفية له بجريدة "التقدم" التونسية سنة 1908 [4].

---

(1) انظر : صحيفة "وادي ميزاب"، 15 جويلية 1927.

(2) في مقال "سوانح في سبيل ا  "، الفاروق، 5 سبتمبر 1913.

(3) "كوارث الفوضى الدينية والأخلاقية الإرشاد مطلوب" مجلة (الفاروق)، العدد 10، 31 ديسمبر 1920.

(4) صحيفة "التقدم" التونسية، مقال "صوت الوقت"، 23 جويلية 1908.

وكان الرأي العام الجزائري، كما أشار، منشغلا أيضا بقضية فصل الدين عن الحكومة. لأنها كانت تمس مؤسسة دينية حضارية، عريقة لدى الشعب الجزائري، وهي مسألة الأوقاف الإسلامية. عثرنا من خلال دراستنا هذه على مقالات جد هامة نشرها في جريدة "الحقيقة" التونسية سنة 1907، في سياق انعكاس الحالة الاجتماعية والأخلاقية في فكر عمر بن قدور الجزائري، الدالة على تفطنه لأبعاد هدم المؤسسات الدينية والتعليمية، من قبل الإدارة الاستعمارية. هذه المقالات جاءت تحت سؤال عام وهام، يعبر عن وعي هذا المفكر المصلح، السياسي والاجتماعي بضرورة الإبقاء على مؤسسة الأوقاف الإسلامية كهيأة مستقلة عن هذه الإدارة، يسيرها الجزائريون، لما لها من آثار إيجابية على الظروف الاجتماعية والاقتصادية. كان العنوان الذي وضعه هو : اللذة في الإحسان والألم في الإساءة. النظام الديني. الإسلام الجزائري. على مرسخ ماذا ينتج من تلاشيه؟ [1].

رأى أن أطرح السؤال، واجب على كل وطني جزائري، أو حتى بشكل أوضح، يعكس رؤيته النقدية التنويرية، على كل مسلم في أنحاء العالم. فهي إذن دعوة لمناقشة مسألة مؤسسة ذات أبعاد حضارية للعالم الإسلامي أو "للجامعة الإسلامية"، طبقا للعبارة التي كان يستخدمها، والتي كانت شائعة في أدبيات الصحافة العربية والإسلامية، في نهاية القرن التاسع عشرة، وفي بداية القرن العشرين. طرح السؤال الذي رآه واجبا على كل مثقف ومفكر جزائري، لما له من أهمية في بحث انعكاسات انتزاع الأوقاف الإسلامية مع استثناء الأوقاف الإسرائيلية، على أربعة ملايين من المسلمين الجزائريين آنذاك[2]. وفي مقال تابع أدان فيه السياسة الاستعمارية وإدارتها للأوقاف الإسلامية، هذا النظام الديني العريق، حيث قال بعدما قارن الأوضاع ما بين الدول الإسلامية الخاضعة لسلطة أوربا : (... أما البلاد الجزائرية فإن الحكومة استقلت بها وغيرت وبدلت وفعلت ما أرادت، سواء أكان ذلك الفعل يوافق الناموس الشرعي وشروط الواقفين أو يخالفها، وبذلك حصل في نظام الدين تلاشي لا يخفي على كل من له أدنـى معـرفة بالسيـاسة الاستعمارية ..)[3].

بعدما يذكر بالحالة السابقة لهذه الهيأة الدينية الإسلامية، خاصة ما اتصل بحسن إدارتها من قبل الجزائريين، وهذا لمهارة العلماء وعفتهم واتحادهم وتضامنهم، ومذكرا بأنها أي

(1) صحيفة "الحقيقة" التونسية، 7 أوت 1907.

(2) انظر المصدر السابق.

(3) جريدة "الحقيقة" التونسية، 8 أوت 1907، العدد 133.

الأوقاف الإسلامية في الجزائر، كانت تمثل 62% من مجموع الأملاك العقارية والزراعية، نظرا لشغف الجزائريين بحبس أموالهم على المساجد أو أضرحة الأولياء والنوادي العلمية عموما وعلى الحرمين الشريفين. أشار إلى أن الحالة الاجتماعية والعلمية بالمساجد كانت جد مترقية فثمة تحكم في حالة الفقر والفقراء وعدم خلو المساجد من كراسي الدروس، وبالتالي استفادة نظام الإمامة والإفتاء والقضاء من وجود هذه الهيئة الدينية، والتي كانت مستقلة عن الحكومة قبل الاستعمار[1].

انتقد انتزاع الأوقاف من الجزائريين من قبل الإدارة الاستعمارية التي ادعت عدم كفاءة مسيريها، وسلمت إدارتها للجنة لا يوجد بين موظفيها مسلم واحد. وقامت في نفس الوقت بهدم بعض المساجد، وإعطاء بعضها للدخلاء الأجانب من الأسبان والإيطاليين الذين عملوا على جعلها وتحويلها إلى كنائس ومعابد. وبيعت أعيان الأوقاف للمعمرين الأجانب بأبخس الأموال، وبعضهم أخذ الأراضي هبة لأن الثمن الذي بيعت به لا يكاد يذكر[2]. إن الذي يشجع هذه الحكومة الاستعمارية التمادي في سياستها هذه، هو ذلك الانحطاط الديني الذي أصاب علماء البلاد والقائمين على هذه الهيأة، فكتب واصفا تلك الظروف : (وزاد الطين بلّة فقدان العلم الشريف وعدم وجود العلماء الأعلام الذين يقومون بشعائر الدين أتم قيام ولفساد أخلاق القائمين بالترتيب الحالي المزعوم، نزغ الشيطان في معاطف بعضهم حتى نهبوا ما شاء ا أن ينهبوا من مال الوقف بحجة إكرام الفقراء والمساكين، وأساي مني ولي، فلما أحاطت الحكومة علما بذلك نزعت تلك الهيأة الشبيهة بالسلطة الدينية أو المشيخة الإسلامية من أولئك المسيئين ووضعتها في شخص جناب عامل العمالة الجزائرية "البريفي" الذي لا يصح لنا أن نقول أن جنابه عالم بواجبات شعائر الإسلام الملقاة على عاتق من تقلد تلك السلطة الدينية)[3].

كنتيجة لهذه السياسة في الاستيلاء وهدم هذه المؤسسة الدينية، تأثرت الحالة الاجتماعية والعلمية للجزائريين تأثرا سلبيا[4]. فالفقراء والمحتاجين سيكونون أول الضحايا، وانعكس الأمر أيضا على الحالة الدينية والعلمية، بإهمال التدريس وشغور الوظائف الدينية إذ كتب في هذا الشأن : (ودروس العلم مهملة متروكة مع أن لسان حالها الذي يقول أضاعوني وأي فتى

---

(1) المصدر السابق.

(2) صحيفة الحقيقة، العدد 134، أوت 1907.

(3) المصدر السابق.

(4) انظر بتوسع : حول موضوع الأوقاف والمؤسسات الدينية : الحركة الوطنية الجزائرية للدكتور أبو القاسم سعد ا ، الجزء الأول، القسم الأول، ص66 – 80، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992.

أضاعوا، رغما عن وجود المدرسين ونقدهم لأجرة الشعرية وقد يوجد الآن في مدينة الجزائر بمفردها عدة وظائف دينية خالية وقد مضت عليها الأيام وهي في زوايا النسيان وعلاوة على ما ذكرنا أخذت الأفكار تتنبأ بسلب المساجد من خبراتها وعدم الصرف عليـها كمـا سلبت الكنائس من أموالها...)[1].

فإذا كانت أفكاره، كما سيأتي قد عكست توجها إصلاحيا تربويا على الخصوص، فإنما هذا ما رده إلى إدراكه لملامح البؤس الاجتماعي والفوضى الأخلاقية، التي كان يرصدها وينتقدها باستمرار، خاصة ما اتصل منها بالوسط الجزائري. إذا كنا قد أشرنا في السياق التاريخي إلى حالة التعليم في تلك الفترة الاستعمارية، وانعكاسها على أبناء الجزائريين، سواء في قلة المتمدرسين، أو في الملتحقين بالمؤسسات التعليمية الفرنسية، فإننا لاحظنا من خلال تحليلنا لمقالات المفكر عمر بن قدور، انشغالا مكثفا، بهذه المسألة رافق ممارسته الصحافية، وتجسد فعليا وعلميا في مرحلة ممارسته للنشاط التعليمي التي لم يتم الالتفات إليها في مجال الدراسات المختلفة التي اهتمت بهذه الشخصية الإصلاحية.

إن مفكرنا كان مدركا إذن بأن المنظومة التعليمية الاستعمارية لا تعمل على تعميم التعليم ما بين أبناء المسلمين الجزائريين. وأن الأجانب من المعمرين الذين كانوا يعملون على عدم تعليم أهل البلاد، خشية على مستقبلهم، ومن الوعي والنهوض الذي يمكن أن يهدد وجودهم في الجزائر. ومفكرنا كان يكتب : (.. باء هذا الشعـب بالخسـران ما لـم تنتـشله عنـاية العـلم والعرفان...)[2].

في مقال سياسي تحت عنوان : "العويصة الكبرى سياسة فرنسا في شمال إفريقيا" انتقد هؤلاء المعمرين، الذين سهلت لهم الإدارة ظروف استقرارهم فعملوا على التنكيل بحقوق الجزائريين[3] : (... إن الواقع يخول للأجانب والنازحين من أجلاف العباد أن يرتقوا الرتب الرفيعة برضا الحاكمية واحتفائها بنزوحهم إلى هذه البلاد، وقد يتمكن هؤلاء ليس فقط من التضييق على المسلمين في شؤون الاقتصاد والاجتماع بل ومن امتهانهم والتنكيل بحقوقهم، والتشنيع بعواطفهم..).

---

(1) صحيفة "الحقيقة" التونسية، العدد 136، 28 أوت 1907.

(2) صحيفة "الفاروق"، 23 يناير 1914.

(3) انظر : الفاروق، 9 يناير 1914.

اعتبر في مقال آخر أن بعض العقبات والموانع التي اعترضت الحاكم العام الاستعماري للجزائر "جونار" كان سببها شراهة المعمرين وطعمهم ووقوفهم ضد إصلاحات كان ينوي القيام بها في إطار ما سمي بسياسة المشاركة. التي عبر عنها "جونار" بقوله : "وجوب فتح القلوب (أي قلوب مسلمي الجزائر) والعواطف كما فتحت الأوطان والمعاقل"[(1)]. لكن سوف نرى في الجانب السياسي من توجهه الفكري كيف انتقد سياسة هذا الحاكم بالذات.

إن النص الصحفي التالي المترجم الذي نشرته جريدة "اللواء" المصرية سنة 1906، بعنوان : "المسلمون في الجزائر"[(2)] في وقت كان فيه مفكرنا "مراسلا" لهذه الصحيفة، نستشف منه ملامح من واقع سياسة التعليم، وموقف جزائريين كانوا يرفضون تمدرس أبنائهم، ومما جاء فيه على لسان "سائح عثماني" : (.. خذ مثلا المدارس فإن المتأمل يحكم من غير تردد أنه لا يمكن أن ينبغ واحد حتى من الألف من أولاد المسلمين الجزائريين الذين يدرسون في المدارس العمومية أو المدارس الخاصة بأولاد العرب فينفع دينه ووطنه والجزائريون، وكيف يتأنى ذلك وبروجرامات المدرسة كلها في الحقيقة سم ناقع لا توصل إلا إلى نشر الديانة المسيحية بين المسلمين بسرعة وتجنسهم بالجنسية الفرنسية... أما القرويون والفلاحون فلا يرضون أبدا بإرسال أولادهم إلى المدارس والحمد على هذه النعمة).

كان أكبر داء اجتماعي وأكبر تحدي بالنسبة لمفكرنا المصلح، هو الجهل. لهذا كشف لنا تحليلنا توظيفه بصفة متكررة وعلى مدار السنوات لكل الاشتقاقات اللغوية المترتبة عن هذه الكلمة : الجهل. وهكذا تجده يستعمل : العشائر الجاهلة، الأمة الجاهلة، شعب جاهل، الشعوب الجاهلة، جاهلون، جهالة، جاهل ... وسواء أكان هذا التوظيف في نصوص انتقادية أو في نصوص تتضمن مطالب وحقوق للشعب الجزائري. كان يرصد الواقع البائس لأطفال هذا الشعب، ليحث إخوانه من الجزائريين إلى ضرورة تحمل مسؤولياتهم إزاء هذه الفئة، المعول عليها مستقبلا. وألا يستسلموا للظروف التعيسة، باسم انتشار الفقر، أو لأهداف المنظومة الاستعمارية التي تسعى للقضاء على ما تبقى من مكونات الهوية الإسلامية للشعب. كتب في مقال تحت عنوان : "نحو المستقبل : هل من نهضة للتقدم بالتعليم" (إن أطفال هذا الشعب أمام

---

(1) مقال "العويصة الكبرى : سياسة فرنسا في شمال أفريقيا" (1)، جريدة الفاروق، 2 يناير 1914.

(2) جريدة "اللواء" المصرية، 18 أفريل 1906.

مستقبل مظلم عظمت مشاكله، واشتدت أهواله، وقد لاحت طلائعه مقبلة بأولوية مزدانة بالشقاوة، ورايات تنذر من يشاهدها بما خلفها من جيوش تفتك بالشعوب الجاهلة...)[1].

وكان يرى أن الحياة المطلوبة بالنسبة للشعب الجزائري، هي حياة العلم والترقي والتمدن. أما الجهالة والهمجية والتعاسة فهي داعية الموت والفناء والانقراض. كتب في جريدة "الهلال" الصادرة بالجزائر وهذا سنة 1907 قائلا : (... في ظننا أن السكوت والخمول هي وصمة عار شنيع تقع مسؤوليته على كواهلنا إذ لم يروى (كذا) لنا التاريخ في ما بين صفحاته أن شعبا بتمامه صبر على ضير الجهالة الشنيع وأختار بيوت السكوت والخضوع و(التيه) في سبات الكسل مسكنا ثم أدّاه ذلك الصراط المعوج إلى حياة ونعيم ... الشعب (الذي) ينادي بأعلى صوته وينشد حقوقه ويجاهد جيوش الفناء بوسـائل الحياة ينـال حيـاة دايـمة بـلا فـناء ولا انقـراض...).

طالما آلمه منظر الأطفال البؤساء والمتشردين والأيتام، لهذا كانت الكثير من كتاباته الصحافية، ترصد هذا الواقع، ولكن تقدم الوسائل والحلول لإنقاذ هذه الفئات بتهذيبها وتعليمها، تعليما يخلصها من براثن الجوع وهول المستقبل المظلم. لقد عبر عن ذلك مثلا في سنة 1923، بمناسبة افتتاح مدرسة الشبيبة الإسلامية، حينما رأى أن المنظومة الاستعمارية لا تستوعب مثل هذه الفئات الفقيرة، فقال (منوها بتنامي الوعي لدى الجزائريين بضرورة تعليم أبنائهم[2] :

(... بقيام الحالة الراهنة استحب الناس أن يعلموا أولادهم تعليما يجعلهم أرباب نشاط في تحصيل مادة الحياة وقد كانت الدولة (يقصد الاستعمارية) فتحت أبواب مدارسها الابتدائية، فكان فيها فريق من أبناء المسلمين مقبولا، ولكن مع اتساعها ضاقت في النهاية عن قبول شطر عظيم من هؤلاء الأطفال الذين لا يستهان بوجودهم ووجدوا استعداداتهم القابلة للنمو والارتقاء. وقد بقي القسط الأغلب من هؤلاء الأطفال وجلهم أولاد الفقراء ألعوبة جهل أبائهم فألقوهم في الأزقة متشردين مسّاحين للنعال أو بيّاعين للجرائد أو متحملين على كواهلهم أجناس الأثقال، أو مالئون للسجون بما يأتون من المخالفات والجنايات مشوهين لجمال الشعب بما لديهم من البلادة ومفاسد الأخلاق وتشين الطباع...).

كان المفكر عمر بن قدور كثيرا ما يوجه انتقاده لخمول وجمود الجزائريين في النهوض بالمشروعات الاجتماعية، خاصة ما ارتبط بالصحافة منها وبالمدارس القرآنية أو بالجمعيات

---

(1) في صحيفة (الفاروق)، 19 ديسمبر 1913.

(2) في جريدة (التقدم) الجزائرية، 1 جانفي 1924.

التربوية التهذيبية، لما لاحظه من انعدام أو نقص كبير في نمط هذه المؤسسات، ولما يمكن ن تؤديه من دور في سياق النهوض والتقدم والتنوير العقلاني للمجتمع الجزائري. هاهو يكتب سنة 1908 عبر صحيفة "التقدم" التونسية قائلا تحت عنوان فرعي : "قوم في سبات عميق" ضمن مقال "الأزمة الجزائرية" : (... ما لمصر تقدمت ما لتونس تيقظت ما لسائر بلاد الإسلام تفقهت ورجال الجزائر عليهم اعتماد الأمة في سبات عميق. لا صحافة ترشدهم إلا ورقة كوكب إفريقية التي جاء بها أحد الفرنسيون ويا ليتها لم تصدر لأنها لا تزيد بها هوة التنافر إلا اتساعا. ولا كتاتيب تعلم ناشئتهم ولا... ولا المشروعات التي تكون بهم الأمة أمة والرجال رجال فهل لرجال الجزائر أن يفقهوا الحياة فينشئونها أم كتب التقهقر على قلوبهم إنهم قوم في سبات عميق لا يتيقـظون...)[1].

لم يكن انتقاده للحالة الاجتماعية والأخلاقية بمعزل عن إدراكه للسياق الاستعماري ووعيه بالبيئة المتعددة الملامح التي أوجدها هذا السياق والتي عاشها الشعب الجزائري وكابدها.

وحينما تفاقمت ظاهرة هجرة الجزائريين إلى خارج بلادهم قاصدين بلدانا أخرى، كتونس أو بلاد الشام على الخصوص، كان يدرك أن الوضع السياسي الاستعماري بمظالمه كان السبب الرئيسي في ذلك. من ضرائب مجحفة، وسلب للأراضي، زيادة على تلك القوانين الاستثنائية المفروضة عليهم. وسوف تتضح لدينا صورة انتقاداته السياسية أكثر في جانب الفكر السياسي لشخصيتنا الصحافية والإصلاحية. وتوضيحا لتفسيره لظاهرة الهجرة، كتب في جريدة الأخبار سنة 1910 قائلا : (... إن الدافع الوحيد لمواطنينا إلى الجلاء عن أوطانهم وابتغاء أوطان أخرى قريبة ليس إلاّ الحيف الذي لحقهم من جراء جور الحكام وكثرة المظالم الواقعة على كواهلهم إن الفاقة أرخت سيدولها على إخواننا المساكين بسبب الضرائب والأعوام المجدبة واستيلاء الأجنبي على تربتهم الخصبة. هذه نظريتنا في السبب الداعي إلى الهجرة وأيم ا لنتألم من هذه الكارثة كارثة خراب البلاد وذهاب أهلها...)[2].

وإذ كان قد أكد على أن الأصل في التقهقر والتخلف يكمن في انتشار الجهل ما بين "العشائر الإسلامية" أو "الشعب الإسلامي" ويقصد بهاتين العبارتين الشعب الجزائري، فمرده أيضا إلى الإدارة الاستعمارية التي كانت تمنع فتح المدارس الحرة على الجزائريين، وحيث كان المفكر عمر بن قدور من أول المنادين بذلك حفاظا على هويتهم وقوميتهم الإسلامية، لأنه اعتبر

---

[1] جريدة "التقدم" التونسية، 23 يناير 1908.

[2] انظر مقالة "ما سمعنا ونقول" جريدة "الأخبار"، 2 أكتوبر 1910.

ذلك من (... مقتضيات مصلحتنا (كجزائريين) ثم مصلحتها (أي فرنسا) بحيث يكون التوازن ثابتا... وذلك بالتعليم الديني والأخلاقي على حسابنا والتعليم العمراني والعملي على حسبها)[1].

من هنا جاء تعجبه من واقع تلوك الألسنة فيه بمبادئ براقة لم تتجاوز حدود ألفاظها، كالعدالة والتمدين والمساواة والمؤاخاة. في حين أن الشعب الجزائري يعاني بأس الحياة وشقاء العيش زيادة على ما وصفه آنفا من وضع مزري. وبالرغم من هذا فإنه شعب ذو إباء ومجد ولديه ضمائر طاهرة من كل غش، قادر على الترقي وتحقيق النهوض، إذا ما تم رفع عنه مختلف المظالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وبشرط احترام خصائصه القومية، خاصة عبر التعليم الإسلامي وبعث الأمل والشعور بواجبات الحياة والعمل[2].

وإذا كان هذا المفكر والصحافي القدير، قد انتقد كما أشرنا سابقا الأقلام الصحافية العربية التي لم تكن على دراية بواقع إصدار الصحافة العربية بالجزائر لأنها تجهل وغير مطلعة على السياسة الاستعمارية الفرنسية التعسفية[3] إزاءها. فإنه وإدراكا منه بواجب الصحافة والغيرة الوطنية، انتقد أيضا المقال الصحفي لمراسل جريدة "المؤيد" المصرية الذي يصور فيه الجزائر والجزائريون في حياة هادئة وهانئة بدون مظالم سياسية أو دستورية وأنه ليس ثمة شيء يستحق الكتابة مبررا انقطاعه عن القراء وعدم تواصله معهم فيما يخص شؤون الجزائريين. وهكذا يكتب عمر بن قدور، وهو آنذاك مراسل لجريدة "التقدم" التونسية مقالا بعنوان "ما هذا التحامل"، معتبرا ما جاء في صحيفة (المؤيد) مشابها لمقالات عدة حول الجزائر وحتى المغرب الأقصى تنشر في الجرائد العربية الشرقية مسايرة لما يكتب في الصحف الأوربية لأغراض سياسية ومصلحية، وكان يجد العذر لهذه الصحف العربية الشرقية لعدم اطلاعها واعتماد الصحف الأوربية كمصدر لمعلوماتها وأخبارها. أما في حالة صحيفة (المؤيد) فالأمر مختلف. لأن مراسلها بالجزائر، ويعرف أحوالها جيدا. ومما جاء في هذا المقال أيضا : (... إنه يدري أن القطر المصري مع تقدمه الباهر وفوزه من بين العالم الإسلامي في شوط الحياة لو تعرضت جرائده الإسلامية إلى بث الشكاوى ونشر غرائب الأحوال لما أحصتها رغما عن سعة صفحاتها وكثرتها فأنى للقطر الجزائري الذي هو أحط الشعوب الإسلامية علما ومالا وفكرا وحرية أم استحوذ على ذهن المكاتب حسن نظام البلاد الظاهري من السكك الحديدية

---

[1] "الفاروق"، 20 فيفري 1914.

[2] انظر مقالة العويصة الكبرى، سياسة فرنسا في شمال أفريقيا (2)، جريدة "الفاروق"، 9 يناير 1914.

[3] جريدة "الأخبار"، 11 جويلية 1908، مقال (الجزائر والصحافة العربية).

والأسلاك البرقية والأنوار الكهربائية والقصور الأوروبية الشاهقة إلى غير ذلك من النظام الذي لا يروق إلا في عين أهله أو العين التي في رأي مثل حضرة الكاتب...)[1].

وبعنوان فرعي استفهامي استنكاري : "هل أفلح الجزائريون"، يدعو زميله المراسل ليطلع على (... أفئدة المساكين إخواننا الجزائريين المتأخرين الذين شقوا لما سعدت البلاد وننظر إلى حالتهم التي لا تعلو عن حالة البهائم السائمة والحيوانات الداجنة من فقر وجهل وذل وضعف ومسكنة وفاقة إذ لا يسمح لك القانون الإنساني أن تنظر إلى بسيطة الطبيعة وسعادته بالنظام الأروباوي نظرا سطحيا وتروي لقرائك..)[2].

في هذا التوجه الانتقادي للصحافة العربية، يستمر في تبيان خطأ ما تذهب إليه من وجود نهضة جزائرية وارتقاء في حين أن الوطن الجزائري ذليل في الحقبة. ويلوم إخوانه الصحافيون عن مقالاتهم في وصفهم للنهضة والتقدم، في حين أن الأحوال والظروف تعكس في الواقع تأخرا وخمولا[3]. ثم يوجه سؤالا استنكاريا حول "قانون الأهالي" الاستثنائي الذي يعامل به المسلمون الجزائريون، وحول غياب صحف عربية حرة في الجزائر، وحول تشكيل الجمعيات العلمية (الثقافية) مثل جمعية الخلدونية (التونسية)، وحتى المدارس القرآنية العصرية على شاكلة ما هو موجود في تونس، غير موجودة في العاصمة الجزائرية. ثم يخصص انتقاده للصحف التونسية مطالبا إياها بالتزام نشر الحقائق والواقع والدعوة إلى إيجاد العمل المتسم بالفعالية، مثلما فعل مع جريدة (المؤيد) المصرية فيكتب في مقال تحت عنوان "حبذا الأحلام لو صحت" : (... كم نظرت في الصحف التونسية من أمثال هذه المسطورات المشيرة إلى نهضتنا وتقدمنا وأنا أتغافل عنها ويؤدي لو كانت صادقة... كم نشرت رصيفتنا "الحاضرة وزميلتها "الزهرة" وزميلتها "المشير الجديد" فما استطعت صبرا دون أن أجعل لإخوانها الشرقيين بلاغا ألاحظ عليهم فيه أن يتعاونوا إلى كلمة سواء بيننا وبينهم أن لا نعلن إلا الحق ولا ننشر إلا الواقع وأن لا نصدق برنات السفهاء وطنين الطغام وأن نعمل على إيجاد العمل المحسوس بما نبذله من نصائح لإخواننا مسلمي شمال إفريقيا الأغبياء الغافلين وا  على ذلك لمن الشاهدين...)[4].

---

(1) جريدة "التقدم" التونسية.

(2) المصدر نفسه.

(3) انظر جريدة "الأخبار"، مقال "حبذا الأحلام أو صحّت"، 19 فيفري 1911.

(4) جريدة "الأخبار"، 19 فيفري 1911.

وحتى نتمكن من تكوين صورة ذهنية أكثر عمقا ووضوحا لشخصية عمر بن قدور في بعدها الأخلاقي، وجدت أنه من الضروري الإشارة إلى تلك الوطنية الملازمة له في اندفاعه للعمل الميداني في سبيل الاستنهاض والتنوير والإصلاح. في الفقرة التالية، يقدم بعض التفسير لهذا الإقبال والاندفاع في هذا السياق لخدمة الأمة الإسلامية الجزائرية كتب قائلا : (... ما اندفاعي إلى ذلك حسنة أعتقد أني مدينا لعزيزتي أمة الإسلام. ولا فضلا أتفضل به عليها فتكيله لي يوما من الأيام. كلا بل ليس إلا طبيعة الوجدان. وفطرة موجودة في الإنسان. وغريزة تسري في عروقه. وصفة جبل عليها بأصوله وفروعه لا فضل فيها لأحد على أحد. ولا فخر لإنسان بها على إنسان ولكن هناك صبغة أخرى أحلها ا في قلب دون قلب وإن كانت موجودة في كثير من الرجال. لا تختلف في التأثير وتبتعد عن التعبير. وهل ليست إلا حب الوطن التي هي من الإيمان...)[1].

## - الدعوة إلى الإصلاح ومجابهة الواقع :

إن تتبعنا للمسار الفكري لعمر بن قدور الجزائري يؤكد حقيقة معاناته وقلقه الذهني إزاء مأساة واقع الشعب الجزائري وتمتد هذه الحقيقة، من خلال تحليلنا للنصوص الصحافية التي أنتجها ما بين 1906 و1927، لتشمل هم الانشغال الفكري والوجداني بالبيئة العربية الإسلامية.

فبالتوصيف المتصل بالحالة الأخلاقية والاجتماعية أثبت بالدرجة الأولى ذلك البعد الأخلاقي لشخصيته، انطلاقا من مرتكز القيمة المبدئية للثبات في المجال المهني الصحافي وحتى التعليمي، قصد الشروع في سيرورة عملية للإصلاح والتنوير. وبدا لنا من خلال دراستنا أن الوازع العقائدي الذي يستند إلى العناية الربانية، حسب تعبيره الذي استخلصناه، يشكل خلفية مرجعية فكرية لا يمكن الاستهانة بها في المقاربة التحليلية والمعرفية. وبالتالي فمفهوم "الفوضى الأخلاقية" يتحدد حسب رأينا في هذا السياق. خاصة وأنه يومئ إلى مرحلة أو ملمح بارز للانحطاط بالنسبة للشعب. وهو الوسط الذي تنعكس فيه أيضا حالة اجتماعية خطيرة تتمثل في داء الجهل، الذي يفسر سلوكات مختلف الفئات، بدء من فئة الأولياء الذين هم وراء شقاء الأطفال، بسبب جهالتهم، زد على هذا تأكيده الهام وفي تلك الفترة خاصة قبل بداية الحرب العالمية الأولى، على خسارة المجتمع الجزائري، لعدم تعليمه المرأة، كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

---

(1) انظر جريدة "الأخبار"، 29 جانفي 1911.

لكنه يؤمن أن مستقبل الشعب الجزائري، إنما يرتبط بحركية الإصلاح وضرورته، الذي ينبغي أن يرسخ في العقول، استيعاب مبدأ السنن الكونية، من أجل تحقيق البقاء. خاصة وأن إخوانه الجزائريين، كما كان يحلو له التعبير، (... ضربتهم الأحوال السياسية بالدواهي، ورمتهم سيل الغرب الجارف فسيطر عليهم وأذهب عنهم الذي كانوا به يفرحون. فانقلبوا على أعقابهم خاسرين يحملون خطاياهم وخطايا من ضل بهم)[1].

إذن ثمة وعي سياسي بالسياق الذي ينشط فيه عمر بن قدور، من هنا فإننا لا حظنا أنه كان مقتنعا كمفكر، منذ البدايات الأولى التي اقتحم فيها مجال الإصلاح والتنوير، أن الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي قد لا يتألف بمجرد مخاطبة الوسط الإسلامي الجزائري، وإنما كان يتوجب أيضا مجابهة الوسط الإداري الاستعماري الفرنسي بالجزائر.

وقبل توضيح هاتين المسألتين، أي مسألة مجابهة الوسط الجزائري ومسألة الوسط الاستبدادي الاستعماري. يجدر التوكيد بأن اعتباره الجهل داء خطير، فإنما لقناعته، كما يبين بضرورة مجاهدته ومحاربته، فهو عنصر من عناصر إيجاد الفناء. يرى عمر بن قدور، بأن اعترافنا بشقاوة شعبنا يدفعنا إلى العمل واليقظة مثل الأمم الأخرى، حتى لا يسري فينا عنصر الفناء. فتصارع الأمم واندفاعها آت من الحرص على الحياة والبقاء فيقول أيضا[2] : (.. قد أصبح الناس جميعا يعلمون سوء حالة الشعب الجزائري من الوقوف على أبواب الفناء التي هي نهاية طريق كل شعب اندحر فانتحر، ولذلك فلا مناص له من الاتعاظ بنفس حالته المذكورة وهي كنار على علم فهل من مذكر؟.. ذلك شأن الشعوب التي كتب ا عليها الشقاوة فنحن إذن أشقياء وشعبنا شقي فلا نخجل...).

ثم يدعو في مقال آخر إلى ضرورة التدبر والتفكر في الأحوال الحاضرة أي فيما هو راهن. فمختلف تلك الأحوال والظروف لها تأثيرها في وجود الأمم لأن النظر في الحاضر يمهد للاستعداد للتحولات المستقبلية، خاصة وأن مبدأ سنن ا في الكون، إنما ...يرفع أمما بالأعمال ويضع أخرى بالإهمال. لهذا يدعو الجزائريين إلى المسارعة لتجسيد خريطة "الرفعة" والتقدم، عوض الوقوع في فضاء "الضعة" والتخاف والتقهقر فيقول : (إن الأوطان الأخرى المتمدنة قد رقمت عليها ءايات "الرفعة" بخطوط نورانية مضيئة أمنعوا النظر في ذلك فلعل إذن منكم واعية

[1] من مقال (أحوالنا وأعمالنا)، جريدة "الأخبار"، 7 أوت 1910.

[2] من مقال (السعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه)، جريدة "الأخبار"، 2 جويلية 1911.

تعيه أو قلب منكم لين يستمع أحق فيصطفيه فقد جفت الأقلام من دوامها على الوعظ والإنذار ولم يجف منكم سيل الشرور والأخطار)[1].

وإذا كان المفكر عمر بن قدور ينطلق من منظور إسلامي تجديدي، فهو كثيرا ما يستحضر النصوص القرآنية التي نعتبرها إحالات مرجعية أساسية في تفسير التكوين الفكري ومقاربته الإصلاحية والتنويرية.

لهذا فالدراسة هذه جعلتنا نحدد نصين قرآنيين أساسيين في دعوته الإصلاحية. أولهما مرتبط بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يشكل أحد المحاور التي ارتكز عليها على مدى سنوات عديدة من نشاطه الصحافي والتي يمكن أن نلاحظ من خلال النصوص المنتجة، ما ذهبنا إليه ففي مقال تحت عنوان "كلمات عن الكتابة" نشره سنة 1910 بجريدة "الأخبار" وبعد انتقاده لبعض الكتاب المتملقين والمداهنين، دعا إلى ضرورة الكتابة فيما ينفع الأمة والدين بالدرجة الأولى ويتساءل : (ما للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر موصدة الأبواب...)[2].

إذن فهو كان يشير أيضا إلى أن التقصير في الدعوة إلى الإصلاح كان كبيرا. وكأنما أغلقت أبوابه، كما أغلق علماء باب اجتهادهم حسب نص سابق له. وعلى مدار أعداد كثيرة من جريدته (الفاروق) سواء في سلسلته الثانية كمجلة، شكلت مبدأ عنصرا هاما في الخط الافتتاحي الإصلاحي الشامل للأبعاد الأخلاقية والاجتماعية[3]. وهذا يعكس مبدأ الثبات الذي سار عليه، فها هو يكتب في افتتاحية (الفاروق) في سنة 1920 : (... لا غرو إذا ذهبنا فيه مذهبنا الاعتدالي المعروف من بسط النصيحة للشعب بتبيين المرافق الحيوية من الوجهة الدينية والعلمية والأخلاقية والاقتصادية والوعظ والتذكير، من جهة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى التعارف وإقامة نصوص الدين على أشكالها المودعة في كتاب رب العالمين وسنة سيد المرسلين...)[4].

وسوف تتضح لنا الأهمية المرجعية لهذا المبدأ حينما نتناول بالتحليل المرتكزات والوسائل العلمية التي رآها مفكرنا عمر بن قدور جوهرية في معالجة الكثير من المسائل

---

(1) جريدة "الأخبار"، بتاريخ 18 ديسمبر 1910.

(2) انظر: جريدة الأخبار"، 20 نوفمبر 1910.

(3) مثلا في الأعداد : 29، 31، 66، 70، (الفاروق) والأعداد : 13678، من "الأخبار"، 13657.

(4) انظر : مجلة (الفاروق) سلسلة جديدة، العدد 1، 8 أكتوبر 1920.

الأخلاقية والاجتماعية التي كانت مظهرا للانحطاط والتخلف، وعائقا أمام البقاء ومستقبل الوطن. وعلى سبيل المثال فلننظر كيف يستخدم الأسلوب القرآني في هذا السياق مخاطبا فئة المفكرين التي عليها يتأسس الإصلاح والتجديد ويتحقق التنوير بفضل تأثيرها على فئات أخرى أساسية كالعلماء والأغنياء. فيكتب مخاطبا : (... فلتكن من المفكرين أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بالتضـامن الحقـيقي الذي هو روح الإسـلام ومـادة حيـاته...)[1].

أما المبدأ الآخر الهام، الذي يشكل أيضا محورا ومرتكزا مرجعيا في الدعوة الإصلاحية وحركية التنوير واليقظة فهو المتصل بالآية القرآنية التالية : "إن ا   لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

فإذا كان قد اعتبر سقوط الأمة الإسلامية وتراجعها إنما حدث جراء تخليها عن القرآن وجناية البعض على الدين والدخول في التعصب ضد الغير، فإن النهوض والارتقاء إنما يحدث بالالتزام بفحوى الآية السالفة الذكر[2]. وهذا يعكس، كما سبق وأن أشرت إليه، المرجعية العقائدية، التي تجعل إيمانه با   وبوعده، يؤمن بأن التغيير آت من الفرد. فإن الإنسان إذا أراد شيئا وانبعثت له همته لابد وأن يلحقه ولو يتوارى بالسحاب كما قال. واعتبر القول الفصل في أصل تقدم الأمة الإسلامية في هذا المجال قول القرآن : "إن ا   لا يغـير ما بـقوم حتـى يغيروا ما بأنفسـهم".

فيتساءل مؤكدا : (أليس هذا القول كمادة قانون عمراني تنفذ كل من شف عن الحياة القومية)[3].

كثيرا ما تحسر مفكرنا الإصلاحي على أحوال الجزائر والجزائريين، لكن آلمه موقف البعض منهم، الذين تجاوزا حد الإجحاف بالذين يريدون ويبذلون جهودا في مجال الإصلاح والتنوير. فكانت هذه الفئة تحاول تثبيت عزائم المقبلين على اقتحام هذا الميدان. فكتب قائلا : (.. نعم ! أعمالنا تتجاوز حد الإجحاف بمن يتشوف إلى رفع الحجاب عن العلل الكامنة في أعضاء الأمة أو رام معالجتها أعمالنا لؤم وتصدي لحل العرى القومية وتوفيق تيار العامل، وسحب خصال الحمد ورفض صفات الحق)[4].

---

[1] في مقال بعنوان : خطواتنا إلى المستقبل – الفاروق – السلسلة الثانية بتاريخ : 12 نوفمبر 1920.

[2] في جريدة الأخبار، 31 أوت 1910.

[3] الأخبار، 15 جانفي 1911.

[4] جريدة الأخبار، 31 جويلية 1910.

إذا فالاصطدام ليس فقط مع آفة الجهل والأمية المتفشية عموما في العالم الإسلامي وفي الجزائر، وإنما أيضا في الوسط الذي لا يساعد المفكرين المصلحين في بث أفكارهم والذي يعكس جو الاختلاف والتناكر والتقاطع ما بين المفكرين أنفسهم، وما بينهم وباقي الفئات الأخرى في المجتمع، وهذا الواقع من سمات انحطاط تلك المرحلة[1]. ثم يرى أن التفكير في وسائل النهوض بالأمة مع عدم تلمس التجاوب المطلوب، يعيق الحركة الإصلاحية، ويبقى العاملين المجدين يتأسفون ويتحسرون على الوضع، ولا يمكن بالتالي انتظار التخلص من التخلف ومن الهمجية ومن الاستبداد بجميع أشكاله. ثم إنه يتعجب أشد التعجب من قلوب تعي هذا ومع ذلك تغفله، وأبصار تنظر هذا وتنكره. والفقرة التالية تعكس هذا التأسف العميق، لما يتعرض له دعاة الإصلاح، فهو قد كتب: (... سألت وألححت وطلبت الإنابة إلى استعمال وسائل النهوض والانتباه لما تبصر إلا أكتاف قوم لا تظن الفضل في غيرهم ولا تعتقد الغيرة عنهم نائية تغمزك وتهز نحوك رؤوسها (كذا) إذاعة للعجز وإعلان للكسل ومقدمة لتثبيت همة العامل وسدا لفهم الصارخ وضغطا على من يبدي الأنين. هذا فضلا عن الألسن التي تناديك "إش عنـ دي فيك. دع ملا يعنيك"...)[2].

فبهذا يرى أن الوسط الذي ابتعدت فيه النفوس عن الأعمال وانهزمت العقول أمام الإدراك والمعارف، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر قد تم تغييبه، يجعل الأفكار النيرة، المقبلة على الإصلاح تنطفئ وقد تضعف الهمم أمام هذه الوضعية.

وقد تعرض في مقالين متشابهين سنة 1908 إلى فئة من معارضي الإصلاح والتنوير في الجزائر. وكان قد نوه قبل ذلك بالخطة الوطنية الإصلاحية التي أعلنها زميله وصديقه فيما بعد المصلح والصحافي عمر راسم عبر الصحافة التونسية[3]. حيث تم اتهام الرجلين المصلحين بالتهور حينما أعلنا أن مبدأ الوطنية ضروري للنهوض بالشعب الجزائري المستعمر. ولقد كتب عمر بن قدور مقالا تحت عنوان : "التقدم بقوة الوطنية العالية، لا التهور في التقدم". وهذا بجريدة "التقدم" التونسية التي كان مراسلا لها بالجزائر. فانتقد فيه أعداء الوطنية الذين يتهكمون ويطعنون في أهل الوطنية ويسمونهم بالمتهورين؛ ويتهمونهم بالتعصب وما جاء في هذا المقال : (... لم يخل قطر الجزائر مثل هذه الطائفة التي هي الداء العضال في ذاته الطاهرة كما لم يخل

---

[1] في "الأخبار"، 17 مارس 1912.

[2] جريدة "الأخبار"، 1 جانفي 1911.

[3] جريدة "التقدم" التونسية، 23 جانفي 1908.

كل قطر من الأقطار الشرقية والغربية من مثلها. وقلما سلمت طريق الوطنيين من الحجارة العثرة التي تعدها هذه الطائفة أمام مشروعات الوطنية وأهلها فهم يتآمرون (كذا) على الفساد في الأرض ويزعمون أنهم هم المتنورون (إلخ..)....)[1].

فهذه الفئة المعارضة، كلما شعرت بأدنى حركة قلمية حيوية من أهل الوطنية، كما قال عمر بن قدور، إلا ونددت وبالغت في الثلب والقدح الذي هو سلاح عديمي البرهان ضد أولئك الوطنيين وقالت لجمهور طائفتها انظروا إلى "التهور في التقدم". ولقد ختم مقاله الهام هذا، والذي لنا عودة إليه في مجال الفكر السياسي، بذلك النداء الحار : (فلتعش الوطنية العمومية، وليحيا كل حر). ثم إننا قد وجدنا مقالا له مشابها لهذا المقال، في جريدة "الأخبار" شهران بعد ذلك، وبالضبط في 05 أفريل 1908 تحت عنوان : مبدأنا (بقوة الوطنية نتقدم)، يرد فيه مرة أخرى على أقلام تسخر برجال الوطنية المتحمسين لمهمة النصح والإرشاد والإصلاح. وهذه الأقلام إنما تحركها أغراض ومصالح خاصة، لا تهمها حقوق وشكوى ومعاناة الأمة الجزائرية. أما هو، فالقوة الوطنية هي التي دفعته لأن يعود إلى بلاده لينشط في الصحافة الجزائرية، بعدما كاتب الصحافة التونسية والمصرية. ومما جاء في هذا المقال : (... جئنا الآن لندافع عن الحقوق ونظهر شكوى الأمة الجزائرية ونخدم الإنسـانية ونسـير على النهج الحقيقي المستقـيم..)[2].

وفي نص صحافي تحليلي آخر، حينما يتساءل فيه عن الوسيلة أو الكيفية التي يستطيع بها المصلح أو الناصح تبليغ خطابه في وسط تبدو فيه الأمة مفككة الروابط، والتماسك الاجتماعي فيها ضعيف، وليس لها حضور فقال، ويقصد بذلك حالة الأمة الجزائرية تحت نير الاستعمار واستغلال المعمرين الأجانب، فإنه يحدد بعض العقبات التي ينبغي للقائم بالإصلاح والتنوير تجاوزها، وأبرزها تجاوز فئة المعارضين. لأنه يدرك، كما كتب : (... أن كل من اجتهد في سبيل إحياء الأمة وبعثها من قبر انحطاطها وسد منفذا من منافذ أخرى مملوءة (كذا) بالأخطار والمهالك لم يأمن من العثور فيها، إلا من كان حيوانا جهولا. وطالما زلت أقدام رجال في هذا الميدان بهذه العلة وبهذا السبب فحادوا عن جادة الصدق إلا أقطابهم وقليل ما هم...)[3].

---

(1) جريدة "التقدم" التونسية، 27 فيفري 1908.

(2) انظر جريدة "الأخبار"، 20 صفر 1322 هـ الموافق 05 أفريل 1908.

(3) جريدة "الأخبار"، 18 سبتمبر 1910.

ويطلق على إحدى العقبات المتمثلة في معارضي الإصلاح عبارة "حزب التأخر المعارض". ذلك التيار المعاكس للنهوض، والمتشبث بإبقاء كل ما هو قديم رغم قدمه. لهذا ينبغي على المصلح أن يوجه جهاده أولا إلى هذا الحزب، الذي يتكون من رجال باعوا هويتهم وملتهم، ونافقوا في ديانتهم، وتزندقوا في وطنيتهم. فأصبحوا يمثلون الخذلان والكسل والفساد المحض، بذلك فهو يشكل خطرا على الأمة الإسلامية[1] ويؤدي بها إلى الاضمحلال. وينبغي على المصلح أيضا، أن يراعي خصوصية الوسط أو البلد الذي قد يختلف عن أوساط أخرى، لاختلاف المذاهب والأحوال السياسية، وتباين الظروف المعيشية للشعوب الإسلامية، شرقا وغربا و(لأن لكل وطن له أحوال تماثل تقدم أهله ورتبتهم من حياة هذا العصر...)[2]. ومن الفئات التي رآها تؤلف هذا التيار المعارض، ذكر طائفة المقلدين وطائفة من رجال الدين وطائفة الشباب. التي سوف تشكل بالنسبة للمفكر المصلح عمر بن قدور، عقبات يتوجب توعيتها وتحسيسها بأعباء المسؤولية الوطـنية في خدمة الأمـة والـدين معـا، تحقـيقا للتغيير وللنهوض.

وسوف يلاقي هو بذاته صعوبات في ممارسته الصحافية الإصلاحية، والتي لم تكن فقط نتيجة المنظومة الاستعمارية، بمختلف قوانينها كما ذكرنا سالفا، وإنما حتى من الوسط الجزائري، وبعض تلك الفئات التي حددها كحزب معارض للإصلاح، سوف تعترض خطته الفكرية والعملية، وتتنكر لجهوده، وطالما آلمه ذلك الموقف. ولعل اتهامه سنة 1913 بالانتماء إلى التيار السياسي للجامعة الإسلامية (Panislamisme) من قبل الجزائريين أنفسهم الناشطين في الصحف الاندماجية التغريبية خير دليل على الصراع الفكري بالدرجة الأولى الذي كان يخوضه تجاه هذا التيار السياسي الاندماجي الذي أطلق عليه عبارة : "حزب الاستعمار". ومع ذلك عبر بكل وضوح عن مبدأه الإصلاحي ثم قال مخاطبا هؤلاء : (... كنا ولا زلنا ننكره ونحارب الجامدين أي متبعي القديم من قومنا والمغالين في التفرنج وأتباع الجديد منهم إلى درجة الإلحاد ومبغضي المسلمين من حزب الاستعمار ونبرأ من كل شيء يمس بشرف الإسلام...)[3].

---

(1) الجريدة نفسها، 25 سبتمبر 1910.

(2) المرجع نفسه.

(3) صحيفة "الفاروق"، 21 مارس 1913.

وفي مقال هام نشره بجريدة "الأخبار" تحت عنوان ذي دلالة في هذا السياق الذي نتناوله بالتحليل وهو : "علاج مقاومي الإصلاح"[1]. فإنه قام بتحليل بعض السلوكات الأخلاقية والاجتماعية والسياسية التي تجسد ملامح لمقاومة العمل الإصلاحي. ويمكن أن نستخلص منه جانبا آخر، غير الجانب الفكري المحض، في تمظهر الصراع والمقاومة. حيث نراه يتساءل حول كيفية معالجة النفوس المريضة بالحسد والشح وإتباع الهوى وكيف أن اتقاء ضرهم يكمن في مداواة النفوس وإصلاحها أو مقابلتها بقوة معينة رادعة. لكن الذين يعملون على إفشال المشاريع الإصلاحية، فينبغي النظر في الأسباب الكامنة وراء هذا الموقف، لكن انطلاقا من معرفة النيات والتمييز فيما بينها. فصاحب النية الحسنة، قد تكون معارضته ويكون اعتقاده نابعين عن جهل مطلق بفحوى تلك المشاريع وغياب معلومات واضحة عنها. لكن يؤكد مسألة هامة. وهي أن الخلاف فيما يتصل بالخطة الإصلاحية التنويرية، واختلاف المقاربات والآراء يبقى واردا مادامت العقول مجتهدة وعاملة. والخلاف هو بذاته غريزة لدى البشر. فكتب قائلا[2] : (... الخلاف بين البشر سنة غريزية لا مطمع في تبديلها فإذا جعلنا الخلاف في الرأي والفهم سببا للتنازع والتخاذل نكون سجلنا على أنفسنا الفشل الدائم والهلاك البطيء أو العاجل ولا يختلف الناس في شيء كاختلافهم في الأمور الاجتماعية وما به تترقى الأمم أو تسقط لأن كل واحد يدعي العلم بذلك...).

لكن تبقى النخبة الإصلاحية التي تشتغل بعقلانية لإصلاح المجتمع البشري وإصلاح أحوال مختلف الأمم قليلة الوجود، ونادرة خاصة في الشعوب المتخلفة عن الركب الحضاري. وحتى وإن وجدت الشعوب فهي تبقى مهمشة ومغيبة. ويرى مفكرنا المصلح بأن القائمين على الإصلاح والتنوير معرضون في وسطهم إلى مختلف التحديات والأخطار التي قد تدفع بهم إلى مغادرة أوطانهم، أو يتعرضون للأذى والتصفية الجسدية أو إلى النفي. ومن ثم لا يتم إدراك حقيقة نضالهم ودعوتهم مهما كانت صبغتها، دينية أو سياسية، إلا بعد فوات الأوان. كتب المفكر عمر بن قدور : (... كأين من بني كريم وعليهم حكيم وصوفي كبير وسياسي خبير كافاه قومه على ما تصدى له من إصلاحهم بإرهاق الدم أو النفي من الأرض أو الضرب أو السب ثم ظهر في حياته أو بعد مماته أنه كان هو المصيب وكل من ناواه من المخطئين الخاطئين)[3].

---

(1) جريدة "الأخبار"، 30 مارس 1913.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر السابق.

ومعاناة النخبة العاملة في مجال الإصلاح تبقى صفحات مضيئة في أي بلد مسلم. وما ذهب إليه عمر بن قدور تؤكده، على مستوى الجـزائر، الحقـائق التاريخـية إبـان الفتـرة الاستعمارية.

حيث روى السيد محمد بيرم التونسي في كتابه "صفوة الاعتبار" حادثة جمعته بأحد علماء مدينة الجزائر وهو الشيخ على بن الحفاف المفتي المالكي بها، والذي شهد له بسعة معارفه الدينية، وكان ذلك في سنة 1884، هذه الحادثة التي تعكس الضغوط والأجواء الاستعمارية، التي جعلت هذا العالم الجزائري يفكر في هجرة الوطن كما فعل آخرون. لكن بيرم التونسي ناقشه في هذا العزم، وأبدى له معارضته. فذكره بأن أمثاله قليل الوجود في الجزائر، وأن بقاءه فيه للتعليم، خاص للتعليم الديني أنفع لعامة الناس وله عند ا من خروجه، مع إبقاء تلك الأمة المسلمة تفتقد لأمثاله ويضيف بيرم التونسي قائلا : (... بل وربما حمل خروج غيره ممن هو على شاكلته على الخروج فتبقى العامة بلا تعلم لديانتهم وتضمحل منهم الديانة شيئا فشيئا والعياذ با بخلاف ما إذا بقي هو وأمثاله فإنه تنتشر العقائد والفقه وتبقى الديانة إن شاء ا محفوظة في الأهالي وذلك هو المنصوص عليه في كتب فقهنا...)[1].

إن تحليلنا لمختلف النصوص الصحافية والفكرية التي أنتجها عمر بن قدور جعلنا نلاحظه مدى وعيه واستيعابه لهذه المسألة المتصلة بتأثير البيئة الاستعمارية، سواء ما تعلق بنشاطه هو بذاته، أو ما ارتبط بأي مجهود إصلاحي صادر عن شخصيات نخبوية أخرى. وما إحالتنا لبعض نصوصه سابقا إلا تأكيدا لهذا الواقع. ويكفيه تجربة ومصداقية، أنه يمكن أن أصرح في هذه الدراسة، أنه أول صحافي جزائري يتعرض للاعتقال على حسب علمنا، وهذا سنة 1904، حينما كان يحرر في القسم العربي لجريدة (الهلال) بمدينة الجزائر. أما اعتقاله ونفيه بعد توقيف جريدته (الفاروق) في بداية الحرب العالمية الأولى. فقد أشرنا إليه آنفا، وهذا بالرغم من احتياطه، في كتاباته وافتتاحية الصحفية. وكان احتياطه واضحا منذ أن صرح في العدد الأول من (الفاروق) من أن صحيفته سوف تنشط في سياق بعيد عن السياسة. لأن طقوسها تتسم بالتلون وبالتقلبات، خاصة والبلد، الجزائر، يقع تحت بني السياسة الاستعمارية

---

[1] صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار لمحمد بيرم الخامس التونسي، طبع القاهرة، 1303 هـ، (1885)، ص16.

فكتب قائلا ومحذرا من مغبة عوالم السياسة : (... ويل للضعفاء منها ومن تلوناتها وتقلباتها لقد عتت عليهم عتوا كبيرا، وملأت قلوبهم رعبا فما كان بعضهم لبعض ظهيرا...)[1] .

وسنة بعد ذلك في افتتاحية وضح فيها المبادئ الرئيسية التي تعمل صحيفته على تجسيدها، بدا جليا مذهبه أو خطه السياسي الاعتدالي في التعامل مع إدارة الاستعمار التي تمثل في نظره، سياسة السيطرة والهيمنة لفرنسا الاستعمارية، مع ذلك يرفض الخضوع لضغوطها في خطه الإصلاحي الإعلامي. وسوف نلمح من خلال دراستنا هذه كيف يتناول بعض المسائل السياسية المرتبطة بمصير الشعب الجزائري، بأسلوب مختلف، عبر الكتابات السياسية التي كانت يراسل بها الصحف التونسية أو صحيفة (الحضارة) الصادرة بالأستانة بتركيا، لصديقه المصلح عبد الحميد الزهراوي.

من هنا كان واضحا بالنسبة إليه أن الممارسة العلمية، في سياق الإصلاح والتنوير في العالم العربي والإسلامي قد تختلف حسب الأجواء السياسية السائدة، وحسب درجة مستوى الظروف الاجتماعية والمعيشة للأمة الإسلامية. لأن المناخ السلطوي، وفضاء الحرية يؤثران بصفة أكيدة على النتاج الثقافي والصحافي. كتب في هذا السياق قائلا : (إذا كانت الحكومة ضاغطة على المرشدين والمفيدين وآخذة في سبيل الاستبداد تجد الأمر مختلا والفساد شاملا... وبالعكس إذا خاصم الهداة وصرخ المرشدون واتخذوا في (الكلمة) ونكلوا برجال الاستبداد الأمر الذي هؤلاء إلى سوء الدرك ويرجع بالأمة إلى محبها ... هذه سنة ا في خـلقه ولن تـجد لسنة ا تبديلا...)[2] .

قد يكون مفكرنا هو الذي كتب مقدمة المقال المترجم، الذي نشرته جريدة "اللواء" المصرية سنة 1906، أي حينما كان مراسلا لها بالجزائر، تحدث عن ميل الوالي العام الاستعماري "جونار"، نشره بجريدة "الحضارة" وأعادت "المشير" التونسية نشره، وهذا سنة 1911، ولا يعنينا الآن موقفه من سياسة إصلاحات الحاكم العام هذا، وإنما لتبيان صعوبة الفضاء التعبيري والقمع المسلط على الوطنيين الإصلاحيين في الجزائر. فلقد اعترف له بقلة التضييق على المفكرين، الذي نتج عنه نوع من الحرية ضاربة أفراد يعدون على الأصابع يكتبون في الصحف ويجهرون بآرائهم ومنهم هو بذاته.

---

[1] في "الفاروق" العدد الأول. 18 فيفري 1913.

[2] مقال "المسلمون في الجزائر"، جريدة "اللواء" المصرية، 18 أفريل 1906.

ومما جاء أيضا في هذا المقال : (... قد كان أحدنا قبل ولاية المسيو جونار إن نطق بجملة سياسية بين الجمهور يحمل من حيث لا يدري ويجلى إلى جهة مجهولة. وذلك عمل كل حكومة تخشى من نبوغ المغلوبين وتذمّرهم منها ومن أعمالها...)[1].

ونرى أن عمر بن قدور ما كان ليكتب هذا النقد السياسي في صحيفة تصدر بالجزائر. وبالفعل فسوف نلاحظ في الجانب السياسي من فكره، كيف يختلف خطابه الصحافي، لنفس الحدث، عبر مقالين نشرهما في صحيفتين، واحدة صادرة بالجزائر والأخرى خارجها.

مع ذلك فقد كتب من قبل في الصحيفة الجزائرية "الأخبار" حينما التحق بها أول مرة، سنة 1908، رئيسا للقسم العربي، مقالات تختلف نبرتها الانتقادية والسياسية، عما أبداه من آراء لما انقطع وعاد إلى هذه الصحيفة سنة 1910، كما بيناه آنفا. ومن أبرز هذه المقالات، أحدهما الذي عنونه كالآتي : "كيف يقف الصحافي المرشد بين الجزائريين". فبعدما يستعرض المشكلات المتعددة التي يجابهها الصحافي المرشد، أي المصلح، يقدم المخاطر التي تهدده قائلا : (الصحافي الوطني لا يقف إلا وهو متجلد متدرع بدروع حسية ومعنوية يدعو وينادي والأهوال تهدده والمصائب تحفه وعيون السوء تتبعه وبعض الأفواه تقول : "أوجدوا لنا سيبريا في الصحراء، أوجدوا لنا سيبريا" ماذا صنع هذا المرشد يا ترى، هل دعوته إلى الحق تعد جناية وأمره بالمعروف يرسم سيئة ونهيه عن المنكر يحشره في زمرة المجرمين)[2].

وكأغرب الأحداث، بعد كتابته لهذا بسبع سنوات ترمي به الإدارة الاستعمارية في الصحراء الجزائرية منفيا.

ولقد أوضحنا سابقا كيف أن البيئة الإعلامية المتصلة بالممارسة الصحفية، إبان الفترة الاستعمارية، كانت تتميز بمنظومة قانونية تخدم النسق الاستعماري بأهدافه المختلفة، المؤثرة على طبيعة الممارسة هذه[3]. لكن في سياق الدعوة إلى الإصلاح ومجابهة مختلف التحديات التي حددناها، انطلاقا من الكتابات الصحفية محل الدراسة، تبقى نقطة مهمة لاحظناها وهي تعكس الشخصية الذهنية للمفكر عمر بن قدور الجزائري، وهي الهمة والعزم على المضي قدما في سبيل أداء رسالته الإصلاحية، بالرغم من وجود العقبات التي أشرنا إليها. هذه الهمة إنما هي تضاف إلى طبيعة قيمة مبدأ الثبات الذي سار عليه، لكن مع إلحاح ودعوة متكررة لنبذ

---

[1] مقال "استقالة المسيو جونار"، جريدة "المشير" التونسية، 19 مارس 1911.

[2] مقال : كيف يقف الصحافي المرشد بين الجزائريين، "الأخبار"، 12 جويلية 1908.

[3] انظر الفصل الأول من هذه الدراسة.

اليأس، الداعي إلى موت الشعور بأداء الواجب تجاه الأمة وإلى التكاسل والخمول. ففي مقال تحت عنوان ذي شحنة دلالية موجه إلى العاملين في ساحة الإصلاح وخدمة الوطن، وهو : "لا حياة مع اليأس"، تساءل مستنكرا اعتقاد البعض من هؤلاء عدم جدوى الجهاد في سبيل الحق والعدل والمنفعة العمومية، مع وجود نظرة أو موقف أخلاقي سلبي يتسم باحتقار الأمة النائمة الغافلة واعتقاد موتها، فأصواتهم بذلك لا تذهب إلا كصرخة في واد أو نفخة في رماد كما قال[1]. ثم بعد انتقاده لأفكار أصدقائه اليائسين من جدوى عمله، قدم نداءه باسم خدمة الوطن من جهة أخرى يقول ضعوا يدكم على المحراث وانظروا أمامكم لا خلفكم ولا تعبؤا إلا بإنجاز مهمتكم التي أوجدتكم الطبيعة لها. وهكذا ينادي الوطن كل أحد من أبنـائه فليلبوا النداء إن كانوا من السامعين)[2].

وتتبعنا لهذا التوجه من شخصيته، جعلنا نعثر على مواقف هو بذاته في لحظة من لحظات مواجهة طبيعة الواقع الجزائري، اختار العزلة، ولكن أحيانا لقراءة هذا الواقع وتعميقا لمعارفه الفكرية، حتى يتمكن من الاستمرارية فنبذ روح اليأس عن نفسه وأطلق العنان لآمالها في خدمة المشروع الإصلاحي والتنويري فعلم "أن من يؤمل خيرا يجده ومن يؤمل شرا يجده" حكمة ثابتة وعلى أساس متين. فكتب قائلا بأن (.. الأمة الإسلامية أحوج الأمم إلى رجال يقومون بهمم لا ينالها يأس ولا قنوط فينعشونها بالأدوية النافعة ويتكلفون بتنمية قوتها وتطهيرها من جراثيم الضعف والوهن... هل شعر رجال الإسلام ذوو العزائم القوية بحاجة الأمة إليهم؟ وهل نظروا بعين الحق وعقلوا كيف الأمة تنادي وتستغيث وهي تعالج آلام الانحطاط؟ أم هل على قلوب أقفالها وعلى أبصار ظلماتها؟...)[3].

وانطلاقا من قناعته العقائدية ورسوخ فكرته الإصلاحية، عبر في نفس هذا النص على أن ا تعالى قد عاهد الأمة ووعدها بالرفعة والمجد وإبعاد صور الذل والقهر عنها إذا ما وجد فيها قوتين عظيمتين تكونان السبب في حصول التغيير وهذا التحول. ويستشهد بالآية القرآنية : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون).

والقوتان، يعني بهما الأمل والعمل. ويعتبرهما من القيم التي هي أصل منطوق الآيات القرآنية الجليلة، التي يتمحور مضمونها أو خطابها على الحث على (العمل والجد والاجتهاد

---

[1] في مقاله : "لا حياة مع اليأس"، جريدة "الأخبار" 21 جمادى الأول 1326 الموافق ل 21 جوان 1908.

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] جريدة "الأخبار"، 15 جانفي 1911.

وأمرت بنبذ الكسل واليأس والقنوط. هما التدرع بدرع الأمل والرجاء والتقمص بقميص الصبر. والوقوف أمام الحوادث موقف العاجز المنتهز للفرص لا موقف الميت الراضي بالمسكنة مع الثقة برب الأرباب المراقب لحركات الأرواح في الأشباح...)[1].

من هنا، فهو يدعو أيضا الذين ارتقوا منبر الإرشاد والإصلاح أن يصدقوا الرجاء ويكذبوا اليأس. وأن يتكيفوا مع التطورات الحاصلة ومختلف الأحوال بالتزام الأعمال. ويعتبر أن الأحوال الماضية بظلامها وجمودها وفسادها جعل الأمة الجزائرية، في هذا العصر أي في بداية القرن العشرين، تسعى للحركية النهوضية النامية، لبروز أشعة اليقظة، ودعاها للاستعداد (لمقابلة أحوال القرن العشرين بمزاولة العمل وسد ثلمة بما لديها من القوة فلعلها تخفف جانبا من زلتها التاريخية العظمى)[2]. وأرى أن الزلة التاريخية إنما يقصد بها وقوع الجزائر تحت سيطرة وهيمنة الاستعمار الفرنسي. وكما بيناه في مقاربتنا التحليلية فإن مبدأ السنن الكونية يظل محورا أساسيا في هذا التوجه، فها هو يكتب في نفس هذا المقال : (... كذلك سنة في أكوانه تبعث في كل آونة ظروفا عسيرة وأخرى يسيرة فما يغني عن البشر شيئا في اليسيرة ما لم يعملوا في العسيرة عمل القابض على ناصية الأمل...)[3].

---

(1) جريدة "الأخبار"، 15 جانفي 1911.

(2) من مقال "أحوالنا وأعمالنا"، جريدة "الأخبار"، 23 جويلية 1910.

(3) المصدر نفسه.

## المبحث الثاني: مرتكزات فكرية للإصلاح الأخلاقي

كشفت دراستنا التحليلية للمقالات الصحفية، كيف أنّ المفكر عُمر بن قدور الجزائري كان يستند في مشروعه الإصلاحي والتّنويري إلى مرتكزات وأسس فكرية تعالج القضايا التي يتضمّنها مفهومه المتّصل بالفوضى الأخلاقية. هذه الفوضى التي اعتبرها كما رأينا ملمحًا من ملامح انحطاط الأمّة الإسلامية وسقوطها الحضاري. لم تكن تصوّراته الفكرية بمعزل عن الواقع أو الوسط الذي يعيش فيه. إنّ ذكر بعض العبارات التي كان يوظّفها في كتاباته تعكس هذا الانشغال الفكري والوجداني بالقضايا الأخلاقية التي تبقى حسب توجّهه الإصلاحي، مرتبطة بالجانب العقائدي والديني بالدرجة الأولى. وتتداخل مع القضايا الاجتماعية التي تمّ توصيفها من طرفه. فإذا ما استعمل عبارة الأمّة الجاهلة، رأيناه يجعل فوضى الأخلاق من سماتها، وإذا ما تحدّث عن " التيار الجاهلي " فهو يربطه بسقوط الأخلاق. وهكذا فإنّنا يمكن أن نذكّر أيضا استعماله للعبارات التالية في هذا السياق: مفاسد الأخلاق، إنحلال رابطة الأخلاق، إنحطاط الأخلاق، فساد الأخلاق، النكبات الأخلاقية، الأخلاق الفاسدة، سوء الأخلاق، الرذائل ....

وبالمقابل أظهر التحليل وجود عبارات دالّة تعكس رؤية قيمية للأخلاق، أي بديل فكري أخلاقي للبناء الحضاري، ولتحقيق مبدأ البقاء والوجود للأمّة الجزائرية والإسلامية، فيما بين الأمم. من هذه العبارات: محاسن الأخلاق، روح مكارم الأخلاق، الآداب الإسلامية، الآداب الإنسانية، الأخلاق الحسنة، الفضائل حسن الأخلاق، قوة أخلاقية، الخِلال، تهذيب الأخلاق، الخصال الجليلة....

ورأينا كيف أنّه يؤكّد ليس فقط على جانب العبارات التي تؤثّر في بناء شخصية الفرد المسلم، ولكن أيضا على السلوك والممارسة الأخلاقية حيث اعتبر غياب قيمة التعارف فيما بين المفكّرين المصلحين، وباقي الفئات الاجتماعية الأخرى، عقبةً كؤود في إيجاد الأمل والاستعداد للمستقبل بصفة عملية. وحسب تحليلنا لمختلف النّصوص، محلّ الدراسة، فإن البعد الأخلاقي المتمثّل في شخصية مفكّرنا، يدعّم صدقية قراءته النقدية الأخلاقية لواقع المجتمع الجزائري في تلك المرحلة، خاصة الربع الأول من القرن العشرين. وبالتالي يعزّز المرتكزات الفكرية التي يستند إليها في مقاربته التصوّرية والعملية. وهو الذي جعل خدمة الأمة والوطن في أولوياته وخاصة المصلحة العامة للإنسانية، في سياق قيمة أخلاقية عظمى هي الحق. حيث قال: " وما أريد إلاّ إظهار الحق ونصرته ...". وكان يدرك أن رضاية الناس مستحيلة، ومع ذلك جابه الواقع كما بيّنا ودعا إلى الإتّصاف بالثبات والتحدّي. ولم يكن يرى نفسه أعلم من زملائه

الصحافيين أو المفكّرين، لأنّه ما كان يعتقد وهو يكتب كتاباته الاستنهاضية إلاّ أنّ فوق كلّ ذي علمٍ عليم، ولهذا فهي قابلة للانتقاد. حتّى أنّه لما اصدر صحيفته (الفاروق) وفي العدد السادس وجّه سؤالاً استنهاضيًا لجميع القرّاء، ولم يكن قاصرًا على فئة المفكّرين أو المثقفين وهو: " ما هي الوسائل (كذا) التي يصبح بها ترقية أفكار ومدارك مسلمي الجزاير سيما في فهم الدين الصحيح الذي لا يحصل لهم النجاح إلا به ؟ "[1] كان قصده من ذلك بث حركة فكرية بين القراء، وأظهر استعداده لنشر كلّ جواب يرد في هذا الباب الفكري، وعبّر عن رجائه في الإقبال على الكتابة والتفكير حتى لا يذهب صوته كصرخة في واد. وانطلاقًا من قوله الخليفة عمر بن الخطاب (ص): " من رأى منكم في إعوجاجًا فليقومه ". حث على نقد صحيفته من الوجهة الأخلاقية والمهنية.

حيث كتب أعلى الصفحة الأولى من العدد (15): " كذلك يقول " الفاروق " لقرائه الكرام فإنّ التناصح من خصال الإسلام فمن رأى منهم فيه إعوجاجًا عن طريق الحق أو مقالاً مسروقا تحت إسمنا أو تحت اسم غيرنا فليدل لنا نصيحته وليصلح مفاسدنا عن قلب سليم وتشوّق خالص وإنا لنخضع أمام كلّ من ينيلنا نصيحة في إصلاح أي خلل أحدثناه "[2].

من هنا نصل إلى نقطة القدوة الأخلاقية التي تأثّر بها، بصفة عميقة عمر بن قدور، ألا وهي شخصية عمر بن الخطاب (رضي ا   عنه). فلقد جعل اسم صحيفته تحمل لقب (الفاروق) إحياءً لذكرى رجل الأمّة الإسلامية العظيم، ثاني الخلفاء الراشدين وأمير المؤمنين. وعلاوة على ذلك رجا أن تكون جريدته هذه بمذهبها الاعتدالي "فارقة بين الحق والباطل وآمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ..."[3]. وكثيرا ما يضع بعض الأقوال والحكم تتصدّر الصفحات الأولى، وهي لعمر بن الخطاب[4]، أمّا إمضاءاته للعديد من مقالاته فكانت ترد كالتالي، عالمة هذا التأثر الأخلاقي وهي: الفاروق، عمر أبي حفص، أبو حفص، ابن الخطاب.

ثمّ إنّ الواجب الأخلاقي هو الذي دعا لأن يستنكر الاعتداء الجسدي على الدكتور التهامي من قبل أطراف تنتمي لنفس توجّهه السياسي في الجزائر، قبل الحرب العالمية الأولى. وهو التيار الذي يسمّيه المفكر عمر بن قدور بالحزب المحافظ أو القديم، فاعتبر المصالح

---

[1] – أنظر: صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 04 أفريل 1913.

[2] – نفس المصدر: بتاريخ 6 يونيو 1913.

[3] – المصدر نفه : العدد الأول – بتاريخ 28 فيفري 1913/ يوم الجمعة 22 ربيع الأول سنة 1336 هـ.

[4] – نشر أيضا ترجمة حياة عمر بن الخطاب، لرفيق العظم على حلقات عديدة تذييلا للجريدة.

الشخصية وراء حدوث الجنايات السياسية. ولقد تأثّر لحدوث هذه الكوارث التي شوّهت وجه الإخلاص وجعلت التسامح بعيدًا عن عظام الرجال. وتعليقا على هذه الحادثة كتب مقالاً أخلاقيًا في السياسة تحت عنوان " الجنايات السياسية " وهذا سنة 1912. وممّا جاء فيه:

" إن من مدنّسات العمل والركض في ميادين الاجتماع نبوغ الشحناء والتناكر وبلوغها إلى حدّ تهدر فيه الدماء وتزهق الأنفس. إنّ الخلاف إذا استحكم بين الأفراد أو الجماعات في سبيل (أغراض) عمومية، فالواجب الأدبي أن لا تتناول ظغينته القلوب فتجعلها سوداء لا يتخلّلها نور. إلاّ أن البشر لما كانوا بفطرتهم الإختلالية يميلون إلى الانتقام عند نهاية كلّ تنافر فقد أبى ا أن يوفقهم لمعرفة الواجب الأدبي المذكور آنفا وعليه فلا عجب إذا عكرّوا كأس الراحة في ميدان العمل السياسي والاجتماعي وأخبار الأوّلين والآخرين مشحونة بفضائع هذا الباب بين أعظم الرجال وزعماء الأحزاب ..." [1].

ولنتساءل الآن، ما هو **مفهومه للقيم الأخلاقية ؟** وبالتالي ما هي المرتكزات الأساسية لهذه القيم في سياق المنظور الإصلاحي الذي يتوخّاه ؟ من خلال مقاربتنا التحليلية الكيفية ؟ يعتقد مفكّرنا بأنّ محاولة فهم عالم الأخلاق تبقى صعبة، نظرًا للتباين الحاصل في مظاهرها. فالقيم الأخلاقية تتسّم أيضا بالتفاوت إذا تم النظر إلى الواقع الإنساني بحيث تتضارب فيه الغايات والأهداف وتتصادم فيه المصالح. والأخلاق الفاسدة إذا ما تغلّبت على نفوس تجعلها تفرط في طريق السرور بالحياة لغاية خسران، الداريّن، الدنيا والآخرة، وتفرط في طريق الحزن لغاية اليأس والانتحار المفلسين للدارين أيضا. ويرى أنّ الإسلام جاء بالأخلاق المتوسّطة التي لا إفراط فيها ولا تفريط، حيث كتب في مقال تحت عنوان " نظرة في الأخلاق "[2] من أن الإسلام:

" .. حث أتباعه على غرسها في قلوب الأولاد الصغار وهم على الفطرة ليشبوا عليها وبث خشية الشرع في إدارة أخلاقهم إن كانت متطرّفة (طبعا) في أذهانهم وإقناعهم بأن الرقيب عليهم لا يشذ عنه قطمير ولا نخفى عليه ذرة في جوف الأرض ...".

وما عيش الذين استمسكوا بالإسلام سعداء إلاّ بفضل سيادة الأخلاق الحسنة، أي القيم الأخلاقية الإيجابية، أما الذين كانوا يقولون ولا يفعلون، فقد دخلوا طريق الموبقات وسلوك

---

[1] – الجنايات السياسية بجريدة: الأخبار – بتاريخ 18 فبراير 1912.

[2] – بجريدة الأخبار – بتاريخ: 28 أغسطس 1910 (وبعد نشره لصحيفته (الفاروق) تحت عنوان: " كلمة في الصيغة الحنيفية ". ليوم 16 ماي 1913) " إمضاء ابن الخطاب ".

الأخلاق الفاسدة. ويتعجّب من إدراك الفرد أو الأمّة، لحقيقة أخرى، وهي سوء عاقبة سلوك وممارسة هذه الأخلاق، المؤدية إلى الانقراض والفناء ومع ذلك لا يتجنّبونها فيقول: " وليس من العجب في شيء تعجّب امرئ من سقوط فرد أو أفراد بل أمّة أو أمم لمجرّد ترك الأخلاق الحسنة خلف الظهور وارتداء الأخلاق الفاسدة التي هي سبب الانقراض والدثور. بل العجب من نفس الفرد و أولئك الأفراد أو تلك الأمّة والأمم من علمهم بشرّ الأخلاق الفاسدة وخير الأخلاق الحسنة ثم هو يعرضون عن هذه ويُتبعون الأولى !!!.."[1].

بعد ذكره بعض القيم الأخلاقية كـ: السكينة، حسن الكلام، العفّة الكرامة، العدل، الإخلاص في المعاملة، يدعو قراءه إلى مراعاة ا في الأخلاق، لأنّها بها يتم تمكين السعادة الحاضرة والآتية، فينبغي المثابرة على حمايتها وعدم السعي في الأرض فسادًا. ومرة أخرى يؤكد بأنّ [2]:" التأثير السيّء الذي يبدو كلّ وقت في جامعة الأمّة ناتج عن فساد الأخلاق. والسقوط المتوّرطة فيه ناشئ عن ذلك أيضا والغرابة كلّها في كوننا معشر المسلـمين أدركنا ذلك ولـم نتـأخّر عنه ...".

ينطلق المفكر عمر بن قدور في تبيان القيمة العملية والإنسانية للأخلاق من المكانة أو المركز الذي يسعى الإنسان بلوغه وتحقيقه ما بين المجتمع الإنساني، ليس فقط لنفسه وإنما لعائلته ثم لأمّته وشعبه. هذه المكانة التي تتحقق وفق مبدأ تنازع البقاء، تجعل الإنسان أو الفرد المسلم في رأيه أقرب الناس لإدراك معرفة هذه المقدرة في بلوغ تلك المكانة. وهذا السلوك نابع ممّا أملاه ا تعالى من التعاليم الدينية الصالحة الموحدة للقوة. ونصوص تلك التعاليم تتماشى ومختلف الأزمان، وهي متجدّدة. والمقصود بهذه التعاليم إنّما هي القيم الأخلاقية التي يعبّر عنها بعبارة " حياة محاسن الأخلاق " في نصّ آخر نشرة بصحيفة " الصدّيق ". فالدين هو منبع الحياة الإنسانية وبه تكتمل صلاحية وجود الإنسان، بما يدعو إليه من تعاليم تخصّ التسامح والتعارف وحسن التفاهم، والموالاة والإحسان والإكرام وعلوّ الهمّة والمعروف بكافة أنواعه[3]. ويرى أن أحسن نموذج أخلاقي في التمسّك بهذه القيم والتعاليم إنّما يتجسّد في " السلف الصالح " فيقول:

" .. حياة محاسن الأخلاق التي لم يتقمصّ بها قبل ولا بعد أحد سوى ذلك السلف الصالح الذي أنجبنا للتسامح على منواله فتركنا وضيّعنا فزعنا وحَسِبنا أن زيغـنا هو حقيقة الدين ولبّ

---

[1] – في المصدر السابق نفسه.

[2] – في مقال: " راعوا ا في الأخلاق ": (الفاروق) 14 مارس 1913.

[3] – انظر صحيفة " الصدّيق": بأي روح تمتنع " مقال" 19 أوت 1920.

الإسلام ..." [1]. بوعدها يذكّر ببعض خصال السلف الصالح، اعتبر أن الضمير المتشّبع بروح مكارم الأخلاق، معناه قد اكتسب الروح "الإنسانية الحقّة " بكلّ معاني الكلمتين، وهي التي لأجلها أوجد خالق الأكوان البشر. ورأى أنّ هذه الروح الإنسانية المتشّبعة بالقيم الأخلاقية، المتجسّدة في روح مكارم الأخلاق هي متسامية عن إنسانية القرن العشرين، فبينَهما بعد ما بين السماء والأرض. فلنلحظ إذن كيف يربط ما بين التمسّك بالقيم الأخلاقية، المبثوث نصوصها في التعاليم الدينية، وما بين وجود الإنسان، وانتمائه للإنسانية كافّة.

ورؤيته الأخلاقية، هي نابعة من وجدانه الديني الإسلامي، لأنّه، اعتبر أنّه كلّما تأمّل المؤمن في آيات القرآن الكريم بقلب طاهر، إلاّ وانشرح له معنى سامي طاهر ذو جمال قدسي يتمثل في قيمة عظيمة وجليلة ألا وهو الإحسان. والإنسان الذي يراعي ويحترم أبعاد " الإحسان " الذي يعتبره حقّا بالمنظومة الاجتماعية التي تترتّب عليها مختلف المصالح، يكون قد جسّد قيم الإنسان المسلم، أي القيم الإنسانية الحقة، كتب في نفس السياق: " ... جمال " الإحسان الذي يراعي عنده الإنسان تعاليم دينه ويقف عنده حدوده ويمكن أن نعبّر عنه بنظام الاجتماع الذي تترتّب عليه كافّة المصالح المشتركة بين المجموع البشري بحيث أن المسلم يتأكّد عليه تأكيدًا لا هوادة فيه أن يتّبع الأوامر ويقف عند النواهي كلّ حركة من حركاته الدينية والمدنية وعلى هذا المنوال يكون المسلم مسلمًا بكلّ معاني الكلمة تسري في كافة أعـضائه روح مـكارم الأخـلاق الطـاهرة ..." [2].

وإنّ إتّباع الأوامر والوقوف عند النواهي يمكن أن يشكّل معيارًا لتصنيف القيم الأخلاقية المستندة إلى التعاليم الدينية التي ينبغي على الإنسان الالتزام بحدودها وضوابطها.

ويذهب إلى أنّ الالتزام الأخلاقي بتلك القيم الحقّة والطاهرة تشكل جزءًا لا يتجزأ من شخصية الفرد والشعب. ولهذا فالسياق الاستعماري في الجزائر، جعله يعتبره من الثوابت المعوّل عليها في محاربة سياسة الإدماج الاستعماري وسياسة التجنيس بالجنسية الفرنسية. لأنّ الوازع الأخلاقي الإسلامي يقف بالإنسان الجزائري موقف رفض تلك السياسة الطارئة عليه، وبإمكانه مقاومة [... القوات الأخلاقية وتدفعها متقهقرة إلى الوراء وتأخذ بأيدينا (أي نحن الجزائريين) إلى أعلى مراتب المدينة والحضارة ...] [3].

---

[1] – في المصدر نسفه.

[2] – المصدر السابق نفسه.

[3] – أنظر صحيفة " الصديق " بتاريخ: 30 أوت 1920.

ومن بين القيم الأخلاقية، ذات الأبعاد الإنسانية والاجتماعية والحضارية التي تم استخلاصها من تحليل المقالات الصحافية العديدة، التي شكّلت جزء من مجتمع البحث هذا، نذكر أيضا العدالة حبّ الإنسانية، الحق، القوة، الكرامة، المساواة الحرية المصلحة العامة (أو الصالح العام في تعبير آخر له)، الاتحاد، روح الصدق، الشرف، السلام، التقارب، الاجتهاد، الهمّة، الضمير، المجد، التنافس، الاعتدال، الطموح ....

**- نماذج من القيم الأخلاقية:**

لا يمكننا تكوين صورة متكاملة للبعد الأخلاقي لمفكّرنا بدون تقديم نماذج تشكّل مرتكزات فكرية أساسية له، وهذا حسب مقاربتنا التحليلية للنصوص الصحافية المنتجة من قبله في مختلف صحف عيّنة دراستنا. والنماذج التي رأينا ضرورة تقديمها تتمثل في: الأمل، العمل، الهمّة، الثبات، التعارف والتفاهم، التعاون والاجتماع، ثم نقد التقليد، وقيمة العقل.

**- العمل، الأمل:**

إذا ما تحدّثنا عن القيمة الأخلاقية المتمثّلة في العمل، فإنّنا لاحظنا أن الاتجاه الغالب في الحث عليه، هو ربطة بقيمة وجدناها رئيسية لديه وهي الأمل. ولقد سبق وأن تطرّقنا إلى هذه الفكرة بحكم تناولنا نقطة مركزية في رؤيته وهي الدعوة إلى الإصلاح ومجابهة الواقع. وطبيعة دراستنا تجعلنا نستند إليها في تحديد المسار الفكري الأخلاقي لمفكّرنا.

والدعوة إلى العمل، كمرتكز أخلاقي، قد ترد في ثنايا نصوص صحافية عديدة، تناولت مضامين مختلفة، ذات أبعاد عقائدية أو اجتماعية أو أخلاقية، وحتى سياسية. وكذلك يمكن أن ترد فكرة القيمة الأخلاقية للعمل، من خلال العناوين التي كان يضعها عمر بن قدور الجزائري لمقالاته، حينما تكون هذه الفكرة هي صميم الموضوع بذاته. مثال ذلك عنـوان المقال التالـي: " جعلت الحياة للعمل (لا للبطالة) " في جريدة " الأخبار " بتاريخ 13 فيفري 1912. وثمة ثلاث مقالات متتابعة بعنوان " أحوالنا، وأعمالنا " في نفس هذه السنة وبهذه الجريدة [1]. ونجد أحيانًا عناوين فرعية أساسية كـ: الأمل والعمل (الأخبار 15 جانفي 1911)، أو عنوان " كلمة في العمل " [2].

[1] – في أيام: 23 و31 جويلية و 7 أوت – الأخبار – 1910: إمضاء " المحرّر العربي " وكان هنا هو محرر القسم العربي باسمه: عمر بن قدور الجزائري.

[2] – بجريدة " الأخبار " بتاريخ 16 فبراير 1913.

يرى مفكّرنا المصلح بأنّ ا  جعل للإنسان قيمة العمل، بمثابة جوهر الحياة، ووهبه القدرات العقلية والعلمية لينتفع بها في هذا السبيل. ومهّد له مسالك ومناهج مختلف المقاصد، عن طريق المعارف التي يتحصّل عليها من تجاربه. ومع ذلك فهو يستغرب ركونه إلى الكسل والجمود، وهو يعلم يوميًا ويطّلع على ظروف الحياة التي تحثّه على العمل وتحضّه على السعي ليجتني ثمرة الدنيا والآخرة، والتي أعدّها ا  له منذ الأزل. وحينما يتحدّث عن الإنسان فإنّه، ينطلق أحيانًا من السياق الاجتماعي والحضاري الذي ينشط فيه، لأنّه، يقارن توانى هذا الإنسان وتكاسله مع إخوانه في الجنس وزملائه في العقل، الراكضون في مضمار الحياة. إنّه يقصد الإنسان المسلم، الإنسان الجزائري، الذي هو المستهدف من خطابه، والنّص التالي يوضّح هذا، حيث كتب: [ ... نعم هذا الإنسان فيه غريزة الكسل وجراثيمه منذ وجوده وإخوانه الآخرون كانوا مثله ولكن أذهب عنهم تلك العلّة المهلكة، مشيهم إلى المدارس، وسعيهم إلى المكاتيب العلمية وهو لم ير ذلك ولم يسع له فبقى خاملاً حين جدّوا ومتكاسلا حين سعوا ومنحطا حين ارتقوا ومتأخرًا حين تقدّموا " [1].

وفي تطرّقه لتحديد الأبعاد الحقيقية لشخصية الإنسان أو الرجل الصالح الذي يعمل على تجنّب سلوكات فئات معيّنة وعدم التخلّق بأخلاقها السلبية، والذي يعمل على صلاحية قدراته الحسّية والعقلية، يستند إلى شروط أساسية منها التمسّك بالقرآن الكريم وبروحه المتماشية مع مصالح البشر بصفة العمل والفعل المحض الحسي الواقعي لا بالعقل فقط. وعلى الاعتبار بما في هذه الأكوان لتعزيز عقيدته الوجودية. أمّا الشرط الثالث فهو المرتبط بالقيمة الأخلاقية للعمل التي ينبغي عليه الالتزام بها اعتقادًا وفعلاً حيث يقول في مقال بعنوان " ما يتّقي الرجـل الصالح " [2].

[ ... الاعتقاد بأنّ العمل في هذه الدنيا هو العمل الصحيح فليعمل بغاية الاجتهاد لينفع الوطن والأمّة ويصافح شيئا لا يعرض عنه في يوم عصيب. العامل الصالح للرجل الصالح خير وصاحب، وليس العمل الذي نعنيه مجرّد الصلاة والصوم والزكاة والتقرّب إلى الخلق بالعبادات البدنية. بل العمل هو التفكّر في الخير النافع لجميع البشر والعمل على إخراجه من القوة إلى الفعل وعلى هذا فليعمل أكثر مما يعمل للصلاة وغيرها من العبادات البدنية ...].

---

[1] – من مقال له: " جعلت الحياة للعمل (لا للبطالة) " الأخبار – 13 فيفري سنة 1910.

[2] – " ما يتّقي الرجل الصالح " – " الأخبار " بتاريخ 19 جوان 1910.

لاشك أن المنطلق العقائدي واضح من هذا الاقتباس، لكن هو بذاته يعكس توجّها استنهاضيا لخدمة الوطن والأمّة، وتوجّها إنسانيًا حينما يعمّم المنفعة العملية لجميع البشر. ولهذا سوف يؤكّد بأن العمل على المنفعة العامة هي العبادة الخالصة والاجتهاد في تجسيدها والدعوة إليها أحسن ما يقترب به الإنسان إلى ا . ثمّ يحدّد بعض الأنواع العملية الأخلاقية والاجتماعية في سياق المبدأ العقائدي العام، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل تأسيس النوادي لهذه الغاية مع فتح المدارس وتأسيس الجمعيات الخيرية والدفاع عن مصالح الوطن والوطنيين وإقناع الناس بوجوب العمل في دنياهم لآخرتهم وإلى غيـرها مـن الخصـال الجليـلة والقيـم الأخـرى [1].

إنّ مفكّرنا في منظور فكره الأخلاقي، يتجاوز مصلحة الوطن والأمّة ليبلغ مصلحة أوسع مدى هي مصلحة الإنسانية جمعاء. وهذا التوجّه يجسّد حقًا النزعة الروحية المتأتية من شخصيته العميقة الإيمان با جلّ جلاله.

لكن كما بيّنا سالفا، وتدعيما لتحليلنا هنا، تبقى مأساة الأمّة الجزائرية، الواقعة تحت نير الاستعمار الفرنسي، هي المهيمنة أو بالأصح الحاضرة في ضميره الإصلاحي وفي توجّهه التنويري. لهذا في مقالات متتابعة تحت عنوان " أحوالنا . وأعمالنا " اعتبر التمسك بالعمل، والالتزام بمختلف الأعمال حسب التحولات والتطوّرات الحاصلة داخل الجزائر وخارجها، هي التي تحقّق البقاء، وتمنع من السقوط الحضاري، وإنّ مبدأ سنن ا الكونية يثبت ذلك [2].

لذلك حثّ الأمّة الجزائرية إلى الاستعداد [ لمقابلة أحوال القرن العشرين بمزاولة العمل. وسدّ ثلمتها بما لديها من القوة فلعلها تحقق جانبا من زلتها التاريخية العظمى ..] [3].

لهذا دعا إلى انتهاز مختلف الفرص بالانكباب على الهداية والإرشاد وإصلاح الشؤون التي تكتنفها فوضى الفساد والضلال. ثمّ يتحسّر على عدم التفطّن لضرورة العمل الصالح، ولم تتحرّك الهمم والإرادات من أجل الاجتهاد الخالص، في حين أنّ الأحوال والظروف تقتضي ذلك. لأنّ التواني عن العمل في الميادين التي حدّدها، خاصة رعاية الدين وترقية الشعب، معناه السقوط في الاضمحلال والفناء [4].

---

(1) – في المصدر السابق نفسه.

(2) – أنظر: " أحوالنا، وأعمالنا ". " الأخبار " بتاريخ: 23 جويلية 1910.

(3) – في المصدر السابق نفسه.

(4) – " أحوالنا وأعمالنا " (2)- بجريدة الأخبار- بتاريخ: 31 جويلية 1910.

ويدعو في موضع آخر إلى ضرورة التمسّك بهذه القيمة والاستمرار في ممارستها. لأن العمل، بدون اجتهاد وثبات عليه، قد لا يحقق التغيير أو النهوض، يقدّم مقارنة بالشعوب الغربية الماضية في مجالات الاختراع والاكتشاف. لأن العصر هو عصر العلم والمعرفة. فإذا كان في نص صحافي آخر، خاطب الجزائريين داعيا لهم للاستفاقة واليقظة وعدم العكوف على الجهل، وفهم ما يجري من تحوّلات وتطوّرات حتى يعملوا، ها هو هنا يدعوهم ويحثّهم للعمل وفق مقتضيات العصر: " فحتى متى بني قومي وأنتم في غمرة ساهمون لا تعرفون للعلوم إسما ولا للمعارف رسما قد طويتم عن رقّيكم كشحا وغضضتم دونه طرفًا ونبذتم حياتكم وراء ظهوركم ... فهلموا بني قومي إلى طلب عزّكم وإرجاع مجدكم الذي اختلسه غيركم فإنّ هذا العصر هو عصر العلم عصر العرفان، عصر فرّق بيـن الحـقّ والباطل، عصـر ـعرف فـيه العـ ـالم من الجاهـل ...] [1].

كثيرًا يستخدم المفكر عمر بن قدم قيمة أخلاقية أخرى، وهي الأمل، حينما يتحدّث أو يحضّ على العمل. ولقد ألمحنا سابقًا أيضا في الجانب الفكري العقائدي، استنكاره التوجّهات أو الآراء التي يكتنفها روح اليأس. خاصّة التي كانت تحكم على الأمّة بالموت الأيدي، مع أنّ الأمم المتقدّمة لها إمكانيات تتوفّر عليها الأمّة الإسلامية. ولم يكن مطمئنًا لامتزاج دواعي اليأس والأمل في نفوس العاملين في حقل الإصلاح والتغيير، والذي كان هو بذاته جزء من هذه الفئة المناضلة، لكنّه يريد أن يكـون في [زمرة الـذين لـم ييأـسوا من رحـمة ا وأولئـ ـك هـم المفلحـون ...] [2].

كما كشفت لنا الكتابات المختلفة الخاضعة للتحليل على أنّ القيمة الأخلاقية للأمل تمثّل بالنسبة إليه فضيلةً ومبدءًا يدفع المستمسك بها إلى الثقة الكاملة في المستقبل، إذا ما صاحبه رغبة قوية للعمل. وفي حالة المجتمعات المتخلّفة، كحال الأمّة الإسلامية عموما، يمثّل قوة لا يستهان بها في الحياة. حيث كتب في عمود " مباحث أخلاقية " عن (الأمل) قائلاً: " هو الثقة بالمستقبل والحياة في ذاتها عبارة عن رغبة وعمل ونتيجة وكمالها بداءة فلها نقطة اتجاه ونهاية، وكل إنسان يؤمل قبل أن ينال وينال بعد أن أمل وعلى قدر قوة الأمل ومقداره يكون المستقبل، فالأمل ضروري لأنّه لا حياة بدونه ..."[3] ويؤكّد أن للأمل قيمة وجودية للإنسان، فلا شيء

[1] – " كلمة في العمل " جريدة " الأخبار " – 16 فيفري 1913.

[2] – " الأخبار " بتاريخ: 18 ديسمبر 1910 (مصدر سابق).

[3] - " مباحث أخلاقية ": الأمل " بجريدة (الفاروق) بتاريخ:- 02 أكتوبر 1914.

يتحقق بغيره. وا  الخالق أوجد في النفس هذه القيمة، التي تجسّد معنى الخضوع المنصوص عليه في الشرائع السماوية، حيث يقول: " والقدرة التي خلقت النفس وأوجدتها بعثت فيها الأمل وحثّتها على التطلّع والطموح وإلاّ فلا معنى للخضوع للشرائع السماوية ولانتظار الأجر والثواب في الدار الآخرة، والنعيم الموصّل وكل حوادث الحاضر تدلّ دلالة واضحة أنّه لا يتمّ شيء في الوجود بغير الأمل ... ولولا الأمل لما كانت عبادة ولا صناعة ولا تجارة ولا حرفة ولا مهنة. بل لولا الأمل لما كان الوجود " [1].

فالدفاع عن هذه القيمة الأخلاقية، والتنبيه إليها لضرورة أن تسري روحها في حياة رجال الفكر والإصلاح، شكّلت نضالاً متواصلاً في كتاباته على مدار سنين نشاطه الفكري والصحفي. فمقال " لا حياة مع اليأس " الذي نشره في جريدة (الأخبار) هو بذاته دعوة صريحة وجلية لنبذ روح اليأس والفشل والتخاذل [2]. أمّا بالنسبة للأمّة، فينبغي أولاً وجود رجال متنوّرين يعيدون لها الأمل في الحياة، في التغيير، لتحقيق النهوض.

وارتباط القيمتين، أي العمل والأمل، هو ارتباط قوّتين عظيمتين تجمعان الجهد والاجتهاد مع الرجاء والصبر. فهما تستطيعان تحقيق مجابهة الأوساط المعارضة للإصلاح والتنوير، وبالتالي التغلّب على التأسف والتأفّف من الحالة التعيسة والمحزنة لحالة الأمّة الإسلامية، التي هي في حاجة [ رجال يقومون بهمم لا ينالها يأس ولا قنوط فينعشونها بالأدوية النافعة ويتكفّلون بتنمية قوتها وتطهيرها من جراثيم الضعف والوهن] ... لقد عاهد ا  الأمّة ووعدها لئن وجد فيها من يعتقد بوجود قوتين عظيمتين تكونان سببا لرفعة الأمّة وسعي لهما سعيهما الحقيقي ليعيدنّ لها مجدها وليرفعنّ عنها الذّل الذي لحقها وليثبينّ الذين أمنوا وعملوا على رفعتها وصبروا على سعاتها أجرهم ويمتعهم إلى حين " لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون " ...] [3].

ويعتبر مصدر هاتين القيمتين العظمتين، أي الأمل والعمل هو آيات القرآن الكريم. إنّ هذا اليقين الروحي هو جعله، أي جعل عمر بن قدور يقف صامدًا في وجه المعارضين له، بمختلف فئاتهم، وحتى في وجه الغافلين والمعرضين عن جهود العاملين في حقل الإصلاح. كتب في هذا السياق متحدّيًا في مقال بعنوان: "أهم مقال يقال في سبيل العاملين ": [ نحن إذا

(1) – في المصدر- السابق نفسه.

(2) – " لا حياة مع اليأس " (الأخبار) بتاريخ: 21 جوان 1908 (مصدر سابق).

(3) – بجريدة " الأخبار" بتاريخ: 15 جانفي 1911.

نظرنا إلى حالتنا من هذا القبيل نجدها حالة محزنة فنتأسّف ونتأوّف ولكن ما ذا أفادنا وماذا يفيدنا ذلك ؟ ؟ وماذا أفادت أقوال السابقين حتى يستطيع اللاحقون أن يثقوا بأقوالهم إذا قالوا ماذا تستطيع أن تقول والآذان كلّها صمّت واعتراها الداء العضال لا تسمع معه القول، إلاّ أن ذلك كلّه بعون ا لا ينال من أملنا مرامًا ولا يمسّ من جوهر همّتنا شيئا ألبتة. وإنّا نقول ما دامت لنا سعة القول وما نعبأ قط باعتراض المعرضين ...][1].

ويعتبر التشبّث بالحياة من معاني الأمل، لهذا كان التنازع الدولي في الحقيقة، ليس إلاّ لأجل الحياة القومية والوجود الحيوي لمختلف الشعوب والدول. فالواجب إذن حسبه، على كلّ فرد من أفراد الأمّة الجزائرية - الذين سيطر الفتور على وعيهم – أن يتشبّث بالحياة ويعتبرها قوام وجوده أولاً وقِوام شخصيته ثانيا. لهذا فاستمرار إصداره لصحيفته (الفاروق) بعد الحرب العالمية الأولى إنّما هو من روح التشبّث بالأمل وبالحياة. فكتب: " ...لقد أجهدتنا الظروف وحتّمت علينا وجوب سلوك السبيل الحيوي لناموسنا الأساسي فلا ننسى مع هذا أنّ لنا مِلّة فضلا من أنّها تحثّنا دائما على العمل والإسراع للركض في ميدان الحياة فإنّها تمدّنا بالروح الشعورية العامّة التي جعلنا إذا راعيناها حقّ رعايتها في الصفّ الأول من صفوف العاملين المجدّين في سبيل التشبّث بالحياة ..." [2].

وطالما كرّر دعوته المفكّرين المصلحين إلى ضرورة الاجتماع والتعارف فيما بينهم، والمتيقّنين من أن الأمّة في سقوط مهين واضطراب من الفوضى الأخلاقية، وهي تناديه ليأخذ بيدها، لتحسين الأخلاق بالتعليم العام، وموالاة الخطوات المستقبلية في سبيل الإصلاح والمواظبة عليه، واعتبر تذكيره بهذه المهمّة تذكرةً لمن اتقى منهم، ثم قال مؤكّدًا على ضرورة الاتّصاف والتقمّص بالأمل: " ... ومَن أصدق يقينا ممّن إئتزر بمئزر الأمل معتقدًا في القوة الإلهية كلّ التأثير وشاعرًا من غير داني ريب أن أن يعفو عن كثير مما اجترحت الأمّة الإسلامية ويبعث فيها من يجدّد أمرها مرشدين منـها يؤتـونها خـير ما كسـبت ويدفعـون عنـها شـرّ ما كسـبت " [3].

وفعلاً، فقد حقق ا رجاءه بتأسيس جمعية الشبيبة الإسلامية نهاية سنة 1921، وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931.

---

[1] - " أهم مقال في سبيل العاملين " جريدة: الأخبار بتاريخ: 14 ماي 1911.

[2] – " تشبّثنا بالحياة " مقال: (الفاروق) السلسة II العدد 1: 8 أكتوبر 1920.

[3] – في مقال " خطواتنا إلى المستقبل " (الفاروق) العدد 06 بتاريخ: 12 نوفمبر 1920.

## - الهمّة والثبات:

أظهر تحليلنا ورود قيمة أخلاقية بصفة واضحة من خلال تخصيص مفكّرنا لها (09) مقالات، منها سبعة جاءت في شكل افتتاحيات. وتتمثل هذه القيمة في الهمّة. بطبيعة الحال كان هذا المرتكز الأخلاقي يرد في موضوعات أخرى إلى جانب قيم مختلفة. لكنّ ارتأينا تناولها مع قيمة الثبات لما لاحظناه من تصوّره الفكري الذي يربط ما بين هاتين القيمتين. وكانت أبرز العناوين التي رافقت قيمة الهمّة قد ظهرت في الصحف التالية: الأخبار، الفاروق والإقدام. بعضها نشرها سنة 1913، ثم أعاد نشرها في سنة 1923 بتصرّف في الفقرات وفي العناوين، من هذه العناوين: " علوّ الهمّة والغرور "، " فضيلة الفضائل في همّة المفكّر إذا اهتم بصالح الأمّة: نبّهوا هممكم "، "الأمم بالهمم "

يمكن أن نستخلص إذن، اعتباره لقيمة الهمّة كأهمّ قيمة أخلاقية أي فضيلة الفضائل كما قال، بالنسبة للمفكّر الذي يعمل ويجتهد في سبيل الإصلاح والتغيير. فبعد تقريره هذا، يستعمل خطاب الأمر لاستشارة الهمم، في العنوان المطوّل أعلاه. لأنّه كلّما ارتفعت همّة المرء، فإنها ترفع من مكانته، لكن ينبغي أن تكون هذه الهمم خالصة لأمّته أو قومه، حتى يكون عند ا من الذين ينالون فضيلة العاملين حقّا [1]. والمتّصف والمتخلّق بهذه القيمة يرى نفسه دائمًا مقصّرة ولا يصيبه الغرور " لأنّه لا يعمل عملاً إلاّ ويرى الواجب عليه والمستطاع له أكثر منه وأكمل ولا يحجبه عن هذا حمد الحامدين ولا ثناء الراضين عن عمله ..." [2].

يرى عمر بن قدور الجزائري أن مبدأ الهمّة الأخلاقي كان أصل وعلّة الانقلابات والتحوّلات العظيمة في مختلف الميادين، فلقد كتب قائلا: " لقد كانت الهمّة ينبوع الانقلابات العظيمة السياسية والاجتماعية التي كانت تحصل في النوع البشري والمجتمع الإنساني. ولقد كانت تمّ هذا النوع بالفضيلة من أدمغة المرشدين وأرباب المدارك العرفانية وكذلك كانت تصيبه ببوائق الرذيلة ممّا يجريه ذوو السيطرة والبطش فكان الحرب سجالاً بين القوتين كلّما تحككت مناسباتها .. " [3].

---

[1] – بجريدة (الفاروق): بتاريخ: 24 أكتوبر 1913.

[2] – مقال: علوّ الهمّة والغرور " – بجريدة: الأخبار بتاريخ: 2 مارس 1913.

[3] – من مقال: " فضيلة الفضائل في همّة المفكّر إذا اهتمّ بصالح الأمّة ". بجريدة (الفاروق) بتاريخ: 31 أكتوبر 1913.

إذن فإنّما تنتشر فضيلة النهوض واليقظة والتغيير، بهمّة المتنوّرين العاملين من رجالات الفكر والإصلاح وبعزيمتهم. فما امتازت أمّة من الأمم في زمن ما بلقب شريف دوّنه التاريخ إلاّ بعمل جليل تعود مزيته إلى الأفراد تحصّلوا على إعلاء شأن تلك الهمّة بقوة هممهم.

وحتى يوضّح الأبعاد الأخلاقية والاجتماعية لهذه القيمة، فإنّه سعى وعبر مقالات عدّة إلى الاستناد لمرجعيات تاريخية ومعاصرة، عبر نماذج بشرية مثّلت صورة أهل الهمّة الحقيقية، وعبر نماذج لأمم متقدّمة بفضل هذا المبدأ الأخلاقي. وتعكس مقاربته الفكرية سعة إطلاعه التاريخي، ومدى تفتّحه الحضاري المعاصر على إنجازات البشرية.

إذا كان يعتبر قوة العزيمة صفة ملازمة للهمّة، فإنّه يعتبر الأنبياء والرسل أفضل من يمثّلها تاريخيًا. فأولوا العزم من الرسل، كما قال، أرفع درجة عند ا ، بما قاموا به مع نقص أو ندرة النصير من أبناء قومهم.

[ لقد استطاع أولوا العزم عليهم الصلاة والسلام بقوة هممهم المنزّهة عن أن يدركها أحد سواهم، أن يثابروا على الدعوة إلى الحق وتهذيب الشعوب الجاهلة من أقوامهم، وقد يسّر ا أن تهرع إلى التمسك بسننهم جبابرة وقياصرة فراعنة وطغاة كانوا يفسدون في الأرض وخنعوا لتلك السنن القدسية موقنين بصلاحيتها وفضلها...] [1].

ويرى مفكّرنا أنّه لم يتسّن لأولي العزم تثبيت الحقيقة للجاحدين والفاسقين من مجتمعهم إلا بعد الثبات على المبادئ المستقيمة التي سنّها ا لهم، ولقد تعززت هممهم فقاومت وثابرت، وثبت العزم منها على مبدأ الحق فظفرت، واشتدّت الثقة بالعزم فظهرت ثمار النتائج في الواقع.

ثم هناك نماذج تاريخية أخرى، لكنّها أقلّ مكانة من أولي العزم من الرسل، بالرغم من تمتعها بعلوّ الهمّة والعمل بأداة الثقة بالعزم، وهي معدودة في كلّ أمّة، وقد دوّن لهم التاريخ مناقبهم في هذا. واعتبر بعض المتصفين بعلوّ الهمّة من النبغاء الطغاة أمثال (البختنصر)[2] و(الإسكندر) أقربهم إلى معيار الرذيلة منه إلى الفضيلة لأنهم بدعوتهم إلى الباطل وطلب المجد هو الداعي إلى إيجاد الهمم منفذًا في عقولهم، ورأى أنّ التاريخ في إجادته تدوين أخبارهم إنّما ليكون حجّة قائمة على البشر فيما يعملون إلى يوم الدين [3].

---

[1] – بجريدة (الفاروق) بتاريخ: 24 أكتوبر 1913.

[2] – البختنصر: ملك الكلدانيين (604 ق.م -561 ق.م): أغار بحملاته على مصر وفتح القدس وأحرقها وأجلى أهل يهوذا إلى بابل. أنظر: المنجد في اللغة والأدب والأعلام/ بيروت.

[3] – في (الفاروق) بتاريخ 24 أكتوبر 1913.

والهمم الداعية إلى المجد والهيمنة والسيطرة لا زالت متواجدة لوقتنا المعاصر: [لقد ثبت أن الهمم في أدوار الإنسانية كانت تنوّر بأربابها إلى طلب المجد من باب الاستعلاء في الأرض ونيل السيطرة وشدّة البأس. وهذا رجس لم تتطهّر منه بعد الإنسانية، وقد لا يتسنى لها أن تتطهر ما دامت الفضيلة منها في شذوذ ونفور ...] [1].

لكنّه يرى من جهة أخرى أنّ الأعمال الكبيرة والأولية في تقدّم الشعوب لم تكن منجزة بدوافع همم ذوي السلطة والقوة على الخصوص، بل ثمة دائما همم سامية ارتقت بأصحابها إلى استنباط أسباب التقدّم الاجتماعي والأخلاقي فتحوّل ذلك إلى رقي صناعي وتجاري فتولّدت بها القوة لحماية هذا الجانب والدفاع عنه حسب خصوصية الطبع البشري. والفضل كلّه راجع إلى تلك الهمم المصلحة الأولى. وأولى للتاريخ أن يستحضر هذه النماذج. خاصة تلك التي أفادت الإنسانية في مختلف العلوم النظرية والتطبيقية. فذكر فلاسفة (اليونان) وباحثين منفيين مغمورين عملوا وبحثوا ونقبوا من أجل مستقبل في الميادين الرياضية والطبيعية والكونية، منهم من عانى من سلطة حكّامهم. يقول عمر بن قدور في هذا السياق: [ لقد كان جهابذة المفرين منهم (من المصريين واليونانيين) ذوي الهمم يلاقون في هذا المهيع من مسيطري وقتهم المحن ومنتهى القساوة فثبتوا على مبادئهم موقنين بأحقية ما يعتقدون وما إليه يميلون فكانت الصواير بعد ذهابهم تبعث قومهم على إجلالهم وتعظيمهم وتشييد التماثيل لتخليد ذكرهم...] [2].

ثم يعتقد بأنّ تراتبية الأمم، حسب السنن الكونية، وكأنّما هي على نسق يجعل نبوغ أصحاب الهمم العالية، معيارًا في البروز. فالرفعة والسمو في كلّ شعب مفهوم حسب قدر النابغين فيه بهممهم الطموحة والمتطلعة إلى الرقي والتقدّم. ولهذا فهو لم يجد في تاريخ الإمبراطورية الرومانية بصولتها الاستعمارية زمنًا تعلّقت به الناس بمن يدعو إلى القيم الأخلاقية، إلى محاسن الأخلاق بتعبيره. بل العكس هو الـذي حـدث، حينما قـاموا باضـطهاد أشياع المسيح [3].

وتدعيما لرؤيته الأخلاقية هذه، يستحضر أيضًا ماضي الأمّة العربية الإسلامية، وكيف استقامت على دين الإسلام فأقامت حضارة إنسانية بفضل عزائم أبنائها وهممهم التي تيقظّت وثابرت، فكتب تحت عنوان " الأمم بالهمم " [ ... لقد قيّض ا لأمّة العرب أن تتمسك بسنن

---

(1) – في المصدر السابق نفسه.

(2) – بجريدة (الفاروق) بتاريخ: 31 أكتوبر 1913.

(3) – أنظر مقالة: (فضيلة الفضائل في همّة المفكّر): الفاروق المصدر السابق نفسه.

تجتذب العزائم وتوقظ الهمم وتمنع الفوضى الأخلاقية، أن تمكث بناديها فما برحت أن استقامت ولقد استقامت لها السنن الكونية لما استقامت فتمكّنت من القبض على ناصية المعمور تبشّر برقيّ الإنسان وسموّ ما يصل إليه بعلو همّته، وكانت تتلو قوله تعالى: " ليس للإنسان إلاّ ما سعى " وكانت هذه الآية الشريفة راية العالم في مكتبه والأمير في منصبه والصانع في معمله حتى قال حاديها:

**كأن رجلا رجله في الثرى وهامته همّته في الثريا** "[1]

إنّ نموذج الأمّة الإسلامية هذه كان يمثّل بحقّ طابع المصلحة العامّة الشاملة للإنسانية التي تستظل برايته. وكان الجاذبية الروحية للدين المحمّدي سببا لاتضاح السبل لكلّ نابغ ذي همّة عالية، فامتلأ العالم الإسلامي آنذاك بفاتحين ومعلّمين ومبدعين ومخترعين [2].

وفي الوقت الذي بدأت تنهار فيه الأمّة ويصيبها الانحطاط، تيقظّت همم الشعوب الغربية، بالإقدام على النموّ والحصول على ثمرات التقدّم، بسبب الحركة والعمل المستمّر. بهذا تكون الشعوب الأوروبية والغربية نموذجًا آخر حديث ومعاصر يستند إليه مفكّرنا لإيضاح توجّهه الأخلاقي في هذا الإطار القَيمِي، و يشكّل أيضا مقاربة لفهم موقفه من الغرب عمومًا. فهو يفرّق ما بين الغرب الاستعماري والغرب الحضاري.

يرى أنّ كلّ ما حقّقه الغرب من نموّ وإنجازات مادية، إلى غاية الآن، إنما كان لمقتضيات المصلحة، وبالتالي بسبب دواعي الهمم السامية. فقد أظهر الغربيون رغبة عظيمة إلى النموّ واستثاروا هممهم للسير قُدُما حتّى تمكنّوا من امتلاك كلّ شيء تقريبًا في المعمورة. كتب قائلا: " ... استحثّوا سير هممهم فتناولوا القوة من أصولها، علوم لا ندرك كنهها هي محشورة في مدارسهم، ومخترعات لا نعرف لها معنى هي قائمة لديهم ومختارة في أكنافهم، وصواعق القتل والتدمير مصفوفة في مرابطهم، وقد أتوا السياسة شكلاً غريبا لا تتصوّره مداركنا، ولا تفقهه عقولنا ..." [3].

ويحدّد المفكر عمر بن قدور الجزائري ثلاثة عناصر أساسية تمثّل تصوّره الأخلاقي لهذه القيمة المرتبطة برؤيته التنويرية. وهذا انطلاقا من النماذج العملية الأخلاقية التاريخية

---

[1] – مقالة: " الأمم بالهمم" بجريدة: " الإقدام " بتاريخ: 5 جانفي 1923.

[2] – أنظر جريدة "الفاروق " بتاريخ 14 نوفمبر 1913.

[3] – في المصدر نفسه.

والمعاصرة التي استند إليها كما سبق وأن لاحظناه. أمّا العنصر الأوّل فيتمثّل فيما يسمّـيه، بهمّة الفرد.

فللإنسان في وسطه الوجودي، حاجيات ومصالح، تحتّم عليه العمل، وتدفعه إلى توسيع نظره وأمله. وتسنّى للسنن الكونية منذ أحقاب طويلة إلى تحديد الأعمال الكبيرة والانجازات العظيمة بالمراتب العالية والمكانة السامية. فثمة من ينالها من الأفراد ومن لا يحصل عليها. ويرى أن الذي [ ... ينال مرتبة من مراتب المجد في آونة صعبة وبعد مكايدة مشقة العمل والاجتهاد فهو الفرد ذو الهمّة العالية والعزيمة القوية ... إنّ صلاحية الفرد في النبوغ، وطلب المجد وهمّته في مركبته السريعة وسيرته المنيعة. فإن انعدمت مادتها انقطع حبل عمله وانفصمت عروة عمله. من حيث لا تغني عنه معارفه ..." [1].

وإذا كان يعتبر مرتبة العلم والمعارف مما يميّز أي وسط اجتماعي يسعى لتحقيق النموّ والتقدّم. فإنّ الفرد ذي الهمّة العالية بالنسبة إليه، إنّما ينشط ويتميّز بمكانته في مجالات أو مراتب أخرى تندرج تحت هذه المرتبة الرئيسية. لهذا فإننا نلاحظ هنا مدى سعة أفقه التنويري والعقلاني، وبالتالي رؤيته الإصلاحية وأوّل هذه المجالات، النبوغ والتميّز في القوى العقلية، التي تشتمل على وظائف مثل: الإرشاد، تمثيل الأمّة، الإدارة السياسية والتنوير الفكـري أو تغذية الأفكـار [2].

وتتوزع همم الأفراد أيضا على التميّز في القوى العملية، التي تشتمل على وظائف صناعية وفلاحية والأشغال عمومًا ....

ثم أخيرا النبوغ والتميّز في القوى الاقتصادية التي تشتمل مثلاً على التجارة بمخـتلف وسائلـها وأنواعـها.

والعنصر الثاني إنّما يتمثّل في همّة الجماعة، فلّما ظهر جليا أن عددا قليلاً من الأفراد ذوي الهمم برزوا فعليًا حسبما تقتضيه السنن الكونية، لكون الإنسان ضعيفا، لذلك تطلّبت المصلحة أن تكون الجماعات مشكّلة من الأفراد، فتكون لكلّ جماعة همّة عالية مؤلفة عدّة همم، بذلك تتقوى المصلحة وتتضاعف القوة وتنمو المعارف ويتوسّع نطاق العمل. وبهذا تتشكل في

---

[1] – أنظر (الفاروق) بتاريخ: 21 نوفمبر 1913.

[2] في المصدر نفسه.

المجتمع البشري أصناف مذاهب التشريع والآراء العلمية والاختراعات النافعة. ويدعو مفكّرنا إلى تأمّل نشاط الجماعات حاليا في أوروبا ومدى تكافلها [1].

أمّا العنصر الثالث فيسمّيه بهمّة الأمّة، فيعتبر الأمّة من حيث المفهوم، مجموع جماعات والجماعات مجموع أفراد والفرد المجدّ في أمّته له السيطرة على التأليف بين الأفراد والجمع بين الجماعات وتسهيل الوسائل لبعث الهمم لتماشي همّته، فتتواصل روابط الأمّة بحيث تتمكّن من اكتساب مرتبة عالية في المجد والقوة [2].

وإذا كانت الأمّة تحتوي على جماعات متعاونة ومتكافلة (معتزة بالهمم العالية، تنمو فيها على الأثر همّة عظمى تتألّف من همم الجماعات والأفراد العاملة في وسطها نحو تناول المصلحة السياسية والاقتصادية، لحفظ كيان قوميتها ونعرتها الجنسية، ومن هنا تكون مدفوعة بعزم ثابت إلى تعزيز الشوكة وتمكين السلطة وإظهار البأس) [3]. وبالنسبة إليه، يقدّم هذا الرأي، نموذج الأمم الحية القادرة على مقاربة طريق التقدم والمجد بالهمّة والثبات. ولهذا لا ينبغي النظر إلى السنن الكونية على أنّها معيقة للهمم، وإنّما السبب يكمن في الحالة الأخلاقية للأمّة، كتب في مقال " الأمم بالهمم " بجريدة (الإقدام): " ما وجدنا السنن الكونية تمنع الهمم أن تثور ولكنّ الحالة الأخلاقية تفتّ في ساعدها متى كان الناس عن العمل معرضين " [4] .

لهذا يشكّل الثبات قيمة أخلاقية لكلّ من يتصدّى للإصلاح والتنوير. وسبق أن أشرنا إلى تمثّله بسيرة أولي العزم من رسل ا الذين أثبتوا الحقيقة لأقوامهم بفضل ثباتهم على ما سنّه ا لهم من المبادئ المستقيمة.

وثمة رجال مصلحين ناضلوا وعانوا بدافع الهمّة، فنالوا مبتغاهم لما ثبتوا وقاوموا معارضيهم فقال فيهم في موضع آخر: " ... يا حسرة على أناس إشرأبت أعناقهم بدافع الهمّة إلى التطهّر من الرذيلة فنالوا ذلك وألقي في قومهم داء دفين فلم يلبثوا أن ذاقوا بأس الحياة فصبروا وثبتوا على المبدأ فناموا نَوْمًا حسنًا ووقع أجرهم على ا ..." [5].

---

[1] – في المصدر السابق نفسه.

[2] – جريدة (الفاروق) بتاريخ: 24 أكتوبر 1913.

[3] – من مقال: "فضيلة الفضائل في همّة المفكّر إذا اهتم بصالح الأمّة: نبهّوا هممكم، جريدة – الفاروق- بتاريخ: 21 نوفمبر 1913.

[4] – مقالة " الأمم بالهمم "، جريدة " الإقدام " بتاريخ: 5 جانفي 1923.

[5] – في جريدة " الفاروق" بتاريخ: 24 أكتوبر 1913.

وكثيرًا ما يذكّر مصلحنا التنويري بفوز وانتصار أمم بهمم رجالها وتترقى شعوب بشجاعة أبطالها، مع التعبير بعبارات التأسّي وكلمات الصبر، وجمل الثبات، حتى لا يتضايق رجال الأمّة الجزائرية من الأحوال، وحتى يستأنسوا بالأمل في سبيل إحيائها [1].

ويعتقد أنّ قيمة الثبات لدى الإنسان على المبدأ الصحيح هي أساس نبوغه وتميّزه وتقدّمه. وبالتالي فإنّ النمو والتطوّر في كلّ شيء يتأتّى من الثبات والقوة المادية. أما بالنسبة للبشر فرسوخ التطوّر في المجتمع المعنوي يتأتى وفق المبادئ التي يعتنقونها ويدافعون عنها في الغالب. لأن الثبات على حفظ هذا الأساس حافز لجلب القوة المادية والتمكّن منها. وفي مقال هام تحت عنوان ذي دلالة وهو " نتيجة الثبات " كتبه كافتتاحية بمناسبة دخول جريدته (الفاروق) السنة الثانية من وجودها في الساحة الصحافية الإصلاحية بالجزائر، كتب في هذا السياق منوّها بالثبات الفكري على مبادئ الحقّ بالنسبة لرجال الصحافة المناضلين في مجال الإصلاح والتنوير، وفي التمسك بثبات مبدأ التطوّر والارتقاء وأثر ذلك في إحياء واستنهاض الشعوب المتخلّفة أو المستعبدة حيث كتب: " ... والثبات في الفكر على مبادئ الحق عند أرباب الأقلام وقادة المدارك تبعثهم في كلّ حين بعثة جديدة تفوق سابقاتها من حيثية التأييد والفوز والظفر، ومن عداهم مُدين لهم في كلّ سبب من أسباب ما يأتون وما ينسجون، وهذا هو الشأن المعروف لدى الأمم الحيّة والشعوب الراقية ... ولمّا كان كلّ شيء ينمو في الكون، فخليق بربّ القلم أن يجعل عمله صالحًا للنموّ عند كلّ سانحة ومستعدًا لأن يتوسّع عند كلّ فرصة، لا سيما ربّ الصحيفة الإصلاحية والخير بموجبات قضايا هذا المجتمع الحاضر ..." [2].

ويدعو المصلحين والكتّاب المتنوّرين إلى تبيان مقاصدهم والقيام بأعمال توضّح غاياتهم لدى المخاطبين من شعوبهم، حتى تكون عملية التلقي منذ البداية، مبنية على إدراك واعٍ للقيم الأخلاقية السامية الصادرة أو المجسّدة لنضالهم حيث يقول في نفس الفكر الصحفي هذا: " ... كذلك كان المصلحون يقدّمون أعمالاً يُعرف بها قومهم ما المراد بإدعاءاتهم الإصلاحية ...وخليق بالصحافي الذي يزعم أنّه يأتي عَمَلاً نافعا للأمّة أن يبيّن ثباته بتوضيح محسوس، وذلك التوضيح يبعثه منزلةً رفيعة في نظر الشعب ومن ثمّ يحصل الاستعداد لوثبة توضيحية أخرى تكون سُلّمًا لدرجة أرفع ..." [3].

---

(1) – في جريدة " الأخبار" بتاريخ: 18 ديسمبر 1910.

(2) – بجريدة: " الفاروق " بتاريخ: 27 أبريل 1914.

(3) – المصدر السابق نفسه.

ويصرّح بأنّه في جهوده الصحافية، خاصة من خلال تقديمه لصحيفته هذه (أي الفاروق) في حجمها الكبير دليل واضح على وجوب البحث عن التطوير والنمو في جميع المصالح الحيوية، ويبقى تجسيد النمو أو التطور منوطًا بمبدأ أو قيمة الثبات الأخلاقية. وهو الذي عانى وكابد المشاق في الوسط الجزائري الذي يشتغل فيه. لكن مرجعيته العقائدية، كما أسلفنا سوف تكون له رافدًا ووازعًا روحيًا مؤيدًا ومثبتًا لخطاه الإصلاحية. فبعناية ا القوي المتين قطع ذلك الشوط العملي والتنويري حيث قال في نصّ افتتاحي آخر بعنوان: " الفاروق: بعد حول، فاتحة السنة الثانية"[1] [ إنني بقوة العليّ الكبير قد اقتحمت في بحر العام المنصرم من المشاق والأتعاب البدنية المادية منها والمعنوية ما ا به عليم، فكنت أذلّل تلك الصعوبات بقلب صبور، ولم أكن في أثناء ذلك إلاّ عامِلاً مُجدا قائما ليلي ونهاري في المثابرة على العمل، شأن مَن فقد الظهير ورام الصعود في عقبة كؤود وكافح جُهده ومفرده للانتصاب في المنصب الصعب والوقوف في الموقف المحفوف بالأخطار، ولكني أحمد ا على كلّ حال ...].

إذن فالبعد الأخلاقي في فكره، هو بذاته يعكس جانبًا من تكوين هذه الشخصية الفذة في ساحة الفكر الإصلاحي الجزائري وفي العالم العربي والإسلامي. وهو الذي صرّح بأنّه لم يقدم على عمل دون أن يثبت له في صميم قلبه قوة من الثبات في كلّ لحظة بتوسّع فضاء عملها وترتفع فيها المقاصد والأهداف. إنّه القيمة التي جعلته يفصل ما بين مصلحته الذاتية وشخصيته العاملة في الحقل الإصلاحي. إذ كتب مؤكّدًا هذا التوجّه الأخلاقي: " ... وثباتي على مبدئي الديني والقومي هو الذي حتّم عليّ أن أكون في واد وحـبّ صلاحـيتي الشخـصية في واد آخـر ..." [2].

ولأنّه كثيرًا ما ينوّه بحرية الضمير أو ضرورة وجود المبدأ الاستقلالي في الاعتقاد والبناء الفكري فإنّه يرى أنّ [ الضمائر الكبيرة تتجلّد وتقتحم الهول تطلب النهاية بدافع الاعتماد على قوة اليقين وضخامة الهمّة التي ترفرف على هامة إقتدارها إذ الثقة التي يمنحها الإنسان لنفسه هي القوة العظمى التي تذلّل له كل صعيب وتخضع له كلّ عتيد، هي القوة المحمودة في سبيل النفع العام وبث جراثيم الفضل في غريزة العقل وتمديد الراحة للعموم وإشادة المجد العميم للأمّة والوطن وإفادة الحقّ على الإطلاق ...] [3].

---

[1] – افتتاحية (الفاروق بعد حول ...) بجريدة " الفاروق" بتاريخ: 9 مارس 1914.

[2] – بمقالة: (نتيجة الثبات) بالفاروق: 27 أبريل 1914.

[3] – مقال: " الاعتماد الاستقلالي (أو) الثقة بصحة الفكر " جريدة " الأخبار " بتاريخ: 31 مارس 1912.

وإذا كان يعتبر الاعتماد على النفس هو عين التوكّل، فإنّ العناية الإلهية هي الهمّة للفرد إذا ارتفعت ... وأصلها الثقة بالنفس الخاضعة للمراقبة الإلهية في تتبع مصالحها الحيوية. وعنصر القوة الذي يحسن لها العمل وتعينها عليه هي فرع من فروع المراقبة [1]. فالهمّة إذن مع التوكّل ترتبطان بهذه العناية الإلهية.

إذن فلقد أفاده الثبات في مواقف صعبة، وأزداد يقينا بضرورة تحسين صحيفته المذكورة آنفا، وأنّه لا يزال بعيدًا عن واجبه نحو قرّائه، زيادة على الظروف الشاقّة المحيطة به، زمن الاستعمار، بالإضافة إلى تنكّر فئات جزائرية لجهوده وحسده حتى على أنّه اعتقد تمام الاعتقاد بأن [ من مقتضيات وجود الثبات أن يتغافل المرء العامل على كلّ هذه الأراجيف والاختلافات ويستمّد من العناية الربّانية والرعاية الصمدانية التوفيق الدائم والمستـمرّ ليكـون من الناصـحين ...] [2].

(1) – أنظر " خطر الأحداث والبدع على القومية والدين " (الفاروق) بتاريخ: 1 جوان 1914.

(2) – في صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 27 أبريل 1914.

## التعارف، التفاهم والتعاون: كقيم أخلاقية اجتماعية

كشفت المقالات الصحافية موضع التحليل، عن ورود عدد من القيم الأخلاقية ذات البعد الاجتماعي بصفة ملفتة للاهتمام، في سياق توجّهات دراستنا. وتتمثّل هذه القيم في التعارف والتفاهم والتعاون وحتى الاجتماع. لكن من ناحية تحديد الدلالة الفكرية والعملية لها من منظور التوجّه الإصلاحي والتنويري لعمر بن قدور الجزائري، فإنّه من الضروري الإشارة أيضا إلى عبارات أو مفردات أخرى كشف عنها التحليل، أجدها تصبّ في تصوّره الفكري وفي مشروعه الإصلاحي النهضوي، وهي: التكافل، التضامن، الاتحاد، التقارب، الإتّفاق، الائتلاف، التعاضد .

إذن فإنّ بروز هذه القيم بشكل متكرّر ومستمرّ في مختلف المقالات، جعلنا نضعها في خانة المرتكزات الأخلاقية الاجتماعية التي تحدّد بها مفكّرنا الوسط الإسلامي الجزائري والوسط الإداري الاستعماري. وسوف تكتشف من خلال التحليل كيف أنّه استخدمها لمعالجة الفوضى الأخلاقية والاجتماعية التي كانت تتميّز بجهود العلماء وبداء الاختلاف السائد فيما بين المفكّرين، ويتخاذل فئة الأغنياء وغفلتهم عن واجبهم تجاه الشعب البائس واليائس معًا. فكان لزامًا انتشال الشعب الجزائري من حالة السقوط باستبعاد القيم السلبية المعيقة لنهوضه، كتب في سلسلة مقالات استنهاضية تحت عنوان " بين المسالك والمهالك: مراحل الأمم مراحلنا ":[ في الأمّة الإسلامية داء عضال أنهك قوتها ومزّق أحشاءها، وصبّر المسلمين في كلّ صقع متخاذلين متنافرين، ذلك الداء هو سوء التفاهم المهين ...] [1].

بالإضافة إلى ما قرّره في جانب البناء العقائدي لتحقيق النهوض فإنّه يرى أن النهضة لا تحصل إلاّ بالاجتماع والتفاهم والتعاون، وأنّ الأمّة الإسلامية لا تقطع مراحل السؤدد والمجد إلاّ إذا أُتيح لها محق الجهل ومحاربته بقوة العلم [2] . ويحدّد الأسباب الداعية للفوضى وعدم النهوض إذن انتشار قيم سلبية كالتخاذل والتنافر والتناكر. من هنا جاءت افتتاحية الهامّة التي سطّر لها عنوانها بتساؤلات ثلاث هي: "علام التخاذل ؟ علام التنافر ؟ علام التناكر ؟"، وذلك في الصفحة الأولى من العدد (44) لصحيفته (الفاروق).

فهو قد تساءل، إذا كان الإنسان المخلوق المكرّم بالصفات السامية، والمؤيّد بكمال العقل، وصفاء الفكر، وحرية الضمير ورقّة الشعور، فلماذا يخذل نوعه، أخاه الإنسان ؟ وينافي شعبه ؟

---

[1] – أنظر جريدة " الفاروق" بتاريخ: 12 سبتمبر 1913.

[2] – في جريدة " الفاروق " بتاريخ: 26 سبتمبر 1913.

ويناكر مجتمعه ؟ إنّ المسلم بالنسبة إليه هو الذات المستمسكة بشريعة الإسلام المستندة إلى قيم التعاون والتفاهم والتعارف، فعلام خذلان الإخوان ومناكرة أنداده أو منافرة فئته، إذا كان من العلماء أو الأغنياء مثلا، وإذا كان الإرشاد فرض عين فلماذا التغافل عن الدعوة الإصلاحية بشموليتها للتربية وتثقيف العقول وإنهاض النائمين [1]. فالمسلم المتغافل عن هذه المهمّة التغيرية إنّما هو يعيش أو هو ضحية الفوضى الأخلاقية. وينتقد بشدّة الأفراد الداعين إلى الاختلاف والافتراق وعدم مجاراة مسار الإصلاح، ويعتبر هذا النوع من المفسدين الجامدين، مثّبطين لعزائم العلماء العاملين والصالحين المصلحين بألسنتهم وبكتاباتهم، فهو يتوعد مآلهم ومصيرهم قائلا: " .... فيسجّلون ما يسجّلون، وما يسجّلون إلاّ على أنفسهم لو كانوا يعملون، أفهم بهذا الحديث يوقنون ؟ قل فاعملوا على مكانتكم إنّا عاملون، سوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، وسيعلم الذين ظلموا وتخاذلوا وتنافروا وتناكروا أيّ منقلب ينقلبون " [2].

لاشك أنّ تحريضه الدائم على إيجاد العمل بهذه القيم الأخلاقية الاجتماعية، هو نابع من تجربته الذاتية النضالية في سبيل التنوير، ومن ارتباطه الوثيق بالواقع الجزائري وبالواقع العربي الإسلامي آنذاك.

لقد لمس في وقت مبكّر خلّو الفضاء الاجتماعي من فرص التواصل والاحتكاك ما بين المفكرّين والفئات الأخرى التي رآها، أساسية في البناء الإصلاحي، ويمكن أن أشير إلى ثبات دعوته ورؤيته هذه على مدى سنوات عدة، حيث انعكست في مقالات صحافية فكرية، وبدأت تتبلور ابتداء من سنة عبر1907 عبر صحيفة "الهلال " التي كانت تصدر بمدينة الجزائر، حيث كتب معلّقا على مقال نشرته جريدة " اللواء " المصرية حول أغنياء مصر، معتبرًا ما جاء في هذه الصفحة ينطبق أيضا على أغنياء الجزائر. حيث رأى أن مفهوم الوطنية الحقة هي التي تعمل أيضا لتقدّم الأمّة وإقامة المرافق الضرورية لحياة الشعوب، فقال: " نرى أغلب سراة قطرنا الجزايري لا يرون للمال سبيلا سوى في الولايم والأفراح ومجالس اللهو على حين أن ا تعالى خصّه لإغاثة الملهوف وإقامة معالم الوطنية من تأليف الجمعيات والشركات ونشر الجرايد التي هي لسان الأمّة وبناء المدارس لبثّ روح التقدّم بين الناشئة ..." [3]. ثم عبر صحيفة (الأخبار)، وبها عثرنا على سبيل المثال على مقال له بعنوان (صوت العام) يؤكد فيه

---

[1] – أنظر مقالة: " علام التخاذل ؟ علام التنافر ؟ علام التناكر ؟" بالفاروق 16 جانفي 1914.

[2] – في المصدر نفسه.

[3] – بجريدة " الهلال " بتاريخ: 22 فيفري 1907.

على فاعلية الاجتماع والاتحاد من خلال تأليف جمعيات إسلامية جزائرية مستقلّة على غرار ما هو موجود في بلدان عربية معيّنة كمصر وتونس[1]. وثمة مقال آخر تحت عنوان تساؤلي:

" ما هي الوسيلة الناجعة " بنفس هذه الصحيفة والسنة ذاتها، تضمن نفس هذه المعاني، مع استهدافه للعلماء والأغنياء للقيام بمثل هذه المهام التي اعتبرها تدخل في سياق الجهاد العملي المحقق لمجد وسعادة الجزائري، حيث كتب: " ...فليؤسّس الجزائريون جمعيةً لإحياء العواطف والعقول وتنمية المعارف في أذهان أبنائهم وليلغوا إسم الغنّي البخيل ونحن الكفيلون لهم بأنّه سيكون لقطرنا شأن بعد حين ويقف الجزائري بعد هذا الجهاد في مدّة قليـلة على ذ ـروة المجـ د والسعادة ..." [2].

كانت افتتاحيات الأعداد الأولى من صحيفة (الفاروق) والسلسلة الثانية منها مع (الصدّيق) تتضمّن هذه المرتكزات الأخلاقية والاجتماعية حدّد التوجّه الاجتماعي، حينما اعتبر الجريدة (أي الفاروق) اجتماعية " لأن شأن الاجتماع يهمّ الناس كثيرًا ومَن غفل عنه فقد غفل عن صلاحية عظمى يضره جهلها وينفعه علمها "[3] .

ثم أتبع هذا، بتأكيده على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو سياق قيم التعارف والتعاون والتفاهم.

وفي بداية السنة الثانية لإصداره هذه الصحيفة، كتب افتتاحية في العدد 51 يوضح بصفة جليّة مبدأ الإصلاح الديني والاجتماعي، مؤكدا على دحض التناكر أساسًا معتبرًا أنّ مباشرة النضال الإصلاحي تحمل معها آلام التصادم مع مختلف الأوساط، زيادة على شقاوة المعيشة، مع عدم معرفة أهميّة التعاون والاتحاد التي تبعث على توسّع مجال سوء التفاهم، ولهذا كما قال [ لم يأل " الفاروق" جهدًا في دحض التناكر ... إنّ باب التهذيب (مقفول) ما لم تتفتّح القلوب للتعارف وتنبسط الأيمان للتعاون ...] [4].

وفي افتتاحية العدد 01 من جريدة (الصدّيق) يحدّد السياسة التحريرية لها مقرّرًا نظرته العملية التي تستند إلى مبادئ ثابتة لديه، مع إلحاحه على قيمة التعارف الأخلاقية، ممّا يعني انشغاله الدائم بالهمّ الاجتماعي والسياسي للشعب الجزائري، ومما جاء في هذا النّص [ ... لا

---

[1] – أنظر مقالة " صوت العلم " بجريدة (الأخبار) الجزائر بتا: 31 ماي 1908.

[2] – من مقالة " ما هي الوسيلة الناجعة " الأخبار، بتاريخ: 14 جوان 1908.

[3] – أنظر الفاروق: العدد 1- 18 فيفري 1913.

[4] – أنظر مقال: " الفاروق، فاتحة السنة الجديدة " بتاريخ: 9 مارس 1914.

عجب إذا ذهبنا فيها (أي الجريدة) من وجهة التحرير والتحبير مذهبنا المعروف من بسط النصيحة للشعب والوعظ والتذكير والأمر بالمعـروف والنهـي عن المنكـر والدعـوة إلـى التعـارف ...] [1].

ولمّا أعاد إصدار (الفاروق) في شكل مجلّة إسلامية، كما سبق وأن أشرنا إليه، يعيد تثبيت خطّته أو رؤيته الإصلاحية انطلاقا من المعيار الأخلاقي الذي حدّده لنفسه وهو الواجب نحو الأمّة والملّة السمحة من [ ... بسط النصيحة للشعب بتبيين المرافق الحيوية من الوجهة الدينية والعلمية والأخلاقية والاقتصادية والوعظ والتنكير من جهة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى التعارف وإقامة نصوص الدين ...] [2] .

كما أننا وجدنا أنّه استخدم عناوين لمقالات صحافية، احتوت على مفردات ذات صلة بسياق هذه القيم. مثلا: " التعاون والتخاذل " [3]، " ساعدوا على التفاهم " [4]، " ألا فأجتمعوا "[5]، "التعاون "[6]، " كيف يكون التعارف "[7].

إذا كانت هذه النصوص التي أشرنا إليها تشير إلى استمرارية تشبثه بقناعته الفكرية والعملية بهذه القيم الأخلاقية، فهي تكشف لنا في ذات الوقت، قناعته الأخرى المتمثّلة في أهمّية ووجوب انخراط العاملين في حقل الإصلاح والتغيير في هياكل تنظيمية تعكس قيمة التعاون، أو التكافل الجماعي. وهذا إدراك متميّز لدور القوى الحية والفاعلة في المجتمع، وإمكانية تحوّلها إلى حركة إصلاحية، عوض أن تكون الممارسة فردية. وممّا جاء في مقال " التعاون والتخاذل " قوله [ نحن في زمان فاز فيه المتعاونون وهلك فيه المتخاذلون. سعدت فيه الأمم بأعمال الجماعات. وشقيت فيه أمم (بأسرة) الأفراد. فالأمم فيه درجات بعضها فوق بعض، فأعلاها ما كثرت فيه الجمعيات المتعاونة على الخير بقدر كثرة الخيرات ... وأمّا الأمم الذليلة التي تقابل هذه الأمم فهي في دركات متفاوتة أيضا أدناها منها في القسمة العقلية ما ليس فيها جماعات تتعاون على الخير ولا على الشرّ ولا يخذل بعض أفرادها بعضا في الأعمال النافعة ...].

---

(1) – أنظر افتتاحية العدد 01 لجريدة (الصدّيق) بتاريخ: 12 أوت 1920.
(2) – من افتتاحية العدد 01 (سلسلة الفاروق) الثانية – 8 أكتوبر 1920.
(3) – بجريدة " الأخبار " بتاريخ: 16 مارس 1913.
(4) - بجريدة " الأخبار " بتاريخ: 8 يوليو 1913.
(5) – بجريدة " الفاروق" " بتاريخ: 20 يوليو 1914.
(6) – بجريدة " الإقدام " بتاريخ: 16 فيفري 1923.
(7) – بجريدة " التقدّم " الجزائري 28 أوت 1924.

لهذا فإنّه يرى حقيقة التفاهم ضرورية في هذا الموقف العملي. لأنه يوصل الإنسان إلى إدراك حقائق الأمور، ويقنع عقول المتناكرين بسخافة سلوكاتهم التنافرية وعبث حياتها، وأنّه لدى الشعب الجزائري ما لدى الذين سبقوه في سبيل الترقي وعنده ما عندهم فلا يصحّ من يدّعي أنّه محكوم عليه بالموت الأبدي. ويكتب في نصّ "ساعدوا على التفاهم": [ يجب علينا أن نتفاهم لندرك كيفية سدّ تلك الهوات الواسعة العميقة التي حالت بين بعضنا البعض فتتعـاون على البـرّ والتقوى ] [1].

وفي سياق التحدّيات التي جابهت الشعب الجزائري، كان عمر بن قدور قد قام بتحديد هويّة الفئات الاجتماعية والفكرية القادرة على أداء أدوار تغييرية وتنويرية.

أظهر تحليل المادة الصحفية وجود ثلاث فئات أساسية وهي فئة المفكّرين، وفئة العلماء، وفئة الأغنياء. فما هو نوعية النشاط الفكري والعملي، إذن الدور الوظيفي المنتظر منهم في الوسط الجزائري على الخصوص، وفي الوسط الشمالي إفريقي على العموم ؟ وما هي الأهداف المراد تجسيدها ميدانيا، وفق هذه القيم الأخلاقية ذات البعد الاجتماعي ؟.

يرى مفكّرنا أن الصدع الذي حدث في الأمّة بسبب داء سوء التفاهم، تتحمّل مسؤوليته فئة العلماء، أي رجال الدين وعلماؤه، وذلك بجمودهم وتقاعسهم، وانجذابهم للأهواء والآراء والمصالح الوضيعة. فأبوا [ ... أن يلبّوا داعي ا الذي يناديهم كلّما تصفحوا كتابه الكريم بوجوب القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... ليتذكّر صنف العلماء أن الآمال في تنبيه المدارك الجاهلة والعقول الغافلة وتهذيب الوسط الإسلامي وإرشاده إلى صراط الدين المستقيم معقودة بنواصيهم ...] [2].

إن علماء الدين حسب رأيه، هم الذين تقع عليهم مسؤولية حصول هذا الصداع في ذات الأمّة لأنهم ما أتوا تلك المعارف الدينية إلا ليقوموا بتربية الشعب وتهذيب العامة والعمل بكلّ ما أتوا من الإرادة لإيصال مضمون " النظام الديني " وتوضيح شعائره. [ ... يفهم أوّل من يجب عليهم القيام بإرشاد العباد إلى طرق السداد بدافع وخز الضـمير وخـشية البـوار أمـام السميع البصير ...] [3].

[1] – جريدة " الأخبار" 6 يوليو (جويلية) 1913.

[2] – أنظر " مراحل الأمم ومراحلنا " بجريدة الفاروق: بتاريخ: 12 سبتمبر 1913.

[3] – في المصدر السابق نفسه.

وإذا كان الاجتماع هو روح الحياة فإنّه يدعوهم لأن يجتمعوا ولا يتفرقوا. ويتحسّر على أيام كان التضامن سمة الهيأة العلمية الإسلامية في مساجد الجزائر، وخلفتها أيام للتقاطع والتناكر. لهذا يحثهم على النشاط وإيجاد فضاءات للتواصل فيما بينهم وبين الفئات الشعبية الأمّية. فكتب في هذا التوجّه قائلا: [ ... لو يرفع ا عن القلوب أقفالها لأستطاع العلماء أن يفتحوا لأنفسهم مجالس يتجاذبون فيها أطراف المعروف والعدل. ويتذكّرون أيام ا ويتمسكّون بمبادئ مستقيمة لإيجاد دروس للعوام يأمرونهم فيها وينهونهم، ينهونهم عن إتيان الفسوق والعصيان والبدع المستحدثة (في) الإسلام ويأمرونهم بالواجبات الحقّة في الدين ..] [1] .

أما الفئة الثانية، فهي فئة الأغنياء، والتي في رأيه، تستأهل النقد مثلما قام به إزاء العلماء. وهكذا وجّه إليهم سهام نقده لاغترارهم بالترف وانهماكهم في الملذات المادية، وعدم تواصلهم مع وسطهم الإسلامي. إذن فهو يهتم بنمط العلاقات الاجتماعية السائدة، الذي ينبغي إعادة النظر فيه لبناء علاقات ذات طابع اجتماعي وأخلاقي تكون بديلاً عن الأولى. فطبيعة القطيعة ما بين فئة الأغنياء والفئات الفاعلة الأخرى، وما بين فئة الأغنياء والفئات الشعبية في الأمّة، نتج عنها جهل بالواجب الأخلاقي الاجتماعي وجهل بأهمّية الحركية العملية ذات الأبعاد الإصلاحية. ولهذا فإنّ خطابه النقدي الواقعيـ، نمّ فعلاً عن قناعة مفكّرنا بدور هذه الفئة، أي فئة الأغنياء الذين كما قال: [... جهلوا حاجة الأمّة إليهم ولم يفقهوا الواجب المفروض عليهم نحوها، جهلوا قيمة العمل لبثّ العلم بين الأمّة سيما بين الأطفال المتشرّدين وأولاد المساكين. لم يعلموا فضل العلم فأبوا أن يتعلّموا هم أيضا أو يعلّموا أولادهم إتّكالاً منهم على ما بين أيديهم من غزارة الثروة وتكاثر المال، فكيف يتسنّى إقناعهم بوجوب قيامهم بتأليف الجماعات لتشييد المدارس ودور التعليم ؟ ] [2] .

بعد نقده للإهمال الذي تتعرّض له الأمّة بسبب هذه الفئة، استغرب وجود عناصر منها تجادل منتقديها ومذكّريها وتحمّل هؤلاء عبء النهوض بها لوحدهم. في حين أنّ الأمّة إنّما هي تنهض أيضا بقوة مال وسلطة جماعات من أمثال هؤلاء الأغنياء. ثم يقدّم نموذج الأمم الأوروبية المجاورة للأمّة الجزائرية، فبالرغم من نزعة رذيلة العتو والاستبداد، إلاّ أنّ لها صورة حضارية اي ميزات سلوكية إيجابية تفوق سلوكيات علمائنا وأغنيائنا. ويدعو إلى النظر

---

[1] - صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 19 سبتمبر 1913.

[2] – أنظر جريدة (الفاروق): 12 سبتمبر 1913.

في المعمّرين الدخلاء على البلاد، وكيف هو نسق العلاقات الاجتماعية والاقتصادية فيما بينهم القائم على قيمتي التعارف والتعاون [1] .

إنّ تنظيم تلك العلاقات يعزّز روابطهم القومية والعرفية والوطنية، فتساءل مستفهما المسلمين الجزائريين إمكانية أن ينسجوا على منوال هؤلاء الأجانب المعمّرين.

أما الفئة الثالثة التي حدّد هويّتها فتتمثّل في المفكّرين، الذين ألقى عليهم مسؤولية وواجب القيام بدور محرّك ونبذ الجمود لمجابهة تحدّيات الواقع وإعادة الأمل في التغيير بالتواصل والتعارف فها هو يكتب في مقدّمة استنهاضية مخاطبًا إيّاهم قائلا في إحدى المقالات الصحافية المخصّصة لهم: [ لنطالب المفكّرين بالواجب المفروض عليهم نحو إرشاد الأمّة ونذكّرهم بلزوم القيام بالتعارف مع بعضهم البعض والتعاون على البرّ والتقوى؛ أين هم المفكرون ؟ ...] [2].

يرى مفكّرنا أنّ هذه الفئة هي المعوّل عليها أساسًا لتجنّب إخفاق الفئتين السالفتي الذكر، أي العلماء والأغنياء، وذلك بحثّهم وتذكيره بالواجب الذي يعني به القيام بوظيفة ونشاط الاجتماع والتعاون والتعارف، وسوف تلتزم الفئتان المذكورتان بهذا المسـار لتحقيـق وجودهما فعليًا.

ووجدنا أن عمر بن قدور الجزائري قد طرح إشكالية هويّة المفكّر، في ذلك الوقت، أي قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، حينما تساءل: من هم المفكّرون، وأين هم يوجدون ؟ [3].

لكنّه قبل أن يجيب، حاول تقديم نموذج المفكّر الغربي ومكانته في وسطه. ورأى أنّ كلّ ما يوجد من اختراع وإبداع في المجتمع الأوروبي، ومن نشاطات حيوية به هو ناجم عن نشاط وجهود المفكّرين. ومفكروا أوروبا هم الذين مهّدوا لكلّ مراحل التطوّر، وحقّقوا الإصلاح بالتعاون وتأسيس الجمعيات لمقاومة المخاطر المهدّدة لأممهم. زيادة على تفعيل الأسس التربوية والمبادئ الوطنية. وبالتالي فإنّ تلك المجتمعات الغربية عرفت قدرهم، وعزّزت مكانتهم بمختلف الأعمال. بعد هذا تساءل مفكّرنا عن وجود المفكّرين في البلاد، وما هي الصورة العملية التي يجب أن يكونوا عليها في الواقع. فهو لما يتوجّه بخطابه إلى المفكّرين لا يقصد أولئك المنحصرين في العاصمة (الجزائر) إنّما تشمل دعوته كلّ مسلم يتسم بالاطلاع والمعرفة المدرك

---

[1] – أنظر الجريدة نفسها بتاريخ: 19 سبتمبر 1913.

[2] – المصدر جريدة (الفاروق) بتاريخ: 26 سبتمبر 1913.

[3] – في المصدر نفسه.

لحقيقة سقوط الأمّة، والنابذ للتقليد الأعمى الداعي إلى الجمود. والمقتنع بأنّ النهضة لا تتحقق إلاّ بقيم الاجتماع والتفاهم والتعاون. وأنّ انطلاقة الأمّة أيضا تنبني على العلم والاعتقاد الديني الصحيح، وبالممارسة العملية الدينية والاجتماعية التي تستقي من سنن السلف الصالح [1].

فالمفكّر المسلم المعتقد بهذه التوّجهات التنويرية والذي يشغل مجال شمال إفريقيا هو الذي يعنيه: [ ... إنّا نخاطب كلّ مسلم يعتقد هذا الاعتقاد عن نيّة حسنة يعيش في أقطار شمال إفريقيا ونعدّه مفكّرًا وندعوه إلى سلوك سبيل الإصلاح بالعمل والمواظبة عليه، وكلّ من كانت أفكاره تحوم حول هذه يجب عليه أن يجيب داعي الإرشاد إذا دعاه ...] [2].

ويوضّح أيضًا بأنّه لا يقصد المتفرنجين (التغريبيين) المختلفي التوجّه أو المشكّكين في جدوى الإصلاح أو المتخاذلين أو الانهزاميين أمام المواقف الواقعية. فهو يستهدف أولئك الممارسين للتفكير في القضايا التي ألمحنا إليها، والمتّصفين بالبعد الأخلاقي الإيحائي. إنّه يؤمن أنّ مثل هذه النماذج الفكرية موجودة بالفعل، لو أُتيح لها التعبير عن أفكارها، ولأظهروا في الساحة العملية أشكالاً للتعاون.

ويعتقد مفكرنا أن عدم وجود فضاءات للتعارف حل دون ظهور هذه الفئة لإبداء آرائها في النهوض والإصلاح. وثمة سبب آخر يتمثّل في صِدام هؤلاء المفكّرين بحالة الأمة الواقعة تحت نير الاستعمار والاستبداد، لهذا فشلت عزيمتهم وإرادتهم. كتب قائلا في نفس هذا النّص الهام: [ المفكّرون ملزمون قبل كلّ شيء بالتعارف والتفاهم مع بعضهم البعض، وأقرب السبل إلى ذلك صفحات الصحف الإسلامية والتعارف يكون ببثّ الخواطر في توضيح سبل إرشاد الأمّة وتبيين الأدوية النافعة في أوبئة البدع وتنوير المجاهل المظلمة التي انبعث فيها المسلمون بغرور زعماء دينهم .. وإذا تعارف المفكّرون وتفاهموا تنجم عن ذلك رغبتهم في التعاون. ونقطة التعاون التي يجب عليهم أن يبتدأوا بها نظرًا لكثرة الطوارئ الفاسدة الطارئة على الجامعة يمكن أن تنحصر في نقطة وهي مقاومة البدع الدينية والاجتمـاعية بالوعـظ والإرشـاد ...] [3].

---

[1] – أنظر المصدر السابق نفسه.

[2] – أنظر المصدر السابق نفسه.

[3] – المصدر السابق نفسه.

وحتى يكون عمليًا، طالب مفكّرنا من هؤلاء المفكرين المصلحين، المسارعة إلى الكتابة الصحافية قصد التعارف، وهذا على صفحات جريدته " الفاروق "، حتى يكون هناك تحقّق فعلي من وجود مفكّرين ليس فقط بين مسلمي الجزائر وإنّما بين مسلمي شمال إفريقيا كلّه [1].

من هنا نتوصّل من خلال تحليلنا إلى تأكيد حقيقة فكرية تاريخية في حقل الإصلاح الإسلامي، وهي مدى إتّساع الرؤية والمشروع النهضوي التنويري لديه، وعدم انحصاره في الجزائر وهذا منذ سنة 1913. لقد كان يعلّق والأمّة آمالاً حقيقية على هذه الفئة الفكرية. لهذا سوف يطلق دعوته المبكّرة في إنشاء هيئة فكرية إصلاحية، ونداءً لأهالي شمال إفريقيا من أجل مشروع عظيم سمّاه: " جماعة التعارف الإسلامي " [2].

---

[1] – أنظر المصدر السابق نفسه.

[2] – ابتداء من العدد 66 (الفاروق) بتاريخ: 23 يونيو 1914.

## قيمة العقل:

كشف تحليلنا للمقالات الصحافية موضع الدراسة، عن رؤية فكرية أخلاقية لمكانة العقل بالنسبة لمفكّرنا عمر بن قدور الجزائري. والنصوص الصحافية تلك أظهرت وجود قيمة أخلاقية ووجودية بالنسبة للعقل. وقد استخدم هذه المفردة أحيانًا في صيغة إسم الفاعل: العاقل، مشيرًا بذلك إلى وظيفة التفكير والفهم لدى الإنسان. وثمة استخدام آخر في صيغة الصفة بالنسبة للموصوف كما في عبارة: " الأمّة العاقلة " وهو بذلك يقابل تعبيره الآخر " الأمّة الجاهلة " حسبما سنوّضحه في هذا السياق. وإذا كان العقل نعمة خلقها ا للإنسان، كما يرى، فهو أيضًا غريزة وفضيلة. وقد يرادف لديه معنى الشعور، أو الإدراك، أو معنى القوة الروحية على الأخصّ. والعقل لديه قد يقبل النقصان والزيادة، قد يمتلكه القصور في فهم حقائق الوجود الإنساني والكوني.

ففي مقال صحفي تحت عنوان " نظرة في الأخلاق "[1]، نشره بجريدة "الأخبار " رأى أن الإنسان المفكر العاقل، المتمعّن في عالم الأخلاق يلاحظ صورًا متنوّعة منها ومتباينة مثيرة للعجب، وبالرغم من توظيفه لعقله في عملية البحث هذه، إلاّ أنّه تبقى القضية الأخلاقية هذه مستغلّة عليه، ولهذا فهو يعترف بهذه المحدودية للعقل فيكتب قائلا: " ... ينسحب عقله جاهلاً عاجزًا عن فهم سبب تفاوت الأخلاق في الهياكل الإنسانية ... لو يطّلع على ما يكتُبه خفقان أفئدة السائرين أو الجالسين أو العاملين أو المتقاعدين على ضلوعهم لعجب أكثر من عجبه من عدم إطلاعه على أسباب تفاوت الأخلاق وتباينها ...".

لكن موقفه من قيمة العقل، وجدناه ينطلق من رؤية مفكر مُطلع يستند إلى مرجعية عقائدية تعتبر هذه القيمة نعمةً أنعمها خالق الأكوان على الإنسان وميّزه بها [2].

وبفضل قوة العقل استطاع الإنسان أن يحقق الأبعاد المرجوة من معيار الفضيلة في بناء منجزات حضارية، تخدم مصلحة الإنسانية وفق مبدأ أو مرتكز السنن الكونية كتب في مقال صحافي فكري تحت عنوان: " فضيلة الفضائل في همّة المفكّر إذا اهتمّ بصالح الأمّة: نبهوا هممكم " [ لو لم يجعل ا للإنسان قوة العقل وسطوة البصيرة لتخلّف عن أشغال الفضيلة التي هي لها ولترك فراغ الإنسانية فراغًا كخلفه الأولي قبل وجوده، ولو لم تكن القوانين الكونية

(1) – جريدة " الأخبار" بتاريخ: 28 أوت 1910.

(2) – بجريدة " الفاروق" بتاريخ: 6 جوان 1913.

مسنونة على حسب ما يبذله العقل وتأتيه البصيرة لذهبت المصلحة المنشودة من هذين الفضيلين ولانحط الإنسان إلى مراتب النعم في الأسفلين ..." [1].

يعتقد مفكّرنا أنّ ا خلق للإنسان عقلاً بصيرًا قادرًا على الهيمنة في إيجاد الحلول لما يعترضه من مشكلات والتحكم في منازع أو معايير الفضائل والرذائل من الناحية الأخلاقية. ولكنّه لم يستعمل الطاقة الإنسانية الخيرة في هذه الناحية، إلاّ قليلاً، ولطالما استنجد بالعقل وبفاعلية كبيرة، فشيّد حقائق مادية على الخصوص، من حياة دنيوية بملذاتها ومظاهر للبأس والسيطرة والهيمنة، ومع ذلك لم يحقق السعادة الكاملة [2].

إنّ غرور الإنسان دفعه إلى احتقار الطبيعة وما وجد في الكون، وهذا نابع من الثقة الكاملة في عقله وحده. فبالنسبة للمفكر عمر بن قدور، العقل غير كافٍ بمفرده وقاصر على تفسير وجود الإنسان وعلاقته بالكون، بدون وجود الوازع الروحي. كتب في مقال تحت عنوان " كلمة فلسفية: الإنسان والأكوان " من أن [ الإنسان لا يطمئن في الغالب إلاّ لترتيبه فإنّه يقاومها بجهده وكذلك قاوم الرّسل والكتب المنزلة وعاكس حقائق الطبيعة وتأثيراتها في غالب الأحيان. ذلك لأنّه يعتقد أنّه هو المسيطر بترتيبه على كل ما هو بين يديه من الوجود ...] [3].

وحتى يوضّح موقفه من قيمة العقل في الإسلام، يؤكّد بأنّ الدين الإسلامي منح لأتباعه كامل حرية البحث عن حقائق الموجودات وأصولها. بمعنى أن لديه فكرًا حرا صحيحًا يتسنّى لهؤلاء التوافق مع الطبيعة دون الوقوف عند قوانينها المادية، إنّما ليتمكن عقل الإنسان من إدراك حقائق وجودية وروحية تسمو بوظيفته على الأرض والاستفادة بمصدر المعرفة لديه، قال ما نصّه: [... خلق ا الإنسان حرا وجعل حريته قابلة للزيادة والاضمحلال ووهب له عقلا لا حدّ له إذا انتشر في الوجود وعمر به زاوية من زوايا الكون كانت فارغة، وما أراد به إلاّ أمرًا واحدًا وهو باختصار: أن يكون منتفعا بذلك العقل من معرفته، فمن العبث أن يطمح دين من الأديان أو سنّة من السُنن الاجتماعية إلى التحضير عـلى ذلك الـذكاء الإنـسانـي أو التحجـير عليه ...] [4].

[1] – أنظر جريدة " الفاروق" بتاريخ 24 أكتوبر 1913.

[2] – في المصدر السابق نفسه.

[3] – مقال: " كلمة فلسفية: الإنسان والأكوان " – الأخبار – بتا: 12 أكتوبر 1913.

[4] – مقالة: " نحن والأكوان: آية من آيات قصور الإنسان " – بجريدة " الفاروق " بتاريخ: 1 أوت 1913.

فالدين الإسلامي فاق جميع الأديان في هذا المنحى العقلي، ولا يستطيع أحد أن ينازعه في هذه الحرية، ولهذا يقدّم نصا قرآنيًا مرجعيًا لهذا الموقف من خلال الآية:

[ أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق ا من شيء ...] [1].

ولكي يبرهن على ضرورة الاستعانة بالعقل في البناء الحضاري، وفي تحقيق الذات القومية والحضور ما بين الأمم. يرى أن إهمال استغلال هذه القيمة الأخلاقية بالنسبة للذين يمتلكونها يُعدّ إجحافًا في حقّ الأمّة في ميدان الإصلاح، وتشجيعا لقيام مساوئ الأخلاق، وابتعادًا عن الخصال الكريمة والأخلاق الحسنة: [ ومن أظلم ممّن أتاه ا عقلاً صحيحًا فضنّ بفضله على العباد. وخلق الناس بواد واعتزل في واد ...] [2].

وعدم تفعيل هذه القيمة في مواجهة مختلف السياقات والتحديات يعرّض الأمّة إلى السقوط تبعًا لمبدأ السنن الكونية ولمبدأ تنازع البقاء حيث كتب [ كُرّمنا بأن ميّزنا بنعمة العقل فأستنزدنا هذه النعمة فصرفناها في غير ما أعدّت من المنح المفاضة على أرباب الاستعداد الكامل أي أرباب التأثيرات الروحية الكاملة. أعني ذوي العلم بأوضح عبارة، الذي يشير إليهم ربّ البرايا جلّ من قائل: " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلـمون إنّـما يتـذكّر أولـو الألباب " [3].

وهكذا فإنّ العقل إذا كان بالنسبة إليه يشكّل ينبوع التأثيرات الروحية، فأولو الألباب، هم ألو العلم، لأنهم هم أرباب هذه التأثيرات المحتاجة للتطوير والتنمية عبر التعليم.

والأمّة الجاهلة غير الآبهة بتنمية عقول أبنائها واستثارة استعداداتهم، دائما تبقى مستعبدة تحت نير الشقاوة الأبدية وفي أحطى مكانة فيما بين الأمم، يسودها الجمود والضلال، بحيث يذهب عزها الدنيوي، وبذهابه لا شك لا نصيب لها في العزّ الأخروي [4].

ولقد عثرنا على أبياتٍ شعرية له ينوّه بها بالعقل، فيقول مخاطبا إياه في عمود: منبر لجميع الناس:

---

(1) – الآية: 185 من سورة: الأعراف.

(2) – مقالة: " غفلتنا" – الفاروق- 7 مارس 1913 (أعاد نشره با"الإقدام " العدد: 100 بتاريخ: 13 أكتوبر 1922.

(3) – الآية: 9 من سورة الزمر.

(4) – في المصدر السابق نفسه بجريدة وادي ميزاب: بتاريخ: 8 جويلية 1927 حيث يعيد إدراج هذه الفقرة. أنظر أيضا مقالة: " الاسترشاد بالعلم والاستقلال.

**أيها العقـل الجليـل — أنت لـي نعـم الخليـل**

**منك نِلـت المبتغـى — من سلـوكي في السبيل**

**أنت أظهـرت المعاني — ونـزحـت المستحيـل**

**أنت مفتـاح الأمانـي — للـذي رام الـدخـول**

**أنت نهـج مستقيـم — لمن إستحـاق الوصـول**

**منك صرت أعرف الناس — يهـيـمـون بليـل**[1]

أعدت له فكان من آياته تعالى ما ذكّرنا به في غير ما مرّة من إبدال أمّة بأمّة وإهلاك قوم ضالين والإتيان بقوم صالحين، ومع ذلك ما انفك الإنسان ... غير مفكّر فيما هو مخبوء له في أحضان الساعات ...] [2].

والأمّة العاقلة لديه، هي الأمّة الحيّة، العزيزة، التي ينشط أبناؤها متعاونين على الخير، مهيكلين في جمعيات، والتي تفكر في المستقبل دومًا. وبالتالي فإنّ أية أمّة عاقلة لا تأمن سنّة ا في تنازع البقاء وطمع الأقوياء في الضعفاء. ونصل هنا إلى تصوّره للعقل كعوامل معنوية يرادف معناه أحيانًا الشعور، الإحساس والإدراك.

هذه العوامل المعنوية أو التأثيرات الروحية المرادفة للعقل تحتاج إلى عناية مركّزة، لأنها قابلة للتطوّر والنموّ، وعليها يدور رهان النهضة بالتعليم. إذ لولا هذه التأثيرات لكان الإنسان جمادًا أو حيوانًا متوّحشًا. وهي قوة روحانية أو قوة إدراكية تعدّ الإنسان في الحياة الدنيا واستعداد له للآخرة أيضًا. فلنلاحظ إذن كيف يحدّد قيمة العقل بالنسبة لوجود الإنسان فثمة ارتباط ديني أو عقائدي ثابت في تصوّره.

إنّ هذا الاستعداد كما يقول [ هو موجود في كلّ إنسان مجبول في غريزته كامن فيه كمون النار في الزناد ... لكن صاحبه بإهماله لتنبيهه وتنميته يبقى ناقص الاستعداد غير متأهل لنيل أقل قليل من المنح.

---

[1] – بجريدة " الفاروق " بتا: 18 جويلية 1913.

[2] – في جريدة (الفاروق) بتاريخ: 6 جوان 1913 (مصدر سبق ذكره).

## نقد التقليد:

شكّلت قضية التقليد ارتكازًا أخلاقيا لمسنا حضوره من خلال تكرار تناول عمر بن قدور الجزائري له عبر العديد من نصوصه الصحافية الفكرية والإعلامية. لم يكن يطرح هذه الفكرة المحورية في تصوّره الإصلاحي التنويري، من منطلق فكري نظري محض، وإنّما سعى إلى المعالجة عبر ربط المقاربة النظرية بالواقع أو بالبيئة الاجتماعية والفكرية للمجتمع الجزائري. بالفعل، فتحليل كتاباته يؤكّد هذا التوجّه الأصيل، الذي يربطه بمفهومه للفوضى الأخلاقية وللهوية الإسلامية، أو بتعبيره الخاص " القومية الإسلامية ".

ووجدنا أنّه كان يستخدم العبارات التالية لتوصيف هذه الظاهرة الأخلاقية وهي مثلا:

" داء التقليد "، "التقليد الدخيل " أو عبارة " التقليد الأعمى ". إذن فثمّة مقاربة نقدية واضحة لهذه الظاهرة، والتي تأخذ معاني مختلفة، تعكس تصوّره.

إذن فلنطرح التساؤل الآتي الذي يعكس مقاربتنا التحليلية لنصوص مفكّرنا. ما هو مفهومه للتقليد ؟ وما هي هذه المظاهر أو الملامح المنتشرة في البيئة الاجتماعية والفكرية ؟ وما هي الأسباب التي رآها علّة لبروزها ؟ وبالتالي أين تكمن طرق عـلاج أو محـاربة هـذا الداء الدخيل ؟.

من مفاهيم التقليد التي يقدّمها مفكّرنا، هو ربطه بالظاهرة الاستعمارية، واعتباره من أهم الكوارث الأخلاقية المهدّدة لوجود الشعوب المحتلّة. فهو كتب في هذا قائلا[1]: "من أعظم الرزايا على الشعوب التي قضت أعمالها بالوقوع في قبضة الدول الأجنبية أن يفزعوا من قوة الأمم الفاتحة وشدّة سلطانها وضخامة ملكها وحسن مدينتها فدعوا إلى الإتّساق بها والتغذّي من لبانها ويتركوا مدينتهم وعوائدهم ولغتهم وتاريخ أمّتهم واستبدلوها بالشيء الذي عنيت به الأمم للسيطرة عليهم ...".

ويرى أن مظاهر هذا التقليد الشامل، سلوكًا وفكرًا، الناتج عن طبيعة الاستعمار، تكشف للباحث في أسباب سقوط الأمم وتدهورها تأثير تلك السلوكيات السلبي، ومدى خطورتها على مستقبل أي أمّة، ولهذا يقول: " لا تعلم أيّها الباحث عن السير في سقوط الأمم ذلك حين ما تجد رجال الأمّة ينزع لسانهم إلى لغة الأمم الأخرى فهم يفاخرون بها وتنفتح أوداجهم عجبًا حين

---

[1] – في صحيفة " الحقيقة " التونسية، بتا: 29 جوان 1907.

يتلفظونها وأجسامهم تهوى العويل بالعوايد الغربية من الملبس والمطعم والمعاملة، وفكرهم العقلي يحبّ تاريخ تلك الأمم البعيدة عنهم حُبا جمّا فهم يمجّدون رجالها ويعظّمون أبطالها بهذه العوامل تتغلّب صحيفة تلك الأمّة الباحثة عن حتفها بظلفها ..."[1].

وهو إذ يقدّم هذا التصوّر النقدي للتقليد، إنّما ينطلق كما أسلفنا الذكر، من واقع وبيئة جزائرية إسلامية تشهد بما يذهب إليه، ويستحضره في نصوصه. لهذا فهو يستنكر بشدّة ويتحسّر على ذلك الخضوع والارتماء في مظاهر حضارية مادية غربية، لأبناء من الأمّة دون الارتكاز على الأسس الأصلية للدين الإسلامي، كتب في صحيفة "الأخبـار " مخاطبًـا إيـاهم: " أبناءنا أسرعتم إلى الترحاب بالمدنية الغربية التي أعدّت لكم السمّ في عسل خيراتها فأصبحتم مذبذبين لا ترتكزون على نقطة ثابتة ولا أصل قويم. فتبّا لكم من أبناء شقي الإسلام. بصحيفة سوداء في تاريخه فإلى متى ؟ إلى متى وأنتم نائمون ؟ ؟ أواه ! أواه !!" [2] .

وإذا كان مفكّرنا كثيرًا ما يستحضر مرجعية التقدّم الحضاري الغربي مقارنة بالتأخّر والتخلّف السائد في العالم الإسلامي، فإنّه لم يغفل عن الجوانب المادية السلبية للغرب الحضاري، والتي امتدّ تأثيرها إلى مختلف فئات الشعب المُستعمَر على الخصوص. فلقد ولد الأبناء في زمن حضارة وعهد مدنية، بعد أن صهر بعضهم في بطون أمّهات وأصلاب آباء نار الخمر وكلّ شراب خبيث ومطعم ملعون، فكانت أجسامهم ضعيفة وعقولهم ضئيلة. لأنّ هناك من ارتمى في مساوئ الحضارة، فانحطت القيم الأخلاقية. ومما جاء في مقالٍ له بعنوان " الحضارة والصفاقة " [ قبّح ا الحضارة وقبّح عهدنا بها فإنها ما عملت قاتلة للآداب الفاضلة مغرية بالرذائل مهرقة لماء الوجوه مفسدة للمروءات نقول فيها ذلك على حميد أثرها في إنماء العلم وتجويد الصناعات وإقامة منار العدل والحرية ... فما نقوّم حسناتها وسيئاتها ولا يعدل خيرها شرّها ...] [3].

لقد انتقد أيضا أولئك الجزائريين الذين كانوا يسافرون إلى الدول الغربية الأوروبية، وحينما يعودون للوطن، تراهم يتحسّرون على أيّام الملذّات والأهواء النفسانية هناك، ولا

[1] – في المصدر السابق نفسه.

[2] – في صحيفة " الأخبار" بتاريخ: 30 أكتوبر 1910.

[3] - بمقالة " الحضارة والصفاقة " – الأخبار – بتاريخ: 10 ماي 1914.

يفكّرون في جانب آخر، هو أسباب تقدّم وتطوّر تلك البلدان، والعزوف عن زيارة المعالم التاريخية والعلمية [1].

لقد رأى أن العصرنة أو التمدّن لا يكمن في تقليد مظاهر حياة الأوروبيين المادية البحتة، وإنّما في محاولة مجاراة مسار الرقي الحقيق المتمثل في تطوير الفكر الإنساني ورفض الجمود، مع العمل على التغيير وذلك بتجسيد فضاء الاجتماع والتلاقي لتحصيل العلم [2].

في مقال له تحت عنوان (درس متين "للمتفرنجين ") عقّب مفكّرنا في سياق محاضرة ألقاها مدير جريدة " الأخبار " السيد فيكتور باروكان، حول " الكحول والتمدّن " بمقر الجمعية الرشيدية بالعاصمة، معتبرًا ما جاء في هذه المحاضرة درسًا لفة المتفرنجين التغربيين، المتنكّرين لهويتهم المقلّدين للأوروبيين فيما لا ينبغي تقليده، حيث كتب[3]: " كلّ يوم وهذه الطائفة التي مرقت من الجامعة الإسلامية بغُلّوّها في تقليد المتمدّنين من الطارئين ومجاراتهم في إجتنائهم المصالح الذاتية والشهوات النفسانية: تلاقي قنابل التوبيخ وأكبر التعنيف من كافة الناس وفي جملتهم أولئك القوم الذين قلّدتهم هذه الطائفة وجارت عوائدهم. نعم هكذا دائما تلاقي الطائفة المتفرنجة لوهم كامن بأدمغة أعضائها وهوى ساكن بأفئدتهم هذا التوبيخ ... لقد أبدى مدير جريدتنا وهو الفرنسوي القابض على صولجان اليراعة والفصاحة في مسامرته تألّم الفرنسويين ونفورهم ممّن إقتبس عنهم الصفات القبيحة المضرّة وعرف بأن المدينة والحضارة الفرنسوية ليستا في شرب الخمور ولُبس الكرافات واجتناء الشهوات، بل في العمل والتعلّم والأدب والاجتهاد في نيل الشرف الحقيقي الذي هو في ترقية النفس ...].

ثم دعا هذه الفئة المقلّدة التغريبية إلى النظر في شناعة هذه السلوكات للتخلّص منها بالرجوع إلى خصوصية الإسلام ومدنيته والمساهمة في عملية التحديث والترقية، ثم يقول بالنص الشعري:

**أفبعد هذا الغي يطلب ناصح درسا يهذّب قومنا ويؤدّب**[4]

---

[1] – أنظر مقالة: " فظائع الجزائري في الغرب والشرق " –الأخبار- بتاريخ: 23 أكتوبر 1910.

[2] – بمقالة أنظر: (كلمة في حقيقة التمدّن) – الأخبار- بتا: 25 جوان 1911.

[3] – مقال: (درس متين " للمتفرنجين ") –الأخبار – 13 ماي 1910.

[4] – في المصدر السابق نفسه.

وحتى نوضّح أكثر الملامح التي تطرّق إليها المفكر عمر بن قدور، فيما يتصل بنقد هذه الصورة السلوكية أخلاقيا، ينبغي الإشارة إلى ما توصّلنا إليه من خلال تحليل النصوص، بذكر التصنيف الذي رآه منطقيًا على الفئات الاجتماعية المتخلّفة بالتقليد.

هناك التقليد السلوكي الذي يتميّز بتخلّق فئات من الشباب على الخصوص بعادات ومظاهر ترتبط بتأثّرهم بسفور المدينة الغربية الأوروبية. وهناك فئة أخرى منهم تتميّز بالتقليد الفكري الدخيل هو الجانب التغريبي المتنكر للهوية الإسلامية الجزائرية بكلّ حمولتها الدلالية التي تتركّز فكريًا لديه في مفهومه للقومية الإسلامية.

أمّا الصورة الأخلاقية الأخرى للتقليد، فهي ترتبط بحالة الجمود وانعدام الاجتهاد لدى النخبة العلمية الدينية، وحتى الكتّاب من المثقّفين الذين باتوا يقلّدون أسلافهم في كتاباتهم ومؤلّفاتهم.

إذا كان من مخاطر آثار التقليد، هجران العادات الأصيلة، بما فيها من ضوابط وحدود في الممارسة اليومية للحياة، مع تعرّض الأمّة للعادات الطارئة عليها والدخيلة بسبب الاحتكاك بالأمم الأجنبية عليها، فإن الخطورة الكبيرة تكمن في ابتعاد الأمة عن أصالتها وأصلها وتهديد وجودها بالتلاشي والاضمحلال والجمود [1].

يرى مفكّرنا أنّ ثمّة فئة اجتماعية في المجتمع الجزائري، من الشباب تنكّرت للمدنية الإسلامية واتّبعت مدنية أخرى، إنها طائفة [ تحب إتّباع كلّ جديد من التمدّن وتقليد كلّ غريب في عوائد الأجانب فهم شبّان احتووا على نصيب من المفهوم فظنّوا أنّ الغلّة هناك والعلة في غيره فطفقوا يتّبعون كلّ ناعق يأتي من العدوة الأخرى يهتز بمدنيته. فكانوا مثله صورةً وتمنوا أو خلّقوا من أصله حتى لا يقع فيهم الاشتباه ...] [2].

ثمّ يحدّد مظاهر التقليد التي تعكس صورة هذه الفئة التي ترى أنّ كامل محاسن التحضّر والعصرنة في إتّباع ما يأتي من الأجانب الأوروبيين، فهم يصنعون جلودهم بمسحوق التزيين، ويصفّفون الشعر على رؤوسهم، ويتأنقون في اللباس، ويحرصون على صنعتهم هذه وأفعالهم

---

[1] – في "الأخبار" بتاريخ: 2 أكتوبر 1910.

[2] – " شبابنا " بصيحة " الأخبار " –بتا: 27 نوفمبر 1910.

المظهرية حرصًا شديدًا. مع ترقيق الألفاظ الأجنبية عند الكلام، لأنّهم لا يتكلّمون بلغتهم العربية إلاّ فيما قلّ وندر، مع وصفها لها بالانحطاط [1].

ولا يقف مفكّرنا في توصيف هذه الفئة المقلّدة عند هذا الحد من هذه الممارسات. وإنّما يتعدّاها إلى مواقف أخرى سلوكية تشير إلى حبّ انسلاخها عن الأمّة بخصوصيتها الإسلامية. ففي ن تابع لهذا السياق كتب عنها قائلا: " ... هي انقطعت عن الجامعة وأنكرت حسنها ولم تقف عند هذا الحدّ بل تعدته إلى المروق من دائرة أمّتها بالمرة والاختلاط بجامعة أخرى طارئة ومن العجب أنّها لم تقلدها في أنفع الأشياء وأفضلها بل قلّدتها في أحط الأشياء وأسوأها كالبذخ وشرب الخمر والتهتك وزيارة البالو (تقصد Ballet) ومـواطن الأنـس إلـى غـير ذلـك من الموبقات ...] [2].

ولاحظنا من خلال تتبّع المسار النقدي التنويري أن مفكّرنا أشار إلى صنف آخر والذي سبق وأن ألمحنا إليه وهو صنف " المتفرنجين" أو التغريبيين، بحيث يتحوّل من السلوك التقليدي الفكري إلى تمثيل تيار فكري وحتى سياسي فيما بعد في الجزائر، يدعو إلى ما سمّي وعُرف تاريخيا من الناحية السياسية بتيار الاندماج السياسي. لكن تكمن خطورة هذه الفئة الداعية إلى "التفرنج " المتنكّرة لأصالتها ولانتمائها الحضاري إلى الارتماء والتمسّك بالمدنية والحضارة الجديدة عليهم والدخيلة عليهم أيضا، فهم يرون [ في الإسـلام الانحـطاط التـام والسـقوط بكلّ معاينة...] [3].

لقد تم استلاب عقول شبّان الإسلام وقلوبهم من طرف الأمم الأخرى التي استهوى تقدّمها الفئة الناشئة ونخبتها المتعلّمة. وفي النّص التالي يقدّم لنا بعض هذه الملامح الثقافية الناتجة عن الاحتكاك بثقافات تلك الأمم، خاصة الاستعمارية منها، وهذا لدى هذه الفئة المنتمية لتيار "التفرنج" يقول عمر بن قدور: " فكما ترى رجلا يفتخر بذكر عالم فرنسوي وآخر يمجّد إسم عالم انجليزي ترى شابًا يرفه عبقرته بأشعار "فيكتور هيجو " والآخر معجب بروايات (شكسبير) وهكذا فلا شغل لتلك الفئة إلا حمد رجال أوروبا وتمجيد نثرهم وشعرهم واختراعاتهم. ومن المحال أن يخطر في بال أحدها ذكر علاّمة مسلم أو شعر لشاعر عربي مخلق أو إصلاح مصلح شرقي. وأمثال هؤلاء عندهم كلا شيء في الوجود.

---

(1) – في المصدر نفسه.

(2) – بصحيفة " الأخبار " بتاريخ: 04 ديسمبر 1910.

(3) – بجريدة " الأخبار " بتاريخ: 18 ديسمبر 1910.

أجلس في مجتمع جمع منهم صفوفًا واسمع ما يقولون وبأي لسان ينطقون ...] [1].

وهو يشير بطبيعة الحال إلى استخدام هذه الفئة للّغة الأجنبية عن اللغة العربية: لأنهم بها تلقّوا دروسهم.

ويعتقد أنّ هذه الطائفة "المتفرنجة " يتعدّى دورها إلى المساس والتعرّض لرجالات التنوير والإصلاح، وإلى الانتقاص من ثوابت عزيزة على الأمّة الجزائرية المتمثّلة في الدين واللغة والوطنية التي تستقي روافدها المرجعية من هذين العنصرين الأخيرين، وكأنها تحوّلت إلى ما يبدو سما في جسم الأمّة. كتب في مقال تحت عنوان "أهم ما يقال في سبيل العاملين " منتقدًا هذه الفئة: [ ... إنّها تعمل كلّ يوم عَمَلاً يبرهن على كفاءتها في تقويض أركان الإسلام والإيمان وزجّ الأمّة إلى مزالق ضيق وسبيل حفّت به الأخطار من كلّ جانب، هي تدعو إلى إلغاء وطنية الدين ولغة الدين وكتاب الدين، والتشبّث بالوطنية الطارئة واللغة الأعجمية والحضارة الفاسدة ] [2].

ثمّ إنّنا وجدنا له موقفًا فكريًا وسياسيًا في آن واحد، إزاء هذا التيار المتشبّع بالتقليد الذهني لكلّ ما هو غربي التوجّه، وذلك من خلال مقالين عنيفين من حيث النقد والتأسيس للنزعة الوطنية الجزائرية بمختلف مكوّناتها التاريخية والدينية واللغوية. وهذان المقالان الانتقاديان موجّهان خصوصا لشخصية جزائرية ذات توجّه سياسي إندماجي، منتخبة على مستوى المجلس البلدي للعاصمة، ونشرهما في نفس الشهر من سنة 1911.

أمّا المقال الأول، فجاء تحت عنوان " قف يا هذا " بجريدة "الأخبار " الصادرة بالجزائر، في حين جاء المقال الثاني تحت عنوان: " بئس القول قول الأفّاكين " نشره بجريدة " المشير " التونسية، حينها كان مراسلاً أيضا لهذه الصحيفة من الجزائر. وكان عمر بن قدور قد نشر ترجمة عربية لمقال مدير جريدة الأخبار تعرّفنا من خلاله عن الشخصية المقصودة [3] .

وقراءتنا لمقالي مفكّرنا، جعلنا نعتبرهما في الأصل مقالاً واحدًا أحدث فيه بعض التغيير أو الإضافة بالنسبة للمقال المنشورة في الصحيفة التونسية السالفة الذكر. لقد اعتبر هذه الشخصية التي تدّعي تمثيل الشعب الجزائري في ذلك المجلس متطاولةً على الملّة السمحة

---

[1] – في المصدر نفسه.

[2] – أنظر مقال [ أهم ما يقال في سبيل العاملين] – الأخبار – بتاريخ: 14 ماي 1911.

[3] – أنظر مقال فيكتور باروكان: [ رسالة مفتوحة في شأن اتحاد العنصرين الأهلي والأوروبي – إلى السيد عمر بوضربة العضو بمجلس بلدية الجزائر]. – الأخبار – بتاريخ: 21 ماي 1911.

والدين الصحيح، دين المدنية، دين الحرية، دين السعادة، دين التقدّم، فكتب في مقاله (قف يا هذا) مخاطبًا إيّاه بتعنيف شديد: " قف أيها المتفرنج حذو تلك الأعلام المرفوعة المشيرة لما للإسلام من عظمة وإقتدار ... قف أيّها المتجاسر على تدنيس سمعة ملّة هي خير ما أخرج للناس إزاءها موقف المتأفف الحزين البائس الحقير ... قف ولا تفرح بما أوتيت فأصبحت به عدوا لشعبك وأصلك وقومك وملّتك وقوميتك ومن هم أولياء لك ... دع ما لم تحط به علما وابتغ ما تبتغيه من ضروب اللذات الوقتية ...] [1].

أمّا المقاطع التي اعتبرها دالّة على دعوة وتوجّه هذه الشخصية في سياق " التفرنج " أو التغريب، فإنّه قد أثبتها في المقال الذي أرسله لصحيفة (المشير) التونسية، وذلك حينما ألقت كلمتها للاحتفال بقدوم الحاكم العام الجيد للجزائر في تلك السنة بعد استقالة الحاكم " جونار". وكان المقطع التالي لها " قد صار من المتحتّم على الأهالي (أي المسلمين الجزائريين) أن يتنصلوا من ربقة العقائد الدينية لأنها عقبة كؤودة قائمة بينهم وبين تقدّمهم الاقتصادي] [2]. قد أثار انتقادات وكتبات عدّة في الصحافة الجزائرية[3] والتونسية.

ثم تساءل مفكّرنا مستنكرا هذا القول: [ أليس سوى التفرنج دافعا له إلى هذا القول السامح ؟ أليست تلك الأفكار الضالة الإلحادية وسوست له. وأوحت إليه كلمات هوت به إلى قعر عميق ...] [4].

لقد اعتبر هذا الموقف نكرانا لفضل الشعب عليها ولثقته فيها ولانتخابه لها وهي دعوة إلى الإلحاد، تمثل طائفة متفرنجة مخطئة في قناعاتها وسلوكاتها الفكرية والسياسية ثم يقول متحسّرًا: [ مسكينة أمّة الجزاير يقوم منها أحد أفرادها طاعنا في دينها سابّا لملّتها مشنّعا بتقاليدها على رؤوس الملأ حشر فيه المتعارفون زُمرًا وهي ساكنة ساكنة ولو حصل مثل هذا في بلاد غير هذه البلاد لنبذت الأوراق والدفاتر، ولتكسّرت الأقلام وجفّت المحابر، ولأطت بالخطباء المنابر ..] [5].

---

[1] – أنظر مقالة (قف يا هذا) بجريدة –الأخبار – بتا: 21 ماي 1911.

[2] – من مقالة: (بئس القول قول الأفّاكين) – المشير- التونسية 28 ماي 1911.

[3] – حسب تعقيب صحيفة (المشير) التونسية على مقال عمر بن قدور الجزائري.

[4] – بنفس العدد السابق نفسه.

[5] – بجريدة (الأخبار) –بتاريخ: 21 ماي 1911.

إنّ النقد العنيف الذي وجّهه مفكّرنا إلى نخبة هذا التيار التغريبي الذي بدأ مقلّدًا لمظاهر التحضّر المادية للمجتمع الأوروبي، سواء أكان بفعل الاحتكاك المباشر عبر الدراسة في أوروبا، أو بفعل الاحتكاك بالعادات والتقاليد الأوروبية في المدن الجزائرية جرّاء الظاهرة الاستعمارية ونمط التعليم المفروض على الجزائريين سوف نكتشف أنّه كان صائبا في توليد اتجاهات ثقافية وسياسية تمثّل الذوبان في كلّ ما هو فرنسي وأجنبي باسم الإدماج والثبات الفكري له يتضّح من مقالاته الصحفية في صحيفته " الصدّيق" التي أشرف عليها بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، فها هو يكتب في العدد الثالث منها تحـت عـنوان: " بأيّ روح نمـتزج ؟ " قائلا: دعـاة التقليد و"التفرنج" :

[ ... صار الدعاة فيه يحشرون المسلمين إلى الاندماج والامتزاج بروح طارئة ويزيّنون لهم حضارة العصر بتزيين عجيب نسوا معه حقوق الدين وسماحة اليقين وحسبوا أنّ التمدين هو هتك الدين والتخلّق بذلك التخلّق والتملّق الظاهرين ... فأنت ترى الأهواء من جرّاء هذا التفرنج يدعو إلى خراب البقية الباقية من القومية وتعطيل الآمال في الرجوع إلى تلك الـروح الـشريفة الطاهرة ...].

لكن بعض النصوص التي أنتجها مفكّرنا تبيّن أيضا وعيه وإدراكه، لوجود البعض من الأفراد المنتمين لتيار " التفرنج " أولئك المتنكّرين للماضي كلّية بحيث يعتبرون الراهن أحسن منه ويحتقرون النزعة الدينية، ومع ذلك لم ينسلخوا عن الهوية الإسلامية بالرغم من نشأتهم في وسط أجنبي عنها. فهم يشكّلون عنصرًا [ يضمّ أشتات قوم شبّوا في حضن الأجنبي الطارئ. وكأنّي بالمتتبّع لحركاتهم وقد أضمر أن القوم قد انسلخوا بالمرة عن القومية العامة. وهو تخمين لا يعوّل عليه ما دام كلّ واحد من هؤلاء القوم يتضرّم غيظًا إذا قال له قايل إنك غير مسلم أو إنك متفرنج على الأقل ...] [1] .

ليس هذا فقط، فإنّنا لمسنا أيضا مدى سماحة موقفه الفكري التنويري حقّا ومدى إنصافه لتلك النخبة المتعلّقة بالهوية القومية الإسلامية للجزائريين، لأنّ منها من ناضل في حقل السياسة دفاعًا عنها، فها هو يتابع في نفس النّص قائلا: [ ... إن هؤلاء القوم لم ينفكّوا عن الجامعة بل ناضل بعضهم عنها في غير ما موطن فعدّهم المستعمرون أعداء لا ينامون على ضيم. وما جنوا

[1] – أنظر مقالة: (معضلات اليوم والغد) – الفاروق- بتاريخ: 4 أفريل 1913.

على تلك النعرة الإسلامية الكامنة في قلوبهم إلا جناية اتخاذ صورة جديدة في النزعة والتخلّق هي وتلك النعرة على طرفيْ نقيض ...] [1].

إن الفكرة الأخرى المستخلصة من هذا السياق النّصي الخاضع للتحليل هو تأكيده على عدد من الأسباب أو العوامل المفسّرة لأبعاد هذه الظاهرة الأخلاقية المتمثّلة في التقليد. والتي امتدّت تأثيراتها السلوكية والفكرية، بحيث رفع المتّصفون بها " شعار المتفرنج " وشعارًا سياسيا هو الإدماج، خاصة في وسط الأمّة الجزائرية، إبّان هذه الفترة التاريخية الاستعمارية.

كان مفكّرنا قد رأى منذ بداية اهتمامه بهذه الظاهرة، أنّ أحد الأسباب الرئيسية للتقليد الذي قد يصل لحدّ الذوبان والانسلاخ من حيث الهوية وثوابتها، هو وقوع الشعوب تحت نير السلطة الأجنبية أو القوى الاستعمارية مع خشية قوتّها العسكرية، وحتـى قوّة تقدمـها الحضاري [2]. وقال في موضع آخر من أنّ في بلاد إسلامية رجال يكرهون الانتساب إلى الإسلام، ويودّون ويحبّون من حارب المسلمين، بحيث يجعلونه في مكانةٍ أرفع منهم [ وينزلونه من قلوبهم في مقام مكين. كيف أنجر إلى عقولهم هذا الشعور الفاسد وركبهم هذا الضلال واستحوذ عليهم هذا الوبال ؟ ...] [3].

ويرى أنّ التوجّهات الفكرية التقليدية للمتفرنجين التغريبيين هي التي تقيّد حرية الفكر لديهم، وهذا ناتج أساسًا عن نفوذ السلطة الاستعمارية وسيطرتها على الشعوب المحتلّة التي سوف تتبع العادات والأخلاق الدخيلة عليها. كتب في مقال تحت عنوان: (الصور الحالية للقومية الإسلامية) [ إن للمتفرنجين أفكارًا تقليدية حجزتهم عن إطلاق العنان لحرية الفكر وتلك سطوة الأجنبي المتغلّب تفعل في الظواهر والبواطن فعلها فتصيّر المغلوب دائما يتبع الغالب في عوائده وأخلاقه. وهذه السنّة المعتبرة في كلّ زمـان ومكـان هـي الطليـعة الأولـى لجـيوش التسلّط....] [4].

لكن لا يتوقّف التأثير وبروز التقليد عند هذا العامل في العلاقات فيما بين الدول، وإنّما قد يكون بسبب التقدّم الحضاري الشامل الذي يتحقق لدى أمّة ما في زمن ما، بحيث تصبح نموذجًا

---

[1] – في نفس المصدر.

[2] – في مقال له في صحيفة (الحقيقة) التونسية بتاريخ: 29 جوان 1907.

[3] – في صحيفة " الأخبار " بتاريخ: 2 أكتوبر 1910.

[4] – مقالة: (الصور الحالية للقومية الإسلامية) – الأخبار – بتاريخ: 6 سبتمبر 1912.

لأمم معاصرةٍ لها، حتى وإن كانت مستقلّة [1]. أمّا أسباب هذا، فتختلف من أمّة إلى أخرى، إلاّ أنّ انتشار الأمّية والجهل يبقى سببًا رئيسيًا في هذا المضمار. حيث يقول في نفس النّص السابق:

[ كلّ أمّة أسّست في الأرض مدنيةً ونظامًا كانت تؤثّر في معاصريها غالبًا. وهذا التأثير لا يتناول التابعين فقط بل وحتى المستقلّين. ولا يحصل هذا إلا بأسباب هي في الحقيقة منبثّة في كلّ أمّة ورأسها الجهل ثمّ التشوّف نحو خيرات ما يأتي به المتسلّط. وعلى هذا النحو تتمكن الأخلاق الأجنبية من الفتح وتأخذ جراثيمها السامّة تسري في كلّ صوب ...] [2].

أمّا السبب الآخر فيكمن في الاحتكاك الناجم ما بين فئات الشعب وفئات المعمّرين الأجانب الذي يشاركونه أرضه المسلوبة. ويقرّر بأن الواقع الجزائري شاهد على هذا التحوّل والتأثير السلبي الدافع للتقليد الأعمى ولآفات المدنية الغربية المكوّنة لبعض سلوكات الفوضى الأخلاقية. وصورة المصير التعيس الذي أصاب أسرًا جزائرية عريقة، وبروز تحوّلات أخرى لدى أسر من فئات اجتماعية أخرى أحد هذه الدلائل [3]. أمّا الدليل الواقعي الآخر، حينما لاحظ عدم تعرّض أهلها الجزائريين لمخاطر الفوضى الأخلاقية مثلما هو موجود في مسقط رأسه بالعاصمة، مع ضعف قوة تيار " التفرنج " لانتشار العادات العربية والآداب الإسلامية في قسنطينة، وكذلك لنقص العنصر الأوروبي مقارنة بالعاصمة [4].

وهذا ما جعل عوامل التواصل والتعارف بين الأسر القسنطينية لا تتعرّض لنفس الضغوط الموجودة بالعاصمة. فكتب مفكّرنا قائلا: " إنّ أسباب التعارف والتضامن إذا توفّرت لدى أناس تكون ناجمة عن خلوّهم من كثرة الدخيل وعدم طروء عوايد أجنبية عددهم تخالف ما تعوّدوا عليه من سننهم القومية وهذه حقائق تاريخية يفقهـها كـل من له أدـنى إلمـام بفلسـفة التاريخ...] [5].

ووجدنا أنّ مفكّرنا يحدّد في بعض النصوص التي أنتجتها بعض أشكال الجهل، التي اعتبرها من أسباب التقليد الدخيل أو الأعمى، المهدّم لكيان الأمّة ولعزيمتها في النهوض. ويمكن

(1) – لاشك أنّ هذه المقاربة الفكرية لعمر بن قدور تذكّرنا بما ذهب إليه العالم الاجتماعي والمؤرّخ ابن خلدون الذي قال: " في أن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ". المقدّمة – دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1993، ص 116.

(2) – بصحيفة " الأخبار "- 6 سبتمبر 1912.

(3) – في المصدر نفسه.

(4) – في صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 19 ديسمبر 1913.

(5) – في صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 12 ديسمبر 1913.

اعتبار هذه الأسباب ثقافية تربوية، منها ما تعلّق بجهل حقائق الأمّة الإسلامية التاريخية ومدى مساهمتها الحضارية. فهذه الأمّية التاريخية هي التي جعلت المقلّدين والمنسلخين عن الهوية والقيم الوطنية لا " يعرفون لمن سلف من أبائهم مجدًا ولا عزا ولا رفعة ولا سعادة. ولا لملّتهم حسنا ولا أدبًا ولا سماحة ولا إخلاصا ولا إيمانًا ولا سلاما ولا يدرون لمدنيتهم نضارةً ولا اختراعًا ولا عمرانًا ولا علومًا ولا آثارًا ولا نفوذًا. يعرفون بما لا يعرفون عن وطنيتهم ويصفونها كما وصفها مبغضوها ولم يدروا أنهم عليهم يضحـكون، وبـفرارهم مـن وطنيـتهم يفرحـون ..." [1].

ثم هناك سبب آخر يعتبره خطيرًا هو تأثير المعارف المختلفة ذات التوجّه الغربي المادي المنافي للفكر الإسلامي وللقيم الحضارية الإسلامية، بسبب التلقي الدراسي في المؤسّسات الأجنبية داخل البلاد أو خارجه في أوروبا. ويقول [ ... هنا تعرف الضرر المحاق بالشبّان الشاردين بسبب ما تلقوه من المعلومات المباينة لمجرى الدين الجديد الدخيل على الإسلام الصحيح. هنا تدرك الخطر المهدد للإسلام. وتحس بتلك الحركة التي تدعو الأمة الإسلامية إلى مزالق الفناء ] [2].

أمّا العامل الآخر، والذي يراه سببا في تقليد الشباب لكلّ ما هو أوروبي ويصرّون على التواصل مع الأجانب ثم الاستهزاء بالمتخلّفين من جنسهم، واعتبارهم الدين الإسلامي دين التقهقر والتوّحش والجمود، فإنّ هذا العامل يكمن في مسؤولية التعليم بالدرجة الأولى. هذا القطاع الذي رآه مفكّرنا جدّ حيوي، كما سنرى في الجانب الاجتماعي، يبقى متناقضًا في طرق التدريس وفي برامجه. الدروس تتصارع في أذهان الشبيبة المتعلّمة. فالعلوم المسماة دينية (فقه، تفسير، توحيد، حديث) مع النحو والصرف والمعاني، يتم استقاؤها من مؤلّفات قديمة وعن أساتذة جامدين متعمّمين أو متفريتشين. أمّا العلوم الحديثة (ويسمّيها العمرانية) والمسمّاة بالعصرية ويتلّقاها على أساتذة أجانب، ومنها علم التاريخ، الذين يعرفون كيف يغزون عقول الشبيبة المسلمة وقلوبهم وتبليغ التاريخ بطريقة تمجّد أوروبا وحدها [3].

من هنا يتّضح لنا تكرار دعوته لتأسيس جمعيات ثقافية تربوية تتمتّع بالاستقلالية عن الإدارة الحكومية الاستعمارية، والتي يكون أحد أهدافها إنشاء المدارس المستقلّة.

---

[1] – بصحيفة (الأخبار) بتاريخ: 9 أكتوبر 1910.

[2] – صحيفة – الأخبار- بتا: 18 ديسمبر 1910.

[3] – أنظر صحيفة الأخبار – بتاريخ: 23 ديسمبر 1910.

أمّا تدريس التاريخ وتوظيفه من طرف هيئات التدريس ومن طرف رجالات الدعوة الإصلاحية والتنويرية، فيراه رهانًا فكريا وارتكازًا أخلاقيا لا يمكن الاستهانة له. لهذا نراه يتساءل مستفهمًا القائمين بهذه المهمّة، حول ضرورة معرفة الشبيبة المتعلّمة لما في الأمّة الإسلامية بحضارتها، فكتب: [ ... من يذكّرهم بالصواب ويعرّفهم بما كانت عليه الأمّة الإسلامية ذات المحاسن البهيّة في أيم الوصال. واحتباك الآمال ؟. لعل قلوبهم تلين حينما يلقّنون مجد أسلافهم. وعز أبائهم ويعرفون لجدودهم ذلك النفوذ العظيم، والفتح المبين، والتمدّن الزاهر، والحضارة البهية ...] [1].

كذلك فإنّ تنوير العقول بالبعد الأخلاقي الإنساني للإسلام، أو بما يسمّى بفلسفة القيم الأخلاقية الدينية والعملية، هو لبنة أخرى في هذا المجال، لأنّه كما قال حول هذه الفئة الاجتماعية [ لعلّهم يتحقّقون أنّ جميع مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، ودعة المعاملة، ورزانة الرأي، ورحمة الصغير، وتعظيم الكبير، والشفقة والقول الحق، والوعد والصدق، والإنسانية العالية ومراعاة الشرف والذمّة، وجميل الخصال على اختلاف أنواعها، مشتقّة من الإسلام.

من يدلّهم على فخامة ملّتهم واستقامة صراطها ووضوح حجتّها لعلهم يفقهون أنّ الطهارة والنظافة، والاستقامة في المعاملة ... وحفظ المال وحماية النفس، وصون العقل ... وإنصاف الضعيف، والنّهي عن – الكبر والفخر والبذخ والمكر... ونقض العهد والغيبة والكذب والخيانة ... والبغي والسرقة ... والفواحش ما ظهر منها وما بطن – من تشريع الإسلام.] [2].

وإنّ المرجعية الوطنية بمختلف معانيها السياسية تبقى جزءً من الخطاب الإصلاحي التنويري: [ من يذكّرهم بعظمة وطنية أبائهم وقوتها عساهم يعتبرون المساواة، والحرية، والشورى والدهاء في السياسة من أحكام الإسلام ...] [3].

إنّ هذا يعني، أنّ توجّهه التنويري هنا، يجمع ما بين النوعة الدينية، أي الروحية بالرجوع إلى الإسلام، والنزعة الوطنية. فبناء الراهن يتأتّى بتقويض كلّ أشكال الجهل وإعادة الثقة في النفس وفي الذات بعيدًا عن جاذبية الأجنبي وعن تقمّص مظاهره السلوكية الأنفة الذكر. لذا فاستخدام الوعظ والإرشاد، وإنّ اقتضى الأمر المتابعة التنويرية بالتدقيق، مع فئة التغريبيين حسب ملامح الفوضى الأخلاقية السائدة في البلاد يكون كافيًا في تعزيز النزعتين السالفتين.

[1] – المصدر نفسه بتاريخ: 9 أكتوبر 1910.

[2] – في المصدر السابق نفسه.

[3] – في المصدر نفسه.

فثمة حسب رأيه المنصف [ طائفة منهم أظهرت كفاءة عظيمة في الزعامة على الشعب لقاء المتسلّطين كطائفة طلاب المجد وحسن السمعة من سبيل غير مستقيم تقليدًا للأجانب الذين تفنّنوا في القومية اللادينية] [1].

وإذا كان الاتجاه الغالب في نقده للتقليد يصبّ في السياق الذي أوضحه تحليلنا سابقا، فإنّه وجدنا أيضا توجّهه التنويري في نقد لصورة أخلاقية أخرى تندرج في محاربة حالة الجمود الفكري المتصفة بانعدام الاجتهاد ومسايرة التقليد العلمي الديني الجاري التمسّك به في وسط علماء الدين. زيادة على هذا فهو يشير أيضا إلى سلوك التقليد لدى نخبة من الكتّاب المثقفّين في طريقة صياغة كتاباتهم ومؤلّفاتهم.

لقد انتقد منهجية التلقين الدراسي لدى علماء الدين في البيئة الجزائرية على الخصوص، وفي بعض البلاد الإسلامية على العموم[2]، ولم يكتف بهذا فقط وإنّما حتى إتّباع المصالح الذاتية، المادية خصوصًا، كانت محلّ نقده، لأنّ أفعالهم تبقى حاجزًا ما بين الإسلام والتقدّم، وحاجزًا أمام حرية الفكر. لهذا فهو يعدّ كتاباته موجّهة نحو [ أرواح سادتنا العلماء الميّتين الذين حرموا الاجتهاد. ودَهْوَروا الأمّة في مزالق التقليد واتخذوا الدين تجارة والعلم مصيدة. والذين أسسوا السدّ العظيم بين الإسلام والارتقاء بأفعالهم الخبيثة الصادرة عن هوى كامن في قلوبهم. والذين كانوا يأنفون من الإصغاء إلى الأفكار الحرّة ويعدّون أتباعها مروقا من الدين ...] [3].

ويمكن أن نعتبر نقده لنخبة علماء الدين والكتّاب، هو نقد للتقليد الفكري، الذي يعكس حسب رأيه جمودًا ذهنيًا لا يعكس تطوّر حاجيات الأمّة العصرية. يقول المفكر عمر بن قدور[4]: " ومن المؤلّفين والكتّاب من لا زال متمسّكا بطريقة مؤلّفي الإسلام الأقدمين في المباحث والتصانيف والشروح والحواشي وهو النموذج الذي أسقطته حاجيات الأمّة في هذا الأمّة في هذا العصر وقضت عليه. وإني لا أستطع أن أخفي التأثير السيّء الذي يتركه في ذهني كتاب على هذه الصورة لأنّه لا يخلو من تعقيد أو تقليد وما ذلك شأن الكتاب المفيد].

فعلى هذه النخبة المثقّفة أن تسعى للاتصاف بالنظرة النقدية المنصفة وبالفكر السليم الغيور على القيم الإنسانية، مع الشعور بحاجيات البشر أينما كانوا حتّى لا تقع في مسلك التقليد

---

(1) – أنظر صحيفة " الأخبار" بتاريخ: 6 سبتمبر 1912.

(2) - من خلال صحيفة " الأخبار " بتاريخ: 18 ديسمبر 1910.

(3) – صحيفة " الأخبار " بتاريخ: 05 فيفري 1911.

(4) – في المصدر نفسه.

للقدماء، ولا تتغالى في ذلك بحيث تمجّد الأذواق. ولا يعمّم مفكّرنا نقده على كل علماء الدين القدماء في طريقتهم التأليفية، فمنهم من ترك من المجلّدات ما لم يصل بعد إلى وعي واستيعاب الشبيبة العصرية المتعلّمة فهو يقول: [ ... رغما عن ذلك فإنّه نبغ بين علماء الدين من صنّف المجلّدات الضخمة التي لا محلّ لها في أفكار النشأة العصرية وابتعدت الأمّة عن النقطة التي تحتاج فيها إليها ...] [1].

من هنا جاء تأكيده من حيث معيار الواجب الأخلاقي نحو الإسلام، على ضرورة "تخليص التأليف من أدران التقليد " [2]. لأن في بعض الكتب الدينية العتيقة من فشي فيها داء التقليد الذي لا يتصوره العقل. وهو يرى أنه من [ سوء الحظ أن الأمر آل بعقول الناس إلى أن صارت تلك الكتب ملجئا لكثير من مؤلّفي صدر الإسلام فنقلوا وروووا عنها بلا احتياط وخصوصا غلاة المتصوّفة والوعّاظ ففي كتبهم كثير من الروايات والأقوال الخارقة للعادة في تطرّفها ] [3] .

وهكذا يعمّق مفهوم مسؤولية النخبة المثقّفة المساهمة في التنوير الإصلاحي، في ضرورة تمحيص الآراء والقضايا التي يعثرون عليها في مثل هذه المؤلفات الدينية وعدم اعتبارها من صميم اليقينات.

---

[1] – المصدر: صحيفة " الأخبار " بتاريخ: 12 فيفري 1911.

[2] – في المصدر نفسه: بتاريخ: 5 مارس 1911.

[3] – في المصدر نفسه.

## معايير القيم الأخلاقية ومصادرها:

إذا كان المفكر عمر بن قدور الجزائري قد اعتبر البديل الأخلاقي أحد مرتكزات بناء الحضارة الإنسانية على العموم، وأحد المكوّنات الإصلاحية التنويرية لتحقيق نهضة الأمّة الجزائرية والإسلامية، وبالتالي وأحد رهانات البقاء، أي بقاء الأمّة وعدم فنائها. فلأنّ البعد الأخلاقي لهذا المفكّر كان من أولوياته لخدمة الأمّة والوطن والمصلحة العامّة للإنسانية. خاصة وأنّ مفهومه للقيم المترتبة عن هذا البعد مرتبط بمفهوم السعادة الذي يتحقّق بفضل الالتزام والممارسة اليومية، الدينية والمدنية لروح مكارم الأخلاق. فالضمير المتشبّع بهذه الروح، هو في مسار اكتساب القيمة الإنسانية الحقة؛ خاصة إذا كانت الفضيلة معيارًا حقيقيا في تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان ومع الأكوان والعوالم المحيطة به.

## معايير القيم الأخلاقية:

إتّضح لنا من خلال محاولة استخراج أهم المعايير الأخلاقية التي تضمنتها الكتابات محلّ الدراسة، أن معيار الفضيلة والرذيلة شكّل بحكم التأكيد عليه من قبل مفكّرنا، عبر مقالات عدّة، في صحيفتي " الأخبار " و" الفاروق " على الخصوص، توجّها فكريًا أخلاقيا، مرتبطًا بوجود الإنسان وعلاقته بالفضاء البشري والكوني. من هنا فاعتباره لقصور عقل الإنسان في إدراكه للحقائق الكونية، بسبب اعتماده الكلّي عليه، ولّد فيه اعتقاد السيطرة على الطبيعة وتفكيره في مصالحه فقط، فكان هذا على حساب معيار الفضيلة، والذي أدّى به إلى تجاوز حدود العدالة والإنصاف [1]. فميله للرذيلة مهلكة له، وابتعاد عن مرتبة سامية له هي الكمال.

إنّ الأخلاقية لتضعف أمام قوى الرذيلة الداعية إلى الغرور والتجبّر والتسلّط في الأرض. فما دام الإنسان نابذًا للفضيلة فستستعصي عليه نواميس الكون، ويبقى هذا المعيار مهمّا لأنّه يرتبط مباشرة بالجانب الروحي أو العقائدي. كتب في هذا السياق "... ورذيلته هي التي تحضّه على ارتكاب ذلك الشطط أما لو (فجّت) عن تلك المخلّفات بمعول الفضيلة لكانت رغبته تخضع لناموس قصورها بجانب روحي، وعندئذ فما أيسر من لين الإنسان وما أعطف من ضميره ! ... وما دام الإنسان قاليا للفضيلة فما له في أقطار السماوات والأرض من منفذ إلى ما يخيّل له حرصه الشديد ..] [2] .

---

[1] – أنظر مقالة: " نحن والأكوان: أية من آيات قصور الإنسان " – الفاروق – بتاريخ: 22 أوت 1913.

[2] – صحيفة (الفاروق) 15 أوت 1913.

ويرى مفكّرنا إذن أنّه لو اعتمد الإنسان الفضيلة مقياسًا لسيرته الدينية والمدنية لأقترب من الحقيقة التي يراها في سمة الكمال. وبالتالي لو مزج ما بين الفضيلة وحرية الفكر لأدّى به إلى تهذيب أخلاقه ولتوصّل إلى حقائق أخلاقية اجتماعية تتّصل بالتسامح والمواساة والإحسان، التي هي قيم بذاتها [1].

إنّ تمسّك الإنسان بالقيم المادية للحياة، واستبعاده للجانب الروحي المؤثّر في القيم الأخلاقية، لا يمكّنه من تجسيد البناء الحضاري لأنّه يبقى معّرضًا لمخاطر الرذيلة بجميع أشكالها. يقول متابعًا في نفس التوجّه التنويري الإنساني المستند لهذا المعيار: [يسعى الإنسان في الأرض ويسير طوع قانون طبيعي لجسمه المادي وهو قانون حفظ الذات من أخطار العربات البخارية وعربات الكهرباء ومن جميع ما يدوس الإنسان ويلحق به الضرر من حيوان وجماد، فلو كان يسير في حياته الأخلاقية بالقانون الروحي الذي يتّقي به أخطار كلّ رذيلة في العالم لتسنّى له أن يملأ وعاءه فضلاً وكمالاً ولأنتقل إلى درجة من الحضارة أسمى من درجته الحالية وأتقى وأنقى وأبقى] [2].

وفي نصّ أخلاقي آخر تحت عنوان " شؤون وشجون "، كتب مستغربًا كون الجزائريين مكرّمين لأن الدين المحمّدي بينهم وحديث الرسول (صلى ا عليه وسلم) بين أيديهم، ومع ذلك فإن مخاطر الرذيلة تهدّد علاقاتهم الاجتماعية فيما بينهم، لأنّ معيار الفضيلة مفتقد، وهو الذي يضفي صفّة الجمال على القيم الأخلاقية. فقال متسائلاً وباحثا عن الفضيلة: " ... كنتُ ألتمس الفضيلة فحسبتها حِسا لامعا جميلا، ولكني أخطأت، لأنني أبصرتُ الوجوه لامعة جميلة، والصدور لامعة برّاقة، والثغور لامعة مبتسمة، إنّ الشأن غير ذلك !، إلتمستها تحت العمائم، فوجدت المكر والخديعة، إلتمستها خلف النياشين البرّاقة فلم أجد إلاّ مكمن الحقد والظغينة، فتّشت داخل الثغور المبتسمة فلم أعثر إلاّ على أداة القذف والثلب والغيبة والنميمة، فأين هي الفضيلة إذن ؟ أنشودتي الوحيدة كأنها معدومة !...] [3].

ولمسنا لدى مفكّرنا اعتباره لهذا المعيار الأخلاقي شرطا جوهريًا في النظر إلى القيم التي ينبغي أن يتمسك بها ويلتزم بها المفكرون والمصلحون في تحقيق النهوض والإصلاح. وليس أدلّ على ذلك كمّيًا من ذلك العنوان ذي الدلالة الاستنهاضية، وهو: " فضيلة الفضائل في

---

(1) – المصدر نفسه بتاريخ: 08 أوت 1913.

(2) – في المصدر نفسه.

(3) – ب،" شؤون وشجون" مقالة بصحيفة (الفاروق) بتاريخ/: 16 مارس 1914.

همّة المفكّر إذا اهتمّ بصالح الأمّة، نبهّوا هممكم " بحيث كان على رأس خمس مقالات صحافية متتالية عبر جريدة (الفاروق) [1].

وإذا كانت الوظيفة التنويرية للمفكّر قد أحاطها بحدود معيار فضيلة الهمّة، تحقيقا للنهضة الحقة التي يرومها العالم الإسلامي عمومًا، والأمّة الجزائرية المسلمة خصوصًا، فإنّ تحقيق البقاء والوجود إنّما يتحدّد لديه أيضا. بالنظر إلى معيار الفضيلة الأخلاقية ذات البعد السياسي.

وفعلاً وعبر مقال سياسي هام نشره سنة 1913 تحدّث المفكر عمر بن قدور الجزائري عن معيار الفضيلة من حيث اعتبارها رهانًا أخلاقيا سياسيًا في آن واحد، في سياق البحث عن الذات الوطنية وإيجادها. فتحت عنوان: " عبرة لا تنقطع: التصادم السياسي أو تيار المطامع في الشرق " تكرّرت مفردة الفضيلة 25 مرّةً [2]. وهذا متحدّثا عن مختلف القيم المرتبطة بعالم السياسة الدولية والتي يستند في تقديمها كنماذج قيم الهيمنة والسيطرة والاستعلاء في الأرض. أو كنماذج قيم رفض الظلم والطغيان، أو قيم القوة والعلم والإبداع والاختراع. لأنّه يرى أن للسياسة دروسًا أخلاقية نعرف بها اختلاف أخلاق البشر ونعرف أيضا مزية كل أمّة على الأخرى.ولأن السياسة بنت الفكر والأفكار في أدمغة رجال السياسة مختلفة ولها أساليب متعدّدة [3].

فالقيم المستخلصة من هذه الناحية كما يرى [ يتسنّى لنا بها معرفة حاجتنا إلى إيجاد حيّزنا في أحسن مقام وبث الفضيلة في قلوبنا لأنها عزيزة ونطلب حقيقة وجودنا بإصلاح أخلاقنا ...] [4] .

وجدناه يرفض اعتبار الاستعمار من خلال السيطرة على البلاد واستعباد العباد في عِداد معيار الفضيلة. ولأنّ فضيلة القوة للاستعلاء في الأرض والتجبّر منافيةٌ لعُرف الأديان، لأنّها في هذا السياق رذيلة [5] .

كما أظهر تحليلنا توجّها فكريًا أخلاقيًا يرتكز على معيار رئيسي، هو معيار الواجب والمسؤولية، الذي تنبني عليه دعوته التنويرية الإصلاحية في سياق منظومة القيم التي تم

---

[1] – صحيفة (الفاروق): الأعداد: 33، 34، 35، 36، 37 في شهري: أكتوبر ونوفمبر من سنة 1913.

[2] – مقالة: " عبرة لا تنقطع: التصادم السياسي أو تيار المطامع في الشرق " – الفاروق- بتاريخ: 11 جويلية 1913.

[3] – في المصدر نفسه.

[4] – في المصدر نفسه.

[5] – في صحيفة " الفاروق" بتاريخ: 18 جويلية 1913.

استخلاصها في دراستنا هذه. إنّ تأكيد المفكر عمر بن قدور الجزائري على السلوكيات والممارسة الأخلاقية بالوقوف عند النواهي وإتّباع الأوامر، يعكس أولاً البعد الأخلاقي لشخصيته العاملة في حقل المشروع النهضوي الجزائري على الخصوص، وفي حقل المشروع ذاته على المستوى العربي الإسلامي ويعكس أيضا تصوّره الفكري لمعيار الواجب والمسؤولية في علاقته بالجانب العملي والفعّال في مسار النخب الجزائرية التي خصّها في نصوصه الصحافية محلّ الدراسة هذه.

وكان ثمّة ثمانية عشر (18) مقالاً، وجدناه يؤكّد فيها هذا المعيار القيمي الذي يكشف فيه عن نزعته الروحية والإنسانية ورؤيته الأخلاقية المتفتّحة حقّا. فإذا كان قد أشار إلى أهمّية الواجب الأخلاقي من خلال استنكاره لممارسات لا أخلاقية في الساحة السياسية الجزائرية، تعكس طغيان المصالح الشخصية[1]، فإنّه ينطلق من قيمة الحق العظمى لخدمة الأمّة والوطن وخدمة المصلحة العامّة للإنسانية. فالآداب الإسلامية هي آداب إنسانية بالنسبة إليه، منها العدالة، حبّ الإنسانية، قوة التسامح، الكرامة، الحرية، الصالح العام، السلام. فالواجب الأخلاقي لا ينبغي فصله عن البيئة، التي تظهر تفاوت الأخلاق لدى البشر عمومًا.

يتحدّد معيار المسؤولية والواجب كما ذكرنا، من خلال مخاطبته على الخصوص للنخب المثقفة من الكتّاب والمفكّرين، ولنخبتي علماء الدين ورجال المال (الأغنياء). فلا يمكن أن تتحقق النهضة والخروج من التأخّر والانحطاط إذا لم تعي هذه النخب واجبها ومسؤوليتها. وتوصّلنا إلى أنّ مفكّرنا قرّر وجود ثلاثة ارتكازات أخلاقية لهذا المعيار. أوّلها الواجب نحو النوع البشري، ثانيا الواجب نحو الأمّة وثالثًا الواجب نحو الإسلام.

ويرى في ارتكاز الواجب نحو النوع البشري أن رسالة المفكّر، أو المثقّف لا تتوقّف عند حدود بلده أو أمّته، إنّها تشمل الإنسانية جمعاء. مع احترام المبادئ الإنسانية، كالمساواة، والقيم الخلقية المنافية للتعصّب الدينين والحضاري. فكتب قائلا: "... إنّ الكاتب لابد وأن يراعي فيما يكتب الواجب نحو النوع البشري إذا اقتحم الأمور العمومية التي تهمّ النوع المذكور. ويحترم المساوات (كذا) والآداب الإنسانية ويستعمل السياسة في طريقه ليتخلّص من الأوعار والمهاوي ... وخصوصا إذا كان مشتغلاً في تحضير كتاب أخلاقي عمراني أو يريد أن يصف أمم النوع البشري ويطّبق قوانين العمران عليها ..." [2].

---

[1] – أنظر مقالة: " دور الجنايات السياسية" بجريدة " الأخبار " بتاريخ: 18فيفري 1912.

[2] – في جريدة " الأخبار " بتاريخ: 19 فبراير 1911.

ثم انتقد مؤلّفين غربيين لتعصّبهم الذين أخطأوا في حق الإسلام كدين وفي حقّ شعوب إسلامية، بسبب افتقادهم لمعلومات صحيحة وإدخال معايير سياسية في مرجعياتهم، ومن هؤلاء " هانوتو" الذي كتب عن الإسلام و" اللورد كرومر " صاحب كتاب " مصر الحديثة " [1].

والواجب في هذا المستوى مرتبط بالإخلاص التام وبقوة التسامح، اللذان يساهمان في تحقيق التقارب فيما بين الأمم وتعميم السلام، يقول كاشفا عن هذه الرؤية الأصيلة والمتفتّحة بالرغم من وجوده في وضعية الإنسان المثقف المستعمّر، الخاضع للهيمنة الاستعمارية الفرنسية: " وظيفة الذي يريد أن يقدّم إلى النوع البشري حقيقة اكتشفها باجتهاده وابتكرها بفكره الإخلاص التام. كما يتحتّم على من يريد انتقاد أمّة أو ملّة أو حكومة أن يعين انتقاده بقوة التسامح ... إنّ المؤلّف لابد له أن يستعمل الوسائل الصالحة في بث بذور التقارب بين أمم النوع البشري نظرًا لارتباط مصالحها ومعاملاتها في هذا الوقت وسيادة السّلم على أطرافها ...].

أمّا الارتكاز الثاني فيراه في الواجب نحو الأمّة. ويرى أنّ كل أمّة من الأمم هي في حاجة إلى وجود مثقفين فاعلين، مؤلّفين يعرفون الواجبات الملقاة عليهم بإزائها، فيلتزمون بالواجب نحوها بالاحترام التام، ولا ينبغي عليهم رفضه أو الميل إلى مصالحهم وأغراضهم. ف[الكتّاب في الأمّة كالمصابيح يهتدي بنورهم الضال في الظلمات. ومن المسلم أنهم طبقات حسب معلوماتهم .... وأرفعهم من أخلص في العمل فأنتفعت منه أمـّته فـهو كالكـهرباء نور على نور ...] [2].

ويرى أن وظيفة المثقّف نحو الأمّة، تتمثّل في عملية التنوير التي يقوم بها مستعينا بآرائه العقلية النيّرة، التي تعطي دروسًا للشبيبة على الخصوص، وتغرس فيها قيم الشهامة، وترسم محددات خطّة حياة الأمّة، أي أمّة كانت، ولكن يؤكّد دعوته بالالتزام الأخلاقي الوظيفي والعملي إزاء الأمم المتخلّفة أو المنحطّة بتعبيره. ولهذا فمن الضروري الارتكاز على وجود الضمير كقيمة سامية، تعطي للمثقف التنويري والإصلاحي القوة لتلبية نداء هذه الأمم. كتب يقول[3]:

"... الأمّة تسأل كلّ كاتب في ضميره إن كان له ضمير أن يلقي عليها دروسا نافعة تشحذ أذهان نشأتها وتثقّف عقول شبيبتها وينشر من خزائن عقله من الآراء المفيدة عليها. ويبثّ فيها من

---

(1) – هانوتو: واللورد كرومر حاكم مصر:

(2) – بجريدة " الأخبار " بتاريخ: 28 فيفري 1911.

(3) – في المصدر نفسه.

بذور الشهامة بالآلات التي لا توجد عند غيره. وأن يخطّ لها خطّة الحياة ويرشدها إلى الطريق التي توصلها إلى السعادة والمقام الرفيع المجيد ...".

ثم يتساءل، منطلقا من الواقع الذي كان يعيشه، داخليا وخارجيا، هل يوجد رجل على هذه الصورة في أمّة من الأمم البشرية ؟ الجواب إيجابيا عند أمم الغرب وسلبيا عند أمم الشرق. ويقارن وجود هذا النموذج في المجتمع الغربي، الذي يحتلّ فيه مكانة معتبرة، حيث يتمّ الاحتفاء بالأفكار وبالكتب، بمختلف الوسائل، ومنها الجرائد الأوروبية، مع غياب ذلك في الأمم المتخلّفة، وفي واقع الأمم الشرقية المريضة بمرض الانحطاط.

ووجدنا مفكّرنا ينطلق من خصوصية فضائه العقائدي الإسلامي ليقرّر الالتزام بالواجب نحو الإسلام، الذي ينبغي على المثقف المسلم التمسّك به، لما يفكّر ويكتب ويؤلّف في هذا السياق [1]. ويحدّد الأسس العملية من خلال العناصر التالية، وهي تخليص التأليف من أدران التقليد. ويقدّم نقده للكتب الدينية العتيقة التي تحتوي على مواد تقليدية لا يتصوّرها العقل ممّا أوضحناه سابقا فيما يخصّ إشارته لكتب غلاة أهل التصوّف. ثم العمل على تجديد طريقة التأليف. والعنصر الثاني هو الاستناد إلى الكتاب والسنّة وإلقاء ما سواهما وهو أمر بديهي بالنسبة إليه. وسوف نعود إلى هذه النقطة لمّا نتحدّث ونحلّل مصادر القيم الأخلاقية. أما العنصر الثالث فيتمثل في تلخيص ما يكتبه المثقّف المسلم تلخيصا عصريا تقريبًا للعقول الحالية. وهذا بلا شك دعوة للتجديد الفكري واضحة المعالم، خاصّة وأنّه أشار إلى مختلف المسائل سواء كانت دينية أو علمية [2].

أما النقطة الرابعة وهي تطبيق المسائل الدينية على الموضوعات العصرية تطبيقا لا يجعل للشبهات الغريبة مجالاً. لأن حاجيات العصر تتطوّر وتتغيّر، خاصة وأن الحملة الأوروبية التي تشنها نخبة مثقفة هنالك على الإسلام شديدة، مع خطورة إنحراف أفكار الشبيبة الإسلامية الجديدة بسبب شبهات معيّنة. إذن فتكييف وتطبيق الأحكام الدينية حسب مقتضيات العصر ومنتجات المدنية والحضارة ضروري [3].

لاحظنا من خلال تتبّعنا لهذه الفكرة الأخلاقية لدى مفّكرنا ربطه إياها بالمسؤولية، وهذا عبر العديد من المقالات التي كتبها، والتي تصب في غائية استعادة الأمل لترقية الأمّة الجزائرية

---

[1] – بجريدة (الأخبار) بتاريخ: 05 مارس 1911.

[2] – المصدر نفسه بتاريخ: 12 مارس 1911.

[3] – في المصدر السابق نفسه.

على الخصوص وتحمّل للنخب المستهدفة من طرفه، كالمفكّرين، لمسؤوليتهم في الإصلاح الفعّال تحقيقًا للنهوض[1]. ففي مقال تحت عنوان " دان النهوض ولم يدنُ " نشره بصحيفته (الفاروق) يبيّن أنّه من الواجب على هذه النخبة التنبّه لتفكّك التماسك الداخلي ما بين أفراد الأمّة، والسعي عبر الالتزام بقيم التفاهم والتعاون إلى العمل الميداني الفعلي، كتب قائلا: [ ... أوّل شيء يجب على المفكّرين أن يلتهوا به لتلافي الخلل الفاحش الذي جعل لرابطة الأمّة هو الميل نحو التفاهم: مع بعض البعض ومع أعيان الأمّة ومَن عليهم عمدتها في أحوالها المادية ومع العلماء أرباب القديم ومع أصحاب الطرق والمقامات السامية في نظر العامّة ... إنّ التفاهم يوصل الإنسان إلى إدراك كان يحسبها عظيمة فإذا هي واهية ..] [2].

وكذا كانت حملته الفكرية التنويرية الموجّهة لهذه الفئة عبر سلسلة مقالات تحت عنوان: "مراحل الأمم ومراحلنا " في (الفاروق) [3]. حيث أكّد فيها مسؤولية العلماء في العمل التربوي، لإنقاذ الشعب الإسلامي، أي الجزائري من السقوط، لهذا دعاهم لترك التخاذل والانخراط في العمل الميداني الفعّال، إلى جانب فئة الأغنياء المترتب عليهم واجب المساعدة الحيوية بالمال في تجسيد المشاريع والمؤسسات الإصلاحية. وكانت طريقة صياغته لهذه المقالات، تتميّز بمقدمة تنبيهية نقدية يوجز فيها فكرة كلّ مقالٍ على حدة. فها هو يكتب: [ لنذكّر العلماء والأغنياء بالمسؤولية الواقعة عليهم من حيثية جمودهم فالأمّة في حاجة إلى نهوضهم لإرشادها ] [4].

وفي مقالٍ آخر من هذه السلسة يكتب أيضا: [ لنطالب المفكّرين بالواجب المفروض عليهم نحو إرشاد الأمّة ونذكّرهم بلزوم القيام بالتعارف مع بعضهم البعض والتعاون على البرّ والتقوى، أين هم المفكرون ؟] [5].

وما لفت انتباهنا أثناء التحليل، هو ذلك الثبات الفكري الذي يتأكّد لنا بالنسبة لمفكّرنا، وهذا يعكس على حسب رأينا، موقفا أخلاقيًا فعليًا، ومنطلقًا عمليا إصلاحيا مرتبطًا بالدرجة الأولى بالواقع الجزائري إبّان تلك الفترة الاستعمارية. وحتى بعد نهاية الحرب العالمية الأولى،

---

(1) – أنظر مقالة: " ما بعد المزعجات الزواجر ..." –بالفاروق- بتا: 20 جوان 1913.

(2) – صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 04 يوليو 1913.

(3) – في الأعداد: 29، 30، 31، 32 من سنة 1913.

(4) – أنظر صحيفة " الفاروق" مقالة: بين المسالك والمهالك – مراحل الأمم ومراحلنا بتاريخ: 12 سبتمبر 1913.

(5) – أنظر الصحيفة نفسها بتاريخ: 26 سبتمبر 1913.

وجدناه عبر صفحات " جريدة الصدّيق "[1] أو جريدة " الإقدام " [2] التي شارك في تحريرها أيام الأمير خالد، نفس ذلك الانشغال بمأساة التخلّف الاجتماعي والأخلاقي.

## مصادر القيم الأخلاقية ومرجعيتها:

سمح توظيف عنصر الأطر المرجعية المستمدّ من منهج تحليل الخطاب، بكشفنا للإحالات النصية التي تتضمن الارتكاز المرجعي للقيم الأخلاقية التي تؤكّد عليها مفكّرنا عمر بن قدور الجزائري عبر العديد من مقالاته الصحافية التي كانت محلّ تحليلنا. وبالفعل فإنّ مقالات ونصوص كتبها في صحف " الأخبار " و"الفاروق " و"الصديق " وفي " الفاروق " المحلّية وفي " الإقدام " وحتى المقالات التي نشرها في صحيفة " وادي ميزاب " والتي نعتقد على حسب ما توصّلنا إليه، أنّها آخر ما كتب ونشر في الصحافة، ساعدتنا في تحديد إحالات نصّية نعتبرها تصبّ في توجّه تنويري يعتبر الإسلام مصدرًا مرجعيا لهذه القيم وبالتالي يؤكّد ما ذهبنا إليه من التداخل الموجود فيما بين الجانب العقائدي من فكره والجانب الأخلاقي.

وإذا كان الإسلام هو المصدر الإلزامي الأخلاقي، فهو ينعكس من خلال مرجعيتين: مرجعية القرآن ومرجعية السنّة النّبوية. إنّ القيم الأخلاقية التي يقرّرها مفكّرنا مستوحاة من الإسلام. وحينما كان ينتقد سلوكيات الفئة التغريبية (المتفرنجة) في الجزائر، كان يرى علاجها وخلاصها الأخلاقي في الرجوع إلى الإسلام ومدنيته، حتى تنخرط في مسار المساهمة الفعّالة في الارتقاء والتقدّم [3].

وما يكتب في نصّ آخر[4]، أن جميع مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، ودعة المعاملة، ورزانة الرأي، ورحمة الصغير وتعظيم الكبير، والشفقة وقول الحق، والوعد الصدق والإنسانية العالية، ومراعاة الشرف والذمّة، وجميل الخصال على اختلاف أنواعها مشتقة من الإسلام، الذي حارب القيم الفاسدة من الأخلاق، فرأى أنّ [ ... إقامة الحدود، وحفظ المال، وحماية النفس وصون العقل ... وإقامة الشعائر، وإنصاف الضعيف، والنهي عن الكبر والفخر والبذخ والمكر والغدر والخديعة ونقض العهد والغيبة والنميمة والكذب والخيانة والفجور والبغي والسرقة

---

[1] – أنظر افتتاحية (الصدّيق) العدد: 1 بتاريخ: 12 أوت 1920.

[2] – بمقالة: المنبر العام: شعور أبناء الجزائر – صحيفة الإقدام: 26 أوت 1921.

[3] – أنظر مقالة: " درس متين للمتفرنجين " –الأخبار- بتاريخ: 13 ماي 1910.

[4] – الصحيفة نفسها: بتاريخ: 09 أكتوبر 1910.

والأيمان الحانثة وشهادة الزور والسرف والفواحش ما ظهـر منها ومـا بطـن – مـن تشـريع الإسلام ] [1].

واعتبر أيضا قيم الوطنية، والمساواة والحرية، والشورى والدهاء في السياسة هي من أحكام الإسلام، من هنا كما سنرى في الجانب الفكري السياسي، كيف اعتبر مرجعية القيم الأخلاقية الإسلامية للشعب الجزائري منافية للتيار الداعي إلى الاندماج السياسي والتجنّـس بالجنسية الفرنسية إبّان الفترة الاستعمارية. اعتبر أن روح مكارم الأخلاق هي " الإنسانيـة الحقّة"، وهي روح الإسلام الحقّة هي روح الإيمان الحقيقي با وبرسله، وهي التي تحضّ على إقامة المعروف ومحو المنكر وتدوس أعناق الجبابرة، وتعمل على تعزيز المدافعين عن الحق، وهذا وفق ما هو منصوص عليه في القرآن المنزّل على خير المرسلين [2].

وفي مقال تحت عنوان " بعد فشل المقاومة "[3] في سلسلة نصوصه الفكرية العقائدية رأى أن انحراف المسلمين عن روح العقيدة بسبب مسألة الخلافة التي كانت شورى بينهم، أدى إلى ظهور روح التعصّب المنافية للقيم الأخلاقية التي تم تشريعها في المصدر المقدّس، القرآن وهكذا كتب: [ ... ما تعصّب فيها (أي مسألة الخلافة) إلاّ من لم يفهم مغزى تشريع القرآن وجهل قيمة هذا التشريع وسماحته الداعيتينْ إلى حرية الضمير وحرية القول مع عدم الحياد عن دائرة الائتلاف والتضامن ...].

وإذا كان القرآن هو أصل نهضة العرب والإسلام وقوام رقّيهم[4]، فإنّ المسلمين المعاصرين قادرين على خوض غمار العمل والتفاهم والتعاون فيما بين نخبهم المثقّفة لاستعادة الأمل في الترقي والنهضة. ويشكّل الكتاب الكريم والسنّة النبوية مرجعيةً لا محيص عنها في هذا المنحى، وعليها تقاس القيم الخلقية. كتب في مقال تحت عنوان " دان النهوض ولم يدنُ" في العدد (19) من صحيفة (الفاروق): [ ... إذا انثلمت الهيأة الإسلامية فما ذاك إلا انثلام النفوس وأخلاقها وإلاّ فإنّ الدين لا زال جديدًا كما جاء لا تبليه الجديدان. فأنظروا إلى الكتاب والسنّة وارجعوا إليهما ففيهما ما أنتم فيه تختصمون فإن رغبتم عنهما فقد رغبتم عن ربح عظيم وفتحتم على الأجيال القادمة أبواب الشرور كما فتحتها الأجيال الغابرة عليكم، إن أرواح ذلك الركب

---

(1) – في المصدر السابق نفسه.

(2) – في مقالة: " بأي روح نمتزج ؟ " روح الإسلام " صحيفة " الصدّيق " بتاريخ: 30 أوت 1920.

(3) – مقالة : " بعد فشل المقاومة "- صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 20 جويلية 1914.

(4) – صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 15 جوان 1914.

القادم في طريق الغيب تناشدكم أن لا تعدّوا لها في طريقها إلاّ ما طاب وصلح من الأخلاق وألاّ تعلّموها الخبائث وتوقعوها في الكوارث ... بل أودعوهم حبّ التعاون والتضافر] [1].

وإذا أخذنا على سبيل المثال قيمة التعارف والتي أشرنا إليها آنفا، فإننا وجدناه يعتبرها محورية في العمل الإصلاحي وفي تأليف هيئة عملية تتمتّع بقوة أخلاقية، خاصة وأن مصدره منصوص عليه في القرآن، فيقول مخاطبًا فئة المفكّرين: [ إنّ جوهر التعارف جوهر شريف، وأصله منبعث من أعماق الذكر الحكيم، وهو أكمل التعاليم التي جاء بها للبشر، وأتمّها موادًا وأوفاها وزنًا وحكمًا وقد أنيطت مواده بأدمغة وعقول ومدارك الذين يعرفون قيمة الوجود حق المعرفة ويقدّرون صلاحيات الحياة العامّة حقّ قدرها ...] [2].

ومن الآيـات التي استند إليها في هذا السياق القيمـي قولـه تعالـى: " إنّما المؤمنون إخوة " [3]. وحديث الرسول (صلى ا عليه وسلم): " المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعض " [4].

وفي مقال آخر تحت عنوان: " بين المسالك والمهالك: مراحل الأمم مراحلنا " ثمة فكرةً متّصلة بالقيمة المرجعية للقرآن، حينما يستنكر جمود علماء الدين وعدم تلبيتهم داعي ا الذي يناديهم كلّما تصفّحوا كتابه الكريم بوجوب القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإدعائهم الزعامة على الشعب. لأنّ مصادر السلوك والممارسة الأخلاقية بالوقوف عند النواهي وإتباع الأوامر مبثوثة فيه. وممّا جاء في هذا المقال: [ ها نحن قد أصبحنا نقطع مراحل الجاهلين الجامدين في دولة العالمين العاملين، ونحن نقرأ الكتاب الذي يأمر بالتي هي أحسن، فهل لتلك المدارك التي تدّعي الزعامة عليه من قدرة على القيام بأوامره ونواهيه ؟].

ويرى المفكّر عمر بن قدور الجزائري بأنّ الاستناد إلى مصدريّ الكتاب والسنّة بالنسبة للكتّاب والمفكّرين المسلمين التنويريين أمر بديهي، لأن [ الكتاب والسنّة لا تختّص أحكامهما بقرن دون قرن أو بدور دون دور بل هما مع تقلّبات الدهر تجري أحكامهما التي لا مردّ لها.

---

[1] – من مقال له: " دان النهوض ولم يدن " –الفاروق – بتاريخ: 04 جويلية 1913.

[2] – بصحيفة " الفاروق "- افتتاحية العدد 69 بتاريخ: 13 جويلية 1914.

[3] – الآية: 10 من سورة الحجرات.

[4] – الحديث متفق عليه عن أبي موسى الأشعري. بدون زيادة كلمة المرصوص.

من مقالة: " بين المسالك والمهالك .." بالفاروق: بتا: 12 سبتمبر 1913. وقد ورد في افتتاحية (الفاروق): 6 جويلية 1914.

وحسبك بكتاب " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد " وسنّة رسول لا ينطق عن الهوى ولو اجتمعت الإنس والجن وبلغاء العالم وحقوقيوا أوروبا وفلاسفة البلاد المتمدنة على وضع قانونين يشملان المصالح البشرية شمولهما وينفذان في كلّ وقت نفوذهما لما استطاعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ..] [1].

ثمّ أ العمل الإصلاحي التنويري للقضاء على المفاسد الأخلاقية والمناكر الاجتماعية والعادات القبيحة التي تؤدي كلّها إلى ما سمّاه بالفوضى الأخلاقية، يستند إلى التربية الدينية التي تستقي قيمها الأخلاقية من " التشريع المحمّدي ". ونلاحظ كيف أن مفكّرنا يستعمل مفردات عدّة للدلالة على القرآن، منها: الذكر الحكيم، الكتاب الكريم، التنزيل. والنّص التالي يستخدم عبارة التشريع المحمّدي دالاً عليه أيضا حيث يقول:[ إنّه ليجدر بنا أن ننظر إلى التشريع المحمّدي نظر المشغوف بالتطهر من الأدران إلى مسيل الماء الطاهر الزلال، لنرجع إلى العمل بمقتضى ذلك التشريع عن فهم جيّد واعتناء خالص، وما كان للمتعلّمين أن يتظاهروا بإسم الدين المحمدي وهم يلطّخونه بكلّ خزي، بالقول والعمل وإن كان أكثرهم من الجاهلين بقيمته وفصيلته ...] [2].

وكان يقصد بانتقاده هذا فئة من علماء الدين، الذين لم يتشبعوا بحقيقة القيم التي أقرّها الإسلام، فأضلّت العامّة بعلمها فظهر منها من أساد إلى الأمّة والدين معًا لجهلهم حقيقة مكارم الأخلاق الإسلامية.

وتحت عنوان دال: " كوارث الفوضى الدينية والأخلاقية: الإرشاد مطلوب والرشد لا يثوب "[3] كتب مفكّرنا متابعا مساره الفكري في (الفاروق) السلسة الثانية في العدد (12) مؤكّدًا مرةً أخرى وفي نص واضح، على أهميّة مصدريّ القرآن والسنّة النبوية.

فرأى أن معالم الأوامر والنواهي المحدّدة لقيم أخلاقية ما إنّما هي مبثوثة في الشريعة. والمخالفة لها معناه إضمحلال للسلوك الأخلاقي وتلاشي القيم الحسنة وفساد السيرة. وهذا له إنعكاس وتأثير على الآخرين. فالمخالف للشريعة بسلوكه [ تنبت منه ناشئة تسير بسيرته وتسلك مسلكه فيضيع مقصود الشارع من ترقية الأخلاق وتهذيب النفوس ...] [4].

---

[1] – بجريدة " الأخبار " بتاريخ: 03/12 / 1911.

[2] – من مقال له بعنوان: " سوانح رحلة " بالأخبار تاريخ: 23 نوفمبر 1913.

[3] " الفاروق " العدد 12- السلسلة الثانية بتاريخ: 8 جانفي 1921.

[4] – من مقالة: " الإرشاد مطلوب والرشد لا يثوب "" في المصدر السابق نفسه.

فالمخالف لما هو مشرّع في الذكر الحكيم من عبادات وأحكام وآداب ومحاسن أخلاق، إنّما اتّصف بهذا السلوك لنسيان ذكر ا . أي نسي ذكره المحتوي على القيام بأوامره ونواهيه فأنساه وآخرين مصالح أنفسهم من القيم الأخلاقية (الآداب ومحاسن الأخلاق) وعاقبهم بالخذلان في جميع المرافق الخيرية في الدنيا والآخرة، وهذا التفسير الأخلاقي متّصل بقوله تعالى: " نسوا ا فأنساهم أنفسهم "[1].

فالتمسّك بالشريعة هو تمسّك بالقرآن، مصدر القيم الأخلاقية الحقّة، والصورة الواضحة للقدوة الأخلاقية المثلى التي هو الرسول محمّد (صلى ا عليه وسلم)، والمصدر الثاني إذن لهذه القيم كتب عمر بن قدور قائلاً[2]: [ الأخذ بالشريعة أو بعبارة أوضح الأخذ بالقرآن والقيام به هما نفس الذكر من نص الأمر المقدّس: " فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ". ومنه الجواب عن خلق سيد البشر: " كان خلقه القرآن " أي كان قائما بمحاسن الأخلاق المبثوثة في القرآن، فكان عليه الصلاة والسلام روح الكتاب بما انبثّ فيه من سر السّير على مقتضى ناموسه في الأمر والنهي بكافة الحركات والسكنات ولذلك قام في وسط جاهلي يقاوم الأوّلين والآخرين فقام بمكارم الأخلاق الدينية ...].

---

(1) – وهي الآية: 19 من سورة الحشر.

(2) – في (الفاروق) (السلسة الثانية) بتاريخ: 8 جانفي 1921.

## المبحث الثالث: مقوّمات فكرية للبعد الاجتماعي

نتناول في هذا المبحث عناصر فكرية "ذات البعد الاجتماعي التي تشكّل تصوريّا وعلميا في المشروع الإصلاحي والتربوي للمفكر عمر قدور الجزائري. حيث كشفت دراستنا التحليلية للإنتاج الصافي له، وعبر مختلف العناوين الإعلامية المتناولة عن وجود مرتكزات موضوعاتية أمكننا تصنيفها في النقاط الفكرية التالية وهي: الدعوة إلى العلم والتعليم، والتنظيم كعنصر هيكلي للإصلاح والتنوير، وأهمية وسائل الاتصال ورموزه الثقافية، دور المؤسسات الدينية (الأوقاف + المساجد).

- **الدعوة إلى العلم والتعليم**:

على مدى عشرات من المقالات الصحافية، تتركز مفردات وعبارات يستخدمها مفكّرنا وينظّمها ليقدّم توصيفه للحالة الاجتماعية والفوضى الأخلاقية التي كانت سائدة في الفترة التي ينشط فيها إعلاميا عبر مختلف المنابر الصحفية، ولمّا نستعيد مفردات على شاكلة: الانحطاط، السقوط، التقهقر، التأخّر، الخمود، الجمود، الاستعباد، الشقاء، الفناء، الشعب الشقيّ، أمّة أمّية، سوق الشعور، التلاشي، والاضمحلال،... فإنّها قد تتردد في المقال الواحد، الذي يدور موضوعه حول قضية العلم والتعليم، وقد تتردد في مقالات صحفية أخرى، يكون فيها مرتكز قيمة هذه القضية الإصلاحية أحد المكوّنات الموضوعاتية للنّص الصحفي.

لكن لاحظنا بصفة خاصة، خلال تحليلنا لهذا الجانب من فكره التنويري، كيف يتعدّد توظيفه لكلمة الجهل بشكل ملفّ لنظر الباحث، مع استخدامه، كما سلف وأنّ أشرنا إليه آنفا إلى مختلف المفردات المشتقة من هذه الكلمة.[1]

وهذا في الواقع يعكس قناعته الفكرية، التي ترى في الجهل مفهوماً مرضياً لحالة اجتماعية وأخلاقية تمس مختلف فئات الشعب الجزائري: فئة أطفال الشعب، بنيناً وبناتاً، مؤسسة الأسرة، خاصة الأولياء (الآباء والأمّهات). فإذا كانت الفوضى الأخلاقية، تتمظهر في سلوكيات منحرفة وسلبية، فإنّما هي تعبّر في رأيه عن ملمح من ملامح الانحطاط والتّأخر التي عليها

---

[1] - أنظر: مبحث: توصيف الحالة الاجتماعية و"الفوضى الأخلاقية" من هذه الدراسة.

الشعب، والناتج أساسا عن ذاك الجهل. فمثلا يكتب قائلا: [... ما أفظع مصائب الجهل وما أجهل المسلمين بالعار الذي أحاط بهم من فضيحة شتم الدين...] [1].

وفي نص آخر كتبه قبل هذا، في وقت مبكر سنة 1907 اعتبر الجهالة أحد أسباب الداعية إلى فناء الشعوب:[ ...لم يروى (كذا) لنا التاريخ في مابين صفحاته أنّ شعباً بتمامه حبر على ضير الجهالة الشنيع واختار بيوت السكوت والخنوع و(التيه) في سبات الكسل مسكنا ثم أدّاه ذاك الصراط المعوّج إلى حياة ونعيم ... الشعب بوسائل الحياة ينال حياة دايمة ( كذا) بلا فناء ولا انقراض...] [2]. فالحياة المطلوبة بالنسبة للشعب هي حياة العلم والتمدّن.

وإذا كان مفكرنا واعياً بحالة التّأخر والتخلّف الخاصة بالمسلمين الجزائريين إبّان تلك الفترة، فإنّه رأى في مسؤولية مؤسسة الأسرة، ضرورةً اجتماعية للقيام بما هو في استطاعتها القيام به في الجانب التربوي والتعليمي. فلقد أكّد أنّ أحد أسباب شقاء أطفال الشعب الجزائري هو جهالة الأولياء الذين يقدّمون تربية فاسدة لهم. من هنا نتفهّم حدّة نقده حينما اعتبر سيطرة داء الجهل يجعل مستقبل الأطفال مظلماً فكتب: [...البنات والبنون كلّهم عرضة لهذا الويل الشديد المقبل عليهم والمقبلون عليه يُخشى عليهم منه، لأنّهم جاهلون أبناء جاهلين،وأشقياء خرجوا من أشقياء وأغبياء أنجبهم الأغبياء...] [3].

وإذا كان يحمل علماء الدين مسؤوليتهم كذالك إزاء مختلف المظاهر الاجتماعية والأخلاقية لتقصيرهم في وظيفتهم الإرشادية فإنّه وكما رأينا يؤكّد على خطورة افتقاد الوسط الإسلامي الجزائري لفضاءات التواصل الاجتماعي لجهل النخب المختلفة المثقفة والدينية لأهمية وجود هياكل تنظيمية، ويقصد بها الجمعيات الثقافية التربوية القادرة على الإسهام في المشروع النهضوي.

لكن المفكر عمر بن قدور الجزائري أيضاً يعيش في بلد مستعمر ومحتل، فالجزائر واقعة تحت قوة استعمارية هي فرنسا، مكن هنا فإننّا وجدنا في كتاباته نقداً للسياسة الاستعمارية التّي أخلّت بوضعية التعليم، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، في سياق تطرقنا لمرحلة مهمّة من مساره

(1) في صحيفة "الأخبار"، بتاريخ: 9 نوفمبر 1913، (المصدر السابق).

(2) في مقال عنوانه: [ ما ننشد إلا حقوقنا: الحياة: الحياة]، صحيفة "الهلال"، 1 جانفي 1907.

(3) في صحيفة "الفاروق"، بتاريخ 19 ديسمبر 1913.

الإصلاحي التنويري،ة العاكسة لنشاطه التعليمي هو بالذات. مع ذلك فمن اللاّزم أن نذكر به وقفه من استيلاء الإدارة الاستعمارية على مؤسسة دينية هي الأوقاف الجزائرية، نظراً للمكانة الاجتماعية والوظيفية لها في مجال التعليم بالجزائر. فكانت نتيجة الاستيلاء هذا كما قرّر في مقالاته التي نشرها في جريدة "الحقيقة" التونسية سنة 1907، هو تلاشي التدريس، في المساجد والكتاتيب، مع شعور الوظائف الدينية. فلقد تحدّث عن [فقدان العلم الشريف وعدم وجود العلماء الأعلام الذين يقومون بشعائر الدّين]، ثم قال[ودروس العلم مهملة متروكة مع أن لسان حالها الذي لأجرة الشهرية وقد يوجد الآن في مدينة الجزائر بمفردها عدّة وظائف دينية خالية قد مضت عليها الأيّام وهي في زوايا النسيان...] [1].

وانتقد أيضاً عدم تعميم التعليم على أبناء الجزائريين في الوقت الذي سعى فيه المعمّرون الأجانب الذين كانت لهم امتيازات عديدة إلى تجهيل الشعب بالإبقاء على أمّيته وعدم تشجيع المبادرات التربوية [2]. وأكثر ما كان يؤلمه حقّاً هو عدم استفادة أبناء الشعب من الفقراء من التعليم ولهذا كانت دعوته ثابتة على مدار سنوات، كثيراً ما انعكست في نصوصه الصحفية، تؤكد وجود الاتّهام بهذه الفئة على الخصوص، مع عدم قدرت أو إدارة المنظومة التعليمية الاستعمارية استيعابها، من هنا ألّح قائلاً:[... دعت الضرورة إلى التعليم. وليس هو دائما بالشأن السهل الذي يستطيعه كلّ إنسان. بل يحتاج إلى مدارس ومعلّمين ونظام وأدوات وأموال ذات بال. لقد امتلأت مدارس الدولة، وبقي السواد الأعظم من الأطفال المسلمين بلا تعليم أي بلا حياة في الحقيقة ولا استعداد لقبول الحياة. فوجب على مجموع الأفراد الشعب بداعي الضرورة وجوباً عينياً أن يقوموا ببذل وسعهم في إحياء هذه الأعضاء الميّتة...] [3].

وإذا كانت المنظومة التعليمية لا تستوعب غالبية أبناء الشعب الجزائري، فإنّه وجد حلاً يخدم مستقبلهم وأمل الأمة فيهم، باعتبارهم رجال الغد كما قال. ويمثل في انتقاد هذه الإدارة المهيمنة لعدم سماحها فتح مدارس حرّة ومستقلّة عنها [4]. بحيث أصبح مطلباً إصلاحياً وسياسياً

---

(1) في جريدة "الحقيقة"، (التونسية)، بتاريخ 28 أوت 1907.

(2) في مقاله:"العويصة الكبرى: سياسة فرنسا في شمال إفريقيا"، بالفاروق، 9 يناير 1914.

(3) في صحيفة "التّقدم"، (الجزائرية)، 1 جانفي 1924.

(4) من مقاله: "طور جديد للجزائر والجزائريين"، الفروق، بتاريخ: 20 فيفري 1914.

ثابتاً لديه كما نرى. وكان مدركاً أيضاً للتأثير السياسي والديني للمؤسسة المدرسية الاستعمارية باعتبارها قد تخدم الأهداف المتّصلة بالتجنيس والتنوين. وكان المقال الصحفي الذي رجّحنا ترجمته له ونشره بصحيفة "اللواء" المصرية سنة 1906 يعكس هذا الانشغال [1].

إن وضعية التعليم المتأخر والحالة الاجتماعية العامة للشعب الجزائري من انتشار للفقر وفوضى الأخلاق وفقدان حرية الفكر جعلته يعتبره أحطّ الشعوب الإسلامية. من هنا جاء انتقاده للصحافة العربية، شرقاً وغرباً، المصرية والتونسية خصوصاً، لتقديمها نظرة سطحية متجاهلةً مأساة الشعب الجزائرية الحقيقية. خاصة تلك تزعم حسب رأيه وجود نهضة في الجزائر. كتب في مقال تحت عنوان "حبّذا الأحلام لو حقّقت" بصحيفة "الأخبار"، التي كان يرأس آنذاك، قسمها العربي :"نعم ! حبذا تلك الكلمات المزركشة عن النهضة الجزائرية المزعومة في الصحف، وحبّذا تلك الأقوال المرقومة بخيوط ذهبية عن الارتقاء (الخيالي) الحاصل في وطننا العزيز (الدليل في الحقيقة) لو كانت تترجم عن حقيقة خاضعة وأمور واقعة. لقد تعالى القوم (لو أعني إخواني الصحافيين في وصف تقدمنا ونهضتنا منذ زمان طويل وما أدراهم لو رمقنا بعيون مرسلة وأبصار محرّرة من التحيّز والميل فأبصروا الأحوال التي أفاضوا في وصفها. فهناك يتحقّقوا أنهم ما بجّلوا تقدّما بل بجّلوا تأخراً وما عظموا نهضة بل عظموا خمولاً..."[2].

إن هذا النقد الواقعي يساعدنا في فهم توجّه التنويري في سياق مشروعه النهضوي في الجزائر. هذا التوجه الذي يستنه إلى مكون رئيسي يضاف إلى الارتكازات الأخرى المتناولة في البعد الفكري العقائدي وفي البعد الأخلاقي، والمقصود بهذا المكوّن هو عنصر العلم والتعليم، الذي كشفت لنا الدراسة التحليلية هذه، بأنّه فعلا يمكن اعتباره أساسيا لقيام النهضة الإصلاحية.

ويكفي أنه وجدنا حوالي 52 نصّاً صحفياً، شكلت هذه الفئة الفكرية –الخاصة بالعلم والتعليم- حضوراً ملفتاً.بحيث وجدناها فئة فكرية متضمنة في نصّ صحافي، تناول فيه عناصر أخرى ذات صلة بمشروعه الفكري، أو قد تكون في نصوص أخرى، هي المحور الرئيسي أو الموضوع الجوهري.

---

[1] "المسلمون في الجزائر"، -05- جريدة "اللواء"، بتاريخ 18 أفريل 1914، مصدر سابق.

[2] من مقاله: "حبّذا الأحلام لو صحّت"، -الأخبار- بتاريخ: 18 فبراير 1911.

ويمكن أن نشير إلى وجود 19 نصّاً منها يحمل عنوانا يتضمن مفردة ذات صلة بهذه الفئة الفكرية، وعلى سبيل المثال لدينا العناوين التالية من مختلف الصحف وهي:"صوت العلم"، "الحركة الأدبية بين التعليم والتمثيل"، في صحيفة "الأخبار" لسنة 1908. "أفكار حول الكتابة العربية"، "نتيجة العلم: هي الشعور بالجهل المطبق" في صحيفة "الأخبار"، من سنة 1911، ثم عناوين من صحيفة (الفاروق) "ساعدوا على العلم"، التي تكرّرت أربع مرّات في شهري جويلية وأوت من سنة 1913. ثم لدينا العنوان ذي الدلالة الاجتماعية والحضارية الواضحة وهي:" نحو المستقبل هل من نهضة إلى التقدّم بالتعليم".[1] ولدينا أيضاً عنوان:"في سبيل التعليم"، لسنة 1913 وعنوان "الإنسانية والهمجية والعلم والحرب" في سنة 1914، أي بدايات الحرب العالمية الأولى.

بعد نهاية هذه الحرب، واصل مفكرنا الكتابة التنويرية والإستنهاضية في هذا السياق، حيث يمكن أن تقدّم العناوين التالية كنماذج لهذا الانشغال بهذه القضية المصرية فعلاً بالنّسبة إليه. فهناك عنوان:"التعليم والاقتصاد" في عددين من صحيفة (الصديق) سنة 1920، و"لأجل التعليم" وثلاثة نصوص متتابعة تحت عنوان واحد هو "التعليم"، وعنوان محي على العلم: العلم حياة والجهل ممات" وهذا على صفات جريدة "التقدم" الجزائرية سنوات 1923، 1924، 1925، وعنوان "العبرة والعبرة: الاسترشاد بالعلم والاستقلال"[2]. ووجدنا نصوصا أخرى، حتى وإن كانت لا تحمل عنواناً مباشراً يتضمن مفردة دالة على هذه الفئة الشعرية، إلاّ أنّنا وجدناها في الواقع، بعد القراءة والتحليل، تتضمن هذه الفئة كموضوع رئيسي أو جزئي في التناول. على سبيل المثال:" ما هي الوسيلة النافعة"، بجريدة الأخبار (1908)، "إن النهوض ولم يدن"، "كوارث الفوضى الدينية والأخلاقية، بجهل المرأة المسلمة وأحلامها الفاسدة، نال الشعب من كوارث البدع ما ناله"، "نحو المستقبل"[3]، "انهضوا يا قومي نهضة"[4]، "نحو النهوض"، "عبر

---

(1) في صحيفة (الفاروق)، ليوم 19 ديسمبر 1913.

(2) في صحيفة وادي ميزاب، بتاريخ: 8 جويلية 1927.

(3) في جريدة (فاروق)، من سنة 1913.

(4) في المصدر نفسه، من سنة 1914.

وحكم نحن وهم"، "كوارث الفوضى الدينية والأخلاقية"[1]، "المنبر العالم: شعور أبناء الجزائر"، نحو المستقبل"، "متى نفقه"[2]، "نفثة صدور"، "أفما تتألمون"، "الإنسانية تدعو فهل من مجيب"[3]، " العبرة والعبرة"، "الإرشاد"، "الإرشاد أيضاً"، "الاسترشاد"[4].

إن هذه النصوص الصحافية التي تعكس نشاطاً ذهنياً وعلمياً لشخصية مفكّرنا تقدّم لنا إذا أحد الحلول التنويرية لتفدية النهضة لبناء المستقبل أفضل للشعب الجزائري. فهو رهان رئيسي ذو بعد اجتماعي انعكس أيضاً في تلك الثنائية الدائمة لديه، وهي ثنائية العلم والجهل التي تأخذ عنده منحى حضارياً. فلا نكاد نتابع مختلف نصوصه المنتجة في مختلف الجوانب الموضوعاتية والفكرية بدون أن نعثر أو نلتقي بهاتين المفردتين وعلى مدى سنوات عدّت من نشاطه الصحافي.

وتوصّلنا أيضا إلى استخراج عبارات دالّة أو مفردات لغوية ترتبط دوما بسياق العلم والتعليم بشكل إيجابي وهي: المستقبل التّحرر، التمدّن، الحضارة، التقدّم، الرقي، النهوض، الارتقاء والنهضة. إلى جانب التعابير الدالة التالية: الوطنية، خدمة الوطن، الأمّة الراقية، خلاص الشعب، حياة، الشعب، جيل اللغة القومية، بقاء، الشعوب.

إنّ تردّد حضور هذه المفردات والتعابير ليشير في رأينا إلى درجة الوعي الكبرى لدى مفكّرنا عمر بن قدور الجزائري، بالتّأخر الذي كانت عليه الأمّة، وبالدور الخطير لمسألة التعليم في مصيرها، إنّها قناعة فكرية صاحبت كتاباته في وقت مبكّر.

هكذا وفي سنة 1907 يكتب مقالاً تحت عنوان:"ما ننشد إلا حقوقنا (الحياة ! الحياة !!) في جريدة "الهلال"، يعبر فيه الحق في الحياة مطلباً أساسياً للشعب الجزائري. وهي من الملامح الحقّة الدالة على الوطنية والإنسانية معاً، وهذه الحياة هي حياة العلم أو التّمدن أو الترقي المحافظة على بقاء الشعب حيث كتب قائلا:"...الحياة منشودة لدى كلّ إنسان بصير وهي في معناها لا تخصّ حركات الجوزح في الحيوان مثلاً بل الحياة المطلوبة هي العلم أو التمدّن أو

---

(1) في المصدر نفسه، السلسلة الثانية 1920.

(2) في صحيفة الإقدام: سنتي: 1921-1922.

(3) في صحيفة"التقدّم"، الجزائرية: 1923-1924-1925.

(4) في صحيفة "وأين ميزاب"، لسنة 1927.

الترقّي أو ليس جلباب تستغيث وتفرّ عن ريحها الأمم الحيّة وتتخذ الوسائل (الفعّالة) في التخلّص منها... نستغيث نحن ويستغيث الشعب الجزائري بالجملة منـها إذ هو عـلى وشـك الوقـوع في براثنها...".

لهذا اعتبر السكوت وعدم المطالبة بحياة العلم، التي هي الحياة العصرية وصمة عار تقع مسؤوليته على النخبة المثقفة، وهو حق من الحقوق.

إن السلوك طريق المطالبة بالحياة العصرية عبر وسيلة العلم هو طريق إلى السعادة والبقاء، ودليل حيوية الشعوب التي تريد حياة أبدية وليس حياة بائدة، لأنها تعزّز بقائها بالعمل المتواصل وبسلطة العلم[1].

ويرى عمر قدور، بأنّ النخبة التي يحبّذها في القيام بدور اليقظة والإرشاد هي تلك التي تذهب توجّهاتها وتحبّ آراءها في سياق اعتبار الرجوع إلى الدين وسيلة إلى التقدّم، ولكن إلى جانب العمل على نشر مختلف العلوم. فهي من الدّاعين إلى هذا الجمع ما بين الأصالة الدينية وعصرية العلم، من الذين [...ارتائوا أن أساس التقدّم بثّ العلوم...] [2].

ثم إنّه رأى أنّ الظروف الحديثة وحركية العصر المتقدّم تحتّم على الإنسان أو الأمّة مجاراة "تيار التمدّن" الجارف لا معاكسته. والتمدن الحقيقي في رأيه لا يعني تقليد مظاهر الحياة المدينة الأوروبية، كما أوضحناه في جانب القيم الأخلاقية، وإنّما يعني بالتمدّن " إرتقاء الفكر الإنساني وتخليصه من شوائب المادة وعدم القناعة بالإقامة في مرتبة دون النزوع إلى مرتبة أخرى تعلوها..."، وهذه دلالة قوية على روحه التنويرية التي تؤمن بالتطوّر والنّمو في الحياة. فكل شيء مخلوق قابل للنمو كما يقول. ومجاراة تيار التقدم والتمدّن يكون بترقية الفكر والعقل، وتبقى وسيلة العلم، الجوهر اللطيف الطاهر المقدّس، في هذا المستوى، كتب في مقال "كلمة في حقيقة التمدّن" : [... إنّ الإنسان إذن مجبور على طلب العلم وطلب العلم لا يحصل إلاّ بالاجتماع والإجماع على العلم هو التمدّن، ولذلك قال:"الإنسان مدني بالطبع" ولكن غاب عن كثير من النّاس إمّا جهلاً وإمّا تجاهلاً، لكن استمرارية طلب العلم تشكّل سلوكاً أخلاقيّاً وحضاريّاً

[1] أنظر مقاله."الحياة البائدة والأبدية"، - صحيفة الأخبار- بتاريخ 11 ديسمبر 1911.

[2] في جريدة "الأخبار"، بتاريخ: 28 أوت 1910.

وهي تجعل الإنسان يعي حقيقة النّمو والتطوّر في واقعه، والتي تدفعه دوماً إلى بلوغ مرتبة أسمى من المرتبة التي هو عليها، وتجعله يعي أيضاً مدى محدودية المعلومات أو المعارف التي يحصل عليها، لأنّ ثمّة عوامل مجهولة دوماً، وهذا هو مغزى نشره مقال مأخوذ من كتاب لأحد الفلاسفة الفرنسيين في جريدة "الأخبار"، تحت عنوان دالٍ:" نتيجة العلم (هي الشعور بالجهل المطبق): حيث قدم له بهذه الفقرة "هذا فصل من كتاب أحد الفلاسفة الفرنسيين ننشره إرهافا للرؤوس التي حسبت أنّها نالت كلّ شيء وأطلعت على كلّ شيء بما حازته من مبادي (كذا) العلوم وإن فيه لعبرة "الأولي الألباب" [1].

وتضمّن هذا النص شهادات وآراء العديد من أعلام الغرب الحضاري أمثال: نيوتن، ديكارت، جوته، ڤوليتر، كلود برنارد، التي تصب في تأكيد الحقيقة المرتبطة بانجازات العلم البشري، ومنها قول نيوتن: [نحن كأطفال نجمع شيئاً من القـواقع البحـرية مـن شاطـئ بحيـرة الحقيـقة] [2].

وثمّة بعد آخر، يمثل رهاناً حقيقيّاً بالنسبة لمفكرنا، وهو اعتبار مجال العلم والتعليم مجالاً استراتيجياً بالنسبة لبقاء الأمم وتخليص بعضها من الاستعباد أو الاستعمار. فطالما حثّ العلماء والأغنياء ليكونوا فاعلين في تجسيد وتأسيس الهياكل التعليمية لانتشال الشعب الجزائري من سقوطه، وسبب تخاذلهم هو ترك العلم ووسائله وافتراس الجهل للأمّة.

فالوعي بالذات والوجود، والنضال من أجل البقاء لبناء المستقبل مرتبط أساساً بهذا الرّهان العلمي. فللعلماء دور في توعية أفراد الأمّة بمعنى الحياة وبمكانتهم ما بين الأمم الأخرى، وتكافلهم مع النخب الفاعلة الأخرى هو الذي يحقق الأمل في ترقية الأمّة بإحداث "حركة علمية عملية تهذيبية لتكوين الرابطة الإسلامية وقد تكون لتلك الحركة أعمال عظيمة يتحرّك بها المجموع الإسلامي في إن واحد على محور الإصلاح وينهض الشعب المأسوف عليه نابذاً أغلال التقليد والغرور ومتخلّصاً من قيود الاستعباد والذهول..." [3].

---

[1] "نتيجة العلم (هي) الشعر بالجهل المطبق" – الأخبار- بتاريخ: 26 ماي 1912.

[2] - المرجع نفسه.

[3] في مقاله "دان النهوض ولم بدن"، الفاروق- بتاريخ: 20 يونيو 1913.

وفي نص نشره في صحيفة (الفاروق) السلسلة الجديدة، وتحت عنوان "نحن وهم" يقدّم قراءة مقارنة نوعية ما بين الأمم المتقدّمة المتحضرة والأمم المتخلّفة، مؤكّداً قيمة العلم وانجازات وتأثيره على وجود وشخصية هذه الأمم. فالعلم هو مرادف للتحرّر من رقّ العبودية. إنّ نصه النقدي هذا صرخة استنهاضية أليمة نابعة من الواقع الجزائري، كالتالي:[ هم يقدّمون دائما بعولهم ونحن نتأخّر كلّ وقت بجهلنا، شعارهم النبوغ في الاختراع وشعارنا التوقف في الاعتزال عن سبيل العلم والعمل. هم سادات في أوطانهم وأوطاننا ونحن عبيد في أوطاننا، هم يؤسسون المدارس ويفتحون الكلّيات ونحن لم نفتح إلاّ القهاوي والحمّامات هم يتمتّعون بلذّة العلم ويطلبون زيادتها ونحن نستلذّ بالأمل، هم يأخذون من الأرض الذهب ونحن نأخذ الحطب، هم مثال الحياة بجدّهم ونحن مثال الموت بتكاسلنا [1].

في نص آخر وانطلاقا من قوله تعالى:" قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنّما يتذكّر أولو الألباب "[2]، يلقي بمسؤولية إحداث التغيير التنويري المنشود لأصحاب العلم، الذين يمتلكون الاستعداد العقلي والشعوري، لتنمية قدراتهم العلمية وحتى الروحية في إفادة الأمّة ويقرّر مفكرنا بأنّ الجاهل لا يعذر بجهله. وفي هذا التوجّه الإصلاحي وعبر نص نشره بجريدة "التقدّم" الجزائرية، تحت عنوان "التعليم"؟، يكتب:[... الأمّة الجاهلة لا يليق بها إلاّ أحط المنازل، ودائما تبقى ضالّة مستعبدة تحت نير الغبن والشقاوة الأبديّة، بينما غيرها من الأمم الرّاقية الاستعداد قد اتّخذ رقّيه وعلمه واستعداده الذي أنماه. قوّة لنيل مبتغاة وسعادته الحيوية، فهو يعرف أسباب الحياة، ويدرك كيفيات الحصول عليها، ويعلم سعيه أين يبذله. فأصبح صاحب الذارعة التي تشقّ أمواج البحر كأنّها الجبل وتقذف قذائف النّار من أطرافها، وأصبح صاحب الطّيّار التي تحلّق في الجو، وتقطع المسافات في أقرب الأوقات، وبالاختصار طار في الجوّ بعلمه وغاص في البحر بفهمه. ونقل أخبار العالم في نصف نهار...][3].

إنّ هذه الإنجازات والمخترعات الأخرى العظيمة والدّقيقة ناتجة في رأيه عن السّعي الحثيث نحو التقدّم والرّقي، والذي أثمر بدوره بفضل الاستعداد الروحاني والشعوري الذي أنار

---

[1] أنظر (الفاروق)، السلسلة الجديدة- بتاريخ: 15 أكتوبر 1920.

[2] الآية: 9 من سورة الزمر.

[3] بصحيفة "التقدّم"، الجزائرية، - بتاريخ: 15 ديسمبر 1923.

بفعل عامل التنمية والاستخدام في سبيل تحقيق السعادة الحيوية، التي تتحقق أو تتلاشى، ولكنّها مرتبطة بحقيقة عقائدية سامية تبقى حجّة على من يبتطيها مصداقاً لقوله تعالى:[سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحق أو لم يكف بربك أنّه على كلّ شيء شهيد].ثمّ يذكّر مفكّرنا عمر بن قدّور الجزائري بدور الأمّة الإسلامية التي كانت أمّة وسطا في تاريخ رهيب في هذا المسعى العلمي، حيث كان المسلمون يرون في ترقية استعداداتهم العقلية والروحانية غاية ما جاء به القرآن الكريم وما أمر به رسول ا (صلى ا عليه وسلّم)، واعتبر جهودهم في هذا الميدان لا تجاريها جهود غيرهم [لقد سعوا في التعليم السعي الحثيث فأضاءت لهم المشارق والمغارب. وما فتئ آخرهم أن رجع بالتدريج إلى الجهالة إلى الاستكانة تحت سنن الغلبة. فانطفأ الضياء الذّي عمّ الخافقين...] (1).

إنّ مفهومه لغائية التعليم، المرتبطة بالجانب الروحي، إنّما تعكس مرجعته الدينية والعقائدية كمفكّر مسلم يفكّر في تحقيق وجود الذات للأمّة الإسلامية فيما بين الأمم. ويعمل على استنهاف القيم الأخلاقية الداعية للأمل والعمل معاً في سبيل البقاء والتقدّم، بسبب السياق التاريخي المعاصر له. والذي يشير أيضاً لتلك البيئة الاستعمارية المتّصلة بخصوصية الواقع الجزائري. هذا المفهوم الذي جعل من طلب العلم ورسالة التعليم مرتبطين بالدنيا والآخرة في آن واحد:[إنّ التعليم هو الوسيلة الوحيدة لتقوية الاستعداد الروحاني المذكور وتنميته في الإنسان لكي يسعى به في الدنيا سعيا حسنا وللأخرى. فيكون له بذلك في الدنيـا حسـنة وفـي الآخـرة حـسنة...].

لقد رأى في هذا المنظور أن رغم التّطور الحضاري الذي حصل بفضل العلم، إلاّ أن هذا الأخير لم يحدّ من الهمجية والشراهة البشرية، فلا يسود السلام بصفة دائمة. حتى أن الحرب هي من المكروهات منجزات العلم وقد تكون من مقتضيات في آن واحد. وهذه النظرة الواقعية، لم تمنعه من أن يقدّم نظرته الأخلاقية، التي ترى أن الجانب الإنساني في الحضارة لا يأتي من العلم وحده فلا بدّ من قيم فضيلة، وبالتالي لا يستطيع العلم أن يقضي على الجانب الهمجي من هذه الحضارة في أوقات الأزمات والحروب، وإنّما يعمل على تقويته فقط حيث

---

(1) بصحيفة "التقدّم" الجزائرية، المصدر نفسه.

متب مع قيام الحرب العالمية الأولى في مقالٍ تحت عنوان :"الإنسانية والهمجية والعلم والحرب" في صحيفته "الفاروق" :[... الإنسانية لا تأتي عن العلم بل عن وجدان وفصيلة يقوّمهما ويسلّحهما العلم، وهما نادران في الوجود، وكذالك الهمجية فإنّها نتيجة لا يستأملها العلم بل يهذّبها فقط...] [1].

إن مفهومه لدور العلم في حياة أيّ أمّة، يشتمل إذن دلالات حضارية عميقة، بفضل تلقينه له على شاكلة: الرقي والحياة والنهضة القومية أو الوطنية والمستقبل. من هنا كان رهان النهوض بالنسبة للأمّة الجزائرية هو رهان التعليم. وكان عنوان نص صحافي نشره سنة 1913 بصحيفة (الفاروق) وهو "نحو المستقبل: هل من نهضة إلى التقدم بالتعليم" يحمل دلالة التصوّر التنويري والعملي الرئيسي في مشروعه النهضوي. فبعدما يقدّم توصيفه النقدي للحالة التعيسة التي عليها أبناء وأطفال الشعب الجزائري. وبالتالي تأكيده على المستقبل المظلم الذي ينتظرهم وينتظر الأمة أيضا، وكأن الشعب في حالة إحضار، يدعوا الجزائريين إلى اليقظة لبعث روح إصلاحية تعليمية حقيقية:[كتب مخاطبا إياهم: [هل تنتبهون معشر القوم فتنهضون من مضجعكم الحاضر نهضة علمية إسلامية إصلاحية تجمعون بها أشتات قومكم، وتبعثون بها روحاً جديدة في حياتكم؟ هل من نهضة إلى التقدّم نحو المستقبل بأطفال مهذبين وشبيبة متعلّمة؟ ...هل من نهضة معشر الجزائريين تبثون بها الحياة في مدارك أطفالكم الصغار المدفوعين لمقابلة مستقبل يفزعهم ويهلكهم إن كانوا جاهلين، ويكرمهم ويرفعهم إذا كانوا عالمين؟... هل من نهضة لإحياء العلم تحصل بينكم معشر الجزائري فيصافحكم بها العدل وتعاملكم بها الإنصاف ويكرمكم بها المستقبل متى أقبل ويكرّم أطفالكم؟...].

إذن فيبدو لنا أن قناعة مفكّرنا بخيار التعليم كمرتكز أساسي في مسار النهضة بكل ما تحمله من الدلالات التي ترافقها بالنسبة لمصير الشعب الجزائري على الخصوص، كانت ثابتاً من الثوابت الفكرية التي وجدناها من خلال النتاج الصحافي محّل الدراسة. فيصح أن نقول أن هذا المرتكز قد شكل قضية محورية في مشروعه الإصلاحي والتنويري،بل إنّه اعتبر الجهود التي تبذل لتهيئة المؤسسات التعليمية الحرّة، من معالم النزعة الوطنية لمن أراد تحقيق التقّدم

---

[1] أنظر صحيفة "الفاروق"، بتاريخ: 19 أكتوبر 1914.

والرقي لمجتمعه. وهذا ما عبّر عنه بكل وضوح في بدايات نشاطه الصحافي بالجزائر سنة 1907 عبر جريدة "الهلال" حيث قال:[نرى أغاب سراة قطرنا الجزائري لا يرون للمال سبيلاً سوى في الولائم والأفراح ومجالس اللهو على حين أن ا تعالى خصصه لإغاثة الملهوف وإقامة معالم الوطنية من تأليف الجمعيات والشركات ونشر الجرائد التي هي لسان الأمّة وبناء المدارس لبثّ روح التقّدم بين الناشئة...] [1].

ولاحظنا أيضاً كيف أنه استهدف فئة الأغنياء منذ بداية انشغاله بمشروع الإصلاح، واستمرّ على هذا النهج مدّة نشاطه الصحافي لأنه كان يدرك أن هذه الفئة إلى جانب فئات أخرى من نخبة المجتمع المثقفة، هي المعوّل عليها في بناء وتسيير المؤسسات التعليمية الحرّة المستقلة عن إدارة الحكومة الاستعمارية. إنّ الواقع الوطني الجزائري يتطلب فاعلية وإجراءات عملية لذا نراه يدعو لهذه الفئة المستهدفة بخطابه بتوفيق العناية الإلهية في هذا السياق فيقول في النّص السابق:[اللهم ألهم أغنياءنا شعوراً شريفاً ووطنية حقّة حتى يرتفعوا من الفرقة التي هي خنازير البشر ويحشروا في زمرة من قامت بهم حياة الشعوب والأمم إنك على كلّ شيء قدير] [2].

وفي مقال آخر تحت عنوان "صوت الأغنياء" إلى تنظيم وتأسيس جمعيات ثقافية تربوية، التي يمكن أن تكون النّواة التنظيمية لإنشاء المدارس المستقلة على غرارها هو موجود في بعض البلدان العربية. وهذا المقال يعبّر في سياق آخر عن تخوّف المفكر عمر بن قدور الجزائري من سياسة الحكومة الفرنسية في فصل الدين عن الدولة وأثرها على النظام التعليمي كما سنوضّحه.

فيما يخص فئة الأغنياء فدعاهم [بأن يجمعوا ويتحدّوا ويولّفوا جمعية إسلامية مستقلّة ويكتتبون بما تسمح له نفسه ويؤسسون مدرسة أو مدرستين على تأسيس الموجود في مصر وتونس من التعليم الديني والعصري وحينذ نقدّم لحضراتهم باقات من رياحين الثناء...][3].

إنّ تأسيس الجمعيات الثقافية والتربوية التي تكون وراء بعث المدارس العصرية ذات الخصوصة الجزائرية المرتبطة بالهوية الدينية، تتشكل لأولويات في العمل النهضوي. وهذا نراه قد انتقده بشدة سنة 1908، النخبة المثقفة المتنورة من الجزائريين التي أرادت توجيه نشاطها إلى تأسيس فرقة مسرحية في تلك الفترة، عوض التأكيد على رهان التعليم. لقد عبّر عن ألمه

---

(1) في صحيفة "الهلال"، بتاريخ: 22 فيفري 1907 –العدد 11.

(2) المصدر السابق.

(3) من مقاله بعنوان:"صوت العلم"، صحيفة الأخبار، بتاريخ: 31 ماي 1908.

وتأسّفه في مقال تحت عنوان:"الحركة الأدبية: بين التعليم والتمثيل" نشره بجريدة (الأخبار) التي كان يتولّى آنذاك الإشراف على القسم العربي منها، لما علم أنّ صديقه المثقّف المتنوّر والإصلاحي عمر راسم ، كان وراء تأسيس جمعية مسرحية تحت اسم (المنارة الجزائرية)، وبالفعل فلقد كان عمر بن قدور الجزائري قد نشر خبر إنشاء هذه الجمعية في الجريدة هذه، وهذا تشجيعا للحركة الثقافية أو الأدبية كما سّماها في الجزائر واعتبر هذا التوجّه نشاطاً يخدم بعض الأهداف الوطنية للشعب الجزائري فكتب قائلاً معلّقاً على الحدث هذا:[اعتبرناها حركة أدبية من جهة أن القائمين بها هم من صفوةٍ الشبيبة الجزائرية وأن لهم شعور حي لم يستطيعوا أن يستخدموه في نفع الوطن فاندفعوا بقوّته إلى تأسيس هذه الجمعية التمثيلية. ورغما عم ذلك فإنّنا لا زلنا نأمل من ا سبحانه وتعالى أن يحوّل قلوب تلك الجماعة إلى السلوك في سبيل الصلاح والجدّ بدل الفساد واللهو] [1].

وبالرغم من بعض الردود التي وردت إلى الصحيفة، فإنّه لم يعمل على نشرها، لأنه يعرف جيّداً صديقه المثقّف عمر راسم، وثانيً لأنه أراد تشجيع هذه النخبة المجتمعة المتّحدة على إنشاء أمر حيوي يقطع النظر عن اللحظة التي رسمت لها، فدعاها إلى مراجعتها والعدول عنها وحثّهم على انتهاج طريق التعليم والنسج على منوال الجمعيات الإسلامية. كما وضّحه في دعوته في المقال السابق (صوت التعليم). ولم يكتف بهذا بحيث أرسل نصّ رسالة في هذا المعنى إلى عمر راسم طالباً "أن يقرأه على أعضاء الجمعية التمثيلية. وقام بعد ذلك بنشره في صحيفة الأخبار. حيث عبّر عن فرحه بخبر تأليف جمعية جزائرية تمثيلية، لأن الشعور الوطني هي الذي أو حتى لهم بتأسيسها ومن جهة أخرى أحس بحزن جرّاء هذا الخبر، لأنّه اعتبر الخطّة سيّئة في ميدان الانطلاق النهضوي. ثم أشار إلى أنّ الجزائريين لم يصلوا بعد إلى رتبة التّقدم والتّمدن، مثلما هي عليه أوروبا، وحتى أن الوضع في مصر مختلف عن الجزائر، لأسبقية وجود جمعيات تعليم ناشئة عن جمعيات التمثيل المسرحي، وحتى تونس لم تنشأ بها بعد مثلها فنوّه بالجمعية الخلدونية وبغيرها [2].

ثم يدعوا أعضاء هذه الجمعية إلى اليقظة الحقيقية التي نستدعي العمل الواقعي المرتبط بحقيقة وضعية الشعب الجزائري حيث يرى أن الضروريّات (أي التعليم) أسبق من الكماليّات (التمثيل) فيقول:[أفيقوا من غفلتكم يا إخواني وانزعوا عنكم هذا الغرور والخمول واسعوا في

---

[1] أنظر جريدة "الأخبار"، بتاريخ: 7 جوان 1908، الموافق لـ: 7 جمادى الأولى 1326هـ.

[2] أنظر المصدر السابق نفسه.

تسيير الشبيبة الجزائرية على الطريق الناموس الطبيعي القاضي بأن الضروريات قبل الكماليات. فهل اعتقدتم أن الشعب الجزائري بلغ مبلغ الكمال فأردتم ختم عقد كماله بجوهرة التمثيل]. ثمّ لكي يوضح أكثر فكرته الداعية إلى الاعتماد على وسيلة التعليم، فإنّه يرى أن الخطة السليمة لبناء مستقبل الأمم وترقيتها، ترتكز إلى قانون طبيعي يقرّر أن سلطة التعليم هي أولوية الأولويات في التربية وإعداد جيل الغد وتحقيقي سعادة الوطن. فما هو يكتب في نفس الرسالة التي يخاطب بها أعضاء تلك الجمعية التمثيلية، والذين هم من حيرة صفوة الشبيبة الجزائرية الناهضة:[..ارجعوا يا قوم إلى النموس الطبيعي في ترقية الأمم فهل تجدون وسيلة أقوى نفوذاً من وسيلة التعليم فتعالوا مادمتم متّحدين إلى تأسيس جمعية إسلامية تعليمية تنشر العلم في البلاد وتجنب لها أساتذة أدباء عارفون بالتعليم العصري عالمين بالآداب الإسلامية فيقومون بتربية أبناء وطننا وبذلك تكون لكم السمعة الحسنة في كافة الأنحاء...] [1].

واعتبر نفسه من أول المنخرطين الباذلين الجهود إنّ تمّ تأسيس جمعية جزائرية تعليمية، وسوف يكون يوماً مشهوداً حينما تفتح مدرستها، التي سوف تقدم الدلائل على حياة شعور العالمين فيها. ثم يعلن إلاّ أنه سوف ينتقد ويهاجم في كتاباته الذين يرسمون خطّة أخرى غير خطّة التعليم.

لكن بالرغم من هذا الموقف المتشدد لعمر بن قدور من هذه الجمعية التمثيلية إلاّ أننا سوف نلاحظه ونجده، التطوّر التصوّري لديه حيال المسرح ودوره. وهذه اللحظة تعبّر عن غيرة وطنية كبيرة حيال واقع الشعب الجزائري وحقيقته وطبيعته آنذاك.

هذا الواقع الذي سيدفع به إلى الاستمرار عبر نشاطه الصحافي في تحريك أذهان مختلف النخب الجزائرية وعلى مدار السنوات متواصل امتدّت إلى النص الأوّل من عشرينيات القرن العشرين. والنّصوص التالية توضّح بشكل جليّ جهوده وريادته في هذا السياق التنويري والإصلاحي. إذن فلقه واصل فكرياً تجسيد مشروعه النهضوي القائم على خيار التعليم، بضرورة تأسيس الجمعيات الثقافية والتربوية المساهمة في تفعيل إنشاء المدارس الحرّة لبناء جيل الغد وإيماناً بقية العمل الميداني المحقّق للتغيير.

وما هو يكتب في هذا التوجّه مقالاً تحت عنوان استفهامي وهو:"ماهية الوسيلة النافعة؟" في صحيفة -الأخبار- ليؤكد فيه حاجة الجزائريين الفاعلين الاجتماعيين في حقل التعليم، والذين

[1] المصدر السابق نفسه: بتاريخ: 7 جوان 1908.

يحصر وجودهم في البداية، أو في هذه اللحظة التاريخية من دعوته، في فئتين أساسيتين هما العلماء والأغنياء. ورأى أنه لو قام فريق العلماء بإرشاد الأمة بالوسائل المرقية وهدايتها إلى ما يقيها من السقوط لما استغنى في هذه المهمّة عن الفريق الأغنـياء، ولـما استـطاع القـيام بـها بدونـه [1].

وهو متيقن من وجود هذه النخبة المثقّفة في البلاد وهذه الطاقة الفكرية، إن كانت ثمّة جهود للإعانة والرعاية التنظيمية والمالية حيث كتب:[... وفي يقيننا ويقين كل جزائري أن العلماء المشدين ليسوا بمفقودين من قطرنا وأنهم موجودون ومنبثّون في نواحيه وأن في البلاد رجالا وفي زواياها أبطالا تشتغل الغيرة عن إخوانهم في رؤوسهم (كذا) ويودّون لهم الارتقاء والسعادة ويأملون النجاة من محنة الفناء والسقوط...].

إنّ الظروف الاجتماعية الصعبة التي تحيط بيئة العلماء وتفرض على طائفة الأغنياء توفير المال اللازم لهيئة التدريس وللمؤسسة التعليمية الحرة، حتى تكون في معزل عن ضغوط الإدارة الاستعمارية بالدرجة الأولى. ويقول المفكر عمر بن قدور في نفس هذا النص لو قال الأغنياء ["ها هو المال اللازم لرقيّ البلاد فتقدّموا في هذا السبيل وابنوا لبلادنا مجداً فخيـماً وعزاً شامخاً".

لذهب ذلك الألم وتبدت تلك النفوس البائسة (يقنعهم لعلماء) لمظهر الهمّة والعزيمة وظهرت تلك الأفكار في قالب النّخوة والإرادة. هل سعدت بلاد بغير هذه الحاجة وهذه الوسيلة كلاّ ثم كلاّ لم نجد بلاداً تقدّمت وترقّت وهي في استغناء هو طائفة المرشدين وطائفة الأغنياء المتبرعين] [2].

ففي سبيل مجد البلاد الجزائرية، لا يمكن استعمال وسيلة أخرى غير هذه الوسيلة ولتغيير الحالة الواقعة فيها والمظلمة، ويتساءل متحسّراً "كيف العمل لرفع الحجاب الحائل بيننا وبين نور التّمدن العصري والسعادة الحالية؟". ولتحفيزهم الأغنياء العاملين أو المتمردين يستشهد بأعمال زعيم مجري- كوشت- الذي كان من أعوانه يكشفون أسماء المتخاذلين في الجرائد الذين يمتنعون عن الإعانة في تأسيس مدارس تعليمية للشعب، وينهون بالمتبرعين منهمك في إنشائها. وبهذه الطريقة انتقم الشعب المجري من الأغنياء البخلاء وأعلى ذكر

[1] مقالة "ما هي الوسيلة النافعة"،-الأخبار- بتاريخ: 14 جوان 1908.

[2] في المصدر السابق نفسه.

الكرماء منهم [1]. ويختم مقال "ما هي بوسيلة النافعة" بدعوته الجزائريين لتأسيس "جمعية لإحياء العواطف والعقول وتنمية المعارف" في أذهان أبنائهم – مع التنويه بجهود الأغنياء- وأنّ هذه الحركية التغييرية والعلمية، النهوضية إنّما هي من قبيل الجهاد في سبيل الوطن. وليست بمسؤولية صعبة التحقيق أو مستحيلة، حيث قال:[اللّهم إنّ ترقية المسلمين الجزائريين وإحيائهم وتغيير حالهم من الهيئات اللّينات ولاكن لا بدّ منم المال والرجال موجودون فأفيضوا علينا يا حضرات الأغنياء المال حتى نبني مجد وطننا وقطرنا وا المثيب لمن قام بخدمة الوطن] [2].

وفي نصّ آخر نشره سنتين بعد النصّ السابق، وفي نفس الصحيفة يعيد استحضار نموذج الزعيم المجري، حينما يتحدّث عن دور الطائفة الغنية أو رجال المال في نهضة الأمم الاقتصادية والاجتماعية. وكيف أن الدّول [تحارب أرباب الأموال وتجبرهم على الانفاق في سبيل النفع العام وأسّست لهذه الغاية الجمعيات العظيمة حتى صار ديوان الأغنياء الرضوخ لسلطة الأمّة والعمل على مصلحتها بإخلاص تام...] [3].

وهكذا فإن مشروع التنشئة الاجتماعية مبني على خيار نشر العلم والتعليم سوف يشكل من خلال مختلف النّصوص الصحفية لمفكّرنا حملة إعلامية ذات طابع فكري تنويري، ويبقى أحد محاوره استهداف فئتي الأغنياء والعلماء كما رأينا، وبالفعل وحتى عبر صحيفته (الفاروق) وكنموذج لما استخلصناه في هذا السياق التنويري يكتب سلسلة نصوص تحت عنوان واحد:

" للخواص: ساعدوا على العلم". ونلاحظ هنا أنه في نفس هذه الأعداد في الصحف يكتب تبلغة اليوم في ميدان "الأنواع الصحافية عموداً تحت عنوان "منبر للعوام: تربية الرجال قبل تربية الأطفال"، فهو من جهة يخاطب مؤسسة الأسرة، ومن جهة أخرى الفئات الفاعلة من صفوة المجتمع الجزائري المشكلة من العلماء والأغنياء. فعلى " الخواص" منة نخبة الشعب تقع مسؤولية بثّ العلم، والتي تشكل من العلماء وأعيان التجّار والملاّكين وأرباب البيوتات (العريقة). أو الشعيرة ذوي الكلمة المسموعة والنفوذ العظيم [4]. لأن حالة الأطفال المشردين، والذين رآهم يأتون المخلفات ويرتكبون الجنايات في حاجة إلى إيواء تربوي، من هنا يقول:[إنّ بث العلم بين الشعب يحتاج إلى عمليات عظيمة واقتحام أخطار كبيرة وبذل نفيس جال فقد ظهر

---

(1) في المصدر السابق نفسه.

(2) المصدر السابق.

(3) في جريدة –الأخبار– بتاريخ: 11 ديسمبر 1910.

(4) أنظر: "للخواص: ساعدوا على العلم" –العدد 19- الفاروق، بتاريخ: 4 يوليو 1913.

من البديهيات أنّ الخواص من الشعب هم الذين عليهم المعول في تحصيله وبثّه بين إخوانهم ومواطنهم من الشعب...] [1].

ثمّ ينبّه هؤلاء "الخواص" أو صفوة الشعب القادرة على المساهمة الفعّالة إلى أن الضمير الأخلاقي الديني يرفض هذا التقصير في حق أبناء الشعب الجزائري الفقراء والمشردين، حيث كتب:[إنّ ضمير كلّ واحد منهم يشكو إلى ا من تلاهيكم عن تعليمهم وتهذيبهم وتربيتهم ولو كنتم تعلمون ذلك لما استطاع أحذ منكم أن يمدّ رجله لماسح الأحذية (الصبابط) منهم لكي يمسح حذاءه خجلا وإن لكم المقدرة التامة على النهوض إلى العلم ما للكهرباء من القوّة والتأثير أفأنتم تعلمون؟...] ثمّ يدعو إلى تجسيد العمل التربوي بإنشاء الجمعيات القادرة على إحداث حركة تربوية في البلاد من خلال المؤسسات التعليمية، فيدعو هذه الفئات إلى التفاهم، الذي هو قيمة أخلاقية اجتماعية وإلى التعاون أيضا من هؤلاء الأطفال الذين يشكلون أمل غد الوطن كتب:[ إنّ التهذيب لا يحصل إلاّ من الجماعات فهي مصدره بما تسديه من العبر في أفنية مدارسها فالاجتماع إلى الاجتماع، ثم الدارس إلى المدارس... فتعالوا إلى التفاهم معشر الذين معدن حرارة غيرتهم إلى حدّ الانفجار فنتفاهم ونتعاون فنشيد دور التهذيب فإنّ رجال الغد هم الذين عليهم المعول في توحيد الأمل وإيجاده] [2].

وفي العدد الموالي من هذه الصحيفة، وتحت نفس العنوان يؤكّد مرة أخرى على المظاهر من بؤس أبناء الشعب الأخلاقي والاجتماعي ويرى أن العلم :" العلم هو حياة الشعب" ولا تكون هده الفئات النخوبية خواصاً إلاّ بالشعب ذلك المجموع العظيم الذي بعمله ومعرفته تتكوّن المجموعة الحيوية وبجهله يقع الفشل العام وتتلاشى المرافق الحياتية. فيدعوهم إلى تنظيم أنفسهم في سياق الجمعيات [3].

من هنا، من هذا التّحديد الواقعي والحضاري لعلاقة العلم بالشعب، يطالب فئة الأغنياء لإنفاق المال اللاّزم لرعاية المشروع التنويري لمنظومة التعليم الحرّ في الجزائر، ويشكّل هذا استثماراً مستغلباً وأبديّاً في حياة الفرد والشعب، لأنّه بمثابة بعث حياة في أذهان ميّتة من ذلك الشعب، وسما سجّله في هذا الإطار:[ إن إنفاق المال لأجل العلم لاقتناء ثروة أبدية خالدة تنمو

---

[1] في المصدر نفسه.

[2] أنظر المصدر السابق.

[3] "الخواص: ساعدوا على العلم" –الفاروق- العدد: 20، بتاريخ: 11 جويلية 1913.

كلّ حين وتربو، وحسب المرء أن يحيي نفسا أشرفت على الموت فينال أجرها كذلك إحياء موات الأذهان فإنّ أجر ذلك كان عظيماً] [1].

وفي لحظة فكرية تطوّرية، لاحظناها من خلال تتبّع النّضال التنويري لمفكّرنا، نقف على عنصر آخر وفعّال سمّاه بفئة المفكّرين. وهي الطرف الثالث الذي رأى فيه ارتكازاً للنّهوض بمشروع التعليم على الخصوص في سياق تفعيل الحركية الإصلاحية بالجزائر.

من هنا نفهم ذلك العنوان الصحافي الذي هو بذاته نداء وصرخة إزاء النخبة المخاطب لها الذي يعلّق عليها آمالاً له البلاد. ففي شهر جوان من سنة 1913، وفي إطار حملة استنهاضية فكرية ينشر مقالاً تحت عنوان: "دار النهوض ولم يدن" بصحيفة (الفاروق) لكن يضع على رأسه عنواناً آخر هو:[معشر المفكّرين المنوّرين والعلماء العاملين والأغنياء الموسرين: موتوا تخاذلاً أو دعوا التخاذل يموت]. لأنّه رأى أنّه [بهذه الطوائف الثلاثة نيط الأمل في ترقية الأمّة الإسلامية لأنّها ثلاثة أثافي السقوط وعكسه فلو يهيّئ ا من بينها حركة علمية عملية تهذيبية لتكوين الرابطة الإسلامية وقد تكون لتلك الحركة أعمال عظيمة يتحرّك بها المجتمع الإسلامي في آن واحد على محور الإصلاح وينهض الشعب المأسوف عليه نابذاً أغلال التّقليد والغرور مخلّصا من قيود الاستعباد والذهول...[2].

ويواصل حماته في نصوص صحفية أخرى ليكرّر موقفه النّقدي ضدّ الجامدين والمتخاذلين من العلماء والأغنياء من أجل انتشال الشعب الجزائري من السقوط الحضاري، ويلحّ في على ضرورة تأليف الجمعيّات بمعنى التّأكيد على أهمّية التنظيم الهيكلي لأداء مهمّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، عبر مؤسسات تواصلية كمؤسسة التعليم [3].

والتنظيم هذا وفي أشكال أخرى ذات أبعاد اجتماعية واقتصادية هو الذي يوطّد ويعزّز الروابط القومية والوطنية لأنّ الاجتماع روح الحياة [4].

بقي المفكّر عمر بن قدور ثابتا من الناحية الفكرية والعملية فيما يصل بتنوير النخب المستهدفة إزاء مسألة التعليم. وليس أدلّ على هذه الملاحظة بكلّ وضوح، إلاّ تلك المقالات الصحافية التي أعاد نشرها كما هي سنوات، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى وبعد رجوعه من

---

[1] "الخواص: ساعدوا على العلم" –الفاروق- العدد: 21، بتاريخ: 18 جويلية 1913.

[2] أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 20 جوان 1913.

[3] "بين المسالك والمهالك : مراحل الأمم ومراحلنا"، -الفاروق- بتاريخ: 12 سبتمبر 1913.

[4] نفس المصدر، بتاريخ: 19 سبتمبر 1913.

المغنى الإجباري ومواصلته للنشاط الصحافي ثم للنشاط التعليمي الميداني كما بيّناه سابقاً. وإيضاحاً لهذا الثبات الفكري والنّضالي في آن واحد، نذكر مقالاً له كتبه ونشره سنة 1913 بصحيفته "الفاروق" تحت عنوان ذي دلالة تنويرية استشرافية هو: "نحو المستقبل"، أين يقدّم توصيفه النافذ للحالة الاجتماعية والأخلاقية لأطفال الشعب الجزائري، يوجّه نقده اللاّذع لمؤسسة الأسرة التي بجهالة الوالدين انتخبت أو تتحمّل جزء من شقاوة الأطفال، ثم يدعو إلى تشكيل جمعية ثقافة تربوية لا تتكفّل فقط بتربية الأولاد وإنّما البنات أيضاً حيث قال[1]:[ يأيّتها الذين بقيت في أدمغتهم بقية من سلامة العقل ورجاحة الرأي شفقوا على أطفال الشعب في موقفهم الحرج أمام مستقبلهم المظلم المملوء بالأهوال والكوارث، وتخابروا وتعاونوا في الشعب نذيراً يحثّ القوم على إعانتهم وتأليف جماعة عرفانية تهيء وسائل تربية أبناء الشعب وبناته فلعلّ المستقبل ينقلب إلى رحمة وعافية وسلام وما ذلك عليكم لو تفقهون بعزيز].

وبعد تسع سنوات، يعيد نشر نفس المقال كاملاً وبنفس العنوان، ولكن بجريدة "الإقدام" الجزائرية، في سنة 1922 حينما كان محرّراً بها[2].

وفي مقالٍ افتتاحي نشره بجريدة "الإقدام" هذه تحت عنوان "المنبر العام: شعور أبناء الجزائر" وبمناسبة زيارة فرقة مصرية مسرحية للجزائر، وهي فرقة جورج أبيض في شهر أوت من سنة 1921، وبعدما لاحظنا إقبال الجزائريين على عروضها، دعا فئة الأغنياء للاضطلاع بمسؤوليتها اتجاه حاضر ومستقبل البلاد من خلال المبادرة إلى تأسيس جمعية خيرية ذات طابع تربوي، خاصة بعدما لاحظ التأثير الإيجابي الداعي إلى التّحمس من أجل الغيرة الوطنية، فقال:[ يجب على أبناء الجزائر أن ينهضوا نهضة رجل واحد لإنقاذ أبنائهم من الجهل والضلال وسوء الأخلاق الذين هم فيهم فالكبار هم مسؤولون بتربية الصغار خصوصا أرباب الثورة والمناصب ومن الضروري تأسيس جمعية خيرية في العاجل القريب (إنّ ا لا يضيّع أجر من أحسن عملا)[3] تربية الصغار وتعليمهم العلوم والأدب وحسن الأخلاق لمن الواجبات الدينية. عجبا من أغنياء الجزائر لم ينتبهوا لما طرأ على أهل وطنهم من الجهل والفقر

---

[1] أنظر صحيفة "الفروق" بتاريخ: 12 ديسمبر 1913.

[2] أنظر صحيفة "الإقدام": مقال:"نحو المستقبل" بتاريخ: 8 ديسمبر 1922.

[3] الآية: 30 من سورة: الكهف.

والضعف والمذلّة، يرون هذا كلّه ويغضّون الطرف عن إخوانهم ولم يتمثّلوا الحديث النبيّ(صلى ا عليه وسلّم) "كلّكم راع وكل راع مسؤول عن رعيّته"] [1].

وفي نص آخر حول "التعليم" وبمناسبة تأسيس "مدرسة جمعية الشبيبة الإسلامية الجزائرية" بمدينة الجزائر سنة 1923، والذي كلّما أكدناه تاريخيا من أنّه كان أحد مؤسسيها وأوّل مدير لها، في ذلك النّص يفعل نقده في سياق مفهومه "الفوضى الأخلاقية"، ويحث مختلف فئات الشعب إلى التعاض والتعاون لإنجاح هذه المؤسسة وإلى توسيع نشاطها وتطويره [2].

لكن ثمّة عنصر نضالي وفكري أظهرته دراستنا التحليلية في سياق مقاربتنا لقضية التعليم لدى مفكّرنا. وهذا العنصر مرتبط ضمنيا بالبيئة الاستعمارية التي كان ينشط فيها صحافيا، والتي تجعلنا نعتبره من أوّل الإصلاحيين والمفكّرين الذين طالبوا بحق التعليم لأبناء المسلمين الجزائريين، وبحق الأمّة الجزائرية في التقدم والرقي والحياة العصرية، بكل ما تحمله من معاني إيجابية. من هنا فإنّنا توصّلنا إلى تحديد هذا الجانب النّضالي في مواجهة الإدارة الاستعمارية بالجزائر. إنّ مقاله المنشور في جريدة الهلال سنة 1907، تحت عنوان "ما ننشد إلاّ حقوقنا: الحياة !! الحياة !!" يمثّل ضمنياً أحد النصوص المعبّرة عن غيرته الوطنية وعن حسّه الإنساني في مجال الدعوة إلى الحياة المطلوبة والتي هي حياة العلم والتّمدن أو الترقي والكرامة الإنسانية. ورأى أن السكوت والخمول عن رفع الأصوات والمطالبة بالحقوق من الحياة العصرية والصبر على ظلم الجهالة، هو سلوك يعبّر عن موت الشعور ووصمة عار تقع مسؤوليته على النّخبة المثقّفة [3].

في شهر أفريل سنة 1908، وفي إطار تجسيده للخطة الافتتاحية الوطنية التي أعلنها من قبل في تونس عبر صحيفة "التقدم"[4]، وبعد ذلك في الجزائر عندما تولىّ رئاسة تحرير القسم العربي من جريدة "الأخبار"[5]، يوجّه رسالة سياسية إلى الحاكم العام الاستعماري في الجزائر، تتضمن مطالب لإصلاحية مرتبطة بحقوق الشعب الجزائري.

---

[1] الحديث في : البخاري - عن عبد ا بن عمر – رضي ا عنها-.

[2] أنظر جريدة "التقدّم" الجزائرية: بتاريخ: 1 جانفي 1924.

[3] أنظر صحيفة "الهلال"، بتاريخ: 1 جانفي 1907.

[4] صحيفة "التقدم"، تونس، بتاريخ: 27 فيفري 1908.

[5] صحيفة "الأخبار"، الجزائر، بتاريخ:

وبالفعل، فلقد عثرنا على هذا النّص في جريدة "الأخبار" والذي جاء تحت عنوان "خطاب مفتوح: إلى جانب المسيو جونار "الوالي العام" ". والذي نشير إليه هنا تأكيده له الوضعية المختلفة من الناحية التربوية والتعليمية للشعب الجزائري وانتقاده اللاذع.

للمعمّرين الدخلاء من الأوروبيين الذين أظهروا استبدادهم واستعدادهم لإبقاء أبناء الشعب جاهلين. وممّا جاء في هذا النّص مخاطباً "الحاكم العام الاستعمارية :طيا جناب الوالي، معظم رجال الشعب الجزائري في ضنك شديدي لا يستطيعون معه إلاّ إبداء السّخط على من أوردهم هذا المورّد السيّء ولو كانوا يدرون للاموا أنفسهم التي ظلموا بأعمالهم المدبّرة لأسبابها ولاكن (كذا) يوجب هناك (سببا) عاملا هو الذي شتّت شملهم وندّد عقيدتهم ألا وهو الجهل تلك العلّة العظيمة التي أهلكت قرون متعدّدة كانوا أشد من قوّة وأكثر أموالاً وأولاداً... يا جناب الوالي: نحن رجال الشبيبة الجزائرية العصرية ثبت في ذهننا أن لا حياة لنا ولوطننا مالم نسعى في سبيل التّقدم وطريق السعادة... قلوبنا تتألم من حالة إخواننا السّيئة وكيف والذّل ضارب أطنابه عليهم والفقر سايد (كذا) فيهم والسقوط مستعبد لهـم والجـهل يغـوي بأفكـارهـم ويتـجبّر عليهم..." [1].

وفي آخر هذه الرسالة المطلبية، يؤكّد على ضياع حقوق الشعب المختلفة، ويدعو الحاكم العام الاستعماري في تلك الفترة من إدارته إلى إجراءات الإصلاحات وإلى التجاوب مع ما سوف ينشره في الجريدة من مطالب فيقول:[حقوق الشعب الجزائري مهضومة ومصالحه مفقودة وخيراته مندرسة على حين أن نداءه إلى مقامكم السامي (يعتج) (كذا) مستغنياً فتعضلّوا سماع نداء المستغيث .... بناء على جميع ما تقدّم نرجوكم باسم الجمهورية والإنسانية أن تنعموا النظر في الإصلاح وتنفصلوا بالإصغاء إلى ما ندرجه في جريدتنا من تلك الأصوات التي تنادي "حقوقنا: حقوقنا من الحياة" [2].

ويمكن أن أقول ووفقًا لهذا العنصر النضالي في قضية الإصلاح، أن أحد أوّل المطالب التعليمية الواضحة تمثّلت في دعوة المفكّر عمر بن قدور لإدراج ما سمّاه بـ"التعليم الإسلامي " في البرنامج الدراسي العام للمدارس الاستعمارية التي كانت تضمّ أطفال الجزائريين. ولنا أن نتساءل لماذا هذا التحديد بالذات ؟.

---

[1] المصدر: جريدة "الأخبار"، بتاريخ: 26 أفريل 1908.

[2] في المصدر نفسه.

إذا عدنا إلى السياق التاريخي لتلك الفترة، فإنّها تشير إلى بداية سياسة فصل الدين عن الدولة في القطاع التعليمي الفرنسي [1]، وهذا معناه أنّ التلاميذ الجزائريين سوف يكونون محرومين من تعلّم تعاليم دينهم وقيمهم الإسلامية، ومعناه استحالة إدراج مطلب تدريس اللغة العربية. انطلاقًا من ارتكاز المشروع الإصلاحي التنويري لمفكّرنا على التّعليم بالدرجة الأولى، فإنّنا نفهم بوضوح هذا التوجّه المطلبي. وكان مقاله " صوت العلم " في شهر ماي من سنة 1908 يتضمّن هذا الانشغال، حيث اقترح على الحكومة الاستعمارية فتح مدارس أو كتاتيب للتعليم الديني الإسلامي، وتساءل إن كان هناك من يفكّر في هذه النقطة التي هي عقدة المسألة أو القضية الجوهرية، ثمّ يوجّه مطالبته قائلا: [ ... فأمّا التي للحكومة فإنّه رغما عن القوانين المسطّرة القاسية بالتفريق بين الحكومة والدين فإنّ لنا أمل وطيد في سموّ والينا العام بأن يعير التعليم الإسلامي نظرة الكِرام فيجعل له قِسطا وافرًا في برنامج التعليم، وهو ما نعتقد في مقام سمّوه خصوصا وأن فهرسة التعليم الرسمية لم تظهر بعد ...] [2].

دافع مفكّرنا عن شخصية الأمّة الجزائرية، وأنّها ليست متوحشّة كما زعم المستعمرون من الفرنسيين ومن المعمّرين الأوروبيين الذين استقروا في الأرض الجزائرية. لقد تم إصلاح الفلاحية ولم يستفد الجزائري من أي إصلاح، لقد أُهمل الإنسان الجزائري. فلو تعلّم لأتقن كلّ شيء وحتى لأجاد إصلاح الأرض وتنمية قوى هذا الوطن الاقتصادية والاجتماعية. إنّ هناك موانع حقيقية جعلته متأخّرًا، منها إهمال تكوينه بالمعارف والمعلومات، وإهمال الإصلاحات الجثمانية (الصحيّة) والعقلية، وغياب سياسة العدل والانصاف إزاءه، مع تفضيل المعمّرين الأجانب والدخلاء [3]، حتى اليهود. وفي هذا المنحى يطالب برفع هذه الموانع التي حالت دون تقدّمه كالقوانين الاستثنائية ومظالم الضرائب، وإدراج التعليم الإسلامي الديني حفاظًا على هويّته: كتب قائلا: [ ... إنّ الشعب الإسلامي بالقطر الجزائري هو غير الشعب الإسرائيلي الذي ضمّوه إليهم، وإنّه شعب ذو إباء ومجد ولديه ضمائر طاهرة من كلّ غشّ، فيكفي لترقيته أن يرفعوا عنه ما أجحف بصلاحيته من القوانين الاستثنائية وأثقال الضرائب ثم ليدفعوا له من

[1] – أشار عمر بن قدور الجزائري إلى أن إخضاع الجزائر لقانون الفصل كان: 27 سبتمبر 1907 (أنظر مقالة "الأزمة الدينية " – التقدّم – (التونسية): 25 أوت 1908.

[2] – أنظر مقالة: " صوت العلم " – الأخبار – بتاريخ: 31 ماي 1908.

[3] – أنظر مقالة: " سياسة فرنسا في شمال إفريقيا بصحيفة ( الفاروق) بتاريخ: 2 جانفي 1914.

نفس سننه القومية التي حاد عنها وتنكبّ عن طريقها، تعليما إسلاميًا صحيحًا يبعث فيه الشعور بواجبات الحياة والعمل لإجتناه الفضيلة ...] [1].

وبمناسبة المناقشة السياسية للمسألة الأهلية، أي الجزائرية، أمام البرلمان الفرنسي في شهر فيفري سنة 1914 وتعليقا على مختلف الحيثيات السياسية المرافقة قدّم مجموعة من المطالب السياسية، عبر إفتتاحية تحت عنوان ينمّ عن النقد السياسي والتحسّر على الواقع الجزائري وهو " حول المسألة الأهلية: ليتهم أنصفو !!". في هذا النّص الذي رفض فيه سياسة الاندماج، لأنّه لم يرى فيه وسيلة تقدّم الشعب الجزائري وترقيته باعتبار " الجزائريين مسلمون قبل كلّ شيء ". وتمثّلت هذه المطالب من حيث قضية التعليم، التأكيد على ضرورة وإجبارية تعليم الشعب بالموازاة مع ضرورة فتح مدارس حرّة تربوية تجمع ما بين المحتوى الديني والمحتوى الاقتصادي وباللغتين العربية والفرنسية. النّص التالي يوضّح هذه المطالب الموجّهة للسلطة الاستعمارية: [ ...يمكن للحاكمية أن تبعث في الأفئدة التود{ذ إليها بتعليم الشعب وإنصافه، لأن المتعلّم خليق بالانصاف وقد يمكنها ذلك ولو بإيعازها على الأقلّ لذوي البخل والاطلاع من رجال الشعب أن يحدثوا نهضة علمية حرّة على نفقة الجماعات وتلك النهضة لا تأتي بثمارها نضجة (كذا) إلاّ إذا اكتازت بتشكيل كتاتيب للتهذيب لا يخلو برنامجها من المساواة بين التعليم الديني ومبادئ العلوم الاقتصادية مع الحظّ النافع من اللغة الفرنسوية ...] [2].

وعبر مقال سياسي تحت عنوان " طور جديد للجزائر وللجزائريين " يدرج المفكر عمر بن قدور مطلبه السياسي فيما يخصّ مسألة التعليم، في توجّه واضح يعكس ثوابت هويّة الجزائريين الإسلامية، المتّصلة بالقومية والملّة والأخلاق. وهذا ينمّ عن وعي واستيعاب لدور التعليم في تشكيل شخصية الأمّة وذاتيها الحضارية المرتبطة بقيم الحضارة العربية الإسلامية. وهذا التأكيد من طرفه، هو الذي يفسّر لنا جليّا وعيه بالبيئة المحيطة به سياسيًا وحضاريًا. لأنّ الإدارة الاستعمارية والمثقفّين الفرنسيين أو الأوروبيين الموالين لأهداف السياسة الاستعمارية، كانوا يرون في التعليم آنذاك رهانًا خطيرًا لإبقاء الجزائريين يؤمنون بهيمنة السيادة الفرنسية على الأرض الجزائرية ودوامها. فبالرغم من العدد المحدود من الذين كانوا متمدرسين من الجزائريين إلاّ أنّ ضرورة تعلّمهم باللغة الفرنسية كانت عبارة عن وسيلة لإيصال الثقافة الأوروبية، وهذا في رأي بعض المثقفّين من الفرنسيين. مع ذلك فإنّ دراسات أظهرت تخوّف

---

[1] – بصحيفة (الفاروق) بتاريخ: 9 جانفي 1914.

[2] – أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 13 فيفري 1914.

الرأي العام الاستعماري، المشكّل خصوصًا من المعمّرين المستوطنين ومن إداريي الحكومة الاستعمارية بالجزائر. هذا التخوّف والشك من تعليم الجزائريين من كونهم سيكونون قادرين على الدفاع عن مصالحهم بوسائل فعّالة، ومهما كانت توجّهاتهم سواءً ذوي التوجّهات الاندماجية التغريبية أو ذوي التوجّهات الوطنية الإسلامية المناهضين للاستعمار الفرنسي [1] .

أنّ بعض التصوّرات السياسية النقدية لمفكّرنا تعكس هذه البيئة الاستعمارية التي تتضمّن موانع وعراقيل لنهوض الشعب الجزائري. والجملة التّالية توضّح صورة من هذه البيئة حينما يقول على مجازًا على لسان المعمّرين المستوطنين " ذروا هذا العربي العنيد المتوّجش تحت تصرّفنا عاملاً في كرومنا وحقولنا شقيا لتنمية سعادتنا وثروتنا ليعيش مغبونا مُهانًا وإلاّ فإنّه متى رفع رأسه يضع قدميه على رؤوسنا ويمتهن شرف فرنسا ...] [2].

إذن لم يكن يبيّن ويدعو لنشر التعليم- نظرًا للدور المنوط به في نهوض الشعب، وإنّما أيضا كان واعيا بقوة التعليم في إبراز الطاقات الكامنة لدى أبناء الشعب، الذين هم كما رأى رجال الغد المعوّل عليهم لإعادة الأمل ومحاربة أهوال المستقبل. من هنا نفهم تلك المطالب الآنية الإصلاحية آنذاك الداعية للتكفّل بمسألة التعليم الإبتدائي وفق مصلحة الأمّة الجزائرية. والتأكيد على خصوصية التوجّه التعليمي الديني وتبعا للمبادئ التي دعى فيها الحكومة الفرنسية احترامها والعمل على استعادتها وتعزيزها حيث كتب بضمير المتكّلم:

[ حاجاتنا إليها أن تحترم قوميتنا وملّتنا وأخلاقنا وتمهّد لنا السبيل لنسترجع ما فقدناه من هذه الأصول الثلاثة. وتسمح لنا بفتح المدارس لتهذيب أبنائنا على وفق مقتضيات مصلحتنا ثم مصلحتها بحيث يكون التوازن ثابتا بين المصلحتين وذلك بالتعليم الديني والأخلاقي على حسبنا والتعليم العمراني والعملي على حسبها ...] [3].

إذن نلاحظ كيف أصبح المفكّر عمر بن قدور يطالب بفصل التعليم الديني عن التعليم العام المتكفّل به من قبل الحكومة الاستعمارية. وهذا إنشغال ثابت ودائم في مساره الفكري التنويري، ولعلّ ما وضحناه آنفا يجيب على هذا التوجّه. ثم إنّنا وجدناه ينتقد المناهج التعليمية في بعض البلدان الإسلامية، التي لم تعمل على تجديدها، واكتفت ببعض المواد القديمة التي لا

---

[1]– Voir : Philippe Millet : Les Jeunes Algériens – in La Revue de Paris- le 1-11-1913- p : 160- 181.

[2] – أنظر مقالة " طور جديد للجزائر وللجزائريين "- الفاروق – بتا: 20 فيفري 1914.

[3] – في المصدر السابق نفسه.

تتماشى والتطوّرات العصرية. فكتب قائلا: [ إنّ التعليم في بعض البلاد الإسلامية يكاد يكون متناقضا. فإنّ كثيرًا من المدارس تلقّن الشبيبة التي تفد عليها نوعين من الدروس كلّ درس منهما يصارع الآخر لحتل قبله قلب دارسه. يتلقّى الطالب في هذه المدارس أنواعًا من درس التصانيف القديمة في النحو والصرف والمعاني إلخ. بينما يتناول نصيبا عظيما من الفقه والتفسير (على تلك الصورة الخرافية والتوحيد (على تلك الصورة الجدلية) والحديث، وفي الوقت ذاته يقرأ دروسا جليلة من العلوم العمرانية على أساتذة أجانب والفرق بين تلك العلوم وهذا ظاهر كما أن الفرق أيضا بين الأساتذة العصريين وأولئك العاكفين على تدريس العلوم العتيقة ظاهر ...].

إنّ مفكّرنا يدعو إلى تجديد البرامج التعليمية بإدراج مواد جديدة حديثة يدعوها بالعلوم العمرانية أو العصرية وتوحيدها ودمجها على المواد التعليمية القديمة والدينية. ورأى أن كلّ العلوم هي علوم إسلامية، بمعنى يمكن تكييفها وتدريسها للشبيبة الناهضة. وضرب مثالاً بالتاريخ كمادة عصرية لكن يقوم بتدريسها أساتذة أوروبيين الذين يمجّدون عبرها تاريخ حضارتهم أمام تلاميذ بلدان إسلامية. فقال: [ لما كان التاريخ من العلوم العصرية فقد علم أساتذته الأورباويون (طبعا) كيف يعملوا لغزو قلوب الطالبين وإخضاعها لسلطة المجد الأوروبي وهكذا بثّوا في قلوبهم مقت أمّتهم وملّتهم ...] [1].

إنّها نظرة واعية بمخاطر الغزو الفكري المتسرّبة عبر المؤسّسات التعليمية، وبالتالي فهو لا يدعو إلى تجديد البرامج فقط، إنّه يدعو إلى تكوين مؤطّرين أكفاء وتحديث طرق التدريس، وفقا للخصوصية الثقافية والتاريخية للعالم العربي الإسلامي عمومًا، وللجزائر خصوصا.

إنّ تجديد محتوى برامج التعليم ظهر أيضًا كما سبق وأن ذكرناه في العمل على إحداث توازن ما بين التعليم الديني ومبادئ العلوم الاقتصادية، ثم تأكيده على نوع من التعليم العملي أو المهني، أو كما يسمّه أحيانًا بالتعليم الصناعي. إنّها من الحلول التربوية والتكوينية لمشكلات اجتماعية مرتبطة بمأساة الأمّية والبطالة في أوساط أبناء الجزائريين إبّان تلك المرحلة التّاريخية من الفوضى الاجتماعية والأخلاقية. في مقال استنهاضي نشره بجريدته (الفاروق) في شهر فيفري 1914، تحت عنوان ذي حمولة دلالية هو: " انهضوا يا قومي نهضة " وبعد ردّه النقدي على أصواتٍ يائسة نابعة من أفراد يظنّون أن نهضة المسلمين الجزائريين غير ممكنة.

[1] – في المصدر السابق نفسه.

يؤكّد هو أنّ النهوض ممكن، وأحد أركانه التعليم الديني والتعليم المهني الصناعي معًا للأطفال: [ تعليم الأطفال تعليما دينيًا أخلاقيا عمليًا صناعيًا، فإذا أحرز الشعب على طبقة عالمة عاملة متنوّرة ينبت فيه الشعور والإحساس بحكم الضرورة ...][1].

وعبر جريدة " الإقدام " وبالرغم من تأسيس جمعية علمية تربوية على مستوى العاصمة سنة 1920 [2]، إلاّ أنّ عدم وجود مدرسة حديثة جزائرية، وتدرّس باللّغتين العربية والفرنسية، وافتقاد المؤسّسات التكوينية المهنية جعله يكرّر نداءه التنويري من أجل مصير أبناء الفئات الفقيرة، حيث قال سنة 1921: [ ... وعاصمة الجزائر ليس فيها مدرسة أهلية، لتعليم اللّغتين الفرنساوية والعربية على النسق الحديث الجديد ولا مدارس صناعية لإنقاذ الصبيان من رذائل الأزقّة، فالواجب على الأهالي التعاضد لجمع ما يجب من المال للمبادرة في العمل [ وما تنفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ] [3].

ويبقى الانشغال الإصلاحي في هذا السياق واضحًا حسبما توصّلنا إليه في مختلف النصوص الصحافية في النصف الأول من عشرينات القرن الماضي متجاوزًا بدعوته لتأسيس المدارس العلمية والصناعية، المسألة التعليمية إلى المسألة الاجتماعية والصحّيّة بإحداث وإنشاء المستشفيات لإيواء وتربية الضعفاء والمساكين من خلق ا ، الذين ما هو، وهذا حسب تعبيره الخاص إلاّ إخوانًا في الدين والجنسية والوطنية والجادة البشرية، للنخبة الفاعلة من الأغنياء. ويعتبر الإخلال بهذا الواجب مسؤوليةً تقع على هذه الفئة [ أمام التاريخ وأمام ا يوم الدين يوم لا ينفع مال ولا بنون ...] [4].

كشفت لنا الدراسة عن قناعة تنويرية أخرى، وهي مرتبطة بمطلب إجبارية التعليم. ويبدو لي أنّ هذا يتماشى تماما وما توصّلنا إليه فيما يخصّ هذه القضية المصيرية حقًّا بالنسبة إليه. إن أحد العناصر التحليلية التي اعتمدها في تفسير الإنحطاط الحضاري للعرب المسلمين بسبب الانحراف في روح الاعتقاد هو عدم تفطّنهم للنظام الإجباري في التعليم، الذي كان أحد مظاهره السلبية إهمال اللغة العربية في التدريس، وبالتالي أدّت هذه الوضعية إلى قصور في فهم النص القرآني المقدّس، خاصّة بعد اختلاطهم بأجناس أخرى خلال فترات الفتوحات

---

[1] – أنظر- (الفاروق): مقالة " انهضوا يا قومي نهضة " بتاريخ: 27 فيفري 1914.

[2] – أنظر (الفاروق) السلسة الثانية – بتاريخ: 29 أكتوبر 1920.

[3] – بصحيفة ( الإقدام) مقالة: " شعور أبناء الجزائر " بتاريخ: 26 أوت 1921.

[4] – هذا من مقال له غير ممضٍ تحت عنوان " أفما تتألّمون ؟ " بجريدة (التقدّم) الجزائرية، بتاريخ: 15 فيفري 1914.

والتوسّع الجغرافي. حيث كتب: " لو تبصّروا لإقامة النظامات العلمية لحفظ لغتهم من التلاشي على النحو الموجود في هذا العصر عند الأمم الأوروبية بتعميم التعليم الإجباري لتسنّى لهم أن يبلغوا شأوًا أرفع من الشأو الذي نالوه في توحيد كلمتهم وحفظ قوميتهم ...] [1].

ولإيضاح هذه النقطة، نشير إلى تأكيدها من خلال افتتاحية العدد الأول من صحيفة (الصدّيق) حينما حدّد السياسة التحريرية لها. حيث اعتبر الصحيفة منبرًا للنهوض بالقيم الأخلاقية والإنسانية للشعب الجزائري وتعمل باجتهاد وثبات على [ بث المعارف بين كافة الطبقات خصُوصًا طبقة الشبيبة الصغيرة النابتة وأن يكون التعليم إجباريًا محرزًا على الحظّ الوافر من اللغتين لغة الدين وهي العربية ولغة الجنس الحاكم أي الفرنسوية التي تجعل المصالح المشتركة سهلة المآخذ ] [2].

لاحظنا أيضًا من خلال مختلف النّصوص محلّ الدراسة هذه، مدى اهتمامه الإعلامي ومتابعته للحياة الثقافية والنهضوية في الجزائر، وهذا الاهتمام يصبّ في المسار التنويري الذي اتّخذه ويتجاوب معه حيث أبدى في السياق التعليمي تنويهه بالحركية المتصاعدة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، الدالة على وجود نهوض فعلي وقناعة لدى نخبة مثقّفة وسياسية بضرورة العمل لتنفيذ التعليم الابتدائي الإجباري. لانتشال العاطلين من أبناء الشعب في تشكيل جمعية تعمل على فتح المدارس للتغذي بالمعارف وباللغتين. وهوة يقصد هنا جهود الزعيم السياسي الجزائري الأمير خالد، الذي ألقى محاضرة وخطبة بالمجلس البلدي للعاصمة في شهر أكتوبر من سنة 1920، تعكس رهانات العلم والتعليم، بإعداد الهياكل السالفة الذكر [3].

واعتبر في نّص آخر في صحيفته " (الفاروق) السلسلة الثانية " أنّ هذا السلوك يعبّر عن وعي بأهمّية هذه المسألة التي طالما كانت محورًا تنويريًا في نشاطه الصحافي قبل الحرب العالمية الأولى حيث قال منوّها: أنّ [ هذا الشعور شريف طالما حوّلنا الأنظار نحوه وبسطنا المقالات الضافية في " الفاروق " القديم لإقامته بين أنصار المترفين منّا مقام الاعتبار والاهتمـام ...] [4].

---

[1] – في صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 15 جوان 1914.

[2] – بصحيفة (الصدّيق)- العدد 1 بتاريخ: 12 أوت 1920.

[3] – أنظر (الفاروق) السلسلة الثانية- بتاريخ: 15 أكتوبر 1920.

[4] – (الفاروق) بتاريخ: 22 أكتوبر 1920.

وبالرّغم من بروز إحدى ثمرات دعوته الإصلاحية بتأسيس " جمعية الشبيبة الإسلامية الجزائرية " بالعاصمة سنة 1922، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، إلاّ أنّ الهمّ التنويري بقي يشغله، ما دام قلمه الصحافي العقلاني يخطّ على صفحات الجرائد مقالات استنهاضية عميقة المعالجة لهذا العنصر المحوري من فكره. فعبر مقال له تحت عنوان مؤثّر هو: " نفثة مصدور "[1] أمضاه بـ: " غبور " ضمّنه الكثير من أفكاره التي أوضحناها، فإنّه يمهّد له ببيتين من الشعر قائلا:

**بني وطني لا تيأسوا وانهضوا بنا لنيل المعالي فالكمال له ذخـر**

**أفيقوا أفيقوا وامتطوا جانب العُلى فللْيُسر كرّات إذا امتاك العُسر**

يؤكّد على مبدأ إلزامية التعليم لكلّ فئات الشعب، فيقول مخاطبًا إخوانه الجزائريين بضمير المتكلّم: [ أين أين بني الإسلام، بني وطني إنّي لا أجد دواء غير بث التعليم بين الكبير والصغير بين الغنّي والفقير فعلّموا أولادكم وهذّبوهم واجعلوا التعليم إجباريًا فلا حياة مع الجهل علّموا أولادكم كما يريد ا ، علّموهم كما علّمنا محمّد عليه السلام ...].

إذن لم تتوقّف رؤية المفكر عمر بن قدور الجزائري عند حدّ إلزامية التعليم الابتدائي وبالفعل فإنّ نصوصًا صحافية أخرى كشفت عن سعة هذه الرؤية بتكوين الشبيبة تكوينًا عاليًا. وحركية النهوض التي نوّه بها على المستوى الوطني (قسنطينة ولدى سكّان ميزاب من الجنوب الجزائري على سبيل المثال) جعلته يحثّ ويدعّم هذا التوجّه في التكوين. ويكفي أن نشير إلى افتتاحيتي العددين (3) و(4) من سلسة (الفاروق الثانية) حتّى نستشفّ هذا الطموح التنويري الواقعي. فهو يعبّر عن وجود مسعى عملي يعمل على ضرورة تشكيل جمعية خيرية لمساعدة طلبة العلم على الدخول إلى المدارس العليا بالجزائر وفرنسا ومصر وبذلك تتكوّن إرساليات علمية. حتى يكون لدينا كجزائريين الفلاّح المتقن للفلاحة العصرية والمهندس والطبيب والصيدلي والمحامي الضليع والميكانيكي البصير والأستاذ الديني البصير [2].

إنّ التطوّر الذي يراه، هو التطوّر النهضوي لكلّ مكوّنات القوى الفاعلة في هذا العصر، من أجل مستقبل الشعب الإسلامي الجزائري. كتب قائلاً: " لعلّ النتيجة بعد التعليم الابتدائي تكون بتوصّل الهيئة العلمية إلى بعث إرساليات طلبة العلم نحو عناصره ومواطنهن ومساعدتهم

---

[1] – بجريدة (التقدّم) بتاريخ: 15 أكتوبر 1923.

[2] – في العدد الثالث (الفاروق – السلسة II) بتاريخ: 22 أكتوبر 1920.

على التغذّي بلبان المعارف في مدارس العاصمة وفي مدارس ما وراء البحار. لأنّ النموّ الذي نرجوه لنهضتنا يجب أن يكون محتويًا على مجموع القوى الكفيلة بالحياة الدايمة. وهذه القوى لا يمكن جلبها والمحافظة عليها إلاّ بالنبوغ في الفنون المختلفة القابضة على عنان العمل في هذا العصر النشيط ...].

لقد اتعبر هذا الوعي بالنهوض الشامل في مختلف ميادين التعليم والاقتصاد، وفي أرجاء الوطن، روحًا جديدة وشعورًا بحتمية النهوض في وسط الشعب الجزائري ومرتبط بمبدأ السنن الكونية.

لكن ثمّة مكوّن فكري، أظهرته دراستنا، يرتبط بشمولية دعوته التنويرية والإصلاحية، فيما يتصل بنسق المنظومة التعليمية.

هذه الشمولية التي تستوعب وتستهدف نشر التعليم في الوسط الجزائري لجميع الفئات الاجتماعية، بما فيها المرأة الجزائرية. وبالفعل فقد أظهرت دراستنا وجود اهتمام تنويري وتوّجه إصلاحي عقلاني يدعو إلى ضرورة تعليمها وتكوينها للإسهام في الدفاع عن مصالح الشعب، والمشاركة الفعّالة في بناء وتغيير الواقع، أملاً في مستقبل أفضل للأمّة الجزائرية الواقعة آنذاك تحت نير الاستعمار والاستعباد. نظرًا لهذه الخصوصية إرتأيت توضيح هذه المسألة الحيوية من فكر عمر بن قدور الجزائري.

## الحث على تعليم المرأة الجزائرية:

إنّ مفكّرنا يضع مسألة تعليم المرأة في سياق مشروعه التنويري كرهان وارتكاز لتجسيد سبل النهوض الفعلي بالمجتمع العربي والإسلامي على العموم. وبالمجتمع الجزائري على الخصوص. فالتأخّر الملاحظ بالنسبة إليه حضاريًا، ومقارنة بالمجتمعات الغربية، أحد مظاهره المعيقة للتقدّم وللنهوض يتمثل في ظاهرة حرمان المرأة من التّعليم. إنّه اعتبر أن الخلل كامن في هذا التغييب لهذا العنصر البشري الحيوي في بناء الذات المسلمة المعاصرة، إلى جانب مختلف الإرتكازات الفكرية التي تناولناها من خلال مقاربتنا التحليلية لنصوصه الصحافية. هكذا وفي شهر نوفمبر من سنة 1912 يكتب مقالاً في جريدة (الأخبار) تحت عنوان " احتكاراتهم واحتكاراتنا "[1] حيث وجدناه يؤكّد على هذا المنحى قائلا: " الخلل موجود في الحركة التهذيبية

[1] – بجريدة (الأخبار) بتاريخ: 8 نوفمبر 1912.

عند الشرقيين إن صحّت دعوة المختّل حركة تليق نسيتها إلى التهذيب وأظهر وجوه هذا الخال إثنان أوّلها حرمان المرأة من التغذّي بلبان المعارف والثاني قصر تعلّم الرجل على قواعد اللغات، فبقى نصف الشرق بهذه الطريقة في ظلام دامس والنصف الآخر قليل النور، إنّ هذا الخال عظيم لا تتحقّق معه رغبة راغب في مجاراة الأمم الحية ".

رأينا سابقا كيف أنّ مفكّرنا قد أولى أهميّة قصوى لتأسيس الهياكل الاجتماعية وبناء المؤسسات التعليمية الحرّة والمستقلّة عن المنظومة التربوية الاستعمارية بالجزائر، وبالتّالي ألّح على ضرورة تعليم الأطفال على العموم، بدون أن يحدّد أو يفرق بين البنين والبنات. لكن قناعته بجدوى حيوية هذا الارتكاز في إيجاد الأمل في تحسين ظروف واقع الجزائريين تغييرًا لمصيرهم، الذي يعكس مأساة الشعوب المستعمرة التي يُراد بها إبادة هويّتها وطمس تاريخها، وبالتالي تهديد وجودها، وجدناه يحدّد ويستهدف بنصوصه الاستنهاضية مختلف النّخب الفاعلة، من مفكّرين وعلماء دين وأغنياء وأولياء من أجل أطفال هذا الشعب الجزائري الذين هم أمل مستقبل مظلم عظمت مشاكله. وينبّه إلى أنّ المسؤولية التربوية تتحمّلها كلّ هذه الفئات إزاء الأبناء. فكتب في مقالٍ تحت عنوان " نحو المستقبل: هل من نهضة إلى التقدّم بالتعليم ؟ ؟ ؟"[1] [ ... البنات والبنون كلّهم عرضة لهذا الويل الشديد المقبل عليهم والمقبلون عليه، يُخشى عليهم منه لأنّهم جاهلون أبناء جاهلين، وأشقياء خرجوا من أشقياء وأغبياء أنجبهم الأغبياء. لا يعقلون دينا صحيحًا يتمسّكون بأذياله، ولا علما نافعًا يصونهم بجلاله ... كأنّي بهم وقد جاءوا وقلوبهم شتى لا يعرفون لقوميتهم مجدًا ولا لملّتهم قدرًا ... كأنّي بهذا الشعب إذا ذاك وقد أصبح محتضرًا واقفا على مصرعه موقف الأمم التي أبادها ا لـمّا كذّبـت بكـلمته وانتهـكت حرمات ملّته...].

ثمّ إنّه اعتبر جهل المرأة الجزائرية خسارة للمجتمع الجزائري المسلم، لأنها تتحمّل جزء من المسؤولية التربوية في مؤسسة الأسرة وفي توازنها الاجتماعي والأخلاقي.

فبجهلها قد يضعف الشأن الديني، ويتم الإخلال بهوية وقومية الشعب. حول هذا الرهان فيما يتّصل بخصوصية هذه المسألة ودورها في تقليص كوارث الفوضى الدينية والأخلاقية، كتب نصا هامًا في صحيفته (الفاروق) في شهر نوفمبر 1913 تحت عنوان دالٍ هو: " بجهل المرأة المسلمة وأحلامها الفاسدة نال الشعب من كوارث البدع ما ناله ". الذي يشكّل خطابًا

[1] – أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 19 ديسمبر 1913.

تنويريًا واضحًا، لا بُس به، ولحظةً، توقف فيها مفكّرنا أمام قضية لازالت لحدّ الآن، محلّ اهتمام المؤسّسات المحلّية التربوية والثقافية، وكذلك لدى الهيئات الدولية.

فأحد الآفات الاجتماعية الحائلة دون تفعيل حركية النهوض لدى المسلمين تكمن في رأيه في إهمال هذا الجانب، فبجهل المرأة أصاب الدين أمراض اعتقادية، جعلت إصلاحه صعبًا حيث قال [1] :[ لو قيّض ا للمسلمين أن يدرسوا حقائق الأسباب التي منعتهم عن النهوض إلى تنمية حياتهم وحفظ حيّزهم القومي من أدواء الاضمحلال لعثروا بجهل المرأة المسلمة يقرض عُروة الجامعة كالجرز ويقطع ظهر الملّة كالسيف ...].

يرى، في نفس النّص، من أنّ الجزائريين لا يمكن أن يتصوّروا أهمّية الإيجابيات المترتبة عن تنوير المرأة وتعليمها، خاصة وأنّهم يعتقدون تعليمها خروجًا عن الدين، وهذا الموقف منهم يعكس في الواقع جهلهم لروح التعاليم الإسلامية في هذا المجال. لكنّه يوافقهم إذا ما تعلّق الأمر بإرسال البنات للتمدرس في المؤسّسات الاستعمارية [2]: [ لاشكّ أنّ المسلمين ينكرون المنفعة العامّة التي تعود على الجامعة من تعليم المرأة فصاروا يعدّون ذلك بهتانًا عظيمًا وفُسقا لا يُغتفر إثمه ... وقد تخيّل لهم أنّ ما وراء ذلك خرقًا للناموس وخروجًا عن الآداب القومية وتمزيقا للشعائر القومية، وإنّهم لصادقون لو كان التعليم مَوقُوفا على النظام الأجنبي الطارئ، ولكنّنا نقول لهم ابعثوا في المرأة المسلمة روح الآداب الدينية ثم انظروا معنا إن كان في جهلها نفع أو إن جهلها خطر عليكم ووَبَال على الجامعة مهين ...].

ولكي يبيّن خطر حالة المرأة الأمّية والجاهلة، يقوم بتعداد السلوكات المنافية للقيم الإسلامية، وهي تومىء إلى وجود نوع من الاستغلال المادي والمنفعي لهذه المرأة، وبالتالي إخلال بنهوض الشعب الجزائري. فهو يوضّح، أنّ هذا النوع من النساء الجاهلات يرمين بالأموال للدجّالين ولأضرحة الصالحين و" للبخور " و" الشموع" و" دم الذبائح "، ما يفضي بالرجال إلى عدم الإنفاق على المرافق الحيوية الاجتماعية، التي ينبغي إنشاؤها لمصلحة التعليم ولمصلحة هيكلة التعاون وتنظيم التكافل.

فهكذا يتمّ تجريد الجيوب على كلّ تلك البدع الفاسدة التي تؤدّي إلى الإفلاس أو الفقر، لأنّ النّساء هنّ المدبّرات وجهلهن هو الملك المسيطر المستبّد كما قال، فلو كانت المرأة متعلّمة

---

[1] – أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 28 نوفمبر 1913.

[2] – في المصدر نفسه.

متشعّبة بروح الإسلام الصافية لأنفت همّتها لأن تخضع لخزعبلات التصّابين والنّصابات ولحافظت على أموال زوجها [(1)].

يؤكّد مفكّرنا أنّ دور المرأة في مؤسسة الأسرة والمجتمع يكتسي خطورة كبيرة، تنعكس على حاضر الشعب ومستقبله. خاصّة وأنّ أوّل تأثير لها يبدو في الأبناء. فلو كانت متنوّرة بنور العلم وقيم الأخلاق الصافية لحفظتهم من الانزلاق في مسالك البدع ومسارات الطرق الصوفية المنحرفة ولغرست فيهم حبّ الاستقلال الذاتي والشهامة. فقال في ذات النص: [لو كانت المرأة متهذبة متنوّرة بنور مبادئ السلف لمنعت ابنها أن ينخدع بحبل الفرق المبدعة من متصوفة هذا الوقت، ولبثّت تعاليم الإسلام الحقّة في ذهنه من حيث لا تهزّه رياح الأوهام ولا تصيبه حبايل الطغام. ولكن لمّا كانت المرأة المسلمة لسوء الحظّ جاهلة أخرجت شعباً كسولاً وأنبتت نباتًا خبيثاً...] [(2)].

أمّا على مستوى الفعالية الاجتماعية، لهيكلة التنظيم الإصلاحي، فيرى أن تعلّم المرأة يجعلها تعي لأبعاد النفعية للأعمال الخيرية، وهذا ما يجعلها تؤثر في زوجها للمساهمة في إنشاء ملاجئ ودور للأيتام وبناء مدارس للأمّيين، وإنشاء النّوادي الثقافية. لكنّه أبدى تحسره العميق إزاء الواقع الجزائري. فلاحظ أن أموال الشعب تصرف في الأغراض الفاسدة المنتقد لها دوماً، باعتبار أن مرض الجهل أو الأمّية قد تفاقم خطره، فتجاوز المرأة إلى أبناء، ومنه عم كافة فئات الشعب. فكتب قائلاً:

[ وهكذا أودى جهل المرأة المسلمة بالشعب الإسلامي فأراداه، وسلبه روح الدين فأغواه. هكذا تذهب أموال الشعب في هذه والشكل عبثا فصارت الجيوب تجود على المشاريع الفاسدة التي لا تنسى ولا تغني من مجموع بل تزيد الشعب همجية واغطاطاً، هذه هي الفوضى الأخلاقية التي سادت على المسلمين... وإذا جاءتم مرشد منهم يطلب نهضة إلى التعليم، وإسراعاً إلى التربية والتهذيب... تهز أدمغة الذين قلوبهم مرض... كهربائية البخل...] [(3)].

ونلاحظ عبر نصوصه الصحافية استمرارية دعوته التنويرية وقناعته بجدوى وأهمّية تشكيل الجمعيات الثقافية ذات الاهتمام التربوي، من خلال إلحاحه على ضرورة تربية الأبناء

---

(1) – أنظر المصدر السابق نفسه.

(2) - في المصدر السابق نفسه.

(3) - في المصدر ذاته.

والبنات معًا، مثلاُ في نصّ تحت عنوان " نحو المستقبل "[1] المنشور في صحيفة ( الفاروق) في شهر ديسمبر 1913. أو من خلال مقال له بعنوان " كوارث الفوضى الدينية والأخلاقية " المنشور في السلسلة الثانية من هذه الصحيفة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وبالضبط سنة 1920 [2]. حيث يعيد طرح مأساة أمّية المرأة وضرورة تعليمها، بنفس صيغة المقال الذي نشره سنة 1913 تحت عنوان [بجهل المرأة المسلمة ..] السالف الذكر. وحتى عبر صحيفة (الإقدام) يعيد نشر أحد نصوصه السابقة التي تصبّ في هذا الموضوع أيضا وهذا سنة 1922 [3].

لم تذهب جهود المفكر عمر بن قدور الجزائري سدى، فقد بدأت تعطي بعض ثمارها بتأسيس مدرسة الشبيبة الإسلامية الجزائرية سنة 1923 كما أوضحنا سابقا، وفيما يخص انشغاله التنويري بمبدأ تعليم المرأة الجزائرية وجدناه، كما بيّنا في العنصر الهام المتعلّق بنشاطه التعليمي، يواجه الصعوبات المادية في تسييرها، وكيف كان يطمح لتحويلها إلى مدرسة كبرى تستوعب العدد الكبير من الأولاد والبنات. وكانت النتائج الأولى لجهود كمدير وأستاذ لهذه المدرسة، بروز بنات جزائريات متمكّنات من القرآن الكريم، ويؤدّين تمثيلات مسرحية قصيرة بلغة عربية سليمة وراقية. وبقي عاملاً على استمرارية التدريس وتشجيعه لغاية وفاته سنة 1932.

لكن يبدو لي أنّ طموحه في جعل المرأة الجزائرية تقوم بمهامها التربوية والاجتماعية بعد تعليمها وتنويرها، ظهر حقّا حينما توفّيت له بنت (لدى ولادتها) سنة 1914. حيث كتب وتحدّث بلغة الأب الواعي ذي الوجدان الإنساني، الذي كان ينظر إلى ابنته كمشروع إنساني نهضوي وقومي للشعب الجزائري.

فلا حياة للشعب إلاّ بالتكفّل التربوي بالأطفال جميعهم. فها هو المفكّر الإنسان يخاطب ابنته المتوفية، مطلعًا شعبه على آلامه وآماله الحقيقية في هذا الجانب [4]: "لو بقيت لأمتاز عملي لتهذيبك عن بقية الأعمال، لو حييت لأحتملت لأجلك الأحمال الثقال لتروّت لأجلك كلّ صالح فأحمله وكلّ حسن في ضميرك أبثّه، أقمتك على ما أقمتُ عليه نفسي، وأزيد على ذاك، أوسّع

---

[1] – أنظر (الفاروق) العدد: 41- بتاريخ: 12 ديسمبر 1913.

[2] – " كوارث الفوضى الدينية والأخلاقية " (الفاروق) بتاريخ: 10 ديسمبر 1920.

[3] – أنظر مقاله " نحو المستقبل " صحيفة (الإقدام) بتاريخ: 8 سبتمبر 1922.

[4] - الفاروق: العدد 45- جانفي 1914.

اك المقام في صدري وفي حياتي ليكون مستقبلك مستقبل والدة تعمل لإنماء جزء شريف من الشعب، ولتكوني كما أبغي والدة أطمح إلى وجود مثلها في كلّ بيت من بيوتات قومي ...].

لقد عبّر عن إدراكه لأهمّية التكفّل بتربية البنين والبنات من قبل مؤسسة الأسرة، وعن تصميمه في مواصلة دعوته التنويرية لأبناء شعبه حتّى يعوا ويتذكّروا دومًا [ أن لا حياة لهم يتمتّعون بخيرها يقدّموهم ضحايا الإهمال والفجور والجهل والغرور، لعلهم يفقهون أنهم لا ينالون فلاحًا في هذا الوجود ما داموا لا يتناسلون إلاّ ليبعثوا شعبًا شقيا من بين الصّلب والترائب يذوق ألم الذل والهوان والجوع ... بين الشعوب الراقية والأمم المتمدّمة ...].

## هيكلة المشروع الإصلاحي بالتنظيم:

كشفت مقاربتنا التحليلية لمختلف النصوص الصحافية لمفكّرنا عمر بن قدور الجزائري عن وجود ارتكاز فكري استراتيجي، يعتبر عنصر التنظيم أداة ووسيلة فعّالة في تفعيل الحركية التنويرية قصد تجسيد مشروعه الإصلاحي. فقد أدرك، وهذا منذ البدايات الأولى لنشاطه الصحافي، أنّ قضية أي إصلاح أخلاقي أو إجتماعي، لا يمكن أن تؤثر فعليا في الواقع، إلاّ إذا كانت مهيكلةً ومنظّمة. بمعنى العمل من أجل وجود مؤسسات أو هيئات سيّرها وينشّطها وتشرف عليها نخبة متكافئة متظافرة من قوى المثقّفين والعلماء والأغنياء. كان واعيًا كما أشرنا إلى ذلك مرارًا في هذه الدراسة إلى الأخطار والكوارث التي تتهدّد كيان الشعب الجزائري، خاصّة وأنّ البيئة الاستعمارية، سواء جرّاء سياسة حكومة الاحتلال الفرنسي، أو جرّاء مواقف المعمّرين الأجانب الذين استوطنوا الأرض الجزائرية، كانت تعمّق من مأساة تفكيك الهوية الجزائرية الإسلامية والروابط الاجتماعية للشعب. لهذا فالنصوص تؤكّد قناعته المبكّرة بجدوى هيكلية النشاط التنويري، التي يلتقي خلالها النخبة من أجل التشاور والتفكير والعمل الميداني، لإيجاد الأمل في التعبير وللنهوض بالأمّة من أجل مستقبل أحسن وأفضل.

والذي ينبغي أن أؤكّده في هذا السياق، أن رؤيته الفكرية في هذه القضية، امتدّت إلى غاية منتصف العشرينات من القرن العشرين، بحيث شكلّت إنشغالاً أساسيًا موازيًا لمضامين مشروعه الإصلاحي فمن خلال نصّه الصحافي المعنون بـ: " صوت العلم " [1] المنشور سنة 1908 والذي يعبّر فيه عن خشية تطبيق قانون فصل الدين عن الدولة في المنظومة التعليمية الفرنسية، وعن انعكاساته على الناشئة الجزائرية المسلمة، دعا إلى التفكير، كما أشرنا من قبل، في تدعيم التعليم الديني الإسلامي، فبالإضافة إلى مطلبه في إدراجه بالمدارس التي يرتادها أبناء الجزائريين، والتي تقع تحت إشراف حكومة الإدارة الاستعمارية، فإنّه لمواجهة هذا الواقع، دعا فئة الأغنياء بالدرجة الأولى للإسهام في تأسيس جمعيات تربوية مستقلّة. فكتب [ أمّا كلمتنا لإلى حضرات الأغنياء ... فإن يجتمعوا ويتحّدوا ويؤلّفوا جمعية إسلامية مستقلّة ويكتتبون (كلّ) بما تسمح له نفسه ويؤسّسون مدرسة أو مدرستين على التأسيس الموجود في مصر وتونس من التعليم الديني والعصري ...].

---

(1) – جريدة " الأخبار " بتاريخ: 31 ماي 1908.

إنّ توصّلنا لمعالجة البعد الأخلاقي في فكره، أظهر ذلك الارتكاز القيمي المتكوّن من عناصر أساسية أبرزها: التعارف والتفاهم والتعاون والاجتماع. إن وعيه بالبناء الأخلاقي للنخبة ولمختلف فئات المجتمع دلّ على تكامل هذا البعد الاجتماعي، فباجتماعهما يمكن تجسيد المشروع التنويري. من هنا نفهم انتقاده الشديد لمّا سعت صفوة من الشبيبة الجزائرية المثقّفة والمنشغلة بحالة إنحطاط الأمة، إلى تأسيس جمعية مسرحية. إنّه من جهة يرى في هذا التأسيس دليل وجود حركة ثقافية ودليل وجود وعي وشعور وطني. حيث كتب في مقال تحت عنوان " الحركة الأدبية: بين التعليم والتمثيل " قائلاً: [ ... اعتبرناها حركة أدبية من جهة أنّ القائمين بها هم من صفوة الشبيبة الجزائرية وأن لهم شعور حيّ لم يستطيعوا في نفع الوطن فا،دفعوا بقرته إلى تأسيس هذه الجمعية التمثيلية ورغما عن ذلك فإننا لا زلنا نأمل من ا سبحانه وتعالى أن يحوّل قلوب تلك الجماعة إلى السلوك في سبيل الإصلاح ...].

لكن من جهة أخرى يعتبر هذا التأسيس قضية حيوية، لأنّه نوع من التنظيم والاتحاد، ولهذا هو يشجّع هذه المبادرة، ولكن يريد لها أن تتوجّه بالدرجة الأولى للعمل التربوي والتعليمي، الذي هو في تلك اللحظة التاريخية من الضروريات، بحيث يوضّح موقفه قائلا بأنّه نوّه بخبر تأسيس تلك الجمعية المسرحية أيضا [1]: [ تشجيعا لهذه الفئة المجتمعة المتّحدة على إنشاء أمر حيوي بقطع النظر عن الخطّة التي رسمت لها وقصدنا أن ننصح أعضاءها والقائمين بتأسيسها كتابة أو مشافهة لعلّهم يرجعون عن الخطّة التي رسموها وهي التمثيل وحثّهم على انتهاج طريق التعليم والنسج على منوال الجمعيات الإسلامية ومقتضى ما نشرناه في العدد الماضي من جريدتنا [2]...].

وفي خلاصة هذا النّص يدعو أعضاء هذه الجمعية إلى تأسيس جمعية عربية تعليمية، وعبّر عن سعادته إذا ما تمّ إنشاءها بحيث أعلن عزمه انخراطه فيها، حتى تسعى لفتح مؤسسة مدرسية مستقلّة، ويكون هذا الفِعل الواقعي التنويري دليلاً على حياة الشعور والوعي [3]. لكنّه عبّر أيضا عن نقد شديد ومقاومة لمثل تلك الجهود في المجال المسرحي إذا ما توصلت.

ومباشرة بعد هذا المقال، يكتب نصا آخر تحت عنوان استفهامي: " ما هي الوسيلة الناجعة " يستهدف فيه فئتي العلماء المرشدين والأنبياء داعيًا لهما إلى تأسيس جمعية ثقافية

---

[1] – في المصدر السابق نفسه..

[2] – يقصد جريدة (الأخبار) العدد بتاريخ: 31 ماي 1908.

[3] – أنظر مقالة: " الحركة الأدبية: بين التعليم والتمثيل " الأخبار: 7 جوان 1908.

تربوية. لأن الجزائريين في حاجة إليهما لإرشاد الأمّة، وإخراجها من وهدة السقوط الحضاري، لتدخل عالم التمدّن العصري. واعتبر هذا العمل الميداني التنويري نوعًا من الجهاد الوطني. لهذا لمّا تساءل في ثنايا النّص قائلاً: [ ... كيف العمل لرفع الحجاب الحائل بيننا وبين نور التمدّن العصري والسعادة الحالية ؟ ..] [1].

فالوسيلة في رأيه تتجسّد تنظيميًا في وجود الرجال من العلماء المصلحين وفي وجود المال لدى فئة الأغنياء. كتب موضّحا في جريدة (الأخبار) سنة 1908 قائلا: (فليؤسّس الجزائريون جمعية لإحياء العواطف والعقول وتنمية المعارف في أذهان أبنائهم ويحيوا ذكر الغنيّ السخيّ وليلغوا إسم الغنيّ البخيل. ونحن الكفيلون لهم بأنّه سيكون لقطرنا شأن بعد حين ويقف الجزائري بعد هذا الجهاد في مدّة قليلة على ذروة المجد والسعادة.

اللهم إنّ ترقية المسلمين الجزائريين وإحيائهم وتغيير حالهم من الهيّنات اللّيّنات ولكن (كذا) لابد من المال والرجال موجودون فأفيضوا علينا يا حضرات الأغنياء المال حتى نبني مجد وطننا وقطرنا وا المثيب لمن قام بخدمة الوطن ] [2].

لمس مفكّرنا في تلك اللحظة التاريخية إفتقاد الفضاء الاجتماعي الجزائري لفرص التواصل والاحتكاك ما بين مختلف الفئات الفاعلة وما بينها وبين الأمّة. من هنا توصلنا لتحديد واستخراج قيم أخلاقية اجتماعية عبر إنتاجاته الصّحافية، كالتعاون والاجتماع والتفاهم والتعارف، يجعلنا نؤكّد على دوره الرّيادي التنويري في اعتبار تنظيم النخبة وهيكلتها من أجل تحقيق التقدّم والارتقاء بالشعب من أجل التغيير والنّهوض، خيارًا استراتيجيًا في البناء الإصلاحي في الجزائر، وفي العالم العربي الإسلامي. ولقد كشفنا عن هذا التوجّه الفكري في سياق البعد الأخلاقي لفكره.

في مقال تحت عنوان " متى نفقه ؟ " نشره سنة 1911، دعا فيه إلى التمعّن في مفهوم قيمة الاجتماع، من وجهة دينية اجتماعية: [ يقولون أن المتقدّمين تقدّمت لهم الصالحات بما قدّموا من صالح الاجتماع. فتعالوا نجتمع. ألا يا قوم لتعرفوا قبل أن تجتمعوا سرّ الاجتماع. فقد كنّا مجتمعين فأفترقنا، لأننا لا نفقه سرّ الاجتماع. فقد كنّا مجتمعين فأفترقنا، لأننا لا نفقه سرّ الاجتماع فمتى نفقة ! ...] [3].

---

[1] – بمقالة " ما هي الوسيلة النافعة " – الأخبار- بتا: 14 جوان 1908.

[2] – بالمصدر نفسه.

[3] – مقالة: " متى نفقه !" صحيفة الأخبار، بتا: 15 جانفي 1911.

حتّى أنّه اعتبر اجتهاد الأفراد الفاعلين في سياق العمل الجماعي التعاوني هو أحد منافذ الفوز وسعادة الأمم. وهذا التوجّه يتماشى وسنّة ا في مبدأ التنازع من أجل البقاء. كتب في مقال " التعاون والتخاذل ": " نحن في زمان فاز فيه المتعاونون وهلك فيه المتخاذلون. سعدت فيه أمم بأعمال الجماعات وشقيت أمم باسرو الأفراد. فالأمم فيه درجات بعضها فوق بعض فأعلاها ما كثرت فيه الجمعيات المتعاونة على الخير بقدر كثرة الخيرات. ويليها ما قلّت فيها الجمعيات ففاتها من الخيرات والمنافع ما فضلها به ما فوقها. ويعبّر عن هذه الأمم بالأمم الحيّة العزيزة ... وأي أمّة عاقلة لا تأمن سنّة ا في تنـازع البقـاء وطمـع الأقويـاء في الضعفـاء ...] [1] .

ثم إنّ نصّه الآخر الذي ألمحنا إليه ،نفا هو نداء قويّ لنبذ القيم السلبية، بحيث عنونه بـ: علام التنافر ؟ علام التناكر ؟ " [2] هو نابع من مخاض مسار نضالي في سبيل التنوير والإصلاح بالجزائر [3].

وهكذا وعبر سلسلة من النصوص الصحافية، نكتشف من خلال مقاربتنا التحليلية، قيامه بحملة فكرية استنهاضية مستهدفًا فئاتٍ معيّنة من الشعب الجزائري، حاثًا لها على وعي مسؤولياتها تجاه هذا الشعب الذي أراد البعض أن يحكم عليه بالموت الأبدي[4]. وكان العنوان البارز، المخاطب لهذه الفئات، قد تكرّر في ثلاثة مقالات متتابعة جاء على الصياغة القويّة والحادّة، التي تخيّرها ما بين الموت بالتخاذل والفشل أو الحياة بالعمل على موت التخاذل الذي يعيق العمل والتفاهم والتعاون، وبالتالي يحدّ من الحركية التنويرية في سبيل إحياء الأمّة وانتشالها من السقوط الحضاري. وهذا العنوان هو: (معشر المفكّرين المتنوّرين ! والعلماء العاملين ! والأغنياء الموسرين ! موتوا تخاذلاً ؟ أو دعوا التخاذل يموت)[5]. وكانت هذه العبارة التحريضية على رأس نصوص مشتركة العنوان هي " دان النهوض ولم يدنُ ".

وكما يقول بهذه الطوائف الثلاثة يتأسّس الأمل في ترقية الأمة الجزائرية الإسلامية، فلو يهيء ا من بينها حركة علمية عملية تهذيبية لتكوين الرابطة الإسلامية، وقد تكون لتلك الحركة

---

[1] – " التعاون والتخاذل "- الأخبار – بتار: 16 مارس 1913.

[2] – " علام التخاذل ؟ علام التنافر ؟ علام التناكر ؟ " - الفاروق – بتا: 16 جانفي 1914.

[3] – أنظر ما كتبه الإمام محمد البشير الإبراهيمي في " سجّل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين.

[4] – بالفاروق – بتاريخ: 04 جويلية 1913.

[5] - أنظر الأعداد: 17، 18، 19 لشهري جوان وجويلية، سنة 1913.

أعمال عظيمة يتحرّك بها المجموع الإسلامي في آن واحد على محور الإصلاح وينهض الشعب[1]. ويرى أن هذا النهوض هو في [ حيّز الإمكان لا يحتاج إلاّ إلى عمليات إرشادية تقوم بها الجماعات المتفرّقة ثم تكود على أنقاضها الجماعة الموحّدة التي تضمّ الشعب كلّه ...] [2].

إنّ القناعة الفكرية بدور الجماعات المهيكلة في هذا الميدان، جعله يقدّم رؤيته، التي تعكس فِعليًا، تفكيره الطويل في تجسيد مشروع إصلاحي، قائم على مرتكزات قيمية عملية وواقعية. فهو يرى أن نظرته في الواقع جعلته يطرح التساؤل التالي: كيف تتكوّن الجماعات ؟. لأنّ المشاريع التي هي على هذه الشاكلة لا تتكوّن بالأفراد. وهذا يحيلنا إلى التصوّر الأخلاقي لقيمة الهمّة التي تطرّقنا إليها سابقًا، خاصة في عنصر " همّة الجماعة " و" همّة الأمّة ". هذا التصوّر الذي عكس أيضا بعدًا سياسيًا لفكره، حينما اعتبر عمل الجماعات المتكافلة، تثمر همّة عظمى تسعى لتناول المصلحة السياسية والاقتصادية، لحفظ الكيان القومي للأمّة، وتعزيز سلطة وجودها ما بين الأمم الأخرى [3].

وتفكيره في هذه المسألة الحيوية، المتّصلة بالتنظيم والاتحاد، قاده إلى اعتبارها متشعّبة القضايا، لكن يبقى أهم عامل، أو القضية الأساسية هي إزالة التخاذل من بين المفكّرين والعلماء والأغنياء، وإحلال التعاون وهو أساس تكوين الجماعات [4].

وحينما يخصّ المفكّرين بالخطاب، يعتبر ما يقومون به عملاً يسيرًا وغير مؤثّر، ولا يشبه النظام الحقيقي للعمل التعاوني، الذي يفضي إلى النجاح، ويضرب مثالاً بالنموذج السياسي لتركيا آنذاك، قبل قيام الحرب العالمية الأولى، حيث وقع التنازل عن أراضٍ وممتلكات تابعة للدولة العثمانية جرّاء وجود التخاذل ما بين الجماعات السياسية. ويدعّم توجّه بمرجعية النّص القرآني، حيث يقول: [ ... فلو لم يكن التخاذل عو العلّة الكبرى لما حثّنا ا على اجتنابه فقال: " ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " فالفشل هو التخاذل وأصله التنازع، ولكن على ماذا نحن نتنازع وقد أدبرت الدولة عنّا فعلام نتنازع حتى نتخاذل إلى هذا الحد ؟ ...].

ويقصد بطبيعة الحال بإدبار الدولة، هو سقوط الدولة الجزائرية في ويدعو إلى رفع أساس التعاون وبعث حبّ التضامن في القلوب، والاعتماد على المبادئ الصحيحة ودعائم متينة

---

(1) – بصحيفة (الفاروق) بتاريخ 20 جوان 1913.

(2) – في المصدر نفسه.

(3) – أنظر الفاروق- بتاريخ: 21 نوفمبر 1913.

(4) – بصحيفة (الفاروق) بتاريخ: 20 جوان 1913.

في تكوين الجماعات. ومنها مبدأ التفاهم، ونبذ المصلحة الذاتية، والنظر في مصير الأمم عبر التاريخ وفهم أسباب تقدّم الأمّة الأوروبية المعاصرة [1]. وعدم التحسّر الطويل والتأسّف لما حصل للشعب الجزائري، لأنّ لقد حصل فما كلّ ذاهب يجيء والعمل قبل التباكي والأنين. فإنّ الدين لا زال جديدًا كما جاء. وكتب في هذا السياق [ ... فإذا أشرأبت الأعناق منّا إلى النهوض فما ذلك على السنن الكونية بعزيز. يجب علينا أن نتفاهم لندرك كيفية سدّ تلك الهوات الواسعة العميقة التي حالت بين بعضنا البعض، فنتعاون على البرّ والتقوى وإذا حصل التفاهم حصل الاجتماع وإذا حصل الاجتماع تألّفت الجماعات. وإذا قدّر ا وساد التعاون بيننا بدل التخاذل فبعد مدّة قصيرة تتكوّن من تلك الجماعات جراثيم التهذيب، فتنجذب أشتات الأمّة إلى بعضها بمغناطيس الضرورة. إنّ التهذيب لا يحصل إلاّ من الجماعات فهي مصدره ...] [2].

وكشفت دراستنا مدى تصميم المفكّر عمر بن قدور الجزائري في مواصلة وتكرار دعوته التنويرية هذه بتفكيك ومعالجة المعوقات الأخلاقية والاجتماعية من قبيل تفشي نزعة سوء التفاهم ما بين فئات النخبة الفاعلة في المجتمع الجزا\ري. وكانت سلسلة نصوص "مراحل الأمم ومراحلنا " تتضمّن هذا الانشغال الفكري والعملي في تذكيره للعلماء وللأغنياء وللمفكّرين بما يترتّب عليهم من مسؤولية عملية وتاريخية في إنهاض الأمّة وإرشادها، تجاوبًا مع النداء الإلهي بوجوب القيام بالأمر بالمعروف والنهي هن المنكر [3]. وتساؤله قائلا: [ كيف يتسنّى إقناعهم بوجوب قيامهم بتأليف الجماعات لتشييد المدارس ودور التعليم ][4].

هذا التساؤل ينمّ عن عزمه في تبيان الوسائل والكيفية التي يتمّ التوصّل بها إلى تنفيذ الخطّة أو المشروع الإصلاحي عبر مرتكز التنظيم الهيكلي لهذه الفئات أو الطوائف الفاعلة.

إنّه يوضّح بأنّ المسافة الفاصلة ما بين تطوّر الدول الغربية والأمّة الإسلامية هي متباعدة وعميقة. والدليل هو المكانة التي يحتلّها المثقّف الفاعل في المجتمعات الغربية ودرجة العمق المعرفي التي يتمتّع بها. وأحد المؤشرات التي يستقيها هو وجود أطفال تلاميذ يمتلكون صحفًا خاصة بهم. ثمّ إنّ التطوّر الملاحظ هنالك ناتج عن اعتماد مبدأ التعاون على العلم ما بين الأغنياء والعلماء. لأنّ أحد ثماره هو تأسيس الجمعيات والنوادي، لتوطيد العلاقات القومية

---

[1] – أنظر الفاروق بتاريخ" 4 جويلية 1913.

[2] – في المصدر نفسه.

[3] – أنظر الأعداد: 29، 30، 31، 32 من صحيفة (الفاروق) شهري سبتمبر، أكتوبر 1913.

[4] – بصحيفة (الفاروق) بتاريخ: 1913/09/12.

والعرقية والوطنية وتعزيزها [1]. ولا يكتفي بهذا النموذج الغربي، إنّه يوضّح في النّص ذاته هذا، نموذج المعمّرين الأوروبيين الذين استوطنوا الجزائر، وأنشأوا تنظيمات صناعية وتجارية، [حتى أنّ لصبيانهم مثل ذلك وفي كلّ قرية جلّ شأنها أو صغر يؤلفون جمعية تلمّ شعث القوم وتؤلّف بين قلوبهم، فإذا هو مبصرون متعاونون متّحدون، فهل المسلـمون على ذـلك المـنوال ينسجون ؟] [2].

إنّه يتبيّن لهذه الفئات المستهدفة بخطابه، أنها الطليعة التنويرية القادرة على إيجاد الأمل في التغيير الفعلي، فلا يمكن للفئات الأخرى من الحرفيين والتجّار، وحتى الفئات الاجتماعية البائسة، من التواصل والتلاقي قصد المساهمة في حركية النهوض بدونها. كتب منوّها بهذه المسألة [3] [ لا يستطيع أرباب الحرف أن يجتمعوا، ولا التجّار أن يتعارفوا ولا الحمّالون أن يقوموا بفتح النوادي وإيجاد الروابط وبث العلوم. غضون ذلك، ما مسّاحوا الأحذية بقادرين على تأسيس المدارس لأنفسهم وللأطفال المتشرّدين مثلهم ... فالاجتماع روح الحياة ألا فأجتمعوا أيها المفترقون ]. وسوف يعيد مفكّرنا نشر هذا المقال في صحيفة (الإقدام) سنة 1923. وربّما دلّ هذا، ليس فقط عن الروح التنويرية اليقظة والثابتة لديه، وإنّما أيضا على وجود ظروف أخلاقية وبيئة إجتماعية، وحالة ثقافية حتّمت عليه إعادة النشر، في هذه الصحيفة بعذ نهاية الحرب العالمية الأولى بسنوات قليلة [4].

وفي نصّ آخر يقرّر بأنّ النهضة لا تحصل إلاّ بتنظيم المفكّرين أنفسهم، ثم دعوة الفئات الأخرى من العلماء والأغنياء لنفس النهج. هذا التنظيم الذي يجسّد قيم التفاهم والتعاون، بحيث يسمح للأمّة الإسلامية والجزائرية على الخصوص أن تتدرّج في معارج التقدّم، بمحق الجهل، [بقوة العلم مع الرجوع في الاعتقاد والعمل في دينيات والاجتماعيات إلى سنن السلف الصالح...][5].

في السياق العملي للمشروع الإصلاحي، يُسند مفكّرنا الدّور الأكبر لطبقة المفكّرين المجدّدين والمصلحين في آن واحد. فبعدما يدعوهم للتواصل بينهم عبر تبادل الأفكار والبحث

---

[1] – أنظر مقالاً: " بين المسالك والمهالك: مراحل الأمم ومرحلنا". الفاروق- بتاريخ: 19 سبتمبر 1913.

[2] – في المصدر نفسه.

[3] – في المصدر نفسه.

[4] – عثرنا على هذا النصّ تحت عنوان آخر مباشر: [ ألا فاجتمعوا] صحيفة الإقدام- الجزائرية بتاريخ: 16 فيفري 1923.

[5] – بصحيفة (الفاروق) بتاريخ: 26 سبتمبر 1913.

عن أسباب إيجاد فرص التعارف، حتى يتسنّى لهم توحيد المقاصد والغايات، حتى تتهيّأ حتمية تكوّن تنظيم يجمعهم على هذه المصلحة في سبيل مستقبل الأمّة، وذلك بتشكيل هيئة قانونية تنشط في ميدان الإصلاح التربوي والتعليمي. وفي هذا المجال، يقدّم خطّة عملية تنظيمية لها، بحيث لا يبقى نشاطها مركزيًا، وإنّما يكون لها فروع ونوادي، للتواصل مع العوام، وتعمل على مطبوعات تربوية. كما أنّها تسعى لإقناع معارضي الإصلاح، والعمل على تحفيز فئتي العلماء والأغنياء للانخراط فيها.

ونظرًا لأهمّية هذه المادة النصّية من الناحية الفكرية والتاريخية فإنّنا نقتذف منها الفقرة التالية، حيث قال، وهذا من خلال مقال نشره في شهـر أكتوبر 1913، بصحيفـته (الفـاروق) [ يكفي أن تتألّف عصبة من المفكّرين بعد التعارف تتولّى العمل لتشكيل هيأة (كذ) جامعـة مقيّـدة بقوانين تسنّ على قاعدة الإصلاح وتبعث همّتها لمحاربة الرذيلة الدينية والأخلاقية بفتح شُعَب ونوادٍ تُقام فيها خُطب الواعظ والتذكير وتُدعى إليها العامّة خاصّة ثم تُطبع رسائل تهذيبية توزّع مجّانا على العموم، فإذا اخترقت عُصبة الإصلاح هذا السبيل يجب عليها أن تعقد الصلح مع مبغضي الإصلاح وتواسيهم حتى تنجذب ثقتهم نحوها وعندئذ تتشبّث بها أفكار العامة ويحسن سلوكها وصدق عزيمتها تتمكّن من التأثير على الأغنياء والعلماء فيسارعون إلى إعانتها والانخراط في سلكها ومن هنا تتوسّع أعمالها في التربية والتعليم وتزيد أهمّية وظيفتها في الإرشاد والتهذيب ...] [1].

وفي نصّ ءاخر تحت عنوان ( نحو المستقبل) يكرّر دعوته لتشكيل الجمعيات لإنقاذ أبناء الشعب الجزائري، بنين وبناتًا من مستقبل مجهول يكون وبالاً عليهم وعلى الأمّة معًا. فيستهدف أهل رجاحة الرأي والعقل للتخابر والتعارف والتعاون للتفكير في الوسائل الناجعة، ويرى التنظيم هو المؤهّل في تفعيل هذه المبادرات الإصلاحية، تحت إشراف موجّه أو زعيم إصلاحي: [ ... وابعثوا في الشعب نذيرًا يحث القوم على إعانتكم وتأليف جماعة عرفانية تهيأ وسائل تربية أبناء الشعب وبناته فلعلّ المستقبل ينقلب رحمة وسلامًا وعافية وما ذلك عليكم لو تفقهون بعزيز ] [2].

---

[1] – أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ" 17 أكتوبر 1913.

[2] – بصحيفة (الفاروق) بتاريخ: 12 ديسمبر 1913.

## -"جماعة التعارف الإسلامي " لأهالي شمال إفريقيا:

ابتداء من شهر جويلية سنة 1914، وفي خضم الإضطربات السياسية العالمية، وفي ذلك الجوّ المتوتّر في العلاقات الدولية، أعلن مفكّرنا عن مشروع كبير تنظيمي، لحركية التنوير والإصلاح، يتجاوز حدود المشاريع الهيكلية التي أشرنا إليها في هذا السياق التحليلي. إنّ هذا النداء التاريخي الرائد الذي أطلقه عبر صحيفته (الفاروق) تحت شعار رمزي يضم نجمةً وهلالاً على وجه الصفحة الأولى، جاء في صيغة استفهامية مركزّة وموجّهة لمفكّري وعلماء شمال إفريقيا، وليس الجزائر فقط وهو: [ هل في الإمكان تأليف جماعة من مفكّري مسلمي الجزائر وتونس والمغرب الأقصى تدعى: " جماعة التعارف الإسلامي لأهالي شمال إفريقيا " ؟؟] [(1)].

واستند إلى النّص القرآني كمرجعية عقائدية تكون شعارًا لقاعدة الدعوة الإصلاحية والتنويرية، وهذا النّص هو قوله تعالى: " ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " [(2)]. وهو يعكس تجسيد مبدأ إصلاحي طالما أكّد عليه في خطّته الافتتاحية أو في باقي النّصوص الفكرية الاستنهاضية كما كشفته دراستنا.

ويكفي أن نذكّر بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي خصّ به المفكّرين قبل ذلك حينما قال مستلهما ومتأثرًا بالأسلوب القرآني: [ .. لتكن من المفكّرين أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عـن المنكـر بالتضامـن الحقيقـي الذي هو روح الإسـلام ...] [(3)].

أحسّ المفكر عمر بن قدور من خلال جريدته (الفاروق) أن ثمّة جوا ثقافيا وفكريًا بدأ ينتعش وينمو في الجزائر خاصة، وفي تونس والمغرب الأقصى عموما. وبالفعل، فإنّ متابعتنا التحليلية تكشف عن استجابة لدعوته في ضرورة الكتابة الإصلاحية والفكرية عبر ركن خاصّ بعنوان " منبر الفاروق " ابتداء من العدد الثاني قائلا: [ إنا فتحنا هذا المنبر لنتبادل فيه الآراء في الشؤون الاجتماعية ] [(4)].

---

(1) – أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 23 جوان 1914.

(2) – الآية: 104 من سورة: آل عمران.

(3) – بصحيفة (الفاروق) بتاريخ: 26 سبتمبر 1913.

(4) – أنظر (الفاروق): 7 مارس 1913.

وفي العدد الرابع وعبر نداء هام، يطرح سؤالا استنهاضيا، فحواه البحث في وسائل ترقية الجزائريين من الناحية الفكرية والدينية. وكانت الغاية التي يستهدفها في الأصل هي إيجاد جوّ فكري وحركة تبادل للآراء والأفكار ما بين الجزائريين. وكان النداء على الشكل التالي:
[ سؤال نوجّهه إلى جميع قرائنا عمومًا: صورته، ما هي الوسايل التي يصبح بها ترقية أفكار ومدارك مسلمي الجزاير سيما في فهم الدين الصحيح الذي لا يحصل لهم النجاح إلاّ به ؟] (1) .

ثمّ إنّ توزيع هذه الجريدة، على مستوى أقطار شمال إفريقيا، كما بينّاه في النقطة المتّصلة بنشاطه الصحافي، مكنّ من انتشارها، ووجدت صدى، تعكسه الكتابات التي يرسل بها أصحابها من مختلف أنحاء الجزائر ومن تونس والمغرب الأقصى، وهي توافق توجّهات مفكّرنا الإصلاحية والتنويرية.

ولم تكن دعوته في تهيئة التنظيمات الإصلاحية، كفضاءات للتعارف والتخطيط العملي الميداني بدون صدى، على المستوى الداخلي بالجزائر، أو خارجها. فمن مدينة تلمسان يكتب أحد الكتّاب مقالاً تحت عنوان " ختام السكون " مبيّنًا الحركية التي أعادت الأمل في وجود رجال مناضلين في ميدان الإصلاح، ومنوّها بالدور الكبير لعمر بن قدور كأحد زعماء الإصلاح وممّا جاء في هذا النّص بلسان المتكلم: [ إنّي وأيّم وا لقد كدت أذهب إلى عدم وجود أقلام في أيمان الغيورين تناضل عن الصراط المستقيم لاسيما بعد أن ذهب الأمد الطويل على النابغة التحريري زعيم الإصلاح صاحب " الفاروق" وهو يكتب لإيجاد روح التعارف بين الكتّاب الغيورين فلم يسرع إلى تلبيته أحد أمّا الآن وقد تحرّك القسنطينيون وأجابهم التونسيون وأصغى المراكشيون وحمد غبّ ذلك التلمسانيون فقد انتعشت روح الأمل في قلوبنا وأخذت التشوّفات البعيدة المرمى تنمو في أذهاننا وذلك ما نحمد ا عليه ونشكره، بيد أنّنا لازلنا محتاجين إلى توفّر أسباب التعارف وذلك لا يمكن من غير تقدّم الرجال الذين يتقدّون غيرة على هذا الدين (الأهيف) وعلى هذا الشعب الضعيف ...] (2).

إنّ انتعاش الحركية الفكرية الذي لاحظناه عبر صفحات جريدته (الفاروق) جعله يخصّص بابًا لهذه الأقلام التي بدأت تشاركه انشغاله وهمومه بمأساة التخلّف والسقوط الحضاري السائد في الجزائر وفي غيرها من الأقطار العربية الإسلامية. وكان هذا الباب الإعلامي التنويري تحت عنوان: " مجال الأقلام الإصلاحية لمعاوني " الفاروق " في الأنحاء الإسلامية ".

---

(1) – بالفاروق: 07 أبريل 1913.

(2) – بصحيفة (الفاروق)- إمضاء: غ.ع.د بتاريخ: 30 جانفي 1914.

وكان قبل هذا حينما كان يحرّر صحيفته بصفة إنفرادية، ينقل من المقالات والنّصوص الصحافية والأدبية ومن الأخبار ما يوافق خطّه الافتتاحي الذي سيؤكّد عليه ويوضّح معالمه في العدد 51 من فاتحة السنة الثانية لهذه الجريدة. هذا الخطّ التنويري الذي اعتبر فيه مبدأ دحض التناكر، نضالاً مستمرا وثابتًا، كانت أفكاره ومرتكزاته التي كشفت عنها هذه الدراسة، دليلاً على إخلاصه، ومدى مكابدته لمشاق مسؤولية وواجب المفكر تجاه دينه ووطنه وأمّته. وممّا جاء في ذلك النصّ الافتتاحي قول [1][ إنّ الإصلاح لفظ يسهل التفوّه به ولكنه صعب عند مباشرته بيد أنّ تحمّل آلام المصادمات التي تلاقيها وشقاوة معيشتنا أصعب منه الجهل بصلاحية التعاون والاتحاد ببثّ سوء التفاهم ... لهذا لم يأل " الفاروق " جهدًا في دحض التناكر ... إنّ باب التهذيب مفتوح ما لم تتفتّح القلوب للتعارف وتبسط الأيمان للتعاون ...].

إذن فقد أحسّ أنّ جهوده الفكرية عبر المنبر الإعلامي للصحافة، بدأت تثمر، وتجد التجاوب الذي كان يبحث عنه. ورأى في تلك اللحظة التاريخية، إمكانية الجهر بنيته في تأسيس تلك الجمعية التنويرية لتحتضن شمال إفريقيا بكلّيته. لأنّه، كما سبق وأن أشار لذلك من قبل في أحد نصوصه، ثمة مفكّرون منتشرون في هذا الفضاء الإسلامي الإفريقي، ويكفي وجود للتواصل ومساحة للتعبير عن الآراء والأفكار، حتّى تُعطى لهم الفرصة في الظهور [2].

عبّر عن هذا الشعور، في ذلك النداء التاريخي قائلا: [ لقد شعرنا بإحساس شريف يجري بين المفكّرين من هذه الأمّة الإسلامية في غضون ما تنفثه صدورهم وتخطّه أقلامهم، وتبديه آراؤهم، ولذلك رأينا أن نهذّب هذا الإحساس ونزيده طُموحًا وتشبُثًا بالنّمو، وينصبّ هذا المشروع العظيم أمام أعين إخواننا المفكّرين ليجعلوه قِبلة آمالهم ووجهة أغراضهم في أعمالهم ومحطّ غايتهم ومقاصدهم فليبذلوا إذن كلّ نفيس لإعلاء وتنمية شأن التعارف بينهم ...] [3].

ثم اعتبر الأجوبة الكتابية التي سوف ترده، بمثابة نصوص تثبت في دفتر خاص بمبدأ "التعارف " الذي ينبغي أن يتصف أصحـابها بالثبات المبدئي لتجـسيد قيم عظـيمة كالائـتلاف والاتحاد.

تتواصل حملته الإعلامية، عبر نصوص عدّة، لتجسيد هذا المشروع الإصلاحي. ويخصّ فيها الطبقة المفكّرة، التي يحثّها، كما فعل سابقا، على نبذ قيم التخاذل والتناكر. واعتبار التعارف

---

(1) – أنظر الفاروق: افتتاحية 09 مارس 1914.

(2) – ورد هذا في (الفاروق) – العدد 31 من تاريخ: 26 سبتمبر 1913.

(3) – بالفاروق- بتاريخ: 23 جوان 1914.

هو الإطار الذي يشكل منطلق العمل، لطبيعة مسؤوليتها، لأنها في رأيه القوة الحقيقية التي تحرّك مسار هذا المشروع التنظيمي. قال: " العمل يكون بالتعارف قبل كلّ شيء فإذن نكون من المؤمنين الذين عناهم ا بقوله: " إنّما المؤمنون إخوة " ويثبت فينا قوله صلى ا عليه وسلم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا " وما المأخوذ من الأمّة إلاّ هذه الطائفة المفكّرة التي أخذ يتكاثر عددها وينمو سوادها، فهي المأخوذة بجريرة د ـولة التـناكر، وسيـئات التخاذل ...] [1].

إنّ هذه الفئة المفكّرة هي المعوّل عليها لتأليف قوة أخلاقية إصلاحية تسعى لرفع الأمّة وبعث فيها روح الحياة، وأسس النهوض والنّمو. ويرى مفكّرنا أنّ المسؤولية منوطة بها لأنها تمتلك من نباهة التمييز الفكري ومن الوعي ما يجعلها تعرف قيمة الوجود والحياة العامّة. تدرك جوهر التعارف المبثوت في مرجعية النّص القرآني. إنّه يتوزّع آياته، وهو أكمل التعاليم التي جاء بها للبشرية. وله الثقة الكاملة فيها، للقيام بمهمّها في ظروف بنعتها بالظروف الجهادية الحاضرة، وخير مؤشر له هو تنامي هذا الشعور الحي بأهمّية ما يدعو إليه من خلال مشروعه على مستوى أقطار الإسلامية الإفريقية [2] لأنّه أكّد فعلاً وجود "بوادر النهوض " وبالأخص نهوض مفكّريها إلى التعارف والإئتلاف. وبالتالي كما قال [ إنّ الإحساس أساس الصلاح وما دام الإحساس ينمو فإنّ لنا في الأيام من الثقة ما لا تظهر لنا، أدنى خداع أو خيانة. وإن قمنا باستعدادنا الفكري والعلمي والعملي والإئتلافي والإصلاحي إلى التصرّف معها في تحويل حسناتها إلينا فإنّها لا تلبث أن تنيلنا حقّنا مرّتين، وا نصير العاملين المخلصين ] [3].

لكن ما هو صدى دعوة هذا المشروع التنويري التنظيمي لتأسيس " جماعة التعارف الإسلامي لأهالي شمال إفريقيا " في أوساط المثقفين داخل الجزائر وخارجها ؟.

تاريخيًا استطاعت هذه الدعوة الرائدة لتوحيد وهيكلة المفكّرين والمثقّفين على مستوى الشمال الإفريقي، المتمثّل في اقطار الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، أن توجد حركية فكرية، ونقاشا تنويريًا إصلاحيًا، مرتبطا بحيثيات هذا المشروع الذي دعا إليه المفكّر عمر بن قدور الجزائري. ولم يوقف هذا الانشغال وهذه الحركية إلاّ تدخّل الحكومة الاستعمارية الفرنسية، بمنع صدور جريدة (الفاروق) ونفي مفكّرنا صاحبها، إلى منطقة الأغواط. لكن لاحظت أيضا أنّ

---

[1] – أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 6 جويلية 1914.

[2] – أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ" 13 جويلية 1914.

[3] – بمقالة: " بوادر النهوض "- الصحيفة نفسها – بتاريخ: 13 جويلية 1914.

تزامن انطلاق الدعوة إلى هذا المشروع مع ظروف إندلاع الحرب العالمية الأولى كان في رأيي عاملاً آخر في توقّف النقاش الفكري حوله. بعد نهاية شهر أوت من سنة 1914[1]، لم أعثر على نصّ ما، كتبه هو أو كتّاب آخرون، يعكس ما له صلة بهذا المشروع الهام. حيث توقّفت الصحيفة أي (الفاروق) عن الصدور في العدد (96)، بتاريخ 23 جانفي 1915.

كشفت الدراسة عن وجود دعم قوي لهذا المشروع الكبير، من داخل الجزائر وخارجها. لكن رؤية هذا الدعم عكست اتّجاهين أساسيين مختلفين. والاختلاف تبلور في المجال أو في البعد التنظيمي الجغرافي لنشاط هذه الهيئة التنويرية الإصلاحية.

لقد حاول الاتجاه الأوّل حصر تأسيس هذه الجمعية في الوسط الجزائري دون أن يتجاوزه إلى كلّ من تونس والمغرب الأقصى [2].

وكان يستند إلى مبدأ خصوصية المحيط السياسي لكلّ قطر من هذه الأقطار. وإذا كان عمر بن قدور قد اعتبر هذا التصوّر وجيهًا، بحيث لا يمانع في أن يؤسّس في كلّ قطر هيئة مستقلّة تنشط في فضائها وفقًا للظروف العلمية والاقتصادية والسياسية، إلاّ أنّه رأى أنّ مشروعه قد تبلور لديه في صورة ونسق واضح الأبعاد والمعالم، بحيث أن الإطار الإصلاحي، يجعله متأكّدًا من أي شأن يدعو إلى الاحتياط وإلى الاحتراز [3].

ثمّ إنّه اعتبر مهمّة صحيفته (الفاروق) في تجسيد هذا المشروع بما له من تأثير وانتشار في هذه الأقطار، مرتبطة بمبادئه التنويرية والإصلاحية التي تعكس ثباته عليها، والتي لا يستطيع أن يتنازل أو يتراجع عنها. كتب قائلا في هذا المنظور النهضوي:

[ ... مأمورية (الفاروق) في إيجاد هذا المشروع فإنّها عامّة لأنّ له من القرّاء في تونس ومراكش ما يعادل قرّاءه في الجزائر، وقد لا ينافض هذه المأمورية نزوع كلّ قطر من هذه الأقطار الثلاث إلى الاستقلال في تشكيل جماعات التعارف الإسلامي، كلّ يعمل في حيّزه المخصوص بما يوافق حالته العلمية والاقتصادية والسياسية، بيد أنّ (الفاروق) لا يستطيع أن يتنازل عن تعميم دعوته مهما اختلفت الأميال لأنّه مرتبط بمبادئه الإصلاحية التي عليها مدار شيوعه وانتشاره وثباته في خدمة أمّة شمال إفريقيا الإسلامية ...] [4].

---

[1] – أنظر العدد (74) من صحيفة (الفاروق) مقال " حول المشروع العظيم " بتاريخ: 21 أوت 1914.

[2] – في (الفاروق) بتاريخ: 20 جويلية 1914.

[3] – أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 20 جويلية 1914.

[4] – في المصدر نفسه.

دعا مع ذلك إلى التواصل والتناقش حول المشروع، لكن بدون أن يؤدّي تبادل الأفكار إلى بعث الفشل، فيما تمّ الشروع فيه، ما دام روح الإئتلاف والاتحاد موجودة وملموسة، والدالّة على ضرورة ووجود العمل لتغيير الظروف المشوّهة للمجتمع وللأخلاق والمضـادّة للقيـم الدينية والقومية [1].

أمّا الاتجاه الثاني لبناء هذا المشروع النهضوي الرائد، فهو يشاطر التصوّر الفكري والعملي له. وكان له صدى واسع في الجزائر، ولكن على الخصوص بتونس، بالنظر للمساهمات الفكرية الواردة والمنشورة في صحيفة (الفاروق).

وكان أوّل رد فعل عثرنا عليه وارد من البريد القسنطيني بالجزائر، عبر مقالٍ تحت عنوان " التعارف الإسلامي " لصاحبه سعد الدين بلقاسم بن الخمّار، وكان ضمن منبر صحافي تحت عنوان " المفاوضات الاستنهاضية ". حيث عبّر فيه هذا الكاتب عن تأييده لتجسيد هذا المشروع، وإمكانية تحقّقه فعليًا في الواقع. ودعا مفكّري الشمال الإفريقي للتجاوب ونبذ التكاسل. ورأى أن السلوكيات السلبية من خمود وتخاذل واتّباع المصالح الشخصية، هي من أكبر العقبات لتجسيده. وهكذا كتب قائلا[2]: [ لقد غزتني هزّات تعارفية لدى مطالعتي ما نفثه قلم البارع مدير (الفاروق) تحت عنوان " مشروع عظيم " ذلك المشروع الذي دفعتني من أجله عوامل الجذل لأن أكون في زُمرة المجيبين على استفهامه الجميل. فنقول نعم إن ذلك في حيّز الإمكان من قبل، وأمّا الآن فنحن نرجو أن يبرز من حيّز القوة إلى الفعل فيرتقي من حضيض العرضي إلى جوّ الجوهر، ولم لا يتمكّن لمسلمي شمال إفريقيا وبالأخصّ مفكّريهم أن يؤلّفوا هذه الجماعة " جماعة التعارف الإسلامي " يكاد يكون الجواب بداهة: أن المانع لا يكون إلاّ من قبيل التكاسل الذي بسط نيره علينا ...].

ثم يدعو هذه الفئة المفكّرة للتعاون قصد إنشاء هذه الهيئة خاصة وأن الدعائم التي سترتكز عليها تتمثل في النزعة الإنسانية، وفي الرابطة الدينية واللغوية والجنسية (أي العرقية) والوطنية [3].

---

(1) – بالمصدر السابق نفسه.

(2) – أنظر (الفاروق) بتاريخ: 6 جويلية 1914.

(3) – بالمصدر السابق نفسه.

وتحت عنوان " التفرّق داء والالتئام دواء " كتب المثقف " حسين الجزيري [1] (1888/ 1974) من تونس مدعّما للمشروع وحثّا الكتّاب والمثقفين على عدم الاستهانة بهذه الدعوة النهضوية، التي يحمل رايتها أحد الغيورين على الإسلام وعلى شعوبه، وهو عمر بن قدور صاحب جريدة (الفاروق). واعتبر هذا المشروع أحد معالم ما يسمّى بالجامعة الإسلامية. وكيف أنّ الكثير ممّن تمّ تسميتهم بالمصلحين حاولوا مرارًا مثل هذه المبادرات. وممّا جاء في نصّه هذا قوله: " ...قام اليوم غيور الإسلام صاحب (الفاروق) يدعو إلى تكوين جماعة التعارف الإسلامية الجزائرية التونسية المغربية فهل نرى لدعوته من تأثير على الأفكار وتحريك العقول؟ ربّما يستهين البعض باقتراحه ويعده مما يسطّر فيقرأ فيتموّج مع الهواء وهو مشروع لو يبرز من حيّز القوة إلى الفعل لكنت أنا الضمين بسعي السعادة لمسلمي شمال إفريقيا وإلتحاقهم فيمن أدركوا كيف يكون تركيب الدواء ...] [2].

يرى أن دواء النهضة والارتقاء والمستقبل، الذي يدعو إليه صاحب هذه الصحيفة، يتطلب المؤازرة والإيضاح من طرف الكتّاب، قصد تحديد الوسائل والإجراءات لبناء هذا "المشروع العظيم". ويدعو هذا الكاتب نفسه في مقالٍ آخر تحت عنوان " ساعدوا على الإصلاح " إلى مساندة وتعزيز هذا المشروع وعدم تثبيط الهمم، وعدم الفشل، لأنّ طبيعة المسعى الإصلاحي التنويري تصطدم دومًا بعراقيل عدّة، لهذا فيلزم التمسّك بقيم الثبات والمقاومة. ثم يذكّر بنماذج كبار المصلحين وما تعرّضوا له من ظلم وعراقيل، بالرغم من سموّ فكرهم الداعي إلى الدفاع عن قيم الفضيلة والاجتماع، أمثال محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمن الكواكبي، والأستاذ رشيد رضا [3].

وتحت عنوان (التعارف ينبوع التقدّم والائتلاف رابطة الأخوة الإسلامية) يشير كاتب هذا المقال (من تونس) والذي يرمز إلى إسمه بحرفي (ع.ش) إلى أهمّية ارتكاز التعارف بالنسبة للمسلمين ويدعو إلى مساعدة المفكّر عمر بن قدور، والذي يصفه بالهمام، في تفعيل هذه الهيئة الإصلاحية، حيث يقول منوّها: [ ... وقد أيقظ ا رجل الحزم والعزم صاحب "الفاروق " إلى هذا المشروع العظيم الذي سيكون من ورائه النفع الجزيل، فما على الكتّاب والأدباء وأرباب

---

[1] – صاحب: جريدة النديم 1931 تونس، ساهم في تحرير الصحف التالية: جحا 1910، اللواء، المنار (مصر). الموسوعة الصحفية العربية الجزء الرابع، تونس 1995. ص: 50.

[2] – أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 13 جويلية 1914.

[3] – في صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 20 جويلية 1914.

الأقلام إلاّ أن يمدّوا يد المساعدة إلى ذلك الهمام، فعسى أن يخطّوا صحيفة بيضاء في تاريخ حياتهم وسلك أعمالهم، ويجدّدوا بالتعارف رابطة الأخوة الحقيقية والدعامة الإسلامية ...] [1].

ووجدتُ أنّ المصلح والمثقّف إبراهيم بن الحاج عيسى، أي أبو اليقظان، قد أسهم هو أيضا بمقال صحافي نشره بالفاروق مدعّمًا هذا المشروع النهضوي التنظيمي، وكان آنذاك لا يزال بتونس. وعبّر فيه عن ثنائه لصاحب فكرته عمر بن قدور الجزائري، واصفًا إيّاه بالفيلسوف حيث قال: [ ... إنّي لا أزال أرتّل آيات الثناء الجميل وعبارات الشكر الجزيل لمن اكتشف لنا ذلك الدواء الذي طالما حامت حوله آلات البحث عنه، وكلّت دون ذلك الدواء الذي أبرزه مخترعه الفيلسوف من حيّز العدم إلى حيّز الوجود ... ونادى على لسان جريدته الغرّاء بحي على الإقبال والاجتماع حول مركز الرقيّ والسعادة عنوان " التعارف الإسلامي " [2]. ثمّ عبّر عن أمله في أن يؤيّد المثقفون ذوي الهمم العالية هذا المشروع العظيم، والمبادرة إلى تجسيد الأقوال بالأفعال الواقعية لسعادة الدارين، الدنيا والآخرة.

لإيضاح بعض الملامح الهيكلية لهذا المشروع، سعى مفكّرنا عمر بن قدور إلى إبراز كيفية تشكيل هذه الهيأة التنظيمية القائمة على مبدأ التعارف عبر تجسيد تعاوني اجتماعي. فأقترح في هذا السياق مثالاً نموذجيًا يمكن تمثّله في الأقطار المعينة الأخرى، وهذا عبر مقالٍ له تحت عنوان " كيف يكون التعارف "[3]. وهو بحدّ ذاته يعكس سعة أفقه الفكري التنويري، الذي يسعى للتغيير من أجل مستقبل أفضل. فرأى أن العاصمة الجزائر، بما فيها من فئات نخبوية تضمّ علماء، وأدباء وشبيبة متنوّرة، خالية من أي فضاء أو نادٍ ثقافي، باستطاعته جمع أشتاتها. بحيث يتواصل الأدباء والعلماء فيها، وتتفتّح بها الآفاق الفكرية للشبيبة حتى تدرك الغاية والمقصد من تنوّرها. ويتّضح لنا أهمية هذا الأفق التنويري المستقبلي في تركيزه على العناصر المختلفة المشكّلة للشعب الجزائري، من حيث شمولية المشروع لكلّ مناطق الوطن، ولكلّ التوجّهات الفكرية أو الدينية حيث كتب، عاكسا هذه الروح الوطنية قائلا: [ ...نحن في حاجة إلى تشكيل " ندوة " يجتمع فيها الإباضي مع السنّي، والمتفرنج مع المعمّم، والقبائلي البربري مع العربي وهلمّ جرا ...] [4].

---

(1) – أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 27 جويلية 1914.

(2) – بالفاروق – بتاريخ: 21 أوت 1914.

(3) – أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 20 جويلية 1914.

(4) – في المصدر السابق نفسه.

ويرى أن " ندوة التعارف " هذه قد تلتقي يوميًا أو أسبوعيًا، إنّما المهم هنا، هو عدم تضييع الأوقات والأموال في المنتزهات والمقاهي. لأنّ نتائج التواصل والتلاقي بين مختلف هذه الفئات الفاعلة اجتماعيًا، سوف تكون لها ثمار في إزالة سوء التفاهم، بالاشتغال بالمسائل الأخلاقية والثقافية ثم الإصلاحية حتى يتم التوصّل إلى [ ... النظر في الأسباب المنشئة لنهوضنا ورقّينا والمعينة على إنقاذ نشيئتنا ومستقبلنا من مخالب هذه الفوضى الأخلاقية والدينية ...] [1].

واعتبر وجود قاعة للمحاضرات في " ندوة التعارف " ضرورية لتوسيع النقاش وتبادل الأفكار فيما بين الخطباء من المفكّرين والمذكّرين والمرشدين في مجال الإصلاح والإرتقاء. وهذا مثال رآه صالحًا للعاصمة أولاً ثم للمدن والعواصم الأخرى في شمال إفريقيا ثانيا. ثم استفهم حول من يبادر إلى فتح مثل هذه " الندوة " في العاصمة، وكان جوابه بالإيجاب ولكن هل تسمح الظروف بوجود مثل هؤلاء الفاعلين [2].

إلاّ أنّه كما أشرت في هذه الدراسة آنفا، فإنّ ظروف قيام الحرب العالمية الأولى، أوقفت مسار هذا المشروع النهضوي الذي عكس بالفعل طموح مفكّرنا التنويري، ورؤيته الإستراتيجية في العمل التعاوني الإصلاحي، انطلاقا من البيئة الاستعمارية، التي لم تغب عن باله يومًا. وحتى بعد انتهاء هذه الحرب، وعودته إلى النشاط الصحافي، فإنّه سوف يكتفي بالمناداة بضرورة إنشاء الجمعيات، وتنظيم وهيكلة الجهود الإصلاحية، ضمن هيئات فاعلة، ولكن على المستوى الوطني فقط.

وهكذا، وعبر صحيفة (الصدّيق) التي أدارها في بدايتها سنة 1920، يلحّ على تأسيس الشركات الاقتصادية، وتأليف الجمعيات الثقافية والتربوية [3]. أو عودته إلى أسلوبه التحسيسي لنخبة المفكرين بضرورة إلتزام قيم التعارف والتضامن وتأليف الجمعيات على قواعد اتحادية وطنية، وهذا في سلسلة (الفاروق) الثانية عبر أعداد مختلفة[4]، ثمّ مُخاطبته لفئة الأغنياء لتأسيس

---

[1] – في المصدر السابق نفسه.

[2] – أنظر المصدر ذاته.

[3] – أنظر الأعداد: 1، 2، 3 من صحيفة (الصدّيق) لشهر أوت 1920.

[4] – أنظر على سبيل المثال: الأعداد: 2، 5، 6، 10 أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر 1920.

جمعيات خيرية تربوية تعليمية، وهذا من خلال المقالات التي كان ينشرها في صحيفة " الإقدام " للأمير خالد بن الهاشمي بالجزائر [1].

وكان تأسيس " جمعية الشبيبة الإسلامية الجزائرية " سنة 1921 بمدينة الجزائر إحدى ثمار دعوته وكان أحد الأعضاء المؤسّسين لها، كما أكّدناه في دراستنا هذه. وحينما جسّدت هذه الجمعية أحد أهدافها وهو تأسيس مدرسة تعليمية للبنين والبنات نهاية سنة 1923 قال: [...أن عمل جمعية الشبيبة الإسلامية عمل صغير في ذاته كبير في معناه. لأنّه بالمثابرة والمواظبة يحدث لها مستقبلاً زاهرًا بالعمل بتأييد ثقة العامة فيها وفي مشروعها. وروح عملها هذا الصغير، الصدق والإخلاص، فمتى تحققت هذه الروح وامتدّت في جسم هذا العمل تحصل الغاية المنشودة من تكوينه. وهو بلا شك حياة استعدادات روحانية كثيرة هي الآن صغيرة ولكنّها بهذه الحياة التعليمية تصير كبيرةً وتملأ في الغد فراغًا واسـعًا لولا نمـوّها لبـقي فراغًا إلى الأبد ...] [2].

ونعتقد أنّ المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان في حديثه عن نشأة الوطنية الجزائرية قد أشار إلى النضال الوطني التنويري لمفكّرنا حينما قال: " وقد تأمل جمع من المثقفين أثناء الحرب العالمية الأولى في انحطاط الإسلام المحروم من المرشدين ففكر في تأسيس هيئة لإحيائه، ولم تتأسس جمعية العلماء الجزائريين إلاّ يوم 05 ماي 1931 "[3].

---

[1] – بمقالة: " المنبر العام: شعور أبناء الجزائر "- صحيفة الإقدام: بتاريخ: 26 أوت 1921.

[2] – أنظر جريدة (التقدّم) بتاريخ: 15 جانفي 1923.

[3] – أنظر: إفريقيا الشمالية تسير: في القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية. تر: المنجم سليم والطيب المهيري. الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1396 هـ/ 1976 م. ص: 134.

## خلاصة الفصل

توصّلنا في هذا الفصل، إلى أن التوصيف النقدي الاجتماعي والأخلاقي للمفكّر عمر بن قدور الجزائري، عكس شخصية مثقّف وصحافي مهموم بواقع الشعب الجزائري، الذي هو واقع مأساة أمّة تعاني قساوة نظام استعماري ظالم، يهدّد بقاءها ومستقبلها. كما خلصنا إلى توظيفه لمفهوم خاص به هو " الفوضى الأخلاقية " الذي يوحي إلى بيئة تشتبك بواقع اجتماعي وتتمظهر في سلوكيات انحرافية، وبالتالي فهي ملمح من ملامح الانحطاط الذي يوجد عليه الشعب.

وانتقد مسؤولية الاستعمار الفرنسي في تفكيك البنى الاجتماعية والدينية، منها مؤسسة الأوقاف الإسلامية في الجزائر، وهذا ابتداء من سنة 1907. ثم وجدناه يوجّه اهتماما كبيرًا لقضية البؤس الاجتماعي، من خلال حيوية مسألة تعليم الجزائريين، فكان من أكبر التحديات له، انتشار الأمّية والجهل واعتبر تفاقم ظاهرة الهجرة إلى خارج البلاد نتيجة للتعسّف وللمظالم، الاستعمارية المناقضة لما كان يتردّد من مبادئ برّاقة: العدالة، التمدين، المساواة والمؤاخاة " لهذا انتقد الصحافة العربية خارج الجزائر، الملمّعة لواقع الشعب الجزائري، فكان يستنكر هذا مستبعدا الحديث عن النهضة الجزائرية، والبلاد مسيّرة بـ " قانون الأهالي " الاستثنائي التعسّفي مع غياب صحف عربية حرّة وجمعيات ثقافية وحتى مدارس قرآنية.

وحاولنا الكشف عن دعوته الإصلاحية والتنويرية في مجابهة الوسط الجزائري لوجود ما اسماه " حزب التأخّر المعارض "، ومجابهة الوسط \الإداري الاستعماري من جهة أخرى، مرتكزًا على مرجعية قرآنية أساسها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنص القرآني: " إنّ ا لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم ".

مع وعيه بمعاناة النخبة الإصلاحية حيثما وجدت، وخصوصية الممارسة التنويرية لكلّ بيئة عربية وإسلامية. وكان الثبات المبدئي وشعار " الحياة مع اليأس " ملازمين له في مساره النضالي هذا.

كما توصّلنا في هذا الفصل من استخراج واستقراء المرتكزات الفكرية الأخلاقية والاجتماعية التي تؤكّد لنا بالفعل، وجود مشروع إصلاحي تنويري لدى عمر بن قدور الجزائري في بدايات القرن العشرين، حتى قبل قيام الحرب العالمية الأولى. وكان هذا المشروع

يتمظهر من حين لآخر بالسؤال، مثال ذلك: ما هي الوسائل التي يصبح بها ترقية أفكار ومدارك مسلمي الجزائر سيما في فهم الدين الصحيح الذي لا يحصل لهم النجاح إلاّ به ؟.

وإذا كان هو بذاته، عبر نضاله الإصلاحي ونشاطه الصحافي، أراد أن يكون صورة للالتزام الأخلاقي من خلال قوله: " ما أريد إلاّ إظهار الحق ونصرته "، فلقد كان يتمثّل دومًا شخصية الخليفة عمر بن الخطّاب (رضي ا عنه). ورأى في الإلتزام بالقيم والتعاليم الإسلامية جزء من هويّة الفرد الجزائري ومن الثوابت المعوّل عليها في الصمود ومحاربة سياسة الاندماج والتجنيس إبّان الفترة الاستعمارية. ومن نماذج القيم الأخلاقية التي لاحظنا تردّدها، قيمة العمل والأمل ذات الأبعاد العقائدية والاجتماعية، وحتى السياسية. فلا يمكن للعمل الإصلاحي أن يكون فعّالاً بدون تأسيس النوادي وفتح المدارس وإنشاء الجمعيات المختلفة. ويقدّم نموذج الشعوب الغربية المتقدّمة في هذا الميدان.

م هناك الهمّة والثبات على المبدأ فهما قيمتان متلازمتان في الحقيقة، فأي تطوّر أو تحوّل عظيم حصل كان بفضلهما. ويذكر نماذج تاريخية ومرجعيات معاصرة مدعّما توجّهه هنا.

واعتبر التعارف والتفاهم والتعاون، ذات الحضور المكثّف في نصوصه الفكرية الصحافية، قيّما لا تحصل النهضة ولا تتحقّق إلاّ بها، في مواجهة ما اسماه بـ " الفوضى الأخلاقية " على الخصوص. إنّ لوعيه بخلوّ الفضاء الاجتماعي في الجزائر من فرص التواصل ما بين القوى الفاعلة في الإصلاح طالما جعله يكرّر دعوته لإنشاء جمعيات قافية تربوية، لقناعته أيضا بوجوب انخراط هؤلاء الفاعلين في حقل الإصلاح والتغيير في هياكل تنظيمية تعكس حقّا قيم التعاون والتكافل الاجتماعي.

وكان، حسب تحليلنا يلحّ على فئات فاعلة ثلاث كما رأينا فئة علماء الدين، فئة الأغنياء وفئة المفكّرين. وتمكّنا من تأكيد حقيقة تاريخية في كونه، أي عمر بن قدور الجزائري، كان من أوائل المفكّرين الذين طرحوا إشكالية هويّة المفكّر ودوره، وهذا قبل بداية الحرب العلمية الأولى، ليس فقط على المستوى الجزائري وإنما أيضا على مستوى العالم العربي.

كمّا بيّنا في هذا الفصل، وجود رؤية تنويرية تخصّ قيمة العقل التي بفضلها حقّق الإنسان منجزات حضارية، تضم مصلحة الإنسانية جمعاء. ورأى أنّ الأمّة الجاهلة غير الآبهة بهذه القيمة وتنمية عقول أبنائها تبقى مستعبدة، تحت نير الشقاوة الأبدية، منطّحة فيما بين الأمم.

كما شكّلت قضية التقليد ارتكازًا أخلاقيا حاضرًا في طرح مفكّرنا الإصلاحي، من الناحية السلوكية والفكرية وحتى السياسية. ثم أن مفهومه لمعايير القيم الأخلاقية يرتبط دومًا بالالتزام والممارسة اليومية المدنية والدينية لروح مكارم الأخلاق، انطلاقا من معايير الفضيلة والواجب والمسؤولية العاكسة للقيم الإسلامية التي هي في نظره قيم إنسانية. وتوظيف تحليل الأطر المرجعية سمح لنا باستخلاص مصادر هذه القيم، وذلك باعتبار روح الدين الإسلامي مصدرًا إلزاميا أخلاقيا ينعكس من خلال نصوص مرجعية القرآن والسنّة النبوّية. مع ربط هذا التصوّر بالحراك النهضوي الفعّال المبتغى لدى النخبة الجزائرية والنخب العربية التي خصّها بخطابه.

وإنّ تحليل مسار التطوّر الفكري لشخصية بحثنا في البعد الاجتماعي، جعلنا نتوصّل إلى أنّ قضية الدعوة إلى العلم والتعليم تشكّل بالفعل، مكوّنا حضاريا لحركية الإصلاح والتنوير للشعب الجزائري. وقناعة فكرية، كانت ترى في الجهل والأمّية مفهومًا مَرَضيا يمسّ مختلف فئات المجتمع الجزائري. لهذا كانت نصوصه الصحافية، تمثّل دعوته دائمة وثابتة، على مدار سنوات عديدة، بوجوب الاهتمام بهذه القضية، في ظل منظومة تعليمية استعمارية مناهضة لرقي ووعي الجزائريين خاصة مع عدم سماح إدارة هذه المنظومة بفتح مدارس حرّة ومستقلّة. لهذا أصبح التعليم لدى مفكّرنا مطلبًا إصلاحيا وسياسيا ثابتا لديه منذ سنة 1907، حينما اعتبر أنّ حياة العلم هي الحياة العصرية، وهو حق من حقوق الشعب الجزائري. وفي سنة 1913، صاغ أحد عناوين مقالاته بصيغة استفهامية دالّة: [ نحو المستقبل: هل من نهضة إلى التقدّم بالتعليم ؟]. وكان في سنة 1908 قد وجّه خطابًا مفتوحًا إلى الحاكم الاستعماري للجزائر عبر صحيفة " الأخبار " مناديًا له بضرورة فتح المجال للتعليم الإسلامي الموجّه للأطفال الجزائريين. ثمّ أكّد سنة 1914 على ضرورة إجبارية التعليم وفتح المدارس الحرة، المزدوجة اللغة. ودعا إلى تطوير المناهج التعليمية وتكوين المؤطّرين وفقا للهوية الإسلامية الجزائرية على الخصوص والعالم الإسلامي على العموم.

كما أكّد على توسيع التعليم المهني أو العملي، أو كما يسمّيه أحيانا بالتعليم الصناعي. وإرسال المتفوّقين بعد فتح المدارس الكبرى إلى منابع العلم للتكوين العالي خارج البلاد.

أثمرت جهوده بتأسيس "جمعية الشبيبة الإسلامية الجزائرية " سنة 1921 بمدينة الجزائر وكان أحد أعضائها كما أوضحناه وأكدناه آنفا، وهذه الجمعية كانت وراء تأسيس أشهر مدرسة حرة في الجزائر سنة 1923: مدرسة الشبيبة الإسلامية الجزائرية ". وكان المفكر الصحافي

عمر بن قدور الجزائري أوّل مدير لها وأستاذ بها لغاية سنة 1927. وليس لينعزل ويتصوّف إنّما ليؤسس مدرسة عصرية أخرى هي مدرسة (السلام).

كما توصّلنا إلى أنّ مسألة تعليم المرأة كانت واضحة في مشروعه الإصلاحي النهضوي، تجسيدًا لوسائل النهضة الفعلي بالمجتمع الجزائري على الخصوص والإسلامي على العموم. اعتبر أن أحد ملامح الخال والتأخّر بالنسبة إليه، مقارنة بالمجتمعات المتقدّمة، يتمثّل في ظاهرة حرمان المرأة من التعليم، وكان قد كتب هذا سنة 1912 فلا حياة للشعب ولا نهوض إلاّ بالتكفّل التربوي بجميع الأطفال بنين وبناتًا.ى اعتبر جهل المرأة الجزائرية خسارة للمجتمع الجزائر. وفعلا في سنة 1923، لدى تأسيسي مدرسة الشبيبة الإسلامية في مدينة الجزائر، فإنّها ضمّت البنات إلى جانب البنين، وسعى مكفّرنا ومصلحنا إلى تحويلها إلى مدرسة كبرى تستوعب العدد الكبير منهم.

وكانت حملته الاستنهاضية الأخرى والأساسية، تسعى لتجسيد مشروعه الإصلاحي والتنويري عبر تأكيده على خيار استراتيجي لتحقيق التقدّم والارتقاء بالشعب نحو التغيير، عبر هيكلية هذا المشروع بالتنظيم. وهذه قناعة لاحظناها لديه ابتداء من بدايات القرن العشرين، سنة 1908 وامتّدت لغاية منتصف العشرينات منه. وهو الذي كان يرى في أنّ " الاجتماع هو روح الحياة "، محاربًا روح التخاذل والتناكر فيما بين الفئات النخبوية التي يتأسّس عليها الأمل المستقبلي للأمّة الجزائرية.

لهذا توضّحت حملته تلك، لتأسيس النوادي والجمعيات، سنة 1913 عبر صحيفته (الفاروق) بضرورة تشكيل هيئة قانونية ناشطة في ميدان الإصلاح .. لكن التجسيد الفعلي لهذه الحملة، الصحافية، سوف يكون ابتداء من سنة 1914، عبر دعوته لمشروع تنظيمي كبير، لحركية الإصلاح وهو " جماعة التعارف الإسلامي لأهالي شمال إفريقيا " تتألّف من نخبة مفكري مسلمي الجزائر وتونس والمغرب الأقصى.

وكشفنا عن الصدى الكبير لها في هذه الأقطار كافّة، وتجاوب نخبة مثقفة معها، التي عبرت عمر بن قدور الجزائري في هذه اللحظة التاريخية، أحد زعماء الإصلاح وأحد الفلاسفة الغيورين على الإسلام وشعوبه، ووضعوا مشروعه هذا ضمن حركية مشاريع رجالات الإصلاح الأخرى كمحمّد عبده والأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي والشيخ رشيد رضا.

إلاّ أنّ المشروع العظيم هذا توقّف مع ظروف قيام الحرب العالمية الأولى، حيث أوقفت الإدارة الاستعمارية صحيفته (الفاروق) وتمّ نفيه إلى منطقة عسكرية جنوب الجزائر للإقامة الجبرية فيها. وهذا ما يجعلنا نتساءل هل كان لهذا المسعى الحركي النهضوي الإستراتيجي، مع نقل صحيفته (الفاروق) سبب في هذا التعامل السياسي مع مفكّرنا ؟.

# الفصل الخامس:
# البعد الفكري السياسي

بالرغم من محاولة تأكيد المفكر عمر بن قدور الجزائري ابتعاده عن تناول المسائل السياسية، أو معالجة ما يمتّ إلى عالم السياسة عن العموم، إلاّ أنّنا وجدناه يلامس عوالمها وهذا كما أظهرته دراستنا في فصول سابقة، خاصّة لدى تناولنا للبعد الاجتماعي والأخلاقي في فكره. بحيث توصّلنا من خلال تحليلنا لمقالاته الصحافية، إلى تحديد بعض التوصيف السياسي النقدي لواقع البيئة الاستعمارية في الجزائر. وحتى تحديد بعض المطالب والحقوق التي نادى بها لتحسين ظروف معيشة الجزائريين، التي كانت تعبّر عن الانحطاط الاجتماعي والاقتصادي في آنٍ واحد. في الوقت الذي كان فيه المعمّرون المستوطنون ينعمون بخيرات البلاد وأراضيها، التي سُلبت من الجزائريين.

وكشفت دراستنا عن مطالبه الاجتماعية، المتمثّلة في حقّ الجزائريين في التعليم، وضرورة إيجاد تعليم إسلامي يراعي خصوصية الأمّة الجزائرية، في سياق فتح المدارس الحرة. وبداية من سنة 1907 اعتبر أن حياة العلم هي نموذج الحياة العصرية، وهو حق من حقوق الشعب الجزائري، وكان هذا عبر مقاله المعنون بـ:" ما ننشد إلاّ حقوقنا: الحياة ! الحياة !" المنشور بجريدة الهلال.

ثمّ إنّ مقاله الآخر تحت عنوان " خطاب مفتوح: إلى جانـب المسيو جـونار " الوالي العام "[1] يعتبر من الناحية السياسية أحد أهم مقالاته التي حاولت التعبير عن الحالة التعيسة للشعب الجزائري والذي تحدّث فيه باسم الشبيبة الجزائرية العصرية المتنوّرة الباحثة عن وسائل التغيير في سبيل تقدّم الوطن. خاطب فيه الحاكم الإداري الاستعماري ملفتا انتباهه لحقوق الشعب المهضومة، ولاستبداد الدخلاء، من المعمّرين الأوروبيين على الوطن، وممّا جاء في هذا النّص: " حقوق الشعب الجزائري مهضومة ومصالحه مفقودة وخيراته مدرسة على حين أن نداءه إلى مقامكم السامي يعجّ مستغيثا فتفضّلوا بسماع نداء المستغيث .... بناء على جميع ما تقدّم نرجوكم باسم الجمهورية والإنسانية أن تنعموا النظر في الإصلاح وتتفضّلوا بالإصغاء إلى ما ندرجه في جريدتنا من تلك الأصوات التي تنادي " حقوقنا ! حقوقنا ! حقوقنا من الحياة "[2].

وبالرغم من اعتبار مفكّرنا لدور السياسة وتوظيفها، إلاّ أنّ رؤيته وتعامله معها، حسبما توصّلنا إليه، تدعونا إلى التمعّن، كما فعلنا معرفيا، إلى النظر إلى طبيعة الممارسة الإعلامية والفكرية في البيئة الاستعمارية المميّزة للواقع الجزائري. وبدا لنا أنه كان واعيا بهذه الإشكالية

---

(1) – جريدة " الأخبار " بتاريخ: 26 أفريل 1908.

(2) – المصدر السابق نفسه.

حينما تحدّث سنة 1907 عن الضغوط التي تعرّض لها المثقّفون المتنوّرون من جهة سلطة استبداد الحكومات: " إذا كان العدل قائما بإرشادات الهداة يكون القسط قائما أمّا إذا كانت الحكومة ضاغطة على المرشدين والمفيدين وآخذة في سبيل الاستبداد تجد الأمر مختلاً والفساد شاملا ..."[(1)].

والصحافي الوطني حسبه هو أحد هؤلاء المثقفين التنويريين الذين يجابهون تيارات معارضة من بني جلدتهم، زيادة على ممارسات السلطة الاستعمارية: " موقف الوطني الصحافي موقف حرج، محوط بالأخطار والمهالك ... لا يقف إلاّ وهو متجلّد متدرّع بدروع حسّية ومعنوية يدعو وينادي والأهوال تهدّده والمصائب تحفّه ..."[(2)].

وكان احتياطه السياسي جليا، خاصة بعدما أعلن في افتتاحية صحيفته (الفاروق) من أنّ توجّهها سوف يكون بعيدًا عن عالم السياسة. وأشار إلى الاضطرابات والتغيّرات (التلّون) التي تصيب المواقف السياسية وأجواءها، فكتب [ ... ويل للضعفاء منها ومن تلوّناتها وتقلّباتها لقد عتت عليهم عتوا كبيرًا، وملأت قلوبهم رعبًا فما كان بعضهم لبعض ظهيرًا ...][(3)].

مع ذلك، فكان ثلاث سنوات قبل هذا كتب في صحيفة (الأخبار) مستغربا إعراض الجزائريين عن الاهتمام بأحوالهم السياسية، الذي عدّه ناتجًا عن جهلهم وعدم اهتمامهم بمصالحهم: " كلّ من يتأمّل في العالم السياسي التأمّل اللائق به إلا ويجد للجزائريين الإعراض التام عن تتبّع الأحوال السياسية التي تجري في بلادهم وإن كانت تمسّهم كثيرًا ..."[(4)].

ووجدناه أيضا يستغرب في نّص صحافي آخر، عدم اهتمام قرّاء الصحف بالأحداث السياسية الدولية، ومنها التحولات أو الثورات التاريخية التي تحدث في العالم، إدراكًا منه للوعي السياسي الناتج عن هذه المتابعة[(5)].

لقد كشفت دراستنا عن وجود بعدين أساسيين في رؤيته الفكرية السياسية. والفصل هذا يتناولهما من خلال مبحثين، المبحث الأول يوضح أفكاره ومواقفه السياسية التي تتماشى وخطّته التنويرية الإصلاحية، المرتبط بالمسائل الداخلية لواقع الأمّة الجزائرية، إبّان تلك الفترة

---

(1) – صحيفة (الحقيقة) – تونس بتاريخ: ماي 1907.

(2) – مقالة " كيف يقف الصحافي المرشد بين الجزائريين " بتاريخ: 12 جويلية 1908.

(3) – (الفاروق) بتاريخ: 28 فيفري 1913.

(4) – أنظر صحيفة (الأخبار) بتاريخ: 23 أكتوبر 1910.

(5) – في صحيفة (الأخبار) بتاريخ: 16 أكتوبر 1910.

الاستعمارية. أمّا المبحث الثاني فنتناول فيه البعد الفكري السياسي المتصل بالفضاء الحضاري السياسي للعالم الإسلامي.

## المبحث الأول: البعد الفكري السياسي على المستوى الوطني

### الخطّ الافتتاحي السياسي

بالرغم من أنّ الكتابات السياسية لعمر بن قدور الجزائري، بدأت بالظهور مع مقالاته الصحفية الأولى في جريدة " الهلال " على الخصوص واستمرّت بعد ذلك في صحف أخرى، كجريدة " الأخبار " أو في الصحف التونسية المختلفة، ثم في صحيفة " الحضارة " الصادرة بتركيا سنة 1910، ثم في جريدته (الفاروق) التي أصدرها بمدينة الجزائر في شهر فيفري من سنة 1913، إلاّ أننا ومن خلال تتبّع المسار الصحافي النضالي له في حقل الإصلاح والتنوير، لاحظنا نقص مثل تلك الكتابات بعد عودته للنشاط الصحافي، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وهذا بعد إطلاق سراحه من النفي والإقامة الجبرية في صحراء الجزائر سنة 1919 وأخرى قليلة نشرها في صحيفة " الإقدام " التي حرّر بها فيما بين 1921 و1923.

وفي افتتاحية (الفاروق) لسنة 1914 يعيد صياغة المبادئ الرئيسية التي رآها محور التوجّه الإصلاحي والتنويري لصحيفته. وهنالك يحدّد المعنى الإصلاحي الفاعل لها، من خلال دورها التغييري والخطير اجتماعيًا وسياسيًا. فالصحف الإصلاحية في نظره لا يقصد بها الصحف الدينية، بل كلّ الصحف الداعية إلى التقدّم والتغيير الحضاري، وفقا لمبادئ دينية أو سياسية أو أخلاقية أو اقتصادية وبإمكانها أن تكون وراء إنشاء أحزاب سياسية، وأنّ تكون قوّة قادرة على إسقاط حكومة ما. إذن فهم إدراك لسلطة الصحافة السياسية كقوة فاعلة للنهوض بالمجتمع قال في هذا المنحى[1]:

[ لست أعني بالإصلاحية خاصة الصحف الدينية، بل أعني كافة الصحف التي تدعي الزعامة على مبدأ من المبادئ العمرانية سواء كان ذلك المبدأ دينيا أو سياسيًا أو أخلاقيًا أو اقتصاديًا، وعلى هذا التأثير تتكوّن لتلك الصحف صورة الحياة وتنمو بها جراثيم القوة والضخامة، فمنها ما تؤالف حزبًا، ومنها من تبيد رذيلة، ومنها من يسقط دولة، ومنها من تنهض بأمّة، والمطّلعون على سيرة الشعوب والأمم الحيّة يدركون هذا ...].

وكشفت دراستنا مدى المعارضة والصعاب التي واجهها مفكّرنا في مساره النضالي والتنويري، بدءً من الوسط الجزائري، الذي تجلّى في وجود مقاومة للإصلاح من قبل الجامدين الذين حاربهم وحرّضهم على التجدّد في سبيل النهوض بالشعب الجزائري. ثمّ مجابهته للتيار

(1) – أنظر: (الفاروق) بتاريخ: 9 مارس 1914.

التغريبي الاندماجي الذي اتّهم المفكر عمر بن قدور بتهم سياسية محضة، حينما تم اعتباره من الذين ينتمون إلى تيار الجامعة الإسلامية (Panislamisme) مع التحضير سرّيا للتمرّد والعصيان على الدولة الاستعمارية الفرنسية. لكنّه كتب مندّدًا بهذا الاتّهام، معلنا استقلاليته الفكرية، وعدم انتمائه لأيّ تيار أو حزب سياسي، ومعلنا في الوقت نفسه عن توجّهه الإصلاحي والسياسي في دعم الروح الإسلامية للهوّية الجزائرية، ومحاربته ونضاله ضد دعاة التغريب والإدماج، وضدّ المتعصّبين من حزب المعمّرين والمستوطنين الكارهين للمسلمين الجزائريين فقال: " إنّنا جزائريو الأصل والمولد والمنشأ وكلّ من عرفنا منذ نشأتنا يتحقّق أنّنا لسنا من الذين يتوغّلون في المضايق السياسية والأحزاب، بل إنّ فكرتنا يعرفها كلّ من اطّلع على كتابتنا سواء في جريدة " الأخبار " أو في الجرايد التونسية أو في الجرايد المصرية أو جريدة (الحضارة) بالأستانة. وهي تحتوي على معنى واحد وهو خدمة الدين الإسلامي والعمل على إصلاحه وتهيئة أهله لفهم حقيقته، لأن المسلمين لا تقيّدهم السياسة المجرّدة عن الدين بشيء أبدًا ولا يحصل لهم فهم سياسة الدين إلاّ إذا فهموا حقيقته الأخلاقية والاجتماعية ...".

ثم يوضّح أن تجنّبه للسياسة، إنّما المقصود بها سياسة الغدر والنفاق، وسياسة البحث عن الأغراض والمصالح الشخصية. وسوف نرى أثناء تطرقنا لفكرته السياسية حول الإندماج، نقده لدعاته من الجزائريين.

إنّ الخط الافتتاحي الصحافي لمفكّرنا سوف يعبّر عنه، واصفًا المبادئ التي يسير عليها، من إخلاص وخضوع للبرهان، وطمع لثواب الرحمن، سبحانه وتعالى. يسعى لتجسيد حرية الفكر وعدم تبعيته السياسية لتلك التيارات السائدة آنذاك في الجزائر. خدمة للحق والحقيقة، غير مأجور، وإنّما هدفه تغيير مستقبل الأمّة لما فيه خيرها وسعادتها، كتب واصفًا قلمه الصحافي التنويري: [ .. قلم حرّ لا يكتب ليعيش أو يعيش ويكتب، قلم يخدم الحق والحقيقة، ويسعى في تحسين مستقبل الأمّة، وصدق الكلمة، قلم تجرّد قدر وسعه من العِناد والعصبية، وتنزّه عن أغراضه الشخصية، قلم ترك السياسة لأرباب الرياسة، ورفض المصانعة لباعة الوجدان، قلم يستعيذ با من كلّ مجامِل مسّيس، يخون من وجه ويتملّق من وجه، قلم يكتب لا للمدح والشهرة، ولا لمنفعة شخصية (وا على ما نقول وكيل) ...] [1].

أمّا من جهة المبدأ السياسي المحدّد لتعامله الصحافي مع الحكومة الاستعمارية الفرنسية، فيقوم في إحدى افتتاحياته الواضحة، بتحديده دون لُبس أو غموض، معتبرًا الاستعمار الفرنسي

[1] - في صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 15 جانفي 1915.

مسيطرًا على بلاد الجزائر. وأنّ سياسة هذا الاستعمار المهيمنة لا تعني خضوعه لضغوطها في مبدأ عمله الإصلاحي، المؤكّد على الهوية الإسلامية للأمّة الجزائرية المتميّزة عن الأمّة الفرنسية. لكن مصرّحا في نفس النّص بعدم الانتقاد الصريح للممارسات المشينة للحكومة. وهو بهذا يريد تفادي ضغوطها السياسية التي قد تصل إلى توقيف جريدته، التي يعوّل عليها كثيرًا في حركيته الصحافية الاستنهاضية، وهذا مؤشّر آخر على الاحتياط السياسي. مع تبيين المنحى السياسي له المستقّل عن الفعاليات أو التيارات السياسية الموالية للحكومة الاستعمارية أو الأخرى الداعية لإصلاحات إجتماعية وسياسية على شاكلة حزب " الشبيبة الجزائرية ".

وهكذا يكتب قائلا [1]: [ أمّا مبدأ " الفاروق " في المسلك السياسي الذي يتوخّاه لقاء سياسة فرنسا الاستعمارية المسيطرة على هذه البلاد فهو " مبدأ الاعتدال " بحيث لا يرضخ لضغط ولا يتصدّى لغشّ الدولة. وهذا شأنه منذ بروزه، وهو مستقّل في ذلك تمام الاستقلال عن كلّ حزب أو ذي نزعة سياسية سواءا كان حزب الحكومة المسمّى " بني وي وي "[2] أو حزبي " الشبيبة الجزائرية " و" المتعمّمين القدماء " بل هو يعرب عن رأيه الإصلاحي الخاص به بكل حرية ]. ثم يعبّر في هذا الخطّ السياسي عن رفضه لسياسة الاندماج بفرنسا رافضًا التوجّه التغريبي، والداعي أيضا إلى التجنيس بالجنسية الفرنسية المتنافية مع القيم الإسلامية، والذي سنتعرّض له خلال تحليلنا هذا المتّتبع لأفكاره السياسية.

---

(1) – بصحيفة (الفاروق) بتاريخ: 9 مارس 1914.

(2) – بهذا يكون المفكر عمر بن قدور الجزائري أسبق تاريخيا من الأمير خالد، الزعيم السياسي الجزائري، في التوظيف الصحافي لعبارة " بني وي وي " Beni oui-oui.

## مسألة الأوقاف الإسلامية في الجزائر:

كشفت دراستنا التحليلية لمقالات عمر بن قدور الجزائري، عن وجود اهتمام كبير لمفكّرنا بمسألة مؤسّسة دينية عريقة الحضور في المجتمع الجزائري. والمقالات الصحفية التي عثرنا عليها وكانت محلّ تحليلنا تؤكّد تاريخيا مدى التناول المبكّر لها من قبل مفكّرنا في بدايات القرن العشرين، وبالضبط سنة 1907، حينما كتب عدّة مقالات في صحيفة (الحقيقة) التونسية، والتي سيتبعها فيما بعد بمقالات أخرى في صحيفة أخرى هي (التقدّم) التونسية. ونلاحظ بداية كيف تطرّق لمسألة الأوقاف الإسلامية من خلال الكتابة خارج البيئة الصحفية الجزائرية، وهذا يدّل على حساسية القضية من الناحية السياسية بالدرجة الأولى. ويبدو أنّ قانون 9 ديسمبر 1905 الذي نصّ على الفصل ما بين العبادات أي الدين والحكومة لم يعرف أي تطبيق له في الجزائر [1].

حيث بقي الدين الإسلامي بمؤسساته خاضعًا لجملة إجراءات وقوانين استثنائية. وكان عمر بن قدور الجزائري يحثّ النخب الجزائرية ذات الغيرة الوطنية والدينية على ضرورة التحرّك لتشكيل جمعيات وهيئات اجتماعية دينية للمطالبة بحماية أملاك الأوقاف الإسلامية. وفي مقال له في شهر جويلية 1908 نشره بصحيفة (التقدّم) وتحت عنوان فرعي " فصل الدين عن الحكومة " عبّر فيه عن انشغال الرأي العام الجزائري بهذه المسألة منذ عدّة شهور، بعد أن تمّ فصل الكنائس المسيحية [2]، وتحرّك وإسراع اليهود في الجزائر إلى تشكيل جمعية دينية وقفية في شهر جانفي سنة 1908. وتحدّث أيضا عن عزم شخصيات جزائرية بالعاصمة تأسيس جمعية للأوقاف.

لكن كما سلف وأن ذكرنا، فقد تنبّه مفكّرنا للمسألة، سنة قبل ذلك بكتابته لسلسلة مقالات صحافية تحت عنوان " اللذة في الإحسان والألم في الإساءة: النظام الديني، الإسلام الجزايري على مرسح النظر ماذا ينتج من تلاشيه "، وهذا في صحيفة (الحقيقة) سنة 1907 أثناء تواجده بتونس، بعد توقيفه عن المشاركة الصحافية مع صحيفة (الهلال) الصادرة بالجزائر ثم اعتقاله. وهذا العنوان بهذه الصيغة يعبّر عن وعيه التنويري، بضرورة الإبقاء على مؤسّسة الأوقاف كهيأة مستقلّة عن الإدارة الاستعمارية، يسرها الجزائريون، نظرًا لانعكاساتها المؤثرة على

---

(1) – أنظر:

- In : Kaddache : Histoire du Nationalisme Algérien, p : 37.

(2) – في صحيفة (التقدّم) – تونس – 23 جويلية 1908.

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ومساهمتها الفعلية في دفع حركية النهوض والإصلاح. وباعتبارها أيضا من المؤسسات المميّزة لوجود الهوية الإسلامية الجزائرية.

واعتبر طرح المسألة بمثابة واجب على كلّ وطني جزائري، وعلى كلّ مسلم في سياق رابطة " الجامعة الإسلامية ". وهذا لما لها من أهمّية في بحث انعكاسات انتزاع الأوقاف الإسلامية مع استثناء الأوقاف الإسرائيلية في الجزائر [1].

ومن الناحية السياسية طالب مسؤولي الجمهورية الفرنسية بالنظر لهذه الهيئة الدينية، فكتب أنّها [ مسألة هامة كهذه وخصوصا لما كانت من الضروريات للإسلام والمسلمين ومن الذنوب التي لا تغتفر إهمالها والتلاهي عن نشرها ... وعدم إلفات الأنظار إليها ولذلك رأينا أن ننشر لقرّاء " الحقيقة " الكرام الأحوال التي تقلّبت فيها هذه المهمّة الدينية ونلفت أنظار الجمهورية الفرنسوية الذين ألقيت إليهم مقاليد نظام الهيكل الديني بقطر الجزاير ولا نخال جنابهم السامي يجعلها في خبر كان ويذرها في مهوى النسيان، فإنّ اللذة كلّ اللذة في الإحسان ...] [2].

وبعد تنويهه بقيمة إدارة الأوقاف وتسييرها لدى المسلمين كمنظومة دينية إسلامية، وإستقلالية إدارتها لدى الدول الإسلامية الأخرى، انتقد تبعية هذه المؤسّسة للإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر وبذلك اعتبر أحد أسباب اضمحلال وتلاشي هذا النظام الديني فيها راجع إلى سياسة الحكومة الاستعمارية: [ .. أمّا البلاد الجزائرية فإنّ الحكومة إستقلّت بها وغيّرت وبدّلت وفعلت ما أرادت، سواء أكان ذلك الفعل يوافق الناموس الشرعي وشروط الواقفين أو يخالفهما، وبذلك حصل في نظام الدين تلاشي لا يخفى على كلّ مَن له أدنى معرفة بالسياسة الاستعمارية ..] [3].

وللتدليل على أهمّية مؤسسة الأوقاف الإسلامية بالنسبة للشعب الجزائري قدّم لمحة تاريخية سمّاها بـ" الحالة المنصرمة " حيث برهن على كفاءة الجزائريين، قبل الاحتلال الفرنسي، في إدارتها إلى جانب مهارة العلماء واتحادهم في خدمة الإسلام.

وذكر أنّ 62 % من مجموع الأملاك العقارية والزراعية في الجزائر كانت تابعة لهذه المؤسسة، واعتبر الأمر دليل شغف الجزائريين بحبس أموالهم على المساجد وأضرحة الأولياء

---

(1) – بصحيفة (الحقيقة) –تونس – 7 أوت 1907.

(2) – في المصدر نفسه.

(3) – صحيفة (الحقيقة) بتاريخ: 8 أوت 1907.

والنوادي العلمية على العموم، وعلى الحرمين الشريفين. ممّا جعل البيئة الاجتماعية والعلمية بالمساجد جد راقية. فكانت إدارتها مستقلّة عن الحكومة آنذاك، ولم تتأثر بها إلاّ في أواخر الوجود التركي (العثماني) في الجزائر، لما ظهر من الظلم والاستبداد [1].

وفي نصّ صحافي آخر تابع مفكّرنا عمر بن قدور، انتقاده للحكومة الاستعمارية التي كانت ترفع شعار " الحرية والمساواة والإخاء " التي استولت على تنظيم إدارة الأوقاف الإسلامية مع استثناء الأوقاف الإسرائيلية، وتمّ إنتزاع هذه المؤسّسة من الجزائريين بحجة عدم أهليتهم في إدارتها وعملت على إقصائهم منها. وبعدها بدأت تظهر انعكاسات هذا الاستيلاء المتعسّف، فقال مفكّرنا واصفا إياها: [ ومن ذلك الوقت انقطع الرزق الذي كانت تمدّه بلاد الجزاير للحرمين الشريفين ووصل حزم تلك الإدارة إلى هدم بعض المساجد وإعطاء بعضها لدخلاء الإسبانيول والإيطاليان جعلوها كنائسا (كذا) ومعابد للمسيحية ولا حول ولا ...] [2].

وفي حديثه عن الوضع الراهن آنذاك لمؤسسة الأوقاف الإسلامية في الجزائر، أشار إلى تواصل عملية بيع أملاكها للأجانب النازحين للجزائر بأبخس الأثمان، والذين تمتّعوا بخيراتها بعدما دخلوا البلاد بائسين يائسين فيقول: [ إنه لم يبق قيد شبر من أعيان الأوقاف لأنّها كلّها بيعت للأجانب بأبخس الأثمان فصار الواحد منهم الآن من ذوي الأموال بعد أن جاء إلى البلاد عاري الرأس حافي القدمين وتمتّعوا بالنعم العظيمة والخيرات الجسيمة لأنهم في الحقيقة ما أخذوا تلك الأراضي إلاّ هبة لأن الثمن الذي بيعت به لا يكاد يذكر ...] [3].

ومع الوقت، إزداد انحطاط نظام هذه المؤسّسة الدينية، فلم يعد بالإمكان تسيير بعض المراكز الدينية كالمساجد، مع تناقص الفضاءات العلمية التقليدية، زيادة إلى تولّي إدارتها من طرف الحاكم الإداري الفرنسي (البريفي) [4] الذي انتقد مفكّرنا لعدم معرفته بواجبات شعائر الإسلام الملقاة على عاتق من تقلّد تلك السلطة الدينية. واعتبر سقوط هذه المؤسسة وارد ما دام قد تم إسناد الوظائف الدينية لغير أهلها [5].

---

(1) – في المصدر نفسه.

(2) – المصدر صحيفة (الحقيقة) بتاريخ: أوت 1907، العدد: 134.

(3) – في المصدر نفسه.

(4) – البريفي (الوالي) Préfet.

(5) – المصدر نفسه.

وكنتيجة لهذا الاستيلاء الاستعماري على هذه المؤسسة وهدمها، الحالة العلمية في الجزائر، ونتج أيضا شغور خطير في وظائف دينية عديدة في مدينة الجزائر. واضطربت الحالة الاجتماعية، بفعل وجود ضحايا من الفقراء والمحتاجين [1].

ولم يوجّه نقده للسلطات الاستعمارية فقط، وإنّما وجّهه أيضا إخوانه الجزائريين الذين دعاهم إلى اليقظة والبرهنة على كفائتهم الإدارية والعلمية الدينية للمطالبة بتسيير هذه المؤسسة: [ سهام ملامنا كلّها موجّهة نحو إخواننا الجزائريين الذين لم يبرهنوا عن كفاءتهم ومقدرتهم بعلمهم الديني والعصري وعفّتهم وطهارتهم من الطمع حتى تلقي الحكومة إليهم مقاليد إدارة دينهم الذي دونه فداء الأموال والأرواح ..] [2].

وفي مقال أخير من هذه السلسلة في هذه الصحيفة التي خصّ بها الأوقاف الإسلامية وجدناه يرجع أسباب الوضعية الراهنة آنذاك لهذه المؤسسة للحكومة الاستعمارية. فيدعوها إلى إجراء إصلاحات في المجال العلمي والديني، بعدما وجّه لها نقده في سلب أوقاف الجزائريين وتسليمها للأجانب من الأوروبيين. فطالب بإرجاعها لهم مع تنظيم الشروط الدينية والمادية، بترقية تربوية تعليمية، حتى يتمكّن الجزائريون من تسيير شؤون أوقافهم بأنفسهم [3].

إن التدهور اللاحق لمؤسّسة الأوقاف الإسلامية، جعل مفكّرنا فيما بعد يلحّ على النخب الجزائرية الغافلة عن أمرها إلى الاعتبار بما قام به الإسرائيليون في الجزائر في تشكيل جمعية دينية وقفية، واعتبر هذه النخب بغفلتها ليست في خدمة الأمّة التي وهنت جسم الشعب الجزائري. وأضنت عظامه. إلاّ أن أعضاء على مستوى المجلس البلدي بالعاصمة الذين كانوا يجتهدون لإسقاط " قانون الأنديجينا " قاموا بتشكيل جمعية للأوقاف والاستقلال بمسؤولية تسيير شؤون الدين الإسلامي [4]. وقد حثّ عمر بن قدور الجزائري في مقدّمة مقاله " الأزمة الدينية " المنشور بصحيفة (التقدّم) التونسية بعد تذكيره بقوانين فصل الدين عن الحكومة، وبقانون إخضاع الجزائر لذلك القانون وتطبيقه المؤرخ في 9 ديسمبر 1905 و28 مارس 1907، حثّ [من كانت له غيرة على دين ونخوة على يقينه ] على تشكيل هيأة تقوم ببيوت العبادة ولوازمها

---

(1) – صحيفة (الحقيقة) بتاريخ: 28 اوت 1907 العدد: 136.

(2) – في المصدر نفسه.

(3) – صحيفة (الحقيقة) بتاريخ: 29 أوت 1907.

(4) – بمقاله المعنون: " الأزمة الدينية " جريدة (التقدّم) –تونس- بتاريخ: 25 أوت 1908.

وإلاّ فإنّ الحكومة ستستولي وتحتوي تلك البيوت إن لم تجد أمامها هيأة مشكّلة للفرض المذكور[1].

## نقد سياسة الحاكم الاستعماري العام " جونار ":

إذا ما اعتمدنا في تحليلنا هذا على المقال الافتتاحي السياسي الذي نشره المفكر عمر بن قدور في صحيفته (الفاروق) حول سياسة الوالي العام " جونار" (Jonnart) تحت عنوان " الحادثة العامة " [2] متحدّثا عن استقالته في نهاية شهر فيفري من سنة 1911، وعن سياسته منذ 1903، ثم عن إيجابيات حكمه للبلاد، ثم عن دوافع استقالته، فإنّه لا يتوضّح موقفه من هذا الحاكم الاستعماري. حيث اعتبر سياسته التي كانت تسعى للمصالح المزدوجة نافعة لولا تأثيرها البطيء في المجتمع الأهلي الجزائري. ثم نوّه بتخفيف الضغوط على المثقفين والصحافيين حينما قال: [ وقد حصلت في أيام ولايته للبلاد منافع نتذكّرها محفوفة بجزيل الامتنان ومنها ترقية الأفكار والعقول وتخفيف ويلات ذلك الضغط الذي كان حملا ثقيلاً على كواهل المفكّرين من الأهلين ..]. ثم ذكّر بإنجازاته العمرانية، حينما اختار نمط البناء العربي الجزائري، الذي يعكس شغفه بهذه الأمّة الجزائرية العريقة في المجد والمدنية.

لكنّ تتبّعنا في تحليل نصوصه الصحافية جعلنا نكتشف ما لم يقله في هذا المقال، وفي نفس الموضوع أو الحدث وهو " استقالة جونار ". ففي نصّ آخر إذن وتحت عنوان " استقالة المسيو جونار " [3] نشره في جريدة " المشير " التونسية، التي كان آنذاك مراسلاً لها من الجزائر، نراه لا يناقش مسألة غموض أسباب هذه الاستقالة، وإنّما ما يهمّه هو انعكاس سياسته على الجزائريين في بلادهم.

ووصف سياسته هذه بـ" فتح القلوب الأهلية " واعتبر هذه الخطّة خيالية، حينما حاولت المزاوجة ما بين مصالح الأهالي الجزائريين والأجانب (المعمّرين). وهي السياسة التي أطلق عليها بسياسة " المشاركة "، حيث كتب [ هذه هي الخطّة السياسية العظمى التي جعلت هذا الرجل يقوم تلك المدة الطويلة (أي بين 1903- 1911) لا يزلزله عنها مزلزل. وإن كانت ليست إلاّ خطّة ليجعل المصالح مزدوجة بين الأهلين والأجانب. وحاول بذلك أن يمزج العربية

---

[1] – في المصدر نفسه.

[2] – أنظر "الفاروق " بتاريخ: 5 مارس 1911.

[3] – في جريدة " المشير " – تونس – بتاريخ: 19 مارس 1911.

بـ(الأفكار) الأجنبية الطارئة. ولعلّ غايته من ذلك محو التأثير الذي يطرأ طبعًا على الأمم المغلوبة من قلوب الجزائريين ...] [1].

ورأى عمر بن قدور الجزائري أن " جونار " قد خطى خطوات سياسية لم يسبقها إليه مسؤولون قبله، لكنها تبقى غير فعّالة، ولمس هو بذاته من بعض مؤيدي سياسة المشاركة هذه صعوبة تجسيدها فعليا؛ واعتبر من سلبيات هذه السياسة ما له علاقة بحقوق الجزائريين التي تضرّرت جرّاء سقوط الأوقاف الإسلامية في يد الإدارة الاستعمارية [2].

وبالرغم من التحفيف الطفيف الذي أحدثته سياسته، فيما يتصل بحرية التعبير، إلاّ أنّ سياسته كما قال [ ليست من السياسات التي تروج على أمّة تنتسب إلى أصل عربي مجيد. وكيف يصّح ذلك ومقتضى تلك السياسة بث التعاليم الأوروباوية المخالفة للصبغة العربية ... وفي حين واحد تؤتي المرء فهم الاقتصاد السياسـي وتجعـله محـرومًا مـن حقـوقه السياسية والمدنية ..] [3].

إنّه رأى استحالة تحقيق الائتلاف ما بين العنصرين، الجزائري الأصيل، والأجنبي الدخيل، إذا كان هذا الأخير يتمتع بالمزايا السياسية والحقوق الأخرى على حساب الجزائري، فيقول: [ ما أظنّ رجلا كبر شأنه أو صغر يعتقد بصحّة ائتلاف قلوب مضمحلّة محرومة من حقوقها وقلوب متكّبرة مسيطرة متمتّعة بحقوقها. وإن في ذلك لعبرة لمن أراد أن يتذكّر. هذه وأنّا لمنتظرون لما تقرّره الحكومة الباريسية ومن ذا الذي توجّهه إلى ناحيتنا واليا على أقطارنا وديارنا نسأله تعالى أن يكفينا شرّه وشرّ ما يأتي به ...] [4].

وفي سياق انتقاده لسياسة فرنسا الاستعمارية ومطامعها ونواياها في المغرب الأقصى، أكّد مرّة أخرى إخفاق سياستها التمدينية وغزو قلوب الجزائريين، تلك السيـاسة المتّبعة من قبل " جونار " فقال ممّا نشره بصحيفة (الحضارة) وأعادت نشره " المشير " التونسية:

---

(1) – في جريدة " المشير " – تونس – بتاريخ: 19 مارس 1911.

(2) – في المصدر نفسه.

(3) – المصدر نفسه.

(4) – المصدر نفسه.

[ فبالأمس كان المسيو جونار والي الأقطار الجزائرية السابق يقول أنّه سيعمل لفتح القلوب لأنه يعلم أن فرانسا منذ دخلت شمال إفريقيا لم تملك من البلاد إلاّ التراب ولم تستحوذ قط على الألباب. أراهم يقولون ويصرّحون بأنّهم مدّنوا وسيمدنّون وأصلحوا أو سيصلحون، ولم نر من أثر ما يقولون أمرًا قائما يحطّ من تذمّرنا واستيائنا ويزيد في سرورنا وارتياحنا ...] [1].

[1] – في جريدة (المشير) – تونس بتاريخ: 14 ماي 1911 عن صحيفة (الحضارة).

## مسألة الهجرة والتجنيد الاجباري:

كشفت لنا الدراسة هذه عن منتوج صحافي فكري مرتبط بمرحلة تاريخية للجزائر المعاصرة، بحيث نستدّل به للقول أن مفكّرنا عمر بن قدور الجزائري لم يكن في قطيعة مع الواقع السياسي والواقع الاجتماعي الذي حلّلناه آنفا. وأشرنا في مقدمتنا المنهجية بأنّ الفكرة الأكثر تكرارًا ليست بالضرورة هي الأكثر أهمية وكذلك فإنّ قضية موضوع معّين يمكن أحيانًا التعبير عنها بجملة أو فقرة، أو وثيقة بكاملها خلال توظيف وحدة الموضوع كوحدة للتحليل. من هنا أيضا توصّلنا إلى أننا لا يمكننا الكشف عن موقف مفكّرنا السياسي من مسائل معيّنة: كهجرة الجزائريين إلى الخارج أو مسألة تجنيدهم الإجباري في الجيش الفرنسي إذا اعتمدنا فقط على تحليل نتاجه الصحافي في الصحافة الصادرة بالجزائر، التي شارك في تحريرها كـ" الأخبار " و" الهلال" أو التي أصدرها بنفسه كـ" الفاروق " مثلاً. وإذا كنّا قد عثرنا على رأيه السياسي في أسباب هجرة الجزائريين إلى الخارج، في صحف صادرة بالجزائر، فإنّ موقفه من التجنيد الإجباري لا يظهر بوضوح، إلاّ من خلال كتاباته السياسية التي نشرها في الصحافة العربية خارج الجزائر. وهذا بلا شك يعبّر أيضا عن الاحتياط وصعوبة التعبير الإعلامي التي أشرنا إليها في سياق الحديث عن الممارسة الصحافية إبان الفترة الاستعمارية.

إذا كانت هجرة الجزائريين قد تحوّلت إلى ظاهرة سياسية [1] بعد إقرار سياسة التجنيد الإجباري، فهي تاريخيًا كانت متواصلة، سواء عقب الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 مباشرة، أو عقب حركات المقاومة المسلّحة التي قام بها الجزائريون. ولكن ثمّة أسباب أخرى لها علاقة مباشرة بالسياسة الاستعمارية.

وكان تطبيق " قانون الأنديجينا " التعسّفي في حقّ الأهالي الجزائريين يشكّل أحد أهمّ الأسباب في هذه المسألة. وهو يمثل الصورة القمعية للإدارة الاستعمارية، بما حوى من قوانين استثنائية يُعامل بها الجزائريون، التي كان بسببها يتعرّضون للنفي والتهجير. بالإضافة إلى عملية اغتصاب الأراضي وانتزاع ملكيتها من أصحابها الجزائريين، ثم تسلّم للمعمّرين الفرنسيين والأوروبيين معًا [2]. وكنّا أشرنا آنفا إلى مقال نشرته جريدة " اللواء " المصرية سنة

---

[1] – أنظر حول هذه المسألة أيضا:

- Ageron : Les Algériens Musulmans et la France, T : 2,P/ 1079- 1098.

[2] – أنظر:

- V.Spielman : Colonisation et question indigènes en Algérie.

1906، رجّحنا أنّه من ترجمة مراسلها بالجزائر آنذاك، وهو عمر بن قدور الجزائري تحتى عنوان " حكم الفرنساويين في الجزائر "، يعكس هذا النّص تفاقم هجرة الجزائريين إلى تونس ومراكش (أي المغرب الأقصى). وأشار صاحبه (مستر أنزج) إلى تأثير نزع ملكية الأراضي، ومنع الجزائريين من إمتلاك بعض الغابات، وصعوبة العيش بسبب أيضا الجفـاف والمجاعـات [1].

ولقد استندت حركة الهجرة في السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، مع ظهور إجراءات التجنيد الاجباري.

من النصوص الصحافية لمفكّرنا، التي عبّرت عن انشغاله ورأيه في هذه القضية نجده يكتب في شهر أكتوبر من سنة 1910 بصحيفة " الأخبار " معلّقا على حوادث الهجرة المتفاقمة في الجزائر، بعدما عرض الآراء المختلفة، ومنها آراء الفرنسيين الذين رأوا تحريضا تركيًا وراءها خصوصا لما رأوا أن ديانة الجزائريين ديانتها وملّتهم ملّتها كما قال. ورأى أن هذا التعليل ينبني على " التعصّب الديني ". وثمّة من المعمّرين النازحين للبلاد من يعتقد هذا.

لكن رأي مفكّرنا من الناحية السياسية آنذاك الذي وصف الظاهرة بالكارثة، بأنّ الدافع الأساسي للهجرة، المظالم الإدارية الاستعمارية التي أصابت الجزائريين بما فيها الضرائب واستيلاء الأجانب من الأوروبيين والفرنسيين على الأراضي ما عبر عنه فيما بعد الصحافي فكتور سبيلمان، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. وهكذا كتب عمر بن قدور قائلا: " إن الدافع الوحيد لمواطنينا إلى الجلاء عن أوطانهم وابتغاء أوطان أخرى قريبة ليس إلاّ الحيف الذي لحقهم من جرّاء جور الحكّام وكثرة الضرائب والمظالم الواقعة على كواهلهم. إن الفاقة أرخت سدولها على إخواننا المساكين بسبب الضرايب والأعوام المجذبة واستيلاء الأجنبي على تربتهم الجيّدة الخصبة. هذه نظريتنا في السبب الداعي إلى الهجرة وإنّا وأيم ا لنتألّم من هذه الكارثة كارثة خراب البلاد وذهاب أهلها ...] [2].

وفي مقال آخر تحت عنوان " أسباب الجلاء " حيث يعلّق على انتقال مدير جريدته (الأخبار) السيد " فيكتور باروكان " إلى تلمسان في شهر جانفي 1912 لمعرفة والتحرّي عن أسباب اتّساع رقعة هجرة الجزائريين وامتدادها لمعظم مناطق القطر، كانعكاس لتطبيق سياسة التجنيد الإجباري، عبّر مفكّرنا عن رأيه الذي يشير فيه في الواقع إلى وجود أسباب أخرى

---

[1] – المصدر: صحيفة " اللواء " – مصر – 05 سبتمبر 1906.

[2] – أنظر صحيفة " الأخبار " بتاريخ: 02 أكتوبر 1910.

متّصلة بتدهور المكانة الاجتماعية والاقتصادية لهم، ثم يشير إلى تنوّع الفئات المعنية بالظاهرة، خاصة المتعلّمة منها، لكساد التجارة وتراجع الصناعة والفلاحة بسبب كثرة الضرائب الاستثنائية. ثم يشير تنوّع الفئات المتضرّرة والمعنية بالهجرة كالمتعلّمين مثلاً ففي ظرف شهر غادر منطقة تلمسان 1500 من الطبقة المتعلّمة [(1)].

وأشار المفكّر عمر بن قدور أيضا إلى تنامي نوع من الهجرة بسبب الحالة الاجتماعية والاقتصادية للجزائريين. فإذا كانت الهجرات السابقة في غالبيتها كانت نحو البلدان العربية، كسوريا وتونس والمغرب الأقصى مثلا، فإنّه مع ظروف الحرب العالمية الأولى، أصبح العديد منهم يقصدون فرنسا. وأصبح المعمّرون في الجزائر يخشونها ويحسبون لها ألف حساب خوفا لافتقادهم " اليد الأهلية العاملة بمزارعهم و ......". أمّا تفسيره هو لهذه " الهجرة الإسلامية " فيظهر في قوله: [ .. نصرّح بأنّ هذه الطوائف المسلمة التي تهاجر إلى فرنسا ما ألجأها إلى مغادرة أوطانها إلاّ الفقر والحاجة فهي تقصد فرنسا للعمل بمعاملها ومصانعها حيث يقدّر العامل الأهلي بها حقّ قدره وينفذ الأجرة يستحقها عن عمله ...] [(2)].

كما شكّل مشروع قانون التجنيد الإجباري سببا مهما في تنامي هجرة الجزائريين في بداية القرن العشرين. فمنذ إعلان الحكومة الفرنسية قرارها بتجنيد الشّباب الجزائري سنة 1908، برزت حركة احتجاجات، اتخذت صورًا عديدة لمعارضة هذا القرار. وشهدت مناطق عدّة هجرة نحو البلدان العربية. ولم يصدر المرسوم التجنيدي إلاّ في 03 فيفري من سنة 1912. فأولت الصحافة في فرنسا وفي الجزائر لهذه القضية وانعكاساتها اهتمامًا كبيرًا، حتى أنّ البعض منها اعتبرها حسب المؤرّخ الفرنسي شارل روبير آجرون كحركة تظاهرية ضد النظام الاستعماري [(3)].

وكان موقف غالبية الجزائريين معارضًا لهذا المشروع. إلاّ أن هناك قلّة من تيار " الشبيبة الجزائرية " المؤيّد لسياسة التجنيس أيضا أعلنت موافقتها عليه. وكان أحد العلماء

---

(1) – مقال: " أسباب الجلاء " بتاريخ: 06 جانفي 1912.

(2) – " الفاروق " بتاريخ: 13 يوليو 1914.

(3) – المرجع السابق: -Ageron : Les Algériens Musulmans et la France. P : 1079. T 2.

الجزائريين المتنوّرين وهو الإمام عبد الحليم بن سماية ( / 1932) من الذين أظهروا موقفا معارضًا للتجنيد الإجباري [1].

وكان عمر بن قدور الجزائري صديقًا للإمام بن سماية، وفي تقريره الصحافي الذي أنشره بصحيفة (الحضارة) في شهر أوت من سنة 1911 توضيح دقيق لموقفه ولموقف الرأي العام الجزائري المعبّر عنه من طرف هذه الشخصية التنويرية [2]. وذلك في انعقاد جلسة المجلس البلدي بالعاصمة في 25 جويلية من سنة 1911.

لكن قبل التطرّق لهذا النص الصحافي، يجدر القول، أنّه من الناحية التاريخية، وجدنا مفكّرنا قد تناول المسألة بداية من سنة 1908، أي سنة اقتراح المشروع من قبل ميسيمي (Messymi) مستشار وزارة الحربية الفرنسية. ففي مراسلة له لصحيفة (التقدّم) التونسية عبّر فيها عن المواقف المتباينة للجزائريين وللمعمّرين الأوروبيين إزاء هذا المشروع. ورأيه هو بذاته يتماشى مع الرأي العام الجزائري الذي أبى الرضوخ لهذا المشروع المتنافي مع الهوية الإسلامية للشعب الجزائري حيث كتب تحت عنوان " مسألة تجنيد المسلمين (الجزائر) ":

[ ... الفكر الغالب عند المسلمين عندنا هو عدم الرضوخ لأداء الخدمة العسكرية وغاية المقاومة أنهم يهاجرون الأوطان ويقصدون الشرق بدلاً من أن يجهزّون في البعوث والتجنيد ولا غروا فإنهم يرون في ذلك سقوطًا عظيما في الدين الإسلامي حينذاك وهذا ممّا يجدر بالحكومة الفرنساوية أن تفكّر فيه وتسرّح نظرها في ما يعود بالنفع على الدين ...] [3].

وكان المجلس البلدي للعاصمة قرّر بالإجماع رفض مشروع التجنيد في تلك السنة. ولنلاحظ الإشارة في هذا النّص إلى المقاومة والمعارضة بالهجرة.

يتابع عمر بن قدور الجزائري مسار هذه المسألة على الخصوص في المقالات السياسية التي كان ينشرها خارج الجزائر.

وثمّة رأي سياسي آخر في حالة تصميم الحكومة الفرنسية لتنفيذ المشروع يتمثّل في وجوب إحداث قانون أحوال شخصية إسلامي إستثنائي مع منح الحقوق السياسية المُطالَب بها،

---

[1] – أنظر:

– Philipe Millet : Les Jeunes Algériens. In la Revue de Paris de …….p : 175.

[2] – شارك الإمام عبد الحليم بن سماية في أشغال المؤتمر الدولي للمستشرقين المنعقد بمدينة الجزائر سنة 1905، بدراسة قيّمة تحت عنوان: فلسفة الإسلام.

[3] – المصدر: جريدة " التقدّم " – تونس – 9 جانفي 1908.

حيث تابع قائلا: [ ومن الواجبات عليها إذا صمّمت على تجنيد المسلمين الجزائريين أن تجعل لهم ترتيبًا دينيا وقانونًا إسلاميًا كالقانون الممنوح للعساكر الإسلامية الروسية (وجود المساجد في الثكنات) علاوة على أن تنيلهم الحقوق السياسية ...] [1].

وتحت عنوان " هفوات الأوروبيين: مسألة تجنيد مسلمي الجزائر " كتب عمر بن قدور الجزائري مقالاً سياسيًا نشره في جريدة (الحضارة) والذي أعادت نشره صحيفة (المشير) التونسية في بداية شهر سبتمبر 1911، وفيه يشرح موقف الجزائريين الرافض للتجنيد ومقاومته بالهجرة، بحيث يتحدّث عن استعداد عائلات كبيرة في العاصمة الجزائرية لمغادرة البلاد، ويقدّم أيضا موقف الطرف القابل للمشروع ولكن بشروط سياسية، هي احترام الهوية الإسلامية للجزائريين والمساواة التامّة في الحقوق السياسية والمدنية. وهذا ما كان يخشاه ويتوجّس منه خوفا حزب الإيثار من المعمّرين الأجانب الذين استوطنوا البلاد أيضا [2].

وفي هذا النّص قدّم مفكّرنا نقده السياسي للدستور الفرنسي على الخصوص الذي احتوى على أخطاء أضرّت بحرمة قومية وهوية الأقطار الإسلامية المستعمرة، وبالمكانة الاقتصادية والإسلامية لشعوبها بإسم الإنسانية وفي سياق التجنيد هذا كتب عن فرنسا الاستعمارية [ ها هي ذي الآن تحاول حشر كلّ مراهق من غلمان الأهالي تحت لوائها بلا استثناء وبلا تغيير في مركزهم الاقتصادي والسياسي وبلا احترام للشعائر الدينية وهذا كلّه حاصل بتأثير الأغلاط المبثوثة في الدستور الفرنسي خاصة والدستور الأوروبي عامّة ...].

ثمّ يكتب معبّرا عن الموقف السياسي له حينئذ وموقف الجزائريين، المرتبط بمطالب الحريات السياسية والمدنية: [ ... إن مسلمي الجزائر لا يخضعون أبدًا لأمر فرنسا في تجنيد أبنائهم وتجهيزهم في البعوث وشنّ الغارات دون أن تنزع تلك الأغلاط والهفوات من دستورها وتمنحهم الحرية التامّة، فينتخبون ويُنتجون ويصرخون ويتكلّمون. ولحقوقهم التي اختلست منهم في دور أمس يسترجعون ... أمّا إذا أبت إلاّ تنفيذ مشروعها دون اكتراث بمطالب رعيتها فإنّ خراب الجزائر يحين وقته، لأن المسلمين لا يبرحون لقاء ذلك التنفيذ أن يغادروا أوطانهم ويقصدوا الأقطار الإسلامية الأخرى ...] [3].

---

[1] – في مقالة: مسألة تجنيد المسلمين (الجزائر)- المصدر السابق نفسه.

[2] – أنظر: " (هفوات الأوروبيين) مسألة تجنيد مسلمي الجزائر "- بصحيفة (المشير) – تونس – نقلاً عن (الحضارة) – بتاريخ: 03 سبتمبر 1911.

[3] – المصدر السابق نفسه.

ثم طالب في حال الإصرار على تنفيذ المشروع، عدم إجبارهم في محاربة إخوانهم في الدين. هذا يواصل تغطيته ونضاله في وضوح ضد مشروع التجنيد الإجباري، الذي يريد فرضه وزير الحربية آنذاك (ميسيمي)، من خلال مقالين سياسيين متتابعين تحت عنوان ذي دلالة سياسية قوية: " الرفض الأخير لمشروع التجنيد الجزائري " نشرهما أيضا في جريدة (الحضارة) وأعادت المشير نشرهما في نفس الشهر من سنة 1911. فأ'رب في مقاله عن مساندته للرفض المتكرّر للجزائريين الذين هم كما قال محقّون في رفضهم لهذا المشروع لأنهم لا ينالون من هذه الظروف نفسها إلاّ الضغط الشديد ويسمعون في كلّ وقت ما يخلّ بإحساساتهم الدينية وشعائرهم القومية ولم يروا بعد ما بذل فريق منهم جهده في خدمة فرنسة بكافة المواطين الحربية ...] [1].

وقد ركّز عمر بن قدور في تقريره الصحافي هذا على الاجتماع الذي انعقد بمدينة الجزائر في 25 جويلية 1911، جمع ممثّلي الجزائريين بالعاصمة بممثّلي الحكومة الفرنسية، حول محاولة جسّ نبض الرأي العام الجزائري، ومناقشة المشروع، حيث تمخّض بقرار رفض التجنيد سواء بنيل الحقوق السياسية أم لا. وكان للإمام العالم عبد الحليم بن سماية موقف وطني واضح من هذه المسألة، ودور أساسي في تبنّي الرفض النهائي، وقد نوّه المفكر عمر بن قدور بموقف الإمام المتنوّر، وانتقد بشدة فئة التغريبيين " المتفرنجين " الداعين إلى الاندماج والموافقين على المشروع حيث قال معبّرًا عن الموقف: [ ... ولا ريب عندي في أن الرفض سيكون عامّا وإن كانت هناك فئة تميل إلى القبول لنوازع تنزعها إلى مقارعة الدين والقومية كان ا لها بالمرصاد ...] [2].

وفي النّص الثاني الذي عنونه أيضا بـ:"الرفض الأخير لمشروع التجنيد الجزائري "[3]. يقرّر بجلاء فكرته السياسية الرافضة للمشروع، ويربطها برؤيته لمكوّنات الهوية الجزائرية الإسلامية، التي يجعل لها حدودًا تتمثل في القومية والدين على الخصوص. وممّا جاء في هذا النّص: [ ... فقد تقرّر أنّ المسألة (كذا) مسئلة دين وقومية من جميع في سبيل الطاغوت وا تعالى يقول: " وقاتلوا في سبيل ا الذي يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ ا لا يحبّ المعتدين " ... أفلا تتفكّر فرنسة في المسئلة جيّدًا ؟ ... تا لئن تفكّرت تفكير المنصفين لتجدّن نفسها مخطئة جدا

---

[1] – " الرفض الأخير لمشروع التجنيد الجزائري "- "المشير " – تونس عن (الحضارة) بتاريخ: 10 سبتمبر 1911.

[2] – بالمصدر السابق نفسه.

[3] – بجريدة " المشير " التونسية نقلا عن (الحضارة) بتاريخ: 17 سبتمبر 1911.

... إنّنا معشر المسلمين لسنا بأغبياء مغفّلين حتّى تنطلي على عقولنا زينة الكلمات الذهبية والدهر أبو العجائب يغذّينا بعبره ومواعظه ... أفلا تفتكر فرنسة أنّا لسنا بأغبياء ؟ ...] [1].

إنّ الفقرة التالية تعكس رؤيته السياسية للمشروع، مع تنديده بموقف الاندماجيين التغريبيين حيث قال: [ ... فلا غروا إذن إذا استقبحنا خطّة الحكومة في مشروعها وخطّة الفيئة (كذا) المتفرنجة التي تريد للمسلمين إنقلابًا عظيما في الأخلاق والطبائع والاعتقادات وتوّد تنفيذ مشروع المسيو ميسيمي في تجنيد أبناء المسلمين لتكون القاضية من وراء ذلك على الدين والقومية...] [2].

وعملت فيما بعد جريدة (الأخبار) التي كان يرأس قسمها العربي على نشر العرائض السياسية الرافضة لمشروع التجنيد الإجباري للجزائريين خاصة سنة 1912. وكان يتبعها بتغطية حالة الاضطرابات الكبيرة التي سادت الجزائر، بوصول المشروع مرحلة التنفيذ الفعلي. مع معاناة الجزائريين في ظل غياب الحقوق السياسية والامتيازات وضغوط الضرائب والسياسة التعسّفية المفروضة بالمحاكم الزجرية الاستثنائية وبـ" قانون الأهالي "[3] مقارنة بالمعمّرين الأجانب واليهود في الجزائر [4].

---

(1) – المصدر نفسه.

(2) – المصدر السابق نفسه.

(3) – أنظر صحيفة (الأخبار) بتاريخي: 09 ماي + 26 ماي 1912 و23 جوان 1912.

(4) – المصدر السابق نفسه.

## تأصيل هويّة الأمّة الجزائرية:

كشفت دراستنا التحليلية عن وجود انشغال فكري سياسي يتمحور حول مسألة هويّة الأمّة الجزائرية ووجودها، من خلال مختلف النصوص الصحافية لمفكّرنا عمر بن قدور الجزائري. ولقد حاولنا تحديد أهم الملامح الفكرية التي تعدّ كمرتكزات تسعى لبعث هذه الهويّة المميّزة للعب الجزائري الذي كان يتعرّض لعملية تفكيك لمؤسساته الدينية والحضارية في سياق البيئة الاستعمارية، إنّه مسار فكر نضالي إصلاحي من أجل الصراع في سبيل البقاء، وفي سبيل التغيير المستقبلي.

لاشك وأنّ دراستنا قد توصّلت إلى اعتبار مسألة العلم والتعليم ذات الخصوصية القيمية والحضارية، ارتكازًا استراتيجيا في مسار التنوير والإصلاح لمفكّرنا، قصد الحفاظ على ما تبقّى من مكونات الهوية الجزائرية وبعث مقوّمات أخرى أساسية. ولاحظنا كيف أنّ البعد الفكري العقائدي شكّل أيضا أحد فضاءات الصمود لوجود القومية الإسلامية للجزائريين وكان قد كتب في هذا الشأن بأنّ مسألة خطر السلوكات البدعية تهدّد [ البقية الباقية من قومية المسلمين بالإعدام التام ... إنّها ليسـت بمسألة ثانوية، بل هي عنـدي قضـية عمـرانية هـامّة وعويصة أصلية ...] [1].

ومن الناحية السياسية، فيما يتّصل بالأخطار المهدّدة للهوية الجزائرية المتميزة عن الهوية الاستعمارية الفرنسية، وجدناه يقف معارضا سياسة التجنيد الإجباري، التي رآها أحد أهم السياسات الاستعمارية التي تعمل على إدماج الجزائريين سياسيًا وثقافيًا وبالتالي تفكك الهوية الإسلامية لهم [2]:[ فقد تقرّر أن المسئلة مسئلة دين وقومية من جميع وجوهها. ومن ذا الذي يؤمن با ورسوله واليوم الأخرى ويقاتل في سبيل الطاغوت وا تعالى يقول: " وقاتلوا في سبيل ا ... أفلا تتفكر فرنسة في المسئلة جيّدًا ...].

وهنا فإنّنا نعتبر مسألة رفض الاندماج السياسي والثقافي أحدّ أهم مرتكزات الفكرية السياسية التي لمسنا تردّدها في العديد من المقالات، بلغت 15 مقالاً على الأقلّ. وامتدّ تناولها صحافيا لما بعد الحرب العالمية الأولى. وهذا تدليل على مدى خطورتها بالنسبة لهويّة الأمّة الجزائرية، وبالنسبة لمستقبلها ووجودها وبقاءها فيما بين الأمم الأخرى. ووجدناه جدّ واعٍ بهذه

---

(1) – أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 4 ماي 1914.

(2) – في جريدة (المشير) (عن صحيفة الحضارة) بتاريخ: 17 سبتمبر 1911.

القضية، بالنظر إلى المفاهيم السياسية التي قدّمها في هذا السياق. ويمكن القول أنّ المفكر عمر بن قدور الجزائري من روّاد المفكّرين التنويريين داخل الجزائر وخارجها في تقديم...... ومنها مفهومه للأمّة.

إنه يرى أن أيّة أمّة تتشكل من شعوب أو جماعات مختلفة الخصائص لكنّها تتوحّد إجتماعيًا وتتكافل إلاّ أنّها تبقى معرّضة للأخطار أو الآفات المختلفة فكتب قائلا [1]: [ الأمّة عبارة عن شعوب وقبائل متساوية الأطراف مختلفة المشارب والأذواق وإن كانت متحدة في غالب أحوالها الاجتماعية. فهي مُشكّلة شبه هيكل جسماني إنساني له أعضاء وحواس ومفاصيل وعظام وأعصاب وشرايين وعروق وكلّ عنصر منه يقوم مقام الأفراد من الأمّة وفي غالب الأحوال يكون جسم الأمّة هدفًا لسهام العلل التي هي ضلالتها وشذوذها عن الصراط المستقيم. ودور صحّتها هو إذا كانت مهتدية تابعة الحقّ متّيم....... لنهجه ...]. وهو يرى أنّ لكلّ أمّة من الأمم قابلية للرقي والنموّ. وثمة أسباب لهذه القابلية يمكن تأمّلها وتحليلها ومع ذلك النظر إليها صعب مثلما نبحث أيضا في أسباب اختلاف أعمار الأمم في التطوّر والنموّ [2].

ولكن المفكر عمر بن قدور الجزائري يؤمن بأنّ للأمّة الجزائرية لديها ما لدى الأمم السابقة من إمكانيات وطاقات في سبيل الترقي والتقدّم. لهذا يعارض من حكم عليها بالموت الأبدي. إنّما لكلّ الأمم مراحل سقوط ونهوض، ويرى أنّ التاريخ لم يسجّل موت أمّة ما. إنّما هي تحوّلات تصيب هيكلها، ويذكر كمثال على ذلك أمّة الصين والأمّة الأوروبية كتب قائلا: [ لكنّنا أيضا قوم لدينا ما لدى الذين سبقونا في سبيل الترقّي وعندنا ما عندهم فلا يصحّ مَن قضى علينا بالموت الأبدي. إنّنا أمّة وللأمم أطوار تجريها عليها أعمالها وقلّما أنبأنا التاريخ عن موت أمّة بل في الغالب كان يخبرنا بموت أسمائها وألقابها وإن للسنن الكونية لعمليات عجيبة تجريها في الأمم ...] [3]. ورأى أن تكافل الجماعات المشكّلة للأمّة لإكتساب مصلحتها السياسية والاقتصادية، يجعلها تعمل على الحفاظ على هويّتها من خلال حفظ كيان قوميتها ونعرتها الجنسية (أي العرقية). [ ومن هنا تكون مدفوعة بعزم ثابت إلى تعزيز الشوكة وتمكين السلطة وإظهار البأس وشدّة البطش، وهذا شأن الأمم الحيّة ...] [4].

---

[1] - بجريدة " الأخبار ".

[2] – نفس الصحيفة بتاريخ: 3 مارس 1912.

[3] – نفس المرجع السابق بتاريخ: 6 جويلية 1913.

[4] – صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 21 نوفمبر 1913.

إنه يريد أن تبقى الأمّة الجزائرية حيّة ليس فقط في أذهان إخوانه الجزائريين وإنّما أيضا موجودة في الواقع بذاتها وهويّتها التي يريد لها الاستعمار الذوبان والتفكك. إنّ رفضه الذي أكّدنا عليه لسياسة التجنيد كان قويّاً، بحيث عكس عمق تصوّره السياسي لمستقبل تلك السياسة على الشعب الجزائري ولهذا كتب سنة 1911 بقوة شعورية ووطنية خالصة مخاطبا فرنسا الاستعمارية: [ إنا قوم لنا قومية عروتها متينة وملّة قيمتها ثمينة. وإن أصيب أعضاؤها بخدر أنتجته الحوادث فالأمل أنّه خدر قصير المدة وسيقطع وتتحرّك أعضاؤنا بنشاط تام فما لنا من رغبة في الاندماج بفرنسة ولا بغيرها من الأجناس وما لنا رغبة في نيل حقوق تجّر علينا الويل والدمار.

إنّا لا نريد من فرنسة أن تمنّ علينا بتمدّنها وعدلها لأنّ لنا تمدّنا وعدلاً ذقناهما فصار كلّ شيء عندنا بعدهما مرا ] [(1)].

وكان واضحا منذ أن أصدر جريدته " الفاروق " مبدأه السياسي إزاء سياسة فرنسا الاستعمارية المتسلّطة، التي كانت تسعى للإبقاء على اضمحلال المرتكزات الباعثة على الشعور بالهوية الإسلامية التي كان يعبّر عنها فيما بعد " بالقومية الإسلامية " فكتب: [ ... إنّ القوة التي بسطت سلطتها علينا ليست بقوة همجية ولا بقوة دينية، بل هي قوة استعمارية محضة من صلاحيتها أن يكون عددنا ناميًا ونعرتنا مضمحلّة وأخلاقنا في فوضى وقوميتنا في تضعضع لتستفيد من وراء ذلك الفائدة التي تطلبها، وهي التمتّع بتمكين القوة ...] [(2)].

وفي مقال سياسي تحت عنوان " مستقبلنا عملنا مع الحكومة الجمهورية " نشره بجريدة " الأخبار " في شهر مارس 1914 قدّم وُجهة نظره بمناسبة صدور إصلاحات طفيفة تخصّ الضرائب والتمثيل البلدي، التي تؤكّد رفضه لمبدأ الاندماج وضرورة الحفاظ على خصوصية الهوية الإسلامية مع المطالبة بفتح آفاق جديدة للتعليم والتكوين بما يتوافق والعادات الإسلامية: [... لسنا نعني بحاجتنا أن نلتصق بفرنسا أو نندمج بها كما يرغب بعضهم أو نترجّى حصول نتيجة التمدين التي يعزونها لفضيلة الاستعمار بل نطلب حاجة واحدة وهي أن تعتني فرنسا بصلاحية مقوّماتنا الملّية كما يليق تلك الصلاحية التي تبلونا بالتلاشي والانقراض إن أهملناها ولم نعرها الاهتمام العظيم قبل كلّ شيء في الوجود.

---

(1) – بصحيفة (المشير) بتاريخ: سبتمبر 1911 (نقلا عن " الحضارة").

(2) – أنظر " الفاروق " بتاريخ: 7 مارس 1913.

إن المصلحة المشتركة بيننا وبين مبدأ الاستعمار غير ناجحة ما لم تتوفّر لدينا وسائل الرقي بالأسلوب الذي تقبله عوائدنا الحقّة الإسلامية ولا نقول الجنسية المخترعة لأن ديننا الصحيح أولى بالاعتناء من نوازعنا المختلفة المعزوة إلى فوضى اختلاط العناصر ...] [1].

وفي نصّ آخر نجده يرفض الاندماج عبر سياسة التجنيس بالجنسية الفرنسية التي لمّح لها هنا حيث كتب مؤكّدًا على الانتماء الإسلامي في (الفاروق): [ ... إنّ الاندماج الجنسي قد يضّر بهيئة القوم الملّية. وليست هناك وسيلة تؤذن بترقيتهم أحسن من التعليم، ... إنّ المسلمين مسلمون قبل كلّ شيء، فإذا قالوا " ا  أكبر " فقد صدقوا وهذا اللفظ المادة الوحيدة التي يستمدّون منها مادة الحياة ..].

كما توصّلنا في دراستنا هذه إلى إظهار موقفه السياسي من دعاة الاندماج السياسي والثقافي، الذي ألمحنا إليه آنفا، لما تناولنا القيم الأخلاقية وقضية التقليد، بالخصوص فيما يتصل بالتغريبيين، أو " المتفرنجين " المتنكّرين لهويّتهم المقلّدين للأوروبيين. خاصة الفئة المثقفة المنسلخة عن الهوية الإسلامية الجزائرية بكلّ معانيها. والتي كانت ترى [ في الإسلام الانحطاط التام والسقوط بكلّ معانيه "[2] وعملت على الانتقاص من ثوابت الأمّة المتمثّلة في الدين واللغة والوطنية فهي [ تدعو إلى إلغاء وطنية الدين ولغة الدين وكتاب الدين، والتشبّث بالوطنية الطارئة واللغة الأعجمية والحضارة الفاسدة ..] [3].

وكان قد وجّه مفكّرنا نقدًا عنيفا لشخصية تغريبية من هذا التيار الاندماجي، عبر مقالين متشابهين أحدهما نشره بجريدة " الأخبار " الصادرة بمدينة الجزائر والآخر بصحيفة " المشير " التونسية، وهذا سنة 1911، حيث اعتبر موقف هذه الشخصية التي تدّعي تمثيل الشعب الجزائري في المجلس البلدي للعاصمة احتفالا بمقدم الحاكم الاستعماري العام الجديد آنذاك للجزائر (شار لوتو « Luteaud ») موقفا يعادي كلّ مقوّمات أو مرتكزات الأمّة الجزائرية. لهذا وجّه نقده العنيف له قائلا في مقاله ( قف يا هذا): [ ... قف أيّها المتفرنج حذو تلك الأعلام المرفوعة المشيرة لما للإسلام من عظمة واقتدار ... قف ا"ها المتجاسر على تدنيس سمعة ملّة

---

[1] – بجريدة " الأخبار " بتاريخ: 1 مارس 1914. وأنظر أيضا " الفاروق " بتاريخ: 20 فيفري 1914.

[2] – بجريدة " الأخبار " بتاريخ: 18 ديسمبر 1910.

[3] – أنظر مقاله " أهم ما يقال في سبيل العاملين " – بالأخبار- بتا: 14 ماي 1911.

هي خير ما أخرج للناس ... قف ولا تفرح بما أوتيت فأصبحت به عدوا لشعبك وأصلك وقومك وملّتك وقوميتك ..] [1].

ثم اعتبر موقفه نكرانًا لفضل الشعب عليه ولثقته فيه. إنّه يمثّل طائفة تغريبية مخطئة في قناعتها وأفعالها الفكرية والسياسية، فقال متحسّرا واصفا إياه: [ مسكينة أمّة الجزاير يقوم منها أحد أفرادها طعنًا في دينها سابا لملّتها مشنّعًا بتقاليدها على رؤوس الملأ حشر فيه المتعارفون زمرًا وهي ساكنة ساكنة. ولو حصل مثل هذا في بلاد غير هذه البلاد لنفدت الأوراق والدفاتر ولتكسّرت الأقلام ...] [2].

ثم يدعو التغريبيين إلى ألاّ يتجاوزوا حدودهم وأن يدعوا الدين لأهله وبعدم الادعاء بأنّهم زعماء الأمّة أو حماتها أو أنهم صفوة شبيبتها الراقية أو رجالها العصريين أو حاملي لواء تقدّمها. لأنّ الأمّة الجزائرية في غنًى عنهم ولها أنصارها المتمسكين بعروة الدين الوثقى [3].

ويواصل انتقاده لدعاة الاندماج من هذا التيار التغريبي حينما يكتب في مقال آخر تحت عنوان " طور جديد للجزائر وللجزائريين " ومبيّنًا مخاطر سياسة الاندماج على الشخصية الجزائرية، بالرغم من إظهاره لسماحة فكرية في موقفه السياسي وإنصافه لنخبة من هذا التيار لنضالها السياسي دفاعًا عن حقوق الشعب الجزائري [4]. ففي نصّه السالف الذكر يوضّح قائلا: [ انتقدنا عليهم تغاليهم في طلب الغاية إلى حدّ أنّهم تشبثّوا بطلب " الاندماج " ولما كنّا نتأفف من هذا التشبّث اعتبرونا مرارًا من ألدّ أعدائهم بل وأذاعوا عنّا مؤازرة الحكومة ضدّهم ونصرة خصومهم المسلمين عليهم !!، إنّ " اندماج " المسلمين بالعائلة الفرنسوية خطر محض وبوار لقومية عنصر شريف ينتمي إلى أمّة عظمى ويتمسّك بأهداب ملّة تأبى عـ ـليه المـ ـروق منها ...][5].

وبدا لنا من خلال تتبّع المسار الفكري السياسي لهذه المسألة المصيرية المتصلة بالهوية الجزائرية وبمرتكزاتها السياسية إبّان تلك الفترة، أنّ الثبات الفكري امتد لما بعد نهاية الحرب العالمية، وهذا عبر نصوص عدّة بصحيفته "الصدّيق " سنة 1920. وهكذا تحت عنوان " مسألة

---

[1] - أنظر صحيفة " الأخبار " بتا: 21 ماي 1911.

[2] – أنظر جريدة الأخبار بتاريخ 21 ماي 1911.

[3] – المصدر نفسه وأنظر أيضا صحيفة " المشير " بتا: 28 ماي 1911.

[4] – في مقالا له بصحيفة (الفاروق) بتاريخ: 4 أفريل 1913.

[5] – بمقاله " طور جديد للجزائر وللجزائريين " – الفاروق – بتا: 20 فيفري 1914.

الاندماج " يكتب نصا تعليقيا صغيرًا على ما ورد بجريدة " الوزير " التونسية بإمضاء مستعار هو: " جزائري " بحيث يؤكّد رفضه للاندماج الداعي إلى تلاشي القومية وذهاب التعاليم الدينية[1]. ويكون هذا بمثابة بداية نشره مقالات عميقة حول قضية الاندماج تحت عنوان استفهامي هو " بأيّ روح نمتزج "، بحيث يحلّل فيها مقاصد " الروح الإنسانية الحقّة " للإسلام، وهي روح القيم الأخلاقية السياسية. وينتقد التيار الاندماجي التغريبي قائلا: [ صار دعاة فيه يحشرون المسلمين إلى الاندماج والامتزاج بروح طارئة ويزيّنون لهم حضارة العصر بتزيين عجيب نسوا معه حقوق الدين وسماحة اليقين ... فأنت ترى الأهواء من جرّاء هذا التفرنج يدعو إلى خراب البقية الباقية من القومية وتعطيل كلّ الآمال في الرجوع إلى تلك الروح الشريفة ...] [2]. وأرى أن الشعب الجزائري إزاء دعوة الاندماجيين التغريبيين يوجد في مأزق، خاصّة وأنّ الأمّية والجهـل تمنعانه من إدراك مـآل هويّـته، لهـذا التيـار الـذي يبغي احتـكار الزعامة السياسية [3].

وفي نصّ يصبّ في هذا المنحى السياسي يجعل عنوانًا دالاً يتضمّن عبارتين، فيهما السؤال والجواب معًا: " بأي روح نمتزج ؟ " " روح الإسلام " وبنفس الصحيفة، حيث يعتقد أن المرتكز الروحي الخاص بالقيم الأخلاقية الإسلامية هو المعوّل عليه في تجسيد وتأصيل الهوية الجزائرية، وليست (الجنسية) الأجنبية الطارئة جرّاء الاستعمار. إنّ النزعة الروحية الإسلامية هي المرجعية الجوهرية القادرة أيضا على بعث روح الأمل في الإصلاح والمقاومة، القادرة على دوس أعناق الجبابرة والطغاة: [ إن الروح التي نطلبها ونأمل أن نمتزج بها هي روح مكارم الأخلاق لا روح جنسية طارئة ولا روح جنسية بائدة ... إن روح الإسلام الحقّة، وهي قوة الإيمان هي التي تحضّ على إقامة المعروف ومحو المنكر وتدوس أعناق الجبابرة هي روح الإيمان الحقيقي با وبرسله وتبعث القلب على تعظيم أولياء الحق ...] [4].

كما توصّلنا من خلال مقاربتنا لمختلف النصوص الصحافية موضع الدراسة، إلى تحديد مكوّن فكري سياسي ميّز التصوّر التنويري الإصلاحي لمفكّرنا، خاصّة في بدايات ممارسته الصحفية، التي اكتست جرّاء ذلك مسحة نضالية. وهذا المكوّن إنّما هو مفهوم " الوطنية " الذي

---

(1) - نص " مسألة الاندماج " بصحيفة " الصدّيق " (الجزائر) بتا: 16 أوت 1920.

(2) – بصحيفة (الصديق) بتا: 19 أوت 1920.

(3) – المصدر ذاته بتاريخ: 03 أوت 1920.

(4) – أنظر صحيفة (الصديق) بتاريخ: 30 أوت 1920.

تردّد بصفة مكثّفة، بحيث أصبح يشكّل مرتكزًا ومقوّمًا أساسيًا لهوية الأمّة الجزائرية وهذا معناه، أنّ توجّهه كان يجمع ما بين النزعة الدينية الروحية، والنزعة الوطنية.

وإذا كان الباحث الدكتور زهير إحدادن قد اعتبر مفكّرنا أوّل من نطق بكلمة " الوطنية " على صفحات الجرائد في الجزائر فلأول مرة تنشر جريدة "استعمارية" يقصد جريدة " الأخبار " كلمة الوطنية مشيرة بها إلى الأمّة الجزائرية [1]. إلاّ أننا توصّلنا أيضا في بحثنا أنّ المفكّر عمر بن قدور الجزائري، إنّما استخدم هذه الكلمة ذات البعد الهوياتي السياسي للشعب الجزائر عبر صحيفة " الهلال " الصادرة بمدينة الجزائر، وحاول أن يقدّم بعض دلالاتها، ابتداء من سنة 1906، بحيث بدأ يتكلّم عن الدور الوطني للصحافة التي هي لسان الأمّة وذكر أن الدفاع عن حقوق الوطن بالنسبة لأي إنسان هو واجب، والتفاني في حب الوطن والبلاد هو جزء من "الشعور الوطني " فكتب قائلا: [ من الواجب على كلّ فرد من أفراد الأمّة أن يقوم بحقوق وطنه وبلاده ويتفانى في حبّهما ويودي الفروض المقدّسة المحتّم عليه أداءها فما له عليها من مناص إلاّ من ختم ا على سمعه وجعل على بصيرته وعقله غشاوة ...] [2].

وفي نصّ آخر بنفس الجريدة التي هي مشروع حضاري ووطني يدعو الجزائريين إلى الإعانة في النهوض في " سبيل حبّ الوطن العزيز " وعدم السقوط في وهدة الفناء والموت، مع المناداة بنصيب من " الحياة الإنسانية " [3].

وفي مقال ذي دلالة سياسية انطلاقا من عنوانه الذي هو: " ما ننشد إلاّ حقوقنا: الحياة ! الحياة !" نشره في هذه الصحيفة أيضا في جانفي 1907. يطالب السلطة الاستعمارية أن يكون الشعب الجزائري أمّة حيّة فيما بين الأمم الحيّة بالاستجابة لمطالبه وحقوقه الإنسانية حتى لا يتعرّض للفناء والانقراض. وإنّ مفكّرنا لجدّ واضح في هذا البعد السياسي الوطني، حينما يعبّر عن هذه المطالب في سياق المبدأ الوطني قائلا:

[ ننادي باسم الإنسانية مثابرين على التمسّك بحبل الوطنية الوثيق وفي ظنّنا أنّه لا يوجد إنسان مستقيم في أعماله مخاص لوطنه محبّ للإنسانية قطّ يردّ كلامنا أو لا يعيره أذنا واعية إذا رفع الصوت والاستغاثة بمكارم الأمم الحيّة ...] [4].

---

[1] – في " الصحافة المكتوبة في الجزائر " منشورات جامعة الجزائر – بدون تاريخ – ص 74.

[2] – في صحيفة " الهلال " بتاريخ: 22 نوفمبر 1906.

[3] – صحيفة " الهلال " بتاريخ: 1 ديسمبر 1906.

[4] – نفس المرجع السابق بتاريخ: 1 جانفي 1907.

ويرى في نصّ صحافي آخر أنّ الوطنية الحقة والشعور الوطني الشريف لحياة الشعب والأمّة الجزائرية، هي تلك التي تعمل لتقدّمهما بإقامة " معالم الوطنية " وهي المؤسسات الاجتماعية والحضارية، من وجمعيات وشركات وصحافة ومدارس لبث روح التقدّم بين الناشئة، وهذا جزء من " الوطنية الحقّة " [1]. وفي شهر مارس من سنة 1907 يتعرّض مفكّرنا للاعتقال لتعاونه الصحافي مع جريدة " الهلال " التي سوف تتوقف هي أيضا في 11 مارس من تلك السنة. ونعتبر نحن هذا، الحدث الاعتقال الأول الذي يتعرّض له صحافي جزائري في تاريخ الصحافة الجزائرية. وسوف يتمسّك بمبدأ الوطنية الذي يراه ضروريًا للنهوض بالشعب الجزائري المستعمَر. وأن بقاء الأمّة وأبديتها يتوقّف على الهوية الوطنية التي يجب الاتصاف بها والالتزام بقوتها الشعورية. وهكذا في سنة 1908 يكتب مقالاً في جريدة " التقدّم " التونسية أعلن فيه نقده وحربه على أعداء الوطنية في الجزائر من الجزائريين. وكان عنوانه ذا دلالة سياسية واضحة التوجّه وهو: [ التقدّم بقوة الوطنية العالية، لا التهوّر في التقدّم ]. معتبرًا فيه أنّ مستقبل الشعب الجزائري يعتمد على جهود شبّان الوطنية الجزائرية، والذي هو يمثّل أحد أصواتها الفاعلة في الساحة الصحافية. واعتبر أيضا أن المسلك الوحيد لتحقيق وجود الهوية هو الإلتزام بـ" الوطنية الحقة، وهذا تأكيد لما ذهب إليه قبل ذلك في صحيفة " الهلال ". فالشرف كل الشرف مع من كان له مبدأ " وطنية راقية " لا تهور فيه ولا أنانية، وإنما الهدف خدمة "سعادة عمومية عالية "، وهب النفس للأمّة وتأمّل المجد. وفي هذا النّص يقدّم مرجعيات تاريخية وراهنة بمثابة تجسيد لمبدأ الوطنية لإثبات الذات والهويّة المتميزة. واعتبر شخصية " طارق بن زياد " رمز البطولة الإسلامية في النزعة الوطنية، وأحد الوجوه البارزة الغيورة للأمّة العربية إنّه يمثّل " عبرة وعظة لأجيالنا الحالية وإن هي إلاّ نقطة في بحر ذلك الفخر العربي والوطنية الإسلامية العالية " [2].

ويرى أن [ الوطنية إذا تخلّلت قلوب قوم رفعتهم وإذا سادت في أمّة رقّتها وأعلت قيمتها لأنّها عبارة عن " الغيرة " المناقضة " المنافية " ولها أشعّة من نور لا حدّ لأطرافها لأنّ فيها تضحية ما في النفس حبّا فيما للغير من أبناء الوطن كذلك مهما صرخ صوت الوطنية إلاّ وتجد

---

[1] – أنظر المرجع السابق، بتاريخ: 22 فيفري 1907.

[2] – المصدر: جريدة " التقدّم " (تونس) – بتاريخ: 27 فيفري 1908.

صداه يرّن في كلّ مكان وترى الذين خصّهم ا  بتلك الصفات العالية ينصتون إليه بأذانهم ويحيونه بقلوبهم. إذ الوطنية هي خدمة الإنسانية بأوسع معانيها ...] [1].

وأعتقد أيضا أن الوطنية هي التي رفعت مقام الأمّة اليابانية من رتبة أترابها الأسيوية إلى أعلى مقام الدول العظمى الأوروبية. وذكّر المتخاذلين، أعداء الإصلاح والوطنية بأن الأمم المسيطرة الاستعمارية نفسها لا تحترم إلا من كانت له وطنية كوطنيتها وشعور كشعورها. ثم كتب بضمير المتكلّم: [ نحن شبّان الوطنية الجزائرية والذين علينا اعتماد مستقبل حياة الشعب الجزائري نتألّم من تكبّد إخواننا لمشاق السقوط ولا نرى فرضا يجب علينا قضاؤه من مطالبة الأنشودة الوحيدة ألا وهي الحياة العصرية فمن المحال أن نعبث بذلك الغرض ونهمل تلك الأنشودة العزيزة وكيف لا نتدبّر الأحوال العمومية على إختلافها ونعتبر ما حاز ذوو الوطنية من المجد الباذخ والعزّ الشامخ ونتقدّم في مضمار الحياة بقوة تلك النخوة الشعورية بعد أن سمعنا وقرأنا وتحققنا أن لا حياة لمن لم يشـرب نخـب الوطنـية الحـقّة ويهـتف بحـياتها العزيزة ...][2].

إنّ مرتكز الوطنية بالنسبة إليه، يشكل رهان التقدّم وترقية الأمم وفي مقال آخر هو فاتحة مقالاته لدى التحاقه بجريدة " الأخبار " مشرفا على القسم العربي وتحت عنوان مشابه " مبدأنا " بقوة الوطنية نتقدّم " نشر في شهر أفريل من سنة 1908 اعتبر عودته للجزائر هو في سبيل تحقيق رجاء الوطنية وتمجيدها ونشرها، عبر الدفاع عن حقوق الأمّة الجزائرية وخدمة الإنسانية ثمّ ختم مقاله هذا بقوله الشعوري المدوّي: [ فلتحي الجزائر ! وليعش كلّ حرّ !" [3].

واعتبر التاريخ أحد المرتكزات والمقوّمات التي تدعّم الهوية الوطنية فتدريسه كما وضّحناه آنفا في دراستنا هذه، يعدّه رهانًا فكريًا وتنويريًا من الناحية الأخلاقية، منتقدًا الأساتذة الأجانب في البلدان الإسلامية في أسلوبهم الممجّد لأوروبا وحدها في هذا المنظور. إنّ التاريخ جزء من تكوين المرجعية الوطنية، فكتب قائلا حاثًا على دور هذا المرتكز بالنسبة للشبيبة الجزائرية مقلّدة للأجانب: [ مَن يذكّرهم بعظمة وطنية أبائهم وقوّتها ... يعرفون بما لا يعرفون

---

[1] – المصدر: جريدة " التقدّم " (تونس) – بتاريخ: 27 فيفري 1908.

[2] – المصدر نفسه.

[3] – أنظر جريدة " الأخبار " بتاريخ: 20 صفر 1322 (05 أفريل 1908).

عن وطنيتهم ويصفها كما وصفها مبغضوها ولم يدروا أنهم عليهم يضحكون. وبفرارهم من وطنيتهم يفرحون ..] [1].

وتوصّلنا من خلال دراستنا أيضا إلى ملاحظة تاريخية وفكرية في آنٍ واحدٍ، لتنبّه ووعي المفكر عمر بن قدور الجزائري بالدور الوطني للشعر. فإذا كان الشعور الوطني كما يرى حركة في الفكر والتهاب في الفؤاد تنتج عنهما حماسة في الحافظة أي الذاكرة تمدّنا مادة العلم بقوتها فتزجي سحابًا متراكمًا من الآراء فبرز منه غيث مقال يحي به ا نفوسًا ميتة. فمن أحسن الأقوال والوسائل لإيقاظ الهمم، الشعر العربي، الذي يكسب النفوس التحمّس ويذكّرها بالنخوة والشهامة. لهذا دعا شعراء الجزائر إلى القيام بهذه المهمّة الوطنية حيث قال: [ لو فطن شعراء الجزائر إلى واجبات الأمّة نحوهم وعلموا قوة تأثير الشعر العربي في القلوب لما تأخّروا، في استنهاض الهمم طرفة عين ولكانوا أكثر الناس اشتغالاً بخدمة الوطن ] [2].

وبالرغم من معارضته في سنة 1908 لتأسيس جمعية مسرحية، انطلاقًا من أولويات النهوض الإصلاحي والتنويري كما بيّناه إلاّ أنّه اعتبر هذا الفعل الثقافي التنويري أمرًا حيويًا من أجل خدمة الوطن من طرف صفوة الشبيبة الجزائرية آنذاك، ومؤشّرًا ينّم عن وجود الشعور الوطني لديها [3].

ولاحظنا تطوّر موقفه إزاء الفعل الثقافي المسرحي، بمناسبة قدوم الفرقة التونسية " جوق الآداب " إلى الجزائر في شهر فيفري من سنة 1913. حيث اعتبر المسرح من أحسن الفنون الجميلة وأنفعها للأمّة العربية. بما يقدّم من دروس للشهامة والرقي، مع تأكيده على خدمة هذا الفن للغة العربية التي هي أحد مقومات الهوية الوطنية، وهو الذي اعتبر الصحافة من وسائل النهوض بها [4]. ومما كتبه حول دور التمثيل المسرحي حسب هذا المنظور بجريدة (الفاروق): [ ممّا يسرّ في هذا الفن الجميل في هذا العصر أنّه من السبل التي تؤدي إلى إحياء اللغة العربية الشريفة التي جهلها أهلها وهجروها حتى اضمحلّت من شمال إفريقيا أو كادت أن تضمحلّ، فلله درّ محيّيها و درّ المجتهدين على إحياءها ونشرها وتعميم نفعها ...] [5].

---

[1] – أنظر جريدة " الأخبار " بتاريخ: 5 جويلية 1908.

[2] – المصدر نفسه بتاريخ: 7 جوان 1908.

[3] – جريدة " الأخبار " بتاريخ: 7 جوان 1908.

[4] – في افتتاحية (الفاروق) بتاريخ: 28 فيفري 1913.

[5] – المصدر نفسه بتاريخ: 7 مارس 1913.

إنّ غيرته على اللغة العربية دفعته سنة 1911 إلى انتقاد الداعين استبدال حروفها بحروف اللغة اللاتينية والتنبيه إلى خطورة هذا المسعى على الإسلام، كمرتكز ثابت لهوية الأمّة العربية الإسلامية. لكن في نفس الوقت دعا إلى إيجاد مشروع تجديد الكتابة (لاحظ) العربية يبدأ من الصحف الإسلامية ليتم تعميمه في المدارس من طرف الحكومات وممّا كتبه منتقدًا: [ ...لقد اغتر كثير من القوم فقالوا تعالوا نرفض الحروف العربية دفعة ونتخذ من الحروف اللاتينية كتابتنا. اتقوا أيها المفكّرون الداهية داهية التغيير والتبديل ولا تعوّدها الناس فيعتادون ذلك ويأتي الخطر على الإسلام من جرّاء ذلك ...] [1].

ورغم تنويهه بالإجراء السياسي العثماني سنة 1913 في إدراج اللغة العربية كلغة رسمية بعد اللغة العربية وتدريسها في المدارس الابتدائية، إلاّ أنّه رأى أنه جاء متأخّرا بسبب تفاقم الخلاف السياسي بين العرب والأتراك، فتساءل متأسفًا: [ وهل بعد اتّساع الخرق يتّسع الأمر على الراقع ؟ [2].

كما أنّنا يمكن القول أنّ رؤيته السياسية في تعزيز وتأصيل هوية الأمّة الجزائرية، اتسمت في العديد من نصوصه الصحافية بتوظيفه، وبشكل مكثّف لمرتكز القومية الإسلامية، بعدما كان يستخدم كثيرًا مرتكز الوطنية، والذي اعتبر نفسه في توظيفه سبّاقًا إليه في الصحافة الجزائرية حيث كتب في صحيفة " الأخبار ": [ من اليوم الذي قمنا فيه بتحرير القسم العربي من هذه الجريدة ونحن نتلقّى من الكتّاب والقرّاء عبارات الشكر والثناء على الخطّة التي انتهجناها في تبجيل مقام الوطنية، وهو الأمر الذي لم ينتبه إليه محرّر قبلنا. وليس في ذكرنا فخر ولا فخفخة بإزاء هذا العمل بل لا نعد إلا واجبًا قضيناه ] [3].

وهكذا وحسبما توصّلنا إليه في دراستنا، فإنّ المفكر عمر بن قدور الجزائري وانطلاقا من سنة 1911 سوف يعمل على تبنّي وتوظيف مكثف للقومية كمقوّم رئيسي ومؤصّل لهوية الأمّة الجزائرية، فنجد على سبيل المثال العبارات التالية: [ " القومية الدينية والجنسية "، " الدين والقومية "، الشعائر القومية "، " القومية الملّية "، " حقيقة قومية الإسلام ".

---

(1) – أنظر صحيفة " الأخبار " بتاريخ: 8 جانفي 1911.

(2) - بصحيفة " الفاروق "بتاريخ: 9 ماي 1913.

(3) – المصدر: جريدة " الأخبار " العدد: 13537 – بتاريخ: 2 أوت 1908.

وفي وضوح تام، سوف يعبّر عن تميّز قومية الأمّة الجزائرية بمقوماتها التاريخية والحضارية وخصوصيتها، عن القومية الفرنسية [1]، عندما يقرّ موقفه السياسي الرافض للتجنيد الإجباري سنة 1911 كما سبق وأن ذكرناه، والذي عبّر عنه بقوله: [ إنّا قوم لنا قومية عروتها متينة وملّة قيمتها ثمينة ].

واعتبر العامل الديني من أهم مكوّنات هذه القومية التي شكّلت مقوّما للنضال والمقاومة الجزائرية ضد الغزو الاستعماري الفرنسي، فكتب قائلا [2]: [ إن مسلمي الجزائر ليسوا كباقي مسلمي شمال إفريقيا في الحمية الدينية بل هم أشدّ الناس تمسّكا بالدين الحنيف لو بغير معرفة لأسراره كما هو غالبهم. وطالما ناضلوا منذ دخول فرنسة إلى أوطانهم عن حماه غير أن الطاقة خذلتهم واختلست طرائفه وتلاشت شيئا فشيئا ولكن بقي اسم الدين يرنّ في القلوب فعضّوا عليه بالنواجذ ].

ويرى أنّ الأمم التي لها قومية أو هوية صحيحة ومتينة لا تتلاشى بسرعة، إلاّ أمام قوة همجية وحشية أجنبية، أو أمام قوة أخلاقية روحية ويعني بها دينية سماوية. وفي مقاربته لوضعية الجزائر آنذاك، اعتبر الوجود الفرنسي بها قوة استعمارية تعمل على تفكيك مختلف المكوّنات التي قد تعمل على بعث الشعور بالهوية الإسلامية المتميّزة للأمة الجزائرية، وهذا ما يجعل النشاط السياسي صعبًا لاصطدامه مع مصلحة الاستعمار: [....إن القوة التي بسطت سلطتها علينا ليست بقوة همجية ولا بقوة دينية، بل هي قوة استعمارية محضة من صلاحيتها أن يكون عددنا ناميا ونعرتنا مضمحلّة وأخلاقنا في فوضى وقوميتنا في تضعضع لتستفيد من وراء ذلك الفائدة التي تطلبها، وهي التمتّع بتمكين القوة ...] [3].

لكن قوة الأمل في الحفاظ على الهوية الجزائرية بمقوّماتها، تبقى حاضرة في رؤيته السياسية، فعنصر المقاومة كامن في نفوس الجزائريين وهو الكفيل بهذه المسألة برغم من تعقّد البيئة الاستعمارية يقول: [ مقاومة القوة المتسلّطة كامنة في القلوب التي لم تفتح بعد وفتحها عسير لأنه يناقض المصلحة التي تحاول القوة المتسلّطة اجتناءها مع اجتناب المشاكل واقتحام الأخطار ...] [4].

---

(1) –المصدر جريدة (المشير) بتاريخ: 17 سبتمبر 1911 (عن الحضارة).

(2) – بالمصدر نفسه.

(3) – في صحيفة "الأخبار "بتاريخ: 21 جويلية 1912.

(4) – المصدر نفسه.

إن القومية الإسلامية المميّزة للهوية الجزائرية لها بعد تاريخي مشترك تتسّم بالطابع الروحي العميق الذي يطبع ويحتوي العنصر العرقي: [ إنّ القومية التي خلّفها لنا أسلافنا الكرام هي القومية الكامنة الآن في قلوبنا وأعني بها القومية الإسلامية المحضة لا العربية ولا التركية ولا البربرية، لأن تلك القوميات وإن كانت محرزة على نوع من الاستقلال إلاّ أنها لا تليث أن تمتزج بالقومية الروحية إن لم تتعرّض لها موانع أجنبية أو صواير اجتماعية ] (1).

ثمّ إنّ عودة ظهور القومية الإسلامية ليس من المستحيلات، لأنها لم تضمحلّ، كلّيّة، إنما أصابها الضعف، بسبب الانحراف العقائدي والأخلاقي وجهل الماضي أو الذاكرة التاريخية. ولأنّ النزعة الروحية تشكل بعدًا محوريًا لتشكل هذه القومية، فهو يرى ضرورة تجديد البناء العقائدي، ليدفع الأفراد للعمل قصد تحقيق الذات وبناء الهوية التي كانت صورة تتلألأ جمالاً إبّان ظهورها والتي يرى أنّ قوله تعالى " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا " يشكّل كمال هذه القومية (2). يقول: [ إنّ ظهور القومية الإسلامية لا يدخل في أنواع المستحيلات بل هناك عوامل قوية تساعده على الاندماج في أصناف الممكنات. ولولا تلاهي المسلمين عن تقدير شرفهم حق لانقطعت هواجس القنوط بالمرة من القلوب ...] (3).

تأصيل هذه الهوية الروحية يخضع إلى الارتباط بالماضي الحضاري للأسلاف مع معرفة أسباب الانقطاع مع أبعاد تلك الهوية وأسباب إعادة التواصل معها والاقتراب منها. إنّ تسلّط الاحتلال الأجنبي العامل على تفكيك معالم هوية الأمّة يستدعي العمل الإصلاحي والتنويري، تحقيقا للوجود والبقاء في عالم يسوده الصراع: [ فالقومية العامّة المشار إليها إذن لا تتوقّف إلا على إصلاحات اعتقادية وعملية تبرز بعد إجرائها إلى عالم الظهور. وبظهورها وتأثيرات وجودها تنبعث الأغراض من أعماق القلوب في مضمار حبّ البقاء وحبّ التنازع لإيجاده، هنا يستأنف التاريخ في تدوين دور جديد للقومية الإسلامية " في هيئة هي غير تلك الهيئة التي ظهر بها الأسلاف من قبل .. وإن كان التاريخ يعيد نفسه ...] (4).

لهذا جعل من الخّط الافتتاحي لصحيفته (الفاروق) الأهداف التربوية الدينية والاجتماعية، القوة الحافزة لنهضة الأمّة الجزائرية والمبدأ النبيل وفق روحانية الإسلام حتى يؤكّد كما قال

---

(1) – في صحيفة " الفاروق " بتاريخ: 14 مارس 1913.

(2) – بجريدة " الأخبار " بتاريخ: 20 سبتمبر 1912.

(3) – المصدر ذاته بتاريخ: 4 أكتوبر 1912.

(4) – صحيفة " الأخبار " بتاريخ: 9 أوت 1912.

قضية هويّة وجود المسلمين الجزائريين مسلمين بكلّ معاني الكلمة [1]. إضافة إلى توكيد الخطّ التنويري في سبيل خدمة ومعرفة حقائق القومية الإسلامية وتاريخها [2].

وبالفعل، فإنّ رؤيته التنويرية السياسية في تعزيز وتأصيل الهويّة اتّسعت لتشمل، حسب ما كشفت عنه دراستنا، الوعي بمكوّنات هذه الهويّة المؤكّدة للانتماء الحضاري الإسلامي، وللخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائري، خاصّة ما تعلّق بالاهتمام بالرموز الوطنية للنضال الكفاحي والإصلاحي. وهي وجدناها تتمثّل في شخصيات كان لها حضور في خدمة الشعب والوطن الجزائري. فهكذا يكتب سنة 1913، منوّها بشخصية الأمير عبد القادر الجزائري الذي يعتبر أحد عظماء الجزائر وشمال إفريقيا في مقاومة المحتّل الفرنسي لمدة 15 سنة وفي الدفاع على الوطن وحماية الدين، وأحد رموز الشهامة الإسلامية المعاصرة لما أقدم عليه من إنقاذه وحمايته للمسيحيين بسوريا، فكتب عنه قائلا: [ قد تهيأ هذا الرجل منذ نعومة أظفاره لأن يكون رجل الجزاير العظيم بل بطل أقطار شمال إفريقيا كلّها، فلقد نال بإقدامه وحزمه ومعرفته الدرجة القصوى في المحافظة على الوطن وحماية الدين ...] [3].

وكان المفكّر عمر بن قدور الجزائري قد كتب قبل ذلك في صحيفة " الأخبار " سنة 1908 مؤيّدًا ومدافعا عن شخصية علمية إصلاحية وهو الإمام محمد السعيد بن زكري (1850/ 1914) حينما تمّ تعيينه مفتيا مالكيا للجزائر، معتبرًا إيّاه استاذًا له وموجّها للعقول حيث كتب مخاطبًا معارضيه: " إن كنتم أنكرتم فضل فضيلة المفتي الجديد (يقصد ابن زكري) وعلمه ومعرفته وأدبه وتواضعه وعقله ورأيه وإنصافه وإحسانه وكرمه وبرّه فنحن معشر الجزائريين المخلصين لأوطاننا لا ننكر له ذاك ولا نعتبره إلاّ سيّدًا وأستاذًا لنا وإمامًا ومرشدًا لعقولنا رغما عن أنف من أبى وحلول العزلة في رأس الربّى ...] [4].

وحينما توفي الشيخ الإمام والأستاذ المصلح محمد السعيد ابن زكري في شهر أفريل من سنة 1914، كتب عنه مرّة أخرى مقالاً تأبينيًا معتبرًا إياه أحد الأساتذة الذين تأثّر بهم في الجزائر، وملخصا لحياته العلمية والعملية في التدريس والإصلاح، فتحت عنوان " إلى الروح المقدّسة " كتب: [ روح أستاذنا وإمامنا فقيد العلم والإسلام، روح مفيد الجزائر ومنير ظلمات

---

[1] – صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 9 مارس 1914.

[2] – افتتاحية (الفاروق) 28 فيفري 1913.

[3] – المصدر نفسه بتاريخ: 23 أوت 1913.

[4] – المصدر: جريدة " الأخبار " بتاريخ: 16 أوت 1908.

جهلها، روح فضيلة مفتي الإسلام وقدوة الأعلام ومهذّب الأذهان والأفهام المرحوم الشيخ ابن زكري محمّد السعيد ... تبكيه الجزائر لأنّه أفادها قبل أن تفيده وملأ مجالس مساجدها علما وحكمة ممّا يجيده، تبكيه المنابر التي كان ينتصب عليها خطيبا فيهدي للتي هي أقوم، تبكيه المشكلات التي كان يرجع إليه في حلّها ...] [1].

ومن الشخصيات الإصلاحية والتجديدية التي نوّه بها مفكّرنا شخصية العالم الأستاذ محمد أطفيش (1821/ 1914) أحد علماء ميزاب الجزائريين حيث وصفه بعبارة راقية عظيمة أنّه يمثّل " أمّة في رجل " لجهوده العملية في إحلال التضامن والتوافق فيما بين المذاهب الإسلامية، وفي محاربته الجمود والحظ على الاجتهاد، مع التأليف العلمي الغزير، فقال فيه [ إنّ الإسلام يعتز جانبه بالعلماء المصلحين ومن انفردوا عن جماعة الجمود بإعلان شأن اجتهادهم واستقلّوا برفع مقام الإرشاد ومثل هؤلاء في المسلمين قليل إلاّ جماعة قد أبصرنا أفرادها يظهرون فتلفظهم المنية حينما تظهر ثمارها غرسوا ... فالمرحوم فقيد العلم والإسلام فكان من هؤلاء الأفراد الكبار النفوس فهو أمّة في رجل ...] [2].

ووجدنا مفكّرنا قد أولى أستاذه الإمام عبد القادر المجّاوي (1848/ 1914) أهمّية خاصة، تجلّت بصفة واضحة إبّان وفاة هذا الرائد الإصلاحي في الجزائر. حيث اعتبر هذه الوفاة خسارة للجزائر، واعتبره بحق أحد الفاعلين في ميدان التنوير والإصلاح ووصفه بكونه عماد أمّة وإمام شعب، لما قام به من جهود في المؤسسات التعليمية والمسجدية و مما كتبه فيه: [ أنّي أيّها الأستاذ العزيز أبكيك بنوع خاص لأنّك عماد أمّة وإمام شعب كنت تهدي وتنقذ من غياهيب الجهل من أضاعه ذهوله، وأراده فيه وتوقظ الغافلين من مضاجعهم بسرّ وعظك وإرشادك، أبكي روحانيتك الطاهرة التي كنت تقذفها مع ألفاظك التعليمية ... فمن ذا الذي يقوم مقامك وقد استوحشت المدارس وأقفرت المساجد من كلّ مرشد نصوح ...] [3].

ثم يقرّر أنّ أستاذه المجّاوي هو بالفعل أحد المؤثّرين الروّاد الأساسيين في تفعيل وإرساء بدايات اليقظة النهضوية والتنويرية في الجزائر ووصفه بأستاذ الجماعة فقال: [ فمَن للجزائر بعدك وقد ذهب الذين تعتمد عليهم بين يديك ؟ ومَن ذا الذي يجمـع دروسًا كدروسك ويتطوّع لها بعدك ويجتهد كإجتهادك وقد أدبر العالمون ونفر المتعلّمون ؟ رضوان ا  عليك يا أستاذ

(1) – المصدر: صحيفة " الفاروق " بتاريخ: 20 أفريل 1914.

(2) – المصدر نفسه بتاريخ: 6 أبريل 1914.

(3) – صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 2 أكتوبر 1914.

الجماعة ! فلولاك لم تتكوّن جماعة الذين استيقظوا في أطراف هذا القطر، ولولاك لما انتعشت لغة العرب في هذه البلاد ولا عرف الناس إيمانهم وإسلامهم ...] [1].

ولاحظنا من خلال تتبّع نتاجات مفكّرنا كيف أنّه نوّه برموز تنويرية ونهضوية جزائرية، معاصرة له، سوف يكون لها شأن في حركية النهضة الإصلاحية والسياسية في الجزائر، والمقصود بها الإمام المصلح والرائد عبد الحميد بن باديس (1889/ 1940) والزعيم السياسي والصحافي الأمير خالد بن الهاشمي (1875/ 1936). فلقد اهتّم بخبر عودة العالم عبد الحميد بن باديس من الحج المبرور سنة 1914 وهنّأه بتولّيه مسؤولية التدريس بجامع سيدي الأخضر بمدينة قسنطينة [2]. ووصفه سنة 1920 حينما جاء مع الوفد القسنطيني لإقامة احتفالية للمجالس العلمية الدينية بالعاصمة في سياق زيارة ضريح " سيدي امحمّد بن عبد الرحمن " بأنّه كان واسطة عقد الوفد والعلاّمة والمدرّس والمقرئ والأستاذ عبد الحميد بن باديس [3].

كما نوّه مفكّرنا بجهود الأمير خالد في الميادين الإصلاحية والسياسية لإصرار هذا الأخير على تشكيل جمعية وطنية تتجاوب وإشكاليات النهضة في الجزائر، خاصة بما ارتبط بمسألة التعليم في الجزائر [4]. وحينما التحق عمر بن قدور الجزائري بصحيفة " الإقدام " كتب نصوصًا مدعّما فيها التوجّهات السياسية للأمير خالد، حيث اعتبره أحد زعماء الإصلاح في الأمّة الجزائرية التي كان تصويتها في انتخابات المجالس الشورية لصالحه " أكبر برهان على الشعور الجزائري " أي على الوعي الوطني [5]. وآزر أيضا خطّته النهضوية التعليمية[6].

شرع مفكّرنا في صحيفة (الصدّيق) في العدد (5) من شهر أوت سنة 1920 في نشر سلسلة مقالات تحت عنوان " أشهر مشاهير الجزاير في العلم والصلاح" تنويها بالإسهام التاريخي المجيد للرموز العلمية الدينية والثقافية الجزائرية، لكن انسحابه من على مسؤولية هذه الصحيفة، كما ذكرناه في دراستنا، في سياق ممارسته الصحافية، حال دون إتمام نشرها.

---

[1] – صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 2 أكتوبر 1914.

[2] - المصدر نفسه بتاريخ: 13 أفريل 1914.

[3] – أنظر (الفاروق) – مجلّة- بتاريخ: 15 أكتوبر 1920.

[4] – المصدر نفسه.

[5] – صحيفة " الإقدام " بتاريخ: 23 جويلية 1921.

[6] – صحيفة " الإقدام " بتاريخ: 26 أوت 1921.

## المبحث الثاني: البعد الفكري السياسي وقضايا العالم الإسلامي

كشفت دراستنا هذه أنّ المفكّر عمر بن قدور الجزائري لم يكن بالصحافي أو المفكّر المنعزل عن القضايا الفكرية والسياسية التي تتّصل بواقع العالم الإسلامي. وهو الذي دعا مرارًا وتكرارًا النخب المثقفة، كما وضحناه آنفا، إلى القيام بمهامها الإصلاحية والتنويرية في مجتمعها، مع إدراكه لخصوصية كلّ مجتمع ينتمي لفضاء الأمّة الإسلامية. وكان قد عبّر عن عدم استطاعة المفكّر الفاعل البقاء بعيدًا غير متأثّر بالتحوّلات السياسية والاضطرابات الحاصلة في العالم، وخصوصًا في العالم الإسلامي، بحكم نزعة الانتماء الحضاري لهذا الفضاء، باسم القومية الإسلامية تارة، وباسم الوحدة الإسلامية تارة أخرى، مع ما يتعرّض له هذا العالم من أخطار باسم المطامع الاستعمارية الغربية وباسم التعصّب الديني كما يرى [1].

هذا الجانب بدا لنا جدّ واضح خاصّة لما نطالع القسم العربي من جريدة " الأخبار " الذي كان يشرف عليه، أو من خلال ما تضمنته صحيفته (الفاروق) من مقالات وأخبار عديدة على مدار سنوات الصدور، تعكس بحقّ قناعاته الفكرية التنويرية المدعّمة لرؤيته السياسية في تناوله لمسائل العالم الإسلامي، التي كانت تطفو على الساحة الدولية.

ويتأكد لدينا بهذا تجسيده العملي عبر كتاباته الصحافية، لمرجعيته العقائدية المتشبعة بالنزعة الروحية الإسلامية، والتي جعلته كجزائري يدافع عنها في تأصيله لهويّة الأمّة الجزائرية، كثابت من ثوابتها. وتكشف لنا ممارسته الصحفية اهتمامه بالأحوال والظروف المختلفة للعالم الإسلامي، والبعد التضامني له مع هذا الواقع. فكانت المقالات والأخبار التي تخدم رؤيته السياسية من هذا الجانب، تتوزّع عبر مختلف أعداد الصحف التي يحرّر بها مثال ذلك: " أخبار الثورة اليمنية " " الإسلام في السودان " " أحوال العراق ونجد " " بلاد عمان " "الساعة الهائلة في مراكش " " خبايا فضائع الاحتلال الإيطالي بطرابلس الغرب "، " مستقبل تركيا: مشروع تقسيم آسيا العثمانية " " بركان البلكان "، " الألمان والصهيونيون: كيف يكيدون لتركيا " .....

وجدناه يصرّح بهذا التوجّه الإعلامي دعما لما يخدم رؤيته في سياق " مبدأ الوحدة الإسلامية، والذي كان يقصد به ذلك التضامن في الإحساسات الروحية النابعة من مبدأ التوحيد

[1] – أنظر صحيفة " الأخبار " مقاله " بركان البلكان (البلقان)" بتا: 4-10- 1912.

الذي يؤمن به جميع المسلمين، الذين شتّتهم الجهل قبل أن تمتد السياسة فيه لتزيده تمزيقًا [1]. بحيث أصبحوا خاضعين لهيمنة سياسة الدول الاستعمارية الغربية، التي تخشى نهضتهم. يقول مفكّرنا: [ وجود الوحدة الإسلامية كوجود الوحدة المسيحية مضمونها تضامن الإحساسات الملّية والقومية وليس في تبادل هذه الإحساسات خطر على المدنية العصرية كما يتوهّم رجال الغرب ... ولبلوغ هذه الغاية سيعتني (الفاروق) بكلّ ما يمسّ بالشعوب الإسلامية وينشره تحت هذا العنوان (العالم الإسلامي) ...] [2].

ثم إنه لا يكتفي بنشر الأخبار أو كتابة المقالات السياسية، إنّما يقوم وحسبما لاحظناه من خلال صحيفتي " الأخبار " و" الفاروق " على الخصوص باقتباس ونقل مقالات من صحف عربية وإسلامية تصبّ في هذا المنحى الافتتاحي: فينشر مثلاً مقالات بالعناوين التالية: " حقيقة الاتحاد الإسلامي "، " إلى علماء الإسلام الأعلام "، " الإسلام والمسلمون: حقائق الجامعة الإسلامية "، " آيات الوطنية وشهامة العثمانيين "[3]، " الجامعة الإسلامية والوطنية "، " كيف تكوّنت الأمّة التركية "، " حالة الصحافي المسلم في البلاد الإسلامية "، " سياسة التبشير المسيحية في العالم الإسلامي "، " رأي مصلح من مصلـحي الهند، في نهضـة العرب والإسلام " [4].

أمّا من الناحية السياسية، فقد احتلّت مسائل معيّنة اهتمامًا لافتا وحضورًا متكررًا: مسألة انهيار الدولة العثمانية وأثر سياسة الأطماع الأوربية التوسّعية عليها، مسألة الاحتلال الإيطالي آنذاك لبلاد طرابلس (أي ليبيا) واحتلال المغرب الأقصى.

## - الرابطة الإسلامية كرؤية سياسية:

إذا كان عمر بن قدور الجزائري قد استند في رؤيته الفكرية الأخلاقية إلى مرتكز ماضي الأمّة العربية الإسلامية التي أقامت حضارة إنسانية بفضل عزائم أبنائها ومحاربتهم للفوضى الأخلاقية فإنّ استحضاره لهذه المسألة لم يجعله يتغاضى عن النموذج الحضاري الغربي المعاصر له. فهو قد دعا إلى فهم أسباب تقدّم أوروبا وما حققته من نموّ وإنجازات. وبيّنا قناعته بأن نهضة الأمّة الإسلامية لا تحصل إلاّ بالاتّصاف والإلتزام بقيم الاجتماع

---

[1] – أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 9 مارس 1914.

[2] – في المصدر نفسه.

[3] - في صحيفة " الأخبار ".

[4] – في صحيفة (الفاروق).

والتعاون والتفاهم، مع محاربة الأمّية والجهل بقوة العلم. وكثيرًا ما أكّد على ضرورة توظيف وتدريس التاريخ في الفعالية التنويرية حتى تتشكّل للشبيبة المسلمة معرفة بماضي هذه الأمّة المنتمية إليها. ثمّ إنّه أكّد بصفة واضحة على أنّ تاريخ القومية الإسلامية وحقائقها، من المتغيّرات الفكرية التي دأب على تعميق وجودها إعلاميًا قصد صيانة وتأصيل هويّة الأمّة الإسلامية، من الناحية الروحية [1].

إنّ هذا المكوّن الهوياتي، يعكس وعيه بأهمّية ترسيخ الانتماء اعتمادًا عليه. في سنة 1907، كتب في صحيفة " الهلال " قائلا [2]: " كانت أمّتنا المحمّدية بنت أساس الصروح العالية الآن وسهّلت على أمّة الغرب طريق الحضارة المتربّصين بها الآن ونسجت (البدية) العلوم الراقية في محاسنها شعوب أوروبا اليوم، والمحنكين من القوم (يعرفون) هذا تمام المعرفة ويصرّحون به في المحافل العلمية. ولما كنّا معشر المسلمين غير (آمّين) آثار أسلافنا الذين سبقوا بأحسن المآثر وفازوا بالسطور البيضـاء في بطـون التـاريخ فارقت محبّة الوطن أفئدتنا ...].

إنّ الإشادة بمجد المدنية الإسلامية، شكّل بالنسبة إليه منبرًا تنويريًا لتعزيز الثقة في النفس وبناء همم المتطلّعين إلى الإصلاح والنهوض بالأمّة الإسلامية، فكتب محفّزًا هذه الفئات الفاعلة والمعوّل عليها في مستقبل هذه الأمّة: [ أبناءنا اجتهدنا وجاهدنا وجمعنا الجيوش والعساكر وجهّزنا الأساطيل ورابطنا في الثغور وطاردنا كلّ عدوّ غادر حتّى فتحنا الشرق والغرب ووطّدنا أقدام المدنية الإسلامية في كافة أنحاء المعمورة واستعمرنا بلادًا شاسعة وأقطارًا واسعة لكي تكون مهدًا لكم يوم توجدون ولا تكونوا عالة على الأمم ...] [3].

ولم يكن النهوض الذي يعمل من أجله، قصد تحقيق التقدّم والرقي الاجتماعي والأخلاقي فقط، إنّما كان يبحث أيضا، في سياق مجابهة العالم الإسلامي للمطامع الدولية الغربية ومشاريع اقتسامه بين القوى الاستعمارية، إلى الخروج بالشعوب الإسلامية من وهدة السقوط السياسي والحفاظ على الكيان الحضاري الإسلامي من خلال دعوته لإحياء وتفعيل مفهوم الرابطة الإسلامية. فيرى أنّ [ العالم على السقوط والاضمحلال هو التهاون في حفظ ما خاف الحمى وأمامه وما للجوار من المناسبات الأكيد حفظها لاسيما الرابطة القومية والدينية منها سواء في

[1] – أنظر: افتتاحية (الفاروق) بتاريخ: 28 فيفري 1913.

[2] – في صحيفة " الهلال " بتاريخ: 1 فيفري 1907.

[3] – في صحيفة " الأخبار " بتاريخ: 23-10-1910.

ذلك الأفراد والأمم. ولو لا خيانة الإنسان في هذا الباب وإهماله لهذا الواجب الاجتماعي والديني لما كان لسيئاته الأخرى شيء يذكر في جانـب هذه الحسنة العظـمى، حسنة التضامن والائتلاف ...] [1].

واعتبر أصل هذه الرابطة الداعية إلى التضامن وفضلها مبثوث في التعاليم الإسلامية، وكذلك عبّر عنها المفكّرون والفلاسفة والنبغاء في كلّ عصر ومصر. لكن إتّباع المنافع الذاتية أنسى المنافع العمومية وتمّ إهمالها فكان داء اللاتضامن القومي والديني أو الملّي قد استشرى داؤه في وسط الشعوب الإسلامية [2]، التي أصبحت من الشعوب المستضعفة في العالم في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهدفا للمشاريع الاستعمارية وللتعصّب الديني المسيحي.

لكم ما لاحظته من خلال تحليل مختاف نصوصه الصحافية محلّ الدراسة هذه هو تجنّبه الاستخدام المكثّف لمفهوم " الجامعة الإسلامية " الذي له تقريبا نفس الحمولة الدلالية عند عمر بن قدور الجزائري، في توظيفه فيما بعد لمفهوم " الرابطة الإسلامية "، حينما يتحدّث عن بعده السياسي التضامني لدى العالم الإسلامي أو الأمّة الإسلامية.

وعثرنا عن أولى استخداماته لمفهوم " الجامعة الإسلامية " في مقالٍ له نشره سنة 1906 بصحيفة " الهلال " الصادرة بالجزائر، حينما ربط ما بين ضرورة إعانة ومساعدة الأغنياء الجزائريين لهذه الصحيفة للنهوض بالمسلمين الجزائريين وفي سبيل حبّ الوطن، وما بين مشروع " الجامعة الإسلامية " للزعيم المصري مصطفى كامل [3].

وحينما دعا إلى الدفاع عن نظام الأوقاف الإسلامية في الجزائر، كمؤسسة حضارية ذات أبعاد اجتماعية واقتصادية تساءل عن خطر تلاشيه بالنسبة للمجتمع الجزائري المسلم وهذا في سنة 1907، واعتبر الإجابة عن السؤال هذا واجبًا على الوطنيين الجزائريين وعلى كلّ مسلم على مناكب المعمورة – لأن تبادل الشعور ضروريًا للجامعة الإسلامية " [4].

---

[1] – أنظر مقالة: " ما أكل الثور الأحمر إلاّ لما أكل الثور الأبيض " بصحيفة (الفاروق) بتاريخ 16 مارس 1914. وكان قد نشره قبل ذلك في صحيفة (الحضارة) في العدد 77 بتا: 12 شوال 1329 هـ (1911).

[2] – في المصدر السابق نفسه.

[3] – أنظر صحيفة "الهلال " بتاريخ: 1 ديسمبر 1906.

[4] – في صحيفة " الحقيقة " – تونس- بتاريخ: 7 أوت 1907.

وعدّ هذا الواجب مقدّسا خصوصا بالنسبة للصحافي لأنّ المسألة هامة خصوصًا لما كانت من الضروريات للإسلام والمسلمين، وإهمالها والتلاهي عن نشر ما يرتبط بها اعتبره من الذنوب.

واعتقد أن عدم توظيف مفكّرنا بن قدور لعبارة " الجامعة الإسلامية " فيما بعد بشكل مكثف ناتج عمّا أحيط من تضخيم وتحميله من دلالات دينية سياسية من طرف الصحافة الغربية الأوروبية. حتّى أصبح كلّ من يستخدمه متّهماً بالانتماء إلى تيار يعادي ويناهض صراحة وبتعصّب ديني القوى أو الدول الأوروبية، خاصة وأن معظم العالم الإسلامي كان واقعًا تحت هيمنتها واحتلالها مع نهاية القرن التاسع عشر. وأصبح الحديث عن ضرورة نهضة الأمّة الإسلامية وتقدّمها يشكّل خطرًا بالنسبة للمثقّفين في الغرب الأوروبي. حتى أنّ هجرة الجزائريين لبلادهم المستعمرة من طرف فرنسا أصبح يعبّر بالنسبة إليهم عن وجود تيار مدعوم من قبل مبعوثين عثمانيين وجزائريين مستقرّين بتركيا، وهذا التيار ينتمي لما سمّوه بـ: « Panaslamisme » وهو يقابل " الجامعة الإسلامية " [1].

وكان أحد المفكرين السياسيين العرب وهو رفيق العظم (1867/ 1925) قد عبّر عن وهم خطر " الجامعة الإسلامية " لدى أوروبا التي تستخدم جرائدها لترويجه واعتباره مهددًا للمدنية، مع أن الواقع السياسي والحضاري لا يعكس هذا، فقال [2]: [ إنّ السياسيين من أهل أوروبا لا يخجلون من الحق ولا يستحيون من جميع العالم الإنساني الشاهد عليهم بالكذب والبهتان حيث ينادون بخطر الجامعة الإسلامية واتحاد الإسلام مع أن المسلمين في كل ناحية من الأرض صاروا أسرى الدول الأوروبية وأصبحوا لا حول ولا قوة إلا تلك العاطفة الدينية المنبعثة عن الشعور دون العقل الفعّال ].

وللتدليل على هذا التوجّه الأوروبي المعبّر عن ضرورة بقاء الهيمنة الاستعمارية على الشعوب الإسلامية، هو ما كتبه أحد المثقفين الفرنسيين حول وجود تيار " الجامعة الإسلامية " في الجزائر من خلال ليس فقط معارضة التجنيد الإجباري للجزائريين في الجيش الفرنسي باسم " القومية الإسلامية " وإنما أيضا وجود تضامن للجزائريين من خلال تقديمهم مساعدة أو إعانة للهلال الأحمر جرّاء الاحتلال الإيطالي لليبيا والحرب الدائرة هناك خلال سنة 1913 [3].

---

(1)– In : La Revue de Paris- du 15/11/1899, p 240.

(2) – أنظر: رفيق بك العظم: الجامعة الإسلامية وأوروبا. مطبعة هندية – القاهرة سنة 1325 هـ /1907م. ص 34.

(3)– In : Philipe Millet : Les Jeunes Algériens. La revue de Paris. Novembre – décembre 1913. P 177.

وتمّ تحويل وتصوير حركية النهضة الإسلامية، من خلال " الجامعة الإسلامية " « Panaslamisme » كقوة مرعبة في ذلك العصر. وقال أحد المستشرقين، بأنّه كانت كلّ ظاهرة مناهضة للإمبريالية، حتى ولو كان مبعثها مشاعر محلية خالصة، تعزى إلى تلك الحركة الإسلامية وكانت الكلمة نفسها توحي بالتطلّع الإسلامي للسيطرة وبأيديولوجية عدوانية وبمؤامرة على نطاق عالمي ... والواقع أنّها، حسب رأيه تتألّف من حركات واتجاهات مختلفة ومتشعّبة، وجرى تضخيمها [(1)].

وكان التيار التغريبي في الجزائر الموالي للتوجّهات السياسية والثقافية للإدارة الاستعمارية في الجزائر، قد انخرط هو الآخر في معاداة ومناهضة النّخبة الجزائرية المناضلة عن هويّة الأمّة الجزائرية الإسلامية وخصوصيتها وانتماءها الحضاري لفضاء العالم الإسلامي. حيث قامت صحيفة " الإسلام " الاندماجية الناطقة باسم تيار التفرنس والتغريب في الجزائر، باتّهام الصّحافي والمفكّر عمر بن قدور الجزائري بالانتماء لتيار الجامعة الإسلامية، واعتبرته من خلال الخطّ الافتتاحي والإعلامي لصحيفته " الفاروق " من الذين كانوا يحضرون في الخفاء للتمرّد والعصيان على دولة فرنسا الاستعمارية. وقام يردّ بكلّ قوة واعتزاز، عبر نصّ نشره في العدد الرابع من " الفاروق " مبيّنا اعتزازه بأصالته الجزائرية وتفانيه في خدمة الدين الإسلامي، رافضا أن يقدّم هؤلاء التغريبيون عبر صحيفتهم " الإسلام " التي نعتها بـ " الإلحاد " كممثلي أو كزعماء سياسيين للأمّة الجزائرية لأنّها [ كانت تخدع العقول الساذجة بمعنى اسم الإسلام الساطع وتدسّ لها السمّ بما تحته من الإفك والبهتان ] [(2)].

لم تكتف هذه الصحيفة بتلك النّهضة، إنّما اعتبرته بممارسته تلك، قد دخل العمل السياسي وهو الذي أعلن مجانبته لها، فردّ أنّه ليس من الحزب الديني المذكور، وعبّر عن استقلاليته الفكرية وابتعاده عن سياسة النفاق فقال بضمير المتكلم: [ لقد قالوا عنّا أنّنا من حزب الدين وأنّنا تحامينا السياسة فما لبثنا أن سقطنا فيها ... هذا ادّعاء غريب وتهافت مبين ... إنّنا متديّنون حقيقة ولكنّنا مستقلّون شخصنا شخص إصلاح وخطّتنا خطّة اعتدال ...] [(3)].

---

(1) – أنظر كتاب: تراث الإسلام – تصنيف: شاخت وبوزورث – (مترجم)- سلسلة " عالم المعرفة "- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت. طبعة 2 1988، ص 86.

(2) – أنظره صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 21 مارس 1913.

(3) – المصدر نفسه.

[ إنّنا جزائريو الأصل والمولد والمنشأ وكلّ من عرفنا منذ نشأتنا يتحقّق أنّنا لسنا من الذين يتوغّلون في المضايق السياسية والأحزاب، بل إنّ فكرتنا يعرفها كلّ من اطّلع على كتابتنا سواء في جريدة (الأخبار) أو في الجرايد التونسية أو في الجرايد المصرية أو جريدة (الحضارة) بالأستانة وهي تحتوي على معنى واحد وهو خدمة الدين الإسلامي والعمل على إصلاحه وتهيئة أهله لفهم حقيقته، لأن المسلمين لا تفيدهم السياسة المجرّدة من الدين بشيء أبدًا ... وعلى هذا المحور كنا ولازلنا نكره ونحارب الجامدين أي متّبعي القديم من قومنا والمغالين في التفرنج واتّباع الجديد منهم إلى درجة الإلحاد ومبغضي المسلمين من حزب الاستعمار ونتبرّأ من كلّ شيء يمسّ بشرف الإسلام ...] [1].

وإذا كان مفكّرنا قد عبّر عن توجّهه السياسي عبر مبدأ الوحدة الإسلامية، المنطلق من التجاوب الوجداني والروحي للشعوب الإسلامية فيما بينها، في سياق التناول الإعلامي لمسائل العالم الإسلامي السياسية منها على الخصوص، كما بيّناه آنفا، فإنّ جهوده الفكرية والعملية، كالدعوة سنة 1911 إلى تأسيس هيئة تحت اسم " جامعة الصحافة الإسلامية " [2]، ثم مساهمته في إثراء النقاش الذي جرى حول تجديد أو تحديث " الكتابة العربية " من خلال تقديم مشروع توحيدها عبر كلّ الجرائد الإسلامية المستعملة للحروف العربية تحت إشراف الحكومات الإسلامية رافضا تبديلها بالحروف اللاتينية [3] [ ووجدناه يدعّم مشاريع التنوير الهامّة في العالم العربي، حينما كتب سنة 1911 معهدا ومنوّها بتأسيس صديقه المصلح الشيخ محمد رشيد رضا لـ: " دار العلم والإرشاد " في مصر، معتبرًا هذه الخطوة العملية السبيل الوحيد لنشر الدعوة الإصلاحية وللخروج بالأمّة الإسلامية من داء التقهقر والسقوط ونهوضها فكتب قائلا: [ علم المصلحون اليوم أن السبيل الرشيد هو تأسيس جامعة إسلامية ينخرط في سلكها المسلم الصيني كما يدخل فيها المسلم المراكشي ويكون فيها المسلم الإنكليزي أخًا للمسلم السوداني. جامعة تفتح أبواب كلّيتها (دار العلم والإرشاد) لكلّ راغب من أتقياء المسلمين ليتلقّى فيها ما زكت منفعته ... وليكون رسولاً مبشّرًا بالحق في الأقطار وناشرًا للدين الحنيف في كافة الأمصار ناهيا عن المنكر والبغي ...][4]

---

[1] – أنظره صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 21 مارس 1913.

[2] - أنظر المبحث الأول من الفصل الثاني من هذه الدراسة.

[3] – أنظر صحيفة " الأخبار " بتاريخ: 8 جانفي 1911.

[4]- صحيفة " الأخبار " بتاريخ: 16 أفريل 1911.

ثم تحدّث عن مهامّها في الإصلاح الاعتقادي، وذكر بأنّها تجتهد تتحاشى وتتجنّب الخوض في الشؤون السياسية، ويدعو لأعانتها ماديا. كذلك بالنظر إلى دعوته الرائدة، ابتداء من سنة 1913 من أجل هيكلة المشروع الإصلاحي والتنويري عبر تأسيس " جماعة التعارف الإسلامي لأهالي شمال إفريقيا " تتألف من نخبة مفكّري مسلمي الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، فهذه الجهود تنمّ عن سعة أفقه الفكري التنويري والسياسي المدرك لراهن العالم الإسلامي آنذاك، وتعبير عن نزعته العقائدية والانتمائية لفضاء الرابطة الإسلامية، التي تتضمّن بالنسبة إليه مرتكزات الوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي، في عصر كانت تجابه فيه الشعوب الإسلامية أخطار ومطامع السياسة الدولية الغربية.

لقد اعتبر وجود مفهوم الوحدة الإسلامية مرتبط بمفهوم تضامن المشاعر والإحساسات الدينية والقومية. ورأى أنّ الأمّة الإسلامية لم تكن تواجه المطامع الدولية الأوروبية الاستعمارية فقط، وإنّما أيضا التعصّب الديني المسيحي، الذي امتّد لنخبة مثقفّي الغربيين المتأثّرين بالمصالح السياسية لدولهم، أو الجاحدين للحقائق الإنسانية النابذين للتسامح ويقول أن [ أكثرهم زلّ عمدًا إمّا طاعة لهواة أو لتعصّبه. ومن هؤلاء " هانوتو " المشهور بكتابه في الإسلام و " اللورد كرومر " صاحب " مصر الحديثة " وغيرهما من كتبة الغرب ...] [1]. ومن الناحية السياسية، اعتبر أن الانعكاسات والتداعيات المتّصلة بما كان يسمّى بالمسألة الشرقية تبيّن أنّ المشاكل الدولية لم تنته بتقسيم تركيا الأوروبية، وتجزئة أراضي الدولة العثمانية وتقسيمها على الدول المتحالفة عليها خاصة بعد الحرب البلقانية الأولى لسنة 1912، هذه التداعيات التي تعكس أحد وجوه التعصّب الديني المسيحي، فكتب في مقالٍ تحت عنوان " تركيا واليونان: تطاحن العناصر: [ بقي على السياسيين أن يهتمّوا بتلك التشوّفات العميقة المتصاعدة من أعماق أفئدة العناصر والأجناس البلقانية، لاسيما تشوّفات التعصّب الملّي والقومي الذي لاح انفعاله من أواسط مقدونية ضدّ العثمانيين والمسلمين ...] *. وأمام هذه الوضعية ها هو يعبر في أحد نصوصه عن هذا الهمّ والانشغال الوجداني والتضامني مع واقع الأمّة الإسلامية المخيف، بحيث يدعو إلى ضرورة العمل لانتشال قوميتها وكيانها من وهدة الاضمحلال، وإلى النظر إلى أمّة أوروبا ذات الهوة الظاهرة والعاملة دومًا في سبيل النموّ والارتقاء فيقول متحسّرًا: [ وتلكم أمّة الإسلام التي ما زالت تسمّى بالأمة الحنيفية وواسطة عقد الأمم أصبحت قانعة بمركزها الحالي

---

(1) - في صحيفة " الأخبار " بتاريخ: 19 فيفري 1911.

* - أنظر (الفاروق) بتاريخ: 23 جويلية 1914.

وراضية بأن تنسحب عنه إلى المراكز الأخرى التي تبصرها من تحتها في الدرك الأسفل ... هي الكوارث ولا بحاجة لتبيانها فقد كادت أن تلمس باليد قد أنذرت المسلمين ... وقد آن لهم أن يبحثوا عن الوسيلة التي يتسنّى لهم بها انتشال قوميتهم من وهدة الاضمحلال أففيهم رجل رشيد يسمع ما نقول ويتلّقاه بقلب سليم ...] (1).

إن التصوّر الفكري الذي يضعه مفكّرنا في مقاربته لمبدأ الرابطة الإسلامية، يعكس عبر نتاجاته الصحفية استحضار المرجعية العقائدية والتاريخية للأمّة الإسلامية. فرابطة المسلمين الحقيقية عنده دامت في دولة الإسلام إلاّ مدة الخلفاء الراشدين، ثم زالت عن الدول التالية فحصل الاقتسام، الذي كانت نتيجته ووباله عظيمًا على بقيتها وشديدًا على الشعوب الإسلامية المعاصرة من بعدها. والرابطة هذه قوة روحية، ميّزت رجال السلف لبناء الإسلام وحضارته إنّها الرابطة القومية الأساسية لمختلف تلك الشعوب. كتب قائلا: [ تلك الرابطة هي قوة روحية إذا تمكّنت من ضمير المرء تجعله يحنّ إلى أخيه حنوا لا يرى به عند أخيه عيبا ينكره عليه ولا شذوذًا يخذله ب213154 . رابطة حث عليها الإسلام قبل أن يحث على الصلاة والصيام فأصبح بها أهلوها المعتنون بتنميتها متضافرين وقلوبهم صخور مرصوصة إلى بعضها فتألّف منها سور ضخم لا تهزه زوابع الشقاق ولا تمسّه أمواج التخاذل ...] (2).

ثم يتساءل مستنكرًا مسقطًا تصوّره على الواقع الراهن آنذاك فهل نعلم نحن قيمة تلك الرابطة ؟ ويجيب بالنفي، نظرًا للمركز المتخلّف الذي تتخبط فيه الأمّة الإسلامية فيما بين الأمم. ورأى أن الواقع لا يقول بوجود مسلمين حقيقة، إنما بوجود عناصر تركية أو عربية أو بربرية، أو القول بوجود مغربي أو جزائري أو تونسي أو سوري أو مصري أو حجازي أو عراقي أو فارسي أو هندي أو أفغاني أو جاوي بحسب الأوطان، من جانب حيثية التنافر الموجود فيما بينها كلّها بسبب انحلال الرابطة الإسلامية التي كانت تربط كلّ مسلم بأخيه وإن كان أحدهما بأقصى الشرق والآخر بأقصى الغرب... (3).

وفي نصّ صحافي فكري آخر، يقدّم تحليلاً تاريخيا، يشرح فيه السبب الذي أدّى هذا التنافر والتباعد فيما بين مكوّنات الأمّة الإسلامية، خصوصًا ظهور العصبيات العرقية بين أجناسها وتضارب المصالح الذي أدى إلى التنازع والانهيار مصداقًا لقوله تعالى المعبّر عن مبدأ

(1) – صحيفة " الفاروق "بتاريخ: 30 ماي 1913.

(2) – بصحيفة (الفاروق) بتاريخ: 6 جوان 1913.

(3) – في المصدر نفسه.

السنن الكونية: [ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ]. ويرى أن الدين ينبذ إثارة العصبيات، ولا عصبية أقوى من عصبية التقوى التي هي روح الرابطة القومية، خاصة في الوقت الراهن آنذاك: كتب: [ إنّنا الآن في وقت لا يصحّ لنا فيه أن ننزع إلى تلك العصبيات الجنسية (أي العرقية) الممقوتة لا لأن الدين ينبذها فقط بل ولأنّنا منها لاقينا المحن الشديدة ولأننا الآن في حيّز ضيّق لا ينيلنا سطوة عالية فنتنافس عليها بتلك العصبيات بل العُلى اليوم لمن علم فعمل. وعصبية التقوى هي القوة الكبرى وهي الرابطة التي نفتّش عن جرثومتها في قلوب المسلمين ونرجو لها النّمو، نموا تتلاشى معه جميع العصبيات جنسية كانت أو مذهبية والاختلافات اجتهادية كانت أو صوفية ...] [1].

إنّ السياق السياسي والحضاري يحتّم على المسلمين أينما كانوا البحث عن الوسائل وعن الأسباب لإيجاد تلك الرابطة الحقيقية النابعة من روح الإسلام، وفككتها العصبيات المذكورة آنفا. ثم انتقد حكّام تركيا لتلك الفترة قبل قيام الحرب العالمية بسنة، في توجّهاتهم السياسية الجديدة. فقال أن روابط الأمم هي الفاعلة حقّا، هي المسيطرة على كلّ قوة، وذكر مثال نجاح رابطة البلقانيين ونجاح رابطة أوروبا بالرغم من التنافس السياسي والحربي [2].

وحفاظًا على المجال القومي المتبقي للمسلمين، رأى أنّ الأمل في إحيائها منوط بالفعل النهضوي التنويري الذي يقع على الفئات الفاعلة النخبوية، المؤثرة في المجتمعات الإسلامية من مفكّرين ومشايخ الطرق الصوفية ورجالات الممارسة السياسية وغيرهم، قال: [ نحن ليس لنا إلاّ أمل واحد في تنبيه سلك الأعصاب المتخدّرة يمكن لنا أن نعلّق عليه إيجاد تلك الرابطة القومية الإسلامية وهو منوط بهمم العلماء والأغنياء والمفكّرين وذوي النفوذ من رؤساء الطرق الصوفية وأيضا رجال اليوم الذين يدّعون الزعامة على شعوبهم وأيضا رجال الغد مَن هم في المدارس يهيّئون مستقبلهم ...] [3].

إنّ معاناة الشعوب الإسلامية تفاقمت في العصر الحديث، بسبب انحلال هذه الرابطة القومية الروحية، وانجرّ عنها ظهور اللاتضامن فيما بينها من الناحية السياسية، في مواجهة الغرب الاستعماري على الخصوص: كتب: [ ... إنّ الإسلام يدعو معتنقيه إلى الائتلاف ويحضّهم على التضامن ... لكنّهم لما جعلوا بأسهم بينهم وانتقموا من بعضهم البعض بالأجانب

---

[1] – بصحيفة (الفاروق) بتاريخ: 13 جوان 1913.

[2] – في المصدر نفسه.

[3] – في المصدر نفسه.

عنهم ... انقرض على الأثر شأنهم بين الأمم وتلك الأيّام ينزع ا دولتها ممّن تنافروا وتنازعوا ويهبها لمن تضامنوا واتّحدوا ] [1].

ووضّح بأن أبعاد هذا الداء، الذي هو، اللاتضامن القومي والملّي (الديني) قد سرت ولازالت تسري في الشعوب الإسلامية، وامتدّت إلى الأفراد منها [2].

ويشكل النموذج التركي آنذاك بالنسبة إليه، مظاهر التخاذل الذي أدّى إلى التنازل عن ممتلكات الدولة العثمانية والتسلّط عليها. والمسلمون هم بين خيارين في مصيرهم، قتل التخاذل الذي هو الفشل أو الموت بالتخاذل [3].

لاحظنا من خلال مقاربتنا التحليلية أنّ المفكّر عمر بن قدور الجزائري يستحضر في قراءته السياسية المعاصرة للعالم الإسلامي، في سياق مبدأ الرابطة الإسلامية السياسي، يستند دومًا إلى المرجعية التاريخية الإسلامية للتنويه بصورة التضامن الفعلي وعاقبة افتقاده، وهذا دليل ثقافته التاريخية والسياسية الواعية. إنّه يستشهد بمواقف تاريخية، تعكس وجود رجال قدّروا التضامن حق قدره، لولاهم لأودت علّة اللاتضامن دفعة واحدة بالدول الإسلامية، قد لا يبقى للإسلام ذكر في الآخرين. وهكذا في أحد نصوصه نجده تحدّث عن موقف تاريخي لمعاوية ابن أبي سفيان. وعن المعتصم لدى فتحه لعمّورية لأجل امرأة مسلمة سباها الروم فصاحت "وامعتصماه ". فلولا هؤلاء لخنعت الأمة الإسلامية للغرب كليّة واعتبرته زعيم الإنسانية. إن داء اللاتضامن يفتك بالأمم والأفراد. ويقول رحمه ا : [ هنا عظة الدهر العظمى فالواجب أن لا تنسى من أسلم ضعيفا لقوي يفتكّ به، فإن الفتك سيلحقه بأفظع صورة ولو بعد حين من حيث لا يدري أنه مفتوك أو مقتول تأمّلها بإمعان في الأمم والأفراد والجماعات ....] [4].

ثم انتقد الحكّام الذي تولّوا المسؤولية السياسية للبلدان الإسلامية وحمّلهم بعض التداعيات السلبية، التي أضرّت بمصالح شعوبها ففي أزمة حرب البلقان، قال: [ الشرق المخطئ لم يخطئ متعمّدًا بل اقتاده أناس أهملوا مصالحه وارتادوا مصالحهم، ففقد كلّ خصاله الحميدة وما كان لديه من سؤدد وفضيلة ...] [5].

---

(1) – أنظر " الفاروق " 28 مارس 1914.

(2) – " الفاروق " بتاريخ: 16 مارس 1913.

(3) – " الفاروق " بتاريخ: 27 يونيو 1913.

(4) – في صحيفة " الفاروق " بتاريخ: 23 مارس 1914.

(5) – الصحيفة ذاتها بتاريخ: 25 جويلية 1913.

إنّ هذا الشعور السياسي المصطبغ بمرتكز روح الرابطة الإسلامية سوف نلحظ حضوره بشكل مكثّف عبر مختلف المقالات الافتتاحية أو التحاليل السياسـية التي كـان يضمنّـها ركن " العالم الإسلامي " أو " بريد الإسلام " أو ركن " حوادث خارجية: الأحوال السياسية " في جريدته " الفاروق " أو حتى الأنباء والمقالات الأخرى في القسم العربي الذي كان يشرف عليه من جريدة " الأخبار ". مع إعادة نشره أو استشهاده بنصوص مُقتطفة من مقالات سياسية عديدة كتبها لجريدة " الحضارة " الصادرة بتركيا لصديقه عبد الحميد الزهراوي. توصّلنا في دراستنا هذه إلى اعتبار مسألة احتلال إيطاليا لليبيا (طرابلس الغرب آنذاك) ومسألة الاحتلال الأوروبي الفرنسي للمغرب الأقصى (مراكش آنذاك) مع التيّقظ السياسي لنمو التيار الصهيوني وخطره على فلسطين، تعدّ أهم المسائل في هذا السياق المتّصل بالرابطة الإسلامية التي كانت تشغله سياسيًا على المستوى الخارجي:

## - انهيـار الدولـة العثمـانـية:

شكّلت مسألة مصير الدولة العثمانية انشغالاً سياسيًا، برز بشكل واضح من خلال العديد من المقالات الصحافية التي حمل بعضها عناوين دالّة على هذا الاهتمام والانشغال المعبّر فعلاً عن تواصل المفكّر عمر بن قدور الجزائري الإعلامي مع ما يمسّ العالم الإسلامي وما يتعرّض له من مجابهات مع المطامع الدولية المختلفة. فعناوين على شاكلة: " مصيبة تركيا في عدم الاعتبار " " الحرب في الشرق: بين العثمانية والايطالية " أو " مستقبل تركيا: مشروع تقسيم آسيا العثمانية " أو " إتّفاق ما بين العرب وتركيا " أو " تركيا واليونان: تطاحن العناصر " أو العناوين الرمزية مثل: " ما أكل الثور الأحمر إلاّ لما أكل الثور الأبيض "، هذه العناوين تشير بوضوح إلى رؤيته السياسية خلال مساره النضالي الإصلاحي، التي ترى في بقاء قوة الدولة العثمانية متغيّرًا أساسيًا قادرًا على أداء دور سياسي بالدرجة الأولى في الحفاظ على ما تبقّى من المجال الحيوي للشعوب الإسلامية. لهذا سوف نرى نقده السياسي لهذه الدولة متمحورًا في سياق مفهومه للرابطة الإسلامية وبعدها التضامني. إنّ كتاباته السياسية تدلّ أيضا على متابعته في تغطية كلّ ما كان يتصّل بهذه المسألة، حتّى أنّه اعتبر نفسه آنذاك قبل الحرب العالمية الأولى من قلائل المثقفين الذين اهتمّوا بمصير هذه الدولة، فكتب سنة 1913 قائلا في صحيفته (الفاروق): [ هذه تركيا – ومثلها الدول الإسلامية الأخرى – اختلفت وتناكرت فما كانت تتذكّر ما كان يصيبها من جرّاء اختلافها وتناكرها، لأن داعي الانحطاط ذو سلطان عظيم ... هكذا

قلت لتركيا المرار العديدة ووقفت معها عند باب كلّ مأزق تحاول أن تلجه موقف الناصح الأمين ومثلي ولا فخر في الشرق فئة قليلة وأمّا في الغرب فيعدّون على الأصابع ...] (1).

وكشف مفكّرنا في مقالٍ آخر أنّه كان يتتّبع أعمال تركيا بعد إعلان الدستور سنة 1909، فما وجدها ذات فعالية، خاصة وأنّها لم تكن تعتبر بسياق الأحداث السياسية، ولم تعمل على الحدّ من سياسية الظلم والتقهقر داخليًا وتسعى في إصلاح البلاد وترقية الأوطان التابعة لها ممّا دفعه إلى الكتابة النقدية السياسية عبر صحيفة (الحضارة) للعديد من المقالات تبيانًا للنصيحة وفقًا لمبدأ: الدين النصيحة – مظهرًا مغبّة الاختلاف وعاقبة عدم تحصين الأوطان وترقيتها، لكنّ÷ تأسّف لعدم تأثيرها وتقلّبها ما جاء فيها (2).

لقد اعتبر انهيار هذه الدولة مصيبة أخرى للإسلام، وكان قرار إلغاء الخلافة، بعد إعلان الدستور سنة 1909، بالنسبة إليه قاسٍ مع كلّ ما أصاب شعوب العالم الإسلامي تاريخيا وفي العصر الحديث كتب سنة 1913: [ كل مسلم في هذا الوقت قد أصبح رهين الغيظ الشديد وأسير الآلام من مصيبة تركيا بل مصيبة الإسلام ... حتى أن المرء لا يحسب أن القيامة أقبلت بفزعها الأكبر وشرها الأحمر وما هي في الحقيقة إلاّ مغبّة إهمال عِبرًا تصيب كلّ مغفّل من البشر، ولو يتأسّف كثيرون لهذا المصاب الجلل وهذه الضربة القاسية التي وقعت على عرش الخلافة الإسلامية وصيّرته بذلك يندك إلى الأسفل ...] (3).

ولقد اعتبر أن الحرب البلقانية الأولى على الدولة العثمانية شكّلت نوعًا من الدروس السياسية التي كان من المفروض على قادة هذه الدولة الاستفادة منها لحفظ كيانها ومكانتها بين الأمم الكبرى ولتستطيع تقديم تضامنها الفعلي مع الشعوب الإسلامية الأخرى. لقد كتب سابقًا أيام هذه الحرب سنة 1912 عن المخاطر المحتملة والمهدّدة للدولة العثمانية من قبل الدول البلقانية لالتهام أراضيها وممتلكاتها، مع تحريض الدول الأوروبية الغربية تعصّبًا ضدّ الشرق الإسلامي(4).

إنّ تحليله السياسي لتطوّرات الأوضاع في البلدان البلقانية يكشف عن بعد رؤيته السياسية الدولية، من خلال الكشف عن المطامع الأوروبية في نسف البلاد العثمانية بالرغم من

---

(1) – صحيفة " الفاروق " بتاريخ: 2 ماي 1913.

(2) – " الفاروق " بتاريخ: 9 ماي 1913.

(3) – الصحيفة ذاتها: 2 ماي 1913.

(4) – مقال " بركان البلكان " – بصحيفة (الأخبار)- بتاريخ: 4 أكتوبر 1912.

محاولات احتواء هذه الحرب التي أشعلتها قال: [ ..إنّ الشهادة بيّنت أن كلّ دولة من الدول العظمى لها مآرب خصوصية ومطامع أشعبية في البلاد العثمانية وكلّ منهنّ تدّعي لنفسها حق إرث البلاد دون الأخرى ..] (1).

في سلسلة مقالات سياسية تحت عنوان " مصيبة تركيا في عدم الاعتبار: (عبرة عامة)، يعيد التذكير بما كتبه من نقد سياسي لما كان يقوم بتغطيه التطوّرات السياسية الداخلية والخارجية المتّصلة بالدولة العثمانية، وهذا بعد إعلان الدستور، كما ذكرنا، فها هو يعبّر صراحةً عن وجهة نظره إزاء مختلف القرارات المتخّذة بعد هذا الإعلان فيقول: " [ إن تركيا سلكت عقب إعلان الدستور مسلكًا منحرفًا عن جادة الصواب في سياستها الداخلية والخارجية ففئة منها تهوّرت في طلب التمدين العصري ومحاباة أوروبة بكلّ ما لديها من الشوق إلى المروق عن ثلّة الجامعة وطائفة أخرى تحاشت ذلك التهوّر وحاربته بإفراط، وهلم جرّا من مذاهب نشأت على أصول نخرة ... فجاء وقت ظهرت فيه جميع مساوئ الشرقيين وعللهم، فانفصمت عروة الجامعة .. فلم تلبث الأحزاب أن تناكرت والتهت عن الإصلاح ...] (2).

ويضيف بأن تشتّت مصالح الأجناس المكوّنة للدولة العثمانية مع تلاشي نفوذها من المجال الأوروبي أيقظ أحقاد البلقانيين وتمّ تسريع سياسة الاقتسام. ثم يذكّر في نصّ آخر بما كان قد كتبه من قبل في صحيفة " الحضارة " سنة 1912 داعيا إلى ترشيد السياسة العامة إزاء رعاياها: [ إنّ الوطن العثماني وطن اكتظت فيه الشعوب وتراكمت فيه الجماعات المتباينة في الغايات، والعدالة تقتضي إيجاد قسطاس مستقيم بين الجميع لإسعادهم دفعة واحدة وتتميم قوة الحاكمية العامّة بسعادتهم. وما كان ا ليذر الدولة كذلك تفعل ما تشاء ما لم يكن لها القصد الحسن أسلسة الشؤون وإدارة الأمور ..] (3).

وكان المقال المعنون بـ: " شظايا الإهمال تتطاير " يعكس كملامح الانهيار لهذه الدولة وتصاعد المطالب السياسية للشعوب المنضوية تحت لوائها، ومنها الشعوب العربية آنذاك في المشرق، كتب محلّلاً تلك الوضعية ومآل السياسة العثمانية : [ لقد لاحت مغبّة إهمال تركيا لإصلاح مواطنها وما تحمل من أهوال وكوارث وقد تطايرت شظاياه من كلّ جانب من البلقان من سوريا من أرمينيا، من بلاد العرب ومن جهة الدول الأوروبية أيضا.

(1) – مقال: " الحرب في البلكان " (أي البلقان) – الأخبار- بتاريخ: 25 أكتوبر 1912.

(2) – أنظر " الفاروق " بتاريخ: 9 ماي 1913.

(3) - الصحيفة ذاتها بتاريخ: 16 ماي 1913.

تراكمت تلك الشظايا والقطع الجهنمية ثم أخذت تتطاير بشعلة حرب طرابلس الغرب ثم الحرب البلقانية ... فازدحمت تلك الشظايا بتطايرها على الأستانة وبها حكومة مغفّلة مغرورة لم تتدّرب على الأمور ولم تدرس السياسة ...] [1].

وفي سلسلة مقالات تحت عنوان رمزي " ما أكل الثور الأحمر إلاّ لما أكل الثور الأبيض " كشف عن مطامع السياسة الأوروبية إزاء أراضي الدولة العثمانية وكيفية التعامل معها في سياق العلاقات الدولية آنذاك فكتب منبّها: [ ...لا يحسب الناس أن التظاهر الأوروبي بحفظ كيان المملكة العثمانية حُبّا لها وشفقة عليها بل حبّا لإبقاء الطقس السياسي والتوازن على حالتيهما لِئلا يقع انقلاب تذهب كارثته ببعض أوربا أو بكلّها. ولذلك نجدها ترضى إذا قيل لها يجب أن تتجزّأ بلاد العثمانيين على سكّانها المسيحيين كما جزّء طرف منها بفضل معاهدة برلين. ونجدها لا ترضى إذا رام أحد أجدائها كالنمس مثلا أن يلتهم طرفا ممّا يليه من الأملاك العثمانية ...] [2].

ووجدناه عبر مقال بعنوان " مستقبل تركيا: مشروع تقسيم آسيا العثمانية قد وُضع على مائدة السياسة يحلّل المشاريع الاستعمارية الغربية المراد تنفيذها، معتبرًا ذلك نتيجة استخفاف السياسيين العثمانيين، وانحرافهم عن السياسة الرشيدة، وهذا السلوك السياسي بذاته تنجرّ عنه عواقب وخيمة على الشعوب الإسلامية، حيث يسهل الأمر على السياسات الاستعمارية في بث الفوضى والدسائس في البلاد العربية، وإشعال الفتن السياسية. ثم يذكّر بمشاريع اقتسام النفوذ وتعاون الدول الكبرى كألمانيا، انجلترا وروسيا في ذلك [3].

كما أنّه في سنة 1913 مع اندلاع الحرب البلقانية الثانية، وفي مقال سياسي تحليلي، منطلقا من سياق انشغاله بالعالم الإسلامي، مرّة أخرى شكّلت الدولة العثمانية بمواقفها بؤرة اهتمامه هذا، متسائلاً عن الدول التي تدعو تركيا للدخول في الحرب أو الحياد التام. ورجّح أن تكون ألمانيا وراء دفعها لدخول هذه الحرب البلقانية الثانية بحيث تنبّأ في هذه الحالة بقيام " الحرب الأوروبية الكبرى " [4].

---

[1] – مقال: شظايا الإهمال تتطاير – بالفاروق – بتا: 23 ماي 1913.

[2] – أنظر (الفاروق) بتا: 9 ماي 1913 (عن الحضارة) العدد 77- 1329 هـ).

[3] – " مستقبل تركيا: مشروع تقسيم آسيا العثمانية ..." بالفاروق بتا: 16 ماي 1913.

[4] – " الحرب البلقانية الثانية "- أنظر (الفاروق) بتا: 11 جويلية 1913.

وكان من مظاهر الأزمة السياسية التي كانت تتخبّط فيها الدولة العثمانية جرّاء سياستها الداخلية التي انتقدها المفكر عمر بن قدور الجزائري هو انعقاد المؤتمر العربي في العاصمة الفرنسية، باريس سنة 1913، الذي دعا إلى إدخال جملة إصلاحات سياسية في البلاد العربية وطالب بامتيازات خاصة بالعرب في المشرق العربي في تسيير بلادهم. تحدّث مفكّرنا عن هذا المؤتمر الذي ترأسّه صديقه السيد عبد الحميد الزهراوي، مذكّرًا ببنود الاتّفاق الناتج عن أشغال هذا المؤتمر، والتي منها إرساء التعليم في جميع البلاد العربية باللغة العربية، والقبول مبدئيًا بالتعامل الرسمي باللغة العربية [1].

لكنّه رأى في نصّ آخر أنّ قرار إدراج اللغة العربية كلغة رسمية بعد اللغة التركية وتدريسها جاء متأخّرًا جرّاء الخلافات السياسية بين العرب والأتراك فها هو يعلّق قائلا: [ بعد ذلك الخذلان العظيم وبعد ذلك التباين المبين وبعد ذلك الشقاق بين العنصرين التركي والعربي انتبهت الحكومة العثمانية إلى قيمة اللغة العربية ... وقيمة الاعتناء بها – بعد أن اتّسع الخرق على الراقع – جعل اللغة العربية لغة رسمية بعد اللغة التركية وتدريسها في المدارس الابتدائية. وهل بعد اتّساع الخرق يتّسع الأمر على الراقع ؟ نسأل ا أن ينبّه المدارك إلى الصلاحيات النافعة للشرق ...] [2].

بقي مفكّرنا مهتّمًا بمصير الدولة العثمانية وبمواقفها حتى قيام الحرب العالمية الأولى. كان يرى أن الدول الأوروبية لا يمكن أن تتغاضى أو ترضى بعودة قوة هذه الدولة لمّا بدأت تسعى إلى تجديد قوّتها وإصلاح أوضاعها المحلية من الناحية السياسية والأخلاقية والاجتماعية، مستحسنا هذه التوجّهات [3].

وفي سياق هذه الحرب العالمية، رأى أن على تركيا أن تقف موقف الحياد، بعد أن دعتها ألمانيا للانضمام إلى جانبها. وموقف الحياد هذا يتماشى وموقف خِذلان ألمانيا وسلبيتها أمام تركيا إبّان أزمة البلقان [4]. إذن فلا ينبغي للعثمانيين أن ينخدعوا ويقعوا في شِراك الإغواءات الألمانية، فعارض صراحةً انضمام الدولة العثمانية للتحالف مع ألمانيا [5].

[1] - " الاتفاق بين تركيا والعرب "- الفاروق بتا: 1 أوت 1913.

[2] – في صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 9 ماي 1913.

[3] – بالفاروق – تاريخ: 20 يوليو 1914.

[4] – الصحيفة الفاروق بتاريخ: 18 سبتمبر 1914.

[5] – الصحيفة ذاتها بتاريخ: 27 نوفمبر 1914.

## - احتلال إيطاليا لليبيا " طرابلس للطرابلسيين "

من أهم المسائل السياسية التي استخلصناها في سياق تأكيد مفكّرنا لمبدأ الرابطة الإسلامية الرامي لتعزيز روح التضامن ما بين الأمم الإسلامية، مسألة الاحتلال الإيطالي لليبيا سنة 1911. ووجدناه يتناول ويتتبّع تطوّراتها عبر صحيفة (الأخبار) تحت عنوان ثابت هو: "الحرب في الشرق: بين العثمانية والإيطالية " متحدثًا أيضا عن الدسائس السياسيّة الأوروبية إزاء الدولة العثمانية من خلال هذه المسألة، ثم نوّه بجهود الأمير علي باشا نجل الأمير عبد القادر الجزائري الذي حلّ بليبيا ليقابل الإيطاليين حول شؤونها. وكان يتابع أخبار المقاومة هنالك التي كان يخوضها الشعب العربي المسلم تحت قيادة المجاهد سليمان الباروني وشيوخ السنوسية آنذاك [1].

وتحت عنوان السياسي والقومي " طرابلس للطرابلسيين " كان المفكر والصحافي عمر بن قدور الجزائري ينشر تباعا أخبار الحرب الدائرة في ليبيا في صحيفته (الفاروق) لدى صدورها مباشرة في شهر فيفري من سنة 1913. وكانت ترده تقارير صحفية من مصر، من مراسل (الفاروق) الخاص. مثال ذلك تقرير: حوادث خارجية: طرابلس للطرابلسيين، توالي هزايم الإيطاليين " ويكتب " جاءنا من مراسلنا بمصر ما يأتي [2].

وكان ينشر ما يتّصل بهذه المسألة وما يخدم القضية النضالية في العالم الإسلامي، مثلاً نشره لخطبة المجاهد الكبير الشيخ سليمان الباروني (1870 /1940) في هذا السياق، وقد التقى به في مدينة الجزائر سنة 1914 واصفًا إياه بالعلاّمة الكبير والمجاهد الهمام العظيم – بطرابلس الغرب – بطل الجبل الغربي " ووجده صورة من الغيرة الإسلامية والنعرة القومية والنخوة الوطنية. وكان مفكّرنا من خلال هذا الانشغال بواقع معاناة الشعب الليبي يستقي من دوريات أخرى، أو ينشر نصوصًا سياسية بأسماء مستعارة مثال ذلك مقال: " خبايا فضائع الاحتلال الإيطالي بطرابلس الغرب " للحاج المختار أبو هدرة ( من أصل جزائري) مقيم بتونس.

إلاّ أنّ اهتمامه بهذه القضية وتحليل مختلف أبعادها السياسية في إطار مبدأ التضامن الإسلامي قد بدا لنا جليا في كتاباته في صحيفة (الحضارة) الصادرة بتركيا، حسبما اتّضح لنا من مقتطفات المقالات التي أعاد نشرها في صحيفته (الفاروق).

[1] – أنظر صحيفة " الأخبار " لشهر ديسمبر 1911 وشهر ماي، أوت ديسمبر من سنة 1912.

[2] – أنظر مثلا: "الفاروق " بتاريخ: 28 فيفري + 28 مارس من سنة 1913.

فبالنسبة إليه، تعتبر هذه القضية كتنازل سياسي وخيم النتائج والتداعيات على الحكّام العثمانيين. نظرًا لموقفهم السلبي والمتخاذل إزاء هذا البلد، أي ليبيا، الذي كان خاضعا لإدارتهم، لكنّهم، حسبه باعوه لإيطاليا. والفقرة التالية في الحقيقة تعبّر عن هذا الموقف، حيث كتب: [فالواجب أن لا تنسى، مَن أسلم ضعيفا لقوي يفتك به فإنّ الفتك سيلحقه بأفظع صورة ولو بعد حين، من حيث لا يدري أنّه مفتوك أو مقتول ...] [1].

إنّ قراءته السياسية لمسار الأحداث المحيطة بليبيا، تظهر مدى وعيه وقدرته على استشراف التداعيات الخطيرة فها هو يذكّر بما كتب حتى قبل إعلان في شأنها بين تركيا وإيطاليا: " وهناك مسألة طرابلس الغرب تريد إيطاليا أن تثيرها وتشير عليها صحفها أن تستعّد لإمتلاكها. ما شاء ا كان !.

لو تسمح أوبه لإيطاليا أن تمتلك هذه القطعة العثمانية وتمخر بواخرها الحربية والنقالة إلى ثغورها فمن أي طريق تواصل المدافعة عنها والبحر مرصوص بالمنشآت الإيطالية ؟ أليست مصر هي الطريق الوحيدة ؟ نعم هي الطريق الوحيدة ولكن " قد أكلت " وعلى هذا فالخلاصة أن الثور الأحمر ما أكل إلا لمّا أكل الثور الأبيض " [2].

وفي نصّ آخر اعتبر السيادة العثمانية في خطر، إذا لم يظهر مسؤولوها التضامن الفعلي مع نضال الشعوب في ليبيا، فقال مخاطبًا إيّاهم: " إن خذلتم طرابلس الغرب تيقّنوا أن لا بقاء لسيادتكم على العالم الإسلامي إلا قليلا ثم تذهب أثرًا بعد عين. وإذ ذاك تتمخّض الأيام بالويل الشديد على الإسلام وبنيه " [3].

وحينما لاحظ تراخي الإرادة السياسية العثمانية في اتخاذ الموقف الفاعل والمؤثر لصالح هذا الوطن الليبي كتب في مقالٍ سياسي موجّه إليها تحت عنوان " ليتقوا ا في طرابلس ": [ إنّا لم نسمع بعد أنّكم بحثتم عن الوسايل التي تنقذون بها الجزء العثماني (أي طرابلس) من بين أنياب إيطاليا، بل سمعنا أنّكم تبحثون عن شخصيات ومسايل أخرى معقّدة كذنب الضب لا تفيدكم قطميرا فتريدون أن تسدّوا بها آذانكم عن صراخ المجاهدين في طرابلس المتصاعد إلى عنان السماء ...].

---

[1] – في مقاله: " ما أكل الثور الأحمر إلا لما أكل الثور الأبيض " نشره سابقا في " الحضارة " عدد 77- شوال 1329 هـ)– (الفاروق)- بتاريخ: 23 مارس 1914.

[2] – أنظر صحيفة ( الفاروق) بتاريخ: 9 ماي 1913.

[3] – المصدر ذاته (لكن عن صحيفة الحضارة – ع: 79- 19 شوال 1329 هـ).

وفي ثنايا هذا النصّ نبّه إلى السياسة الانهزامية أو الغدر المسمّاة بالصّلح فلقد وجدها سياسة غامضة فيما يخصّ مستقبل ليبيا السياسي. ورأيه هذا نابع ويعبّر عمّن تمرّس بحكم الأجنبي المستعمِر وعاناه، أي تعامل الاحتلال الفرنسي مع الشعب الجزائري. فكتب قائلا مستبقًا الحلول السياسية الانهزامية: [ إن ضياع طرابلس الغرب وبرقة إذا أُمضي عليه في عقد الصلح ولو تنويها أو تلويحًا فإن الشرق يضيع ألبتة ... وتضحى أبواب الرجاء وقد ارتجت " [1].

## -المسألة المراكشية (المغرب الأقصى) والاستعمار الأوروبي

كشفت دراستنا أيضا اهتمامًا سياسيًا من الناحية الإعلامية لمفكّرنا بمسألة الأطماع الاستعمارية الأوروبية في المغرب الأقصى. فبالتزامن تقريبًا مع تطوّرات أحداث الاحتلال والمقاومة في ليبيا، برزت إلى الساحة السياسية الإسلامية قضية أخرى عكست لدى عمر بن قدور الجزائري انهيارًا سياسيًا آخر في الكيان القومي للعالم الإسلامي. وهكذا ما بين 1911 و1912 خصوصًا سوف يعمل على التحليل السياسي والمتابعة الإعلامية بالأخبار المتّصلة بهذه المسألة، خاصّة عبر صحيفة " الأخبار "، وصحيفة " الحضارة ". وكانت صحيفة " المشير " التونسية تعيد نشر ما كان يكتبه في " الحضارة " [2]. ومن العناوين الصحافية أو الأركان الثابتة لهذا الغرض، وجدنا على سبيل المثال: " الساعة الهائلة في مراكش "، " مراكش بين الفوضى والسياسة "، " نصب الحماية الفرنسية على بلاد المغرب الأقصى "، " الأحوال في البلاد المغربية " " فاس: وصلاحية البلاد المراكشية للنمو في ظلّ الحماية الفرنسية ".

وكم كان تأثّره الوجداني وتحسّره على مآل تطوّرات الأحداث السياسية كبيرًا، حينما عاصر مرّة أخرى اندحارًا وسقوطًا سياسيًا آخر مسّ جسم العالم الإسلامي بما حدث في البلاد المراكشية، أي المغرب الأقصى.

ورأى في الحدث صورة من صور حكمة مبادئ السّنن الكونية التي طالما نبّه إليها في نظرته التي أوضحناها في البعد الفكري العقائدي. فهي تفسّر جزء من نهوض وسقوط الأمم على مدار الحقب التاريخية، فكتب لما اضطربت الأوضاع الداخلية في هذا البلد، ولاح التدخّل الأجنبي الأوروبي بقوة، مهدّدًا استقلال شعبه: " حكمت سنّة الكون – ولا معقّب لحكمها – أن يكون للضعفاء في هذا العصر رمس أبدي تدفعهم إليه أيد قوية متسلّطة – لا تبرح أن تضربهم

---

[1] – أنظر صحيفة (الفاروق) بتاريخ: 16 ماي 1913 عن "الحضارة " عدد: 132 – 7 ذي القعدة 1330).

[2] – وكان في الوقت ذاته مراسلاً لـ" المشير " التونسية سنة 1911 من الجزائر.

ضربة قاسية عندها القاضية. وهذه البلاد المراكشية بعد أن قضت أمدًا طويلاً تتحرك فيه بين ظروف حرجة أوشكت أن تقع فيما وقع فيه زملاؤها من الضعفاء، من الرّضوخ إلى نير المدنية العصرية والنزوع إلى السكون الأبدي شأن مَن يَعْبث ببنود سنن الكون ويركز إلى مطارحة الكسل ... أراد ا أن يقضي على هذه البلاد لكونها خلقت وعتت واستكبرت وظنّت في الأيام غفلة لا تدمها ... ولهذا اشتّد بأسـها على نفسها وحـاربت بعضـها حُروبًا تشـيب لها الولدان ...] [1].

بالرّغم من أنّ مفكّرنا في هذا النّص الذي عنونه ب، " الساعة الهائلة في مراكش " المنشور في صحيفة " الأخبار " الصادرة بالجزائر، لم يبد بوضوح موقفه إلاّ أنّنا نلمس لديه توقّع حدوث نتائج وخيمة لاستعانة سلطان المغرب الأقصى آنذاك بالقوات العسكرية الفرنسية قصد قمع الثورات الداخلية من جهة مناطق معيّنة يسكنها البربر الأمازيغ. فكان يرى تدخّلاً بشيء باحتلال البلاد فكتب معلّقا على الأنباء الواردة لديه: [ وسيفيدنا البرق بما يقع ولاسيما وأنّ العساكر الفرنسوية تتقدّم نحو العاصمة لتحتلّها وترغم أهلها على السكون الأبدي الذي لا ثورة بعده ] [2].

لكن توضّح لي، بأن الموقف الواضح من هذه المسألة، برز بقوة في نصّ صحافي آخر نشره خارج الجزائر بصحيفة (الحضارة) الصادرة بتركيا مقدّما رؤيته السياسية التحليلية في سياق الروح التضامنية التي خطّها لقلمه التنويري والإصلاحي المعبّر عن الرابطة الإسلامية التي تعكس تفعيل الهوية القومية وحفظ الكيان الذاتي للشعوب الإسلامية. ففي هذا النصّ يحال إنعكاسات السياسة الاستبدادية للسلطة الحاكمة (المخزن) في بلاد المغرب الأقصى، والتي أسهمت بشكل ما في فتح أبواب لمطامع الاستعمار الأوروبي، من خلال دولتي إسبانيا وفرنسا. وأشار إلى أن ضعف التماسك الداخلي ما بين السلطة والشعب عائد إلى أسباب منها انتشار المظالم كتب: [ إذا بحث الإنسان عن السبب في هذا التقاطع الموجود بين المخزن والأمّة يجد الظلم هو السبب الوحيد له ...] [3].

وظهر لنا أن نقده للسلطة الحاكمة كان عنيفًا، فاعتبر الحروب المعلنة ضدّ الرعية تحتوي على أعمال دنيئة تدلّ على افتقاد للعاطفة الوطنية والدينية معًا. واعتبر أن لمراكش

---

(1) – أنظر صحيفة " الأخبار " بتاريخ: 13 أفريل 1911.

(2) – في المصدر نفسه.

(3) – أنظر جريدة " المشير " التونسية بتا: 14 ماي 1911 (عن صحيفة الحضارة).

حكومة مستبدّة تتلقّى الأوامر من شخص السلطان، ثم تحدّث عن الفساد والعبث بمصالح الشعب من قبل المسؤولين الكبار، حتى وقعت البلاد في فوضى جاهلية.

ثم انتقد سياسة فرنسا وأغراضها الاستعمارية بالمغرب الأقصى، مبيّنا الظروف التي ساعدتها حتى تبسط نفوذها هنالك وتعمل على احتلال نقاط مهمّة في شرق البلاد وغربها، ثم تساءل عن مصير السلطة الحاكمة وتصرّف فرنسا إزاءها، خاصّة وأنّ التذمّر والغليان في أوجهما لدى أوساط الشعب والجنود، بعدما رأوا أنّ السلطان قد وهب البلاد للإفرنج، وألقى مقاليد القيادة العسكرية لضباط فرنسيين.

أما الاستعمار الاسباني، فهو في رأيه صورة للتعصّب، لأنّه يسعى إلى مدّ ظلّ الدين المسيحي في أقطار الرّيف الإسلامي المغربي حتى يُقيم فيه ويُنشئ كنائس للرهبان والمبشّرين. لكن في نفس الوقت أشار إلى المقاومة الباسلة لسكان تلك المنطقة مع اعتباره لحرب الريف حربًا غير شرعية وإسبانيا هي المتسبّبة فيها قصد سلب الريفيين ثرواتهم وبلادهم [1].

ثمّ يحذّر فرنسا الاستعمارية بما قد تقوم به في المغرب الأقصى، مذكّرًا إياها بسياستها الاستعمارية في الجزائر، التي عرفت الإخفاق عبر ما سمّاه الحاكم الفرنسـي الاستعماري "جونار " بسياسة " فتح القلوب " أو سياسة " المشاركة. فقال: [ إن فرنسا منذ دخلت شمال إفريقيا لم تملك من البلاد إلاّ التراب ولم تستحوذ قط على الألباب ... هذه مراكش أمامهم يفكّرون فيها فليعلموا أنّ مفتاح التفكّر فيـها مدفـون في أعمـاق قلوب مسـلمي الجـزائر وتونس ...] [2].

---

(1) – أنظر المصدر نفسه.

(2) – في المصدر السابق نفسه.

## خلاصة الفصل

لقد حاولنا في هذا الفصل المتّصل بالبعد الفكري السياسي لمفكّرنا عمر بن قدور الجزائري أن نرصد أهم الخطوط الفكرية التي تشكّل في الأصل جزء من قناعاته الإصلاحية، ولكن في ظل بيئة استعمارية، تجعل طبيعة الممارسة الإعلامية في جانبها السياسي جدّ ضيّق. وهو الذي تحدّث عن طبيعة الضغوط التي يتعرّض لها المثقّفون المتنوّرون من جهة سلطة استبداد الحكومات. ورأينا كيف أنّه رأى أن الصحافي الوطني أحد هؤلاء المثقّفين الذين يجابهون تيارات معارضة من بني جلدتهم، زيادة على الاصطدام بالسلطة الاستعمارية. بالرغم من ذلك فقد لاحظنا تقديمه لتوصيف نقدي سياسي لواقع البيئة التي عاشها وعايشها من خلال مختلف نصوصه الصحافية فبداية من سنة 1907 أصبحت مسألة التعليم مطلبًا اجتماعيا سياسيًا بالنسبة إليه، وكان يتحدّث أحيانًا باسم الشبيبة الوطنية الجزائرية، وهو يخاطب الإدارة الاستعمارية، بالرغم من احتياطه خوض غمار عالم السياسة. إلاّ أن مفهومه للصحف الإصلاحية يتضمّن هذا البعد السياسي حتى أنّ التيار التغريبي الاندماجي قد وجّه له تهمة النشاط السياسي والانتماء لتيار الجامعة الإسلامية، لكنّه ردّه كان تعبيرًا عن استقلاليته الفكرية وعدم انتمائه لأيّ حزب سياسي وصورةً عن خطّه الافتتاحي السياسي المعزّز للصبغة الإسلامية للهوية الجزائرية المتميّزة عن هويّة الأمّة الفرنسية، محاربًا " دعاة الاندماج " المتعصّبين من حزب المعمّرين مع محاولة عدم الخضوع لضغوط سياسة الاستعمار الفرنسي المسيطر على الجزائر.

توصّلنا في المبحث الأول المتصل بالقضايا السياسية الداخلية، نقده لهذه السياسة من خلال تسيير مسألة الأوقاف الإسلامية في الجزائر، حينما تناولها بالتحليل ابتداء من سنة 1907، حاثًا النخب الجزائرية الوطنية على التحرّك للحفاظ على هذه المؤسّسة الدينية الاجتماعية. مع دعوته للإبقاء على هذه المؤسسة كهيأة مستقلّة عن الإدارة الاستعمارية، نظرًا لما كان يراه فيها من تعزيز لحركية النهوض والإصلاح للشعب الجزائري. خاصة وأنه اعتبر تدهور الحالة العلمية بالجزائر زاده تفاقمًا اضمحلال هذه المؤسسة جرّاء الاستيلاء عليها من قبل هذه الإدارة.

ثم حاولنا إعطاء مثال واضح لموقفه السياسي من هذه الإدارة الاستعمارية عبر تقديم قراءته النقدية السياسية لمسار الحاكم الاستعماري العام للجزائر وهو جونار (Jonnart) خاصة

عندما قدّم استقالته سنة 1911. فاعتبر سياسته المعروفة آنذاك بـ" فتح القلوب الأهلية " خطّة خيالية، حينما حاولت المزاوجة ما بين مصالح الجزائريين والأجانب المعمّرين، وهي التي أطلق عليها اسم: سياسة المشاركة. فاعتبرها غير فعّالة، خاصة وأن حقوق الجزائريين بقيت متضرّرة، في حين أن الأجانب الدخلاء كانوا يتمتّعون بمزايا سياسية وحقوق أخرى على حساب الجزائريين. ثم أعلن إخفاق السياسة الاستعمارية في الجزائر، التي لم تملك من البلاد إلاّ التراب ولم تستحوذ على القلوب ولم يكن ثمّة أثر للتمدين.

كما عملنا على توضيح موقفه من مسألة هجرة الجزائريين لبلادهم وموقفه الرافض للتجنيد الإجباري لهم في الجيش الفرنسي من منطلق الحفاظ على قومية هوية الأمّة الجزائرية الإسلامية.

فرأى أنّه من الناحية السياسية، يكمن الدافع الأساسي للهجرة في مظالم السياسة الاستعمارية التي أصابت الجزائريين، مع الضرائب المفروضة عليهم والاستيلاء على أراضيهم، زيادة على انتشار الفقر والبؤس في أوساطهم.

كما شكّل مشروع التجنيد الإجباري سببا مهمّا في تنامي هذه الظاهرة ابتداء من سنة 1908، واعتبرها مفكّرنا كشكل من أشكال المقاومة له. كان أحد نصوصه المعنونة بـ: "الرفض الأخير لمشروع التجنيد الجزائري " قد قرّر بجلاء فكرته السياسية المناهضة له، مع تنويهه بموقف صديقه الإمام عبد الحليم بن سماية، وتنديده بموقف الإندماجيين التغريبيين، وهذا سنة 1911.

فمن الناحية السياسية اعتبرنا هذا الموقف أيضا نوعًا من التأصيل لهوية الأمّة الجزائرية المتميّزة عن الأمّة الفرنسية. وحاولنا تحديد عبر مختلف نتاجاته الصحافية الملامح الفكرية لهذه الهوية، التي كانت تتعرّض لعملية التذويب والتفكيك عبر سياسات وإجراءات مختلفة، من خلال التجنيد الإجباري وسياسة التجنيس بالجنسية الفرنسية أو السياسة التعليمية. لقد اعتبر مسألة التجنيد مسألة دين وقومية من جميع الوجوه. وفي مسألة رفض الاندماج السياسي والثقافي يؤكّد مرّة أخرى، أنّ الأمّة الجزائرية حيّة بذاتها وبهويّتها وأنّ لديها ما لدى الأمم السابقة من قابلية للترقّي والتقدّم فقال سنة 1911: [ إنا قوم لنا قومية عروتها متينة وملّة قيمتها ثمينة ... فما لنا من رغبة في الاندماج بفرنسة ولا بغيرها من الأجناس ...] وقال أيضا سنة 1911 [ ... إنّ الاندماج الجنسي قد يضّر بهيئة القوم الملّية ... إنّ المسلمين مسلمون قبل كلّ شيء ...].

وبقي مناهضًا للاندماج، كما لاحظناه، إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى. واعتبر المكوّن الروحي الخاص بالقيم الإسلامية هو المعوّل عليه في تأصيل هويّة الأمّة الجزائرية.

إضافة إلى هذا وابتداء من سنة 1906، أصبح مفهوم " الوطنية " يشكّل رافدًا أساسيًا في التوجّه الهوياتي لهذه الأمّة، حيث تحدّث عن الدور الوطني للصحافة في سبيل النهوض بالوطن. وفي نصوص أخرى اعتبر أنّ الوطنية الحقّة والشعور الوطني لحياة الشعب الجزائري، هي تلك الجهود المجسّدة فِعليًا لـ "معالم الوطنية " أي كلّ المؤسّسات الاجتماعية والحضارية العاملة في سبيل بقائه ونهوضه. واعتبر أن مستقبل هذا الشعب منوط بجهود شبّان الوطنية الجزائرية.

واعتبر التاريخ أحد المقوّمات التي تدعّم الهوية الوطنية وهو رهان فكري لتنمية الشعور بها، دون أن يتغاضى عن دور الفنون الثقافية كالشعر والمسرح في ترقية هذا الشعور، وتعزيز المرجعية اللغوية العربية أيضا، من خلالها وعبر وسائل أخرى كالصحافة والتعليم.

كما توصّلنا إلى الكشف عن مكوّن آخر لهوية الأمّة الجزائرية، أصبح يوظّفه بشكل مكثّف بعد مفهوم " الوطنية " ألا وهو: " القومية الإسلامية ". كان العامل الديني من أهم مرتكزاته، لأنّه شكّل رافدًا للنضال والمقاومة الجزائرية ضدّ الغزو الاستعماري الفرنسي. هذه القومية الإسلامية لها بعد تاريخي وتتّسم بالطابع الروحي الذي يطبع ويحتوي العنصر العرقي، وينبغي إعادة الارتباط بالماضي الحضاري للأسلاف وإعادة التواصل معه ومعرفة أسباب الانقطاع، مع أبعاد تلك الهوية التي يسعى الاحتلال الأجنبي لتفكيكها.

كما أنّ الاهتمام بالرموز الوطنية للنضال بمختلف أشكاله من شأنه خدمة هذا البعد الهوياتي للأمّة الجزائرية. لهذا وجدناه ينوّه بالشخصيات التالية: الأمير عبد القادر، محمد السعيد بن زكري، محمّد اطفيش، عبد القادر المجاوي، وبعبد الحميد بن باديس والأمير خالد.

وتجاوبًا مع هذا البعد الهوياتي وبرهانه السياسي بالنسبة للأمّة الجزائرية، فإنّنا كشفنا عبر دراستنا هذه امتداد الانشغال الفكري السياسي لعمر بن قدور الجزائري بقضايا العالم الإسلامي. هذا الانشغال الذي يعكس الترابط الوجداني والتأثّر بالتحوّلات السياسية وبالمجابهات الخارجية للعالم الإسلامي مع مطامع الدول الغربية وخططها الاستعمارية.

فالممارسة الإعلامية له تقدّم رؤية سياسية تتسّم بالاعتزاز بالانتماء الحضاري والتاريخي لهذا العالم باسم القومية الإسلامية تارة، وباسم الوحدة الإسلامية تارة أخرى. مبدأ الوحدة الإسلامية الذي كان يقصد به التضامن في الإحساسات الروحية النابعة من المبدأ العقائدي

للتوحيد، الذي يعتقده جميع المسلمين. من هنا حاول استخراج أهم القضايا السياسية والأفكار السياسية التنويرية في سياق المفهوم الذي وظّفه بصفة مكثّفة، عبر نصوصه الصحافية الذي هو: " الرابطة الإسلامية ". وهو من المحاور الفكرية العاملة على تعميق وتأصيل هويّة الأمّة الإسلامية والعمل من أجل بقائها بين الأمم الأخرى. والخروج بها من وهدة السقوط السياسي. لكن ما لاحظته من خلال عملية التحليل أنّه كان من جهة أخرى تجنّبه التوظيف المكثّف لمفهوم " الجامعة الإسلامية " الذي يحمل تقريبًا نفس الحمولة الدلالية لديه، في توظيفه فيما بعد لمفهوم "الرابطة الإسلامية " . وٌد أوضحنا تفسيرنا لهذه المسألة، المتصلة بالأبعاد السياسية والإعلامية المضخمة لخطورة تيار "الجامعة الإسلامية ". حتى أنّه هو بذاته تعرّض لتهمة الانتماء له والنشاط سياسي ضدّ الوجود الاستعماري الفرنسي بالجزائر.

إنّ التصوّر الفكري الذي وضعه في مقاربته لمبدأ الرابطة الإسلامية مبني أيضا على استحضاره للمرجعية التاريخية إضافة للعقائدية ويحاول ربطه بالواقع الراهن متسائلا ونافيًا وجود قيمة واقعية لهذه الرابطة، بسبب معاناة الشعوب الإسلامية وبروز السلوك اللاتضامني من الناحية السياسية فيما بينها، في مواجهة الغرب الاستعماري.

وشكّل النموذج التركي بالنسبة إليه، ملمحا من ملامح التخاذل الذي أدّى إلى كوارث سياسية، نتج عنها التنازل عن ممتلكات الدولة العثمانية.

وتعدّ المسائل السياسية المتصّلة بواقع انهيار الدولة العثمانية بمختلف تداعياتها ومسألة احتلال طرابلس الغرب (أي ليبيا) ومسألة الاحتلال الأوروبي، الفرنسي والإسباني للمغرب الأقصى (مراكش آنذاك) أهم النقاط التي استخلصناها في سياق مفهوم الرابطة الإسلامية، المجسّدة للتضامن ما بين دول العالم الإسلامي.

# الخاتـــمة

## الخاتمة

توصّلت دراستنا هذه إلى تأكيد حقيقة تاريخية وفكرية في آنٍ واحد، وهي تبلور الممارسة الإصلاحية والتنويرية بشكل واضح من خلال النتاج الصحافي للمفكر والصحفي عمر بن قدور الجزائري، وهذا منذ البدايات الأولى للقرن العشرين، أو بالتحديد بظهور أولى كتاباته الصحافية في الجزائر بداية من سنة 1906 عبر صحيفة "الهلال" . إنّ الكشف التحليلي الذي قمنا به أمكننا من إثبات الإسهام الفكري والعملي لهذه الشخصية الجزائرية الفذّة في أسبقية الطرح الإصلاحي والتنويري على المستوى الجزائري، وفي دوره البارز في معالجة العديد من قضايا إشكاليات النهضة والتنوير على المستوى العربي – الإسلامي.

وإذا كانت دراستنا قد أشارت بشكل خاص إلى أهمّية تطعيم وإثراء مرجعيتنا الفكرية المعاصرة بهذا الرافد الرائد والأصيل لمفكرّنا، فإنّ محاولة تتبعّنا لمسار حياته وأفكاره عبر ممارسته الصحافية بالدرجة الأولى، ثم ممارسته التعليمية، تقدّم صورة عن عمر بن قدور، المفكر النهضوي الجزائري الحامل فعلاً لمشروع تنويري إصلاحي، إنطلاقًا من بيئة جزائرية، كانت ترزح تحت نير منظومة استعمارية فرنسية قاسية. جعلت من مجال التعبير الإعلامي باللغة العربية جدّ ضيق ومعرّضًا للتعسّف. من هنا تأكيدنا على عدم إهمال الخصوصية القانونية للممارسة الصحافية إبّان تلك الفترة، بحيث رأينا كيف أنّه هو بالذّات، ردّ على الانتقادات التي كانت تنشر في الصحف المشرقية فيما يخصّ الاهتمام الذي يوليه الجزائريون سواءً تعلّق الأمر بقراءة الصحف أو بمحاولات إصدارها، منتقدًا جهل تلك الصحف العربية بالواقع السياسي الاستعماري للجزائر. وألمحنا إلى ندائه لمواجهة مختلف ممارسات التعسّف ضد الصحافة العربية أينما كانت، بضرورة إنشاء نقابة صحافية ذات بعد إقليمي عربي – إسلامي ابتداء من سنة 1911 والذي يعكس وعيه بخطورة الممارسة الصحافية بالجزائر، وبالمهام المنوطة بالمؤسسة الصحفية ذات الأبعاد الحضارية النهضوية والتنويرية. وبالتالي فإنّنا كشفنا في بحثنا هذا إعادة طرح فكرة النقابة الصحافية فيما بعد، على المستوى الجزائري سنة 1928. لكن كان من متطلّبات دراستنا لهذه الشخصية التنويرية، إيجاد معطيات حياتية تخصّ البيئة الاجتماعية والفكرية، التي نشأ فيها، لفهم بعض ملامحه الذهنية والثقافية المساعدة في تفسير المنحى النضالي الصحافي والإصلاحي الذي اختاره.

وهكذا فإن المعلومات الجديدة التي قدّمناها، بيّنت تأثير البيئة الأسرية على عمر بن قدور الجزائري، الذي نشأ وتعلّم في مدينة الجزائر. هذه البيئة مكنته من أن يكون في تواصل مع

مؤسسة دينية ثقافية هي المسجد، وبالتّالي يتواصل مع روّاد إصلاحيين أمثال الإمام محمد السعيد بن زكري (1850- 1914).

كما كشفت دراستنا عن أحد أهم أساتذته المباشرين، المؤثّرين فيه في الميدان التكوين التعليمي والثقافي، وهو الإمام المصلح عبد القادر المجاوي (1848- 1914) والذي أعتبرهُ أستاذ الجماعة في الجزائر. إنّ البيئة التي نشأ فيها لم تكن فراغًا، وإنّما استطاع أن يستفيد منها وينمّي إحساساته وانشغاله بمأساة الشعب الجزائري وانحطاط العالم الإسلامي في تلك الفترة، حتّى قبل اشتغاله في عالم الصحافة. وهو الذي كتب في سنة 1910: " ومنذ وقت قضيته قبل ما برز قلمي بين الأقلام كنتُ أشعـر بسقوط المسلمين ...". من هنا كان مسار حياته متّصلاً إتصالاً وثيقًا بممارسته الصحافية التي جعل منها رسالة فكرية انطلاقا من قناعته العقائدية ومهمّة تنويرية لخدمة الشعب الجزائري والأمّة الإسلامية.

هذه الممارسة التي توصّلنا حسب بحثنا إلى تحديد بدايتها في مدينة الجزائر سنة 1906 عبر تحريره في الصفحة العربية لجريدة الهلال التي صدرت في تلك السنة، وكان عمره آنذاك 20 (عشرين) سنة، لأنّه ولد سنة 1886. وظهر اسمه أوّل مرة فيها في 1 ديسمبر 1906. وبهذه الصحيفة يتعرّض لأوّل اعتقال من طرف إدارة الحكومة الاستعمارية سنة 1907، وأكّدنا في هذا السياق التاريخي إمكانية كونه أوّل صحافي جزائري جرى اعتقاله لمشاركته وإسهامه الإعلامي، إبّان الفترة الاستعمارية. وكان يراسل آنذاك (أي سنة 1906) إحدى كبريات الصحف في العالم العربي وهي جريدة (اللّواء) المصرية لصاحبها الزعيم الوطني والسياسي مصطـفى كامل (المتوفي سنة 1908) والتي سوف يتوقّف عن مراسلته لها لضغوط سياسية من قبل الحاكم العام الاستعماري في الجزائر.

هذا الاصطدام المبكّر بتعسّف الإدارة الاستعمارية، جعلنا نعتبره أحد أسباب مغادرته الجزائر ليستقّر مدّة بتونس حيث ساهم في التحرير بصحيفة " الحقيقة " التونسية سنة 1907. الإقامة هنالك مكنّته من التواصل مع النخبة التونسية الصحافية والنهضوية الناشئة، التي سوف يؤكّدها بمراسلته لصحف تونسية أمثال " التقدّم " (1908) والمشير (1911)، وذلك بعد عودته للجزائر وإشرافه على القسم العربي لصحيفة " الأخبار " سنة 1908. إلاّ أنّه توقف عن هذا الإشراف وعن مراسلاته في نهاية هذه السنة، ولغاية بداية سنة 1910 رجّحنا من الناحية التاريخية، إلتحاقه بمصر، وإقامته لعلاقات صداقة وفكر مع مثقفين نهضويين وتنويريين عرب

سوريين على الخصوص أمثال الشيخ رشيد رضا تلميذ الإمام محمد عبده، والمثقّف المصلح عبد الحميد الزهراوي (1855-1916).

بداية سنة 1910، تشكّل انطلاقة حقيقية أخرى، لنشاط صحافي إصلاحي وتنويري ثريّ. حيث عاد إلى جريدة " الأخبار "الصادرة بالجزائر، وحيث سيتولى الإشراف على القسم العربي منها رسميًا في نهاية شهر جويلية من هذه السنة، حيث يمتدّ ويتواصل إشرافه لغاية سنة 1914 مع بدايات الحرب العالمية الأولى. وبالتوازي مع هذا ابتداء من سنة 1910 يراسل ويكاتب صحيفة " الحضارة " الصادرة بتركيا لصديقه عبد الحميد الزهراوي.

ويتوصّل في بداية سنة 1913 من تجسيد أحد أهم هواجسه وانشغالاته الإصلاحية والتنويرية، وهو إصداره لصحيفته "الفاروق ". هو الذي كان يعتبر أنّ الساحة الإعلامية الجزائرية آنذاك، كانت خالية فعليًا من صحافة وطنية جزائرية حقيقية. وبالرّغم من تحديده لسياسته التحريرية، واعتبار صحيفته، تمثّل التوجّه الاعتدالي، بابتعادها عن عالم السياسة، حتى يكون بمنآى عن الضغوط الإدارية الاستعمارية، وعن التأويل السياسي الذي قد يقدّم لما يرد في نتاجاته الصحافية، إلاّ أنّه سوف يصطدم بتيار ناشئ في الوسط الجزائري، يمثّل التغريب والاندماج، يعاكس توجّهه التنويري والإصلاحي، القائم على المبدأ القرآني، الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والتأكيد على الهوية الإسلامية للأمّة الجزائرية. ممّا كان يستدعي منه الردّ على مختلف الاتهامات السياسية والتحريضية ضدّه. وممّا ذكرناه قوله بـ(الفاروق) سنة 1913: " ... إنّنا جزائريو الأصل والمولد والمنشأ وكلّ من عرفنا منذ نشأتنا يتحقّق أنّنا لسنا من الذين يتوغّلون في المضايق السياسية والأحزاب، بل إنّ فكرتنا يعرفها كلّ مَن اطّلع على كتابتنا سواء في جريدة " الأخبار " أو في الجرايد التونسية أو في الجرايد المصرية أو جريدة " الحضارة " بالأستانة وهي تحتوي على معنى واحد وهو خدمة الدين الإسلامي والعمل على إصلاحه، وتهيئة أهله لفهم حقيقته، لأن المسلمين لا تفيدهم السياسة المجرّدة عن الدين في شيءٍ أبدًا ولا يحصل لهم فهم سياسة الدين إلاّ إذا فهموا حقيقته الأخلاقية والاجتماعية وعلى هذا المحور كنّا ولازلنا نكره ونحارب الجامدين أي متّبعي القديم من قومنا والمغالين في التفرنج وأتباع الجديد منهم إلى درجة الإلحاد ومبغضي المسلمين من حزب الاستعمار ونبرأ من كلّ شيء يمّس بشرف الإسلام ".

ودلّت تجربته الصحافية على مقدرة مهنية كبيرة، خاصة وأنّ تصنيعه لصحيفته (الفاروق) كان يعتمد بالدرجة الأولى على جهوده الفردية، لكن طموحه وثباته المبدئي

الإصلاحي جعله يعمل على تطويرها دومًا، ودون كلل، متخذًا العناية الربّانية سندًا عقائديًا لمواجهة مختلف التحدّيات، واستطاع أن يحوّل هذه الصحيفة إلى منبر إعلامي تنويري، بسبب الحركية الثقافية الإصلاحية والتجاوب الفكري والعملي للنّخب المثقفة داخل الجزائر وخارجها بشمال إفريقيا. وكشفت هذه الدراسة إنشغال المفكر والصحفي عمر بن قدور الجزائري سنة 1913، بهذا الوسيط الإعلامي، ليحوّل من جريدة أسبوعية إلى جريدة يومية تضارع الجرائد اليومية الكبرى، وبهذا يكون قد سبق الأمير خالد* في الطموح الإعلامي هذا. لكن بعد قيام الحرب العالمية الأولى بقليل، وفي نهاية جانفي من سنة 1915 أوقفت الإدارة الاستعمارية صحيفته (الفاروق) وتمّ اعتقاله ونفيه إلى منطقة الأغواط العسكرية. وقدّمنا في دراستنا هذه، رأينا في الأسباب التي كانت وراء هذا الإيقاف، ثم الاعتقال والنفي مع الإقامة الجبرية لغاية نهاية هذه الحرب. لاشك كان العامل السياسي أبرزها، بفعل تحوّل المفكر عمر بن قدور بصحيفته (الفاروق) إلى مصدر قلق بالنسبة للوجود الاستعماري الفرنسي بالجزائر. فمواقفه الخارجية المتضامنة مع مستجدات القضايا السياسية للعالم العربي- الإسلامي كانت واضحة، خاصة في علاقتها بالاستعمار الأوروبي، في سياق ما يخدم مبدأ " الرابطة الإسلامية " كما كان يسمّيه. ثم دعوته لتركيا في الحياد خلال الحرب العالمية الأولى. والإدارة الاستعمارية المراقبة بشدة للصحافة الجزائرية الصادرة باللغة العربية، لم تنس مواقفه المعارضة للاندماج وللتجنيس والتجنيد الإجباري، وتأييده لمقاومة هذا التجنيد بالهجرة خارج الجزائر. ثم اتّهامه بالانتماء في الخفاء لتيار " الجامعة الإسلامية ". ثمّ إنّ مشروعه التنظيمي الهيكلي الاستراتيجي "جماعة التعارف الإسلامي لأهالي شمال إفريقيا " جاء ليؤكّد، بالنسبة للإدارة الاستعمارية، خاصة بعد التجاوب الذي حدث معه داخل الجزائر وخارجها، المخاطر التي قد تترتّب عن دور مفكّرنا.

كما أثبتت دراستنا أيضًا، بالتدليل العلمي، مواصلة الصحفي المفكر عمر بن قدور الجزائري للممارسة الصحافية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، سواء بإصداره للصحف " الصديق " (أوت 1920) أو للسلسلة الثانية من (الفاروق) (أكتوبر 1920)، أو بممارسته الصحافية في صحف كـ: " الإقدام " (1921 إلى 1923) أو " التقدّم " الجزائرية (1923-1924). ثم دعوته للكتابة من جديد في صحيفة " وادي ميزاب " سنة 1927. وكان بالموازاة، بداية من سنة 1923 قد انخرط في مسار إصلاحي آخر هو الممارسة التعليمية.

---

* - في سنة 192.... بدأ الأمير خالد حملة لتحويل صحيفته " الإقدام " إلى مشروع جريدة يومية.

حينما سئل أبو اليقظان (1888- 1973)، وهو أحد أبرز الصحافيين المناضلين في تاريخ الجزائر المعاصر، عن أكبر صحافي عرفه أجاب قائلا: " هو الأمير خالد صاحب الإقدام العربية- الفرنسية والسيد عمر بن قدور صاحب جريدة "الفاروق"، والشيخ عبد الحميد بن باديس صاحب مجلّة الشهاب "*.

توصّلنا في دراستنا هذه إلى إلقاء الضوء على جانب إصلاحي مهمّ، تمّ إغفاله أو تجاهله، له علاقة بالممارسة التعليمية. حيث المعلومات الجديدة التي كشفنا عنها تثبت من جهة عدم إنعزاله عن الحياة العامّة والعملية في هذا الميدان، أي ميدان الوظيفة الاجتماعية للإصلاح والتنوير. وهذا التحوّل إلى التّعليم بداية من سنة 1923، عكس ذلك الانشغال المبكّر لديه بأهمّية هذا القطاع، عبر دعوته لتأسيس جمعيات تربوية ثقافية تكون مهمّتها الأولى إنشاء مدارس حرّة، مستقلّة عن إدارة الحكومة الاستعمارية. وهي قناعة فكرية وعملية تجسّدت لديه عبر كتاباته الصحافية قبل حتى بداية الحرب العالمية الأولى بسنوات. وهكذا ستتشكّل بداية في مدينة الجزائر " جمعية الشبيبة التهذيبية الإسلامية الجزائرية " مع نهاية سنة 1921، كما أكّدنا ذلك في بحثنا، وكان هو أحد الأعضاء المؤسّسين لها. ثم تقوم هذه الجمعية بتأسيس أوّل مدرسة لها " مدرسة الشبيبة الإسلامية الجزائرية " في نهاية سنة 1923 بالجزائر العاصمة، وسوف يتولّى إدارتها والتدريس بها معًا إلى غاية استقالته سنة 1927. وكما كشفنا أيضا أنّه كان أوّل واضع للبرنامج الدراسي بها وكانت تستهدف وتسجّل في أقسامها البنين والبنات معًا، تجسيدًا آخر لخطّته التنويرية والتربوية في ضرورة تعليم المرأة الجزائرية. وبقي المفكر عمر بن قدور الجزائري يزاول رسالة التعليم، بعد مساهمته في تأسيس مدرسة أخرى بالعاصمة هي مدرسة " السلام "، وهذا إلى قبل وفاته بأشهر قليلة فقط، بعد إصابته بمرض عضال. وتوفي رحمه ا في شهر جانفي من سنة 1932. لقد بدأ صحفيا إصلاحيًا ومفكرًا تنويريًا وعمليًا ليتحوّل وينتهي مفكّرًا فاعلاً ومعلّمًا في ساحة النضال التربوي والنهضوي.

تمكّنا من خلال دراستنا إلى الكشف عن هذا التلازم أو التكامل ما بين المعالجة النّقدية للواقع الجزائري بصفة خاصة والواقع العربي الإسلامي بصفة عامّة والتصوّر الإصلاحي والتنويري لهذا الواقع، الذي قدّم توصيفه النقدي له، من خلال مختلف المساءلات الفكرية

* - أنظر: الزبير سيف الإسلام: تاريخ الصحافة في الجزائر – الجزء 6 -.
الصحافة العربية بين الحربية 1920 – 1940: الصحافة اليقظانية. المؤسّسة الوطنية للكتاب- الجزائر – ط 2- 1985، ص: 156.

والتحليلات أو الإجابات لتفعيل المشروع النهضوي. حتى لا يبقى على مستوى المساءلة والتنظير، بدون تجسيد فعلي وعملي يعيد الأمل في النهوض.

وتحليلنا لمختلف كتاباته الصحافية التي امتدت ما بين 1906 و1927، أدّى بنا إلى اعتبار البعد الفكري العقائدي، مكوّنا تنويريًا أساسيًا، وتشكّل جزء من رؤيته ذات الأطر المرجعية الروحية النابعة من العقيدة الإسلامية. وهكذا فلقد وظّف مفهومًا خاصا به هو "الفوضى الدينية "، توصيفا للحالة العقائدية السائدة في الواقع الجزائري. هذه الفوضى التي تتمظهر في انتشار السلوكات البدعية، وغياب روح الاعتقاد الصحيح، وانتشار الوسائط المصطنعة ما بين العبد وربّه. كما انتقد الكتب الدينية العتيقة التي وضعها غلاة المتصوّفة من هنا أوضحنا أيضا نقده للتيار المغالي في النزعة التصوفية، ومع ذلك لم يدع إلى نبذ كل الطرق الصوفية المنتشرة في الجزائر، وفي العالم الإسلامي. وكان في ظروف معيّنة، كما حدث سنة 1920، بفعل الجفاف الذي ضرب مناطق جزائرية أن قدّم نقدًا صريحًا لبعضها. ولكن كان يعتبر بعضها الآخر، مؤسّسات لها سلطة معنوية دينية يجب التعامل معها فيما يهمّ آنذاك المجتمع الجزائري. ورأينا عبر نصوص صحافية فكرية كيف تعمّق في فهم جذور هذه " الفوضى الدينية " تاريخيا، ممّا دلّ على سعة ثقافته وقدرته الفكرية في استحضار النماذج والوقائع التاريخية السياسية والدينية، حتى يقدّم تصوّره لمعالجة هذه الحالة العقائدية.

وذلك عبر تقديمه لقيم عقائدية كمرتكزات فكرية لطروحات تجديد البناء العقائدي الإسلامي الحديث، في مسار النهوض والتقدّم، ومسايرة رقي الأمم الراقية، خاصة الأوروبية منها. وحاولنا إعادة تشكيل هذه القيم الأساسية التي وظّفها المفكر عمر بن قدور الجزائري، ووجدنا أن قيمة مبدأ التوحيد، كانت محورية في هذا التوجّه. فاعتبر أن روح توحيد ا هو روح الاعتقاد الصحيح الذي يبتغيه الإسلام لمعتنقيه، والتي تتحقّق بفضلها حرية ضمير الإنسان وانجذابه إلى الفضيلة كقيمة أخلاقية سامية في حياته. وهذه الفكرة العقائدية لديه، إنّما تسعى لتحرّك الفعالية الاجتماعية والحضارية، في وسط بيئة مأساة وفوضى دينية أخلاقية سائدة في الجزائر.

أمّا القيمة العقائدية الأخرى فتمثلت في القدوة النبوية، لقد اعتبر ميلاد النبي (ص) لحظة فارقة في تاريخ العرب والبشرية، ومسيرته هي قدوة عقائدية في حركية الإصلاح ومكافحة أشكال الاستعباد والاستبداد، هو صورة تتمثل فيها أسوة التغيير لكلّ مرشد أو مجدّد معاصر، لإعادة

الأمل ومحو اليأس من النفوس الضعيفة. خاصة وأن الفوضى الاعتقادية هي وراء السقوط الأخلاقي والسياسي للأمّة الإسلامية.

فالسقوط أو الانحطاط بالنسبة للمفكر عمر بن قدور مرتبط بتراجع النزعة الروحية، وتصحيح روح الاعتقاد أحد مرتكزات إعادة الأمل في التقدّم والارتقاء. واعتبر النّص القرآني الآتي مرجعية محورية: " إنّ ا لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم ".

وثمّة مكوّن رئيسي في رؤيته العقائدية التجديدية، وهو علاقة الإنسان بالمجال الكوني. كان بالنسبة إلينا إنشغالاً فكريًا عقائديًا يعكس دعوته للتفكّر في قضية وجود الإنسان وبالأكوان التي خلقها ا سبحانه وتعالى، انطلاقا من أن الإسلام يحض على التأمّل في الوجود الكوني تعزيزًا للإيمان بالقدرة الإلهية. رأى مفكّرنا أن الإسلام منح أتباعه حرية البحث. وا خلق الإنسان حرا، وحريته قابلة للزيادة والنقصان. إنّه يؤمن بحقائق لنظرية التطوّر، فكلّ شيء خلقه ا ينمو في كلّ لحظة ولا ينقص. ثم إنّ معرفة الإنسان بالأرض معرفة قاصرة لا تدلّ على تبصّر بأسرار الكون، لأنّ اعتماده على العقل كمصدر وحيد للمعرفة الكونية أدّى به إلى احتقار الأكوان الأخرى وخرق حدود القيم الأخلاقية، وبالتالي لم يتعدّ الحقيقة المادية لها، إلى الحقيقة الروحية.

وأحد أهم القيم العقائدية المستخلصة من نصوصه الصحافية، على مدى تتبّعنا بالتحليل لها هي قيمة مبدأ السنن الكونية، من حيث رؤيته لتجديد البناء العقائدي للأمّة الجزائرية وللأمّة الإسلامية معًا. إنّ توظيفه لهذه القيمة بلفظها، السنن الكونية جاء مكثّفًا، إلاّ أنّنا أشرنا إلى استخدامه لعبارات دالة أخرى تصبّ في نفس المعنى كـ: القوانين الكونية، سنّة ا الكونية، العهود الإلهية، سنّة ا في خلقه، سنن الغلبة.

إنّ تصوّره التنويري العقائدي، الهادف إلى إعادة الأمل في النهوض، وتحقيق الرقيّ الحضاري، مع الاعتماد على العقل والمعرفة في سبيل البقاء ووجود الذات فيما بين الأمم الحيّة، إنّ هذا التصوّر يعتبر مساهمة رائدة، ليس فقط على مستوى الفكر التنويري الجزائري والنهضوي، وإنّما حتى على المستوى الفكري العربي – الإسلامي، وذلك حينما جعل من السنن الكونية، المستخلصة من نصوص القرآن الكريم، مرجعيا رؤية عقائدية ترى أنّ لكلّ أمّة قابلية للرقيّ والنموّ، وقابلية للتقدّم أو للتأخّر. فسنّة ا الكونية، وحكمته تقتضي من جميع البشر الاجتهاد في العمل، مع التمسّك بالأمل في التغيير والإصلاح والتطوّر، مهما كانت نوعية الظروف المحيطة بهم. لهذا فالمفكر عمر بن قدور الجزائري، وتبعًا لهذا التوجّه الفكري، ينتقد دعاة خطاب اليأس،

الذين حكموا على الأمّة الجزائرية والإسلامية بالموت الأبدي، مع تقدّم الأمم الأخرى. لأن ثمّة استعدادات وقدرات كامنة يمكن استشارتها واستنهاضها. والسنن الكونية، عبر استحضاره للتاريخ، تؤكّد عدم زوال وانقراض الأمم، بالرغم مما عرفته من أدوار أو مراحل جمود وسقوط وانحطاط. كتب سنة 1913 عبر صحيفته (الفاروق): " لكنّنا أيضا قوم لدينا ما لدى الذين سبقونا في سبيل الترقي وعندنا ما عندهم ولا يصّح حكم من قضى علينا بالموت الأبدي، إنّنا أمّة وللأمم أطوار تجريها عليها أعمالها وقلّما أنبأنا التاريخ عن موت أمّة، بل في الغالب كان يخبرنا بموت إسمها وألقابها وأنّ للسنن الكونية لعمليات عجيبة في الأمم تمرّ بها كلّ أمّة على مراحل مختلفة ...".

وأوضحنا كيف أكّد قناعته في هذا المنحى، حينما اعتبر، أنّه إذا كانت هناك عزيمة حقيقية للنهوض، فما ذلك على السنن الكونية بعزيز.

تجري السنن الكونية وفق تفعيل العقل وللتبصّر المستقبلي، مع الالتزام بقيم أخلاقية واجتماعية معيّنة، كالتعاون والتضافر على المصالح مع استناد إلى العزيمة العملية وفق قوله تعالى [ ليس للإنسان إلاّ ما سعى ].

وهو بهذا يكون أحد المفكّرين التنويريين الأوائل الذين قدّموا هذه القيمة العقائدية الحضارية في عصر النهضة الحديثة، بعد الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا كما ذكرنا في بحثنا.

ثمّ إنّه لا يكتفي بهذا البعد الاستنهاضي العقائدي، في إعادة الأمل في النهوض والإيمان بالتغيير المستقبلي، فهو يربط هذا المفهوم القيمي للسنن الكونية بالظاهرة السياسية المعاصرة، الذي يدلّ على أنّه لم يكن في قطيعة مع راهن عصره السياسي.

لهذا وجدناه يحلّل أسباب إنهيار الدولة العثمانية، أمام القوى الاستعمارية الأوروبية ومناوراتها، ببروز ملامح الانشقاق والتناكر، وغياب الاتحاد والتعاون ما بين الأمم الإسلامية. فعدم تضامن تركيا مع طرابلس الغرب (ليبيا) وعدم الاعتبار السياسي بما حدث من احتلال لمراكش (المغرب الأقصى)، كان صورة ذات دلالة في افتقاد قراءة الدروس الكونية في رأيه. خاصة وأن الإسلام يدعو معتنقيه إلى الائتلاف ويحضهم على التضامن ... وثمة أيام ينزع ا دولتها ممّن تنافروا وتنازعوا ويهبها لمن تضامنوا واتحدوا.

وكذلك بيّنا تفسيره للصراع الدولي، الذي أدرجه في رؤيته السياسية في قضية التنازع من أجل البقاء، فهو بهذا يستفيد من منظور النشوء والارتقاء، ولكن يكّيفه ورؤيته العقائدية للسن الكونية، التي تجري على مقتضى إيتاء البشر حسبما يصنعون ويعملون.

ولهذا تنبّأ مبكرًا بهزيمة ألمانيا أمام فرنسا وحلفائها أثناء قيام الحرب العالمية الأولى. لأنّ القوى الأولى تمثّل " الهمجية "، أما القوى الثانية فتمثّل أنصار " الإنسانية ".

إنّ حسّه العقائدي هذا، طبقا لهذه القيمة، ومنطلق كونه يعيش بذاته مأساته الشعب الجزائري المستعمر، فإنّه لم يغفل عن ربط السنن الكونية بقضية الاستعمار. وهذه رؤية استشرافية عبّر عنها بقوله إنّ [ خريطة العالم ستعرف تغييرًا وأن طبيعة التغيير من سنن ا في الكون ]، لهذا دعا المصلحين والمفكرّين إلى استقراء مستقبل التحوّلات السياسية وانعكاساتها على الأمّة الإسلامية، خاصة الواقعة تحت نير الاستعمار والاضطهاد. فرأى أنّ أيام الحرب العالمية (الأولى) ستكون من الأسباب الداعية إلى إعادة الاعتبار لقيم العدالة والتسامح والحق والسلام. من ثمّة ينبغي الحرص على التفكير في مصير الشعوب المستضعفة في العالم، ومنها الشعوب الإسلامية، محذّرًا أنصار الاستعمار. لأنّ السنن الكونية تماشي الأمم المنتصرة للقوة العاملة لإعلاء كلمة الحقّ بين البشر، لإنقاذ شعوب أخرى تعاني الاستعباد وتخلّصها من قبضة الهيمنة والسيطرة.

أما في الجانب الاجتماعي والأخلاقي من فكره الإصلاحي والتنويري، فإنّ دراستنا توصّلت إلى تحديد المرتكزات الفكرية والعملية، التي انعكست أو تضمنتها نتاجاته من الكتابات الصحافية.

إنّ التوصيف النقدي الاجتماعي والأخلاقي لمفكّرنا عمر بن قدور الجزائري يعكس هموم صحافي مثقّف وفاعل مرتبط بواقع شعبه الجزائري. منشغل بالحاضر الذي هو صورة مأساة أمّة ترزح تحت منظومة استعمارية ظالمة، تهدّد بقاءها ومستقبلها. وكان توظيفه لمفهوم " الفوضى الأخلاقية " الذي تردّد بشكل كمّي، ملفت لانتباهنا، يعكس بحق مفكرّ يحاول التوصيف الذاتي النقدي لوضعية أخلاقية وإجتماعية، تتمظهر في صور وسلوكات منحرفة، بحيث اعتبر هذه الفوضى ملحمًا من ملامح الانحطاط التي يوجد فيها الشعب. من هنا تحسّره على حالة أطفال الشعب الجزائري، وعلى حالة الجهل والأمّية السائدة في أوساطه. فحمّل مؤسّسة الأسرة بعض معاناة هذه الفئة التي كان يعوّل عليها في تغيير مستقبل البلاد. وكشفنا عبر تجربته وممارسته الصحفية تعلّقه بالواقع الميداني وملامسته لمختلف مظاهر الفوضى الأخلاقية التي قام

برصدها، ليقدّم تصوّره الإصلاحي والتنويري في معالجتها. وهذا ما جعله ينتقد تقصير علماء الدين في مسؤولياتهم التربوية والتوعوية إزاء أفراد الأمّة، خاصّة في ظل افتقاد ساحة العمل الإصلاحي لفضاءات التواصل الثقافي والإصلاحي، كالجمعيات الاجتماعية والثقافية والنوادي.

وحمّل مفكّرنا مسؤولية الاستعمار الفرنسي في تفكيك البنى الاجتماعية والدينية للشعب الجزائري، وذلك على الخصوص، عبر الاستيلاء على مؤسّسة الأوقاف الإسلامية، خاصة بعد تطبيق الحكومة الاستعمارية لقانون فصل الدين عن الحكومة (الدولة). وقدّم سنة 1907 عبر صحيفة (الحقيقة) دعوة صريحة لكلّ وطني جزائري، ولكلّ مسلم مناقشة مسألة هذه المؤسّسة ذات الأبعاد الحضارية.

فزادت هذه الوضعية في تأزيم الواقع الاجتماعي للجزائريين، بسبب عدم استيعاب المنظومة التعليمية الاستعمارية للعدد الكبير من أطفال الشعب الجزائري، خاصة وأنّ المعمّرين الأجانب من الأوروبيين كانوا يعملون على إبقائهم أمّيين جاهلين، وهو الذي كان يكتب: " ... باء هذا الشعب بالخسران ما لم تنتشله عناية العلم والعرفان ...".

ومن الناحية الاجتماعية اعتبر أنّ ظاهرة هجرة الجزائريين لوطنهم المحتل، ناتجة عن مظالم الاستعمار، من ضرائب مجحفة، وسلب للأراضي، وقوانين تعسّفية استثنائية وظلم المسؤولين ....

وهذا كما قال، واقع جزائري يعاكس ما كانت تردّده الألسنة من مبادئ برأفة: "العدالة "، " التمدين "، " المساواة " و" المؤاخاة ". إنّ الشعب الجزائري قادر على الترقيّ والنهوض إذا ما تم رفع عنه الظلم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وبداية باحترام خصوصيته القومية الإسلامية.

وفي هذا السياق أيضا يندرج نقده الصحافي والسياسي لصحافة عربية تزيّن واقع الشعب وتماشي صحفًا أوروبية أخرى لأغراض سياسية، منوّهة بالنهضة الحاصلة بالجزائر، في حين أن واقعها، هو واقع التخلّف والتأخّر. ولهذا تساءل مستنكرًا، سنة 1911، حيث كتب: كيف يمكن الحديث عن النهضة في الجزائر وهي مسيّرة " بقانون الأهالي " الاستثنائي التعسّفي، في غياب صحف عربية مستقلّة، وجمعيات ثقافية تربوية، وحتى المدارس القرآنية العصرية.

إنّ دعوته إلى الإصلاح ومجابهة الواقع، بوسطه الجزائري، وبوسطه الاستعماري، هي مسألة ينبغي أن ترسخ في أذهان الفاعلين باستيعاب قيمة السنن الكونية من أجل تحقيق البقاء،

وأنّ التغيير آت ويستلزم الإيمان به. فالنخبة الإصلاحية والتنويرية معرّضة للمضايقات وللأذى أو حتى للتصفية الجسدية أو النّفي. وبحيث لا يتمّ أحيانًا إدراك حقيقة نضالها، سواء كانت دينية أو سياسية إلاّ بعد فوات الأوان. وهي نادرة الوجود لدى الشعوب المتخلّفة، وحتى إنّ وُجدت تبقى مهمّشة ومغيّبة. ثم إنّ الممارسة التنويرية قد تختلف في طبيعتها في العالم العربي والإسلامي، حسب الظروف السياسية والاجتماعية، وحسب طبيعة السلطة وفضاء حرية التعبير والتفكير. لهذا تقتضي المجابهة، الإلتزام بالثبات المبدئي ونبذ اليأس وكما كتب " لا حياة مع اليأس ". ولا يجب إتباع أصوات تدّعي موت الأمّة وإنّما النظر إلى الأمام والمستقبل لإنجاز المهام المرجوة للوطن.

تتجسّد إمكانيات ووسائل المجابهة مع مرتكزات فكرية للإصلاح الأخلاقي، اعتبرناها، من خلال ما توصّلت إليه دراستنا، أسسا فكرية وعملية تحدّد لنا مشروعه الإصلاحي والتنويري.

إنّ البعد الأخلاقي المتمثّل أولاً في شخصية عمر بن قدور الجزائري يدعّم صدقية قراءته النقدية الأخلاقية لواقع المجتمع الجزائري في تلك المرحلة التاريخية، خاصة في الربع الأوّل من القرن العشرين، هو الذي جعل من خدمة الأمّة والوطن وخدمة المصلحة العامة للإنسانية من أولويات مشروعه النهضوي، في سـياق قيـمة أخـلاقية وروحـية هي الحقّ.

وهكذا تمّ تحديد مرتكزات أخلاقية في تتبّع مسار تطوّره الفكري عبر نصوصه الصحافية، في إطار مفهوم القيم الأخلاقية ومعاييرها ومصادرها. فالالتزام الأخلاقي بمكارم الأخلاق وبمحاسنها، أي بقيمها هو جزء من هوية الفرد الجزائري، تتأتى قيمتها العملية والإنسانية من المكانة المراد بلوغها في وسط المجتمع الإنساني، وفق مبدأ تنازع البقاء، وهو رهان سلوك نابع من تعاليم إلهية مُوجِدة للقوة، تتماشى ومختلف الأزمنة ومتجدّدة، ومنها التسامح، التعارف، التفاهم، الإحسان، والمتمّسك بها قد يكتسي بمعنى الروح " الإنسانية الحقّة ".

ثم يرى أن الوازع الأخلاقي الإسلامي يقف بالجزائري موقف رفض السياسة الطارئة عليه ومقاومتها، سياسة الإدماج الاستعماري وسياسة التجنيس بالجنسية الفرنسية آنذاك.

وتوصّلنا إلى تحديد قيم أخلاقية أساسية كنماذج مثال ذلك: قيمتي العمل والأمل. ذات الأبعاد العقائدية أو الاجتماعية وحتى السياسية، في سياق المبدأ العام: الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر. العمل الإصلاحي إنّما يتجسّد بما هو مؤسّس في الواقع الفعلي من مدارس، ونوادي وجمعيات مختلفة ....

ثم إنّ قيمة الأمل، كفضيلة ومبدأ، يدفع إلى الثقة في المستقبل إنّه ضروري، لأنّه لا حياة بدونه. كتب: " كلّ حوادث الحاضر تدلّ دلالة واضحة أنّه لا يتمّ شيء في الوجود بغير الأمل ... ولو لا الأمل لما كانت عبادة ولا صناعة ولا تجارة ولا حرفة ولا مهنة. بل لولا الأمل لما كان الوجود ".

لهذا فارتباط هاتين القيمتين، الأمل والعمل، هو ارتباط قوّتين عظيمتين، تجمعان الجهد والاجتهاد مع الرجاء والصبر.

وثمّة قيمتان أخريان إنهما، الهمّة والثبات. لقد اعتبر مفكّرنا الهمّة أهمّ القيم الأخلاقية أو بتعبيره هو فضيلة الفضائل. فهي أصل ومنبع أهم التحوّلات وأعظم التطوّرات في مختلف المجالات. وقدّم لهذا أطرًا مرجعية يجسّد بها توجّهه، نماذج دينية، ومصلحة تاريخية وأخرى معاصرة تتوزع على مختلف الحضارات الإنسانية. ويشكل الثبات قيمة مبدئية لمن يريد التصدّي للعمل الإصلاحي والتنويري. وهو الذي أعطى القدرة الأخلاقية العملية بثباته الأخلاقي في تجسيد مشروعه الصحافي الشخصي، صحيفة (الفاروق)، والذي عمل على تطويرها ونموّها رغم المتاعب والمشاق. واعتبر هاتين القيمتين مرتبطتين بوازع العناية الإلهية.

كان يرى أيضا أن النهضة لا تحصل ولا تتحقّق إلاّ بقيم التعارف، التفاهم والتعاون والاجتماع. خاصة بعد وعيه بخلوّ الفضاء الاجتماعي بالجزائر من فرص التواصل والاحتكاك ما بين القوى الفاعلة التي حدّدها، ورآها حتمية في البناء الإصلاحي. فتوظيفه لهذه القيم إنما هو معالجة لما اسماه بالفوضى الأخلاقية والاجتماعية، التي كانت تتمظهر أيضا في داء الاختلاف والجمود السائد فيما بين المثقفين، من علماء دين، ومفكّرين وأغنياء. فئات أساسية غفلت عن واجبها إزاء الشعب البائس واليائس معًا. لهذا فتوجيهه لدعوة تأسيس الجمعيات كانت أحد الحلول الممكنة لإحداث الحركية والتواصل المطلوب، فيما بين هذه الفئات الثلاثة: فئة علماء الدين، فئة المفكّرين، وفئة الأغنياء.

فاعتبر الاجتماع هو روح الحياة، فدعاهم للانتظام وعدم الافتراق، والانحراف في هذه الجمعيات. ورأى في الأغنياء صورة الرعاية المالية الضرورية لمختلف المشاريع النهضوية المستقلّة عن الهياكل الحكومية الاستعمارية. وألقى مسؤولية تحريك الساحة الإصلاحية ونبذ

الجمود وإعادة الأمل في التغيير بالتواصل والتعارف والتعاون، على فئة المفكّرين. من هنا يمكن القول أيضا أننا في دراستنا كشفنا عن طرح هذا الإشكال النهضوي في وقت مبكّر بالجزائر، وربّما حتّى على مستوى العالم العربي، المتصل بإشكالية هويّة المفكّر، ووظيفته في الحركة التنويرية والإصلاحية. فابتداءً من سنة 1913 طرح سؤاله: " مَن هم المفكّرون وأين هم يوجدون ؟".

كذلك برزت قيمة العقل من خلال كتابات عمر بن قدور الصحافية كقيمة تنويرية، حينما اعتبر الدين الإسلامي قد فاق جميع الأديان من حيث حرية البحث العقلي التي منحها للإنسان. ورأى أن أهمال هذه القيمة وعدم تنميتها والانتفاع بها، هو إجحاف في حقّ الأمّة من حيث مسألة التنوير والإصلاح.

والعقل البصير الممنوح للإنسان قادر على إيجاد الحلول لما يعترض البشر من مشكلات، وإنّما قد يقع في القصور، لمّا يتم الاعتماد عليه لوحده دون الوازع الروحي. والأمّة الجاهلة غير الآبهة بتنمية العقول، عقول أبنائها، تبقى مستعَبَدَة، تحت نير الشقاوة الأبدية، ومنحطّة بين الأمم.

كما شكّلت قضية التقليد، إرتكازًا أخلاقيا حاضرًا في الطرح الإصلاحي لمفكّرنا. فالتحليل الدراسي للنتاج الصحافي، أثبت معالجته لها من منطلق البيئة الجزائرية خصوصا.

وحاول ربطها بمفهومه للفوضى الأخلاقية وبالهوية الإسلامية للشعب الجزائري. وهكذا قدّمنا مفهومه للتقليد ولأشكاله مع ذكر الأسباب التي رآها عِلّة لهذه الظاهرة، وبالتالي استخلصنا أساليب علاج ومحاربة هذا الداء الدخيل الموصوف بالتقليد. فظهر نقده للاستلاب الحضاري لعقول الشبيبة الجزائرية، وللتيار التغريبي (المتفرنجين) المنسلخ عن ثوابت الأمّة الجزائرية من دين ولغة ووطنية. والداعي للذوبان بسياسة " الإدماج " الثقافي وليس السياسي فقط. ثم نقده لنخبة علماء الدين والكتّاب في سياق الجمود الذهني والتقليد الفكري، الذي لا يساير حاجيات الأمّة العصرية.

من حيث جانب المعايير الأخلاقية، فقد توصّلنا في بحثنا إلى تحديد معيار الفضيلة والرذيلة كمقياس للسيرة والسلوكيات الدينية والأخلاقية، للاقتراب من حقيقة جليلة هي الكمال. ويعتبر القيم الإسلامية قيمًا إنسانية. من هنا فإنّ هذا المعيار الأخلاقي جوهري للنخبة المضطلعة بمسؤولية تحقيق النهوض والتغيير للأمّة الجزائرية. كما أن معيار الواجب والمسؤولية ارتكاز آخر لمنظومة القيم وممارستها التي تقف عند الإلتزام بالنواهي وإتّباع الأوامر. وهذا له علاقة

بالفعّالية المبتغاة لدى النخب الجزائرية والعربية التي خصّها بخطابه الصحافي، كالمفكّرين وعلماء الدين والأغنياء، لتجسيد التنوير وتحقيق النهوض، فكثيرًا ما يكتب: " لنذكّر العلماء والأغنياء بالمسؤولية الواقعة عليهم من حيثية جمودهم فالأمّة في حاجة إلى نهوضهم ..." أو " لنطالب المفكّرين بالواجب المفروض عليهم نحو إرشاد الأمّة وتذكرهم بلزوم القيام بالتعارف مع بعضهم البعض والتعاون على البرّ والتقوى ".

أوضحت دراستنا كذلك عبر تحديد مختلف الإحالات النّصية المضمّنة في الأطر المرجعية، وجود مصادر رئيسية للقيم الأخلاقية التي تم مقاربتها. إنّ روح الدين الإسلامي هي المصدر الإلزامي الأخلاقي الذي ينعكس من خلال مرجعيتين هما: مرجعية القرآن ومرجعية السنّة النبوية. لقد أكّد أن جميع مكارم الأخلاق، مشتقّة من الإسلام، الذي حارب القيم الفاسدة. وبالتّالي روح هذه القيم والمكارم هي " الإنسانية الحقّة " وهي روح الإسلام الحقّة، روح الإيمان الحقيقي با وبرسله، التي تحضّ على إقامة المعروف ومحو المنكر، ودوس أعناق الطغاة والجبابرة، بما هو منصوص عليه في القرآن المنزّل على خير المرسلين.

إنّ مصادر السلوك والإلزام الأخلاقي مبثوثة في هذين الأصلين، الكتاب والسنّة. والاستناد إلى أحكامهما أمر بديهي في رأيه، لأنها توافق مختلف التطوّرات والأزمنة ولها شمولية للمصالح البشرية.

وإذا كنّا قد توصّلنا إلى تحديد الأولويات الفكرية التنويرية للمفكّر والصحفي عمر بن قدور الجزائري، من حيث الأبعاد العقائدية والأخلاقية، فإنّ ثمّة بعدًا آخر جدّ هام تم استخلاصه في دراستنا هذه، وهو المتّصل بالبعد الفكري الاجتماعي، الذي يعكس هو الآخر جانبًا مكمّلاً لمشروعه النهضوي، وكدليل آخر علمي وتاريخي على وجود تيار إصلاحي تنويري في الجزائر، جدّ متقدّم منذ البدايات الأولى للقرن العشرين. فلم يعد ممثّلوه منحصرين في جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والكواكبي، وإنّما أيضا في عمر بن قدور الجزائري.

إن تتبعنا بالتحليل لكتاباته الصحافية الاستنهاضية والتنويرية، أظهر لنا إنشغالاً متواصلاً ومركّزًا بقضية جوهرية، تمثل جزء ورهانًا حضاريًا لقيام النهضة الإصلاحية، ومسألة مصيرية بالنسبة لحاضر ومستقبل الشعب الجزائري. لهذا كانت دعوته ثابتة على مدار سنوات عدّة للاهتمام بتعليم أطفال الشعب، ضحايا الأمّة والجهل. خاصة لإدراكه أنّ المنظومة التعليمية الاستعمارية لا تعمل على تمدرسهم وتربيتهم، وإدارتها بالذات لم تكن تسمح بفتح مدارس حرّة. وهكذا غدا نشر العلم والتعليم في أوساط الجزائريين مطلبًا إصلاحيًا حيويًا وحتى سياسيًا ثابتًا

لديه، بدية من سنة 1907. وأصبحت الأمّية المتفاقمة مفهومًا مرضيًا للحالة الاجتماعية والأخلاقية تمسّ مختلف فئات الشعب، الذكور والإناث، الصغار والكبار، وهكذا فأحد أسباب الفوضى الأخلاقية هو الجهل والأمّية معًا.

والانشغال التنويري والوجداني بهذه القضية المصيرية سايرت كتاباته الصحفية عبر مختلف الجرائد: الهلال، الأخبار، الفاروق، الصدّيق، الإقدام، التقدّم ووادي ميزاب. وكانت أحد العناوين التي وضعها لأحد نصوصه سنة 1913 [ نحو المستقبل: هل من نهضة إلى التقدّم بالتعليم ؟]. إنّه وعي عميق بالدور الخطير لمسألة تنمية التعليم. حيث رأى أن حياة العلم هي الحياة العصرية، وهو حق من حقوق الشعب الجزائري، وهذا سنة 1907. لأنّه أحد سُبُل تحقيق البقاء. نعم على النخبة الفاعلة في سياق التنوير واليقظة اعتبار الرجوع إلى الدين وسيلة إلى التقدّم، ولكن بالنسبة إليه، هذا صحيح، إلى جانب نشر مختلف العلوم الحديثة، مع مجاراة " تيار التمدّن " والعصرنة الإيجابي الملاحظ لدى المدنية الأوروبية.

إنّ قطاع العلم والتعليم هو قطاع استراتيجي طويل المدى، فهو رهان لوجود الأمم وتخليص بعضها من الاستعباد والاستعمار. فالعلم بالنسبة إليه مرادف للتحرّر من رقّ العبودية. من هنا سوف تشكل هذه القضية له مشروع تنشئة اجتماعية من خلال حملة إعلامية، ذات طابع استنهاضي تعبوي، داعيًا الفئات الفاعلة ، من علماء دين وأغنياء ومفكّرين، إلى تأسيس الهياكل التعليمية الحرة لانتشال أبناء الشعب الجزائري من السقوط. زيادة على تشكيل الجمعيات التربوية والخيرية الاجتماعية لرعاية هذه المؤّسسات. بحيث تكون مدارس عصرية ذات الخصوصية المرتبطة بثوابت الأمّة الجزائرية، واعتبر هذه الخطّة العملية جزء من الجواب عن تساؤله (سنة 1908): " كيف العمل لرفع الحجاب الحائل بيننا وبين نور التمدّن العصري والسعادة الحالية ؟ ".

وكانت إحدى عباراته الدالّة، والمحرّضة على العمل الميداني في سبيل النهضة الجزائرية، مخاطبته الفئات السالفة الذكر، بندائه سنة 1913 [ معشر المفكّرين المتنوّرين والعلماء العاملين والأغنياء الموسرين: موتوا تخاذلاً أو دعوا التخاذل يموت ].

ومن جهة أخرى توصّلت الدراسة هذه إلى اعتبار مفكّرنا عمر بن قدور الجزائري، من أوائل الإصلاحيين الذين طالبوا بحق التعليم لأبناء المسلمين الجزائريين، وبحقّ الأمّة الجزائرية في التقدّم العصري وهذا منذ سنة 1907 عبر مقالٍ له تحت عنـوان [ ما ننشد إلاّ حقوقنا الحياة ! الحياة !] عبر صحيفة (الهلال). وفي سنة 1908 يوجّه رسالة عبر نص صحافي بجريدة "

الأخبار " موجّهة للحاكم الاستعماري الفرنسي للجزائر تحت عنوان: [ خطاب مفتوح: إلى جناب المسيو جونار " الوالي العام "] يؤكّد مطلب التعليم الإسلامي في البرنامج الدراسي العام للمدارس الاستعمارية، حتى لا يتم حرمان أطفال الجزائريين من القيم الدينية واللغة العربية. وينادي سنة 1914 بمطلب إجبارية التعليم، مع ضرورة فتح مدارس حرّة، مزدوجة اللغة. يكون أحد أهدافها حلّ مشكلات الأميّة وامتصاص البطالة وفتح آفاق نهضوية للأمّة، عاكسة لثوابت الهوية الجزائرية. وبيّنا انتقاده للمناهج التعليمية في بعض البلدان الإسلامية التي لم تعمل على تجديدها لتساير المستجدّات العصرية، عبر تجديد البرامج، وتكوين مؤطّرين أكفاء وفقا للخصوصية الحضارية للجزائر على الخصوص.

وعكست آراؤه انفتاحًا على مجالات التعليم الواسعة، كالتعليم المهني أو العملي، أو التعليم الصناعي كما يسمّيه وكذلك ضرورة تطوير المدارس لتصبح مدارس كبرى، مع إمكانية إرسال المتفوّقين إلى منابع العلم من وراء البحار أو إلى بعض الدول العربية، للتكوّن في ميادين: الفلاحة، الهندسة، الطب الصيدلة، المحاماة، الميكانيك، التدريس.

إنّها حتمية النهوض الشامل عبر التعليم المرتبطة بمبدأ السنن الكونية، وشمولية تستوعب نشره لجميع الجزائريين، بما فيها البنت أو المرأة الجزائرية.

لقد أثمرت جهوده، بإنشاء " جمعية الشبيبة التهذيبية الإسلامية الجزائرية " سنة 1921 بمدينة الجزائر، إذ كان أحد أعضائها، والتي كانت وراء تأسيس مؤسسة تعليمية حرّة هي " مدرسة الشبيبة الجزائرية " سنة 1923 بالعاصمة، التي كان، كما كشفت عنه دراستنا أوّل مدير لها وأستاذ بها وواضع برنامجها التعليمي الأوّل، واستمر ينشط بها لغاية استقالته منها سنة 1927.

وليس لكي يتصوّف وينعزل، وإنّما ليؤسّس مدرسة أخرى هي مدرسة " السلام " حيث يستمر في مزاولة التعليم بها لغاية إصابته بمرض عضال ووفاته بعد أشهر قليلة في شهر جانفي من سنة 1932.

وكانت مدرسة " الشبيبة الإسلامية الجزائرية " قد حققت بعض مطالبه التي كان يدعو إليها في ضرورة تعليم البنين والبنات معًا. خاصّة وأنّه وضع مسألة تعليم المرأة كرهان وارتكاز إصلاحي في مشروعه النهضوي بالمجتمع الجزائري، الذي لا حياة له إلاّ بالتكفّل التربوي بجميع أطفاله. كان يرى أن أحد ملامح التأخّر والخلل في النهوض الحضاري، مقارنة بالدول الغربية الأوروبية، يكمن في حرمان المرأة من التعليم، منبّها في أحد نصوصه (الأخبار سنة

1912) للخلل الحاصل جرّاء تغييب المرأة، هذا العنصر البشري الحيوي في بناء الذات المسلمة المعاصرة.

إنّ مأساة الشعب تتمظهر في الأخطار المحدقة بجميع أطفال الجزائريين، بنين وبناتًا، لهذا فعلى مسؤولية النخب الفاعلة يقع جهل المرأة الجزائرية، الذي هو خسارة للمجتمع الجزائري. لأنها لو كانت متعلّمة لقامت بأعباء مؤسّسة الأسرة كما ينبغي، ولساهمت في توازنها الأخلاقي والاجتماعي من هنا كان عنوان أحد مقالاته التحريضي الاستنهاضي سنة 1913 [ بجهل المرأة المسلمة وأحلامها الفاسدة نال الشعب من كوارث البدع ما ناله ].

كما كشفت دراستنا جانبًا فكريًا عمليًا في هذا التوجّه الإصلاحي الاجتماعي، ظهر لدى مفكّرنا منذ البدايات الأولى لممارسته الصحافية هذا الجانب يمثّل مكوّنًا استراتيجيا، متصل بالتنظيم. كعنصر فعّال لتجسيد الحركية الإصلاحية في الجزائر.

إن قضية التنوير ورسالة الإصلاح الأخلاقية والاجتماعية، لا يمكن تفعيلهما واقعيا، إلاّ إذا تم هيكلة وتنظيم هذا الارتكاز.وبدأت تتجسّد وتتبلور هذه القناعة الفكرية والعملية منذ بدايات القرن العشرين لديه، أي سنة 1908 لغاية منتصف العشرينات، وذلك حينما دعا فئة الأغنياء إلى تأسيس جمعيات تعليمية وخيرية مستقلّة عن الحكومة الاستعمارية، بحيث يكون عملها مجسّدًا أيضا بمساهمة علماء الدين خدمة للوطن الجزائري. خاصة لمّا أدرك خلوّ الفضاء الاجتماعي من فرص التواصل والاحتكاك فيما بين القوى الفاعلة، وفيما بينها وبين الأمّة الجزائرية. وهذا معناه أيضا تجسيد للقيم الأخلاقية الاجتماعية التي حضّ عليها مرارًا، لتحقيق التقدّم والارتقاء بهذه الأمّة، وهذا خيار استراتيجي.

فكانت الفئات من المفكّرين وعلماء الدين والأغنياء هدفا لحملته الاستنهاضية والتنويرية في هذا المنحى، لأنّه رأى أنّ الأمل في التغيير منوط بها. ولقد وجدناه يقدّم مشروعه أحيانًا بسؤال: كيف تتكوّن الجماعات ؟.

فرأى أن محاربة القيم السلبية، كالتخاذل والتناكر، وإحلال قيم التعاون والتعارف والتفاهم كأساس لتكوّن هذه الفضاءات التنظيمية. فدعا إلى تأمّل تجارب الأمم عبر التاريخ، مع فهم أسباب تقدّم أوروبا المعاصرة، ثم عدم التحسّر والتباكي طويلاً لما حصل من مأساة للشعب الجزائري. إنّه مقتنع بأنّ " الاجتماع هو روح الحياة ". والنهضة لا تحصل إلاّ بتنظيم المفكّرين المجدّدين والمصلحين أنفسهم وفي سنة 1913 دعا صراحة لتشكيل هيئة ذات صبغة قانونية

تنشط في الميدان الإصلاحي، يكون لديها فروع ونوادي للتواصل مع العوام، وتنشر مطبوعات تربوية، وتعمل على تعبئة علماء الدين والأغنياء للانخراط فيها.

ثم ابتداء من سنة 1914، وفي خضّم الإضطرابات السياسية وتوتّر العلاقات الدولية، أعلن عن مشروع تنظيمي كبير، لحركية التنوير والإصلاح، يتجاوز حدود المشاريع الهيكلية السابقة، من حيث جغرافيته أو من حيث الأعضاء الذين بإمكانهم تشكيله، وهو مشروع إنشاء: " جماعة التعارف الإسلامي لأهالي شمال إفريقيا، تتألّف من نخبة مفكّري مسلمي الجزائر وتونس والمغرب الأقصى ". وكان هذا النداء التنويري العملي مدرّج في صحيفته (الفاروق) تحت شعار نصّ قرآني هو: " ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ".

أحدث هذا المشروع العظيم آنذاك، نقاشًا فكريًا على المستوى الجزائري والشمال الإفريقي، لكن بوجهات نظر مختلفة. وتمّ اعتبار المفكّر عمر بن قدور الجزائري في هذه اللحظة التاريخية ووصفه بـ: " زعيم الإصلاح " و" الفيلسوف " و" أحد الغيورين على الإسلام وعلى شعوبه ". ووضع أحد المثقّفين التونسيين مشروعه وحركيته ضمن مشاريع رجالات الإصلاح ورموزه في العالم العربي أمثال: الأفغاني ومحمد عبده، والكواكبي ورشيد رضا.

إلى أنّ تدخّل الحكومة الاستعمارية بتوقيف صحيفة (الفاروق) في فيفري 1915 واعتقال عمر بن قدور الجزائري ونفيه إلى الصحراء الجزائرية للإقامة الجبرية، أوقف تجسيد هذا المشروع الإستراتيجي الكبير، مع ظروف اندلاع الحرب العالمية الأولى. وبعد نهاية الحرب هذه وعودته للممارسة الصحفية لم نعثر على دعوة ذات استمرارية تصبّ في هذا الأفق والاتجاه التنويري التنظيمي. إنّما واصل دعوته في تأسيس مثل هذه الهيئات الفاعلة على المستوى الوطني المحلي فقط.

كما توصّلنا في دراستنا هذه إلى إستخلاص أهمّ الملامح الفكرية السياسية التي شكّلت مكونًا آخر لرؤيته التنويرية في ظل ضغوط بيئة استعمارية. خاصة وأن البعد السياسي بالنسبة إليه يمثل جزءا من مفهوم الصحافة الإصلاحية بحيث كان توصيفه النقدي السياسي قد شمل قضايا سياسية داخلية في الجزائر. فأوضحنا تناوله لمسألة تسيير الأوقاف الإسلامية ابتداء من سنة 1907 مع تقديم قراءته السياسية لمسار الحاكم الاستعماري العام وهو " جونار " معتبرا سياسته غير فعّالة وخيالية بالنظر لحقوق الجزائريين معلنا بذالك إخفاق السياسة الاستعمارية في الجزائر. كما بيّنا موقفه من مسألة هجرة الجزائريين لبلادهم جرّاء مظالم هذه السياسة ثم تفاقم

هذه المسألة بسبب مشروع التجنيد الإجباري ابتداء من سنة 1908. وربطنا موقفه الرافض لهذا التجنيد ولسياسة التجنيس والاندماج بتعزيز تصوره التأصيلي لهويّة الأمّة الجزائرية الإسلامية. وابتداء من سنة 1906 شكّل مفهوم " الوطنية " رافدا في التصور الهوياتي لهذه الأمّة مع اعتباره للتاريخ مقوما للهوية الوطنية دون التغاضي عن المرجعية اللغوية العربية.

ثم كشفنا عن مرتكز آخر لهذه الهوية أصبح يوضّحه كثرة وهو " القومية الإسلامية"، إذا كان العامل الديني بالنسبة إليه رافدا من روافد النضال والمقاومة الجزائرية ضد الغزو الاستعماري.

تجاوبًا مع هذا البعد الانتمائي ورهانه السياسي توصّلنا إلى رصد انشغاله الفكري والسياسي للقضايا العالم الإسلامي عبر استخدامه لمفهوم " الرابطة الإسلامية "، المتضمن لمبدأ الوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي انطلاقا من النزعة الروحية، وهذا مجابهة لمطامع الدول الغربية وخططها الاستعمارية.

وإذا كانت أفكاره، قد عكست توجّها إصلاحيًا وتنويريًا قويًا، فإنّما هذا مرّده إلى إداركه لملامح البؤس الاجتماعي والفوضى الأخلاقية، خصوصا في واقعه المباشر، المتمثّل في الوسط الجزائري. فعملية التفكيك الاجتماعي والثقافي التي تواصلت طيلة فترة الاستعمار، جعلته يوظّف بصفة مستمرة وعلى مدار سنوات نشاطه الصّحفي المتعدّد، في مختلف العناوين الصحفية التي أتينا على ذكرها، داخل الجزائر، أو الصادرة خارجها، كلمات وعبارات تعكس هذا الهم الإصلاحي، والانشغال بالتنوير والنهوض على مختلف المستويات. فكلمات على شاكلة: الجهل، التلاشي، الانحلال، الاضمحلال، الفناء، السقوط، الفساد، الرذيلة، الخمول، الجمود، الممات، الجاهلية، الشقاء، التأخّر، الذّل، الاختلال، التقهقر، الهمجية، التقاعس، اليأس، الضعف، كانت تدلّ على كلّ ما هو سلبي، ذي حمولة دلاليةٍ لتوصيف الراهن المتخلّف، المرتبط بالفرد أو الجماعة، وسواء بالملامح الاجتماعية والأخلاقية، أو المتصل بالحالة الذهنية والشعورية السائدة لدى أفراد الأمّة الجزائرية، على الخصوص والإسلامية على العموم. وفي مقابل هذه الكلمات، ثمّة حقل آخر من الألفاظ على شاكلة: العلم، الترقي، النهوض، الاجتهاد، الفضيلة، النور، البقاء، الأمل، الحياة، الوجود، النمو، الارتقاء، التهذيب، العقل، التنمية، الضياء، الفهم، الهمم، الوعي، القوة، المستقبل، التربية، العمل، النهضة، الإرادة، الإدراك، اليقظة، الفكر، التقدّم، المدنية، التمدّن، الإصلاح، السعادة، التشييد ..... وهذه على سبيل الذكر لا الحصر، تشير إلى المنظور العقلاني، ذي الدلالة الفكرية التي لا تحاول الركون إلى سبب واحدٍ أو عامل

فريد يفسّر عدم القدرة على الإصلاح والتغيير. فهي تحيل إلى أن تفكير عمر بن قدور كان تفكيرًا يحاول الإحاطة بالعوامل المختلفة المؤثرة في التراجع الاجتماعي والأخلاقي، وفي الوسائل المتعددة التي تمكّن من إعادة الأمل في تغيير الحاضر ومقاومة أسباب فناء الأمّة.

هكذا فإنّ دراستنا حاولت تسليط الضوء، بالتحليل الفكري والتاريخي لمختلف الأبعاد التنويرية والإصلاحية المتضمّنة في المصادر الأصلية، المتمثّلة في المقالات والنصوص الصحافية المنتجة من قبل شخصية بحثنا عمر بن قدور الجزائري، متتبّعين مساره وتطوّره الفكري والعملي من سنة 1906 إلى غاية سنة 1931، أي لأشهر قبل وفاته في جانفي سنة 1932.

إنّها لإضافة معرفية إلى نسق الجهد الفكري الجزائري لعصر النهضة العربية والإسلامية الحديثة، وإنصاف فكري وتاريخي لهذه الشخصية الصحافية والتنويرية صاحبة المشروع النهضوي الرائد في الجزائر.

لاشك إنّ هذا يطرح تساؤلات وانشغالات أخرى في مسار البحث والكشف الفكري والتاريخي، ومن ثمّ للإسهام في إعادة قراءة نتاجاتنا الصحافية والفكرية الحضارية النابعة من البيئة الجزائرية، لمحاولة إعادة تشكيل الوعي المعرفي بهذه المنظومة التنويرية والإصلاحية لمرحلة تاريخية بأسرها.

# فهـرس المصادر والمراجع

**الصحف والدوريات المعتمدة في الدراسة:**

1- الهلال: الصادرة بالجزائر سنة 1906.

2- اللواء (مصر): سنة 1906، 1908.

3- الحقيقة (تونس): سنة 1907.

4- الأخبار (الجزائر): سنوات 1908، 1910، 1911، 1912، 1913، 1914.

5- التقدّم (تونس): سنة 1908.

6- المشير (تونس): سنة 1911.

7- الفاروق (الجزائر): سنوات 1913، 1914، 1915.

8- الصدّيق (الجزائر): سنة 1920.

9- الوزير (تونس): سنة 1920.

10- الفاروق -السلسلة الثانية- الجزائر: سنة 1920- 1921.

11- الإقدام (الجزائر): سنوات 1921، 1922، 1923.

12- التقدّم (الجزائر): سنوات 1923، 1924، 1925.

13- وادي ميزاب (الجزائر): سنة 1927.

**مصادر ومراجع الدراسة :**


1- قرآن كريم

**قائمة المراجع:**

- أبو اليقظان إبراهيم عيسى:

2- تاريخ صحف أبي اليقظان، تقديم: د محمد ناصر. دار هومة . الجزائر. 2003.

- د. أبو القاسم سعد ا :

3- تاريخ الجزائر الثقافي ، (1830-1954) ، الجزء 5 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

4-الحركة الوطنية الجزائرية (الجزء الأول)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989.

- آجرون شارل روبير:

5- تاريخ الجزائر المعاصرة. تر: عيسى عصفور. OPU – الجزائر. ط 2، 1982.

- د. أركون (محمد):
6- الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد. تر: هاشم صالح. طبع –لافوميك – المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1993.
- ألبير حوراني:
7- الفكر العربي في عصر النهضة (1728- 1939). تر: كريم عزقول – دار نوفل. بيروت 1997.
- أحمد توفيق المدني:
8- كتاب الجزائر. (ط 1 1931) ط 2، دار الكتاب. البليدة. الجزائر. دار المعارف (س) 1302 هـ/ 1963.
9- حياة كفاح (مذكرات) 1905 – 1925. ج 1. SNED. الجزائر. 1976.
10- حياة كفاح (1925- 1954). ج 2. المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر 1988.
- ابن خلدون (عبد الرحمن):
11- المقدّمة – دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1993.
- إحدادن (زهير):
12- الصحافة المكتوبة في الجزائر. ط1 . ديوان المطبوعات الجامعية (بدون تاريخ).
13- بيبلوغرافيا الصحافة الإسلامية الجزائرية (1830- 1930)، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986.
- الإبراهيمي (محمد البشير):
14- سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. طبع المطبعة الإسلامية الجزائرية . قسنطينة
- الجابري محمد صالح:
15- النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900- 1962. الدار العربية للكتاب – طرابلس SNED الجزائر 1983.
- الجيلالي صاري: د محفوظ قدّاش:
16- المقاومة السياسية 1900- 1954. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1987.
- أنور الجندي:

17- الفكر والثقافة في شمال إفريقيا. الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة 1385 هـ/ 1965.
- باعزيز بن عمر:
18- من ذكرياتي مع الإمامين الرئيسيين: عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي. منشورات الحبر – الجزائر- ط 2، 2007.
- بن نبي (مالك):
19- وجهة العالم الإسلامي. تر: عبد الصبور شاهين. دار الفكر . دمشق.
- بن قفصية (عمر):
20- أضواء على الصحافة التونسية (1860 – 1970) دار بوسلامة للطباعة والنشر . تونس (بدون تاريخ).
- بوحوش عمّار:
21- التاريخ السياسي للجزائر من البداية لغاية 1962. دار الغرب الإسلامي ط 1، (بيروت) 1997.
- بودون (ريمون) – فرانسو بورّيكو:
22- المعجم النقدي لعام الاجتماع. تر: سليم حداد. ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر1986.
- جوليان (شارل أندري). تر: المنجم سليم، الطيب المهيري.
23- إفريقيا الشمالية تسير: القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية. الدار التونسية للنشر تونس، SNED الجزائر، 1396 هـ/ 1976.
- جامعة الجزائر (تحت إشراف د. الشيخ بوعمران):
24- معجم مشاهير المغاربة، منشورات جامعة الجزائر 1995.
- د. خرفي (صالح):
25- عمر بن قدور الجزائري – سلسلة في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

- دبّوز (محمد علي):
26- أعلام الإصلاح في الجزائر، ج 2. مطبعة البعث . قسنطينة الجزائر 1396 هـ/ 1976م.
27- أعلام الإصلاح في الجزائر، الجزء الخامس: 1921 – 1973، ط 1: 1403 هـ/ 1982. دار البعث قسنطينة. الجزائر.
- دي طرّازي (فيليب):
28- تاريخ الصحافة العربية – الجزء الثالث . المطبعة الأدبية بيروت. 1914 م.
- رفيق العظم:
29- الدروس الحكيمة للناشئة الإسلامية. المطبعة الوطنية . دمشق. 1328 هـ.
30- الجامعة الإسلامية وأوروبا. مطبعة هندية (القاهرة) 1907.
- الزبير سيف الإسلام:
31- تاريخ الصحافة في الجزائر. الصحافة العربية بين الحربية 1920 – 1940. الصحافة اليقظانية (ط 2) المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر . 1985.
- الزاهري (محمد الهادي):
32- شعراء الجزائر في العصر الحاضر. مطبعة النهضة. تونس 1346 هـ/ 1927. ج 2.
- سارتر ج. بول:
33- عارنا في الجزائر. تر: عايدة + سهيل إدريس. دار الآداب- بيروت- بدون تاريخ.
- ساحل (عبد الحميد):
34- أصول الفكرة الإصلاحية من خلال الصحافة الجزائرية 1903- 1925. رسالة ماجستير في علوم الإعلام والإتصال، جامعة الجزائر 2001.
- ستودارد (لوثروب):
35-حاضر العالم الإسلامي: تر: عجاج نويهض تعليق: شكيب آرسلان- القاهرة (1352 هـ) ج 1.
- شاخت (جوزيف) وبزورث (س.أ): تر: مجموعة من الدكاترة.

36- تراث الإسلام، الجزء 1، ط 1، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1988.
- د. عزي (عبد الرحمن) د. السعيد بومعيزة:
37- الإعلام والمجتمع: رؤية سوسيولوجية مع تطبيقات على المنطقة العربية الإسلامية . الورسم للنشر والتوزيع . الجزائر. 2010.
- د. عبد اللطيف (حمزة):
38- أدب المقالة الصحفية في مصر – المجلد الثاني. الهيئة المصرية العامة للكتاب ط 1995.
- د. علي المحافظة:
39- الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1798 – 1914) بيروت 1987.
- الفاسي (علال):
40- حديث المغرب في المشرق. المطبعة العالمية ، القاهرة. ط 1، 1956.
41- الحركات الاستقلالية في المغرب العربي. مطبعة الرسالة. القاهرة- 1368 هـ/ 1948م.
- الفاضل ابن عاشور:
42- الحركة الأدبية والفكرية في تونس. الدار التونسية للنشر 1972.
- فضلاء (محمد الحسن):
43- المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحرّ في الجزائر (القطاع الجزائري) – دار الأمّة ط 1، 1999، ج1.
- فان دالين (ديو بولد.ب):
44- مناهج البحث في التربية وعلم النفس: ترجمة مجموعة من الأساتذة – دار الأنجلو مصرية – القاهرة – 2003.
- فوكو (ميشال):
45- حفريات المعرفة – تر: سالم يفّون. المركز الثقافي العربي – بيروت – الدار البيضاء.
- كانط (إيمانويل):

46- ثلاثة نصوص: جواب على السؤال: ما هي الأنوار. تعريب وتعليق: محمود بن جماعة. دار محسن علي للنشر، ط 1، تونس 2005.

- مفدري زكرياء:

47- في حصص إذاعية: ظهور الصحافة العربية في الجزائر. تحقيق: د. أحمد حمدي . موفم للنشر. الجزائر. 2007.

- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم:

48- الموسوعة الصحفية العربية: الجزء الرابع، تونس. 1995.

49- الموسوعة الصحفية العربية. تونس. الجزء السادس، 1997.

- د. محمد ناصر:

50- الصحف العربية الجزائرية 1847- 1939. SNED الجزائر. 1980.

51- أبو اليقظان وجهاد الكلمة. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1983.

52- المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطوّرها، أعلامها من سنة 1903 إلى سنة 1931 (جزآن). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1978.

- مركز دراسات الوحدة العربية:

53- حصيلة العقلانية والتنوير في الفكر العربي المعاصر. بيروت 2005.

- محمد خير الدين:

54- مذكرات ج 1. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر (ط 1).

- محمد بيرم الخامس التونسي:

55- صفوة الاعتبار. المطبعة الإسلامية بمصر 1303 هـ/ 1885م.

- د. ميمون (الربيع):

56- نظرية القيم في الفكر المعاصر: بين النسبية والمطلق. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1980.

- مجموعة من المؤلفين:

57- موسوعة المفاهيم الإسلامية: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. مصر الجزء I.

58- المنجد في الأعلام واللغة. المطبعة الكاثوليكية – بيروت.

- واعلي (محمد الطاهر):

59- التعليم التبشيري في الجزائر من 1830- إلى 1904. منشورات دحلب، الجزائر 1997.

- إبراهيم البيوم غانم:

60- مناهج البحث والتحليل في العلوم الاجتماعية – مكتبة الشروق الدولية – القاهرة – ط 1- 2008.

## المراجع باللغة الفرنسية:

-Ageron (CH.R) :

1- Les Algériens musulmans et la France (1871- 1919). Tome 2. PUF. Paris 1968.

2- Actes du XIV Congrés internationale des orientalistes. Alger 1905- 3eme partie. Paris Edit : Ernest Leloux.

-Alex Mucchielli :

3- Dictionnaire des Méthodes qualitatives en Sciences Humaines. 3eme édition, Armand Colin 2009.

-DJeghloul (A.E.K)

4- Eléments d'histoire culturelle Algérienne. ENAL – Alger- 1984.

-Ihaddaden (Zahir) :

5- Histoire de la presse Indigène en Algérie. Des origines jusqu'en 1930. ENAL Alger 1983.

-Kaddache (Mahfoud) :

6- Histoire du nationalisme en Algérie (1919- 1951). T :01. ENAL. Alger. 1993.

7- L'Emir Khaled : Documents et témoignages pour servir à l'étude du nationalisme en Algérie. OPU, Alger, 1987.

-Kharchi (Djamel) :

8-Colonisation et politique d'assimilation en Algérie 1830- 1962. Casbah –édit. Alger 2004.

- Kient (Albert) :

9-Pour analyser les medias : l'analyse de contenu. 2eme édit mame 1971.

- Merad (Ali) :

10 Origines et voies de réformisme en Islam. Extraits des annales de IEO 1960- 1961 . Latypo Alger.

11- Le réformisme Musulman Algérien : de 1929 à 1940 – . Paris Lahay 1967.

- Saadallah (Aboul-Kassem) :

12-La montée du nationalisme en Algérie. Trad : Joachim De Gonzalez, ENAL, Alger, 1983.

-Spielman (Victor) :

13-Colonisation et question indigènes en Algérie (1830- 1921). Alger. 1922.

-Turin (Yvone) :

14- Affrontement culturels dans l'Algérie coloniale (1830-1880) – ENAL- Alger 1983.

- Violard (Emile) :

15- Areski Abdoun et Cie : Hors-la –loi et bandits d'honneurs Kabyles à la fin du XIX siècle, édition Echo-plus, Alger 1998.

## دوريات بالعربية والفرنسية:

## المجلات:

- مجلّة المنار" للشيخ رشيد رضا " (مصر): المجلد 12 (1327 هـ)، المجلد 15 (1329 هـ)، المجلد 19 (1334 هـ).

- مجلة الشهاب " للشيخ عبد الحميد بن باديس " (قسنطينة -الجزائر): عدد شهر ماي 1928، عدد شهر نوفمبر 1928، عدد شهر فيفري 1929، المجلد التاسع 1933، عدد أكتوبر 1937.-(منشورات دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى 2001).

-مجلّة الآداب: جامعة الجزائر 1964، العدد 1.

- مجلّة الأصالة (وزارة الشؤون الدينية) الجزائر 1974.

- مجلّة الفكر السياسي: العدد 25 دمشق، 2006.

**الصحف:**

- إظهار الحق (تونس) 1906.
- المؤيّد (مصر) 1907.
- المضحك (تونس) 1920.
- المنتقد (قسنطينة- الجزائر) 1925.
- النور (الجزائر) 1932.
- النجاح (قسنطينة- الجزائر) 1932.
- المرصاد (الجزائر) 1932.
- البلاغ الجزائري (الجزائر) 1932.
- البلاد (الجزائر) ماي 2005.

## Les revues :

- Revue Algérienne des sciences juridiques et politiques. Volume VI. N°2 Alger 1969.
- La revue Africaine. Alger 1905.
- La revue de Paris n° du 15/11/1899.
- La revue de Paris n° du 1/11/1913.

**المواقع الإلكترونية:**

1-دراسة جامعية في أهمية فقه السنن الكونية (دكتوراه في الدراسات القرآنية 2003) د. إدريس العلمي masho 3.net/ar/contents.aspxAID=960-(مارس 2011)

2-yan zhang et Barbara M.Weldermuther. Analyse qualitative de contenu http:// translate.google.com/translate ?h/=fr et/long par v=er/fret. (28/12/2011).

3-موقع موسوعة المعرفة: http : //www.marefa.org/index.php/.

# الملاحـــق

ملحق رقم (1):

صحيفة " ا لهلال " الصادرة سنة 1906

ا لمحق رقم (2):

صحيفة " اللواء " ا صرية ال كان مراسلاً ا ا زائر بداية من سنة 1906

ا لمحق رقم (3):

جريدة " ا قيقة " التونسية الصادرة سنة 1907، أول صحيفة تونسية نشر فيها تلك السنة

ا لمحق (4):

جريدة " التقدّم " التونسية ال كان عمر بن قدور ا زائري مراسلاً ا ا زائر، سنة 1908

ا لمحق رقم (5):

جريدة " الأخبار " الصادرة با زائر وال أشرف على القسم العر ا رة الأو ا سنة 1908.

وهذا مقاله الأوّل فيها

ا لمحق رقم (6):

جريدة " ا ش " التونسية

كان مراسلاً ا سنة 1911، وأعادت نشر مقالاته " ا ضارة "

ا لمحق رقم (7):

العدد الأول من صحيفة (الفاروق) ال أصدرها عمر بن قدور ا زائري سنة 1913 دينة ا زائر

ا لمحق رقم (8):

العدد (1) من جريدة " الصدّيق " :ال أصدرها عمر بن قدور ا زائري مع مد بن بك التاجر

12 أوت 1920 دينة ا زائر

ا لمحق رقم (9):

العدد (1) من سلسلة (الفاروق) الثانية شكل لّة أكتوبر 1920 مدينة ا زائر

ا لمحق رقم (10)

صحيفة " الإقدام " الصادرة با زائر

وبا مقال له بإمضاء (ع) حيث كان ررًا با 1921 – 1923

ا لمحق رقم (11)

صحيفة " التقدّم " الصادرة با زائر، حيث كان ررًا با سنة 1923 وسنة 1924.

ا لمحق رقم (12)

صحيفة " وادي ميزاب " ا زائرية، وال عثرنا با على آخر مقالاته سنة 1927.



Deuxième année. — N° 12

10 CENTIMES

# Le Croissant

الهلال

جريدة الكفالة حقوق المسلمين تصدر ثلاث مرات في الشهر

RÉDACTION & ADMINISTRATION

Boulevard de France

ALGER

ABONNEMENTS :

Algérie............ 5 fr. par An

France et Tunisie.... 6 — —

Etranger........... 8 — —

نهج بولفار دو فرانس

الجزاير

الاشتراك

الجزاير : خمسة فرنك على كل سنة

فرنسا و تونس : ستة

وفي غيرها ثمانية

Organe des Revendications Indigènes, paraissant les 1er, 11 et 22 de chaque mois

Lundi 11 Mars 1907 — Rédacteur en Chef : GASTON DE VULPILLIERES

ملحق رقم (1):

صحيفة " الهلال " الصادرة سنة 1906



# اللواء

١٣١٧

جريدة يومية سياسية أدبية تجارية

صاحبها مصطفى كامل

المكاتبات

جميع الرسائل يجب أن تكون خالصة أجرة البريد باسم صاحب «اللواء».

ولا ترد الرسائل لاربابها أدرجت أو لم تدرج

الرسائل التلغرافية يكتفى فيها باسم (جريدة اللواء) بمصر

نمرة التليفون (١٩٠)

محل إدارة الجريدة بشارع الدواوين نمرة (٣٦) أمام نظارة الحقانية

صدر في يوم الاربعاء ٧ ربيع الثاني سنة ١٣٢٤ — ٣٠ مايو سنة ١٩٠٦ — ٢٢ بشنس سنة ١٦٢٢

## فهرست

الجامعة الاسلامية
في مراكش
الاتفاق الروسي الانكليزي
حوادث محلية
التلغرافات الخارجية
التجارة
اعلانات

## الجامعة الاسلامية

كثر كلام الصحف الاوروبية والخاصة الدول النصرانية في هذه الايام عن مسألة الجامعة الاسلامية واجتهد أكثرها من المثيرة بمراسل خاص ليهارى الى ايام المسلمين على المسيحيين وعودة الحروب الدينية الهالكة للنوع البشري المضرة لبناء المدنية والعمران

وهذا القول لا يصدر الا من جاهل أو من متعصب يريد تهييج الخواطر ضد المسلمين وجمع كلمة الغرب عليهم أجمعين. لان المسلمين اذا شعروا بحقائق بعضهم نحو بعض وسألوا تضامن أممهم وتوحيد بلادهم وأظهروا الفرح والسرور بكل عمل يؤدي الى عز دولتهم وسؤدد خلافتهم لا يطلبون بذلك انقلاب العالم وقيام المسلم على المسيحي بل يقصدون الارتقاء والرفعة أسوة بغيرهم ويلتمسون السيادة كما فعل آباؤهم من قبل وكما هو حال أمم الغرب وأمريكا واليابان في هذا الزمان

على انه لو كان كتاب الغرب محبين للمدنية حقيقة وميالين لارتقاء النوع الانساني والسعادة البشرية كما يزعمون لوجب عليهم أن يكونوا أول الناس احترامًا للجامعة الاسلامية. لانها مؤدية الى نهوض ثلاثمائة مليون من بني الانسان أي الى حياة عضو من أكبر وأقوى أعضاء العالم الانساني والحضارة وركن من أهم أركان العمران

يدعي بعض الغربيين بالقول ويأمرون [illegible] الجامعة الاسلامية [illegible] على المسلمين.

وانه يجب ذكر الاسلام في الامور الدينية فقط وتركه في الشؤون الدنيوية والوطنية. وما علموا ان الاسلام لم يقتصر على ارشاد الناس لواجباتهم نحو الخالق وفرائض الدينية. بل انه أبان لهم أيضا كيف يعيشون ويرتقون ويسودون. وانه يستحيل على أية أمة اسلامية ان تبلغ الشأو العالي والمنزلة السامية في المدنية والحضارة الا به.

ولما كانت علل سقوط الامم الاسلامية وأمراضها واحدة فأسباب النهوض والارتقاء واحدة أيضا. والحكيم الذي يشير على الشعب المصري مثلا بالمواد يجوز له ان لم يتمم عليه الى توجيه القول لامم الاسلام جميعا لان ما ينفع هنا ينفع هناك

فلا عجب ولا غرابة اذا كانت الشعوب الاسلامية كلها متضامنة في هذا الصدد تنظر الى الحوادث نظرا واحدا وتشعر شعورا واحدا

نرى أن أعداء الاسلام يتألمون ويتوجسون لميل هذه الامم كلها للدولة العلية واحترامها الشديد لخلافتها ومستقبلها وسيرها وتقدمها ولكن لو كان أولئك الاعداء [illegible] لعلموا الحقيقة واحتقروا الاعتداء علينا والسير على خطتنا. لانه من الامور الطبيعية أن كل أمة اسلامية فقدت الاستقلال ووقعت في قبضة دولة غربية تتسلى من هذا المصاب العظيم بوجود دولة اسلامية كبرى ترفع منار الدين وتعلي كلمة المسلمين. فضلا عن شعف الصدر في كل أمة وسكان برفعة الخلافة واعلاء شأنها. ذلك الشعور الذي لا يلومه عليه منصف من أي دين أو من أي جنس كان

أما المصريون فهم مرتبطون بالدولة العلية بهذه الروابط وبرابطة أخرى جديرة بالذكر. وهي انهم مع شدة تمسكهم بالاستقلال وطنهم وحكم أنفسهم بأنفسهم يعتبرون بلادهم جزءا من المملكة العثمانية متصلا مع بقية الاجزاء [illegible] الدولة العلية [illegible] من المملكة البريطانية. فحب هؤلاء لبلادهم لم يحول بينهم وبين الاخلاص لهذه المملكة

[illegible]

الملحق رقم (2):

صحيفة " اللواء " المصرية التي كان مراسلاً لها في الجزائر بداية من سنة 1906

• عـدد ١٣٢ • • ثمن النسخة ٥ صانتيمات • • السنة الاولى •

# (الحقيـقة)

GL HAKIKA

يتلك زن معاني القول واسلك • سبيل الحق فى اهدى طريقه
وفتش عن حقيقة كل شئ • فلم يخب امرؤ تبع الحقيقة

مدير الجريدة وصاحب امتيازها
عثمان بن عمر

• ادارة جريدة الحقيقة نهج الذهب عدد ٩ •
عدد التليفون ٤٧٦
***
• المراسلات •
ترسل خالصة الاجرة ومعنونة باسم مدير
الجريدة ولا ترد لاصحابها نشرت او لم تنشر
*****
قيمة الاشتراك لا تعتبر الا بتوصيل مقتطع
ممضي باسم المدير

PRIX DES ANNONCES
1re page, 4 fr. la ligne ; 2 page, 1 fr 50 ;
3 page, 1 fr. ; 4 page, 0 fr. 75.
Pour les annonces à insérer dans plusieur numéros on traite a forfait avec la Direction

الاشتراكات تدفع سلفا
في الحاضرة و بلدان المملكة
عن سنة . . . . . . . . . ١٨ فرنكات
***
فى قطر الجزائر
عن سنة . . . . . . . . . ٢٠ فرنكات
• في بقية الممالك •
عن سنة . . . . . . . . ٢٥ فرنك
• أجر الاعلانات للسطر الواحد •
فى الصحيفة الاولى ٤ فرنكات وفي الثانية ١.٥٠ وفي الثالثة ١ وفي الرابعة ٧٥ صانتيما

• تونس يوم الاربعاء ٢٨ جمادي الثاني سنة ١٣٢ • • جريدة يومية اخبارية سياسية ادبية عدلية • • الموافـق ٧ اوت ١٩٠٧ •

المعاهدة

الفرنساوية اليابانية

وقفنا على مذاكرة وقعت بين رجال الساسة الفرنسويين نشرتها جريدة المؤيد الغراء ولما فى ذلك من الفائدة احببنا نشرها للقراء

قابل احد محرري جريدة « ايكودي باري » المسيو هارومان معتمد فرانسا السابق فى اليابان وحادثه في المعاهدة الفرنساوية اليابانية فلم يضن عليه المعتمد برايه وها نحن نعربه ليقف القراء على مبلغ احترام الدول الاوروبية للدولة اليابانية الحديثة

ان المانيا تحتفل بالصحافيين الانكليز الذين اتوا ليظهروا مبلغ الراى العام الانكليزي وانه ميال الى الاسلام وانه ليس هناك غرض سيء يرمون اليه ومن الواجب علينا ان نقول كلمة عن اولئك الذين اتخذوا الورق سلاحهم لمنع الحرب حتي يسود الوفاق العام بين الجميع فلنتتبع هؤلاء الرصفاء ولنقف على خطبهم التي يلقونها في المآدب التي تؤدب لهم لنخرج منهم بفائدة لنا

يوقع الان على المعاهدة الفرنساوية اليابانية وتسعى الروسيا في ابرام معاهدة اخرى مع اليابان التي هزمتها في الحرب الاخيرة. وقد فكرت في ان ابدي رايي بالدقة فى هذه المسالة وان استخرج اللب من القشور، رايت انه كان لنا منذ انتهى عشرة سنة رجل عظيم بوظيفة معتمد لفرنسا فى اليابان وهو المسيو هارومان الذي استقال من وظيفته ونال لقب معتمد شرفى جزاء قيامه باجل الخدم لفرانسا وفي وسعه ان يؤدى لها خدمات ايضا ولا اري عندنا رجالا مثله يعرفون مجرى الاحوال اليابانية ممن وقفوا على اخلاق هـذا الشعب وجذب قلوبهم فهو ان تكلم عنهم فانما يتكلم كانه صديق لهم يعلم كل ما يجري فى بلادهم ولما ان قصدته عرضت عليه السؤال الاتى :

ما راى جنابك في مركزنا في الشرق الاقصى وما رايك فى المعاهدة الفرنساوية اليابانية فاجابني بقوله

ان مركزنا حسن وان اتفاقنا مع سيام الذي ينظر فيه البرلمان الان واتفاقنا مع اليابان الذى احدث ضجة عظيمة والذي لا يعلم فحواه الى الان وان يكن رسميا سيكونان لنا بمثابة ضمان للامن من هذين الشعبين نذب به عن املاكنا فى الهند الصينيه وندافع عنها من غارة الاسويين عليها واصرح لك الان باني لما رايت بوادر الحوادث قد تطرقت الى الامة اليابانية فاثارت الحرب على الصين وراجعت المعاهدات القنصلية وحاربت البوكسور ثم الروسيا ولم افكر قط ولن افكر ان حكومة الشمس المشرقة ستغير يوما ما على الهند الصينية وارى انه يوجد بالقرب من اليابان املاك للدول الاوروبية تهم اليابانيين اكثر من املاكنا وقد قيل ان اليابان طمعت في الهند الصينية لوفرة الارز فيها وقال قوم آخرون ان مسالة الارز هي التي دعت اليابان لغزو منشوريا وهـذا خطا محض لانه وان كان عدد سكان هذه المملكة قد ازداد بسرعة في زمن قريب فان القسم الشمالى من جزيرة هندو وبلاد هوكايدو هو عبارة عن خزان اقتصادى عظيم لمستقبل اليابان يمكنها بها ان تغذى ابناءها واعتقد تماما ان من السهل بل من الفائدة الكبرى للمملكة ان تشترى هذا الارز بطرق التجارة بدلا من ان تثير الحرب فى الحصول عليه وتنفق في سبيل ذلك القناطير المقنطرة من الذهب . ومن الشرف العظيم الذى نحفظه للشعب الياباني ان مطامعه ارفع من ان تتوجه الى اسباب مادية

ارى ياجناب المعتمد ان من مصلحة اليابان ان لاتزعج فرنسا ولا يوجد هناك من ينظر للهند الصينية بعين سوء وان كل آمال اليابان متجهة الى عقد قروض من اوروبا ولذلك ارى انه واجب عليها ان تحسن علاقاتها وتتفق مع فرنسا والماليين الفرنسيين

هذا شيء محقق وهو من اهم ما تتطلع اليه انظار اليابانيين ليعتمدوا على اكبر الاسواق المالية في الدنيا . فاليابان فى حاجة للنقود الفرنسية وللبورصة الفرنسية ولكثرة مواردنا الطبيعية وللعمال الماليين الفرنسيين والمعاهدة تتبادل بها المحافظة على املاكنا حتي نحصل على نتائج عظيمة تعود

وانت ترى اننا عملنا دائما طبق هـذه الاتفاقات مع خلفائنا الذين يسعون جهدهم في تجنب الازمات وقد تعاهدنا ايضا مع جيراننا الانجليز على ان نقوم بتاسيس اول هيئة متفقة وكنت اول من سعى هذا المسعى وانى لمنشرح الصدر الآن لانى اري ان هـذه الهيئة قـد تكونت ولايسعنى الا ان انظر الى الاتفاق الذي يشغلنا الآن والـذي كان يتوقع من الاحوال السياسية الحديثة التي نشات من ظفر اليابان والى التقرب من بريطانيا العظمى والى اعتراف هذه المملكة العظيمة بضرورة السلم بين الشعوب الاوروبية وبين العالم كله .

الملحق رقم (3):

جريدة " الحقيقة " التونسية الصادرة سنة 1907، أول صحيفة تونسية نشر فيها في تلك السنة

Ettakaddom

JOURNAL QUOTIDIEN ARABE. PARAISSANT LE MATIN A 4 ET 6 8 PAGES

السنة الثانية | ثمن النسخة ٥ سانتيمات داخل القطر و١٠ سانتيمات في الخارج | عدد ٨٣

صاحب الجريدة ومديرها

البشير الفورتي

الاشتراك

٢٠ فرنك عن سنة داخل القطر وخارج تضاف اجرة البريد

لا تقبل الاشتراك وغيرها الا اذا كانت ممضاة باسم صاحب الجريدة

المكاتبات

ترد باسم صاحب الجريدة ومدير سياستها عن الادارة بطحاء باب منارة نهج الحقيقة عدد ٧

# التقدم

١٣٢٥

جريدة يومية سياسية أدبية تجارية

رئيس التحرير

الشاذلي المورالي

Correspondances
Toutes les lettres destinées à la Rédaction doivent être adressées au Directeur
Béchir el Fourty

Administration
2, Rue de la Vérité. — TUNIS

Annonces
Pour tout ce qui concerne les réclames et annonces on traite de gré à gré au bureau du journal.

تونس يوم الثلاثاء ٢٨ رجب | واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا | الموافق ٢٥ اوت عام ١٩٠٨

## حديث مع الصدر الاعظم

( رسالة من مكاتب « الجورنال » )

الاستانة في ١١ اوت ١٩٠٨

اليوم قد نلت الشرف العظيم اذ اقتبلني سمو كامل باشا الصدر الاعظم بالباب العالي اي، صاحب اعلى منصب واقوى نفوذ بالامبراطورية العثمانية بعد جلالة السلطان. وهو حادث يعد في خطة صحافي مثلي! ومهما كان الانسان قد تعود في باريس بان يخالط كل يوم وزراء اليوم وامس أو غد ويقترب بكل سهولة من المسيو بيشون او المسيو بريان ويواجه بدون مزيد رهبه خشانة المسيو كليمانسو التي لا ينكر انها صادرة عن قلب سليم وانها لتعجبني منه ومهما كان الانسان قد ركض في العالم وزاحم السياسيين وامراء الجيش وامراء البحر وتحدث مع السياسيين الذين يدهم اعلى نفوذ والكتاب واهل الفنون والمثرين واصحاب المناصب الدينيه والامراء والاميرات وغيرهم من ذوي الاقدار وبالجملة فمهما كان الانسان قد قل من اهتمامه بالامور الرسمية لتكرارها عنده فانه لا بد ان يحس ببعض الخفقان عند دخوله على اكبر ممثل لامير المومنين.

ولعل ذلك من متعلقات الخيال وخصوصا التربية اذا كان الانسان قد اكثر من قراءة الروايات والقارىء يعلم ما يتصوره الانسان عند قراءة الف ليلة وليلة (١) من خوارق العادات نعم اني اتحقق ان الحالة قد تغيرت شيئا ما عن عهد شهر زاد ولكنني اليوم في صبيحة من اغسطس ثقيلة ومحرقه والخيل تركض بي في غفير من الاكراد والارناووط والاتراك والروم والارمن والمالطيين في ازقة مدينة شرقية لم اتمالك عن ذكر تلك الخرافات المزخرفة.

( يتبع )

(١) هذا الكتاب المذول عندنا له عند الافرنج من الاهمية بقدر ما فيه من الغلو ولقد احببنا ترجمة الرسالة بنصها لاطلاع القاري على ما يكتبه كتاب الافرنج بدون تغيير

## الجزائر

( في ١٥ اغسطس لحضرة مكاتبنا الفاضل )

### الازمة الدينية

تابع ما قبله

نص القانون المؤرخ في ٢٧ سبتمبر عام ١٩٠٧، القاضي بخضوع اقسام الجزائر للقانون الفاصل بين الدين والحكومة المؤرخ في ٩ ديسمبر ١٩٠٥، و ٢ يناير ١٩٠٧ و ٢٨ مارس ١٩٠٧ يصرح بان اجل القطع التام بين الدين والحكومة الى نهاية ٢٨ سبتمبر ١٩٠٨ فمن كانت له غيرة على دين ونخوة على يقينه يشكل هيأة تقوم ببيوت العبادة ولوازمها والا فان الحكومة تحتوي على تلك البيوت ان لم تجد امامها هيأة مشكلة للغرض المذكور ولذلك اسراع الاسرائليون الى تشكيل جمعية دينية وقتية في ١ من شهر يناير ١٩٠٨ وكان المسلمون اذ ذاك في غفلة عن هذا الامر خصوصا وان الرؤساء والافاضل المتبرين لا عبرة لهم بخدمة الامة فهم الافة العظمى التي وهنت جسم الشعب الجزائري واضنت عظامه ( وقد ظهر شرهم فعلا وبان في هذا الاولن كما سيري القارى ذلك مفصلا فيما يأتي) الى ان قيض الله انتخاب الامة لرجال غيورين في المجلس البلدي الجديد. زبدة اجتهادهم اسقاط قانون « أنديجية » عن سكان العاصمة فيما يخص المجلس البلدى كما ذكرنا ذلك في حينه وتشكيل جمعية للاوقاف والاستقلال بالقيام بشئون الدين الاسلامى الحنيف

ولما كان ذلك العمل بالامور المهمة التى يجب على الصحافى ان يخدمها ويذود عن حياضها انتهزنا الفرصة لمقابلة حضرة الهمام الغيور السيد مصطفى ابن الحاج موسى العضو الاول بالمجلس البلدي واحد الرجال القائمين بالمهمة التى نحن بصددها فقصدناه يوم ٠٠ يوليه المنصرم برفقة صديقنا حضرة السيد حمدان حمود وحضرة السيد محمد ناصر الدين فاقتبلنا المزور بوجه باش واكرم مثوانا وبعد التحية والسلام فاتحناه بالسؤال عن كيفية تشكيل هذه الجمعية وما هي الخطه التي تسير عليها بازاء الحكومة فاجابنا حضرته :

« بناء على المادة المسطرة بقانون الفصل بين الحكومة والدين القاضية بان كل بيت عبادة بقيت مهملة بلا قائم بعد ٢٨ سبتمبر الاتى تعتبر من املاك الحكومة حينا — قضت علينا الغيرة الاسلامية والنخوة الانسانية التقدم في حماية بيوت عبادتنا ومساجدنا التي اسسها ايدى ءابائنا والبحث عن الاوقاف التي حبسها جدودنا الاولون ولذلك شكلنا جمعية وحررنا لها قانونا بعثنا به الى عامل العمالة واخذنا منه توصيلا مقابل ذلك وسألناه هل تقوم اثاث المساجد كما تقوم اثاث الكنائس وجوامع اليهود فاحال السؤال على « الدومين » فذهبنا اليه وسألناه عن ذلك فاجابنا بانه ليس لديه اذن في هذه النازلة خصوصا وانه لا يرى في المساجد الا انها ملك للحكومة فلا حاجة الى التقويم فامرناه بتنفيذ هذا الامر فاجاب بانه مهما يصله امر بهذا الخصوص يسعى في تنفيذه فرجعنا من عنده الى العامل وامرناه بتوجيه الدومين لاعتبار المساجد مثل الكنائس. اما قانوننا فانه تحت الطبع ولدينا الاصل.

( يتبع )

الملحق (**4**):

**جريدة " التقدّم " التونسية التي كان عمر بن قدور الجزائري مراسلاً لها في الجزائر، سنة 1908**

يـوم الاحد ٢٠ في صفر عام ١٣٢٦ — ثمن الورقة ١٠ صانتيما — عدد ٣٥٢٠

الاشتراك يدفع سلفا
في بلدان شمال افريقيا
سنة كاملة.............. ١٠ فرنك
ستة اشهر.............. ٥ فرانك

الاعلانات في القسم العربية
—
سطرلواحد........ نصف فرنك

# الاخبار
## جريدة الجزاير

ادبيـــة سياسيـــه

مديـر الجريدة
ڤيكتور باروكـــان

رئيس تحـريـر القسم العـربي
عمر بن قدور الجزائري

ادارتهـــا
نهج بولپاردبوانس عدده بعاصمة الجزائر

* مبدانـــــا *

( بـقـوة الـوطـنـيـة نـتـقـدم )

* طالمـا سخرت اقلام اهل الغرض وعبثت بوجـل الوطنية الكرام وقدمت نحوهـا وابلات من الثلب الشنيع لمقامهـم العظيم شان من رام هدم الصروح العالية بمقدوفات الوهـم ومعاول الخيال على حين انه مقيد بالعجز ومحوط بالاخطار فلم يلبث ان يرجع خاسئا مذمومـا مدحورا. حلتنا تلك القوة الوطنية بسلام ووئـام وزفتنـا الى مخطبة قراء « الاخبار » الكرام بعد ان اخذت منـا العهود والمواثيق الاكيدة العظيمة على ان لا نعبث بحقوق الصحافة الجليلة فمن المستحيل ان نهمل تلك الواجبات وندرجهـا في طي النسيان

⁂

اندفعنا الى التربع في اريكة النصح العام والارشاد التام لما شنع علينا حزب الغرض لمـا كانبنا الاجانب ولو يدري القارئ اللبيب فـان رجال الصحافة المصرية والتونسية اجانـب لا ندهش من تهورهـم وتحيير

⁂

فقد جئنا الى عاصمتنا ومسقط راسنـا تلك الارض التي غذتنا برزقها والقت على كهولنـا حقوقا لا يجوز لنا ان نلغيها ونجعلها كالعدم. كي نحقق رجاء وطنيتنا ونجل قدرها ومجدها العظيم فقد جئنـا المدخل بجريدة « الاخبار » في دور جديد من التقدم والنظـام ويسرنـا ان نحل محل المحرر السابق الغيور الوطني الاديب صديقنا السيد معمر بن الحاج رابح الذي اسس بنيان هذا الدور بحسن سياسته وقوة وطنيته

⁂

جئنـا الان لندافع عن الحقوق ونظهر شكوى الامة الجزائريـه ونخدم الانسانية ونسيروا على النهج الحقيقي المستقيم. ولـم يذر بخلد نا قط ان سعينـا هذالـه علاقة خصوصيه بالغرض الخصوصي بل ليس الا الخدمة العمومية التي تنال بها الامة الفرنسوية القسط الاعظم من المنفعة والخير. فالمبدا الذي يجب علينـا ان نحميه ونقوم بخدمته ونجعلـه اساسا متينا لاعمالنا هو « الوطنية » وكفى بها قوة اذ بمثلها تتقدم الامم وتسدد الهمـم

فلتحي الجزائر! وليعش كل حر!

عمر بن قدور الجزائري

—•••—

* الـشـعـب المتحـضـر *

« او »

( الـبلاد الميتة )

"La Ville mourante"

—

* الحياة لا تخفى على احد سوالف اوجل نفوذها في امة من الامم وعلاماتها تبدو من وراء الحجب الغليظة المتينة وتتشعشع انوارهـا من بين الغيوم الكثيفة وهكذا حال ضرتها الموت ايضا تبعث نذيرهـا وتقدم شاراتهـا تلك الشارات التي هي السكوت والنوم والامتثال والخنوع والركون الى الكسل كمـا ان من علامات الحياة رفع الصوت واليقظة والتقدم والعمل

وقد تلقت الامم الغربية دروسـا جليلـة ان لا حياة لها ما لم تظهر بالحركـة والعمل والقول الصريح وبذالك تبين لها ان الحياة لا تكون في قلب من لـم يتكلـم « لان القبور هي التي لا تتكلـم » فتقدمت في هذا المضمار واندفعت مع تيار الحياة الحقيقة فلذالك ترى كل فرد منها ينادي بزايه ويصيح باعلى صوته ويقول بلا خوف ولا فزع ولا خشية ولا وجل: « هاذه بلادي واوطاني العزيزة حقوقها علي عظيمة فلا طلبن خيرها وسعادتها ولاقضين حقها بكل جهدي »

وباهتمام الغربيين وتزاحمهـم في هذا السبيل تيسرت لهم اسباب الحياة وجنوا ثمرتهـا الحلوة الطيبة وتقدموا تقدما باهرا. تقدموا تقدما مريعا دفعهم الى استرقاق من ظهرت فيهم شارات الموت فقضوا عليهم شر قضاء واستعبدوهـم واخضعوهـم وملكوا ازمة امورهم في جلب المنفعة ودفـع المضرة وهكذا تكون عاقبة من لم يتكلـم ويتقدم ويحي بالحياة الحقيقة

(يتبع)

—•••—

* لا زال يسرني *

—

* يـودع الغيور الاديب والوطني اللبيب صديقنا السيد معمر بن الحاج رابح القراء الكرام حيث انتطى صهوة العدالة بمحكمة عين الريش

الملحق رقم (5):

**جريدة " الأخبار " الصادرة بالجزائر والتي أشرف على القسم العربي المرة الأولى لها سنة 1908.**

**وهذا مقاله الأوّل فيها**

359 دو


عـدد ٢١ | عشرة سانتيمات | السنة الاولى

# المشير

EL-MOUCHIR

* نشرة اسلامية اصلاحية عمومية اسبوعية *

اسست في غرة محرم ١٣٢٩ — غرة جانفي ١٩١١

الادارة

نهج بـاب السويقة عـدد ١٨٣ بتونس

*Le Directeur - Rédacteur - Gérant :*

**TAIEB BEN AISSA**

BUREAU : Rue Bab-Souika, 183

TUNIS

* اصـول المـواد *

المقالة الافتتاحية — المراسلات الاصلاحية

الاحوال الاسلامية — الافكار الخصوصية

الاحوال المحلية — المحاورات الاقتصادية

الاحوال الافاقية — التراجم الكبيرة

الاحوال الاجنبية — المدنيات الاستطلاعية

النشريات الخيالية — المنطقيات الادبية

الفكاهات الحكمية — النفائس الشعرية

المدرجات التقريطية — الاعلانات العمومية

* الاشتراكات *

داخل الايالة عن سنة سلفا ........ ٨ فرنكا

خارج الايالة عن سنة سلفا ........ ١٠ —

* المراسلات *

تكون واضحة الامضاء وتدرج ان كانت فائدتها عامة مع التنقيح

* الوصولات *

لا تعتبر إلّا متى كانت مختومة بطابع المدير الطيب بن عيسى

* الاعلانات *

تنشر مجانا للمصالح العامة وبالثمن الزهيد للمصالح الخاصة

يوم الاحد ١٠ رمضان ١٣٢٩ | ان اريد الّا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الّا بالله عليه توكلت واليه انيب | Dimanche 10 Septembre 1911


# مثقـلات المـوظفـات

او

## اداء العشر وخطاياه

مهما يكن من الاسرفات ميزان العشر في تزايد لا في تناقص وحذف الصانتيمات الاضافية عوض بالبات الخطايا العمومية . فلا وجه لادعاء الادلوة المالية ايانا بانها خففت بدون ما انقلت ولا انها حذفت ... المقررة السنة يعادل السنة الماضية . وما وقف على الحروف التونسية هو ربح وفائدة . وازمة المداخيل الرسمية سوف تتكفل ببث تلك المعلومات الصادقة

ان المزارعين الوطنيين كانوا في السنة الفارطة قد رفعوا اصواتهم وقدموا عرائض شكاياتهم واوفدوا اللجان وانابوا عنهم من يقنع الادارة بان طرح الصانتيمات الاضافية واجب لا محيد عنه وان صغار الفلاحين على الاخص اصبحوا والخطر يهدد حياتهم المعاشية لان دخلهم القليل لا يوافق ان تستحوذ الخزينة على معظمه وتبقيهم لا يجدون ما ياكلون رغما عن كدهم ونشاطهم ومباشرتهم خدمة اراضيهم بانفسهم . وهذا هو الاستعمار بالمعنى الحقيقي الذي يستحقون المجازاة عليه لو كانوا فرنسيين بل اوروبيين ولكنهم لن يستطيعوا ان يقتاتوا اردئ العيش بعد مقاساتهم اتعاب الحر والقر طول العام بالتمام . وما ذاك إلّا لانهم لا يفضلون ما يلزم لضروريانهم في الوقت الذي يدفعون فيه معلوم البقاء في الجو اي فوق الارض وتحت السماء وهو ( المجبى ) ثم معلوم العشر الذي يكاد يكون موازيا لنصف دخل الفلاح ثم معلوم الزيتون الذي لا تاتي صابته في سنتين متواليتين غالبا واداؤه رسمي لا يترتب على الانتاج ثم معلوم المراجيع ثم معلوم المساكن الذي صار منسحبا حتى على القرويين ثم .. ثم .. الخ .. الخ ..

ان الطبقة الكبرى من التونسيين لا تشتغل إلّا بالفلاحة لان البلاد التونسية زراعية قبل كل شيء ومن القديم والارض هي المورد الاول الاصيل الذي تتكل عليه الهيئة العامة . ولا مشاحنة في ذلك فالطبع ان الوطن الخصب هو الجدير بالزراعة خصوصا اذا كانت مواد الصنائع ومهوجات المتاجر مفقودة

وبهذا يظهر ان كل عقبة توضع في طريق الفلاحة هي ... على ... ومقيتة لـه جوعا

فالمساعي المذكورة التي تبديها الادارة نحو المزارعين التونسيين هي ضربات قاضية وعوامل فتاكة واخطار مفجعة ونوائب هامة

ما كاد الوطنيون يرتاحون من الصانتيمات الاضافية التي اظهروا استياءهم من توظيفها حتى فاجأتهم الخطايا التي فيما يقال بلغت خمسي ميزان العشر بتمامه

ومن المستبعد بل ربما من المستحيل ان يكون جل الفلاحين يخفون او ينقصون ولا يرسمون باعلاماتهم البذر الحقيقي او اكثر على سبيل الاحتياط

هذه دعوى لها دليل لاني اجتمعت بكثيرين وذاكرتهم في شان الازمة الفلاحية والنوائب التي صبتها الادارة صبا من توظيف وتثقيل وتشديد عند التقييد والقيس وابان الاستخلاص . ومن جملة ما عرفته ان هنالك اناسا يرسمون فوق ما يبذرون خوفا من الخطايا التي تتساهل في امرها الادارة لمجرد تلحيظ يقدم من طرف مراقبي القيس

وانكى من كل ذلك ان الدولة منحت كل من يستعمل الالات العصرية اعفاء التسعة اعشار لاحياء الاراضي الميتة . وبموجب ذلك اتخذها كثيرون من الوطنيين في خدمة اراضيهم إلّا ان ان القياسين احيانا لم يصدقوا التونسيين في ذلك ولو اقاموا الف برهان وعلى العكس مع الاوروبيين فقولهم هو الصواب

ولاجل كل هذا فلا محيص من دفع المعاليم الثقيلة بحق وبدون حق ابتغاء مرضاة مصلحة الميزانية والاستخفاف بصفة المغلوبين على امرهم ولا شك ان الادارة تقبل كل درهم يضاف للمدخل الطائري كما لا ريب في ان الذين يتحرون يلتجؤون لذلك لما يعرفون من انهم لو اعلنوا بالقدر الحقيقي لا يصدقون وعند القيس يخطئون واذا عارضوا وشكوا وطلبوا اعادة النظر فمصاريف اللجنة الثانية عليهم الى ان يثبت احتجاجهم وانى يثبت ...... واعلموا ان الادارة لا يغلطون في نظرها ......

ان نص القانون قاض بالغاء بعض الخطايا او كلها لو فرض وجود الا ... او النقص كما ان القرارات الادارية نحو ... بتصفات متعددة وقد كان كذلك عملها ... [illegible] ... العام الماضي ترضية للفلاحين المتضجرين من الصانتيمات الاضافية وتنذ قانها لم تطلب احدا منهم قط اعتمادا على المعاليم المزيدة غير انها في هذه السنة تشبثت بالتثقيل ولم تر رحها التساهل كأن ادامات الحرف غير داخلة في الميزانية ...... ولم يكن ذلك عن تدرج بل دفعة واحدة ضمت نحو الاربعين في المائة وان ذلك التوظيف الحديث لا تستهان كميته فهو يكاد يعادل اداء العشر

قد تعتبر هاته الخطايا خطرة على الفلاحين خصوصا الوطنيين ولا سيما الصغار منهم الذين يعجزون عن العيش البسيط والقوت الضروري والذين هم اولى بالعناية والالتفات لحالتهم التي اسوا عليها والاحتياج يتابعهم من كل جهة وجانب

وليس الخطر يخص طائفة معينة تناهى بها الضعف بل يعم كل الفلاحين لان درجتهم اصبحت متساوية فمنهم من فنى راس ماله من القديم ومنهم من قضى على راس ماله القرض او القروض ومنهم من اضعفت قوته الكسبية الادامات الرسمية . فالكل على نسبة اقرب للتوازن والضعف عم . ولسوء الحظ ان الادارة لم تعبا بكل تلك العوارض وتحسب ان الناس لا زالوا مترفهين مترين

غلطا تزعم الادارة فالوطنيون آلوا في الفقر الى منزلة قد لا تتصورها العقول . وان المفكرين ليحارون في اسباب عيش الجيل العظيم ولو مع البؤس لان الموارد الحيوية سدت ابوابها في وجوه الهيئة العامة باجمعها ولم يغادر الخطر احدا

فالمضايقات احاطت حول كل فرد بلا استثناء حتى انهكت منه القوة المالية وابقته تعيسا منكودا اذا انجلى هذا فلا نزاع في ان كل تكليف يجبر عليه هو فوق طاقته واستطاعته . والمرء متى حمل على ما لا يقدر عليه يصبح في الارتباك الكبير الذي لا يتملص منه ولا يرى ما يهون عليه الشدة إلّا الموت العاجل

ذلك تشخيص للنوائب المفجعة والامراض الحالية المتزايدة في التعاظم والتي يقاسي بسببها الفلاحون انواع الشدائد المتكاثرة النامية

واذا كانت الزراعة هي اول وسيلة حيوية يتكل عليها الوطنيون فكل بادرة تقاومها هي عقبة كؤودة في سبيل اكل الرغيف فضلا عن غيره

وان المطلعين على احوال الايالة يعرفون جيدا ان الطبقة العامة لا تاكل إلّا الشعير ولربما لا تجده في الماضي اما في القابل فلن تجده بالتحقيق وهذا مما يدل على ان القوم لم يعد في اصطبارهم مقاساة ما سيتلو تلك المقومات والمفجعات

النظر البعيد يعاين الامراض بجسامتها والبصر القاصر لا يرى ما سترته الرحمة الربانية

للادارة ان تعتمد على ذلك النظر دون هذا البصر كي تكون منصفة فيما تشرع وعادلة فيما تسن وإلّا فالنقل على الانصاف والعدل السلام

نحن الاحرار يحق لنا ان نظهر كل المساوي مع التنديد عليها وان كان الرجاء كاد ان ينقطع والراي الدام على هذا الاياس

سالت بعض الاعيان من الفلاحة لما شكوا الي من الطامة الكبرى المشروحة عن الدواعي التي حملتهم على السكوت بعد ما كانوا في الفارط يحاججون ويعارضون فلم اسمع من غالبهم سوى هذه الجواب ( انا اذا فعلنا ذلك فقد حاولنا المستحيل . ولاخير في تعب لا نفع وراءه )

سقت هذا لتعرف الادارة ان السكوت ناتج عن الاياس لا عن الرضى وان التسليم للقضاء والقدر صار حتما

ان الرفق هو العامل الاصلي في استمالة القلوب وايجاد التحابب فالاولى السعي اليه بدل الشدة التي لا تعقبها إلّا النفرة

ان السعادة العامة تطمح اليها كل النفوس بطبيعتها فكل حكومة تهتم بها قد احكمت السياسة وبثت المجد التاريخي والرجاء ان تلتفت الحكومة الى طريقة مثلى في التخفيف لتكون من هذا القبيل الهمها الله اليه

الطيب بن عيسى

## الاحوال الاسلامية

### الرفض الاخير لمشروع التجنيد الجزائري

(١)

المعت في رسالتي الاخيرة بمعلوماتي في مسئلة تجنيد المسلمين بالاقطار الجزائرية وأعربت عن معارضة المسلمين الحكومة في هذا الباب ورفضهم لهذا الطلب المرار العديدة بناء على الدعاوي التي اقامتها ولا زالت تقيمها الظروف والسياسة هنا .

والمسلمون محقون في رفضهم لهذا المشروع لانهم لا ينالون من هذه الظروف نفسها الّا الضغط الشديد ويسمون في كل وقت ما يخل باحساساتهم الدينية وشعائرهم القومية ولم يروا بعد ما بذل فريق منهم جهده في خدمة فرنسة بكافة المواطن الحربية وخصوصا في مراكش شيئا من الاحترام اللائق بقوم لهم خلاق عظيم مثلهم . نعم ان الفرنسويين لا يرون لهذا الاحترام داعيا يدعو اليه في نظرهم ولو بقوا عند هذا الحد لقنعنا وصبرنا وقلنا ما لنا من محيص ولكنهم يمنون علينا كثيرا بنظامهم وعدلهم وعلومهم واصلاحهم ونجدهم واشياعهم وكل يوم بهذا المن يصرخون .

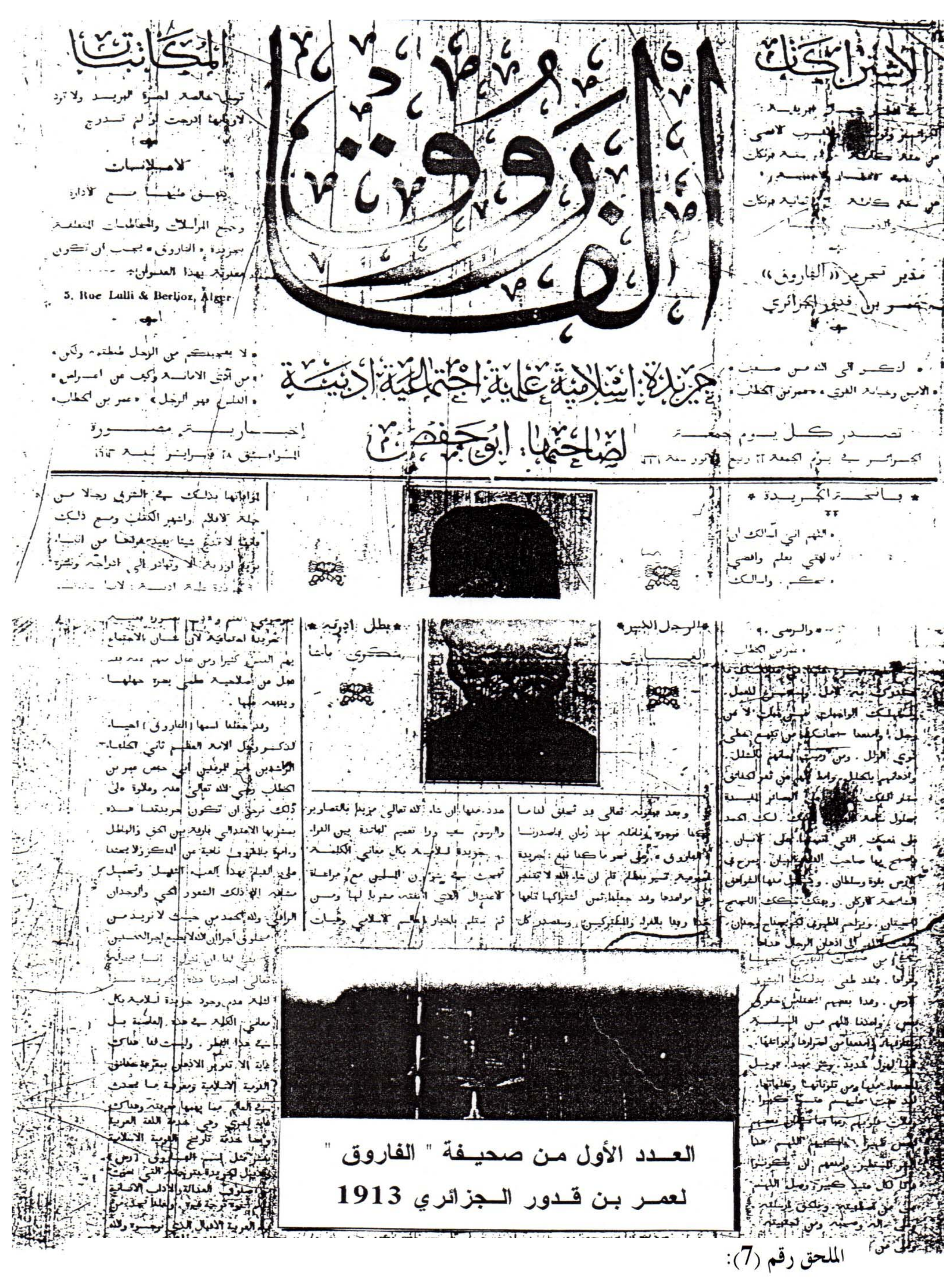
قلت ان الحكومة وجهت لائحة تتضمن تعريف الاهالي بقرب أوان التجنيد والحقيقة ان ذلك التعريف لم يكن الّا جسا لنبض الراي العام الإسلامي في المسئلة والآن اذكر واقعة التعريف وكيف رفض المسلمون في العاصمة مشروع التجنيد الرفض البات .

في يوم الجمعة ٢١ يوليو التأم المجلس البلدي كعادته فقدم رئيسه لائحة الحكومة لاعضاء المسلمين الستة والتمس منهم ابداء افكارهم في المسئلة . فاجابه عميدهم السيد مصطفي بن الحاج موسى بموافقة زملائه بان خطر هذا المشروع عظيم وان الاهالي لا يقبلونه ابدا ما داموا في الهيئة المنحطة يتخبطون . واقنع الرئيس بانه لا يستطيع هو وزملاؤه ان يقدموا للحكومة الراي الصريح وان الراي العام هو المعول عليه في هذا الباب . والتمس منه ان يرجع الى اعيان العاصمة ويسمع منهم الراي البات في القبول والرفض . فتقرر آنئذ استدعاء اربعين رجلا من

الملحق رقم (6):

جريدة " المشير " التونسية

كان مراسلاً لها سنة 1911، وأعادت نشر مقالاته في " الحضارة "



الفاروق

جريدة إسلامية علمية اجتماعية أدبية

لصاحبها أبو حفص

تصدر كل يوم جمعة

الاشتراكات

مدير تحرير (الفاروق) عمر بن قدور الجزائري

المكاتبات

الاعلانات

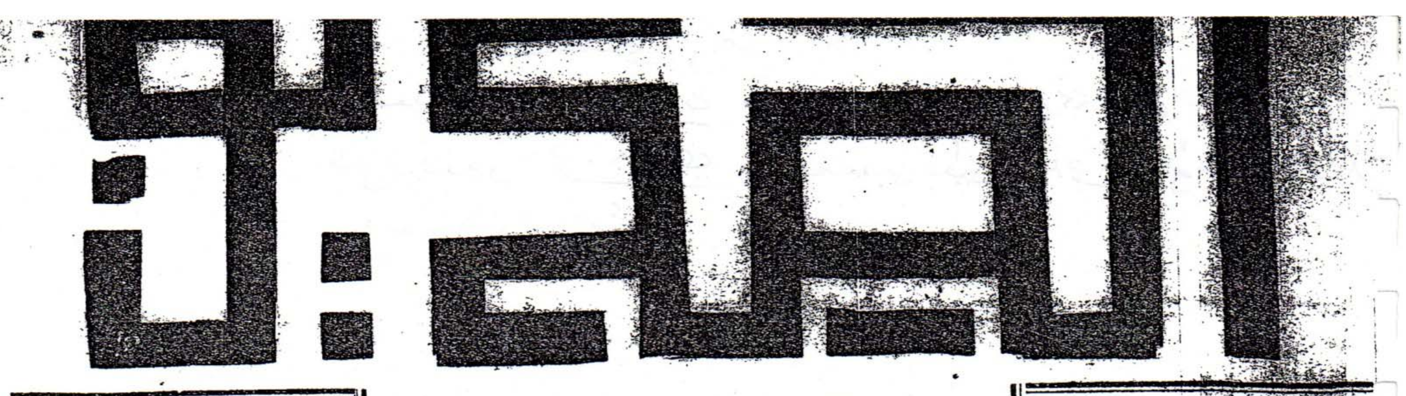
جميع المراسلات والمخاطبات المتعلقة بجريدة «الفاروق» يجب أن تكون معنونة بهذا العنوان

5. Rue Lulli & Berlioz, Alger

العـدد الأول من صحيـفة " الفاروق "
لعمـر بن قـدور الـجزائري 1913

الملحق رقم (7):

**العدد الأول من صحيفة (الفاروق) التي أصدرها عمر بن قدور الجزائري سنة 1913 بمدينة الجزائر**




الاشتراكات

ثمن الاشتراك في كافة اقطار شمال افريقيا « الجزاير وتونس ومراكش » من سنة كاملة خمسون فرنكا ومن نصف سنة ثلاثون فرنكا والدفع يكون سلفا

صوت الاسلام بافريقيا الشمالية

يدعو الى التعارف و اقامة النصوص الدينية وتهذيب الاخلاق ونشر المعارف والعلوم العربية وتاسيس المشاريع العلمية والاقتصادية

يصدر مرتين في الاسبوع يوم الاثنين ويوم الخميس

لصاحبيه

عمر بن قدور الجزائري وهو المدير ورئيس التحرير

ومحمد بن بكير التاجر وهو الوكيل ومتصرف الادارة

المراسلات

ترسل خالصة اجرة البريد ومعنونة باسم مدير جريدة « الصديق » ولا ترد لاربابها ادرجت ام لا وعنوان الادارة بالفرنسية هو هذا :

7 , Rue de la Lyre, 7
ALGER

الجزائر يوم الخميس ٢٧ من ذي القعدة الحرام سنة ١٣٣٨ ** قلمي لسان ثلاثة بوادي * ديني ووجداني وحب بلادي ** الموافق ١٢ اوت سنة ١٩٢٠ م

2 août 1920


بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم على نعمة التوفيق لابراز هذا « الصديق » . ونشكرك على فضل رعايتك الدائمة المتصلة سد كل هول بحيق . ونستمنحك الثبات في العزم والعزيمة على الرشد حسن القضاء وبغية التحقيق . ونطلب من حلمك الذي وسع اكوانك بسط الرحمة النافعة على مجموع بشريتك الانسانية . وهداية قلوبها الى مهم مغزى بروزها من لمات الحرمان الى نور العرفان بتاثيراتك الاحسانية . ونسال من محض فضلك القدسي ان تنبه عزائم لادراك حقائق الصدور والورود . وايقاظ الهمم لطرح اغلال تكاسل والجمود . وان تتقبل منا هذه المعذرة الكفيرة الواهية . وتعتبرها كاملة كافية . بان الظروف مثلها ضيقة والاسباب غير وافية . ونصلي ونسلم على الواسطة عظمى في تهذيب الاخلاق وتزكية النفوس . ونور الحياة الابدية الدائمة سير الاكوان وسبح الشموس . سيدنا مولانا محمد بن عبد الله المنصور بالصديق والفاروق . والقائم بتبليغ امر الله من دحض الغي والبغي والكفر والفسوق . صلى الله عليه وعلى عترته واله واصحابه . ومن اقتدى بسنته ومال بدين القلب والقالب الى جنابه .

اما بعد فان الحوادث تتتابع بعبرها . والعجائب مرت تترى بمدهشاتها . والظروف تصبح وتمسي وتطوي صفحات الايام والليالي على اسوا ما كتبته ايماننا المجرحة . ولقد احس كل مخلوق في هذا العصر بواجباته ، حتى الجماد ادى ما عليه وقام بتحريك الاته . وشعبنا على ما نعهده شعب جهل وغرور . وزيغ وفجور . وتقايد وفتور . كل هذا مقرر مسطور محسوس منظور . فحق لمدركه ان يتقهقر حزينا . ويتاخر مكسوف البال قنوطا لا يلوي على شي . لو ما هناك من الام وخز الضمير . وواجبات فرضها السميع البصير . فما تسمى لاكبر صحيح المبدا ان يقلع عن تذكرة وما وسعه الخنوع بجبروت الاعراض والاهواء وتهديداتها العاتية . بل ما حلت اوقاته وساعدت احواله لقد البسر الجدلي الجاري الذي ذهب بالشعب الاسلامي وشتت صلاحيته ولاشى قوميته لاوهو تيار فشو المنكرات واضمحلال النفوذ الديني من القلوب وفساد المعتقدات وسقوط الاخلاق والجهل بصلاحية الوجود وتفرق الكلمة وانتشار داء الحسد والبغض والتنافر في كافة اجزاء القومية وذهاب الثروة العامة بتواكل الفلاحين والتجار وعدم درايتهم بالسبل النظامية والطرق العلمية والاسباب الاجتماعية الاقتصادية لتثبيت دعائم ثروتهم الخاصة والعامة . هذا قليل من كثير من اوصاف ذلك التيار الهلكي الذي لا يقاومه مقاوم ولا يستطيع ان يرده راد لان وراءه قوة ارادية فعالة تمده . ونفور من قلوب الشعب لا يصده . وتلك نتائج ما كان اوعدنا الحق تعالى في محكم كتابه اذ لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم .

وبما ان العبر قد توالت وتجسمت في مخيلة كل انسان وظيفة التذكير شاغر متداعي الاركان فقد تحتم على كل مذكر - شرعا وطبعا - ان يقوم بواجبه حتى النهاية نحو الملة والقومية والحكمية ايضا لاسيما وان الزمان قد دار دورته واحس كل عدد من نفسه ميلا طبيعيا الى تحسين مركزه وتنمية مصالحه وقد اصبحنا بواجهة وقت توسعت مباحثه بقدر ما ضاقت معايشه وتشوفت شعوبه بداعي سنته وفطرتها الى روح حياته ورامت النهوض الى سابق عزها ورفيع مجدها .

فلا غرو - والحالة هذه - اذا تجشمنا المشاق والاتعاب وتحملنا الاثقال والانصاب لاداء الواجب نحو ملتنا السمحة وقوميتنا الاسلامية وجامعتنا الملية وقمنا باصدار هذه النشرة العربية خدمة للمصلحة العامة والفائدة العايدة على الانسانية كافة وسمناها باسم ذلك الرجل العظيم ذي القدر الرفيع في اعتبار الدين بعد النبيئين والمرسلين اول من صدق الفاتح الخاتم صلى الله عليه وآله من دون العالمين نعني سيدنا ابا بكر الصديق الخليفة الاول رضي الله عنه وارضاه - تخليدا لذكره وتشويقا لما صنعه وتعظيما لقدره وجعلنا اسمه عنوانا لهذه النشرة المباركة . وعريكته المشهورة عريكة لين ولطف ولا عجب اذا ذهبنا فيها من وجهة التحرير والتعبير مذهبنا المعروف من بسط النصيحة للشعب والوعظ والتذكير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة الى التعارف واقامة نصوص الدين على اشكالها المودعة في كتاب رب العالمين وسنة سيد المرسلين والحث على تهذيب الاخلاق وترقيتها الى اقصى غايات الانسانية الحقة وانهاض

الملحق رقم (8):

**العدد (1) من جريدة " الصدّيق " :التي أصدرها عمر بن قدور الجزائري مع محمد بن بكير التاجر 12 أوت 1920 بمدينة الجزائر**



# الفاروق

• اللهم اني اسالك ان اوتي نعلم واقضي بحكم ولدالك العدل في الغضب والرضى •

لمن يسمى لبنان ثلاثة نزادي • ديني ووجداني وجنسي بلادي

الجزائر في يوم الجمعة ٢٥ محرم الحرام ١٣٣٩ الموافق ٨ اكتوبر ١٩٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم افرغ علينا من عنايتك ما تستدرك به الامل • وتستفرغ المجهود عن ثبات لا من وجل • وامنعنا سبحانك من تتبع خطوات قوى الزلل • ومن رميك ايمانهم بالعلل • ومداركهم بالخلل • واقط اللهم من ثغو الطاغين قناع الشكف • وامنن على المدارك المفيدة بتحاول ساعة العنق والفك • لك الحمد على نعمك التي اتممتها على الانسان • واصبح بها صاحب القلم والبيان • يفرح في الارض دعوة وسلطان • ويفتك بتلك البالغ للحيوان • ويزاحم الطير بجناح وجدان • ونشكرك على تلك الحياة الجديدة بعد الموت وكذلك الغد ور • ويستحث دوامها لدى الورود والصدور •

وان تقبلها منا معذرة تعيذنا بها من كل محظور • وتمنعنا من اخطار كل محذور • وصل اللهم على رسولك الكريم الذي اصطفيته • وبالحق ارسلته • وعلى آله واصحابه ومن بالاحسان لجنبه • وعلى من اتبع سنته وخصوصيته

وبعد فبعون الله تعالى وتوفيقه قد نبدي الفاروق • في صورة مجلة اسلامية علمية تهذيبية اخلاقية اقتصادية اجتماعية اسبوعية • بعد معاناة الاهوال واقتحام الاخطار • وتحمل المتاعب والانصاب والاكدار • كل ذلك تاييدا لمبداء اداء الواجب نحو الملة السمحة والجامعة الملية • ولا غرو اذا ذهبنا فيه مذهبنا الاعتدالي المعروف من بسط منهجه للنقد بتبيين الزائف والحيوية

من الوجهة الدينية والعلمية والاخلاقية والاقتصادية والوعظ والتذكير من جهة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة الى الفاروق والعمل بنصوص الدين على التي لها الموضح في كتاب رب العالمين وسنة سيد المرسلين (صلى الله عليه وآله) • الحض على تهذيب الاخلاق وترقيتها الى اسمى درجات الانسانية الكاملة وسد ديانة المعذرة التي تلتقي بها وتكل الحساب •

وواجبا نتعهد به لاجل العقاب • ولعلنا نلاقي من قرائنا الاقدمين والجدد الذين التعاضد الارتياح العام • والاه وليس جميعا في ذلك التوفيق سبحانه •

(صاحب الفاروق)

العـــدد الاول مـــن " الفـــاروق "

السلســلة الثانيــة 1920

الملحق رقم (**9**):

**العدد (1) من سلسلة (الفاروق) الثانية في شكل مجلّة أكتوبر 1920 مدينة الجزائر**

جميع المكاتبات يجب أن تكون خالصة أجرة البريد وعنوانها باسم المدير ● ولا ترجع الرسائل لاربابها أدرجت أم لم تدرج ● وللإدارة التحرير أن تنقح من المنشورات ما يستحق التنقيح

المدير السياسي ورئيس التحرير ● الأمير خالد ●

# الإقدام

في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى ٢٠ ... في الأقطار الأجنبية ٢٥ ...

الإعلانات يتفق عليها مع متصرف الإدارة

● عنوان الإدارة ● نهج لـوليي عدد ٥ بالجزائر

● جريدة الاتحاد الفرنسوي العربي سياسية علمية اقتصادية تصدر يوم الجمعة من كل أسبوع ●

الجزائر في يوم الجمعة ٢٢ صفر الخير سنة ١٣٤١ هجرية — الموافق ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٢ مسيحية

## تحت قوة العصا

إن البعض من رؤساء البلديات ومديري الدوائر (ادمنيسترانورات) أكدوا لنا أن إدارة متصرفية الجزائر (لابريفيكتور) أعطتهم الأوامر المشددة ليساعدوا المرشحين بني نعم نعم (وي وي)

والجرائد التي هي تحت سلطة المتصرف تبشر بعدم فوز الحزب الخالدي.

ونحن نقول لو يترك المتصرف الناس تنتخب حسب أفكارهم حرة بان الرأي العام يتحقق كيف تنعكس الانتخابات الأهلية في عمالة الجزائر

● لا وجوب للافتخار ●

من البديهي انه لما تكون القوة الفتاكة بيد إنسان يسهل عليه أن ينتصر على من ليس بيده سلاح ما. إن انتصاراتنا العديدة التي احرزنا عليها بانتخاب الرأي العام الحر قد جعلت المسيو لوفيبور الذي لا يقبل في مجلس العمالة إلا ﴿ بني نعم نعم ﴾ الخاضعين لادنى إشارة من سيدهم ومولاهم.

نعم ان مرشحي المتصرف الخمس قد فازوا من بعير انتخاب حر بل بالتهديد والترهيب والوعيد وقد كنا متحققين بنيل ثلاثة مناصب على الأقل ولكن المتصرف أراد أن يأخذ الثار لانتصاراتنا العديدة عليه وقد توصل لمرغوبه بوسائط لا تكاد تذكر والمسألة خصوصية بها المتصرف ليرفع قدره المنحط بأي ... كان

كنا نظن أن الموظفين وخصوصا المتصرفين مطالبين بالسعي لاحترام القوانين وإذا الأمر عكس ذلك إذ يوجد من بينهم من هو المبتغي بهتكها

... ان نعلن جهارا بان الرأي العام الأهلي ... سياستنا الحرة للأفكار والعمل على نجاة وانقاذ اخواننا من النير الذي يريد المتصرف ... فهم تحته مع منتخبيه (بقتحا) المستحسنين ... للضعفاء والكاذبين بجنسيتهم

لا تتفكر أيها المسيو لوفيبور ان عدم فوزنا ... يسار ... لكم ... خلاص انكم خادمون ... سياستكم الشخصية ... مصالح ... وما ... ان ... مدافعة عن الحق والعدل ... أنتم ... عدم احترامكم لقوانين الدولة الجمهورية المتكفلة بإدارة أمورنا ...

وإن كانت طفيفة في مقابلة ما أديناه من التضحيات وإن سياستكم الشخصية لا تصدهم عن الثقة في فوزنا وعن الأمل في قدوم أيام سعيدة

أردتم أم لم تريدوا لقد وقع تبديل في أفكار أبناء جنسنا. وإن كان قصدكم حقيقة خدمة وطنكم واجتهدوا لكي يكون هذا التبديل معه لا مضاد لمصالحه. وإن انتصاركم المضحك لا يحط من قدرنا ولا ينقص أفكارنا السامية في تحرير الأهالي بل خلافا لظنكم أنها تزداد قوة ولا ينقص إلا قدركم وقوتكم الضاغطة. تنظرون بكل سرور رجوع خدامكم إلى المجلس العمومي وهم يمتثلون لأدنى إشارة من سيدهم. إن رفقاءنا الفرنسويين سيطلعون ضد مصالح منتخبيهم أن حزب ﴿ بني نعم نعم ﴾ يؤيدون إدارة المتصرفية في جميع مطالبها.

يوجد الآن أناس تربوا على الفكر الحر في المدارس الفرنسوية وفي جميع الصناعات لا بد وأن يكون كما يقول المثل العربي ﴿ يوم لك ويوم عليك ﴾. نحن مسلمون متوكلون على الله وخاضعون لقضائه وقدره والرجاء وصابرنا ومداومتنا على العمل هما قوتنا ومن أراد إخفاء نور الشمس بالغربال فقد ضيع وقته سدى

نحن متوكلون على الله وعلى الحق والعدل ولا شك في فوزنا القريب العاجل ضد سياسة الجبر والحنق التي هي سياسة المسيو لوفيبور المحقود

الأمير خالد

مطبعة ● الإقدام ● الخصوصية

يسرنا أن نعيد قراءنا الكرام بان لنا الآن مطبعة خصوصية مستعدة لطبع جميع ما يطلب منها مع الاتقان ...

## غفلتنا

﴿ ما أكثر العبر

﴿ وأقل الاعتبار

﴿ علي بن أبي طالب ﴾

في الإنسان آفة النسيان فما برح ضررها يحتوشه وبلاؤها يملكه ووحشها يفترسه وسلطانها يحكمه ويسوسه. لقد أصبح بها متشبثا بالغفلة متعلقا بالأهواء منغمسا بهيئة خاصة وأخلاق فاسدة ضارة غير نافعة. ومن العجيب انه لا زال يحسب نفسه انه ما خلق إلا في أحسن تقويم وانه يسير على صراط مستقيم وانه لعلى خلق عظيم. حسب ذلك يتحتم عليه أن يتكبر ويتجبر ويفسد في الأرض ظنا منه انه من المصلحين. ولو أنصف الإنسان نفسه لاصغى إلى الحق غير ناكص ولا مشمئز فيفهم من الأمور السمين من الغث ويتحرك على محور الإخلاص غير معاند ولا أواه. هنالك يحصل على الخصال الكاملة والأخلاق الحسنة ويمتاز عن بقية الحيوان الذي يدب على الأرض بحقيقة الإنسانية لا بلفظها فقط، وما ذلك عليه بعسير لو كان من المعتبرين المتذكرين الذين يفهمون من الحوادث عبرها ولا ينزعون إلى وسواس الشيطان الرجيم.

كيف يكون حال الإنسان لو يدري قدر الشطط الذي ذهب مع تياره كل مذهب وكيف تطيب نفسه لفهم أسرار الوظيفة التي خلق لاجلها والتي استغنى عنها بعدة أحوال هي مهلكة غير نافعة ومفسدة غير مصلحة ؟

إن المسلم إذا طبق مثلا أوامر دينه مع ما هو فيه ... الموجود لا مرين على طرفي نقيض ولا بصر ... من وراء سيره الخبيث وتعمده الشديد كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه. ولا ندري هل الحين نفسه طول مسافة المراحل الكثيرة التي قطعها في سيره الخبيث بعيدا عن أوامر دينه ونواهيه واتباعه للمنكر ودواعيه.

لا كم صرخ الصارخون ووعظ الواعظون وذكر المذكرون ونصح الناصحون وهذا المسلم لا يفتأ يهز رأسه لهذا كل ذلك ثم يذهب يسعى وراء أهوائه وزخرف أحلامه؟ الله أعلم إنه ما دام قلبه يتقلب بين جنبيه وعقوله ما دامت النزوات الضارة تنزعه إلى ما ينوق لهذه الوقتية حلوة غير حاسب لمغبة تلك اللذة حسابا حتى تدهمه القارعة الكبرى

ما عمل وشر ما صنع ولبئس المنقلب ذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

نحن إذا نظرنا إلى حالتنا من هذا القبيل نجدها حالة محزنة بتتابع وتتأسف ولكن ما ذا أفادنا وما ذا يفيدنا ذلك ؟ وما ذا افادت أقوال السابقين حتى يستطيع اللاحقون أن يقولوا ويعقدوا على قولهم الآمال ؟

ما ذا نستطيع أن نقول والآذان قد صمت رغما من أن الحوادث أنذرت وحثت والكوارث بلغت وأتمت والملمات تمكنت وأذلت والأخلاق الدنيئة ملكت واستبدت.

لا لا إن ذلك بحول الله تعالى وحسن عونه لا ينال من آمال المخلصين مراما ولا يمس من جوهر همهم حطاما وما يعبأون قط بأعراض المعرضين وأغراض المغرضين. ومن أظلم ممن آتاه الله عقلا صحيحا يضن بفضله على العباد ويخلف الناس بواد واعتزل في واد. وإن كان ثمة من يرى في طريقته المعوجة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فليسوا والحالة هذه ممن يمنحونه آيات التبجيل والتبشير بل ممن يقدمون له مخلاة الشعير وهو بها جدير وما يقولون إلا وهم يعلمون أن الذي يستمع القول أندر من الكبريت الاحمر وتلك قضية معقولة كقولنا اثنان نصف أربعة وخمسة نصف عشرة.

لننظر ما نحن مقبلون عليه؛ إنا نجد كل شيء تلقاءنا يذكرنا باننا في غفلة مع الخسر الكبير.

كل شيء ينبهنا بأننا لسنا من المصلحين الصالحين الذين كتب الله لهم في الزبور أنهم يرثون الأرض ولا من المؤمنين الذين يستحقون أن يستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وإنما هي كل وقت لنجني على قوميتنا وأخلاقنا الحسنة وقواعد ديننا الشريفة بالنبذ والهدم والنفس. وعلى كل مهيع تصيح بنا العبر وتصرخ علينا المواعظ أفنحن إذن واعون ؟

لو وعت أسماعنا لفقهت قلوبنا وعقلت أذهاننا وتبصرت بصائرنا فعفنا بعزيمة واحدة واستعرنا الله بصدق وإخلاص عما نحن فيه بعمل صحيح مرتبط بعرى التضامن والتعارف والتعاون بدل ما نحن فيه من الشقاق والتخاذل والتقاطع وكذلك حق القول علينا ولكننا لا نفهمه ذلك كأننا لم تعمل بعد عمل من حقت عليهم كلمة العذاب في الغابرين.

أما وربك إن السقوط لم يأخذنا بغتة كما أخذ قوم هود وصالح لما عتوا عن أمر ربهم وتلك رحمة من ربك وهي ...

... عبرنا وعقد قلوبنا المواعظ كما تبعه اللهو للهو واللعب ولله الأمر من قبل ومن بعد.

﴿ ع ﴾

## في سبيل محاربة البدع

### في حضرة السلطان محمد السادس

قرأنا في إحدى الصحف الشرقية في الشأن إفادات هامة رأينا أن نعيد بها قراءنا عبرة وذكرى:

لم تكن الزوابع الهائلة والعواصف ... ولا الحوادث المؤلمة التي حافت بالعالم الإسلامي عموما وبدولة الخلافة خصوصا لتحول ... يجيش في صدر خليفة المؤمنين وبين إصلاح ... الدينية وشعائره القومية. رأينا جلالته بعد ... الهدنة المشؤومة أعمالا صالحة وآثارا خالدة ... زائدا وغيرة متأججة على الدين القويم والملة ... المحمدية بأوامره العالية بترغيب الزواج والحث على التزوج ومنع العزوبة الهادمة لكيان الشعوب العاملة على تلاشي الأمم واضمحلالها ... أرادت جلالته أن يقود أمته وأن يسوس شعبه حسبما أمرت به الشريعة المطهرة ونطق ... الدستور السماوي والقرآن الكريم ... المجاهد وأمته الغازية التي ... وكثير من أبنائها ... بتزويج الأولاد على الطريقة الشرعية ... التغالي في المهور والتباهي بإقامة ليالي ... والطرب وجعل لذلك هدايا وطربا ... ونياشين تعطى لأول بطون من يتزوج ... المنوال السهل والنموذج الحكيم المفيد. هذا ولا تزال رغائبه الإصلاحية جائشة عاملة على تقويض هياكل البدع وهدم أركان التطرف والتبرج ... جانب السوء الذي لا يتفق مع روح الشرع ولا تتمشى مع المدنية الحقة التي برزت ... منذ أربعين وثلاثمائة وألف عام.

وقد ليى بعض هذا نداء ضمائر العلماء ... شعور السامي وحكومته العليا ... حكومته هذا البلاغ التركي بجريدتها ... جرت بعض السيدات المسلمات في الآيام الأخيرة على المغالاة بملابسهن الخارجية وعدم الاعتداد بالآداب القومية ... ما أمر الشرع بحجبه من زينتهن وجسمهن ومع أن السيدات الحق في انتخاب ولبس ما يلائم أذواقهن في داخل بيوتهن على الرداء الخارجي يجب أن يكون ... بشكل محتشم ويوافق الشرع والأدب الإسلامية وسائر الأسباب التي يجب ... إظهارها ... عن التعامل ...

الملحق رقم (10)

صحيفة " الإقدام " الصادرة بالجزائر

وبها مقال له بإمضاء (ع) حيث كان محررًا بها في 1921 – 1923

الجزائر وتونس وفرنسا والمغرب
عن سنة ١٢ فرنكا
وفي الاقطار الاجنبية
عن سنة ١٥ فرنكا

# التقدّم

اللسان الجمهوري للاتحاد الاسلامي العربي

يجب ان تكون خالصة اجرة البريد ومعنونة بعنوان الادارة
نهج صابة عدد ٢ بالجزائر
عند السيد ابن التهامي

زائر في يوم الاثنين ٤ ربيع الانور سنة ١٣٤٢ هجرية — ﴿تصدر مرتين في كل شهر﴾ — الموافق ١٥ اكتوبر سنة ١٩٢٣ ميلادية

## نفثة مصدور

بني وطني لا تيأسوا وانهضوا بنا
لنيل المعالي فالكمال لكم ذخر
هبوا أفيقوا وامتطوا غارب العلى
فللسركرات اذا املكت العسر

اني قد احتسب وبأي لسان أصف تلك الحالة التعيسة التي بلغنا اليها معشر المسلمين . بالله لقد كل اللسان ووقف القلم عن الجواد . كان التعبير يكفي لو كان الامر منحصرا في جزئية او جزئيات كيف حقيقة هذه الى الويل والدمار حسلا بنا بكل معنى الكلمة ومع هذا فلا صالح واعظ ولا عالم مرشد ولا ذو امر حازم . ضاقت الهمة الدنيا علينا فيشفه الرثاثة اما مالنا فلا نسأل عما هو به . وربما من هذه العقبات الكؤودة [illegible] القساء من الكليمات ارجو من الناظر ان شاء الله فاقول

ان الانسان اذا نظر نظرة المنتقد العشر حالة الاسلام والمسلمين في تلك العصور السالفة وما بلغ اليه المسلمون من المجد والعظمة ثم احرق في الحالة الحاضرة لاشك ان نفس ياخذه والحيرة تستولي عليه غير انه اذا ظهر السبب بطل العجب ولذلك فاني اخرج للاسلوب متعينا والتصريح بالداء اذ بالداء يعرف الدواء

ان كل المحن التي حلت بالاسلام والمسلمين ثابت في الكلية ناشئة الا من امر واحد مهما اختلفت الالفاظ والتعابير عنه أما معناه وحقيقته المنحصرة فواحد وهو الخروج عن الكتاب والسنة وان شئت قلت هو الجهل في الامة الاسلامية وبالضرورة ما فشا الجهل في امة الا وحل بها من النكبات ما لا يوصف مما هو واضح انه ما ساد من ساد الا بالعلم . وكذلك الامة الاسلامية بلغت ذلك المجد الا بالعلم . وفي علمك ايها المسلم النبيه ما كان عليه ذلك العصر العلم والدين عصر الخلفاء الراشدين من الحيثية العلمية والمدنية الحقة وكذلك ما دام الملوك الصالح بعد عصر الراشدين من بث الدين وتحطيم الخرافات والجهل . ذهبت تلك العصور وحصل بعض الفتور فنصب الجهل بخيامه وظهرت البدع والفساد في الارض بما كسبت ايدي الناس وجنت الحكومات بشؤم ذهب بالامة والدولة والكتاب والسنة وصير المسلمين في الاذلين محققين بهذين اين ما حلوا واين ما وجدوا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولقد اخذ الله على العلماء ميثاقهم ان يبينوا للناس هدى ربهم فهم الان من الوفاء بالميثاق محرومون و بالحق لا ينطقون . فالى متى والتجاهل دأبهم والخمول شأنهم أليس الامر بالمعروف شأن فيهم أليس تغيير المنكر واجبا عليهم . هلموا بنا معشر العلماء فلنجتهد ولنطلب ولنقصد ازالة المنكر من ربوعنا ولنبث العلم في ديارنا . فلا رقي الا بالعلم ولا مجد الا بالعلم انظروا الى مصر كيف تمنح لاهلى المناصب وانظروا الهند يناضل الى آخر رمق وانظروا سوريا وطرابلس الغرب وتونس . فعلام نحن لا تهزنا نخوة عربية ونهضة دينية .

بني وطني سرحوا انظاركم وجهزوا عقولكم وتفهموا حالة الاسلام الحاضر وقيسوا بينها وبين الحالة الغابرة فلعلكم تهتدون الى سبب فقدنا لذلك المجد ولا أرى سببا سوى ما ذكرته . بني الاسلام أين مجدنا واين علمنا واين ملكنا واين ذلك العصر الذي كاد ان يعم الاسلام فيه الكرة الارضية لولا الخلاف المشؤوم . اين ذلك السؤدد اين ذلك التراحم اين ذلك الرعب الذي كنتم تصبون فيه على اوربا وهي منغمسة في غياهب الجهالات . اين اين بني الاسلام بني وطني اني لا اجد دواء غير بث التعليم بين الكبير والصغير بين الغني والفقير علموا اولادكم وهذبوهم واجعلوا التعليم اجباريا فلا حيلة مع الجهل علموا اولادكم كما يريد الله علومهم كما علمنا محمد عليه السلام . لو كان التعليم اجباريا ما كان الجهل هو كان لتعليم اجباريا لكان ذلك الفقير الصعلوك عالما لو كان التعليم اجباريا لعلم الكل ما يجب عليه نحو دينه ووطنه وامته . والله نصير العاملين .

﴿ جسور ﴾

## مسجد باريس

جاء من العاصمة الباريسية ان المسجد الذي سيتم بناؤه وتشييده بها قد حل امره محل العناية والاهتمام عند بعض امراء الممالك الاسلامية فهذا جلالة سلطان المغرب مولاي يوسف قد تعهد بجميع مؤثر تأثيث ذلك المسجد المبارك . وهذا سمو الامير الجليل سيدي محمد الحبيب باشا باي صاحب المملكة التونسية قد تعهد بان يدفع من جيبه الخاص جميع ما يلزم من الجزائر لصنع منبر ذلك المسجد لا يختلف في شيء عن المنبر الموجود في جامع القيروان

وقد كان لما ابتكرت الحكومة التونسية من انشاء مسجد في عاصمتها الكبرى احس ووقع في نفس الامير حسين تلك الحضرة وقد يجن على مواطنه تحقيق هذا المشروع بمال الخير للعابد وذلك انه شرع على هذا المسجد بقطعة سيضعها منزل اسلى تقريبا من استار الكعبة القديمة الموجودة في جملة ما عنده من مجموعة الاثار الشخصية النفيسة والذي زاد هذه القطعة البركة اهمية وقيمة وبهاء ما هو مطرز عليها بالذهب من آيات القرآن الشريف

وقد سلم طالب الخير هذا الاثر النفيس الى وكيل فرنسا السياسي العام في تونس حدة عبر انه بناء على ما لهذا الاثر من الصبغة الدينية سيبقى في ذلك القصر الى ان يأتي رسول مسلم خاص وينقله الى باريس.

## جوائب خارجية

## احوال مصر

ورد من القاهرة ان الصحف بها علقت شروحا ضافية حسنة على التصريحات التي افضى بها رئيس مصر سعد زغلول باشا لمحرر جريدة « الدايلي هرالد » في مدينة أليس حيث يتداوى لان الزعيم المذكور وقد اشارت الصحف الى غزارة معنى هذه التصريحات المهمة التي جمعت في بعث ماست

وقد ابتدأ الرئيس المصري تصريحاته المذكورة بقوله انه يود الرجوع عاجلا الى مصر ولكن الاطباء اشاروا عليه بالانتظار ريثما يستعيد جميع قواه . ثم عبر سعد زغلول جليا عن دهشته من تطويل مراسل جريدة « التيمس » اذ يوجد من هذه الاقوال ان رجوع الرئيس المصري يثير ارتباكا في الدوائر العليا ببلاده

وقد اكد الرئيس انه لا يوجد ادنى تفاهم بين ملك مصر وبين الوفد وان المخاوف التي يشير اليها مراسل جريدة « التيمس » لا اصل لها من الصحة لاسيما بعد التصريح الذي القاه الزعيم باعتباره اثناء شهر يوليو لاجل الحرب منذ بحال طارئ بعد وقال في ذلك التصريح انه ينبذ كل علاقة مع عباس حلمي خديوي مصر السابق وعبر فوق ذلك من عظيم تعلقه بالعائلة المالكة في مصر ولاسيما الملك فؤاد الاول وولي عهده الامير فاروق

ثم قال الزعيم المصري في ختام حديثه مع محرر جريدة « الدايلي هرالد » بانه يلذ له ان العرض من هذه الحسائس احداث الشقاق والتنافر بين الوفد والسدة الملوكية اذ لا يمكن حل فهم مراسل جريدة « التيمس » على غير هذا المحصل

وجاء منها ايضا اخبروا ان حضرة الزعيم الكبير الرئيس سعد زغلول دخلها يوم ٢٢ من الشهر المنصرم فلقي من الامة المصرية استقبالا فائقا لم يعهد له مثيل وقد اصطف المصريون في الشوارع التي مر منها الزعيم المحبوب وما مر من جهة حتى ملأ الهتاف علوا السماء بصورة اثرت على الرئيس تأثيرا محسوسا

هذا وقد صرح سعد زغلول بلقب : قبل مغادرته للنواب الافرنسي بمدة وجيزة ببلاد الفرنسية وانه عازم على اعادة الكرة من حيث انتهى مع مكتوبين حانه وما وما له من بقية القوى في سبيل استقلال مصر وتخليصها من ربقة الملتصقين حتى تنال استقلالا حقيقيا لا تشوبه شائبة وليس عليه مسحة من تداخل الاجنبي في شؤون البلاد الداخلية والخارجية

## تركيا الجديدة

اصبحت تركيا الجديدة بعد جهادها الطويل في سبيل الاستقلال دولة حرة بكل معاني الكلمة ونالت بفضل جهادها وصرفها الله ما لم تنله دولة من الدول التي كانت محالفة لها اثناء الحرب الكبرى العالمية وقد انجلت من الاستانة والبواخر جيوش الحلفاء وقبل الانجلاء احتمع مراد جيوش الحلفاء وصلاح الدين قائد العاصمة الحمايبة وانتهى هذا الاجتماع امضى مراد الحلفاء بصورة نهائية في ورقة تقتضي تسليم العاصمة لاربابها وكذلك البواخر والذخائر التي بها الى الدولة العلية

وقبل ان يبحروا ذهبوا الى باهكتاش وحيوا الراية الحماية امام سراية طولة بحجة في سراية الخليفة الاعظم

ويوم السبت ٦ اكتوبر الجاري دخل الجيش الملي الظافر الى الاستانة في احتفال رهيب لم يعهد مثله في تاريخ المملكة العثمانية

## تركيا جمهورية

جاء خبر من الاستانة انه سيقع التصريح في العمل الاول من القانون الاساسي الجديد بان نظام الدولة العثمانية قد اصبح نظاما جمهوريا وان مدة انتخاب اعضاء المجلس الملي الديمقراطي اربع سنوات وبدوم دور جلسات هذا المجلس من اربعة الى ستة اشهر كما انه سيعين المجلس الدكتور على القاعدة الرسمية للجمهورية الجديدة

جاء من اخبار اطه ان العرب التركي الجديد فيها المسلم . حصة من الذهب تبلغ قيمتها ٢٠٠٠ جنيه

نعت جمعية الاتحاد الاسلامي في طهران محي الدين بلقب اسير ورفيقها فيها بالاتي بعض العلماء الحاضرين في تشكيل الدعوة حضلة باسم العسارية وان اتوا فيها بمسائل الاتحاد الاسلامي ووجوب نفع كل طالب على انه دولة اسلامية وان تعاونوها بالمال والرجال الواجب لذلك خصوصا الدوام عظمة قصر الاسلام وتاييد بيانه ... واجاب المدعوين وجلهم من افاضل علماء الشيعة ومفكريها واعيانها وتجارها وذوي المراتب واصحاب الكلمة النافذة بتاييد اقوال الخطباء

وتكلم بعد ذلك محي الدين باشا كما اصحاب الامة الاسلامية وعن الحركة المباركة القائمة اليوم في تركيا والافغان وايران والهند مؤيد هذا الاتحاد الاسلامي واثنى على القائمين بهذا العمل المبرور

## ادبيات

تهذب الامر وباطل الرأي ما ملكه
فان تولت فبالاشرار تنقاد
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتنى الا له عمد
ولا عماد اذا لم ترس اوتاد



الملحق رقم (11)

صحيفة " التقدّم " الصادرة بالجزائر، حيث كان محررًا بها سنة 1923 وسنة 1924.

السنة الاولى عدد ١٨

ثمن النسخة ٠٤٠ سنتيما

الجزائر يوم الجمعة ٢٩ رجب ١٣٤٥ وفق ٢٨ جانفي ١٩٢٧

قيمة الاشتراك

في القطر الجزائري عن سنة ... ٣٠ فرنكا

في تونس والمغرب وطرابلس ... ٣٥

في سائر الاقطار ... ٤٠

الاعلانات

في الصفحة الرابعة للسطر الواحد فرنك

# وادي ميزاب

جريدة اسبوعية تصدر كل يوم جمعة

المكاتبات

OUED MZAB

Rue de la Lyre 59, Alger

CHÉQUES POSTAUX 84 - 30

## هل يمكن للبلاد ان تتطور؟

### النظرية الاولى

التطور الادبي

### النظرية الثانية

### التوضيح الاول

تطور في الوطن

### التوضيح الثاني

التطور خارج الوطن

الملحق رقم (12)

صحيفة " وادي ميزاب " الجزائرية، والتي عثرنا بها على آخر مقالاته سنة 1927.

# الفهـــرس

## الفهـــرس